

الفراعنة إمبراطورية الرعامسة

تأليف: كلير لالويت

ترجمة و تعليق: ماهر جويجاتي

1280



يروى هذا المجلد تاريخ مصر من خلال النصوص المصرية القديمة، إبان الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، وفي عهود عظماء هذا العصر، من أمثال سيتى الأول ورعمسيس الثانى ورعمسيس الثالث، وتأثيرهم الإيجابى على الحضارة الإنسانية والنظام العالمى. كان المصرى القديم يحترم حياة الإنسان، وإذا اضطر أحياناً إلى اللجوء إلى العنف والقسوة، فيما شنه من حروب دفاعية، فإن هذه الظاهرة كانت فى كثير من الأحيان مجرد عنف لفظى هدفه تدمير الأعداء تدميراً سحرياً. فقد كان المصرى محباً للسلام حتى وصفه بأجمل العبارات، كما أحسن معاملة الأجراء وأغدق عليهم بكل ما لذ وطاب.

ولا تقتصر عظمة ملوك الرعامسة على ما خاضوه من حروب، بل على ما شيدوه من عمائر؛ رغبة منهم فى قهر الموت وقوى الخواء والفوضى التى تحاصر الوجود. كما اهتموا بترميم آثار أجدادهم والحفاظ عليها، فكان أحد أبناء رعمسيس الثانى أول عالم مصريات فى التاريخ ومؤسس أول مصلحة آثار.

ويقدم الكتاب مقتطفات من أجمل الحكايات، وقصائد الشعر الغنائى؛ تعبيراً عن حب المصرى القديم للحياة والجمال.

الفراعنة ●●●
إمبراطورية الرعامسة

المركز القومي للترجمة

إشراف، جابر عصفور

- العدد ١٢٨٠

- الفراعنة ... إمبراطورية الرعامسة

- كلير لالويت

- ماهر جويجاتي

- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

L'Empire des Ramsès

de: Claire LALOUETTE

World copyright © LIBRIRIE ARTHÈME FAYARD, 1991

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤-٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

E. Mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-27354526 Fax: 27354554

الضراغة...

إمبراطورية الرعامسة

تأليف : كلير لالويست

ترجمة وتعليق : ماهر جويجاتي



بطاقة فهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

لالويت، كلير

الفراغة: إمبراطورية الرعامسة / تأليف: كلير لالويت، ترجمة وتعليق: ماهر

جويجاتى. ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٧

٦٣٦ ص؛ ٢٤ سم

١- مصر القديمة - تاريخ

٢- الفراغة

أ - جويجاتى، ماهر (مترجم، معلق)

٩٣٢

ب- العنوان

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٦٩١٧

الترقيم الدولى: 4-573-977

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

إهداء

إلى الأسطول المصرى

الذى خاض أولى معاركه المظفرة

فى عهد رمسيس الثالث.

ماهر جريجاتى

المحتويات

17	- تنويه للمترجم
19	- توطئة
21	- المقدمة
35	الباب الأول: تاريخ إمبراطورية
37	الفصل الأول: الإمبراطورية خيار لا مفر منه
	أولاً: بحث عن مصائر الإمبراطورية
	مملكة يسودها الهدوء
37	أول أزمة المملكة
40	الملك - الإله
41	مليويوليس وألوية رع
43	العناصر الجديدة للسلطة
46	الحملة والتجارة
51	الأهرامات والمسلات
54	الدفاع عن المملكة
54	الثورة
56	من أجل حماية السلطة الملكية
59	الحروب الخارجية وأول المواقع الاستيطانية
61	طيبة وأمون وأوزيريس في أبيدوس
63	المرحلة الأولى من الفتوحات القصية: إمبراطورية التحامسة
63	الغزوات والاضطرابات في الشرق الأدنى
64	التحرير على أيدي ملوك طيبة

66	العالم الجديد أو ضرورة تأسيس الإمبراطورية
67	الفاثون
72	الأيدولوجية الإمبراطورية الأولى
77	الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية
84	عهد حور إيم حب، أو التمهيد لعصر الرعامسة
85	ثانياً: التوازن الهش في عالم القرن الرابع عشر قبل الميلاد
85	مملكة الحيثيين القوية
88	صعود القوة الآشورية وهيمنة بلاد بابل
89	الشعوب الآخائية ومصير طروادة
93	طُرق الهلال الخصيب وكبرى الأسواق العالمية من بلاد الرافدين إلى فينيقيا ..
96	الفصل الثاني: الحروب والملاحم
	أولاً: الرعامسة في السلطة
	رعمسيس الأول
96	أصوله
97	عائلة رعمسيس
98	رعمسيس الأول والآلهة
100	الصعود في اتجاه الشمال
101	الأب والابن، أو المشاركة في الحكم

103	ثانياً: جيش الانتصارات
104	حرفة الجندي والفرق الأجنبية
105	سلاح المشاة وسلاح المركبات
107	سفن الملك
109	شخصية الجندي
109	جندي المشاة
110	البحارة
111	ثالثاً: سبتي الأول وإعادة الإمبراطورية إلى سابق عهدها
112	المعارك والانتصارات في آسيا
121	أخطار جديدة ناحية الغرب
122	تمرد النوبة
124	استعادة الإمبراطورية
129	ولي العهد: رمسيس
129	الابن الإلهي
131	المشاركة في الحكم
135	رابعاً: رمسيس الكبير
137	واجبات البر بالوالدين
138	من أجل عاصمة للإمبراطورية

142 زمن الأبطال - ملحمة قادش
153 الصراع المصرى الحيثى
157 معاهدة سلام وتحالفات قائمة على رابطة الزواج
157 الوفاق الودئى
163 حفلات زفاف الربيع
171 مرة أخرى، حفلات زفاف حيثية
173 الفصل الثالث: إمبراطورية الرعامسة والسلام المصرى
173 أولاً: فكر الإمبراطورية
173 عند حدود الأرض
175 من أجل روحانية عالمية
190 ثانياً: السلام المصرى
190 الثراء والازدهار
191 ضرائب جزية، إزعاج أم صداقة
193 التجار والرحالة
196 مناجم الذهب
201 بلاط الرعامسة وكبرى مدنهم
201 الملكات الثلاث
204 القصور والفيلات والحدائق
206 العائلة المالكة
207 أ- العرائس
213 ب- الحريم والمحظيات
214 ج- نرية كثيرة العدد

225	رجال الملك وكبراؤه
226	د- الوزراء في السلطة
235	هـ- العمد
238	و- بعض كبراء الدولة الآخرين
239	ز- العسكريون
245	ح- الأفارقة
254	الأعياد الملكية، وأعياد اليوبيل
262	المعابد والكهنة والأعياد المقدسة.....
262	الأماكن المقدسة، بنيتها الهيكلية وفلسفتها
272	الكهنة والشعائر الدينية
272	أ- رجال المعبد
276	ب- ترتيبات الطقس الديني
281	ج- كبار الأحرار وكهنة آخرون
294	الأعياد المقدسة
309	قرية بجوار النهر

319 ثالثاً: القوى الداخلية وأول التهديدات

323 الفصل الرابع: أمجاد الإمبراطورية وانحطاطها أو الدفاع عنها

323 أولاً: انتصارات مر إن يتاح

324	أخطار جديدة تهدد التوازن الدولي
326	مقدمات العام الرابع
329	الانتصارات الأولى على شعوب البحر
338	استعادة السلام، الآلهة والإمبراطورية

348	ثانياً: أمن مس المفتصب، وعودة سیتی الثاني
353	ثالثاً: الانحدار الأول، رمسيس - سى پتاح والملكة تاوسرت
359	رابعاً: ست نخت والآلهة يقتلون مصر
363	خامساً: رمسيس الثالث، أو آخر الامجاد
364	الملك المصطفى من الآلهة
366	الحروب ضد شعوب البحر
367	الاشتباكات العسكرية فى السودان
368	العام الخامس، شعوب البحر تشن هجوماً من جهة الغرب
376	العام الثامن، شعوب البحر تشن هجوماً من الشمال
382	العام الحادى عشر، هجوم جديد تشنه شعوب الغرب
385	الحفاظ على الإمبراطورية المصرية فى آسيا(؟)
389	نشيد الإمبراطورية فى مدينة هابو
393	العالم الشرقى الجديد، ومصر تستعيد سعادتها
399	ترتيبات خدمة الآلهة
399	الآلهة التى أنقذت مصر
403	ثروة المعابد
408	رجال الدين
410	بلاط رمسيس الثالث
417	الصعوبات والمؤامرات عند نهاية هذا العهد

ساساً: من رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادي عشر، الانحطاط البطيء .. 420

سلسلة الرعامسة..... 420

عهود بلا أمجاد 423

شخصيات سياسية ودينية 431

نهب المقابر الملكية وسرقتها 440

الأجانب في مصر 442

نهاية عصر الرعامسة وتأسيس نظام ثيوقراطي في مصر 443

445 الباب الثاني: الفراعنة الأباطرة، سماتهم وأعمالهم

447 الفصل الأول: الملك - البطل، أسطورة ملوك الرعامسة

448 أولاً: الصورة الشخصية للبطل

448 صفات الأمير 448

449 الجمال 449

450 الرجولة والقوة 450

451 المعرفة والزكاء 451

452 الحكمة والعقل 452

453 اليقظة والفاعلية 453

454 الهيبة والمجد 454

455 الملك الحامي 455

455 الراعى الصالح 455

456 الجدار النحاسي 456

458	درع البلد
459	المدافع البطل
460	قصة تمثال عجائبي
462	الملك البطل والكون
463	الأشكال الحيوانية
467	الأشكال الكونية
469	البطل والآلهة

ثانيًا: المعارك

472	
473	الأسلحة
473	الأسلحة البدنية
474	الأسلحة المعنوية
476	الأسلحة الأسطورية
478	المعركة
478	حومة المعصية
483	انهزام الأعداء
486	مصير المهزومين
486	النصر

ثالثًا: صور السلام

490	
493	الفصل الثاني: الملك بناءً
494	أولاً: بيوت الآلهة

494 طيبة الورعة
494 معبد الكرنك
504 معبد الأقصر
509 منطقة منف العتيقة ومواقع أخرى فى مصر
510 الرعامسة فى النوبة وفى السودان
528	ثانياً: قصور ملايين السنين
528	أكثر قصور ملايين السنين أصالة: معبد سيتي الأول التذكارى فى أبيدوس.
538	أكثر القصور شموخاً: الرامسيوم
541	أكبر القصور: معبد مدينة هابو
543	ثالثاً: وادى الملوك
547	الفصل الثالث: فى ظل الملك، الأدب والفنون
547	أولاً: الأدب
548	الترانيم
548 الأناشيد من أجل الآلهة
557 الأناشيد من أجل الملوك
559 الأناشيد من أجل المدن
561	المسارد الخيالية الإلهية
561 رع وإيزيس
563 هلاك البشرية
566 بقرة السماء والعالم الجديد
568	الحكايات والقصص

569 حكاية تثير العجب العجيب: الأمير وأقدياره الثلاثة المكتوبة

570 حكاية أخلاقية: الصديق والكنب

571 حكاية أسطورية: مغامرات الأخوين أنوب وياتا

575 قصائد العشق والهوى

576 الحب والطبيعة

578 مفاتيح القلب

582 حركة الحياء والشهوة

584 ثانيًا: الفنون

584 الفنون التشكيلية

588 فن المرسومات

591 الخاتمة

593 الهوامش

632 قائمة المراجع

تنويه للمترجم

١. عن بعض علامات الترقيم المستخدمة فى الترجمة الفرنسية، والتي التزمت بها فى ترجمتى العربية، أقول:

«إنه من المتفق عليه بين علماء الآثار أن ما يُكتب بين معقوفين على النحو الآتى [...] يدل على جزء مكسور أو مفقود أو غير مقروء فى النص المصرى القديم، وأن ما يكتب بين هذين المعقوفين هو اجتهاد من قارئ الوثيقة، أما ما يكتب بين قوسين على النحو الآتى (...) فهو إضافة ضرورية لتوضيح معنى النص المصرى القديم(*)». أما علامة الاستفهام الموضوعة بين قوسين (?) فتشير إلى أن معنى الكلمة السابقة غير مؤكد.

٢. إن المعنى المحدد لمصطلحي «أسطون» و«عمود» غير واضحين، فيقال أحياناً بهو الأساطين، على سبيل المثال، أو بهو الأعمدة، للإشارة إلى العنصر المعماري نفسه. وإنى أستخدم كلمة عمود كمقابل للفظ pillar فى الفرنسية أو pillar فى الإنجليزية لكل دعامة مربعة، كما استخدم لفظ أسطون (وجمعها أساطين) للدعائم ذات القطر المستدير كمقابل للفظ Colonne فى الفرنسية وColumn فى الإنجليزية، وهى الترجمة التى أخذ بها عالم المصريات الكبير الدكتور محمد أنور شكرى(**).

ماهر جويجاتى

(*) د. باهور ليبب: تشريع حور محب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٢٨، هامش ٣.

Louis Speleers. Textes des Pyramides. Bruxelles, p.xvi.

(**) د. محمد أنور شكرى: العمارة فى مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٩٣-٩٤.

توطئة

ما زال قدر كبير من المعالم الأثرية يعيد إلى أذهاننا، حتى يومنا هذا، عظمة الملوك الرعامسة، ونقصد تحديداً معابد: الكرنك والاقصر وأبو سمبل.

ظل الرعامسة يحكمون مصر على امتداد قرنين من تاريخها، فكانت سنوات مجيدة تبوأَت خلالها البلاد مكانة مرموقة، دون أن ينازعها أحد، على امتداد الشرق الأدنى، حيث استطاع الفراعنة أن يؤسسوا إمبراطورية مترامية الأطراف، ويفرضوا سيطرتهم على إفريقيا، فامتدت سلطة ملوك مصر لتصل إلى جنوب الجندل الرابع من نهر النيل. هكذا بزغ زمن الملوك - الأبطال، زمن ملحمة الملوك الفاتحين العظيمة. وصاغت الأيديولوجية الدينية أساطيرها الأكثر عمقاً، ووصلت الثقافة الأدبية والفنية إلى أوج ازدهارها.

إنهما قرنان من الزمن، مهدَّ لهما بالتدريج ألفا سنة من التاريخ، فكانا بمثابة الرحم الذي تشكلا فيهما. ولذا، فقد أردت أن أستهل بهما هذا الكتاب لأشد انتباه القارئ، في عجالة سريعة، مع التزامها بالدقة المطلوبة، حتى يزداد فهماً، تأسيساً على ذلك، بالترابط الذي لا ينفصم، الذي دفع بالضرورة بالأحداث إلى تأسيس الإمبراطورية المصرية التي جاءت نتيجة فكر سياسى ناضج مدعماً بالإيمان بالآلهة.

كما وضعتُ نصب عيني أن أتيح للقارئ أن يتعرف عن كتب إلى أكبر قدر من النصوص المصرية التي يعود تاريخها إلى هذا العصر، لقد قمت بترجمة العديد منها، حتى يتمكن كل فرد من أن يدرك، على أحسن وجه، العبقرية الفذة التي تفردت بها أقدم حضارة عرفتْها الإنسانية، فيما نعلم.

المقدمة

مصر أقدم بلد فى العالم، بلد استثار على الدوام اهتماماً فريداً فى بابهِ، بفضل عراقته الضاربة فى القدم وسؤدده، وما يكتنفه منذ أمد بعيد من غموض وأسرار. بلد أصبح الجميع يعرفون الآن بأنه النبع الحى للحضارتين اليونانية والرومانية الكلاسيكيتين، فورثنا عنه جانباً مما نحن(*) عليه.

وبالفعل، لم تكن مصر أبداً منغلقة على نفسها، فلم تعرف «هذه العزلة الرائعة» التى تُنسب إليها أحياناً، بل كانت تفتح أبوابها على مصاريعها، لتتصل بالعالم المحيط عبر البحار والصحارى وعبر الدروب والقنوات والمحيطات. فكانت المعبر العظيم فى العصور القديمة، الذى يربط مرتفعات إفريقيا بالبحر المتوسط، والسهوب الليبية بالعالم الآسيوى. فمن السودان إلى الأناضول، ومن ليبيا إلى بلاد الرافدين، كانت ملتقى الطرق، على الأصعدة التجارية والسياسية والروحية، على امتداد قرابة أربعة آلاف عام قبل الميلاد.

إنه تاريخ يتجاوز ثلاثة آلاف سنة. وبالنسبة لحضارة أصيلة، فهى الأكثر امتداداً عبر الزمان، فى حدود معلوماتنا الراهنة، كما استطاعت أن تقاوم المؤثرات الأجنبية، لأنها حضارة جاءت تعبيراً عن أيديولوجية، ومنظومة فكرية متكاملة، أمكن صياغتها شيئاً فشيئاً على ضفاف نهر النيل فجاءت انعكاساً لروحانية سامية لشعب له خصوصيته.



كانت مصر بلداً قَدَّرَ له أن يكون متميزاً، فتضم مجموعة أراضٍ متفردة لا نظير لها، محيطها واضح كل الوضوح، فتحدُّها الصحارى من هنا والبحار من هناك. إنها مجموعة أراضٍ تحتشد حول محور حياة واحد، هو وادى نهر النيل.

(*) أى أهل الغرب. (المترجم)

وعلى مدى البصر، تمتد رمال المناطق الشرقية للصحراء الكبرى، فكانت برارى أقل قحولة وجذوبة مما هى عليها فى الوقت الراهن، ترتع فيها كبرى الوحوش من فهود وأسود، فكانت ما إن يحل المساء تقترب اقتراباً تحفه المخاطر من منابع المياه ومصادرهما؛ حيث ترتع أيضاً الماشية والأغنام كالحيرم(*) والبواب والمها والظباء بقرونها اللولبية والغزلان بقرونها على هيئة القيثارة والضباع وبنات أوى، وكان البدو الرحل ينصبون لها الفخاخ والأشراك.

ولكن كان النيل أبو الآلهة والبشر يجلب إلى هذه الرمال الجذباء المياه واهبة الحياة، كما يأتى بالغرين المخصب. إنه مئة تتجدد سنوياً فى زمن الفيضان، مع حلول فصل الصيف. إن الغرين الأسود المتناقل هو التربة المحتوية على أكاسيد الحديد، والذي انتزع من أرض الحبشة، ويدفعه نهر النيل أمامه ببطء، من جندل إلى آخر، وصولاً إلى الجندل الأول، ثم إلى أرض مصر، وعندئذ يقوم بتوزيعه على ضفتيه. إن حمى، وهو نهر النيل بعد أن أسبغت عليه القدسية، يصور فى هيئة كائن خنثوى، بنهدين متدليين ويطن منتفخ، وكأنه مرضعة ولود تقدمت بها السن، وقد حملت ساعداها بالزهور والفاكهة والأسماك.

قبل الألف الرابع كان الناس، وقد تجمعوا على ضفاف الوادى، يحيون على القنص وصيد النهر.

ولما كان المناخ فى هذه الأزمنة القديمة أكثر رطوبة، فقد أوجد مشهداً طبيعياً شديد الاختلاف، مقارنة بالذى نعرفه فى الوقت الراهن. كان الوادى العريض يعج بالمستنقعات، وتظلل على الجانبين غياض كثيفة من نبات البردى الذى تصل أزهاره الخيمية إلى ارتفاع ستة أمتار. وهنا كانت تأوى فونة(**) متنوعة بأعداد كبيرة، كثيرة الضجيج، قابلة للاستئناس، فكانت من مصادر الغذاء أو على قدر كبير من الخطورة،

(*) الحيرم bubale جنس حيوانات لبونة من بقر الوحش. المنجد فى اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠١. (المترجم)

(**) الفونة faune لفظ معرب، ويعنى أنواع الحيوان فى مكان يعينه أو زمان يعينه. مجمع اللغة العربية، المعجم الجغرافى، القاهرة، ١٩٧٤. (المترجم)

ومنها الثيران البرية أو المتوحشة المنقرضة والخنازير البرية وأفراس النهر والتماسيح والثعابين ومختلف أنواع الزواحف وأصناف لا حصر لها من الأسماك التي تسكن النهر. وفي الأزهار الخيمية تمسش العصافير ذات الريش المتنوع، كئبي منجل والبشروش والرفراف والسَّمَّاني والحمام والزقزاق والديري والعقعق، فكانت تملأ بأصواتها ومطاراداتها هذا «العالم الأصيل المتفرد»، بما يشكله من إكراه وخطورة، وإن كان مع ذلك عالمًا شديد الإغراء، في نظر رجال الصحارى والسهوب. كانوا في بداية الأمر بدوًا رُحَلًا، يسعون وراء طعامهم من مكان إلى آخر، فحاولوا أن يستقروا في هذه الواحة الزاخرة بنباتاتها، الممتدة مسافة ألف كيلومتر حتى تلامس شطآن البحر المتوسط.

وبفضل عمل فطن وصبور وحصيف، تعلموا شيئًا فشيئًا كيف يتحكمون في الفيضان الذي كان يغمر المناطق المنخفضة طوال فصل الصيف. وبفضل نشاط طويل الأمد أبدعوا مشهداً طبيعياً جديداً، يتفق واحتياجات الإنسان. فشقوا القنوات التي اخترقت الرمال الجدباء، فاستطاعوا كبح جماح المياه الدافقة، لإتاحة الفرصة لانتشار الغرين ليغطي أوسع مساحة ممكنة، مع أكبر قدر من الفائدة. هكذا نشأت الزراعة في المنطقة المحصورة بين النهر والصحراء، وعلى امتداد الوادي أنبتت الأرض القمح والشعير والكتان والكروم والمحاصيل الحقلية. وصنع الإنسان خبز القمح وجعة الشعير لتلبية احتياجاته اليومية من الغذاء، وغزل الكتان الضروري لصنع ملابسه، وتعلم تدجين بعض حيوانات المستنقعات، فحصل على أعداد وفيرة من الماشية، لتسد أيضاً احتياجاته.

وتجمع البشر في هيئة قُرى، واتحدت القرى. وفي عصر ما قبل التاريخ، يبدو أن مملكتين قد ظهرتتا إلى الوجود، كانتا مطابقتين لمنطقتين طبيعيتين تنقسم إليهما البلاد: **مملكة مصر العليا** الممتدة من **أسوان إلى منف** - جنوب القاهرة الحالية - لمسافة أكثر من ثمانمئة كيلومتر. إنها شريط من الأراضي الخصبة تحدها ناحية الغرب المنحدر الصخري لهضبة **الصحراء الغربية** وناحية الشرق تلال سلسلة جبال **الصحراء الشرقية**. إن مجموعة من الوديان الجانبية تربط هذه المملكة بسلسلة

الواجهات غرباً. وبالبحر الأحمر شرقاً. أما مملكة مصر السفلى شمالاً، فكانت مطابقة لدلتا النيل الذى ينبسط فى هيئة مروحة ذات فروع ستة من بحيرة مريوط وحتى بحيرات بلوزيوم (*) الشاطئية. إنه سهل غرينى شاسع يبلغ مئتي كيلومتر عمقاً، وينتهى عند ساحل البحر المتوسط.

إنهما قطران ومملكتان ونقطتا جذب فى اتجاه مرتفعات إفريقيا وبلدان البحر المتوسط أيضاً.

وحول عام ٢٢٠٠ ق.م قام ملك أوحد، هو نعرمر (**) ذائع الصيت بتوحيد المملكتين، ولكن سوف تظل مصر تحتفظ فى جميع تقاليدھا المتواترة بذكرى هذه الازدواجية الأولى.

ومع نعرمر استهلّت مصر تاريخها، ومع النظام الملكى شرعت تعرف الازدهار. إن سلطة مركزية قوية ستعمل على توفير سياسة اقتصادية حقيقية؛ فمن الآن فصاعداً، سيتمكن أبناء مصر من ضبط الفيضان وتنظيمه بطريقة أفضل، من خلال التنسيق بين مختلف البيانات التى تسجلها مقاييس النيل المنتشرة على امتداد النهر، وبفضل تعبئة آلاف الأيدي العاملة المزودة فقط بالقف والمعاول للانتهاء من حفر شبكة الترع والقنوات. وإذا كانت جغرافية مصر تتحكم تحكماً طبيعياً فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، فإنها تستوجب أيضاً بالضرورة وجود نظام سياسى ما. فإذا كان الملوك أقوياء عم الثراء والسعادة البلاد. وفى زمن الرعامسة سوف تصل البلاد إلى أوج عظمتها وازدهارها. ولكن ما إن تعرف مصر ملكاً ضعيفاً حتى تعاني من تدهور الاقتصاد وتفشى المجاعات.

هكذا تأسست مصر. واسمها كمت بالمصرية القديمة، أى «السود»، فالسواد هو لون الغرين واهب الخيرات، وفى المقابل هناك لشورت، أى «الأحمر»، فالأحمر هو لون الصحراء الجدياء المتوهجة تحت أشعة الشمس. وتعرف على ازدواجية المشهد

(*) تل اللوما حالياً، شرق مدينة بورسعيد. (المترجم)

(**) وهو مينيس Menes - مين - الأسطوري عند الإغريق. (المؤلفة)

المصري الطبيعي فى هذين اللونين المتباينين، فتقف الخصوبة فى مواجهة الجذب، والحياة فى مقابل الموت، وهى مفاهيم تستعيد أيضاً إلى الذاكرة سير الإنسان الأول شارداً على غير هدى.



تُرى من هم هؤلاء الرجال الذين يعود إليهم الفضل فى تكوين مملكة مصر، والذين عاشوا قبلنا منذ أكثر من ستة آلاف سنة؟ كانوا رجالاً من جنس قوى؛ فإذا تجولنا فى الوقت الراهن، فى شوارع القاهرة أو أسوان أو الأقصر، فكم من الوجوه والأبدان والمظاهر الجسمانية تعيد إلى أذهاننا الأشكال التى نُحتت أو رسمت فى مقابر القرون الخوالى. ونعرف جميعاً قصة عمال العالم الأثرى الفرنسى مارييت Marlette، عندما دخلوا إلى مصطبة كاسير فى سقارة، وهو من الأعيان الذين عاصروا الأسرة الخامسة، حول عام ٢٥٠٠ ق.م. فعندما شاهدوه أطلقوا فجأة سيقانهم للريح مذعورين صائحين: «شيخ البلدا! شيخ البلدا!». ففى غبش الحجرة المغلقة، أوحى إليهم التمثال بوجهه المستدير المكتنز الوجنات بعض الشئ، وأنفه المقوس تقوساً بسيطاً، وبريق عينيه المرصعتين، وجسده البدين، وشموخ مظهره وهيبته أوحى إليهم إichاء عميقاً، فاعتقدوا أنهم شاهدوا هنا وجه «شيخ بلدهم»، ظناً منهم أنه قد سبقهم إلى هذا المكان. كان أبناء مصر من جنس قوى، استطاعت سماته الإثنية أن تصمد، فى أغلب الأحوال، فى وجه الغزوات المتعاقبة وتقاومها.

فيمكن الحديث عن جنس مصرى، وبعبارة أكثر علمية لقلنا إنه جنس حامى سامى. وبالفعل فقد جاء رجال من كل حذب وصوب، بعد أن اجتذبتهم وفرة الخيرات فى وادى النيل. جاء الأنارقة من النوبة والسودان وليبيا، والساميون(*) من أسيا. فاختلفوا وامتزجوا على امتداد آلاف السنين، قبل بداية التاريخ المصرى، بالمعنى الدقيق للعبارة. إن هذا «المزج» البشرى هو الذى خلق الجنس المصرى.

(*) تغطى هذه التسمية عدداً كبيراً من شعوب الشرق الأدنى القديم، ولا تقتصر على العبرانيين الذين لم يكن لهم وجود على كل حال، فى ذلك الزمن؛ إذ لم يظهروا على مسرح الأحداث إلا فى وقت لاحق، وبعد انقضاء عشرات القرون. (المترجم)

وتساعدنا معرفة اللغة على التمييز تمييزاً واضحاً بين دور كل من إفريقيا وأسيا في تكوين هذا الشعب. والأقرب إلى الصواب أن إسهامات سامية استقرت على نطاق واسع فوق ركيزة إفريقية. فاللغة المصرية لغة سامية في حقيقة الأمر من حيث تركيبها النحوي، وقريبة الشبه من الآشورية البابلية والكنعانية والآرامية، وهي لغات ميتة، ومن العربية أو العبرية، وهي لا تزال حية. فغياب نظام تحريك الصوامت في اللغة المكتوبة واحد، وقائمة الصوامت واحدة أيضاً، وكذلك غياب تحديد الزمن، ولا سيما في الأفعال. ومفردات اللغة ذات أصول سامية إلى حد كبير؛ فقد أمكن حصر أكثر من ثلاثمئة جذر (*) مشترك بين مختلف لغات هذه المجموعة، ولكنها تضم أيضاً كلمات تعود إلى أصول إفريقية. إن حوالى مئة جذر مشترك بينها ولغات المجموعة الليبية البربرية، كما نلاحظ وجود بعض أوجه الشبه مع لغات الجنوب كاللغة الصومالية، ولكن فكر مصر القديمة، قد صبَّ وتشكل في «قالب» سامي، هو التركيب النحوي للجملة.

كما أن وجوه الفاتحين الرعامسة بأنوفها الكبيرة المقوسة وملامحها الجانبية الشبيهة بطائر العقاب، هي أيضاً وجوه سامية.

ومن هذه الإسهامات البشرية المتنوعة نشأ إذن شعب، له مقومات إثنية قوية وسمات في وسعها أن تغالب الأيام.



ولكن تعريف شعب من الشعوب يعتمد أيضاً على أساليبه الحياتية، بل وأكثر من ذلك على الروح التي تحركه. وفي هذه المجالات أيضاً تميز المصري القديم بسماته الخاصة.

ويظهر بوضوح أنه كان إنساناً عاشقاً للحياة عاشقاً حميماً. إن المتون والأناشيد المصاحبة للنقوش والرسومات في المقابر تعكس مشاهد الحياة اليومية،

(*) الجذر هو الأصل الذي تشتق منه الكلمة، فجزر كتاب ومكتبة واكتتاب هو ك ت ب. المعجم العربي الأساسي. (المترجم)

وتكشف عن شخصيته البهجة المرحبة المحبة للمزاح، إذا لزم الأمر. فالفكاهة حاضرة، في أغلب الأحوال، في التصاوير، يبرزها موقف ليس في الحسبان، أو استخدام لون غير متوقع، أو يظهرها مشهد طريف.

كان من عادة شعب مصر أن يكون متفانلاً وودوداً وكارهاً للفوضى، لا يحب الإفراط أو الإسراف، رزيناً مولعاً بالاعتدال. كان مثله الأعلى أن تكون أفراحه ومسراته بسيطة في إطار الحياة الأسرية، وأن يتخذ من احترام الآخر قاعدة لسلوكه. ومن بين سائر الشعوب السامية التي عاشت في العصور القديمة، كان الشعب الوحيد الذي لم يعرف الأضاحى الآدمية. إن قصة قصيرة وصلت إلينا مدونة على بردية، ترسم صورة للملك خوفو وهو يحاول أن يرفه عن نفسه، فاستدعى الساحر حدي المتخصص في إعادة تثبيت الرعوس المقطوعة. فطلب منه الملك أن يطبق قدراته هذه على أحد المساجين، الأمر الذي رفضه العالم حدي، وأجابه قائلاً: «أيها العامل الملكي، يا سيدي، من المحظور أن أتصرف على هذا النحو مع القطيع المقدس، قطيع الله»، فاحضروا له أوزة وثوراً.

هؤلاء الرجال الذين تحولوا إلى جنود عصر الفتوحات، كانوا يحبون السلم؛ ففي ظله كانت «البلاد أشبه بلوح خشبي مصقول صقلاً جيداً»، والقلب «عذب عنوبة زيت الزيتون»؛ فأناشيد استعادة السلام تأتي في أعقاب ترانيم النصر.

كما كان شعب مصر بالغ الحساسية، تركّز فكره على عالم الحقائق الواقعية والحياة، أكثر من اهتمامه بالتأمل الباطني والفلسفة. كان شعباً تظهر حساسيته في مختلف مجالات التعبير الإنساني، كالفن الذي يُجسّد الفكر والإيمان الديني الذي يزيّكه ويرفع من شأنه.

كان شعباً من الفنانين؛ فالفن - في نظره بمختلف أنواعه وأجناسه - وسيلة وعون لبلوغ الخلود، حتى لا تتوقف الحياة أبداً كما عاشها على سطح الأرض، وكما أحبها. إن الفن، باعتباره لسان حال الأبدية والمعبر عنها، قد تحول في مصر إلى ميتافيزيقا.

ولإدراك ذلك، حسبنا أن نشاهد النقوش والرسومات؛ إذ لا يُخضع المصري

نفساً لأحاسيسه كما يتلقاها. إنه لا يصور الكائنات أو الأشياء كما تنتقلها إليه الرؤية البصرية المباشرة، بل يحلل هذه الرؤية بكل جلاء ونفاذ بصيرة، ويفككها إلى عناصرها الأساسية، ليشكل منها بعد ذلك، تركيباً يفصح عن ذكاء، ثم يؤلف تجميعاً عقلانياً من الخطوط والأحجام، موحياً إلى أبعد الحدود، عن الكائنات أو الأشياء، في مجمل تفاصيلها، بل وجوهرها ذاته، كما يجد الفنان في أساليبه التقنية تعبيراً عما يجيش في نفسه من أحاسيس. إنه يتلاعب بالخطوط بحسٍّ مرفه، مدركاً قدراتها الإيحائية. إنه يجمع في أن، بين المشهد والوجدان الذاتي، في مقابلة متواصلة لا تنقطع.

مصر هي الأرض التي خصتها الآلهة بحبها، إنها المكان المفضل لتفكير ديني ثاقب. إن البشر من أصحاب الديانات الوثنية هم شركاء عالم الطبيعة ولصقاء به، وجزء لا ينفصم عنه، وهو ما ينطبق تحديداً على **المصري القديم**. فليُملِ المرء النظر في المساحات الشاسعة من رمال الصحراء وفي المذد الذي يوفره هذا النهر البالغ الطول، باعتباره ممراً خصباً، فكان يوفر وحده دون غيره الحياة لعالم يعج بالمستقعات، عالم جذاب تحفه المخاطر. وبطبيعة الحال أعرب **المصري القديم** بطريقة تلقائية، عن حبه للقوى جالبة الخير التي تحيط به، وعن الاعتراف بجميلها. كما سعى في المقابل، إلى استمالة الكائنات والأشياء التي تكنُّ له العداء. فبث الحياة في مجمل الكون، من خلال كائنات سامية، يصعب التحكم فيها، لكن في وسع البشر الوصول إليها، إنها الآلهة. ظلت أشكال الآلهة وأفعالها تتطور تطوراً وثيقاً، حسبما تقتضيه التقاليد المحلية في أغلب الأحوال، ثم توسعت حتى صارت حكايات وأساطير سعت إلى تقديم تفسير للعالم، ومرت بفترة طويلة من الاختمار الروحي، بلغت منذ الألف الثالث ق.م إلى أولى رواياتها المكتملة، كما تشهد عليها المدونات المسهبة المنقوشة على جدران حجرات دفن الأهرامات الملكية، بدءاً من الأسرة الخامسة، حول عام ٢٤٠٠ ق.م. إنه اختمار روحي يضرب بجذوره في الماضي السحيق، لا يسعنا في الوقت الراهن أن نرسم له مجرد صورة من صيد خيالنا.

إننا لا ندرك أحياناً من هذه المسيرة الروحية الطويلة سوى مراحلها الأقرب

إلينا.

فى البدء، لاحظ **المصري القديم** أن بعض الحيوانات، وعلى رأسها ذكور القطعان الكبيرة، قد تميزت بقدراتها الإنجابية القوية، الأمر الذى يساعد على استمرارية الحياة، ولذلك فقد أحيط كل من الكبش أو الثور تحديداً، بأكبر قدر من مظاهر التكريم والتبجيل.

فى **إلقتين** قرب الجندل الأول، كان المصريون يعبدون الإله الكبش **خنوم**. إنه إله خالق، كان يتجلى نشاطه فى مجال الحياة، بأسلوب شديد الخصوصية؛ فيشكل أناساً صغراً على دولا ب فخارى. كان السبب وراء ذلك يستند إلى واقع محلى، لأن مستعمرة كبيرة من الفخاريين كانت قائمة فى هذه المنطقة لتظل فى مكانها حتى العصر اليونانى، كما كان **خنوم «إله المياه الرطبة»** مسئولاً عن الفيضان، لأن المكان الرئيسى لعبادته، كما سبق القول، كان على مقربة من هذا الجندل الذى ذهب المصريون إلى أنه المنبع الذى يتدفق منه نهر **النيل**. ومن ثم كان يُعبد فى ربوع مصر، من أقصاها إلى أنداها، بصفته هذه. ومع حلول فصل الصيف كانت تُقدّم له القرابين والأضاحى، فكان يُصور فى هيئة كبش أو إنسان برأس كبش. ولما كان البشر والحيوانات من مخلوقات الآلهة، لم يفعل الشكل الذى يتشبه بالإنسان سوى زيادة فاعلية إضافية، أكثر «كونية»، للصورة الإلهية.

أما الشمس(*)، وكان الواهب العظيم(**) للحياة، فكان ينظر إليه فى كثير من الأحوال بصفته ثوراً(**). إن **رع**، وهو أصلاً اسم جنس للجرم السماوى، يسمى أحياناً «**الثور الذهبى بإطاره من اللآلئ**».

إن هذا الفيض من الصور، بمختلف تنوعاتها وألوانها، هو سمة من سمات الفكر الدينى المصرى الذى لا يجد غضاضة فى نقل وقائع ملاحظاته البسيطة إلى عالم الأساطير الإلهية، فربما صارت السماء صقراً. إن **حورس** هو اسم جنس لهذا

(*) على القارئ ألا يغيب عن ذهنه، أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم).

(**) التزمت بالتنكير ليستقيم المعنى. (المترجم)

النوع من الجوارح، فالطائر الذى يشاهده البشر محلقاً فوق سطح الأرض يندمج، فى ذهنهم، فى المنطقة العليا. أما عيناه فتصبح أولهما الشمس والأخرى القمر، وهما الأزهران^(*) اللذان ينيران النهار والليل. وأحياناً، وطبقاً لإدماج أكثر محدودية، فهو الشمس، **حور أختى**، أى «**حورس الأثين**». إن صورة مقدسة منتشرة على نطاق واسع، وتشير إلى هذه الأسطورة - أسطورة //شمس - **نات /الجناحين**^(**)، تشرف على بوابات المعابد والمباني المقدسة، أو تبسط جناحها فوق المشاهد الطقسية.

كما أحيطت البقرة بأكبر قدر من التبجيل والتكريم، إنها إحدى حيوانات القطيع واهب الغذاء ومصدر الخصوبة. ويفضل هذه السمة استطاعت أن تندمج فى السماء التى يغذى نورها الأرض ويخصبها. وأطلق عليها اسم **حتحور**^(***)، أى «**قصر حورس**»، بعد أن أصبحت السماء المسكن الفسيح للشمس - **الصقر**. إن أى صورة من الصور لا تستبعد أبداً غيرها من الصور. إنها تتجمع فى تراكيب أسطورية تُضاعف وتُقوّى القدرة الفاعلة للتصورات الإلهية. كانت **حتحور** تقف فوق الأرض، فظهرها هو السماء، وتستند حوافرها إلى سطح الأرض. وقد تتخذ أحياناً هيئة امرأة منحنية فوق الكون لتلامس ساعداها وساقاها سطح الأرض. وقد يطلق على المرأة - السماء أيضاً اسم **نوت**.

هكذا أيضاً توصل المصرى إلى تفسير يوضح عودة الحياة مع كل فجر جديد، مع ظهور جرم النهار ظهوراً ممجداً. والشمس الرضيع^(****) المنبعث من عضو تناسل **نوت** أو **حتحور**، يشب ويكبر^(****) كلما تقدم فى مساره الصباحى. وعندما يبلغ مرحلة الرجولة، وهو فى كبد السماء، يخصب «أمه - الزوجة»، ثم بعد أن يتقدم تدريجياً فى السن، يختفى فى المساء فى قمها. وقد تتكرر الدورة نفسها مع عنصرين فاعلين آخرين هما البقرة والثور. عندئذ يُطلق على شمس الفجر اسم «**العجل الذهبى**

(*) (القمر والشمس. المعجم الوسيط. (المترجم)

(**) (أو الشمس المجنحة. (المترجم) -

(***) (**حوت** من المصرية القديمة. (المترجم)

(****) (التزمنا بالتذكير ليستقيم المعنى. (المترجم)

الصغير؛ إذ كان يطلق على الجرم السماوى اسم «ثور أمه»، فيولد من جديد من تلقاء ذاته، بواسطة عنصر أنثوى، هو فى آنٍ واحد الزوجة والأم. إنها أكمل وأتم صورة للأبدية والوحدانية الإلهية.

فإذا كانت الشمس تولد يومياً مرة أخرى، ويتجدد عالم النبات بحلول كل ربيع، فلا بد أن يكون فى وسع الإنسان أن يولد من جديد، ليواصل حياته إلى أبد الآباد. وبطبيعة الحال، أصبح الصراع ضد الموت المدمر أحد أهم شواغل الفكر الدينى، ففى الديانات القديمة، كانت الآلهة المنوط بها استمرار الحياة بعد الوفاة، فى الغالب، ذات أصول زراعية. **بعل** أو **أنوبيس** فى **أسيا** و**أوزيريس** فى **مصر**. لقد عانى **أوزيريس** الآلام ليكشف للبشر عن دروب البعث وقيامه الأموات. وتساعدنا **متون الأهرام** على إعادة صياغة هذه الحكاية الخيالية. كان **أوزيريس** أول الملوك الذين حكموا الأرض، كان ملكاً صالحاً وعلم البشر الزراعة وزراعة الكروم وعمل الحرفيين. كان أخوه **ست** الذى يُدمج فى الغالب فى قوى الصحراء الضارة المؤذية، ينظر إلى أخيه بعين ملؤها الحسد، فقام «بربط» **أوزيريس** وقتله، وألقى بجثته فى الماء.

إن رواية متواترة، وإن كانت من أزمنة لاحقة، ووصلت إلينا من خلال **بلوتارخس**^(*)، تصور **ست** وهو يمزق جسد **أوزيريس** إلى أربع عشرة قطعة، ويبعثها على سطح الأرض. عندئذ، أخذت **إيزيس** أخت **أوزيريس** وزوجته **نفتيس**، أخته الأخرى وزوجة **ست**، تنتحبان. فاشتد حزن الآلهة، ثم قامت **إيزيس** و**نفتيس** بالسعى سعياً حثيثاً بحثاً عن جثمان **أوزيريس**. واستطاعت والدته **نوت** أن تنقذ جسده من التحلل «فأعادت ربط عظامه ووضع قلبه فى مكانه وإعادة رأسه». وكلها إيماءات رمزية تشير إلى ولادة جديدة، ثم يقوم **رع** ببث الحياة فيه، ليؤمن على هذا النحو بعثه حياً، بشكل قاطع ونهائى. وفى الروايات الأقل قدماً، يقوم **رع** بإرسال **أنوبيس** الإله ابن أوى، لإعادة تشكيل جسده و«صناعة» المومياة الأولى، بينما تقوم **إيزيس** بعد أن تحولت إلى طائر صغير، بإعادة الأنفاس إلى زوجها بفضل تحريك جناحيها الكبيرين، فى حين تعمل الكلمات السحرية التى تنطق بها، على إعادة الحياة إلى الإله. وبعد أن

(*) مؤرخ يونانى من القرن الأول الميلادى، عاش فى روما. (المترجم)

تمددت فوق جسد **أوزيريس**، تحمل منه باين، هو **حورس** الذى تتولى تنشئته سرا فى مستنقعات **الدلتا**، تجنباً لانتقام عمه **ست**. وعندما يحين الوقت المناسب، سيستعيد **حورس** من **ست** الميراث الذى من حقه، وينتقم لأبيه.

هذه الحكاية الخيالية التى تعلو من شأن الإخلاص والوفاء اللذين يربطان كل زوجين، وبر الأولاد بوالديهم - وكلها من الخصال الحميدة عند المصريين - نقول إن هذه الحكاية تنطوى فى الغالب على قيمة رمزية. وسواء تحول الجسد الملقى فى الماء إلى «الأخضر والأسود» لوني الربيع المصرى، عندما يبرز نبات القمح الغض من بين الطمي، أم وزعت قطعه الأربع عشرة على امتداد أرض **مصر**، يظل **أوزيريس** إلهاً للزراعة ورمزاً للخصوبة. إنه «البذرة الجديدة» التى يبدو أنها ماتت عندما كانت تدفن فى باطن الأرض، وتولد من جديد مع حلول الربيع من أجل حياة جديدة^(*). ولما كان «قويا نشيطاً، فى مياهه الشابة»، فهو أيضاً رمز الفيضان الدورى المخصب. إنه يشير إذن من خلال موته وبعثه حيا، إلى أطوار حياة الطبيعة بتجديدها الدورى. إنه عالم النبات بدورته الثابتة ثبات الشمس، كما أن النظر الذهنى الدينى قد أدمج الصراع المحتدم بين **أوزيريس وست**، فى التناقض الطبيعى القائم بين الخصوبة والجذب، أو النظام وفوضى الخواء، أو النور والظلام.

أما **أنوبيس**، وهو أول صانع للمومياوات، فيُصور فى هيئة ابن أوى أو فى هيئة آدمية برأس ابن أوى، فقد كان هذا الحيوان يتردد على مشارف الجبانات، بحثاً عن الطعام. ومن هنا، فقد ربط الفكر المصرى فى الغالب، بين صورة ابن أوى وفكرة الموت.

كان كل إله، يُعبد فى الأصل فى جهة محددة باعتبارها مكانه المقدس. وهنا أُلّف كهنة فرعون مصنّفات لاهوتية، توضح أن إلههم كان «أول القادمين» خارج الخواء الأولى، وتشرح عملية خلق العالم. كانت **هليوبوليس**^(**) - قرب العاصمة منف - هى

(*) (وسترد الفكرة نفسها على لسان المسيح فى إنجيل يوحنا ١٢: ٢٤ «إن لم تقع الحبة من الحنطة فى الأرض وتمت، تبقى وحدها، وإذا ماتت أخرجت حبا كثيراً». (المترجم) ...

(**) **يولوق** عند قدماء المصريين، المطرية حالياً. (المترجم)

المدينة المقدسة التي يعبد فيها الإله رع منذ أقدم الأزمنة. أما مدينة أويزيس فكانت تقع منذ الألف الثاني قبل الميلاد في إبيدوس(*) في مصر العليا، ثم طرأت بعض التطورات.

هل نحن أمام الإيمان بتعدد الآلهة polytheisme، أو بإله واحد monotheisme. أو بوجود إله فوق الآلهة shénothéisme؟(**) سؤال محير. ولكن لماذا هذا الإصرار على إسقاط مقولات حديثة على مفاهيم وأفكار قديمة؟ كان لكل شخص إلهه الخاص في مدينته. فتذكر النصوص في أغلب الأحوال كلمة نثر - أي «الله» - دون تحديد اسم الإله المعنى. فلكل امرئ إيمانه الخاص. لم يكن التعصب وعدم التسامح قد ظهرا إلى الوجود. كان البشر يعبدون قوى الطبيعة، وكانت أسماؤها تختلف من مكان إلى آخر.

وفى عصر فتوحات الرعامسة والإمبراطورية العظمى، سوف تسمح رحابة الفكر هذه باستقبال الآلهة الأجنبية على نطاق واسع، فكانت آلهة الشمس أو عالم النبات. وسواء كانت شمش(***) أو بعل، فإن اسميهما ينطويان على ذات القوة وقدرة الحياة، كما هو الحال بالنسبة للإلهين رع وأوزيريس.



هكذا كانت تسير الحياة على ضفاف نهر النيل على مرّ الأيام، وعبر المتع

(*) (التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم أيجو منطقة العرابة المفقودة قرب البليتا حالياً.
(المترجم)

(**) يمكن أن نضيف إلى ذلك:

الإيمان بوحدة الوجود panthéisme، أو بالآلهية الطبيعية deisme (الله خلق الكون، ولكن ليس له صلة مباشرة بالعالم)، أو الاعتقاد بالله وحده théisme الذي يقرر وجود الله دون الاعتراف بالضرورة بالوحي. (المترجم)

(***) شمس في اللغة العربية وشمش في العبرية. (المترجم)

والملاذات، كانت أسباب سعادة البشر بسيطة في تلك الأزمنة القديمة. إن نصاً شعرياً يعود إلى حوالي عام ٢١٠٠ ق.م^(*)، يصفها على هذا النحو:

حسن حقاً، عندما يهبط (المرء) النهر...

حسن حقاً، عندما تُشدُّ الشبكة وتُصطاد العصافير...

حسن حقاً، عندما تُعبدُ الدروب للتنزه.

حسن حقاً، عندما تُشيدُ أيدي البشر الأهرامات وتحفر البرك وتعدُّ البساتين من أجل الآلهة.

حسن حقاً، عندما ينتشى الناس ويشربون، سعداء القلب.

حسن حقاً، عندما تتعالى صيحات الفرح من كل الأقواه، بينما زعماء الأقاليم يقفون هناك، فيشاهدون حفلات الابتهاج من منازلهم، وقد ارتدوا الكتان الناعم و(يمسكون) أمامهم عصا القيادة، بقلوب أبية.

حسن حقاً، عندما تُجهز الأسرة، ويحاط فراش كبرى الشخصيات بكبر قدر من الحماية، وعندما تكون حصيرة موضوعة في الظل كافية لتوفير ما يحتاج إليه كل إنسان، عندما يُغلق الباب على من يرقد في الأجسام.

(*) يتفق هذا التاريخ مع الأسرة الحادية عشرة. (المترجم)

الباب الأول
تاريخ إمبراطورية

الفصل الأول الإمبراطورية، خيار لا مفر منه

أولاً، بحث عن مصادر الإمبراطورية

مملكة يسودها الهدوم

أول أزمنة المملكة

حول عام ٢٢٠٠ ق.م قام نعرمر «بريط» مصر العليا ومصر السفلى، ليؤسس مملكة موحدة، تمتد من أسوان حتى البحر المتوسط، ووضع على رأسه البشنت(*)، جامعاً على هذا النحو بين تاج مصر العليا الأبيض الطويل والتاج الأحمر لمصر السفلى. إنه رمز دائم للسيادة على أرض مصر. ولما كان نعرمر الأول، في سلسلة طويلة من ملوك الأسرات المصرية الحاكمة، فقد أسس النظام الفرعوني.

وأغلب الظن أنه كان ينحدر أصلاً من مدينة هيراكونبوليس(**) Hierakonpolis، وأقام عاصمته في مدينة ثني(***)، على البر الغربي من نهر النيل، على بعد ١٠٠ كم شمال طيبة. وستظل المدينة مركز السلطة على امتداد أكثر من أربعة قرون طوال الأسرتين الأولى والثانية(١)، من تاريخ مصر. ولكن بفضل ذكاءٍ سياسيّ مؤكد، يبدو

(*) (التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم ياسخمتي أي القوتين). (المؤلفة)

لمزيد من التفاصيل حول هذه التسمية راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية،

ترجمة: ماهر جويجاتي، دار المستقبل العربي، ٢٠٠١، ص ٨٠. (المترجم)

(**) (التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم ثفن، الكوم الأحمر حالياً، شمال إلفو) (المترجم)

(***) من غير المعروف حتى الآن الموقع الحقيقي لهذه المدينة. (المترجم)

أن نعرمر قد وضع، منذ ذلك الزمن، أساس مدينة جديدة واقعة عند التقاء المصريين(*) عند رأس الدلتا، إنها مدينة منف «ميزان القطرين».

وبينما سعى نعرمر وخلفاؤه إلى الإبقاء على وحدة المملكة الجديدة بكل ما أوتوا من عزيمة، فقد أقاموا اقتصاداً مزدهراً، فتطورت الزراعة وتربية الماشية.



ونشأت أولى أدوات الإدارة السياسية. وسوف تشكل أسس الإدارة الفرعونية وقاعدتها الراسخة، لتغالب الأيام، على امتداد آلاف السنين. وقُسمت مصر إلى أقاليم(**) ودوائر تم تحديدها تحديداً مصطنعاً، حسبما تملية ضروريات الري والمنتج الزراعى. هكذا وُضعت ثمانية وثلاثون إقليماً تحت سلطة موظف مكلف من قبل السلطة المركزية. كان الملك، على ما يبدو، لا يزال يركز بين يديه كل السلطة، دون وسيط بينه وبين مختلف الأجهزة الإدارية.

إن الإدارة المركزية المسئولة عن مختلف احتياجات اقتصاد الحقول كانت تضم عدداً من البيوت الملكية، بيت الحقول المسئول عن أعمال الحصاد وتخزين المحاصيل الواردة من الحيازات الملكية، وبيت المياه الذى ينسق بين مختلف قراءات مقاييس النيل المنتشرة على امتداد النهر ويخطط لأعمال الري، وفى حالة انخفاض منسوب الفيضان كان عليه اتخاذ الإجراءات الضرورية لتجنب المجاعة، ثم البيت الأبيض الذى يشرف على إدارة أموال العاهل الملكى، والبيت الأحمر المسئول عن إدارة الطقس الجنائزى الملكى. وكانت دائرة الإشراف على الجيش ودائرة المحفوظات تستكملان منظومة مختلف الأجهزة الإدارية. أما الإدارة الإقليمية فكانت تضم حكام الأقاليم، وكان كل واحد منهم مسئولاً فى المقام الأول عن صيانة الترع والقنوات الواقعة فى حدود إقليمية، وعن جعلها صالحة لتوفير أكبر قدر من إنتاجية الأراضى. إن اللقب المصرى الذى كان يحمله هذا الموظف الكبير، يعبر أفضل تعبير عن المهام الملقاة على

(*) مصر العليا ومصر السفلى. (الترجم)

(**) سبيت بالمصرية القديمة. (المؤلفة)

عائقه. إنه **هج مر**، ومعناه حرفياً «**هذا الذى يشق التركة**»، كما كان مسئولاً عن إعداد «**حصر بالذهب والحقول**»، أى الممتلكات من عقارات ومنقولات، وتعتبر عمليات عظيمة الأهمية عند استخدامها فى صورة نقاط مرجعية لتحديد التابع الزمنى. وكانت المنازعات القانونية يتم البت فيها فى عاصمة كل إقليم، بواسطة محكمة يطلق عليها **چاچات**، ولكننا لا نعرف شيئاً عن القانون المدنى.

وتطورت العبادات المحلية، وتعاضمت أهمية الإله الحامى الراعى لكل إقليم من الأقاليم. هكذا أخذ بنیان مَجْمَع الآلهة يتشكل بتنوعاته.

احتفل المصريون بأعياد الآلهة، وكان ينظر إليها باعتبارها أحداثاً عظيمة الأهمية فى حياة البلاد، حتى إن التابع الزمنى الذى أخذ به حجر **پالرمو**^(٢)، على سبيل المثال، كان يعتمد على الإشارة إلى السنة التى شهدت الاحتفال بهذا العيد أو ذاك.

وظهرت شعيرة جديدة، سيستمر العمل بها طوال العصور التاريخية، ونقصد بها العيد **سد**، أو اليوبيل الملكى الثلاثينى الذى احتفل به لأول مرة الملك **سن** من الأسرة الأولى. وكان أشبه باستعادة احتفالات التتويج، والهدف منه ضمان استمرار حكم الملك ودوامه، من خلال سحر الإيماءات والتعويذات.

وفى هذا الزمن عبر المصريون حدود بلادهم لأول مرة. إن جيش **چر**، خليفة **نعرمر**، وصل إلى **النوبة**، عند الجندل الثانى على نهر النيل، وهو ما تؤكد مخرشة محفورة على إحدى الصخور. ونُظِّمَت حملات أخرى فى اتجاه **مناجم** ومهاجر الصحراء الشرقية، فيما بين **النيل والبحر الأحمر**.

وازداد النظام الملكى استقراراً وتوطيداً.

الملك - الإله

يبدأ العصر الذهبي للمملكة الأولى بحلول الأسرة الثالثة وعهد الملك **چسر**، حول عام ٢٧٧٨ ق.م، ليستمر حتى عام ٢٢٠٠ ق.م مع نهاية الأسرة السادسة. في ذلك الزمن كان الملوك - الآلهة، يتربعون على العرش في مدينة **منف** عاصمة المملكة.

وبالفعل، فقد صيغت شيئاً قشياً نظرية للنظام الملكي، سوف تظل قائمة فيما بعد. فالملك بجوهره الإلهي هو الوسيط بين الآلهة والبشر، ويظل **أبي الهول** الرابض في **الجيزة** الصورة المهيبة لهذا التصور. إن الوحش الضاري بجسده المنحوت في ذات الصخر، ووجه **خعفرع** الأملس المصقول وملامحه المزهوة، هو الحارس الملكي للجبانة، الذي يفرض جلالة الإلهي فرضاً بين الرمال الصهباء والسماء.

كانت قائمة الألقاب الملكية، قد استقرت لتظل دون تبديل حتى آخر **القياصرة**، إنها تكشف عن هذه السمة الكونية للعامل الملكي الإلهي. إنها تضم خمسة ألقاب تصاحبها خمسة أسماء، يتحدد بعضها لحظة إتمام مراسم التتويج:

❖ **الاسم الحوري**(*) يضع العامل الملكي تحت حماية الطائر المقدس، راعي مدينة **هيراكنبوليس** التي كان ينحدر منها **نعممر** أول الملوك. ويصور الطائر الإلهي واقفاً مفلطحاً مخليبيه، فيحمي أول اسم من أسماء الملك المذون داخل تصويره على الطريقة المصرية لسور القصر الملكي.

❖ **الاسم النبتي** - اسم السيدتين - يضع العامل الملكي تحت رعاية الإلهتين الراعيتين للمملكتين الأصليتين، الإلهة **نخت**، وهي الرخمة البيضاء **لمصر العليا**، والإلهة **واچت**، وهي صل **مصر السفلى**.

❖ **اسم هورس الذهبي**(**) ويظهر في عهد **خوفو** في حين ظهر الاسمان السابقان منذ عهد **نعممر**، ويربط هذا الاسم شخص الملك بشخص **هورس** الشمسي والسمائي(٣).

(*) نسبة إلى **هورس**. (المترجم)

(**) **حرونوب** بالمصرية القديمة. (المترجم)

❖ اسم نيسوت بيتى، أى «هذا الذى ينتسب إلى نبات البوص والنحلة»، ونترجمه عادة بعبارة «ملك مصر العليا ومصر السفلى». وهو يدمج الملك المصرى منذ نعرمر فى الفلورة(*) والفلونة(**) رمزى القسمين المكونين للمملكة.

❖ اسم ابن رع يربط ملك مصر منذ خعفرع ربطاً جسدياً بكبرى القوة الكونية فى العالم، وقد أخذت عبادتها تنتشر فى البلاد، من أقصاها إلى أدناها.

ومنذ خعفرع أيضاً، دُون الاسمان الأخيران داخل خرطوش، وهو التطور الخطى للعلامة الهيروغليفية شن التى تعنى «يجبط»، أو «يرسم دائرة حول». إننا أمام وسيلة أخرى لربط العاهل الملكى بأبيه الشمس(***)، بإدماج سلطان السيطرة الملكية فى «الدائرة» الشمسية ودورة النجم السماوى المتجددة على الدوام، وإلى أبد الأبد.

وسيطل النظام الملكى والدين مرتبطين فى المنظومة الفرعونية ارتباطاً لصيقاً؛ فليست المسألة مسألة «حق إلهى»، ففرعون هو ابن الإله، بل إنه الإله ذاته، مشاركاً فى قدرات الحياة فى السماء وفى الأرض.

هليوپوليس وأولوية رع

إن مكاناً مقدساً عظيماً، لا يبعد كثيراً عن العاصمة السياسية منف، كان آخذاً فى التطور، بوصفه عاصمةً روحيةً حقيقيةً، إنها مدينة هليوپوليس حيث عبادة الشمس.

كان الملك من حيث طبيعته، الرئيس الطبيعى لجميع الكهنة، ويتمتع بالسلطة الروحية، فهو الذى يشيّد المعابد، كما أنه يقيم الطقوس الدينية فى المشاهد الدينية التى تصورها النقوش والرسومات. وبطبيعة الحال، كان فى الممارسة العملية، يفوض

(*) الفلورة: أنواع النبات فى مكان ما وفى زمن معين. المعجم الجغرافى، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٤. (المترجم)

(**) الفلونة: سبقت الإشارة إليها فى المقدمة.

(***) نعيد إلى الأذهان ما ذكرناه سابقاً، أن لفظ شمس مذكور فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

سلطاته لكبار الكهنة. كان أبناء العاهل الملكي يكلفون أصلاً بممارسة هذه الوظيفة فى كبرى المعابد؛ فنجد أن **رع حوتب**، ابن الملك **سنفرى** والد **خوفى** كان كبير كهنة **رع** فى **هليوبوليس**، وفضلاً عن ذلك كان قائد الجيش. ولما كانت كل عناصر الإدارة «**بين يدى الملك**»، فإن الفصل بين السلطة الدنيوية والسلطة الروحية كان مستحيلاً، الأمر الذى سوف يخلق بالضرورة، فيما بعد، مشاكل مؤكدة.

ويبدو أن كهنة **هليوبوليس** قد مارسوا نشاطاً واسعاً خلال هذه الأسرات الأولى، كما أن المذهب اللاهوتى الذى صاغوه قد انتشر على نطاق واسع، وربما كان النموذج الذى اهتمت به منظومات أخرى لتقدم تفسيراً للكون.

ومن غير المستبعد، على كل حال، أن الأسرة الخامسة التى يحمل جميع ملوكها تقريباً اسماً يدخل فى تكوينه اسم **رع**، كانت تنتسب إلى أحد كبار كهنة **هليوبوليس** «مغتصب السلطة». ومن هؤلاء الملوك نذكر **ساحورع**، أى **ليت رع** يحمينى، و**نفر إر كا رع**، أى **كامل هو ما ينجزه كا** ^(٤) **رع**، و**شپسس كا رع**، أى **كا رع مقدس**، وهلم جرا. إن المصادر الموثوق بها عن هذه العصور القديمة شحيحة، ولكن إحدى الفرضيات التى تحاول تفسير سبب التغير الذى حدث فى الأسرة الحاكمة تقول الآتى: إن **أوسركاف** أول ملوك الأسرة الخامسة، ربما كان ابن الأميرة **نفرحتيس**، ابنة الملك **چدف رع** من فراعنة الأسرة الرابعة، والذى تولى الحكم بعد **خوفى** وقبل **خعفرع**، ابنها من زواجها من كبير كهنة **هليوبوليس**. وهكذا ربما انتقل تاج الملك إلى عائلة مرتبطة بمدينة **رع المقدسة**، فى أعقاب «انقلاب»، إذا صح التعبير.

أجل، لقد ظلت مختلف العبادات المحلية مزدهرة، وأخذت عبادة **پتاح** - الذى يصور فى هيئة إنسان يرتدى رداء محبوباً ^(٥)، وكان إلهاً خالقاً، وراعى الحرفيين، ورب الحقيقة والعدالة - أخذت تزداد أهمية فى العاصمة منف.

ولكن يبدو على كل حال أن ثمة محاولة لإيجاد شكل من التليفية الدينية قد ظهر لأول مرة، حول الكيان الإلهى الشمسى، الذى كانت عبادته تلقى أيضاً رواجاً واسعاً على المستوى الشعبى. هكذا شاعت حكاية حول الأصول المقدسة للملك الأسرة الخامسة؛ إذ يبدو أن الإله **رع** قد تجسد فى زوجة أحد كهنته، وتُدعى **رپحت**. وقد

وصلتنا هذه الحكاية بفضل بردية وستكار Westcar، فنرى أن رع يُرسل الآلهة للإشراف على ولادة ريجدت.

هيا أسرعوا، لمساعدة ريجدت على وضع أطفالها الثلاثة^(٦) الذين لا يزالون في أحشائها، والذين سيتقلدون في المستقبل هذه الوظيفة المرموقة الخيرة [الملك] في أرجاء البلاد. سوف يشيّدون المعابد في مدنكم، ويوفّرون المؤن لهماكلكم، ويثرون موائدكم بالماء الطاهر، ويزيدون من كمية قرايبكم الإلهية.

❖ إنه تعريف صارم لتبادل المنفعة، إنه تبادل حيوى قائم بين الملوك والآلهة، بصفة رفاق مسئولين عن نظام العالم.

وحلت لحظة الولادة.

انزلق هذا الطفل على يدى إيزيس. كان طوله ذراعاً وعظامه صلبة وأعضاؤه مغطاة بالذهب وزينة رأسه من اللازورد الحقيقى؛ فقامت [الإلهات] بغسله بعد أن قطعت حبله السرى، ووضعت على قطعة قماش وسادة من الكتان. ودنت مسخنة منه قائلة: «هذا ملك، سوف يمارس وظيفته الملكية فى هذه البلاد كلها»، فى حين عكف خنوم على تقوية أعضائه.

أكان طفلاً - إلهاً، يتكون من الشمس والسماء، أم ملكاً؟ إن الطبيعتين تتجسدان فى كيان واحد، كيان القرمون.

وسوف تُطبع شئون الإدارة السياسية للدولة وعناصر الفن والعمارة، على حدّ سواء، بسرعة فائقة، بطابع التدين الشمسى نفسه الذى كان سائداً.

العناصر الجديدة للسلطة

جوهر السلطة هو إصدار الأوامر، أى أوجع منى بالمصرية القديمة، ومعنى هذه العبارة «التفوه بالكلمات»^(٧)، وإعلان الأحكام أيضاً، أوجع بالمصرية القديمة أى «وَزَنَ». يحتفظ الملك بكامل القدرات. إنه السلطة العليا، ولكن بالنسبة لهذا البلد وهو

فى أوج تطوره، لم تعد الإدارة التى أقامها ملوك ثنى كافية. كان من الضرورى التوصل إلى نظام أكثر أهمية مع التوسع فى تراتبية الهرم الوظيفى.

وبدأ من عهد سنفرى حول عام ٢٧٢٠ ق.م، فوَّض الملك جانباً من صلاحياته إلى **ثانى**، وهى كلمة نترجمها عادة بلفظ «وزير» الذى يرتبط بحقائق شرقية لاحقة. وهذا الوزير كان يعتبر «إرادة السيد وأذننى العاهل الملكى وعينه». كما كان رئيس العدالة، والمشرف العام على أهم دائرتين من دوائر الدولة وهما: شؤنة الغلال والخزينة. كما كان يراقب الجيش، ويسهر على حسن سير الأشغال العامة ووسائل النقل النهري. وكان مشرفو البعثات حلقة الوصل بينه وبين الإدارة الإقليمية، كان يُعين من قبل الملك ويظل الرجل الوفى فى خدمة **الفرعون**.

كان كل «بيت» ينقسم إلى بيتين، فتظل الأزواجية الطبيعية لأرض مصر، مرجعية دائمة وشاملة. يستثنى من ذلك بطبيعة الحال «بيت المياه».

إن جهازاً إدارياً أعلى، وهو **مجلس العشرة**، كان يجمع رؤساء هذه الوزارات المختلفة.

كانت طبقة الكتبة من أجهزة النظام الإدارى البالغة الأهمية؛ فيصورون جالسين وقد فردوا ورقة بردى على النُقْب لتمتد من ركبة إلى أخرى، وتتم ملامحهم على أنهم دائمو الانتباه، كما أن عيونهم ثاقبة الذكاء، بينما يمسكون بفرشاة الكتابة. كانوا مثقفين وأدباء رفيعى المستوى، ويشاركون مشاركة فعالة وسريعة، لا غنى عنها، فى حياة الدولة.

وظل حكام الأقاليم الثمانية والثلاثون يواصلون السهر على صيانة الترع والقنوات. ويديرون الأراضى الملكية، وصاروا مسئولين عن الشرطة العامة، وتجنيد العناصر للجيش. كما أن حكام الأقاليم، ولا سيما فى الجنوب وهم الأبعد عن ملف، فى وسعهم أن يتولوا الإشراف على الكهنة المحليين.

ومن ثم، ستمتد النظرية الإلهية للسلطة الملكية إلى أجهزة المنظومة الإدارية ذاتها. إن الملك، وهو ابن رع، يضع كل جانب من جوانب سلطته تحت إمرة إله بعينه،

ليصبح كبير كهنته رئيس الجهاز الإداري المعنى. هكذا، فإن العبادات التي تقام من أجل الإلهة هامت، وهي ضامنة نظام الكون واستقامة أدائه، والتي تتجسد فيها العدالة، سوف يتولاها الوزير بطبيعة الحال، مع إسناد مسئولية إقامة الطقوس إلى القضاة. وتحوت، الإله أبو منجل، راعى مدينة **هرموبوليس** (*) فى **مصر الوسطى**، وإله الكتابة والعلوم والمقاييس والمكايل والقانون، سيصبح أحد مديري الجهاز الإداري كبير كهنته.

ومن هنا، يمكن القول إننا أمام ضرب من ضروب التفيقية الدينية؛ فبالنظر إلى أن كبار الموظفين خاضعون للعاهل الملكي صارت الآلهة المحلية، من الآن، خاضعة بالتبعية للإله رع. إن العلاقة السياسية التي كانت تربط ملوك **مصر** بموظفيهم، أخضعها هؤلاء الملوك بإخضاعها للطابع الديني لحكمهم المطلق. وبهذه الطريقة، أصبح فى الإمكان تحقيق التوليفة الجامعة للآلهة المحلية من حول الإله رع، استناداً إلى هذا التفسير للديانة والسياسة، والذي سيظل من الثوابت فى تاريخ **مصر** القديمة، فيتسبب أحياناً فى مشاكل عويصة للسلطة الدنيوية، ولا سيما فى عصر **الرماسة**.

تطور هذا النظام السلطوى على النحو الذى أصبح أدأؤه يواجه مع مرور الوقت العديد من الصعوبات. كان الملوك يختارون بعض المقربين، ويُنعمون عليهم بأسمى مراتب الشرف وأكبر الوظائف، ولكن بعد فترة قصيرة استطاع هؤلاء المحظوظون تشكيل طبقة من أصحاب الامتيازات، ثم تعاظمت قوتهم واتسعت سلطاتهم، كما أقر بعض الملوك الضعفاء، منذ نهاية الأسرة الخامسة، توريث الوظائف. وبدأ حكام أقاليم **الجنوب** يديرون بالتدريج شئونهم باستقلالية متزايدة بعيداً عن السلطة المركزية. ولعلاج هذا الخطر ظهر فى الأسرة الخامسة منصب «حاكم الجنوب»، ومهمته التنسيق بين حكام أقاليم **مصر العليا** ومراقبتهم، ولكن فى عهد **پيى الثانى**، لم يعد الملك يتمتع بأى سلطة.

(*) **خملو بالمصرية القديمة، الأشمونين حالياً.** (المترجم)

كما ظهرت طبقة حقيقية من الكهنة شكلت أيضاً تهديداً لسلطة الفرعون الفائقة القدرة. وبالفعل فقد منح هذا الأخير رجال الدين امتياز عدم دفع الضرائب، فأتاح لأملك المعابد أن تزاد ثراءً، كما استقر في عالم رجال الدين أيضاً حق توريث الوظائف.

وهكذا كاد كل إقليم يتحول إلى دويلة، أخذت تتباعد أكثر فأكثر عن دائرة الخضوع للعاهل الملكي، وسارت عملية تآكل المؤسسة الفرعونية الأولى ببطء، واستمرت حتى نهاية الأسرة السادسة.

الحمالات والتجارة

وإذ أبحر المصريون مصعدين نهر النيل إلى الجنوب من الجندل الأول، نفذوا إلى النوبة ثم إلى السودان. وفتح جسر، حول عام ٢٧٧٠ ق.م، المنطقة الواقعة بين أسوان وتاكوميسو^(*) شمال عمدا. وفيما بعد سوف يطلق الإغريق على هذه المنطقة اسم دوديكاكشون Dodékaschène، أي بلاد الاثنى عشر شوينوي scholnoi بامتداد حوالي ١٢٠ كيلومتراً. وشن سنقرو حملة على النوبة، حول عام ٢٧٢٠ ق.م، وعاد منها بغنائم وفيرة و ٧٠٠٠ أسير طبقاً لما ورد في حجر پالرمو^(٨).

ولما كانت البلدان الإفريقية الجنوبية لا تزال تحيا حياة قبلية، كانت السيطرة عليها من السهولة بمكان. لقد توجه المصريون إليها بحثاً عن الذهب، ولا سيما مناجم وادي العلاقي، وهو وادٍ جاف يخترق الصحراء الشرقية فيما بين الجندل الأول والجندل الثاني. وقد دأبوا على استغلالها منذ زمن سحيق. كما كانوا يأتون من هذه البلدان بالبخور والعاج والأبنوس - هذا الخشب الأسود الثمين - وريش النعام.

وتواصلت الحملات بأعداد كبيرة. وكان الهدف من بعضها الكشف عن «دروب جديدة». ونشير على نحو خاص إلى أمراء أسوان الذين كانوا مستكشفين جسورين ونذكر منهم حرخوف الذي قام في عهود پيبي الأول ومرنرع وپيبي الثاني، حول عام

(*) عرفها المصريون تحت اسم كا - كاسا. (المترجم)

٢٤٠٠ ق.م، بأربع رحلات متعاقبة. وإبان رحلاته الثلاث الأخيرة وصل إلى بلاد **يام** في **السودان**، ومن الراجع أنها منطقة **بنقلة**. ونشأت روابط أيديولوجية؛ فقد توحد الإله النوبي **ليدون**، منذ وقت مبكر جداً، مع **حورس**. إن هذه النزعة إلى التليفية الدينية الهادفة إلى «ربط» الفتوحات، هي أسلوب مصرى كُتب له الدوام والاستمرارية، وسوف يلقى رواجاً كبيراً في عهود **التحامة** و**الرحامة**.



ومنذ أزمنة موهلة في القدم كان المصريون على اتصال وثيق **بالبحر الأحمر**، وللوصول إليه كان الدرب المستخدم، في المعتاد أكثر من غيره، هو **وادي الحمامات** الذي يبدأ من مدينة **كوبتوس** (*)، الواقعة إلى الشمال من طيبة، ليصل إلى ميناء **القصور** بعد سفر يستغرق أربعة أيام، بلا نقاط مياه، الأمر الذي كان يتطلب إذن تنظيم هذه الرحلة تنظيمًا صارماً ودقيقاً.

وبعد أن تصل الحملات إلى **القصور**، كان في استطاعتها أن تبصر في اتجاه الجنوب. وبعد ذلك تتجه إلى بلاد **بونت** القريبة من **الصومال** الحالية، فهي «الأرض الإلهية»، لأنه على أرضها كانت تنمو أشجار البخور، فلا غنى عن البخور لإقامة شعائر الطقوس اليومية. كما كان بها أيضاً الأبانوس والعاج والذهب الخالص. هناك كان القوم يسامون ويقايضون، إذ كان البحارة المصريون يحضرون معهم بعض الأشياء المصنّعة وبعض منتجات بلادهم الرخيصة، ليبادلوا بها هذه المنتجات الثمينة. واستناداً إلى حجر **پالرمو** كان **ساحورع**، على ما يبدو، أول من أرسل حملة إلى هذا البلد القصي، حول عام ٢٥٠٠ ق.م.

وإذا انطلق المصريون من **القصور** مبحرين في اتجاه **الشمال**، فإنهم يصلون إلى شبه جزيرة **سيناء** الصحراوية التي بدأ المصريون يستغلونها منذ عصور قديمة، وربما منذ ٣٠٠٠ ق.م، كما كان من الممكن الوصول إليها براً.

(*) تصحيف يوناني للاسم المصرى القديم **جبتيو**، وهى **قفط** حالياً. (المترجم)

وقد عُثر على اسم الملك **چسر** منحوتاً على صخرة فى وادى مغارة، غرب شبه الجزيرة. ويُصور نقش صخرى آخر العاهل الملكى، وأمامه الإلهة **حتحور** التى تحميه. ويبدو أن **سنقرود** قد أعطى دفعة كبيرة لسياسة النفاذ إلى **سيناء**؛ ففى عهده وفى عهد خليفته **خوفو** استغل المصريون مناجم النحاس ومحاجر الفيروز والملاخيت(*) والزمرد، وعولج الكوارتز الحاوى على الذهب فى مكانه، وأنشئت قرى للعمال، نظراً إلى أن كل حملة من الحملات كانت تضم من ٢٥٠ فرداً إلى ٤٠٠ فرد. وعمل ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، على التوسع بشكل كبير فى استغلال شبه الجزيرة، فنقلت ثرواتها من ذهب ونحاس وأحجار كريمة إلى مصر، تحت حراسة مشددة.

وفى شمال شرق مصر، وفيما وراء **القنطرة وبلوزيوم**(**)، فإن ممراً بسيطاً عبر منطقة **النقب** الصحراوية يؤدى إلى **أسيا** التى زحفت منها شعوب، على امتداد آلاف السنين من التاريخ القديم، متجهَةً نحو الجنوب، وقد شدَّتْها ثروات وادى النيل. كان هذا الطريق الكبير هو المعبر الذى شهد مرور الغزوات بعد عام ٢٠٠٠ ق.م، وفى عصر **الرحامسة** وفى زمن لاحق مع الاحتلال اليونانى ثم الرومانى.

وفى بادئ الأمر نصل إلى أرض **كنعان**، وكانت بلداً بلا وحدة سياسية أو عرقية، تجوبها القبائل الرحل، وتعبرها القوافل القادمة من بلاد العرب أو بلاد **الرافدين**. ولعبت فيها مصر، منذ وقت مبكر، دور الشرطى؛ فمنذ عصر ملوك **ثتى** كان «**حامل أختام الأسىويين**» مكلفاً بجباية ضرائب الجزية مقابل حماية دروب القوافل. ومنذ هذه العصور القديمة اضطر ملك مصر أن يفرض هيمنته على البلدان الحدودية، وعلى موانئ **غزة** و**صقلان** و**يافا**.

وإلى الشمال قليلاً، وعند سواحل **البحر المتوسط**، كانت تمتد **فينيقيا** من قمة جبل **الكرمل** وحتى مدينة **أوجاريت** - **رأس شمرا** حالياً. كانت عبارة عن سهل ساحلى ضيق، يمتد **لبنان** من ورائه، وتسكنه شعوب سامية، وأرضه خصبة تشكل عدداً من **المدن** - **الدول الثرية**، وأكثرها ازدهاراً الموانئ المنتشرة على امتداد ساحل البحر:

(*) أو **الدمنج**. (المترجم)

(**) **تل الفرما** حالياً. (المترجم)

صور وصيدا وبيبلوس وسيميرا وأرواد وأجاريت. كان هذا البلد ملتقى الطرق والدروب، إنه بلد ثرى يعتمد على التجارة، تنتشر غابات أشجار الأرز على جبل لبنان، فأخشابها مطلوبة أساساً لبناء السفن.

إن العلاقات التي تربط مصر بميناء بيبيلوس قديمة جداً. فالعديد من الكسَف التي تحمل أسماء الأسرة الثانية، عُثِرَ عليها إبان الحفائر التي باشرها الأثرى الفرنسى **بيير مونتيه** Pierre Montet، بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٢ فى موقع المدينة التي تعرف حالياً باسم **جُبيل**^(١). كان الوصول إليها برا وبحرا ميسوراً على حد سواء. وفى شهرى مايو ويونيو، عندما تهب الرياح الموسمية، كانت المراكب الشراعية تقطع فى أربعة أيام، المسافة بين دلتا النيل والسواحل الفينيقية، وتبلغ ٦٥٠ كيلو متراً. واستناداً إلى حجر بالرمو كان **سنفرو**^(٢) أول من أرسل إلى بيبيلوس أسطولاً يتكون من أربعين سفينة، عادت جميعها محملة بخشب الأرز.

ويبدو أن المدينة قد اعترفت منذ وقت مبكر بالسيادة المصرية. إن **أوتاس** ملك مصر، حول عام ٢٤٢٥ ق.م، قد صُوِّرَ فى معبد المدينة، بينما تعانقه «سيدة بيبيلوس» الإلهة **بعلت** زوجة **بعل**، وهى فى هيئة الإلهة **حتحور**، وهو مثال آخر على النزعة التليفيقية الدينية التي تعضد الوحدة السياسية. وقبل قرن من الزمن، ربما كان **ساحورع** قد اقترن بامرأة من **فينيقيا**، ليستهل بذلك عادة الزواج من أميرات أجنبيات، والتي ستصبح من الأمور الشائعة فى عصر **الرهامسة**. وإذا كان لنا أن نصدق التقليد الكلاسيكى المتواتر، والذي ظهر فى أزمنة متأخرة، فإن **إيزيس**، على ما يظن، هى التى علّمت فتيات **بيبلوس** استخدام غطاء الرأس والتعطر بالطيب.

وفى زمن الحروب والدسائس الأسبوية، ستظل **بيبلوس** على الدوام من أخلص حلفاء مصر.



(*) (شمال بيبوت، (المترجم)

(**) علامة الاستفهام الموضوعة بين قوسين تعنى أن الكلمة التى تسبقها تنطوى على معلومة غير مؤكدة. (المترجم)

أما فى الشرق، وفى بلاد الرافدين النائية، وفى المناطق المنخفضة من وادى نهر الفرات، سوف يقوم سارجون الفاتح بضم مملكتى سومر وأكاد فى إمبراطورية موحدة، ستضم أيضاً هيلام. وعند شواطئ نجلة، لم تكن المملكة الآشورية وعاصمتها أشور، قد بلغت آنذاك القوة السياسية التى ستصل إليها فى عهد الرعامسة. ولا يبدو أن هذه البلدان قد ربطتها روابط مباشرة مع مصر(؟).



وفى الشمال فى شرق البحر المتوسط، تأكد وجود علاقات مع جزيرتى قبرص وكريت، منذ عام ٣٠٠٠ ق.م. وقد عُثر فى جزيرة كريت على علامات هيروغليفية تعود إلى الأسرات المصرية الأولى، استُخدمت عناصر زخرفية، كما عُثر فى مقابر وادى النيل على دنان فخارية من جزر بحر إيجه. كانت هاتان الجزيرتان الكبيرتان تمدان مصر أساساً بالنحاس وزيت الزيتون والخشب العطرى. ومنذ ذلك الزمن تخصصت مدينة فايستوس Phalstos، فى جنوب غرب جزيرة كريت، فى الاتجار مع الدلتا.

كما يعتقد أن جزيرتى ميلوس Melos وساموس Samos كانتا مصدرا السبج، أى الزجاج البركانى الذى كان مستخدماً فى مصر، منذ تلك العصور القديمة.



وأخيراً، فى الغرب، فى ليبيا الحالية، كانت تعيش أقوام متنوعة تشبه بعضها بعضاً، من الناحية العرقية، سكان الدلتا، وكان الثحنوهم الأقدم على ما يعتقد، وقد تأكد وجودهم على سطوح الصلايات المصرية التى تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. أما التيمحو فكانوا شعوباً مارست تربية الحيوان وزرع الأشجار. وفى حدود مصادرنا قام سنقرو بأول حملة إلى ليبيا، ويحيطنا حجر بالمو علماً بأنه عاد من هناك ومعه ١١٠٠٠ أسير و ١٣١٠٠ رأس ماشية. وفى الحقيقة كان الهدف من هذه الحملات، فى المقام الأول، منع هذه الشعوب من الوصول إلى القسم الغربى من دلتا النيل، وهو ما سوف يشغل بال الملوك الرعامسة أيضاً.

لقد تبنى الفراعنة الأوائل إذن سياسة شاملة من أجل استكشاف العالم المحيط

بهم وثرواته، لم يكن الهدف منها تحقيق الفتوحات أو توسيع المملكة، بل كانت تحركها الاحتياجات الاقتصادية، أى البحث عن المنتجات اللازمة للحياة اليومية وإقامة الشعائر، والتي كانت مصر تفتقر إليها. أضف إلى ذلك الاهتمام بالحفاظ على سلامة حدودها الطبيعية.

وتؤكد دراسة علاقات مصر الخارجية فى الألف الثالث قبل الميلاد، منذ ذلك الزمن، على وجود بعض المبادئ التى ستصبح فيما بعد مبادئ الرعامسة بعد انقضاء خمسة عشر قرناً. تلك هى منابع التى ستنهل منها الإمبراطورية.

الأهرامات والمسلات

كان الملك -الإله- يرقد، إلى أبد الآباد، فى تابوته الحجرى، فى حجرة الدفن السرية داخل الهرم، المخفية تحت كتلة البناء الضخمة التى تشكل البناء العلوى لهذا المعلم الأثرى. إن أكثر الأهرامات ارتفاعاً، هو هرم الملك خوفو الذى يبلغ ١٤٦ متراً (*). وقد أطلق الإغريق على هذه المعالم الأثرية اسم *پيراميد* Pyramide عندما شبهوها بكعكة من الدقيق والعسل، كان شكلها يتخذ هيئة الهرم، واسمها *پيراميس* Pyra-mis، إنه تشبيه قاصر وتماتل شكلى، يقلل من شأن هذا البناء المعمارى المهيّب، والذى كان المصريون يطلقون عليه *مير*.

أجل لقد كان بناءً مهيباً، ليس فقط لأنه كان يُدرج فى عداد عجائب الدنيا السبع (**)، ولكن لأنه فيض إلهى؛ فهو شعاع نور متحجر منبثق من الشمس ويلامس سطح الأرض. وتشير النصوص^(٩) إلى «هذا اليوم الذائع الصيت عندما صعد الملك إلى مكانك، أيا رع! لقد داس بقدميه إشعاعك المجيد، وجعله سُلماً تحت قدميه».

(*) (وإن كان ارتفاعه فى الوقت الراهن ١٣٨ متراً). (المترجم)

(**) وهى العجائب التى حددها الكتاب الإغريق فى القرن الأول الميلادى، ومنها هرم خوفو ومنارة الإسكندرية. وهناك خطأ شائع يرى مثلاً أن برج إيفل أو برج بينا المائل أو سور الصين من عجائب الدنيا السبع. ولا مانع من النظر إليها باعتبارها من عجائب الدنيا، بعيداً عن الرقم سبعة. (المترجم)

إن الهرم، وكان مدرجاً، فى بادئ الأمر، ونذكر فى هذا الصدد الهرم الذى أمر
بجسر بينائه فى سقارة، ليصبح أول معلّم فى الفن المصرى، شيدّ بالحجر المصقول،
فالهرم هو «السلّم» الضخم، الذى يرتقى بواسطته الملك المتوفى، صاعداً نحو أبيه روح،
ليتحد به اتحاداً أبدياً.

وفوق هضبة الجيزة، وقرب غابة نخيل سقارة، وفى مكان لا يبعد كثيراً عن
العاصمة منف، تقف شامخة أهرامات الملوك الذين تربعوا على عرش مصر، بدءاً من
الأسرة الثالثة وحتى الأسرة السادسة. كانت المجموعة الجنازية الملكية لا تقتصر على
الهرم، فعند شاطئ النيل كان معبد فى هذا المكان المنخفض من الوادى يستقبل جسد
الملك المتوفى، بعد نقله على سفينة انطلاقاً من منف، فيرقد هنا لفترة سبعين يوماً،
وهى المدة اللازمة لانتهاء من عملية التحنيط. ثم يسير الموكب عبر طريق صاعد
ليصل إلى معبد قائم فى مكان مرتفع، يطلق عليه اسم المعبد الجنازى، وكان يشيد
فى المعتاد عند الواجهة /الشرقية من الهرم^(٩). وهكذا فإن الكاهن عندما يقوم يومياً
بأداء الشعائر الطقسية، يتجه ناحية الغرب، المكان الذى تختفى فيه الشمس عند
المساء. ويفضل مبدأ التماثل، يصبح الغرب مملكة الموتى. وحول الهرم تتجمع
مصاطب^(١٠) كبار الموظفين، فتصطف على جانبى شوارع منتظمة. هكذا تصبح
الجبانة انعكاساً للبلاط الملكى فى منف وقد تجمّدت فى الحجر إلى الأبد.

وفى ظل الأسرة الخامسة، زمن «النهضة» الشمسية، شيدّ معبد آخر، بجوار
المعبد الجنازى للهرم، خُصّص لعبادة روح^(١١). إن موقع هذا المعبد ذاته يربط الخدمة
الإلهية بالشعائر المقامة من أجل الملك، ويوحّد بينهما من خلال شراكة وثيقة بين الملك
والإله.

(*) من الملاحظ مثلاً أن المصريين قد بنوا هيكل قرابين هرم أوسركاف فى أبوصير، فى الجهة
الشرقية، وبنوا باقى أجزاء المعبد الجنازى فى الجهة الجنوبية، وهى ضرورة حتمها
موقع المكان. د. أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢،
ص ٢٨٢. (المترجم)

وعُثِرَ في أبي غراب على أطلال معبد الشمس الذي شيده نى أوسر رع. والمعبد غير مسقوف، ليتمكن رع من النفاذ إلى مسكنه دون عناء. وللوصول إلى داخل المعبد يمر المرء عبر رواقٍ يفضى إلى فناءٍ فسيحٍ، في وسطه مذبح، ومن خلفه شَيْدٌ هرم ناقص تعلوه مسلة ضخمة.

هكذا ظهر شكل المسلة لأول مرة. إنها مظهر من مظاهر شعيرة البيوت إيل أو بيت إيل في المفرد، أى «بيت الإل»، التى شاعت وانتشرت فى حضارات الشعوب السامية. والبيت إيل هو حجر مُشيدٌ، كما أنه حجر مقدس، ينظر إليه باعتباره بيت الإله. وثلثى يمثل هذه الظاهرة فى حضارات الشرق القديم(*).

إن المسلة المصرية - واسمها بن بن فى اللغة المصرية القديمة - تصور الحجر الذى تألق(**) فوقه الشمس للمرة الأولى، فإذا خرج(**) من الخواء الأسمى، نوراً متوهجاً، فقد خلق الكون.

إن عدداً من مسلات عصر الرعامسة تزدان بها، فى الوقت الراهن، ميادين العواصم الأوروبية، لقد أصبحت الآن معالم معزولة وبلا موضوع، وبعبارة عن الفكر الذى كان قد صممها فى زمن المملكة التى يسودها الهدوء.

(*) راجع فى هذا الصدد حلم يعقوب كما ورد فى سفر التكوين من العهد القديم من الكتاب المقدس، الإصحاح ٢٨ الآيات من ١٠ إلى ٢٢. ونذكر تحديداً الآيات من ١٧ إلى ١٩: ... فخاف (يعقوب) وقال: «ما أرمب هذا المكان! ما هذا إلا بيت الله! هذا باب السماء!». ثم بكر يعقوب فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه نصباً وصب على رأس الحجر زيتاً. وسمى ذلك المكان بيت إيل...

وفى الهامش وتعليقاً على عبارة بيت إيل يقول المفسر إنها تعنى بيت الله. الكتاب المقدس، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٩. (المترجم)

(**) التزمنا بالتذكير ليستقيم المعنى. (المترجم)

الدفاع عن المملكة

الثورة

ومع نهاية الأسرة السادسة، حول عام ٢٢٦٠ ق.م، قاد ضعف الملك **بيبي الثاني** وكبر سنه، إذ امتدت سنوات حكمه حتى بلغت تسعين سنة لتصبح الأطول في التاريخ، قاد إلى تصدع المؤسسة الفرعونية الأولى وأنهيارها. كانت القوى التي تهدد السلطة الملكية تغذيها طموحات حكام الأقاليم وتطلعات الكهنة، وربما أيضاً قدر من مقاومة الطبقات الدنيا من سواد الشعب، كل هذه الأسباب مجتمعة أخذت تبرز بوضوح أكبر، حتى ألت إلى اضطرابات وقلقل اجتماعية، نجد صداها في بعض النصوص:

انظروا إذن، فالرجال المفلسون صاروا أصحاب ثروات، ومن كان يتعذر عليه
أن يصنع لنفسه زوج نعال يملك منها أكواماً.

انظروا إذن، الأغنياء ينتحبون والمعوزون في فرح، وكل مدينة تقول: «دعونا
نطرد الأقوياء من ديارنا...»

انظروا إذن، الذهب واللازورد والفضة والفيروز والعقيق الأحمر والبرونز
وحجر النوبة تحيط بجيد الخادمت، بينما تهيم السيدات الكريمات الأصل في طول
البلاد وعرضها، ومن كنّ (في الماضي) سيدات بيت، يقلن الآن: «واه! ليتنا نحصل
على بعض ما يسد الرمق!»^(١٢)

كانت أزمة الضمير خطيرة. فلأول مرة، وهي المرة الوحيدة في تاريخ البلاد،
بدأ المصري، بعد أن حُرّم من البنى الهيكلية للنظام الملكي التي تُدخل عليه الطمأنينة،
بدأ يطرح على نفسه الأسئلة وتنتابه الشكوك ويفكر في الموت الذي يخلص المرء من
منغصات الحياة.

الموت اليوم أمامى

مثل الشفاء بعد مرض،

مثل أول خروج بعد حادثة.

الموت اليوم أمامى

مثل رائحة المرء،

مثل الجلوس تحت الشراع، فى يوم تشتد فيه الرياح.

الموت اليوم أمامى

كعطر زهرة اللوتس،

مثل حقيقة الوقوف عند شاطئ الثمل والسكر.

الموت اليوم أمامى

كطريق مألوف،

كعودة الإنسان من الحرب إلى داره.

الموت اليوم أمامى

كالسماء التى تصفو،

عندما يكتشف المرء ما لم يكن يعرفه... (١٣)

واستغل بدو أرض كنعان هذه الأوضاع ليجتاحوا القسم الشرقى من الدلتا،
وأدرك المصريون أنذاك أنهم ينتمون إلى أمة وإلى وطن، تقع على عاتقهم مهمة تأمين
سلامتهما.

سيختفى كل شئ طيب، وستصبح البلاد واطئة الأرض، بسبب التعاسة
الناجمة عن هذه الأطعمة^(١٤)، (أى) عن الأسويين المنتشرين فى طول البلاد وعرضها.

وفى الحقيقة سوف يحلُّ الأعداء ناحية الشرق، ويهبط الآسيويون إلى مصر... وتأتى حيوانات الصحراء^(١٥)، لترتوى من نهر مصر وتنتعش عند شطآنها، أما الذين يستطيعون طردها فغائبون^(١٦).

بدأت كلمتى «بلدنا» و«جيشنا» فى الظهور فى سياق النصوص، فكانتا المصدرين الأولين لصياغة مفهوم الإمبراطورية فى العقول.

واستمر هذا الوضع المضطرب لما يقارب قرناً من الزمن، وتعاقبت الأسرات المحلية من الثامنة حتى العاشرة، فكانت تحكم أحياناً حكماً متوازياً ومتزامناً، إلى أن جاء الأمراء الأثافي^(*)، المنحدرون أصلاً من طيبة فى مصر العليا، واستعادوا وحدة المملكة وأعادوا النظام الفرعونى، حول عام ٢١٦٠ ق.م، إلى سابق عهده.

من أجل حماية السلطة الملكية

فى ذلك الزمن، أصبح آل أمنمحات وآل سنوسرت «الرعاة الصالحين» على رأس قطيعهم. إن هذه العبارة التى ظهرت آنذاك سوف تنتشر على نطاق واسع فى عصر الرعامسة^(١٧)، عندما امتزجت عظمة الجلالة الملكية بالبشرية، وعندما أصبح الإنسان الهدف الأعظم لعملية الخلق وغايتها. ونقرأ الكلمات التالية التى وجهها خيى الثالث إلى ابنه مريى كا رع^(١٨):

لقد أنعم بالكثير على البشر، فهم قطع الإله الذى شكل السماء والأرض حسب رغبتهم، وردع المخلوق الشرير (أى التمساح)، والذى خلق نسمة الحياة من أجل أنوفهم، إنهم صوّره المنبثقة من جسده. ومن أجلهم خلق النبات والماشية والطيور والأسماك، غذاء لهم. وخلق النور حسب رغبتهم... وعندما سيكون فإنه يسمع. لقد خلق

(*) مجموعة من الأمراء يحملون لقب ألتف. (المترجم)

لهم ملوكًا منذ البيضة، وجعل منهم قادة ليكونوا سنداً لظهر الرجل الضعيف... إن الإله يعرف كل اسم من الأسماء^(١٩).

لقد ولد نظام ملكى جديد، ليصبح الحارس اليقظ.

وأعاد **أممحات** الأول رسم حدود الأقاليم، وهى نقطة حرجة مرتبطة بالإدارة الإقليمية، وأعيد تنصيب حكام الأقاليم وتثبيتهم فى وظائفهم على أساس طاعة الملك، مع استبعاد توريث المناصب استبعاداً قاطعاً. وعندما أظهروا من جديد نزعات استقلالية قام **سنوسرت الثالث** بإلغاء هذا المنصب، وعاد البلاط الملكى ليصبح مركز الإدارة، ويات الوزير يعاونه من الآن «**كبراء الجنوب الثلاثون**».

ركز ملوك الأسرة الثانية عشرة جلّ اهتمامهم على ازدهار الاقتصاد، بعد الأزمة الخطيرة التى مرت بها البلاد. فنفذوا مشاريع تنمية **الفيوم**، وهى واحة شاسعة تقع إلى الجنوب الغربى من **القاهرة** الحالية، ويروىها فرع من **النيل**، هو **بحر يوسف**، وأقاموا منظومة من الترع والقنوات هدفها تنظيم توزيع المياه، فأنشأوا سهلاً فسيحاً خصباً. وشيّدوا **هويساً** قرب **اللاهون**، عند مدخل الممر الذى ينفذ منه **بحر يوسف** إلى الواحة. كان هذا **الهويس** ينظم تدفق المياه، فى حين شيّدوا سدّاً كبيراً لحماية الوادى من المخاطر التى يشكلها تراكم المياه فى زمن الفيضان. إن الاهتمام بتنمية هذه المنطقة سيصبح فيما بعد أيضاً الشغل الشاغل **للرعامسة**. وبعد **طيبة** التى كانت عاصمة البلاد فى ظل الأسرة الحادية عشرة، حلت محلها **الأسث** عند مدخل **الفيوم**، فى عهد **سنوسرت الأول**.

إن أعداداً كبيرة من الحملات أرسلت إلى **سيناء** وأصبحت تضم الآن من ٧٠٠ فرد إلى ٨٠٠ فرد، للحملة الواحدة، فجلبت إلى **مصر** منتجات شبه الجزيرة النفيسة، واستعادت التجارة مع **كريت** ازدهارها. ومنذ الأسرة الحادية عشرة أعيدت إلى درب وادى **الحمامات** كفايته، فهو الطريق إلى المحاجر وإلى **البحر الأحمر**. وفى منتصف الطريق أقيمت واحة، وبجوار ميناء **القصور** أنشئ ميناء وادى **جاسوس**، ومن الآن فصاعداً سوف تصنع فيه السفن من خشب الأرز، التى ستبحر فى اتجاه بلاد **بونت**.

وعاد الازدهار إلى سابق عهده.

وفى هذا العصر ظهرت التراثيم من أجل الملك، وسوف يزدهر هذا النوع فيما بعد، لاسيما فى عصر الرعامسة. وعلى هذا النحو يعلن البشر اعترافهم بالجميل نحو الملك الذى يشاطرهم معاناتهم ويحميهم، كما أنه ملاذ الشعب وملجأه.

هكذا، فإبان قيام سنوسرت الثالث بزيارة إحدى مدن مصر العليا، وفى وسط الأفراح والاحتفالات الشعبية، ارتفعت أغانى جوقات المنشدين بالتناوب:

ما أعظم السيد لمدينته!

هو وحده يعادل الملايين! فالرجال الآخرون صغار

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه القناة التى تحجز النهر من تدفق المياه

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه القاعة الرطبة التى تسمح للإنسان أن يستريح حتى مطلع النهار

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه سور ذو جدران نحاسية (٢٠)

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه الملاذ الذى لا يضعف ساعده أبداً

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه الملجأ الذى ينجى الإنسان الخائف من أعدائه

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه المأوى فى زمن الفيضان، والماء الرطب إبان الفصل الحار

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه ركن دافئ وجاف شتاءً

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه الجبل الذى يصد الرياح، عندما تهب عواصف السماء

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه (الإلهة) **سخت** (٢١) فى مواجهة الأعداء الزاحفين على حدوده (٢٢)

الحروب الخارجية وأول المواقع الاستيطانية

كما أصبح من الضرورى حماية البلاد من أى غزوات محتملة. ومن الآن، صارت **مصر** لا تسعى فقط إلى تأمين توسعها على الصعيد الاقتصادى، ولكن كان عليها أيضاً أن تدافع عن نفسها.

فعند حدود **الدلتا** الشمالية الشرقية شيد **أمنمحات الأول أسوار الملك**، وهى سلسلة من الحصون موزعة فى صف واحد من **پلوزيوم** حتى **هليوبوليس**، ويشغل كل واحد منها حامية صغيرة، مهمتها منع تسلسل البدو الرحل الذين اجتاحوا البلاد على امتداد قرنين. ويبدو أن المهاجرين الذين حلُّوا فى **مصر** واستقروا فيها قد حرّموا من حريتهم، وألحقوا بحيازات المعابد وكبرى الأملاك، ليشكلوا أولى الأيدى العاملة الأجنبية التى سيثير وجودها، فى أزمنة لاحقة، وفى عصر **الرعامسة** تحديداً، العديد من المشاكل.

واستُعيدت سياسة الصداقة وعلاقات التبادل الجيدة مع **أسيا** و**بيلوس**، على وجه التحديد، وهيمنة **مصر** على **الريتنو** فى جوف **فينيقيا**. وتحقيقاً لهذا الهدف اضطر **سنوسرت الثالث** أن يُجرّد حملة عسكرية حتى بلغ **سيشم** وهى مدينة **نابلس** الحالية. إن سيطرة **مصر** على هذه المناطق سوف يتيح لها فرض رقابتها على طرق **أسيا** التجارية، وقد برزت أهميتها تحديداً عندما أخذت إمبراطورية **بابل** الجديدة، فى بلاد **الرافدين**، تزدهر ازدهاراً ملحوظاً.

كان الوضع فى **إفريقيا** مختلفاً كل الاختلاف، فمن خلال ثلاث حملات ضمن **سنوسرت الأول** سيطرة **مصر** حتى الجندل الثالث، وقد استكمل **سنوسرت الثالث** إقرار السلام فى هذه البلاد.

ولإنجاز عملية تمصير الأراضي النوبية والسودانية أقدم سنوسرت الأول وخلفاؤه على تشييد المدن والمعابد والحصون، بهدف غرس وتوطيد سلطة ملك مصر على أكمل وجه في بلاد **واوات** الممتدة من الجندل الأول حتى الجندل الثاني والمطابقة **للنوبة السفلى**، وفي بلاد **كوش** الممتدة من الجندل الثاني وحتى الجندل الرابع، والمطابقة للأراضي السودانية(*).

كانت **النوبة والسودان**، بالنسبة للمصري القديم، امتداداً طبيعياً لمصر، ينظر إليهما باعتبارهما جزءاً لا يتجزأ من أراضيها. وعند مستوى الجندل الثاني، وعند نقطة التقاء المنطقتين الإفريقيتين(**)، تأسست مدينة **بوهن**، لتصبح مركز الإدارة المصرية في هذه البلاد، ولتحل محل **عنتبة** البلدة النوبية، ولتقوم بدورها عاصمة قديمة لهذه الأصقاع. وشيّدت الحصون والقلاع على امتداد نهر النيل، ومن حولها خنادق مغمورة بالماء، ومحاطة بسور من الطوب وأبراج بارزة تخترقها المزاغل. إن جسراً متحركاً من الخشب كان يحمي مدخل هذه البنايات الدفاعية من جهة الصحراء، ويربطها بالنهر طريق منحدر. إن أكثر هذه المنشآت تطرفاً ناحية الجنوب أقيمت في بلدتي **سمنة** و**قمة**، وتقعان على بعد ٧٠ كم جنوب **بوهن**، الأولى على الشاطئ الأيمن والأخرى على الشاطئ الأيسر، وكانتا تحميان الوادي الذي يشكل في هذا المكان ممراً ضيقاً إلى حد كبير(***) .

(*) ويطلق عليها أيضاً **النوبة العليا**. (المترجم)

(**) **أى واوات وكوش**. (المترجم)

(***) يضم كتاب العمارة في مصر القديمة، لعالم المصريات المصري الدكتور محمد أنور شكرى،

المتوفى في ٨٧/٦/٢، رسومات تخيلية لهذه الحصون من شكل ١٢ إلى ١٦. كما يمكن

الرجوع إلى M. Damiano-Appia: L'Egypte. Dict. Enc. de l'Anc. Egypte, Gründ, 1999

لمشاهدة تصور تخيلي لحصن **شلفاك** شمال **سمنة** من ص ٢٤١ إلى ٢٤٨، فيعطى تصوراً

رائعاً على امتداد هذه الصفحات الثماني لهذا الحصن، وكأنها صورة ضوئية حية، لما كانت

هذه الحصون عليه قديماً. (المترجم)

هكذا، أخذ ملوك الأسرة الثانية عشرة، احتياطاتهم، ضد الغزوات المحتملة التى قد تقوم بها القبائل السودانية، وسيطروا سيطرة صارمة على هذه الربوع، لتصبح مستوطنات مصرية حقيقية، ومن أراضى الإمبراطورية فى المستقبل.

طيبة وأمون وأوزيريس فى أبيدوس

ولأول مرة، تندمج مدينة **طيبة** فى **مصر العليا** فى الحياة السياسية. وبالفعل فقد كانت المدينة العاصمة بالنسبة **للأثاتفة والمناتحة(*)**، وحتى إذا هجرها ملوك الأسرة الثانية عشرة، وانتقلوا إلى **اللبث** الواقعة بعيداً جهة الشمال، فإنها ستظل محتفظة من الآن على أهمية مؤكدة. وشرع **سنوسرت الأول** يشيّد أضخم مجموعة مقدسة فى التاريخ فيما نعلم، وهى معبد **الكرك**، إنه أرض الإله **أمون** الذى دخل إلى عالم الشهرة من أوسع أبوابه، جنباً إلى جنب مدينته، وفى آن واحد.

إن **أمون** الذى لم تأت النصوص قط على ذكره حتى الآن، كان إله النسيم ونسمات الهواء والمرشد الموفق لمراكبيّة نهر **النيل**، ويتلوّن لحمه فى الغالب باللون الأزرق السماوى، ويظهر بغطاء رأس مرتفع ذى ريش. إن قامته **(**)** الصقر اللتين تعلوان قاعدة تاجه تذكرنا بأصوله السماوية. وقد كُرس له معبد فى **طيبة** منذ عام ٢٢٠٠ ق.م. تقريباً.

وعندما أقدم الوزير **أمنمجات***)**، وكان فى خدمة آخر المناتحة، على اغتصاب السلطة ليؤسس الأسرة الثانية عشرة، حول عام ٢٠٠٠ ق.م، أعطى فى ذات الوقت الأولية لراعيه الإلهى وحاميه. وكوّن من أجله سلكاً كهنوتياً له شأنه، يضم نحو عشرة

(*) مجموعة الملوك الملقين **موتلى حوتى**. (المترجم)

(**) القادمة هى إحدى ريشات مُقدم الجناح، المعجم الوسيط. (المترجم)

(***) **أمون إم حات**، بالمصرية القديمة. (المترجم)

ومعنى الاسم **أمون** هو الأول. (المؤلفة)

كهنة، كانوا جميعهم فى كبار الموظفين. ومن ثم فقد كان «الكهنة الإلهيون» الأربعة يشغلون إما منصب حامل الأختام أو كانوا من حكام الأقاليم.

ولكن كان يصعب على أمون أن يفرض نفسه بمفرده. فقد ظل رع إله هليوبوليس قويا، كما أن سنوسرت الأول ابن أمنمحات الأول شيد له معبداً فى مدينته، وتباهى المدونة التكريسية لهذا الأثر بأنه تسلم ملكه من حور أختى (أى «حورس الأفقيين»).

لقد أنجبنى حور أختى لتنفيذ ما ينبغى عمله من أجله، ولتحقيق ما أمر بإنجازه. لقد أراد أن أكون الراعى الصالح لهذا البلد، لأنه يعرف من يستطيع الإبقاء عليه فى نظام. لقد منحنى الموضوع الذى يشغل باله على الدوام، أى ما تنيره عينه^(٢٣)... لقد جعلنى سيد القطرين، بينما كنت لا أزال غلاماً أغلف غير مختون...

وتم التوصل إلى «حل وسط»، وفقاً لطريقة جديدة من التليفية الدينية، فتحولت الآلهة المحلية إلى أشكال أو أقانيم للإله رع الذى تألف تألفاً حميماً مع إله طيبة الجديد، بل امتزج به. ومن الآن فصاعداً فإن أمون - رع بفضل سموه الروحى وتفوقه، سوف يقف على رأس مجمع الآلهة المصرية. هكذا سيصبح أمون - رع الإله العظيم للإمبراطورية.

كما أنه زمن انتشار عبادة أوزيريس على نطاق واسع بصفته إله البعث والقيامة، فمن خلال النموذج الذى يقدمه للبشر يوفر لهم الأساليب التى ستساعدهم على بلوغ الحياة الأبدية. ومن الآن لن يكون الخلود وقفاً على فرعون، بل سيمنح لكل الذين يتمكنون بفضل سحر الشعائر والتعاويد الدينية أن يكرروا لحسابهم الخاص وقائع أحداث موت الإله وقيامته.

إنه زمن اختيار أوزيريس موقع أبيدوس ليستقر فيه بشكل نهائى، ولتصبح هذه المدينة القائمة شمال طيبة، ولا تبعد كثيراً عن مدينة ثنى العاصمة الأولى للبلاد، مكانه المقدس العظيم. هذا التوطن الوطيد يعود فى أغلب الظن إلى الانكاثفة، الأمراء

المحررين، الذين أرادوا بهذه الطريقة التواصل مع التقليد القديم المتواتر، ليربطوا نظامهم الملكي الجديد بحيوية هيبية السنوات الأولى للنظام الملكي. إنه زمن الاحتفال بأول الأسرار الدينية المستغلقة، من أجل استعادة أهم فقرات أحداث المعجزة **الأوزيرية**، من خلال الأداء المسرحي للإيماءات والكلمات. كما أنه زمن قيام رحلات الحج من كل حذب وصوب، متجهة نحو المدينة المقدسة، إلى جوار **أوزيريس**، سعياً في طلب الضمانات التي تكفل الحياة الأبدية.

ويجدُ ونشاط، انهمك الملوك «الرعاة الصالحون» في أعمالهم، لتتولى الآلهة الدفاع عن المملكة وحماية البشر، ولكن طرأت فجأة مخاطر خارجية جسيمة.

المرحلة الأولى من الفتوحات القصية؛ إمبراطورية التحامسة

الغزوات والاضطرابات في الشرق الأدنى

• حول العام ٢٠٠٠ ق.م، على ما يبدو، ومع قيام الأسرة الثانية عشرة، بدأت شعوب **أرية** تتحرك في اتجاه الجنوب. ربما جاءت من المناطق الواقعة شمال **بحر قزوين والبحر الأسود**. هكذا تدفق تيار ضخم من الهجرات.

استقبلت **إيران** أولى الهجرات، عندما وصلها **الميديون والفرس** الذين سيقومون في المستقبل وبعد مرور عشرة قرون، بدور بارز ومهم في التاريخ. وإن عبر غزاة **آخرون المضايق(*)**، فقد حطوا الرحال في **الأناضول** ليؤسسوا مملكة **الحيثيين**. وتشكلت دولة **الميتاني** في المنطقة الجبلية الواقعة عند منابع نهر **بجلة والفرات**، ليفرضوا سيطرتهم على **الحوريين(**)**، الأقدم منهم(٩) والذين ظلوا مقيمين عند

(*) مضايق **البوسفون والنيل**. (المترجم)

(**) **الميتاني** بنو عمومة **الحوريين**، وكلاهما من الشعوب **الهندوأوروبية**. د.عبدالعزیز صالح. الشرق الأدنى القديم. مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٨٤. ص ٤٩١. (المترجم)

أطراف المملكة الجديدة. أما **مملكة بابل**، وكانت فى أوج ازدهارها، فى ظل حكم **حامورابى**، فقد استطاعت الصمود لبعض الوقت، ولكن عند وفاة العاهل الملكى لم يتمكن ابنه أن يتجنب قيام **الكاسيين** (*) بتأسيس أسرة ملكية جديدة.

أما **الساميون** من السكان الأصليين فقد تراجعوا فى اتجاه الجنوب بعد أن طردتهم الغزوات **الهندوأوروبية**. وبوفاة **أمنمحات الرابع** الذى أثارت قضية خلافته مشاكل عويصة داخل الأسرة الحاكمة، نفذ **الساميون** إلى داخل مصر، مستفيدين من الضعف المؤقت الذى أصاب المملكة. هذه الشعوب الآسيوية، وكان على رأس كل شعب منهم زعيم، تطلق عليها النصوص المصرية عبارة **حكاو خاسوت** ومعناها الحرفى «**ملوك البلدان الأجنبية**» وقد صحّفه الإغريق إلى **هكسوس**. وظلت أسرتان مصريتان هما الثالثة عشرة والرابعة عشرة، تحكمان دون تحقيق أمجاد تذكر، وحاولتا وقف زحف موجات الهجرات. ولكن حوالى ١٦٩٠ ق.م، فى عهد **نيلومسوس** الملك قبل الأخير من ملوك الأسرة الرابعة عشرة، احتل **الهكسوس** مصر بأكملها، وأشاعوا الرعب والإرهاب. وسوف تظل ذاكرة المصريين تحتفظ لفترة طويلة بذكرى بشعة عن هذه السنوات المرعبة. ونُصّب أحدهم - وهو **ساليتس** - ملكاً، ليؤسس الأسرة الخامسة عشرة. ووقع اختيارهم على **أواريس**، عند الحدود الشرقية لل**دلتا**، لتصبح عاصمة لهم، واتخذوا من **ست** (٢٤) بعد أن أدمجوه فى **بعل**، إلهاً رسمياً.

التحرير على أيدي ملوك طيبة

ومرة أخرى، جاءت نهضة مصر من الجنوب، ومن مدينة طيبة تحديداً.

وبالفعل، لم يتمكن **الهكسوس** من فرض هيمنتهم على مصر العليا لفترة طويلة، إذ استطاع أمراء طيبة إقامة مملكة صغيرة، التزمت بالأسلوب الفرعونى، فضمت قسمين إداريين يدبر شئون كل منهما وزير. وأسسوا ما تطلق عليه مصادرنا اسم

(*) ساد الكاسيون على مملكة بابل من ١٥٢٠ إلى ١١٦٠ ق.م. (المترجم)

الأسرة السابعة عشرة المصرية التي لم تتمكن من فرض سيطرتها الفعلية سوى على
مصر الوسطى ومصر العليا.

وأخيراً استطاع سقن رع تاهو وابناه كامس وأحمس أن يطردوا الهكسوس،
بعد أن حرروا على التوالي هرموبوليس ومنف، وقضوا على تحالف شكّله الهكسوس
مع أمير بلاد كوش، فقد اجتاحت كامس الواحات البحرية في الصحراء الغربية، وكانت
ملتقى الدروب التي توفر اتصالاً مباشراً بين السودان ومصر الوسطى. واستولى
أحمس على أوارييس وطارد الغزاة الذين انسحبوا إلى أرض كنعان. وبعد حصار دام
ثلاث سنوات استولى على حصن شاروهان الذي كان الهكسوس قد لجأوا إليه.
هكذا استردت مصر حريتها.

وفي عام ١٥٨٠ ق.م، قام أحمس، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى،
بتأسيس الأسرة الثامنة عشرة، فكانت أولى أسرات عصر، كان مقدراً له أن يكون من
أزهى العصور في تاريخ مصر. وسوف يشكل الرعامسة الأسرتين التاسعة عشرة
والعشرين.

شاركت طيبة أمجاد أمرائها. وإن أصبحت من جديد المدينة العاصمة، بصفقتها
مركزاً إدارياً وسياسياً ودينياً، فقد صارت من أكثر أماكن العالم القديم شموخاً
ورفعةً.

وعلى أرض الكونك المقدسة التي تبلغ مساحتها ثلاثمئة ألف متر مربع (*)،
سوف يضيف كل فرعون مبانيه الخاصة، تعبيراً عن امتنانه للإله أمون «ملك الآلهة
وسيد عروش الأرضين».

(*) حوالى ٧٢ فدأناً. (المترجم)

العالم الجديد أو ضرورة تأسيس الإمبراطورية

ومن الآن، كان عدد من الدول العظمى قد ظهرت إلى الوجود في الشرق الأدنى: مملكة الميتاني، ومملكة خاتى، والإمبراطورية البابلية في أقاصى بلاد الرافدين، بينما أقل نجم مملكة آشور، بعد أن خضعت لمملكة الميتاني.

ومن بين جميع هذه الممالك، سرعان ما ظهرت مملكة الميتاني، باعتبارها الأقوى في ذلك الزمن. فمن عاصمتهم واشوجاني، بسط ملوك الميتاني سلطانهم شرقاً على بلاد آشور، ومناطق نهر دجلة الشرقية، وشمالاً على المنطقة التى ستصبح أرمينيا، وغرباً فى اتجاه فينيقيا.

إن هذه الدول الجديدة، سواء الميتاني أو الخاتى، قد ركزت جل اهتمامها، فى بادئ الأمر، على فرض نفوذها على البلدان الثانوية من الناحية السياسية، وإن كانت مهمة، من الناحية الاستراتيجية، إذ تتيح لها الوصول إلى البحر وإلى طرق التجارة الدولية، الأمر الذى يفسر سياسة الدسائس، التى اعتمدتها آنذاك الخاتى حول كيزرواقتا(*) وأرزاوا(**)، اللتين كانتا تفصلان هذه المملكة عن البحر المتوسط. وعلى النحو ذاته كان من مصلحة الميتاني أن تفرض هيمنتها على نهارينا(٢٥) ونوحاسا الواقعتين بين نهر الفرات وفينيقيا، وتقفان عائقاً أمام منافذها البحرية المباشرة. كما حيكت الدسائس حول الأمور إلى الشمال من أوجاريت، فمنها كانت تنطلق الدروب مختربة الرمال فى اتجاه قلعتى حلب وكركميش الحصينين، على وجه التحديد، وكانتا على قدر كبير من الأهمية، للتعقيد دروب القوافل.

وبطبيعة الحال، كانت الغاية القصوى من هذه السياسة التحكم فى الموانئ الفينيقية، بعد أن كانت مصر تهيمن عليها حتى الآن.

لم تعد مملكة مصر الدولة القوية الوحيدة فى الشرق الأدنى. فمن الآن ظهر لها منافسون يهددون، وعلى رأسهم دولة الميتاني، التى ستسعى بعد عشرات السنين

(*) جنوب الأناضول. (المترجم)

(**) يعتقد أن أرزاوا هى تلليلية. (المؤلفة)

إلى تشكيل حلف له وزن ضد مصر، فى محاولة من جانبها، لفرض سيطرتها على شواطئ البحر المتوسط، واستبدال نفوذها بالهيمنة الفرعونية التقليدية(*).

عندئذ، ورغبة من ملوك مصر فى الدفاع عن مملكتهم بعد أن أصبحت واقعة تحت تهديدات وطموحات منافسيها السياسية، فإنهم سيعملون على اتباع سياسة فتوحات حقيقية، وذلك بفضل قوة جيشهم، والشجاعة الشخصية التى تحلّى بها رجالهم، ومساعدة أمون - رع. كانت فتوحات دفاعية، الهدف منها حماية مصر من عدو محتمل، والحفاظ على مصالحها الحيوية.

كان الغرض من الفكرة الأولى للإمبراطورية إقامة منطقة عازلة تضم عدداً من البلدان التابعة اقتصادياً لمصر، هدفها الاستراتيجى الحماية، وخاضعة للإمبراطورية المصرية. لقد جاءت فكرة الإمبراطورية نتيجة للأحداث السياسية التى نشأت فى العالم المحيط بمصر، ولم تكن تحركها أبداً رغبة لا مبرر لها فى الاستحواذ على أراضٍ أجنبية؛ فالإمبراطورية الإفريقية أو الآسيوية، على حدٍ سواء، أصبحت من الآن ضرورة حيوية لا مناص منها للحفاظ على مصر.

هكذا، فإن المصريين الذين عُرِف عنهم حبهم للسلام، فيطيب لهم قضاء أيامهم فى سعادة هادئة، أصبحوا المحاربين المغاورين الذين طبقت انتصاراتهم آفاق الشرق. كان هدفهم حماية وطنهم ومجتمعهم العتيق وازدهاره، فأصبحوا بعد فترة قصيرة يسيطرون على إمبراطورية شاسعة.

الفاتحون

كان أمنحوتب الأول وتحوتمس الأول، بدءاً من ١٥٥٠ ق.م، من أوائل الملوك الذين عملوا على ضم الأراضى.

(*) مع تجنب الخطأ الشائع، قالباء تدخل على المتروك. راجع على سبيل المثال الآية ٦١ من سورة البقرة. (المترجم)

وعلى صخور جزيرة طميس، جنوب الجندل الثالث من نهر النيل، أمر تحوتمس الأول بنحت مدونة تروى انتصاراته المظفرة:

لقد أجهز على زعماء النوبيين. وصار الزنجى بلا قوة وبلا مقاومة بعد أن أمسكه بقبضته. لقد ضمُّ إلى مصر حدود جيرانه. ولم يبق أحد على قيد الحياة من بين الرجال من أصحاب الشعر المقصب الذين تمردوا على حمايته لهم، لم يبق منهم كائن من كان. لقد طُرح النوبيون أرضاً، مذبحين ممددين على جنوبهم فى طول البلاد وعرضها^(٢٦). وتفوح من الوديان رائحة الجثث النتنة... ولا يوجد إنسان واحد من بين الأقواس التسعة مجتمعة^(٢٧) يسير ضده. إنه أشبه بفهد دائم الشباب، متجول وسط قطعان الماشية فى المراعى. إن مجد صاحب الجلالة يصيبهم بالعمى.

ووصل (المصريون) إلى حدود أركان الأرض، واجتازوا أطرافها، بفضل ساعده القوى الساعى إلى المعركة. ومن الآن لن يوجد من يجزئ على تحدّيه. لقد فتحت وديان كان يجهلها أسلافه، ولم يرهما قط من كانوا يرتدون البشنث، وتمتد حدوده الجنوبية حتى جنوب هذا البلد^(٢٨). وحدوده الشمالية حتى هذه المياه الشاردة التى يصعد تيارها فى اتجاه الجنوب^(٢٩). ولم يحدث مطلقاً مثل هذا الأمر من قبل لغيره من الملوك...^(٣٠)

هكذا، تأسست الإمبراطورية المصرية فيما بين الجندل الثالث على نهر النيل وحتى نهر الفرات، ومن قلب إفريقيا وحتى موانئ أسيا الصغرى. وأقام تحوتمس الأول لوحاً حجرياً حدودياً عند ضفاف النهر العظيم، ليرسم حدود فتوحاته الشمالية.

وبالتزامن مع الإمبراطورية، نشأت أيديولوجية حربية جديدة، سوف تتطور تطوراً ملحوظاً فى عهد الرعامسة. وينبغى ألا ينخدع المرء بالنبرة الغنائية لهذه النصوص التى تنظر إلى الفتوحات الملكية باعتبارها فتحاً للكون. إن الهدف هدف سحرى، فالنطق بالكلمة يترتب عليه تحقيق ما تعبر عنه. هكذا تظل الفتوحات الفرعونية بقدر اتساع الكون، بفضل قوة الكلمة. ولا يُعتبر الأمر مبالغة تافهة، أو كما يقال أحياناً دعاية مبتذلة، ولغواً لفظياً، بل إنها من مظاهر المعتقدات الروحية الشائعة فى أوساط الساميين والأفارقة.

كان **تحوتمس** الثالث أول ملك يدرك بكل وضوح مفهوم الإمبراطورية.

فعند وفاة **تحوتمس** الثانى الذى استطاع أن يحكم سيطرة **مصر** على **السودان** و**آسيا**، اغتصبت زوجته **حتشپسوت** السلطة طوال ثلاث وعشرين سنة، بحجة وصايتها على عرش البلاد فى بداية الأمر، لصغر سن الأمير. وعندما تربع هذا الأخير على عرش **مصر** عام ١٤٨٠ ق.م، كان الوضع خطيراً، ففى داخل البلاد تركت **حتشپسوت** كهنة **أمون** فى طيبة يزدادون نفوذاً على نفوذ، ولكن الأحوال فى **آسيا** على وجه الخصوص كانت تتذر بخطر وشيك.

كانت **قائش**، قلعة حصينة تقع على نهر **العاصى** فى سهل **البقاع**، وسيظل أميرها على الدوام العدو اللدود للسلطة المصرية، ويبدو أنه وقف آنذاك على رأس حلف معادٍ لفرعون، وكان هذا التحالف بمبادرة ودعم من **الميتانيين**، يضم «ثلاثمئة وعشرين زعيماً، ومع كل منهم جيشه الخاص». إن حرباً ضروساً، ستدوم عشرين سنة، سوف تحتدم بين **مصر** و**الميتانى**، وتروى أحداثها أطول مدونة تاريخية فيما نعلم، والتى نطلق عليها **حوايات تحوتمس الثالث**. إنها عبارة عن ٢٢٥ سطراً من النصوص، طول كل سطر منها، خمسة وعشرين متراً، ومنحوتة على الجدارين الشمالى والغربى من الممر الملتف حول قدس أقداس معبد **أمون - رع** الكبير، فى **الكرك**.

لقد شن **تحوتمس** الثالث سبع عشرة حملة عسكرية متتالية، بواقع حملة كل سنة، فاستطاع إلحاق الهزيمة بهذا التحالف، وترسيخ الفتوحات المصرية عند نهر **الفرات**، بل تمكن إبان الحملة الثامنة من عبور النهر، واكتفى بالإغارة على مملكة **الميتانى**، وكان لا ينوى أن يسير إلى أبعد من ذلك، فظل نهر **الفرات** يشكل على الدوام الحدود الشمالية المثالية فى نظر المصريين.

لقد شنت هذه الحملات من منطلق رؤية استراتيجية صائبة وشجاعة منقطعة النظير، وسوف يستعيد الملوك **الرعامسة** معظم التكتيكات التى اتبعتها **تحوتمس** الثالث عندما شرع يخضع بلدان الشمال. ومن الحملة الأولى وحتى الرابعة استعاد **أرض كنعان** و**الريتنو**، ليتمكن من إقامة قواعد راسخة فى البلدان المتاخمة لمصر، وفى جوف

فينيقيا. أما من الخامسة وحتى الثامنة، فقد كرر لمرتين تأمين نقاط ارتكاز وطيدة على امتداد ساحل **فينيقيا**، فأصبح فى إمكانه سرعة نقل جيوشه عن طريق البحر قبل أن يستولى على «**قائش الغادرة**»، ليتجه بعد ذلك شمالاً ويغزو **نهارينا**. وأخيراً، فقد استغل الحملات من التاسعة إلى السادسة عشرة، لقمع كل حركات التمرد والقيام بجولات تفتيشية، تأكيداً للوجود المصرى. وفى نهاية المطاف كرّست الحملة السابعة عشرة من جديد هزيمة **قائش والميتانى** بشكل نهائى.

إن بعض الروايات الطريفة ترصّع هذه الملحمة الأولى فى التاريخ المصرى، نذكر منها كيف أخذ الشراب فى الجنود المصريين وأسكرهم، وهم فى سهول **أرواد** وهى من أكثر سهول **سوريا** الحالية خصوبة، بالإضافة إلى نقل السفن المبنية فى **بيبلوس** على متن عربات تجرها الثيران عبر صحراء أعالي **سوريا**، لاستخدامها فى عبور نهر **الفرات**، وأخيراً رحلة الصيد فى مواجهة ١٢٠ فيلاً بمنطقة **نبي**، فى بلاد **نهارينا**، وكيف استطاع أحد ضباط الجيش، القائد **أمن إم حب** أن ينقذ حياة الملك. إن رواية **مأثر تحوتمس الثالث** الحربية، وقد سار وحارب فى مقدمة جيشه، تشكل توطئة للملحمة **الرعامسة** المجيدة:

نهض الملك مع مطلع الفجر. عندئذ صدرت الأوامر إلى الجيش بأكمله بالانتشار... وتقدم **صاحب الجلالة** على متن مركبته المصنوعة من الذهب الخالص، وقد ازدان بجلّة المعركة، مثل **حورس** صاحب الساعد القوى، رب القدرة، ومثل **موتى الطيبى** (*). بينما يقوم أبوه **أمون** بتقوية ساعديه... وفى خضم المعركة تسرى قوة ست فى أطرافه. عندئذ يمسك **صاحب الجلالة** بأعدائه، وهو على رأس جيشه. وما إن يشاهد هؤلاء الأعداء **صاحب الجلالة** وقد أحكم قبضته عليهم، حتى يفرّوا هاربين فى اتجاه مجنّى، ويترنحون ويسقطون ورعوسهم فى المقدمة، ووجوههم مرعوبة... (٣١)

لما كان **تحوتمس الثالث** قائداً عسكرياً عظيماً واستراتيجياً ماهراً، فقد اكتسبت **الإمبراطورية المصرية** بفضل هبته مرموقة فى العالم الشرقى. دول **آسيا**

(*) نسبة إلى مدينة **طيبة**. (المترجم)

قاطبة تقدم له الجزية، عربون خضوعها فى الغالب، أو اعترافاً بقوته فى بعض الأحيان، نذكر منها دول **بابل أو آشور أو الخاتى**. وظلت **النوبة والسودان** هادئة مستكينة.

ولما كان **تحوتمس الثالث** إمبراطوراً فطناً ثاقب البصيرة فقد تمكن أيضاً من إدارة شئون فتوحاته وفقاً لنظام ينمُّ من جانبه، على قدر كبير من الوعى السياسى، كانت ممتلكات **مصر** الأجنبية تضم مجموعتين متباينتين من الأراضى، فنجد من ناحية **النوبة والسودان** حتى الجندل الرابع على نهر النيل، ومن ناحية أخرى الأراضى الآسيوية حتى نهر الفرات.

أما فى **إفريقيا** فقد أبقى **تحوتمس الثالث** على الإدارة «الاستيطانية» التى أقامها **أل سنوسرت** والتى طورها، قبل فترة قصيرة، **أحمس وأمنحتب الأول**. وكان الفرعون يفوض موظفاً مصريةً مقيماً فى **بوهن** لإدارة الأراضى الإفريقية نيابة عنه. إنه «رئيس أراضى الجنوب» و«الابن الملكى فى كوش». ويعاونه فى عمله نائبان، يتولى أحدهما شئون إقليم **واوات** والآخر إقليم **كوش**. إن نائب الملك هذا، وهو الاسم الذى أطلقه عليه المؤرخون المحدثون، قياساً على المؤسسات الأحدث، كان يتمتع بالسلطات نفسها التى من اختصاص الوزير فى الوطن الأم. وفى عصر **الرهامسة** سيصبح نائب الملك هذا شخصية ذات شأن. وظلت **مصر** تستثمر هذه البلاد وواصلت تمصيرها، وانتشرت على نطاق واسع أعمال بناء المعابد التى توحد الآلهة المصرية مع الآلهة النوبية مع **فرعون**.

أما أقاليم **أسيا** بأراضيها الشاسعة المقسمة إلى دول صغيرة، فقد كانت تتمتع آنذاك بماضٍ حضارى زاهر وتقاليد متواترة منذ آلاف السنين، ولذلك فإن المبادئ التى رسمت إطار طريقة حكمها مختلفة كل الاختلاف. ولما كان **تحوتمس الثالث** لا يريد الإخلال بهذا التوازن فقد هداه فكره الثاقب إلى رفض تعديل النسيج السياسى لهذه الإمارات أو الممالك أو الجمهوريات التى أقامها الأقدمون، فمنح كل دولة، سواء كانت صغيرة أو كبيرة، حكماً ذاتياً، وعين جهازاً إدارياً عاماً، وهكذا حدد الأقاليم التى يقيم فيها حكام مصريون، يختصون فى الغالب بالشئون المالية، مهمتهم الرئيسية

جباية الضرائب المفروضة على كل مدينة أو دولة، وفقاً لما تتمتع به من خيرات أو ثروات. وقام **فرعون** بتنشئة أبناء الأمراء فى بلاط طيبة، فى رفقة الأولاد الملكيين.

ونشأت بالتدريج عادات كانت بمثابة قانون عرفى، ربط مصر بتوابعها فى آسيا، ينطوى على التزامات وحقوق خاصة بكل جانب فى المجالات السياسية والمالية والعسكرية والقانونية، وقد وضعت تحت رعاية الآلهة التى تضمن حسن تنفيذها.

الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى

وظهر آنذاك وعى بالإمبراطورية، قائم على ما يبدو على فكر فيدرالى. كانت الأراضى الآسيوية المفتوحة تشكل ما يشبه تجمع دول، واحتفظت كل دولة منها بجانب كبير من استقلالها الذاتى. والرابط الذى كان يوحد أقاليم الإمبراطورية هو الدين، ولا سيما **الفرعون** الذى كانت شخصيته الإلهية تشكل، هى والآلهة جمعاء، كياناً واحداً.

إن **النشيد الإمبراطورى الأول** يُورد بعبارات شاعرية غنائية خطاب **أمون - رع** إلى «ابنه / المحبوب» **تموتمس**، إنه يمنحه القوة والنصر على الأراضى قاطبة، كما يعطيه خاصة أن يتجلى على التوالى فى نظر الشعوب التى غزاها فى هيئة آلهة كل شعب منها، ومن ثم يصبح سيدها /الشرعى. ولا يشار إلى حق الغزو عنوة بقوة السلاح إلا عند الحديث عن **النوبة والسودان**، فقد نظر إليهما المصريون بصفتهما تابعتين تبعية طبيعية لبلدهم، ومن ثم لا يستوجب احتلالهما أن يكون مبرراً.

وسيقوم **الرهامسة** باستعادة هذا **النشيد الإمبراطورى الأول** لحسابهم، بعد ملاسته لشكل آخر من الوعى بالإمبراطورية، وهذا النشيد هو نشيد حرب مظفرة^(٣٢):

كلمات قيات من قبل **أمون - رع**، رب عروش **القطرين**: مرحباً بك بجوارى، أنت الذى تفرح لرؤية جمالى، أيا بُنى، يا حامى، يا من خير رع^(٣٣)، ليترك تحيا إلى أبدي الأباد.

إنى أتألق بسبب ما تكنه لى من حب، ويفرح قلبى عند قدومك الميمون إلى
معبدى. إن ساعدى ينضمّان إلى جسدك، ليؤمنان حمايتك السحرية وحياتك. كم هى
ممتعة رقتك بين أحضانى، فسوف أبقيك فى مسكنى إلى الأبد. ومن أجلك سوف
أصنع العجب العجائب.

إنى أعطيك القوة والنصر على كل البلدان الأجنبية. وفى كل الأراضى أقيم
مجدك والرعب الذى تثيره. إن الفزع الذى تستشعره (النفوس) فى حضرتك يصل إلى
حدود أعمدة السماء الأربعة.

إنى أشيد بهيبتك فى الأجساد جمعاء، وأنشر صيحة حرب جلالتك على
امتداد الأقواس التسعة، فأمرأ كل البلدان الأجنبية قد تجمعوا فى قبضتك. إنى
أبسط شخصيا ساعدى وأربطهم من أجلك.

إنى أقيد النوبيين بعشرات الآلاف وبآلاف. لقد وقع أهل الشمال فى الأسر
بمئات الآلاف. إنى أعمل ليسقط أعداؤك تحت نعليك، وتطأ الأعداء أصحاب القلوب
الخشيسة، طبقاً لما أمرت به، من أجلك.

ومن الآن، فالأرض فى طولها وعرضها، وأهل الغرب وأهل الشرق، خاضعون
لسلطانتك. إنك تدوس بقدميك كل البلدان الأجنبية وأنت سعيد القلب. ولا أحد من
حاشيتك يستدير إلى الوراء، فأنا هاديك ومرشدك، وسوف تتمكن من اللحاق بهم.

لقد عبرت مياه ثنية نهارينا العظيمة^(٢٤) بقوة واقتدار كما أمرتك. وعندما يسمع
الأعداء صيحتك - صيحة الحرب - يدخلون فى جحورهم^(٢٥) وأحرمهم من نسمة
الحياة، لأننى أضع الخوف منك فى ثنايا قلوبهم.

إن متوفجتى^(٢٦) (الصل) التى على جبينك تحرقهم، إنها تبديد الفسقة والأثماء.
وتحرق بلهيبها سكان الجزر^(٢٧). إنها تقطع رعوس الآسيويين. فلم يبق منهم أحد،
وقضى على أولاد زعمائهم.

لقد جعلت انتصاراتك تنتشر فى ربوع البلاد، بينما شعبان جببنى يضىء
جسدك.

فلا وجود لإنسان واحد قد يتمرد عليك، حتى أطراف ما تحيط به السماء. إنهم
يأتون حاملين جزيثهم على ظهورهم وينحنون أمام جلالتك، بناء على أوامري.
وأتصرف بحيث تخور قوى أعدائك عندما يحضرون إلى جوارك، وقلوبهم محترقة
وأطرافهم مرتعدة.

لقد أتيت،

وحملتك على سحق أمراء فينيقيا،
وأمددُهم تحت قدميك، في ربوع البلاد
لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك بصفتك رب الأشعة،
وتتألق في وجوههم مثل صورتي^(٢٨)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق شعوب آسيا وضرب زعماء أسيويي
ريتنو،
لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، بعد أن ارتديت حلة (الحرب)،
بينما تمسك أسلحة المعركة على متن مركبتك^(٢٩)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأرض الشرقية، والسير فوق أبناء مناطق
بلد الإله،
لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك نجماً يطلق ضياءه، مثل
لهب ويُعطى أنداءه^(٤٠)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأرض الغربية، بينما كريت

وقبرص منحنية بسبب مجدك،

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، ثوراً دائماً الشباب،

قلبه ماضى العزيمة وحاد القرنين، فتستحيل مهاجمته^(٤١)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق سكان الجزر بينما ترتعد بلاد الميثاني

تحت وطأة ما تثيره من خوف

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك تمساحاً، فهو رب الرعب

وسط المياه، فيصعب الاقتراب منه^(٤٢)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق جزر الوسط، والشديدة الاخضرار

ترزح تحت وطأة صيحاتك، صيحات الحرب

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك منتقماً جباراً، فتظهر ممجداً

على ظهر الثور الصريع^(٤٣)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق بلاد الأوييتيين بقوة

مجدك،

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك أسداً،

بينما تحولهم إلى جثث، على امتداد وديانهم^(٤٤)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأراضى الأكثر بعداً، وأبقيت ما تحيط به

الدائرة الكبرى فى قبضتك

لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك** صقراً بجناحين،

فيستولى على ما يراه حسب رغبته^(٤٥)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأراضى الأقرب، وعلى ربط البدو

أسرى،

لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك**، ابن آوى الجنوب،

ورب الركض، بمشيته السريعة، الذى يطوف **بالقطرين**^(٤٦)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق النوبيين حتى بلاد **شامت**، (سحقهم) فى قبضتك.

لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك**، مثل أخوتك الذين

ضممتُ سوا عدهما من أجلك، تعبيراً عن النصر...^(٤٧)

ولا تشكل إمبراطورية **التحامسة** وحدة سياسية فقط، تريد أن تكون قوية بلا إكراه، ولكنها وحدة دينية رحبة، تلتف حول شخص **فرهون** الذى أدمج فى ذاته آلهة الشرق والبحر المتوسط جمعاء. وهكذا كانت الغلبة لإمبراطور مصر وإرادة **أمون - رع**.

عندما خلف **أمنحوتب** الثانى أباه **تحوتمس** الثالث، حول عام ١٤٥٠ ق.م، حافظ بصلابة على الفتوحات بفضل حملتين عسكريتين فى **أسيا**. وإبان حملة العام التاسع من عهده عاد ومعه ٧١٠٠٠ أسير، وفقاً لما يذكره لوح حجرى عُثر عليه حديثاً فى منف، وكان من بينهم ٢٦٠٠ **هيو**. وإذا نظرنا إلى **العيرو** باعتبارهم **العبرانيين**(*)، نكون أمام أول إشارة تاريخية لهذه القبيلة.

ومن الآن فصاعداً، فإن إمبراطورية **مصر** التى لا ينازعها أحد مقامها الرفيع فى عالم **الشرق**، سوف يسودها السلام على امتداد قرن من الزمن تقريباً، وحتى حول ١٢٨٠ ق.م، عندئذ ستصبح الدبلوماسية ضرورية للحفاظ على الفتوحات التى حققتها الحروب.

ومن الواضح أن **أمنحوتب** الثانى قد وقع معاهدة سلام مع **سوستاتر**، ملك **الميتانى** الذى كانت مملكته تتعرض أكثر فأكثر للقوة المتزايدة للملوك **الحيتيين**؛ فكانت أولى المعاهدات. ولما كانت اتفاقاً شخصياً بين العاهلين الملكيين، كان لزاماً على **تحوتمس** الرابع(**) **وأرتاتاما** الأول أن يجدداها. إن هذا التحالف الدفاعى المعقود، فى حقيقة الأمر، لعرقلة توسع **الخاتى**، دعمه زواج سياسى انعقد بموجبه قران **تحوتمس** الرابع بابنة العاهل **الميتانى**. فكان أيضاً القران الأول. ويشكل هذا الحدث انقلاباً محدوداً على التقاليد المصرية المتواترة، لأن العرف كان يقتضى أن يتزوج الفرعون أخته أو أخته غير الشقيقة، حفاظاً على نقاء الدم. إن الأميرة **الميتانية** التى

(*) هذه ترجمة مضللة، ويجمع علماء المصريات من مختلف الجنسيات على خطأ النظر إلى **العيرو** باعتبارهم **العبرانيين**. راجع فى هذا الصدد هامش المترجم فى «كثير لالويت: طيبة أو نشأة إمبراطورية» ترجمة وتعليق ماهر جويجاني، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص ٤٥٢. (المترجم)

(**) ابن **أمنحوتب** الثانى. (المؤلفة)

سميت بالمصرية **موت إم ويا**، «أى (الإلهة) **موت** - وهى زوجة **أمون** - على متن المركب الشمسى»، أصبحت «**الزوجة الملكية العظيمة**» ووالدة **أمنحوتب** الثالث. إن ضروريات السياسة صار لها الأولوية على التقاليد الموروثة.

ولكن برر كهنة **أمون** فى طيبة هذا الحدث. وفى الحقيقة فإن هؤلاء الكهنة ذاتهم، هم الذين أضفوا فى السابق الشرعية على قيام **حتشپسوت** باغتصاب العرش، ليصوغوا بالتالى النظرية الرسمية للولادة الإلهية، معلنين أن الملكة هى ابنة المولودة من صلب الإله **أمون** - رع، عندما اتخذ هيئة والدها **تحوتس** الأول، فحملت منه من كانت آنذاك «**الزوجة الملكية العظيمة**»، وهو ما توضحه النقوش والنصوص المنحوتة على جدران معبد **الدير البحرى** الجنازى، القائم فى البر الغربى لمدينة طيبة. وعاد كهنة طيبة إلى الأخذ بالنهج نفسه، فاعتبروا **أمنحوتب** الثالث الابن المولود من صلب **أمون** - رع، ونُحتت على جدران معبد **الأقصر** صور ومدونة، شبيهة كل الشبه بتلك الواردة فى **الدير البحرى**. كما سيعود **الرماسسة** إلى الأخذ بهذه الرواية للولادة الإلهية الملكية.

إن الزواج من أجنبيات، والذى سيصبح عنصراً مهماً من سياسة **الرماسسة**، كان منذ عهد **أمنحوتب** الثالث عنصراً مهماً من العناصر التى اهتمت بها الدبلوماسية المصرية، حتى صار جناح الحريم فى **الأقصر** عامراً بالمحظيات. فلما كان فرعون مصر مهتماً بإقامة علاقات تجارية طيبة مع بلاد **بابل** تزوج على التوالى ابنة الملك **كاداشمان** - حريا الأول، ثم أخته، ومع تربع **توشراتا** على عرش **الميتانى** عاد **أمنحوتب** الثالث ليؤكد على التحالف بين النظامين الملكيين، فطلب من العاهل الملكى **الميتانى**، أن يتزوج أخته ثم ابنته بعد فترة قصيرة. إن الملكة **تبي** وكانت آنذاك «**الزوجة الملكية العظيمة**»، ربما كانت تعود إلى أصول **فينيقية**.

إن مصر الموفورة الخيرات والمزدهرة، والتى زادت فتوحاتها ثراءً على ثراء، كانت آنذاك القوة المالية الأولى على مستوى العالم. واستطاع معدن الذهب أن يوفر صداقات جليلة الفائدة. لقد كتب **توشراتا** إلى **أمنحوتب** الثالث قائلاً:

فليرسل لى أخى ذهباً، بلا حدود، وبكميات كبيرة. وكل ما يريده أخى لبيته،
فليخبرنى به كتاباً، وسوف يصله ما يريد، لأننى سأعطيه كل هبة يرغبها أخى، لأن
هذا البلد بلده، وهذا البيت بيتة^(*).

كان وضع فرعون وضعاً مرموقاً، والمدينون له تابعون موالون له. كان الوضع
مماثلاً مع بلاد آشور وبابل، وسيكتب ملك آشور إلى ملك الميثاني قائلاً:
الذهب فى بلدهم وفير وفرة الغبار.

وبطبيعة الحال، تعود هذه السياسة المالية على إمبراطور مصر بهيبة، ترفع من
شأنه.

إن سفراء غير معينين فى منصب ثابت، ولكنهم معتمدون لفترة القيام بمهمة
محددة، لا يتوقفون عن التنقل من بلاط إلى آخر، بين بلدان الشرق. إنهم الموفدون
الشخصيون للملوك، المبعوثون فى مهام سياسية أو بدافع المجاملة، كتسليم جعران
تذكارى من الحجر أو الجشمت، صدر بمناسبة أحداث مهمة شاهدها بلاط طيبة: من
ميلاد إلى حفل تنويع فرعون أو زواجه، كما أن مدونة منحوته على الجانب المستوى
من الوثيقة توضح مصدرها. وقد يكون الغرض من إصدار هذا الجعران الاستفسار
عن صحة «أخ» مريض أو ما شابه ذلك... ونشأت دائرة خاصة بالبلدان الأجنبية،
تُحفظ فيها المراسلات المتبادلة مع ملوك أسيا. واستخدمت هذه المراسلات، لغة دولية،
هى الأكدية. وقد عُثر على جانب منها، فى تل العمارنة وفى مصر وفى بوزان - كوى
فى تركيا، وهى العاصمة القديمة خاتوسا للخاتى.

كانت العبارات المستخدمة والأعراف المرعية تلتزم ببعض الشكليات الرسمية
الصارمة. هكذا نشأت أولى قواعد القانون الدولى برعاية الآلهة.



(*) وهو ما نقوله اليوم فى شرقنا المضيف. (المترجم)

كما ظهر الشكل الثانى للنشيد الإمبراطورى، وسوف يعود الرعامسة فى زمن لاحق إلى استخدامه، إنه خطاب أمون الذى لم يعد يتحدث عن الفتوحات، ولكنه يؤكد على «الأهاجيب» التى يمنحها الفرعون وعلى عالمية خضوع شعوب الإمبراطورية، إنه نشيد السلام الذى حل فى زمن الازدهار. وقد نُحت النص على لوح حجرى كبير، كان من المفترض أن يوضع أصلاً فى معبد أمونوت الثالث الجنازى بالبر الغربى لمدينة طيبة.

كلمات نطق بها أمون ملك الآلهة: «يا بُنى الذى من جسدى، يا محبوبى نب - ماعت - رع^(٤٨)، يا صورتى الحية، أنت الذى خلقك جسدى، والذى أنجبك موت من أجلى، موت سيدة إيشاروى فى طيبة، سيدة الأقواس التسمية. لقد نشأتك لتصبح سيد القوم الأوحده. إن قلبى يفرح فرحاً عظيماً عندما أشاهد جمالك. عندئذ، أصنع من أجل جلالتك، أشياء رائعة. وسوف يتجدد شبابك إلى أبد الآباد، لأننى نصبتك باعتبارك شمس الصفتين.

وعندما أُولى وجهى شطر الجنوب، أصنع من أجلك العجائب، فأجعل زعماء كوش الخسيسة، يأتون إليك حاملين جزيتهم فوق ظهورهم.

وعندما أُولى وجهى شطر الشمال، أصنع من أجلك العجائب، وأجعل أقصى بلدان آسيا تأتى إليك حاملة جزيتهما فوق ظهورهما. وتقدم أطفالها، حتى تُمنح لها نسمة الحياة.

وعندما أُولى وجهى شطر الغرب، أصنع من أجلك العجائب، فأجعلك تستولى على بلاد ثخنو بحيث لا يتبقى منها شىء، وأشيد للحماية هذه القلعة باسم جلالتي، يحيط بها سور شامخ يصل إلى عنان السماء، ويدعمها أبناء الزعماء النوبيين.

وعندما أُولى وجهى شطر النور، أصنع من أجلك العجائب، فأجعل بلاد بونت تأتى إليك من مناطقها، حاملة جميع النباتات الطيبة، لتلتمس منك السلام وتستنشق النسمات التى تمنحها^(٤٩).

إن **أمون** صاحب الواجهات الأربع هو ركيزة الإمبراطورية الأساسية والمقدسة. إن مجرد نظرتة تقود إلى **فرعون** الموكب الطويل المكوّن من أبناء شعوب **آسيا وإفريقيا** دافعى الجزية، وقد أتوا ليقدموا خيراتهم مقابل نسمات الحياة، ويسلمون أبناءهم. وأدى تزايد ثروة الإمبراطورية أيضاً إلى تضخم ثروة كبار كهنة **أمون - رع**، فالحبات الملكية المقدمة إكراماً لإله الانتصارات فى معابده لا حصر لها. وفى وسعنا أن نقرأ النص الآتى على مدونة تكريسيسة فى معبد **الكرك** تعود إلى عهد **أمنحوتب** الثانى (٥٠):

وقع اختيار (**أمون**) على لأكون سيد شعب **مصر**، بينما كنت لا أزال صغيراً فى العرش. لقد أعطانى القسمين^(٥١) وأسند إلى جلالتي مسئولية العرش، بصفتى إنساناً يحقق أشياء مفيدة من أجل أبيه.

لقد صنعت من أجله مقصورة من ذهب، أرضيتها من الفضة. كما صنعت من أجله أعداداً كبيرة من الأنية، أجمل من أبدان النجوم^(٥٢). كانت كنوزه تضم أشياء ثمينة، جاءت مع جزية سائر البلدان. كانت شؤنه ممثلة بالحبوب الطيبة، فتفيض حتى أعلى الجدران. وأعدت من أجله قرابين إلهية.

ومن بين كبار كهنة **أمون** الذين سعوا إلى القيام بدورهم فى وراثة العرش إبان الأسرة الثامنة عشرة، نذكر **حيتشيسوت** فى عهد **حتشيسوت** ومن **خبر رع سنپ** فى عهد **تحوتمس** الثالث، كما حصلوا أيضاً على مناصب مدنية، جعلت منهم كبار المسؤولين فى الدولة. فقد كان من **خبر رع سنپ** مسئولاً عن الشؤون المالية وتسلم ضرائب الجزية المهولة الواردة من أقاليم الإمبراطورية. وشغل كبير الكهنة **ميرى** فى عهد **أمنحوتب** الثانى، وظيفة حاكم **مصر العليا**.

هل شكلت قوة الكهنة الدنيوية تهديداً للسلطة الإمبراطورية؟ وقد حدث على كل حال رد فعل عنيف فى مطلع عهد **أمنحوتب** الرابع، إذ استعاد التقاليد **الهليوبوليتانية** القديمة فاضطهد السلطة **الأمونية**.

ولم يستمر الوضع سوى أربع عشرة سنة، بينما كانت الأحوال فى الخارج خطيرة.

وبالفعل، فمنذ عام ١٣٨٠ ق.م، قرب نهاية عهد **أمنحوتب** الثالث، تقوض التوازن السياسى فى **أسيا** لصالح دولة **الحيثيين** التى كان يحكمها آنذاك ملك نشط شجاع، ونافذ البصيرة إلى حد بعيد، إنه **سوپيلوليوما**. واستغل هذا الأخير الفرقة التى حدثت بين **الميتانى والحووى**^(٥٣)، ليتحالف مع **أرتاتاما** ملك **الحووى**، واستطاع أن يحاصر **الميتانى** وأن يغزوها، بالإضافة إلى **فوجاسا** وشمال **سوريا** الحالية وحتى **الأمورى** وشكلت هذه العملية خطراً على الهيمنة المصرية التى باتت مهددة تهديداً ملحوظاً. وقد استغاث بفرعون، **ريب هدى** ملك **بيلوس** وغيره من أمراء **فينيقيا**. ولكن **أمنحوتب** الثالث بعد أن أصبح طاعناً فى السن أخذ يماطل فى اتخاذ القرار المناسب، وتنازل دون معارك عن السلطة التى تركها له أسلافه على الأقاليم الآسيوية الشمالية. واستتم إلى جانبه ملك **الحيثيين**، فأبرم مع **سوپيلوليوما** معاهدة تحالف. ومن الآن فصاعداً، سيقع الحد الشمالى للممتلكات المصرية عند نهر **العاصى**. فكان التراجع الأول.

وبدورها، وإذا أرادت بلاد **بابل** أن تضمن أمن قوافلها وتجّارها، اتجهت إلى التحالف مع ملك **الخاتى**^(٥٤) القوى، بل إن **الميتانى** ذاته سعى إلى التقارب مع **سوپيلوليوما**.

وأخر ما فعله **أمنحوتب** الثالث الذى سيسعى إلى إعادة العلاقات مع ابن خاله، **توشراتا** ملك **الميتانى**، فطلب الزواج من إحدى بناته، وإن لم يحل ذلك دون حدوث الكارثة المتوقعة. كان زمن الدبلوماسية قد ولى وانقضى وأخذ **الخاتى** يتوعد ويهدد.

(*) **خاتى**: هكذا أطلق على دولة **الحيثيين**، بعد أن اتخذت من **خاتوماس** - **بوغان كوى** الحالية - عاصمة للبلاد. الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة، وزارة الثقافة والإعلام، ص ٢٢٢. (المترجم)

وفى بداية، عهد **أمنحوتب الرابع**، قام **أزيرى** ملك **الأموري** بقتل الحاكم المصرى المقيم فى الميناء الفينيقي **سيميرا**. وأصبح **أزيرى** من الآن تابعاً للملك **سوپيلوايوما**، ولم يصدر أى رد فعل من جانب **أمنحوتب الرابع**، وكان أميراً شاباً مهتما بالروحانيات، وشغله الشاغل الأيديولوجيا الدينية. وفى أعقاب قيام ابن ملك **الميتانى** باغتيال أبيه، أقدم **الحوريون** بمساندة **أشور أوباليت الأول** ملك **أشور**، على اجتياح **الميتانى** الذى استنجد ببلاد **خاتى**، وفقد استقلاله بشكل نهائى. وإذ ظل **أمنحوتب الرابع** يماطل فى اتخاذ القرار الحاسم، أبرم معاهدة تحالف مع **أشور**، القوة الخطيرة الصاعدة، وقد هجر ملوكها مدينة **أشور العتيقة**، ليتخذوا من **نيوى** عاصمة جديدة. حتى الآن كانت بلاد **أشور** خاضعة لإمبراطورية **بابل**. ولكن كان ابن **بورنابورياش**، ملك **بابل** وولى عهده، قد عقد قرانه على إحدى بنات **أشور - أوباليت**، وأثمر هذا الزواج عن ميلاد ابن. وبعد وفاة الأب والابن، ثم بعد وفاة **بورنابورياش**، تدخل ملك **أشور** فى **بابل** لتنتقل وراثة العرش إلى الأمير الصغير الذى أنجبته ابنته. وهكذا أصبحت عاصمة **الفرات** العظيمة خاضعة لسيطرة بلاد **أشور**، التى تعاظمت قوتها وثروتها إلى حد بعيد.

ومع ذلك، كان ملوك **مصر** يلتزمون بسياسة خاملة ومحايمة، فيتجنبون الحروب، وتهادنون مع الممالك المنافسة من خلال عقد معاهدات، فكانت سياسة قصيرة النظر، إلى حد بعيد.

وفى أعقاب هذه الأحداث احتلت ثلاث قوى عظمى مسرح العالم الشرقى: **مصر** التى فقدت الكثير من هيبتها، إلى جانب الأقاليم الحدودية الشمالية لإمبراطوريتها، ثم **الخاتى** التى أبقت **الميتانى** تحت سيطرتها، وأخيراً بلاد **أشور** التى تسلطت على بلاد **بابل**.

عهد حورام حب، أو التمهيد لعصر الرعامسة

كان **أمحتوب الرابع** (*) مهدداً تهديداً خطيراً من جراء عداوة كهنة **أمون** الذين أراد القضاء عليهم، وعند وفاته أعاد **توت عنخ آمون** السيادة إلى إله طيبة. ومن المحتمل بعد ذلك أن تكون الأميرة **عنخ إس إن أمون**، أرملة **توت عنخ آمون** وابنة **أمحتوب الرابع** و**نفرتيتي**، من المحتمل أن تكون قد سعت إلى الزواج من أحد أبناء ملك **خاتى**، رغبة منها فى خلافة زوجها على عرش **مصر**، ولا نعرف الدافع وراء تصرفها هذا. وبعد أن ظل **سوپيلوليوما** متردداً، على ما يبدو، لبعض الوقت، هم الأمير بالرحيل، ولكنه قُتل وهو فى الطريق. ورغبة فى الانتقام زحف جيش **الحيثيين** فى اتجاه الجنوب، وثارَت أرض **كتعان**، بينما تزوجت **عنخ إس إن أمون** أحد الموظفين، وهو **أى**، وكان عهده عهداً بلا أمجاد.

جاء القائد العسكرى **حور إم حب** لينقذ **مصر**، ويُقال إنه المسئول، على ما يعتقد، عن اغتيال الأمير **الحيثى**. أو ربما كان **أى**. وأياً كان الأمر، فإن **حور إم حب**، وهو قائد الجيش المصرى، نجح فى التصدى لقوات **الحيثيين** ومنعهم من عبور نهر **العاصى**، وسيطر على أرض **كتعان**. كان **حور إم حب** ينتمى إلى طبقة من النبلاء طيبة الأعراق رفيعة القدر. وحول عام ١٢٣٩ ق.م، جاءه هاتف من **أمون**، ليخوِّله أسمى السلطات، فأصبح سيد **القطرين**.

كان ملكاً نشطاً نافذ البصيرة، فأعاد النظام الداخلى إلى سابق عهده، وحجَّم طموحات كهنة **أمون** وأعاد إلى مدينة **منف** رفعة شأنها. ولما كان بلا وريث، فقد اختار خليفة له، القائد العسكرى **الوزير پا رمسيس**، الذى سيتربع على عرش **مصر** حول عام ١٢١٤ ق.م، تحت اسم **رمسيس الأول** ويؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

(*) **أخناتون**. (المترجم)

ثانياً، التوازن الهش فى عالم القرن

الرابع عشر قبل الميلاد

عندما تربع **رعمسيس الأول** على عرش **مصر** كان التوازن فى **الشرق** وفى **حوض البحر المتوسط** مزعزجاً إلى حدٍ بعيد، فسادت المؤامرات والحروب، وأصبحت اللعبة السياسية تجمع باستمرار بين الأعمال الحربية والدبلوماسية.

وإلى جانب الطموحات المتنافسة لأقدم الدول، أضيفت إليها التطلعات الجديدة للشعوب **الأخائية**^(*)، وتصادمت طموحات الهيمنة، سواء أكانت سياسية أم تجارية. وكانت موجة من الاضطرابات تلوح فى الأفق.

ولكن **مصر** التى ظل يحكمها، من الآن فصاعداً، ملوك عسكريون، سوف تستعيد تفوقها وثرائها ورفاهيتها، لتفرض قوتها وهيبتها على الممالك الأخرى.

مملكة الحيثيين القوية

أما **مصر** الخاملة المستكنة فى عهد **أمنحوتب الثالث** و**أمنحوتب الرابع** وخلفائهما، فقد شهدت، دون أى تدخل من جانبها، اختفاء **الميتانى** من المسرح السياسى. لقد تركت الملوك الحيثيين يرسخون أقدامهم فى شمال **سوريا** الحالية. ومن خلال حملتيه العسكريتين نجح **سوپيلوليوما** فى إخضاع **نوحاسا** و**حلب** و**قطنة**، ووصل إلى **دمشق**، كما استسلمت **قادش**، وأصبحت جميع البلدان من **لبنان** حتى **الفرات** بين يديه، وظل **أزيرى** ملك **الأمورى** حليفاً وفياً.

ولم تجد صيحات الاستغاثة التى أطلقها أمراء **فينيقيا** أذاناً صاغية لدى **فرعون**، فظلت بلا استجابة حقيقية ولم تغير شيئاً من موقفه التسويفى، فترك

(*) أقدم الشعوب الإغريقية. (المترجم)

سوپيلوليوما يستولى على البلدان الحدودية الشمالية، لما كان يشكل فى يوم من الأيام إمبراطورية **التحامسة** العظيمة. ومنح ملك الحيثيين أولاده الممالك والإمارات التى كانت خاضعة فى الماضى للهيمنة المصرية، نذكر منها تحديداً مدينتين مهمتين هما **حلب** و**كركميش** الواقعتين على نهر **الفرات**، وكانتا فى الوقت نفسه، محطتين تتوقف عندهما القوافل ومركزين استراتيجيين.

وبفضل ذكاء لافى للانتباه، ورؤية سليمة شاملة، استكمل ملك الحيثيين بناء الإمبراطورية التى أقامها بفضل فتوحاته، واستكملها من خلال دبلوماسية نشطة ومتواصلة. وأبرم مع **الميتانى** معاهدة فرضت على هذا الأخير سيادة الحيثيين، لا سيما بعد أن أصاب الوهن مملكة **الميتانى**، من جراء الانشقاقات والانقسامات الداخلية تحديداً. كما أبرم معاهدة أخرى مع **كيزواتتا**، الواقعة فى المنطقة الممتدة من شرق جبال **طوروس** فى **الأناضول** وحتى **البحر المتوسط** وإلى الشرق من بلاد **خاتى** أيضاً. وتتكون هذه المعاهدة من أربع وستين مادة، وبموجبها كان ملك **كيزواتتا** مطالباً، فى حالة وقوع نزاعات مسلحة، أن يقدم قوات عسكرية مقابل تمتعه ببعض الامتيازات. وإلى الشرق ظلت الهيمنة الحيثية تتوسع بصفة مستمرة، حتى أعالى وادى **الفرات**. ومن غير المستبعد، من جهة أخرى، أن يكون **أمنحوتب** الرابع قد أبرم معاهدة مع **سوپيلوليوما**. ويستند هذا الافتراض على إشارة، يعوزها الوضوح، وردت فى نص الاتفاق المبرم فى وقت لاحق، حول عام ١٢٧٨ ق.م، بين **خاتوسالى** الثالث و**رعسيس** الثانى^(٥٤).

ومن الآن، أصبح **الخاتى** يشغل مقدمة مسرح السياسة الدولية.

وحول عام ١٢٤٦ ق.م، وفى عهد الملك **أى**، توفى **سوپيلوليوما**، متأثراً بوباء الطاعون الذى اجتاح آنذاك **أسيا الصغرى**. ولم يدم حكم ابنه **أرنووندا**، سوى فترة قصيرة، لإصابته بالمرض نفسه، على ما يظن.

كما اضطر **مورسيل** الثانى، الابن الأصغر، أن يخارب فيما بعد على امتداد عشر سنين، تدعيماً لإمبراطورية **الخاتى** الجديدة، كما استطاع أن يؤمّن سيطرته فى الجنوب على القسم الأكبر من **أسيا الصغرى**، بعد أن شن حملات عسكرية ضد

أرزاوا وحلفائها من الممالك المجاورة، التي أقامت تكتلاً مناوئاً له. وصارت أرزاوا دولة تابعة لبلاط خاتوسا. وفي الشمال، وفي منطقة **بونت** (*) أثارت شعوب جاسجا القلاقل من جديد. كانت شعوب خشنة الطباع، لا تزال تحيا حياة قبلية، وتعيش على تربية الخنازير وغزل الكتان... وعلى السلب والنهب، وفي صراع مع دولة الحيثيين، في معظم الأحوال. وفي العام التاسع من عهد **مورسيل الثاني** وقع تمرد في سوريا، في مملكة **نوحاسا** بمنطقة **حلب** وفي **قاندش**. وضرب الآشوريون الحصار على **كركميش**. وحارب **مورسيل الثاني** في جميع الجبهات، فانسحب الآشوريون وقضى على التمرد، وأعاد ملك الحيثيين تنظيم أقاليمه السورية.

وعندما خلف **موواتالي أباه مورسيل** عام ١٢١٥ ق.م، وعشية تربع **رمسيس الأول** على عرش مصر اتسعت ثورة **الجاسجا**، فاجتاحوا منطقة **خاتوسا** ذاتها، مما اضطر **موواتالي** إلى نقل عاصمته في اتجاه الجنوب، كما عبروا نهر **هاليس**. وبعد فترة امتدت لعشر سنوات، ظلوا طوالها يعيشون في الأرض فساداً، نجح **خاتوسالي** أخو **موواتالي** في سحقهم، بينما كان الملك شخصياً يتغلب على ثورة أخرى في **أرزاوا**.

كانت إمبراطورية **الحيثيين** تتشكل من اتحاد تعاهدي كونفيدرالي، تتحكم فيه لعبة الدسائس الدولية. كانت قوية في الظاهر، ولكن بقاءها يعتمد على الحملات العسكرية المستمرة وبفضل أساليب دبلوماسية فطنة، كما كانت تصطدم بطموحات الهيمنة المنافسة، الصادرة عن بلاد **أشور** شرقاً وشعوب **الأخائيين** غرباً، في بحر **إيجيه** وعند شواطئ **أسيا الصغرى** ذاتها.

(*) وتقع في شمال **أسيا الصغرى** وتطل على **البحر الأسود**. مع عدم الخلط بينها وبلاد **بونت**.
Pont الشهيرة الواقعة في شرق **إفريقيا**. (المترجم)

صعود القوة الآشورية

وهيمنة بلاد بابل

ينظر إلى **أشور - أوپاليت الأول** الذي امتدت سنوات حكمه من ١٢٦٦ إلى ١٢٣٠ ق.م، باعتباره أحد كبار مؤسسي القوة الآشورية. وللأسف لم يصلنا سوى عدد محدود من الوثائق عن عهده، وتنحصر أساساً في المدونات التي تُحيى ذكرى تأسيس المعابد.

وفي مرحلة أولى كما سبق أن نوهنا بذلك^(٥٥)، أبعد مملكته عن علاقة التبعية القائمة بينه وإمبراطورية بابل، بل والأكثر من ذلك، فقد استطاع بطريقة غير مباشرة أن يمد سلطانه على الوطن الأم الكبير عند نهر الفرات. وبالفعل فإن حفيده **كاداشمان - حريا**، المولود من ابنته وابن **بورناپورياش**، استطاع أن يحكم إمبراطورية بلاد الرافدين لفترة قصيرة.

ولكن **كاداشمان - حريا** اغتيل على أيدي رعاياه **الكاسيين**، فكان المبرر الذي تذرع به **أشور - أوپاليت** للتدخل تدخلاً مباشراً، وإقامة **كوريغالزو الثاني** على العرش. وهو ابن **كاداشمان - حريا**، وابن حفيده إذن، كما كان فتى في مقتبل العمر، الأمر الذي أتاح بالطبع أن يفرض ملك **أشور** سيطرة واضحة على بلاد بابل.

دام حكم **كوريغالزو الثاني** اثنتين وعشرين سنة. ولكن الشعور الوطني كان يجد صعوبة في التكيف مع الهيمنة الآشورية، وعندما قام **إثيل - نيراري**، ابن **أشور - أوپاليت** بخلافة والده، حول عام ١٢٢٩، اضطر إلى خوض معركة عسكرية ضد بلاد بابل، خرج منها منتصراً.

وفي عهد ابنه **أريك - ين - إيلي**، من ١٢١٩ إلى ١٢٠٨ ق.م، استؤنفت الحرب عند حدود المملكة. بدأت عند جبال **زاجروس**، ضد **الجوتى** وهم شعب يعيش في الجبال، وكانت خشونة أخلاقهم وطباعهم المحاربة، قد ساهمت في تدمير إمبراطورية

بلاد الرافدين الأولى التى أسسها **سرجون الأكدي(*)**. ثم خاض المعارك فى المنطقة الواقعة غرب أعالى وادى نهر **لجلة**، لإخضاع الشعوب المتحالفة مع البدو الآراميين، وكان النصر نصراً قاطعاً وشاملاً.

وفى مرحلة أولى تواصت بلاد **أشور** مع قوتها الجديدة، واستوعبت فتوحاتها. ويبدو أن بلاد **بابل** قد أثرت تأثيراً أكيداً على الآشوريين على الصعيدين الثقافى والدينى. وهكذا فإن عبادة **مردوك إله بابل** الوطنى، قد تم الترحيب بها فى **نيوى**. وفى وقت لاحق، وبعد انقضاء عشرات السنين، سوف تبلغ بلاد **أشور** من القوة بحيث تشكل تهديداً خطيراً على **الخاتى** والتوازن القائم فى عالم الشرق.

الشعوب الآخائية ومصير طروادة

فى الألف الثالث قبل الميلاد كانت حضارة تُعرف بـ **الإيجية(**)** مزدهرة فى شرق **البحر المتوسط**. كان إشعاعها يلتف حول جزيرة **كريت**، كما ازدهرت أيضاً فى أرخبيل **القوقلايس** اليونانى les cyclades، وأهم جزره **ميلوس** الغنية بمناجم السبج الذى جرى استخراجُه منذ وقت مبكر جداً. أضف إلى ما سبق جزيرة **قبرص** بثرواتها المتنوعة من غابات تغطى سلسلتين جبليتين ومن سهل شاسع مزروع قمحاً، ومن مناجم نحاس مهمة، وكان بكميات كبيرة حتى أعطى اسمه للجزيرة. وتطلق النصوص المصرية اسم **الاسيا** على جزيرة **قبرص**.

وحول عام ٢٠٠٠ ق.م، وصلت هذه الحضارة التى أبدعها «رجال الجزر»، المنتسبون إلى جنس يُعرف بعبارة عامة تحت اسم «جنس البحر المتوسط»، وصلت إلى أوج ازدهارها. وفى **كريت**، شيدت آنذاك قصور **كنوسوس** Cnossos و **فايستوس** Phalstes و **ماليا** Mallia. وبعد أن دُمرت، عام ١٧٠٠ ق.م تقريباً، سواء من جراء زلزال أو أعمال تخريب قامت بها شعوب معادية (٩)، أعيد تشييدها. وتعتبر المرحلة التالية من تاريخ الجزيرة التى تتفق مع بدايات الأسرة الثامنة عشرة المصرية، من أزهى

(*) فى الألف الثالث ق.م. (المترجم)

(**) نسبة إلى بحر **إيجة**. (المترجم)

عصورها. إنه زمن الملك مينوس Minos، وهو حسب الأسطورة، الابن الإلهي للإله زيوس Zeus وأوروبا^(*) Europe. وأسس هذا الملك إمبراطورية بحرية فى بحر إيجه، ليفرض بكل وضوح هيمنته السياسية على الجزر، كما أقام أبناءه على رأس المستوطنات التى أنشأها فى أرخبيل القوقلايس. وأسهمت الزراعة وتربية الماشية والصيد البحرى وأعمال التعدين فى ثراء جزيرة كريت، وكان نشاطها التجارى عند ملتقى بلدان إفريقيا وآسيا وأوروبا بالغ الأهمية.

هكذا انتشرت الحضارة الكريتية أو الميناوية فى أرجاء شرق البحر المتوسط وفى البيلوبونيز^(**) Péloponnèse. وقد أثرت تأثيراً حضارياً مفيداً على اليونان التى كانت لا تزال حتى ذلك الزمن بلداً فقيراً ومتخلفاً، تجوبه الهجرات الهندوأوروبية التى اتخذت من هذه البلاد بالتدرج مقاماً لها واستقرت فيها.

واعتباراً من القرن السادس عشر قبل الميلاد، استقر بعض هذه الشعوب وهم الأخائيين فى منطقة أرجوس فى شمال شرق البيلوبونيز. وسيصبحون فيما بعد عنصراً أساسياً من مقومات الشعب اليونانى. وخضع الأخائيون فى بداية الأمر لهيمنة كريت الروحية والثقافية وهى فى أوج ازدهارها.

ولما كان الأخائيون محاربين بواسل، فقد قاموا عام ١٤٠٠ ق.م، فى عهد أمـنـحـوتـب الثالث، بشن هجوم على كريت، وياغتوا العاصمة المهيبة كنوسوس Cnossos ودمروها وعاثوا فساداً فى قصور فايسـتـوس وحاجياتريادا Hagia Triada. عندئذ ولدت حضارة جديدة، وجُدت مراكزها الرئيسية فى تيرونس وميقينية تحديداً، ولكنها امتدت أيضاً إلى إسبرطة وپيلوس وطيبة القائمة فى بيوسيا^(***) وإلى جزيرة رودس.

وتدين هذه الحضارة الميقينية بالكثير إلى كريت التى استغل الأخائيون تراثها الفنى والثقافى والدينى. ولكن بعض السمات المميزة لهذا الشعب الجديد طبعت أيضاً

(*) (إحدى شخصيات الاساطير اليونانية. (المترجم)

(**) (شبه جزيرة فى جنوب اليونان، بين بحرى إيجه والإيوني. (المترجم)

(***) (فى وسط اليونان. (المترجم)

بطابعها المجتمع الجديد الذى كان فى طور التشكيل، فالمنظر الذى يميل إلى تعاظم نزعة القتال والتحدى بالروح العسكرية، جعلهم يحولون القصور **المينوية** إلى قلاع متأهبة للدفاع ووضعت الأسلحة ومعدات المحاربين فى المقابر. كما لم تعرف حكومة مركزية ولا مملكة موحدة، بل أمراء مستقلين يتنافسون فى الغالب فيما بينهم ويميلون إلى العنف، وينصب نشاطهم على أعمال الصيد البرى أو السلب والنهب. أما عن أبناء **كريت** الذين تعلموا على أيديهم، فقد ساعدهم **الأخائيون** على تطوير تجارتهم تطوراً عظيماً، فمهدوا لهم الطرق وشيدوا لهم الموانئ. وترتب على ذلك ازدهار مستمر، فى أن واحد ليس فقط من الحروب وأعمال السلب والنهب، ولكن أيضاً من العلاقات التجارية. فلا يوجد موقع أثرى قدم لنا من الذهب مثل ما قدمه موقع **ميقنية**.

ولما كان **الأخائيون** قوماً من التجار يقدمون على أعمالهم بجرأة وجسارة، فقد جذبتهم، على نحو خاص، خيرات **الهيليسبونتوس** ^(*) Hellespont وموانئها وشعوبها من التجار. ومن غير المستبعد أنه بعد ١٤٠٠ ق.م بسنوات، وفى عهد **أمنحوتب** الثالث أيضاً، وفى العصر الذى سعى فيه **ثيسيسوس** ^(**) Thésée إلى توحيد جنوب **اليونان** حول **أثينا**، كانت حملة **الارجونوت** ^(***) Argonautes أولى محاولات أبناء **ميقنية**، للوصول برحلاتهم البحرية إلى **الأوكسينوس بونتوس** ^(****) Pont-Euxin والاستيلاء على ذهب **كولخي** ^(*****) Colchide. ولكن طروادة كانت لهم بالمرصاد، واضطر المغامرون **الأخائيون** أن يولّوا أذراجهم، عائدين إلى بلادهم.

ويبدو على كل حال أن سكان **ميقنية**، المرتبطين بعلاقات مع شعوب ساحل **أسيا الصغرى**، قد أقاموا على ما يعتقد، وكالات تجارية فى **أفسوس** و**ميليئتوس**

(*) الاسم اليونانى الذى أطلقه الإغريق قديماً على مضيق **الدرينيل**. (المترجم)

(**) ملك يونانى، وفقاً لما هو وارد فى الأساطير اليونانية. (المترجم)

(***) كما ورد أيضاً فى الأساطير اليونانية. (المترجم)

(****) الاسم اليونانى الذى أطلقه الإغريق قديماً على البحر الأسود الحالى. (المترجم)

(*****) الاسم اليونانى الذى أطلقه الإغريق قديماً على المنطقة الواقعة شرق البحر الأسود وجنوب

القرتان الغنية بمناجم الذهب. (المترجم)

وكولوفون، على وجه التحديد. وحدث في هذه الآونة، إذ استشعر الحيثيون الخطر الجديد الذى يشكله الأخائيون، ورغبة منهم فى الحيلولة دون سيطرتهم على ساحل أسيا الصغرى، فقد جمعوا من حولهم أبناء مناطق طرواس(*) وموسيا ولوقيا(**)، بعد أن أبرموا معهم سلسلة من المعاهدات، يقدمون بموجبها فرقاً عسكرية. كان ملوك الخاتى زعماء أذكىاء نافذى البصيرة، يدركون كل الإدراك مصلح إمبراطوريتهم الشاسعة، فسعوا إلى حمايتها من خلال دول حاجزة، فكانت الميثانى، من ناحية بلاد آشور وشعوب ساحل أسيا الصغرى، ناحية الأخائيين.

إن لمينا طروادة، فى شمال غرب أسيا الصغرى، المتحكم فى المضائق(***)، ويسمح بالعبور من البحر الأسود إلى بحر إيجه، أو يحظره، ظل يحتل على الدوام أهمية تجارية ذات شأن.

ومنذ ٢٤٠٠ ق.م، فى زمن الدولة المصرية القديمة، فإن طروادة كانت فى بداية الأمر مجرد بلدة متواضعة للصيادين، سبق تدميرها للمرة الأولى حول عام ٢٠٠٠ ق.م، على ما يبدو، كانت قد أصبحت إذن، منذ عام ٢٤٠٠ ق.م، مدينة كبيرة، تضخم ثراؤها بفضل مكوس العبور التى تحصلها، أو محطة الوقوف التى توفرها للسفن التجارية.

وربما لحق بها الخراب للمرة الثانية، فى زمن الهجرات الهندوأوروبية، عام ٢٠٠٠ ق.م، إلا أنه أعيد بناؤها لتشد على ما يبدو فيما بعد، أطماع زعماء ميثنية. وفى عهد رمسيس الثانى، حول عام ١٢٩٠ ق.م، سيحاول أجاممنون(****) وأمرأه وأسطوله تحقيق هذه المغامرة، فاندلعت حرب طروادة. ولكن دُمرت المدينة مرة أخرى، إلا أنها ستعود إلى الظهور من جديد، فالموقع الذى تشغله يشكل أهمية أساسية لتجارة العبور.

(*) وتقع طروادة فى وسطها. (المترجم)

(**) وتقع جميعها فى الجزء الغربى من أسيا الصغرى. (المترجم)

(***) وهى مضائق البوسفور والدردنيل. (المترجم)

(****) ملك ميثنية. (المترجم)

طرق الهلال الخصيب وكبرى الأسواق العالمية

من بلاد الرافدين إلى فينيقيا

إذا كانت الموانئ، تقوم بدور مهم فى عالم التبادل التجارى، فإن دور مدن الرمال على القدر نفسه من الأهمية.

إن سير القوافل عبر الدروب الطويلة مخترقة الصحارى ببطء، كانت تنقل على ظهور الحمير^(٥٦) خيرات بلاد الرافدين حتى البحر المتوسط، وثروات بلاد العرب حتى شواطئ فينيقيا، كما تجلب إلى مصر أيضاً اللزورد الأصلى والنفيس من أفغانستان القصية.

هكذا نشأ طريق عبور كبير موغل فى القدم، فيتم الإبحار صعوداً عبر نهر الفرات الطويل وصولاً إلى بابل ومارى، المدينة التى أحرقتها هامورابى، حول عام ١٩٠٠ ق.م، ثم اختراق صحراء أعالى سوريا، وكانت حلب محطة مهمة، تتوقف عندها القوافل التى تنقل معها ما تحتاج إليه من ماء ومؤمن وما تحمله من خيرات، ويبيتون فى الخيام عندما يرخى الليل سدوله. وتمر الأيام متباطئة ببطء الحيوانات. وعند وصولها إلى خليج الإسكندرونة، عليها أن تختار بين طريقين، فإما أن تتجه شمالاً لتعبر شعاب جنوب شرقى الأناضول عبر جبال طورس وصولاً إلى الخاتى، أو تتجه جنوباً بمحاذاة البحر المتوسط وشاطئ فينيقيا وصولاً إلى مصر. إن هذا الطريق الطويل القديم الذى يتخذ هيئة القوس هو السبب وراء تسميته **بالحلال الخصيب**. كما أن دروباً ثانوية كانت تشق بلاد كنعان والريتنو فى جميع الاتجاهات.

هكذا لا يزداد فهمنا لأهمية الموانئ الفينيقية فقط، ولكن أيضاً لمدن الرمال هذه، فكانت إمارات صغيرة هى فى الغالب وكالات فسيحة ومواقع استراتيجية، وأهداف لم تتوقف صراعات القوى الكبرى القائمة آنذاك للسيطرة عليها، وقد وضع **التحامسة** نصب أعينهم أن الاستحواذ عليها مصدر قوة إمبراطوريتهم واثرائها. كانت **مجلو** نقطة وصول طرق القوافل القادمة من بلاد العرب ومحطة تتوقف عندها الدروب المتجهة إلى نهر الفرات، أما دمشق فنقع على الطريق الذى يربط موانئ فينيقيا بمدينة

بابل. أضف إلى ذلك **تونيب وقادش وتدمر وحلب وكركميش**، على نهر **الفرات**، وهي ملتقى الطرق القادمة من **البحر المتوسط** و**آسيا الصغرى** والمتجهة إلى **بلاد الرافدين**.

إن معظم دروب الصحراء هذه تنتهى عند **فينيقيا**. ومن المؤكد بطبيعة الحال، أن **فينيقيا** كانت آنذاك السوق العالمية الكبرى. ففي موانئها كانت تتكس المنتجات من كل صنف ومن كل نوع، الواردة من **الشرق** ومن **إفريقيا** ومن **البحر المتوسط**. هنا كانت تتم الصفقات التجارية المربحة القائمة على المقايضات فى أغلب الأحوال، وفى هذه الأسواق الشرقية كانت المساومات والترثرات المجهدة لا تنتهى، فالحياة تعج عجاً بجماهيرها وبمناقشاتنا الحامية.

وفى الشمال نذكر على نحو خاص مدينة **أوجاريت**، وهى رأس شمرا الحالية. وقد شهد هذا الموقع حفائر على قدر كبير من الأهمية. كانت مدينة ثرية وملتقى مختلف الأعراق والأجناس، وتضم فى حقيقة الأمر عدداً من الموانئ، أهمها **أوجاريت** ذاتها. إنها شرم رائع فى وسعه استقبال سفن شراعية ذات حمولات كبيرة، وبالإضافة إلى ذلك كان يوجد إلى الجنوب قليلاً أربعة خيران^(*). كانت **أوجاريت** تستقبل السفن القادمة من **كريت** و**قبرص** أو من جنوب شرقى **الأناتول**، لترتبط على هذا النحو بحر **إيجيه** ببلدان **المشرق**. كانت هذه المدينة النقطة التى ينتهى عندها طريق القوافل المؤدى إلى **حلب** ليلتقى بعد ذلك بنهر **الفرات** و**كركميش**، وقد عرفت بنشاطها الصناعى، فتُصدّر الأسلحة وأدوات الأكل من البرونز والثياب المصنوعة من الكتان والصوف ودنان زيت الزيتون والنبيد، إلى جانب العطور والأدهان الموضوعة فى أحقاق من العاج أو الألبستر، وتتخذ شكل النماذج المصرية، كما كانت **أوجاريت** سهلاً ساحلياً خصباً، تحفّ التلال المغطاة بأشجار الزيتون والكروم، ثم تمتد الجبال

(*) مفردهما **خور**، وهو لسان من البحر يكون فى البر على شكل خليج صغير. نذكر على سبيل المثال **خور لى** فى إمارة **لى**: المعجم العربى الأساسى، جامعة الدول العربية، ١٩٦٩. (المترجم)

بغاباتها الكثيفة، حيث ترعى قطعان الخراف والماعز أعداد كبيرة. ويعتقد أن مشاهد طبيعية وأنشطة مماثلة كانت قائمة في **ببيلوس** و**صور**. وكانت السفن الشراعية القادمة من **مصر** ترسو في **ببيلوس**.

أما **شنون أوجاريت** فكان مسئولاً عنها أمير تاجر، وأمير صراف يقوم بالإقراض وربما كان مرابياً، ويشاركهما المسؤولية قائد جيش وأسطول على قدر كبير من الأهمية، بالإضافة إلى مثقف حشد من حوله عدداً من الكُتّاب وتحت تصرفه مكتبة ضخمة، تضم آلاف اللوحات الطينية الصغيرة المكتوبة بلغات مختلفة. وأتاحت لنا الحفائر الكشف عن آلاف اللوحات الصغيرة في المباني العامة والخاصة، إن بعضها بمثابة ملاحظات دونها التجار أو المواطنون لتذكّره بـبعض الشؤون الإدارية أو المنزلية، أو عبارة عن قوائم بالمدن التي تدفع الجزية لمدينة **أوجاريت**. وتشكل لوحات أخرى المحفوظات الدبلوماسية المكتوبة **بالأكدية** التي كانت اللغة الدولية السائدة في هذا العصر. وأخيراً فإن بعض اللوحات الكبيرة المكتوبة بلهجة **أوجاريت** كانت لنصوص أسطورية وطقسية.

فمن يتحكم في **فينيقيا**، كان له إذن كل السلطان على **آسيا** ويستحوذ على خيراتها.

كان قطران يتطلعان إلى هذا الوضع: **مصر** التي كانت تسعى إلى الحفاظ على هيمنتها التقليدية على هذه المناطق. و**الخاتى** التي كانت قد فتحت شمال **سوريا** الحالية وأخذت تتوسع الآن حتى الحدود الشمالية ل**فينيقيا**.

كانت لابد للمنافسة بين **مصر** و**الخاتى**، قرب نهاية القرن الرابع عشر ق.م، أن تنتهى لا محالة، إلى احتدام الحروب بينهما.

ولكن **مصر** التي كان يحكمها من ذلك الوقت ملوك عسكريون، سيعرفون بما تحلّوا به من شجاعة وذكاء، كيف يسيطرون على الأوضاع في **آسيا**، بينما ظلت المناطق الإفريقية، هادئة هدوءاً نسبياً، نظراً لإحكام السيطرة عليها.

الفصل الثانى الحروب والملاحم

اولاً، الرعامسة فى السلطة رعمسيس الأول

حول عام ١٣١٤ ق.م، تربع على عرش مصر رعمسيس الأول، الذى كان حور إم حب قد اختاره. ولن يدوم حكمه سوى سنتين، وكان الأول فى سلسلة طويلة من الملوك المحاربين.

أصوله

من الواضح أنه كان وزيراً وقائد جيش وزعيماً دينياً، فى عهد حور إم حب. كان يتمتع بسلطات واسعة، وإن لم يكن مع ذلك رجلاً من أكابر القوم وأشرافهم، بل عسكرياً فى الأساس، شأنه شأن أسلافه. ويبرهن اختيار حور إم حب على نفاذ بصيرته السياسية إلى أبعد حد، فقد أدرك فى إطار الظروف القائمة آنذاك، أن زعيماً محارباً يستطيع وحده حماية ما تبقى من إمبراطورية مصر والقضاء على طموحات الخاتى.

كانت أصول رعمسيس الأول مسألة مثار خلاف بين علماء المصريين. ولكن فى مارس ١٩١٢، بينما كان عالم الآثار الفرنسى ليجران Legrain يباشر أعمال تنظيف الطريق الذى يربط فى الكرنك بين معبد أمون ومعبد موت، أن كشف عن تماثيل أمام تماثيل حور إم حب العملاق بجوار الصرح العاشر. كان التمثالان من الجرانيت الرمادى، ويبلغ ارتفاعهما ١٢٥ سم، ويصوران أحد كبار الموظفين فى وضع الكاتب^(١). كان أحدهما مكرساً «لأمير فى أرجاء البلاد، وعمدة المدينة، الوزير نكار رعمسيس المولود من رئيس رماة السهام سيقى». وكانت المدونة المنحوتة على النقبة المفردة على

الركبتين مكملّة إذن على النحو الآتى لهذه الألقاب: «رئيس حملة الأقواس، والمشرف العام على الجياد ورئيس الأختام وقائد مركبات صاحب الجلالة والموفد الملكى إلى جميع البلدان الأجنبية والكاتب الملكى وقائد جيش سيد القطرين ورئيس كهنة الآلهة جمعاء والقائم بأعمال صاحب الجلالة فى مصر العليا ومصر السفلى، المشرف العام على مصبات النيل، النيل، عمدة المدينة، الوزير پارعمسيس».

ولا يخامرنا أدنى شك فى الوقت الراهن، أن هذا الشخص ذا الحول والطول، بما يشغله من مناصب ويحمله من ألقاب، كان فى الواقع من سيصبح رععمسيس الأول. لا سيما أن معظم هذه الألقاب سوف تكون أيضاً ألقاب ابنه سيتى الذى سيصبح سيتى الأول.

إن تابوتين جادت بهما مدينة هابو ومدينة الغراب، ثم اغتصبهما الأمير نب وبن، كانا يخصان أيضاً رععمسيس، قبل اعتلائه العرش، ويصفته «القائم بأعمال صاحب الجلالة فى مصر العليا ومصر السفلى»^(٢).

عائلة رععمسيس

إن أباه سيتى المذكور فى مدونة تمثالى الكرنك، كان إذن رجلاً عسكرياً أيضاً، بصفته «رئيس حملة الأقواس»، وكانوا من خيرة وحدات الجيش المصرى وأبرزها.

كما نعرف هذا المدعو سيتى بفضل لوح حجرى يحتفظ به المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو Oriental Institute Museum. University of Chicago. وقد صُوِّر على هذا اللوح ثلاثة أشخاص، نُحتوا بالنقش البارز داخل كوة قليلة العمق. ويحيط بهم من على الجانبين خدم موقرون، يأتون إليهم بالتقدمات^(٣). إن المدونة الخاصة بالشخص الأوسط، تشير إليه على النحو الآتى: «الأوزيريس، سوتى (أو سيتى)، رئيس حملة أقواس سيد القطرين». وعلى يمينه تقف زوجته وعلى يساره أخوه: «إنه، أخوه، خع إم واست، حامل بيرق الحاشية (الملكية)». أما اسم خع إم واست، فمعناه «ذاك الذى يشرق متألّفاً فى طيبة». وقد شاع هذا الاسم، فيما بعد، فى عائلة الرعامسة. كما صُوِّر هذا الأخ فى مجموعة نحتية تم الكشف عنها فى بلدة كوة

بالسودان، الواقعة على نهر النيل فيما بين الجندلين الثالث والرابع، ويعود تاريخها إلى عهد توت عنخ آمون. وهنا يحمل هذا الأخ لقباً: «حامل البيرق على يمين الملك، ورئيس حملة الأقواس في بلاد كوش». فعائلة الرعامسة هي إذن تقليدياً عائلة من العسكريين.

كانت تتحدّر أصلاً من شرق الدلتا، ومن مدينة تانيس(*) الواقعة عند مناطق أسيا الحدودية. وربما أثّرت هذه الأصول على بعض جوانب سياسة الرعامسة، كما يفسر ذلك، تكرار اسم سبتي(**) في هذه العائلة، والذي يعنى «المنتسب إلى ست»(**)، الإله الذى كان يعبد بصفة خاصة فى القسم الشرقى من مصر السفلى. كما نعرف، من خلال لوح حجرى يعود تاريخه إلى عهد رمسيس الثانى وتم الكشف عنه فى تانيس، أن الوزير پارعمسيس كان، قبل تربيعة على العرش، قد أرسل ابنه سبتي لتقديم فروض الشكر والحمد للإله ست، فى مدينته(٤).

واستطاع رمسيس الأول طوال عهده الذى دام سنتين، أن يحافظ على النظام والاستقرار اللذين استعادهما حور إم حب. إن ما وصلنا من وثائق عن هذه الفترة القصيرة شحيحة، إلا أنها تبدو فى العديد من المجالات وكأنها مقدمة تمهيدية لسياسة الرعامسة العظيمة، وهو ما كان مؤسس هذه الأسرة الحاكمة يستشعره منذ ذلك الحين.

رمسيس الأول والآلهة

إن قائمة الألقاب التى أخذ بها رمسيس الأول تؤكد على روابط النظام الملكى بالآلهة، فما زالت لا تتسم حتى الآن بهذا الجانب المحارب المنتصر الذى سيميز قائمة ألقاب خلفائه:

الحورس الثور القوى، صاحب الملك الأخضر(٥).

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **سمت**، **سمان** المجرحالياً. (المترجم)

(**) الياء المضافة، هى ياء النسب فى اللغة المصرية القديمة، كما فى اللغة العربية. (المترجم)

السيفيتان هذا الذى يتجلى بصفته ملكاً مساوياً لأتوم.
الحورس الذهبى هذا الذى يدعم الحقيقة والعدالة على امتداد بلد - الشاطئين.
ملك مصر العليا ومصر السفلى فلتبق قدرة رع!
ابن رع رمسيس(*) (إن رع هو الذى أنجبه).

لقد عاد آمون من جديد، ليتمتع بامتيازاته، وشرع رمسيس الأول فى تشييد
أكبر أبهاء الأساطين، إنه بهو أساطين الكرك، فيما بين الصرحين الثانى والثالث، من
صروح معبد آمون - رع الكبير.

ولكن من الواضح أنه أظهر الريبة نفسها التى اعتزت حور إم حب حيال كهنة
آمون، فقد أراد أن يمنح أيضاً معتقدات هليوبوليس ومنف(**) مكانة ذات شأن.

❖ فعلى لوح حجرى عُثر عليه فى سيناء، يُدعى:

الإله الكامل ابن آمون الذى ولدته مَوت سيدة السماء، ليحكم كل ما يحيط به
قرص الشمس (آتون)(١).

❖ وعلى لوح حجرى تم الكشف عنه فى بوهن بالسودان، ويعود إلى العام
الثانى من حكمه، فإنه يُدعى:

ذاك الذى يشرق متآلفاً على عرش حورس الأحياء، مثله مثل أبيه رع، على
مر الأيام(٧).

وأخذ الرباط الذى يوحد الملك بمجموع آلهة البلاد يتأكد ويترسخ. وعلى هذا
اللوح الحجرى نفسه فى بوهن، نقرأ النص الآتى:

(*) بالمصرية القديمة حرفياً: رع مس سو، (المترجم)

(**) من - نفر بالمصرية القديمة، وحرفها الإغريق إلى ممفيس والعرب إلى منف، ومى ميت وهيئة
حالياً. (المترجم)

كان صاحب الجلالة فى مدينته منف، ليقيم طقوس الحمد والثناء على أبىه
أمون - رع وعلى بتاح، ذاك الذى يوجد جنوب جداره، رب حياة القطرين، وعلى كافة
الهة البلد المحبوب، كما أن هذه الآلهة تمنحه البسالة والقوة. هكذا فإن كل الأراضى،
تتحد فى قلب واحد لتبجل كاهه.

كما اهتم رعمسيس الأول بتطوير طقوس العبادات فى النوبة، فعلى أحد
الألواح الحجرية التى جادت بها بلدة بوهن ورد النص الآتى:
أمر جلالتي بأن توضع تقدمات تغالب الأيام، من أجل أبى مين - أمون المقيم
بمعبده، فى بوهن.

تلى ذلك قائمة بالقرايين، وبالكهنة المنوط بهم أداء هذه الأعمال.

الصعود فى اتجاه الشمال

يبدو أن رعمسيس الأول قد عقد العزم على تعاظم دور العاصمة القديمة منف،
وربما اختار أيضاً تائيس مقراً لإقامته خلال فصل الصيف، وهى المدينة التى تحدّرت
منها عائلته.

ومن ثم، فقد شرع فى التحرك واضعاً نصب عينيه الصعود فى اتجاه الشمال،
الذى سيصبح أحد مبادئ سياسة الرعامسة. هكذا أخذت سلطة الملوك تعرض بعض
الشيء عن سلطة كهنة طيبة، ومن جهة أخرى أخذ الفرعون يقترب من إمبراطوريته
فى أسيا. إن إقامة قواعد عسكرية فى الدلتا سوف تساعد على زيادة سرعة انتقال
الفرق العسكرية عند نشوب صراعات يصعب تجنبها.

الأب والابن، أو المشاركة فى الحكم

لما كان **رهمسيس الأول** بعيد النظر نافذ البصيرة، فقد أشرك ابنه **سيتى** فى الحكم، ليختاره على هذا النحو، منذ نعومة أظفاره، خليفة له.

وعلى لوح حجرى كبير مكرس للملك **رهمسيس الأول** فى معبد **أبيدوس** يعلن

سيتى:

أنا ابن مفعم بالبركة لصالح من أنجبه. أنا ابن يجعل (اسم أبيه) يحيا ... كنت مسروراً على الدوام عند تحقيق ما كان يقوله. لم أصدر مطلقاً أمراً إلا لتتوافق أفعالى مع رغباته، إلى أن يحين زمن تسلمى السلطة، فمئذ أن خرجت من بطن (أمى) مثل ثور حقيقى^(٨)، شاركته مقاصده وتعاليمه. كان شمساً متألقة، أما أنا فكنت بين يديه مثل مثل نجم. عندئذ أخضعت أراضى **الفينيقيين**، ومن أجله دفعت الأعداء فى البلدان الأجنبية ليعودوا أدراجهم. من أجله أحمى مصر، حسب رغبته. فمن أجله أبقي على مملكه، مثل **حورس** على عرش **أوزيريس**. ومن أجله أختار على مر الأيام الحقيقة - العدالة، وأحملها مستقرة على صدرى. إنى أسهر على جنوده، وأبث فيهم وحدة الإرادة. ومن أجله أعددت تقريراً، عن شئون **القطرين**. ومن أجله أتصرف ببسالة، فأحمى جسده فى بلدان أجنبية، كنا نجهل اسمها (حتى الآن). إنى أتصرف كبطل، حتى تتعرف عيناه على كمالى. وعندما لحق **بالمملكة العليا** أشرقت أنا على عرشه^(٩).

هكذا استطاع ولى العهد **سيتى** أن يتعرف منذ وقت مبكر جداً على مفاتيح إدارة شئون الدولة، بل واضطر أن يخوض بعض المعارك الحربية فى البلدان الأجنبية، وأبلى فيها بلاءً حسناً، وإن ظل تحت إمرة أبيه الملك.

إن قاعدة تمثال من الحجر الرملى الفاتح اللون، وهى التى عُثر عليها حديثاً فى أقباء المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة^(١٠) IFAO تؤكد هذه الوقائع. فعلى هذه القاعدة، يلاحظ وجود آثار تمثالين متجاورين يصوران **رهمسيس الأول** و**سيتى الأول**. ونقرأ على المدونة النص الآتى:

فليحيَ الإله الكامل، الشيبه (بالإله) رع، الذى يضىء القطرين مثل إله الأفق، (إنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى، أمير البشر والحبور، رب القطرين، من يحيى رع^(*) له الحياة.

فليحيَ الإله الكامل، (إنه) النجم بالنسبة للأرض، فظهوره ممجداً يعيد الحياة إلى البشر أجمعين، (إنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى، أمير الأقواس التسعة، رب القطرين، سيقى، له الحياة.

هنا، يظهر الأب والابن، على قدم المساواة، سواء بالصورة أو بالنص. ولا يظهر سيقى بصفته وريث العرش، إلا من خلال هيئته وقائمة ألقابه. إنه نجم الأرض يتألقه الأقل من تألق جرم السماء ويشار إليه فقط بالاسم الذى حمله منذ ولادته، وليس باسم التتويج الذى لم يحمله بعد.

ولكن هذا المعلم، شأنه شأن النص السابق، يحملنا على الظن فى قيام مشاركة فى الحكم، وإن ظلت حقيقة ملتبسة، وبالطبع كان رمسيس الأول يضطلع بالدور الرئيسى فى هذه المشاركة.

وسوف يصبح هذا الوضع أمراً شائعاً عند الرعامسة. وربما كانت هذه الظاهرة برهاناً جديداً على مشاعر الريبة حيال كهنة آمون، الذين كانوا يتدخلون أحياناً إلى حد كبير فى شئون وراثة العرش.

إن الشمس^(**) والنجم، وفقاً للمفاهيم الكونية لمدينة هليوبوليس، والأب والابن الملكيين، يندمجان أيضاً فى أوزيريس وحورس، رمزى البر بالوالدين واستمرارية الأسرة الملكية الحاكمة. إن إشارة أخرى إلى هذا البلبلة المتعمدة يبرزها رسم فى مقبرة رمسيس الأول، فى وادى الملوك بطيبة، وهى المقبرة رقم ١٦^(١١): فقد صور

(*) لقب رمسيس الأول، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

(**) نذكر أن لفظ شمس مذكور فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

رعمسيس بين حورس وقد وضع **الپشنث**(*) على رأسه وأثوبيس، وقد أمسك كلاهما يديّ الملك المتوفى والمبعوث حيّاً. وفوق صورتيّ الملك وحورس تمتد المدونة الآتية:

الأوزيريس ملك مصر العليا ومصر السفلى: من يحتى رع،

ابن رع: رعمسيس صادق القول بجوار أوزيريس.

كلمات قالها **حورس بن إيزيس والإله العظيم المقيم في بلد - الصمت: لقد أقام**
ابنه، سيد القطرين، على عرش أبيه أوزيريس.

وفى عام ١٣١٢ ق.م، وبوفاة أول الرعامسة اعتلى سبتي الأول عرش مصر دون
عناء.

ثانياً، جيش الانتصارات

كما لاحظنا من قبل، كان الوضع في أسيا ينذر آنذاك بتهديدات بالغة
الخطورة.

ولما كان **رعمسيس الأول** مدركاً عواقب المخاطر الخارجية فقد أدخل تعديلات
على نظم الجيش، وشرع **سبتي الأول** منذ اللحظات الأولى من حكمه، يتصدى للسير
قُدماً في عملية تطويرها. وبالفعل سوف يصبح الجيش من الآن الأداة الرئيسية لقوة
السياسة المصرية. إنه «جيش - الانتصارات»، وهي العبارة التي كان قد أطلقها
تحوتمس الثالث على فيالق المحاربين القدامى الذين رافقوه، في جميع حملاته
العسكرية المظفرة.

(*) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم (**پا**) **سختي**، ويعني القوتين، إشارة إلى التاج
المزدوج: الأبيض والأحمر. (المترجم)

حرفة الجندي والفرق الأجنبية

كان لابد من الانتظار حتى الألف الثاني قبل الميلاد، لتتشكل فرق عسكرية من الجنود المحترفين لتأمين الحدود ومصبات النيل وحصون النوبة وقلاعها، ووضع بعض الحاميات في المدن الآسيوية ذات الأهمية الاستراتيجية.

كان الملك يقوم باختيار ضباطه من بين الرجال الذين لاحظ إقدامهم وبسالتهم، فيهبهم الأراضي المقتطعة في الغالب من أملاك التاج، ويضمن لهم دخلاً ثابتاً، ويمنحهم قسماً من الغنائم التي تم الاستيلاء عليها من الأعداء، ولا سيما «الأسرى/الأحياء». هكذا تشكلت بالتدريج طبقة اجتماعية جديدة، تتمتع بثروات ضخمة وتحظى برضا الملك، ولكنها سوف تسهم في زمن قريب جداً في تهديد السلطة.

إن النظام القديم في توفير الأفراد الجدد للجيش والقائم على التجنيد المحلي في إطار كل إقليم على حدة، وفقاً لنسبة مئوية لكل أسرة، ظل معمولاً به مع تطويره. فبعد أن تقدم الإدارة العسكرية تصورها للأعداد اللازمة للوحدات العسكرية المخصصة لكل حملة، تحدد أعداد المجندين المطلوبين من كل عائلة. ويبدو أن بعض الاستثناءات كانت تُمنح للعائلات كثيرة الأفراد.

وبالإضافة إلى هؤلاء العسكريين المحترفين والمجندين كان الجيش المصري يضم عدداً من وحدات المرتزقة والفيالق الأجنبية، المشكلة «عن طريق أفضل عناصر الأسرى الذين أخذهم صاحب الجلالة من ساحة المعركة»، وكان تحوُّم الثالث، على ما يبدو، أول من أخذ بهذه السياسة، وكلما زادت الانتصارات زادت أعداد هذه الفيالق. وأبرز هؤلاء المرتزقة شائناً الشرابنة الذين تعود أصولهم إلى بلاد شرداس، في آسيا الصغرى، وسبق أن هاجروا إلى الساحل الفينيقي. ولكن جميع أراضي الإمبراطورية الإفريقية والآسيوية، على حد سواء، سوف تقدم إسهاماتها.

سلاح المشاة وسلاح المركبات

كانت القوات البرية تضم حتى عهد **حور إم حب**، وحدتين قتاليتين كبيرتين، عملاً بالازدواجية باعتبارها مبدأ أساسياً، في كل جانب من جوانب الإدارة المصرية. وتأتى الوحدة الأولى من **مصر العليا** والأخرى من **مصر السفلى**. وأسس **رعمسيس الأول**، أو ربما **سيتى الأول**، ثلاث وحدات قتالية، تحت رعاية وحماية أكبر آلهة وادى النيل، وهى **أمون ورع وپتاح**. وأضاف **رعمسيس الثانى** وحدة قتالية ثالثة، برعاية **ست**، إله المدينة التى تحد منها، كما كان إلهاً نصف أسوى.

كان سلاح المشاة يتكون من سرايا تضم مئتى فرد للسرية الواحدة، يقودها حامل راية. وتنقسم كل سرية إلى أربع كتائب من خمسين فرداً لكل كتيبة. وتحمل أسماءً متشامخة، نذكر منها على سبيل المثال: «**منحوتپ يتالق كقرص الشمس**» أو «**قوى هو ساعد رعمسيس**». كان أفراد سلاح المشاة مسلحين تسليحاً خفيفاً، إنهم حَمَلَةُ الأقواس ومن خيرة الجنود. كانت أصولهم نوبية فى الغالب، لاشتهار أهالى **إفريقيا** بمهارتهم الفائقة فى استخدام القوس. وعلى كل حال فقد كان المصريون يطلقون على النوبة اسم **تاستى أى «أرض السهم»**.

ظلت القوات البرية لفترة طويلة، تقدر بحوالى ألف وخمسمئة سنة، تتكون من سلاح المشاة فقط. ولكن منذ غزو **الهكسوس**، ظهر سلاح ثانٍ هو سلاح المركبات.

عندما قام **الهكسوس** باختراق **الدلتا**، فى القرن الثامن عشر ق.م، يبدو أنهم كانوا مجرد محاربين من المشاة، كما يبدو أن الخيول والمركبات الحربية لم تنتشر، فى واقع الأمر، إلا على أيدي **الهندوآوريين**، اعتباراً من القرن السابع عشر ق.م، ولم يأخذ بها **المصريون** إلا قرب نهاية سيطرة **الهكسوس**، حول عام ١٦٠٠ ق.م.

لم تعرف **مصر** ركوب الخيل الذى استخدم فقط فى جر المركبات، وكانت الخيول محل تقدير **المصريين** الذين نظروا إليها بإعجاب. ومن بين الأسماء التى أطلقت عليها، يشير أحدها إلى الحصان بصفته «**نقر**»، أى «**الجميل**». وفى التصاوير يظهر أحياناً باللون الوردى، وهو لون جديد ونفيس القدر فى نظر أهل **مصر**، فيلون به ما يتمتع الناظر إليه ويلفت انتباهه، وذلك عملاً بالأسلوب الانطباعى المصرى؛ فاختصوا الخيل إذن وأيضاً الفراشات وأحياناً بشرة النساء الجميلات بهذا اللون.

كانت المركبة تتكون من صندوق من الخشب موضوع فوق عجلتين، مغطى أحياناً بجلد أو معدن. كان جوادان يجرانها، وعلى متنها رجلان، قائد المركبة والمحارب المسلح تسليحاً خطيراً. وفى الغالب يوجد الفرعون بمفرده على متن المركبة. وكان العنان المتحكم فى الجوادين يلتف حول وسطه، فيوجه الجوادين بتحريك الوركين ببراعة فائقة.

كان سلاح المركبات من خيرة أسلحة القوات البرية وأفضلها، كان موزعاً على عدة سرايا، تضم كل سرية خمساً وعشرين مركبة، وعلى رأس كل واحدة «قائد مركبة من المقر الملكى». كان «قائد سلاح المركبات» مسئولاً عن مجمل هذا السلاح، كان يعاونه «رئيس الخيول» أو «رئيس الإسطبلات الملكية». ولما كان قادة المركبات الحربية يعتبرون صفوة العسكريين ونخبتهم، كانوا يتلقون أعلى قدر من الثقافة والتدريب وأرفعهما، شأنهم شأن الكتبة.

إن ظهور المركبات الحربية على هيئة سلاح رادع جديد، غير من تكتيكات أرض المعركة. ومن الآن، عند التحام القوات المتحاربة تنطلق المركبات فى بداية الأمر، والجياد تعدو بأقصى سرعة لمواجهة العدو. وفى أعقابها يأتى حملة الأقواس الذين يمحطون العدو بسهامهم، وبعد ذلك يتقدم سلاح المشاة، إما لاحتلال الأرض التى تم الاستيلاء عليها، أو لوقف العدو فى حالة دحر الهجوم الأول، فى انتظار تجميع المركبات الحربية استعداداً لشن هجوم ثانٍ. وعندما يلوذ العدو بالفرار تطارده المركبات. لذلك، تُصور لنا النقوش والرسومات الفرعون على متن مركبته، وأمامها نشاهد الأعداء المهزومين ينقلبون متدافعين، شأنهم شأن الحيوانات الصرعى أثناء رحلات الصيد(*) . كانت الحرب فى نظر المصرى القديم بمثابة رحلة صيد كبيرة، كان طريدها الإنسان، فالوسائل والأدوات المستخدمة واحدة فى الحالتين.

(*) خير مثال على ذلك صندوق قوت هنغ أمون الرائع الجمال، ويصور على جانبيه مشهد الأعداء المهزومين والحيوانات الصرعى. ويمكن تأمل هذه التحفة فى المتحف المصرى بالقاهرة ضمن آثار قوت هنغ أمون، الطابق العلوى، الرواق رقم ٤٠. (المترجم)

وتطورت الأسلحة الهجومية، وظل القوس والسهم السلاح الرئيسى. ولكن المحاربين المصريين كانوا مسلحين أيضاً تسليحاً خطيراً بالرمح والحراب والسيوف والخناجر والبلطات، بل والمقامع وبكل سلاح فى وسعه البتر أو الشق أو الاختراق أو الطعن أو الضرب ضربات قاضية. أضف إلى ما تقدم فاعلية الفيلق الأجنبية، إذ ظل كل شعب محتفظاً بأسلحته الخاصة من مراوات النوبيين الخشبية، والخناجر الطويلة للشراندة ذوى الخوذات ذات القرنين، والسيوف العريضة المفلطحة للفلسطينيين الذين يضعون على رؤوسهم غطاء نباتياً. وإذا تفاجئ الوسائل الهجومية العدو بتنوعها فضلاً عن تعددها، أصبح الهجوم أكثر فاعلية واستعراض القوة أكثر بطشاً.

كما تطورت الأسلحة الدفاعية. وتطور المنزر المثلث الشكل المصنوع من الجلد والمثبت أمام النقبة محلّ محله بالتدريج قميص من القماش أو الجلد مغطى برقائى معدنية، ولكن لم يرتد المحاربون الخوذات قبل الألف الأول قبل الميلاد، باستثناء الشراندة.

كان الفرعون يقود الحرب. فهو الذى يضع خطط المعارك ويتناقش أحياناً مع ضباط أركان حربه، كان وحده الذى يقف على رأس قواته، ويقود جنوده إلى النصر المظفر. كان الوزير رئيس الإدارة العسكرية الموزعة على دوائر إقليمية، ورؤساء الحاميات يأتون إليه بانتظام، ليعرضوا عليه تقاريرهم.

سفن الملك

من الآن ستقوم بحرية الفرعون بدور يضارع أهمية القوات البرية فى الدفاع عن الإمبراطورية، ففى عهد رمسيس الثالث، سوف تخوض المعارك عند مصبات نهر النيل ذاته، إنها «سور من حديد ونار».

كان البحارة يجندون فى الغالب من بين أهالى الدلتا، الذين اعتادوا منذ وقت مبكر جداً أن تجمعهم بالبحر ألفة، وقد أطلق عليه المصريون اسم «الشديدة الاخضرار»، سواء للإشارة إلى البحر المتوسط بألوانه اللآزوردية أو إلى البحر

الأحمر. وللأخضرار فى هذا المجال، دلالة رمزية. فهو لون عالم النبات الذى لا يموت ويتجدد على الدوام، على غرار أمواج البحر التى لا تكف عن العودة إلى الشيطان. وسوف تصبح مدينة منف قاعدة بحرية عظيمة الأهمية.

كانت **سفن الملك** مراكب شراعية كبيرة، يقودها صف من المجدفين أو صفان فى بعض الأحيان، فيشدون بقوة على المجاديف، عند ميسرة السفينة وميمنتها، بينما تتعالى أغانيهم. كانت هذه السفن مصنوعة، فى أغلب الأحوال، من خشب صنوبريات لبنان، وقد يصل طولها إلى ستين متراً. وتنساب على صفحة نهر النيل أو تجرى عبر **الشديدة الأخضرار** أو تبحر بمحاذاة الشاطئ مدفوعة بالرياح التى تنفخ فى الشراع العريض الذى يتخذ شكل المعين المنحرف والمثبت على عارضتين، والمرفوع على سارية مزدوجة أو بسيطة، ويتحكم فى السفينة من الخلف حبلا الرفع. ويعتمد توجيه السفينة إما على مجداف واحد فى المؤخرة أو على مجدافين طويلين وعريضين، واحد على كل جانب من جانبي كوثل السفينة، وقد وضعاً فوق شوكة تتحرك كالرافعة، وكان الريان يرفع أحدهما بواسطة حبل.

ولكن لا نعلم شيئاً عن التجهيزات الداخلية للمراكب، فكل ما نعرفه عنها جاءنا عن طريق التصاوير أو **النماذج** المصرية المصنوعة من الخشب أو الفينيقية المصنوعة من الصلصال. ولكنها ليست «نماذج مصغرة»، لأنها لا تبرز سوى الخطوط العامة لما تصوره.

كان المصريون بحارة جسورين، فركبوا البحار منذ أقدم العصور، وسبقوا أهالى **فينيقيا** بفترة طويلة، بل لقد علموهم تحديداً طريقة بناء سطح السفن.

فمن موانئ **المشرق إلى الصومال ومن السودان إلى بحر إيجة**. كانت الصنادل الكبيرة تحمل القمح والأحجار، وتقوم السفن الضخمة بنقل مواد البناء والبضائع والمنتجات النفيسة. وجنباً إلى جنب وسائل النقل التجارية، كان **تحوتمس** الثالث أول من أقام طريقاً **إمبراطورياً** حقيقياً، لنقل القوات المسلحة من منف إلى موانئ ساحل **فينيقيا**، فكانت السفن الحربية والمراكب - الإسطبلات والمراكب الحظائر - ترسو هناك، لتنتقل إليها المحاربين الأشداء ومعداتهم وتموينهم.

شخصية الجندي

جندي المشاة

كان يطيب للمصريين أن يحيا في سلام ويعيشوا أياماً هادئة. لقد دُفعوا إلى القتال دفاعاً عن وطنهم، فنازلوا أعداءهم بشجاعة وبسالة. ولكن أوضاع الجندي وأحواله انتقدتها النصوص في الغالب نقداً مريراً.

هكذا ففي خطاب من عصر الرعامسة بعث أحد الكتبة برسالة إلى زميل له، قائلاً:

ماذا تعني بقولك «لأن يكون المرء جندياً هو أكثر لطفاً من أن يكون كاتباً».

تعال، فسأخبرك عن أحوال الجندي الذي كثيراً ما يضرب ضرباً مبرحاً، إنه يُقتاد وهو لا يزال صبيّاً صغيراً، لِيُحتجز في الثكنات. وتسدد له ضربة مؤلمة على بدنه، وأخرى على حاجبيه، في حين يُشجُّ رأسه بجرح، ثم يطرح أرضاً ويضرب كالبردي، عندئذ يعاني من الكدمات وهو محطّم.

قلنتقل إلى زحفه على سوريا، وسيره فوق الجبال. إنه يحمل طعامه وماءه على كتفيه مثل حمولة حمار، مما يجعل رقبته مشدودة كرقبة البهيمة، وتنحني فقرات ظهره. إنه يشرب ماءً زعاقاً، ولا يُعفى من حمله إلا أثناء قيامه بأعمال الحراسة. وعندئذ يقترب من العدو، فهو أشبه بطير وقع في الفخ.

وعندما يحين وقت العودة إلى مصر يكون أشبه بقطعة خشب نخرها السوس. إنه مريض وعليه أن يتمدد. عندئذ يُعاد على ظهر حمار^(*) وقد سُرقت ملابسه وفُرَّ خادمه.

أيها الكاتب إيثانا، اعدل إذن عن الفكرة القائلة بأنه من الأفضل أن تكون جندياً، من أن تكون كاتباً^(١٢).

(*) وهو مصير شائن بالنسبة لأي مصري. (المؤلفة)

أهو نص ينطوى على نقد فيه قدر من الفكاكة المسلية على خلفية من الحقيقة؟
أم كان بالأحرى تمريناً بلاغياً هدفه امتداح مهنة الكاتب وتقريبها، بل والنفور من
الحرب على الأخص؟

البُحارة

كما أسلفنا، كان المصريون ملاحين، ركبوا البحر من زمن بعيد يزيد على ألفي
سنة، من سجاياهم كبرياء شعب من البحارة، فخورين بما اكتسبوه من معارف،
وإحساسهم الغريزي باتجاه الرياح ونسيم البحر، كما كانوا رابطين بالجيش في
مواجهة الشدائد.

ففي قصة تعود إلى بدايات الألف الثاني قبل الميلاد^(١٣)، تُغامر حملة بالإبحار
في البحر الأحمر.

لقد أبحرت مابطاً عبر الشديدة الاخضرار على متن سفينة تبلغ ١٢٠ ذراعاً
طولاً و٤٠ ذراعاً عرضاً. ويضم طاقمها ١٢٠ بحاراً، من صفوة أبناء مصر. وسواء
شاهدوا السماء فقط أو كانت الأرض في مرمى بصرهم، كانت قلوبهم أكثر تصميمًا
من قلوب الأسود. كان في وسعهم أن يتنبأوا بقدوم العاصفة قبل وقوعها، أو بالزوايع
قبل أن تحدث فجأة.

حقاً، لقد غرقت السفينة، ولكن ما العمل في مواجهة أمواج عاتية يزيد
ارتفاعها على أربعة أمتار؟

ثالثاً، سيتى الأول وإعادة الإمبراطورية إلى سابق عهدها

حورس الثور القوى الذى يشرق متألقاً فى طيبة، ويعيد الحياة إلى القطرين.

السيبتان صاحب النهضة والتجديد، والساعد المقدام الذى يدحر الأقواس
التسعة.

الحورس الذهبى صاحب الإشراف الجديد الوضأ، والذى تتفوق أقواسه فى
جميع البلدان.

ملك مصر العليا ومصر السفلى، من مامت رع (فلتباق عدالة رع).

ابن رع، سيتى، محبوب بتاح.

اعتلى سيتى عرش البلاد، عام ١٢١٢ ق.م تقريباً، ودام حكمه زهاء ست عشرة
سنة، وحتى عام ١٢٩٦ ق.م، على وجه التقريب.

كان على الملك الجديد يوم تتويجه، بعد الفراغ من صياغة مجموعة ألقابه، أن
يدشن عهداً جديداً، يعمل على النهوض بإمبراطورية مصر وإحيائها.

إنه عصر جديد، فى حقيقة الأمر، لأن ارتقاءه العرش يتفق مع مرحلة جديدة
من مراحل النجم سوتيس (*) Sothis^(١٤). إن نصى مدونتين، عُثر على الأولى فى نوري
ببلاد النوبة والثانية فى سبيوس أرتميدوس (**) Speos Artemidos، فى مصر
الوسطى، تصف العام الأول من حكم سيتى الأول، «بأنه بداية للأبدية». فهل كانت
بداية مرحلة جديدة من مراحل النجم سوتيس حتى وصفت بهذا الوصف؟ أو كان
الأمر مجرد أسلوب لإرضاء العاهل الملكى الجديد والتعلق له؟ ويبدو أن الافتراض
الثانى مستبعد وغير مرجح. فطول مرحلة جديدة من مراحل النجم سوتيس، هو حدث

(*) الاسم اليونانى لنجم الشعرى اليمانية، سيريرس Sirius بالفرنسية، وسوبلوت بالمصرية
القديمة. (المترجم)

(**) إسطنبول مثل حالياً. (المترجم)

على قدر كبير من الأهمية. فالسنة المصرية المدنية تبدأ في التاسع عشر من شهر **يوليو** عند خط عرض مدينة **مئف**، ففي هذا اليوم يتزامن حدوث ظاهرتين، ربط المصريون بينهما: وصول فيضان **النيل** والشروق الاحتراقي للنجم **سوتيس**. فبعد أن ظل النجم **سوتيس** غير مرئي لفترة سبعين يوماً^(*) - وهي فترة التقائه بالشمس، يصبح مرئياً من جديد، قبل وقت قصير من شروق الشمس. ولكن لما كانت مدة السنة المدنية المصرية ٣٦٥ يوماً فقط، وأن الفارق بينها والسنة الحقيقية، لا يتم تعويضه كما هو الحال في التقويم **اليولياني**، بإضافة السنوات الكبيسة، فقد تأخرت السنة المدنية عن السنة الشمسية، يوماً كل أربع سنوات، بحيث لا يتفق اليوم الأول من السنة المدنية من جديد، مع السنة الشمسية إلا مرة كل ١٤٦٠ سنة، ويطلق على هذه الفترة **مرحلة النجم سوتيس**، التي تعتبر بدايتها في نظر المصريين، مستهل أزمنة جديدة. هكذا فقد بدأ عصر **الرعامسة**، في ظروف كان من حسن طالعتها وقوع هذا الحدث العظيم.

المعارك والانتصارات في آسيا

منذ العام الأول من حكمه، أخذ **سيتي الأول** يستعد لخوض المعارك ضد **الحيتيين**، المنافسين الخطرين. إنه «من يسحق كل البلدان الأجنبية سحقاً، ومن يخترق أراضهم أثناء كل فصل من فصول الجفاف وكل فصل من فصول الإنبات»^(١٥).

كان البدو **شاسو** يثيرون القلاقل فيما وراء الحدود الشمالية الشرقية، فقد استولوا على ثلاث وعشرين مدينة حصينة، وعلى كل حال فربما كان **مواتالي** ملك **الخاتي** يحرضهم على الثورة.

إن مجموع حملات **سيتي الأول** العسكرية ترويه في جانبها الأكبر، النصوص والنقوش المنحوتة على الواجهة الخارجية من الجدار الشمالي من بهو الأساطين

(*) والسبعون يوماً هي أيضاً الفترة اللازمة لعملية التحنيط. راجع:

(الترجم) M. Damiano-Appia. L'Egypte. Dict. Enc. Gründ. 1999, p.189.

العظيم فى الكرنك وعلى الجدار الشرقى من هذا الجهو ذاته. فقد سُجِّلَت هذه الرواية إذن، فى الجهتين الشمالية والشرقية، أى فى اتجاه **آسيا**.

ويقوم **سيئى** بحشد قواته العسكرية، ليسلك الطريق القديم الذى سار عليه الفاتحون، **دروب حورس** (*) التى تعبر الحدود عند **القنطرة - ثارى** عند المصريين - ولتتجه شمالاً إلى بلاد **كتعان**، دون أن يبتعد كثيراً عن **البحر المتوسط**. ولما كان **سيئى** الأول يحسب للمستقبل حسابه فقد أمر آنذاك ببناء قلعة حصينة بجوار كل نقطة ماء فى الصحراء، لتعسكر فيها من الآن حامية مصرية.

«إنه يرسم حدوده حسب رغبته، دون إمكانية صد ساعده، إنه الملك الذى يحمى مصر ويحطم أسوار البلدان التى يسودها التمرد» (١٦).

وقمع التمرد بسرعة فائقة واستعاد المدن الحصينة الثلاث والعشرين التى كانت قد سقطت فى أيدي العدو.

عندئذ استسلم **الشعاسو** بدءاً من حصن **ثارى** حتى أرض **كتعان**. كان صاحب **الجلالة** قد استحوذ عليهم، مثل أسد متوحش، وحولهم إلى جثث على امتداد وديانهم، مضرجين فى دمائهم، فصاروا وكأنهم لم يوجدوا أبداً، وذلك بفضل قدرة **أبيه أمون**، الذى كان قد خصه بالبسالة والقوة، للتصدى لكل بلد أجنبي (١٧).

لقد ظهرت أيديولوجية عسكرية جديدة، وأصبح **أمون** إله المعارك والاشتباكات الدموية التى تقود **أبيه الملك** إلى النصر، بينما يقدم له بلطته ليخوض الحرب.

(*) **حورس الملكى**. (المؤلفة)

بعد أن أحلَّ سِيتى الأول السلام فى أرض كنعان، اضطر، وهو لا يزال فى العام الأول من حكمه، أن يتصدى لتحالف جمع بين أهالى مملكة أموري وال آراميين، والشىء المؤكد أن مو تالى لم يكن بعيداً عن هذا التحالف. ولما كان سِيتى الأول خبيراً ثاقب البصيرة بالشئون العسكرية، فقد استطاع أن يتصرف بسرعة، قبل أن يتمكن المتحالفون من الالتقاء بعضهم ببعض. إن نص لوح حجرى عُثر عليه فى بيت شان من مدن الجليل، يخبرنا أن جيش أمون قد استولى على مدينة حماة الجليل (*) وفى الوقت نفسه كان جيش رع يستولى على بيت شان، وجيش ست على ينعم^(١٨). هكذا تلاشى التحالف وأصبحت البلاد بأكملها فى يَدَى ملك مصر.

ولما كان سِيتى فطناً متبصراً، سائراً على هَدْيِ سياسة تحوتمس الثالث نفسها إبان حملته الآسيوية الأولى، فقد واصل صعوده حتى صور وأخضع لبنان.

إن زعماء لبنان العظام، وهم يعبدون رب القطرين ويمتدحون قدرته يقولون: «إننا نجلك كما نجل والدك رع، ونحيا من مشاهدتك»^(١٩).

حدثت بعد ذلك واقعة واحدة، رواها أيضاً اللوح الحجرى الذى عُثر عليه فى بيت شان، فربما هاجم العاصرو مدينة رحام الواقعة على ما يعتقد بين بيت شان وينعم. ولكن النصر السريع كان من نصيب ملك مصر.

تلك هى أولى الحملات العسكرية وأولى الانتصارات التى أعادت إلى الإمبراطورية المصرية أقاليمها الآسيوية. إن نصوص ونقوش الكرنك تقدم وصفاً لمختلف مراحل العودة المظفرة لفرعون وجيشه إلى أرض الوطن.

(*) وتقع على الشاطئ الغربى من بحيرة الجليل، ويرى البعض أنها تقع إلى الجنوب قليلاً عند مدخل وادى اليرموك. ويجب ألا نخلط بين هذه المدينة والمدينة الأخرى التى تحمل هذا الاسم نفسه، وتقع على نهر العاصى. سليم حسن، مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، الجزء السادس، ص ٤٠. (المترجم)

كان فرح الملك المنتصر عظيماً:

لقد ابتهج عند بداية المعركة، فيطوله (أن يهزم) من تمرّد عليه، ويرضى قلبه لرؤية الدم، بينما يقطع رعوس المتمردين. إنه يحب لحظة سحق (المهزومين) أكثر من حبه ليوم عيد، عندما ينبج الأعداء معاً وبضربة واحدة^(٢٠).

هذه النبرات القتالية جديدة كل الجدة^(*). لقد أصبحت مصر تحت حكم ملوك من العسكريين، ابتعدوا كل البعد عن الإيديولوجية القديمة التي تصور الملك معزولاً في عظمته وألوهيته، فصاروا يشاركون مشاركة عنيفة في الدفاع عن الوطن والإمبراطورية. حقا إن الرعامسة يدشنون عصراً جديداً في تاريخ مصر.

ثم لنا أن نشاهد من جديد المسيرة الطويلة والبطيئة للجيش المصرى عند عودته عبر نروپ حورس، ومع الأسرى والغنائم. وعند وصول سبتى الأول إلى منف يجد كبراء البلاط الملكى بأكملهم فى استقباله.

وهم كهنه وأمرء مصر العليا ومصر السفلى، بالحضور لتقديم الشكر والحمد للإله الكامل، عند عودته من بلاد الرينى محملاً بكميات كبيرة ومهمة من الغنائم...
إننا لم نشهد أحداً مثله منذ زمن الإله^(٢١)، هكذا تحدثوا وهم يعبدون صاحب الجلالة، ممتدحين قوته: «مرحباً بك، أيها القادم من البلدان الأجنبية، يا من قاتلت

(*) ومع ذلك، لا ينبغي أن ينزعج القارئ كثيراً من هذه القسوة المفرطة فى معاملة الأعداء، وعليه أن يضع هذه الممارسات والسلوكيات فى إطارها الزمنى، ولا يحكم عليها بمبادئ العصر الحديث الأخلاقية، وذلك عملاً بمبدأ **المقارنة التاريخية** anachronisms. ويكفى القارئ أن يلقى نظرة سريعة على سبيل المثال لا الحصر، على سفر يشوع، من العهد القديم، من الكتاب المقدس، ليرى كيف كان يلقى إسرائيل يعاملون أعدائهم، فى زمن معاصر تقريباً، كما تذكر بعض الآيات (٧-١٨) الإصحاح ٣١ من سفر العدد من الكتاب المقدس:

فقاتلوا مدين، كما أمر الرب موسى، وقتلوا كل ذكر... وسبى يلقى إسرائيل نساء مدين وأطفالهم وغنمهم جميع بهائمهم ومواشيهم وأموالهم وأحرقوا بالنار جميع مدينهم... وقال لهم موسى هل استبقيتم الإناث كلهن؟... والآن فاقتلوا كل ذكر من الأطفال واقتلوا كل امرأة عرفت مضاجعة رجل. وأما إناث الأطفال اللواتى لم يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم. (المترجم)

وانتصرت، بعد أن أجهزت على أعدائك. إن زمنك بصفتك ملكاً سوف يشبه زمن رع في السماء. إن قلبك هو الآن فاعم وأملس. إن رع هو الذي رسم حدودك وساعده يحميانك^(٢٢).

وبعد أمون إله المعارك، حل محله رع، حمايةً للملك، وبصفته إله السلام والأيام الهادئة. ويبدو أن عنصرى المركب أمون - رع، الذي شكله أمنمحات الأول^(*)، قبل سبعة قرون من الزمن، قد أخذاً ينفصلان ويتميزان، ليقوم كل منهما بدوره الخاص. وسوف تسود هذه الفكرة طوال عصر الرعامسة.

❖ في ذلك اليوم، يوم الاحتفال بالنصر، وسط تهليل جماهير الشعب وفرحتها الغامرة، تنضم أصوات الأسرى إلى الإجماع العام على المديح، هكذا فربما أراد بعض الزعماء الحذرين تقديم فروض الطاعة والولاء.

إن زعماء البلدان الأجنبية الذين ظلوا يجهلون مصر حتى الآن^(٢٣)، وأتى بهم صاحب الجلالة من انتصاراته على بلد الريتو الخسيس، يقولون وهم يمتدحون الملك ويقدمون الثناء والحمد لحملاته المظفرة: «التحية لك! كم هو عظيم اسمك وقوتك الشديدة البأس! فمن الآن تفرح البلدان الأجنبية لأنها تسير فوق مياهك^(**)»^(٢٤). فليصّب بالشلل كل الذين تعدّوا على حدودك وليبق كاؤك^(٢٥) حتى يغالب الأيام! كنا لا نعرف مصر، فلم يطأ أبؤنا مطلقاً أرضها. وأها! أعطنا الآن نسيمات الحياة^(٢٦).

ويستمر العيد ويتواصل. عندئذ يفصح سيقى عن اعترافه بالجميل نحو أمون - رع، فيمنح كهنته قسماً من الغنائم والأسرى الذين سيخدمون من الآن في أملاك الإله الذي سيوجه إلى الملك خطاب شكر. ولا شك، أنه بعد خروج التمثال الإلهي كان بعض الكهنة يتحدثون آنذاك باسمه^(٢٧).

(*) الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

(**) راجع الهامش في آخر الكتاب. (المترجم)

كلمات يقولها **أمون** - رع، سيد عروش **القطرين**: «أيا بُنى، المولود من صُلبي، يا محبوبى، يا سيد **القطرين**، لقد وضعت الخوف منك، فى كل البلدان الأجنبية، إن مقمعتك البيضاء هى الآن فوق رعوس زعمائها^(٢٨). فيأتون إليك، جميعهم معاً، حاملين هداياهم على ظهورهم، بسبب صيحات الحرب التى أطلقتها^(٢٩).

وعند عودته إلى طيبة، سيوضع أيضاً لوح حجرى نذرى فى معبد **پتاح**^(٣٠) فى الكرنك، علماً بأن **پتاح** سوف يحتل مكانة مرموقة فى عصر **الرحامسة**، ويحتفل النص بالاتحاد المبارك الذى جمع بين الملك و**أمون**:

لقد خصه **أمون** بالبسالة والقوة. إنه يأخذ مكانه أمامه، سعيد القلب، صانعاً الأعاجيب من أجل ابنه، مانحاً إياه **مصر العليا** و**مصر السفلى**، فضلاً عن الغرب والشرق^(٣٠).

فى الشرق الأدنى الذى يموج بدسائس مواتالى وطموحات الإمارات التى يتنازعها نفوذ كل من **مصر** و**الحيتيين**، لم تضع هذه الحملة الأولى المظفرة التى قام بها **فرعون مصر** نهاية لهذه المنافسات.

وفى العام الثالث أو الرابع من حكمه - حيث لم تحدد الوثائق التى فى حوزتنا التاريخ بكل دقة - فى هذا العام إذن، سار **سيتى الأول** على رأس جيشه، صاعداً بمحاذاة الشاطئ وصولاً إلى بلاد **الأموري** التى احتلها. إنها الخطة العسكرية القديمة نفسها التى سار عليها **الرحامسة**، بمعنى تأمين قواعد بحرية قبل الهجوم على جوف البلاد، وتحديدًا على قلعة **قالمش**. إن «**قالمش الغدرة**»، فى سهل **البقاع**، وهى قرية تل نبى منذ حالياً، كانت عاملاً مشتركاً فى كل التحالفات التى أبرمت ضد السلطة المصرية.

(*) فى الطرف الشمالى من معبد الكرنك. (المترجم)

ولأول مرة وقع الصدام بين **المصريين والحيثيين** على أرض المعركة، أمام هذه المدينة، وخرج **سيّتى** الأول منتصراً من هذه المواجهة. وهُزم **مواتالى** دون أن نعرف مع ذلك تفاصيل ما جرى من اشتباكات حربية. إن تقارير النصر المنحوتة في مصر على صروح المعابد أو أحياناً - كما نلاحظه في **الكرنك** - على الجدران الخارجية لهذا المعبد، ليست لها قيمة وثائقية، فالهدف منها إحاطة الجميع علماً بقدرات **الفرعون** على تحقيق النصر. وبفضل النصوص والصورة التي يمكن أن تُبعث فيها الحياة، في وسعها أن تجعل هذا النصر نصراً أبدياً، بالنظر إلى أن كل شكل منحوت أو مرسوم هو مستودع كامن للحياة، فبمجرد النطق بالكلمة تصبح حقيقة واقعة. إن هذه النصوص والصور ليست مسارد تاريخية، بل روايات ذات هدف سحري. فالتاريخ في مصر ليس له معنى استاتيكي. إن صياغة التاريخ لا تعتمد على أحداث متلاحقة وقعت في لحظة معينة، يمكن ملاحظتها وتحليلها تحليلاً دقيقاً، أو على سلسلة لا تنقطع من الوقائع يمكن ترتيبها بإحكام، ولكن كل حدث يلزم المستقبل ويفرض نفسه عليه، إنه لا يتوقف فهو ليس واقعاً يمكن تشريحه، إنه يحيا إلى الأبد في واقعه ذاته وليس في الذاكرة فقط. هكذا قد يصبح التاريخ سحراً عظيماً، وعليه فكل شيء سيعمل من أجل أن تحيا انتصارات الملك، المعلنة على جدران المعابد، وليس بهدف دعائى كما يُقال أحياناً، ولكن بما يتفق وعقلية المصريين، ضماناً لاستمرارية بقائها **حقيقة واقعة** وتأميناً لها.

ففي نقوش معبد **الكرنك**، وفوق موكب الأسرى **الحيثيين** المارين بجوار مركبة **الفرعون**، نقرأ النص الآتى:

إنه يغطّي النُطف^{(٣١)*} وفقاً لما يرغبه في بلاد **الخاتى** الخسيصة هذه، إن زعماءها يتساقطون تحت سيفه، وقد صاروا وكأنهم لم يوجدوا قط. عظيم هو مجده وسطهم، وكأنه شعلة^(٣٢).

(*) راجع الهامش في آخر الكتاب. (الترجم)

وفى **قائش** ذاتها، أقام **سيتى** لوحاً من الجرانيت، إحياءً لذكرى انتصاره على **مواتالى**. ولم يُعثر فى هذا الموقع سوى على جزئه العلوى^(٣٣). وفى القسم العلوى المقوس نُحت مشهد يصور **الفرعون** فى حضرة أربعة آلهة: **أمون** الذى سيصور من الآن فى حركة تقليدية وهو يقدم بلطة الحرب إلى الملك، و**ريشيب** إله أسيرى محارب واضحاً على رأسه تاجاً مرتفعاً مخروطى الشكل ومن قمته يتدلى خلفه شريط طويل، ثم الإله **مونتو** وفى يده مقمعة، وأخيراً يقف **خونسو** الإله الابن فى ثالوث طيبة ممسكاً بصولجان. إنها ثلاثة آلهة معارك حربية، بالإضافة إلى كيان إلهى ملكى. واللافت للنظر وجود **ريشيب**. إن هذا اللوح الحجرى هو أحد أول الشواهد على السعى الحثيث للتوصل إلى صياغة تلفيقية دينية، كحركة مميزة لروحانية **الرهامسة**، فضمت الآلهة المصرية إلى الآلهة الأسىوية، لتتحد حول شخص **الفرعون**، من أجل تعاظم ترابط الإمبراطورية.

وبالإضافة إلى ذلك، ووفقاً لبعض العناصر التى تعود إلى فترة سابقة، وتنتمى إلى أيديولوجية **التحامسة**، إذ يمتزج ملك **مصر** بأهم آلهة البلاد المحتلة، سوف تقدم التحية للملك **سيتى** الأول من قبل الأسرى الحيثيين فيعلنون قولهم:

«التحية لك يا ملك مصر، يا شمس **الأقواس التسعة**^(٣٤)...»

(فقد كانت الشمس الإله^(*) العظيم فى الشرق الأدنى).

ومنذ الآن لاحت فى الأفق حركة روحانية شاملة هدفها دمج شعوب الإمبراطورية.

(*) نذكر أن لفظ **شمس** مذكر فى اللغة المصرية القديمة، وليستقيم المعنى أبقينا لفظ **الإله** فى المذكر. (المترجم)

بعد هذا النصر، سعى **بنتيشينا** ملك **الأموري** إلى الاعتراف بهيمنة ملك **مصر**. ولكن **مواتالي** الذى هُزم فى معركة **قائش**، شُنَّ هجوماً جديداً. ففى أعقاب معركة محلية خلع **بنتيشينا** عن العرش، ليضع مكانه الأمير **سابيلي** الذى أبرم معه معاهدة تحالف.

ومن الآن سوف يشكل **نهر العاصي** الحدود بين أقوى دولتين فى ذلك الزمان، بينما حاولت المؤامرات **الحيثية** جاهدة إزاحة النفوذ المصرى فى شمال **سوريا** إلى الوراء. ولكن لم يسع أى من البلدين إلى أن يبادر إلى تقويض هذا السلام الهش، لا سيما أنه قد فُرض على **مصر** أن تراقب جبهات أخرى وتخوض المعارك عندها.

أخطار جديدة ناحية الغرب

فى العام الخامس(؟)(*) من حكمه، اضطر **سيتي الأول** إلى التصدى لمحاولة غزو من ناحية الغرب، قام بها **الليبيون**.

إنهم القادمون الجدد. كانوا رجالاً شُقرأ، عيونهم زرقاء، وقد سجلت نقوش **الكرنك** سماتهم العرقية بعناية، ولكن ظلَّ المصريون يطلقون على هؤلاء الوافدين اسم **ثحنو** وربما كانوا منذ ذلك الزمن من سيعرفون فى وقت لاحق تحت اسم **الماشواش**(**). كما تأكد وجود هذا الاسم الأخير بعد ذلك بسنوات قليلة، فى عهد **رمسيس الثانى**. إنهم قوم تعود أصولهم إلى **البربر**، وربما كانوا إذن قد استقروا فى **ليبيا** منذ تلك الفترة.

وشنَّ **الفرعون** حملتين على الغزاة، واستطاع صدُّهم وطردهم. وإبان الاحتفال بالنصر وتسليم الغنائم إلى **أمون**، كانت آلهة أخرى حاضرة لتشارك فى هذا العيد وتثنى على الملك المنتصر:

(*) علامة الاستفهام الموضوعة بين قوسين تعنى أن الكلمة التى تسبقها تنطوى على معلومة غير مؤكدة. (المترجم)

(**) سوف يؤسسون فيما بعد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين المصريتين. (المترجم)

❖ الإلهة موت، زوجة أمون فى طيبة، و«سيدة مدينة إيشرو، سيدة السماء،
رئيسة الآلهة: «إنى أعطيك الأبدية بصفتك ملك القطرين، بينما تظهر متألقاً
مثل رع».

❖ خونسو فى طيبة - نفرحوتپ سيد الفرع وتحوت سيد الأقصر «إنى أعطيك البسالة
لتتصدى لبلاد الجنوب، والقوة ضد بلدان الشمال، ولتظل من خلفك كل حماية
سحرية، وكل الحياة وكل الثبات وكل القدرة، مثل رع»(٢٥).

تمرد النوبة

مؤخراً، وفى عام ١٩٧٠ تحديداً، تم الكشف عن أجزاء لوح حجرى، إبان
أعمال تنظيف سور مدينة هاسى، الواقعة بين الجندلين الثانى والثالث على نهر
النيل^(٣٦). كان النص مشوهاً تشويهاً بالغاً، ولكن يمكن قراءة خرطوش سيتى الأول.
وأمكن تجميع بعض الأجزاء المبعثرة وقراءة تسعة أسطر مدونة بالخط الهيروغليفى
ومنحوتة بالنقش الغائر. ولوحظ آنذاك أنه يوجد نص مماثل مدون على لوح حجرى
مشابه، ومن مقتنيات متحف بروكلن Brooklyn، جادت به عمارة - غرب، وهى مدينة
صغيرة محصنة، تقع على البر الغربى من نهر النيل، جنوب وادى حلفا. فكانت
مفاجأة لا وجود بها علم المصريين إلا فى القليل النادر. إن دراسة الوثائق الرسمية
فى نصوص متوازية، مدونة أحياناً فى عدد من النسخ، هى خير معين للدارس، لا
سيما إذا كانت هذه المدونات مشوهة فى بعض أجزائها، فيتوصل إلى قراءة متصلة
وصحيحة.

وتحيطنا قراءتنا علماً بأنه فى العام الثامن من حكم سيتى الأول حدث تمرد
فى بلاد إيدم فى جنوب مصر، إنها منطقة قصية تقوم فيها الآبار بدور أساسى.
استمرت الحملة لفترة تجاوزت الشهرين، وإبان هذه الحملة وقعت معركة دامت سبعة
أيام متواصلة. ومن ثم يمكن القول إن التمرد كان بالغ الخطورة:

اليوم العشرون من الشهر الأول من فصل الإنبات من العام الثامن^(٣٧)...
 [النص مشوه]... سيد القطرين: من مامت رع، حاكم طيبة. ابن رع. سبتى، محبوب
 بتاح، سيد عروش القطرين، الملك القوى، العاهل الملكى المجرى من التفاخر والمباهاة،
 الذى يخوض المعارك ويأسر فى كل بلد أجنبى، إنه البطل المقدام الأوحد الفريد. فعند
 عودته (من الحرب)، تُقام من أجله الاحتفالات، بعد أن هُزم (العدو) وغلبه وقهره. إن
 بذور المتمردين التى فى حوزته وفيرة، وقد جمع زعماءهم فى قبضته، ولا يستطيع أى
 بلد أن يصمد فى مواجهته، فقوته لا مثيل لها، لأنه مثل أبيه ست، الثور القوى، الرب
 العاشق للبسالة.

كان صاحب الجلالة فى مدينة طيبة مقيماً فروض الحمد والثناء الشعائرية من
 أجل أبيه آمون، عندما جاء من يقول له: «إن أعداء بلاد إيزم يخططون للقيام بتمرد».
 فاستدار صاحب الجلالة نحو الموفدين لينصت إلى آرائهم، ثم وجه حديثه إلى الأمراء
 والكبراء والأصدقاء والرفاق (الموجودين هنا)، قائلاً: «إذا خطر على بال الرجال
 الأخصاء فى بلاد إيزم أن يعتدوا (على حدود مصر) فى زمن جلاتى، فإن أبى آمون
 - رع، هو الذى سيجهب عليهم بسيفى. لقد سبق أن دفعت إلى الوراء بلدًا آخر كان
 قد تصرف حيالى على النحو نفسه^(٣٨)».

عندئذ فعل صاحب الجلالة نحوهم ما كان قد عقد العزم عليه، وأمر أن يُخزن
 فيهم تقيلاً. وبينما كان الكبراء يُنزلون القصاص بجميع محال إقامتهم، كان صاحب
 الجلالة يتقدم ومعه سلاح المشاة وسلاح المركبات، وكانا يضمّان جمعاً غفيراً. ووصل
 جيش صاحب الجلالة إلى قلعة صبيح^(٣٩). وفى اليوم الثالث عشر من الشهر الثالث
 من فصل الإنبات، تجمعت القوات فى مواجهة العدو. إن قدرة الفرصون أمامهم مثل
 ومج شلعة قد تدك الجبال. ومع بزوغ فجر اليوم السابع، «اقتادتهم» قدرة من مامت
 رع، بحيث لم يبق منهم أحد، سواء كانوا رجالاً أو نساءً. كما دُمّر أيضاً آبارهم...
 [النص مشوه]^(٣٩).

وبغض النظر عن أهمية هذا النص من الناحية التاريخية، فإنه ينطوى على
 فائدة أدبية؛ فقد اكتسب منذ ذلك الزمن إيقاع المأثر البطولية الشهيرة، التى عرفها

عصر الرعامسة، والقصاصد الملحمية التى ستظهر فى وقت لاحق إبان الأسرة الثالثة والعشرين، فنذكر أساليب تقديم البطل وزحف الجيش المنتصر. إننا نعيش بداية المغامرات العسكرية العظيمة لعصر الرعامسة والشاعرية الغنائية المفرطة، فى جو من النصر المبين.

إن لوحاً حجرياً عُثِرَ عليه فى **جبل برقل - أى الجبل الطاهر** - عند مستوى الجندل الرابع على نهر النيل، ومؤرخ بالعام الحادى عشر من حكم سبتى، يشهد على الحد الأقصى الذى وصلت إليه القوات المصرية الزاحفة فى الأراضى السودانية، وهو الحد نفسه الذى وصل إليه **تموتمس الثالث**. وللأسف الشديد فإن نص هذا اللوح مشوه إلى حد كبير، فتصعب قراءته.

استعادة الإمبراطورية

لقد استردت مصر أراضيها الآسيوية حتى نهر العاصى، وممتلكاتها الإفريقية. وتم تأمين السلام عند الحدود الغربية، ووضحت هيئة الفرعون من جديد.

وعلى الجرف الصخرى المشرف على النيل، من على ارتفاع ٦٥ متراً - قبل بناء السد العالى - وفى قصر إبريم تحديداً، على بعد ٢٢٥ كيلومتراً جنوب أسوان، وإلى الشمال قليلاً من الجندل الثانى، أمر سبتى الأول وأمن إم أوبه نائب الملك فى النوبة، بنحت مدونة نذرية على سطح الصخرة المطلة على الوادى، فجاءت شاهداً على العظمة ورفعة المقام، اللتين تم استعادتهما، كما تبلّغ من بعيد، السودانيون المسافرون عبر النهر، صعوذاً وهبوطاً، أنه لا يستطيع أحد من الآن أن ينكر قدرات مصر وقوتها. أجل، إنه تحذير ينطوى على قدر كبير من الغطرسة والفائدة. ونقرأ فى هذه المدونة (٤٠):

الإله الكامل الذى يضرب الأقواس التسعة، القلب القوى الذى يُجهز على أعدائه، ويثخن فى بلاد كوش تفتيلاً، ويدوس الثحنى بأقدامه ويقتاد زعماءهم أسرى. فليحى الحورس، الثور القوى، صاحب القلب الحازم مثل قلب ابن نوت (أى ست)، الملك المقدام الذى يرسم حدوده عند الأطراف القصية، حسب رغبته.

إنه ينجز فصول الحرث والفلاحة في البلد المحبوب، ولكنه لا يحتاج إلى الشباب عند الحصار^(*). عندئذ، فإنه يدمر منشآت (الأعداء) ويفكك مدنها. وتكون جياشه قد أشبعت شعيراً وأصبح جنوده سكارى من شرب النبيذ، بفضل قدرة ساعده القوى. وإليه يأتى أجنب الجنوب، وظهورهم منحنية، فى حين تسجد شعوب الشمال بسبب مجده، لأن كل ما يحيط به قرص الشمس يقع فى دائرة اهتماماته. إنهم يطيعون فى قلب واحد، فلا يوجد متمرّدون وسطهم. إنهم يندفعون تحت قدميه كما تفعل الكلاب، حتى تُعطى لهم نسمات الحياة.

أيها الملك القوى الذى يحمى مصر بأن يسحق الأجنب، والذى يرد البلدان إلى أرضها، بالإضافة إلى الزعماء الذين لم يسبق لهم أن عرفوا مصر، وتمردوا على صاحب الجلالة^(**). كانوا قد عبروا بقوة حدودك، ولكنهم شاهدوا مجدك والخوف الذى تثيره انتشر فى ربوع بلدهم، لأنهم كانوا قد استهانوا بمقاصدك.

أيها الأمير الجميل، لقد دمرت بلد الزنجى بفضل ساعدك القوى. فمن الآن تمتد حدودك من بلاد الجنوب وحتى تخوم رياح الشمال وأطراف الشديدة الاخضرار

ملك مصر العليا ومصر السفلى: من ماعت رع،

ابن رع: سبتى، محبوب پتاح ومحبوب أمون - رع، ملك الآلهة، له الحياة لأزمنة لا نهائية وأبدية^(١٢).

(*) كما سبق أن لاحظنا^(٤١)، تُشن الحملات العسكرية فى كل فصل من الفصول ١٠ - أى فى موسم الإنبات - وفى كل فصل من الفصول ١١ - أى فى موسم الجفاف. ولا تُشن فى فصول الحرث والبذر التى تحتاج إلى أيدي عاملة كثيفة. راجع أيضاً الهامش ١٥ من هذا الفصل. (المؤلفة)

(**) من الواضح أن النص يشير هنا إلى التمرد السودانى، بالنظر إلى موقع هذا اللوح الصخرى. (المؤلفة)

كما عثر على لوح صخرى آخر، قرب الجندل الأول، من نهر النيل، ويعود تاريخه إلى العام التاسع من عهد الملك. وفي القسم المقوس فى أعلى الأثر، يقوم سيقى الأول بإحراق البخور من أجل الثالوت الإلهى المحلى: **خنوم وساتيس(*)** و**أنوكيس(**)**. ويشيد النص بعودة الازدهار والمنافع التى يمن بها الملك، إنه المعين الذى يحافظ على شعبه.

... **الإله الكامل، ابن أمون، الذى يضرب الجموع الغفيرة ويأتى بالأسرى الأحياء، إنه يحب جنود المشاة وأفراد المركبات الحربية، إنه الشخص المقدس المهيّب الذى يحمى الشباب ويشيع الازدهار بين أجيال البلاد المحبوب، ويملأ المخازن ويزيد الشؤن اتساعاً، ويعطى المعوز ما يحتاج إليه، ويعبر عن صداقته للميسور، والذى تقوى مقاصده البشر، ويزرع العلس، فهو حبيب القمح وسيد الخبز. إنه «يعمل» جميع الأبدان، وفى زمنه لا يتمدد أحد وهو يتضور جوعاً. والجميع فى ربوع البلاد يتהלلون فرحاً بسبب الأطعمة التى يُجزلها لهم...»(٤٣)**

لما كان سيقى الأول الملك الواسع العطاء، «حبيب القمح وسيد الخبز»، فسوف يكرّس السنوات الأخيرة من حكمه فى استثمار ممتلكاته ليضمن لمصر مزيداً من الخيرات والموارد(٤٤).

ويعد أن عم الازدهار، فلن يؤثر فيه شئٌ بالسلب، وسوف تعيش البلاد حتى نهاية عهده حياة هادئة، اعتماداً على موارد إمبراطوريتها الشاسعة.

وعلى الجدار الشرقى من معبد **أمون - رع الكبير فى الكرنك، نقش نشيد إمبراطورى مهيّب. إنه يستعيد بعض مقاطع نشيد تحوتمس الثالث، ويستلهم بعض جوانب نشيد أمنموتب الثالث(٤٥)، ولكنه يتخذ دلالات سياسية أكثر تحديداً وقيمة أكثر عالمية.**

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **سنت**. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **هنت**. (المترجم)

كلمات قيلت من قبل أمون - رع، سيد عروش القطرين:

أيَا بُنَىِّ الذِي مِنْ صِلْبِي، يَا مَحْبُوبِي، يَا سِيدَ الْقَطْرَيْنِ. مِنْ مَامَتِ رَعِ الذِي
يَسْتَطِيعُ التَّسَيُّدَ عَلَى كُلِّ بِلَدٍ مِنَ الْبِلَادَانِ الْأَجْنِبِيَّةِ، أَنَا أَبُوكَ فَانْشُرْ هَيْبَتَكَ فِي الرِّيْتَتِي
الْأَدْنَى، وَالْأَسْيُورِيِّينَ وَالنُّوبِيِّينَ، عَلَى حُدِّ سِوَاءٍ، خَاضِرُونَ تَحْتَ نَعْلِكَ.

إِنِّي أَتَصَرَّفُ بِحَيْثُ يَأْتِي إِلَيْكَ زَعَمَاءُ أَرَاضِي الْجَنُوبِ، وَتَتَسَلَّمُ أَوْلَادُهُمْ فَضْلًا
عَنْ كُلِّ مَنْتَجَاتِ بِلَادِهِمُ الطَّيْبَةِ، فِي هَيْئَةِ جَزِيَّةٍ. وَسَوْفَ تَعْطِيهِمْ فِي الْمَقَابِلِ نَسَمَاتِ
الْحَيَاةِ (١٦).

إِنِّي أَدِيرُ وَجْهِي شَطْرَ الشَّمَالِ وَأَصْنَعُ الْعَجَائِبَ مِنْ أَجْلِكَ... وَأَتَصَرَّفُ بِحَيْثُ
يَصْبِحُ الْمُتَمَرِّدُونَ أَشْبَهَ بِعَصَافِيرٍ صَغِيرَةٍ فِي أَعْشَاشِهَا، بِسَبَبِ قُوَّتِكَ. وَأَتَصَرَّفُ بِحَيْثُ
تَأْتِي إِلَيْكَ بِلَدَانِ كَانَتَا، حَتَّى الْآنَ، تَجْهَلُ مِصْرَ، (تَأْتِي) مَحْمَلَةٌ بِجَزِيَّتِهَا مِنْ فُضَّةٍ
وَذَهَبٍ وَلَا زُورَدٍ وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي تَعُودُ إِلَى بِلَدِ الْإِلَهِ.

إِنِّي أَدِيرُ وَجْهِي شَطْرَ الشَّرْقِ وَأَصْنَعُ الْعَجَائِبَ مِنْ أَجْلِكَ وَأُرْبِطُهُ بِأَكْمَلِهِ
لِصَالِحِكَ، وَأَوْحِدُهُ فِي قَبْضَتِكَ. فَمَنْ أَجْلِكَ، أَجْمَعُ بِلَادَ يُونُتِ جَمْعَاءَ وَجَزِيَّتِهَا مِنْ رَاتِنِجٍ
وَبُخُورٍ مُقَدَّسٍ، فَضْلًا عَنْ كُلِّ خَيْرَاتِ بِلَدِ الْإِلَهِ الطَّيْبَةِ.

إِنِّي أَدِيرُ وَجْهِي شَطْرَ الْغَرْبِ وَأَصْنَعُ الْعَجَائِبَ مِنْ أَجْلِكَ. وَأَعَاقِبُ بِلَدَ الثَّحْنُو
بِأَكْمَلِهِ، وَأَتَصَرَّفُ بِحَيْثُ يَأْتُونَ إِلَيْكَ أَذْلَاءُ رَاكِعِينَ، بِسَبَبِ صِيحَاتِ الْحَرْبِ الَّتِي صَدَرَتْ
عَنْكَ، بَيْنَمَا يُجْزَلُ زَعَمَاؤُهُمُ التَّهْلِيلُ مِنْ أَجْلِكَ.

إِنِّي أَدِيرُ وَجْهِي شَطْرَ السَّمَاءِ وَأَصْنَعُ الْعَجَائِبَ مِنْ أَجْلِكَ. إِنْ آلِهَةَ الْأَفْقِ
السَّمَاءِيِّ تَغْتَبِطُ بِسَبَبِكَ، أَنْتَ يَا مَنْ جِئْتَ إِلَى الدُّنْيَا مَعَ تَبَاشِيرِ الْفَجْرِ عَلَى غَرَارِ رَعٍ،
فَمَتْنُهُ تُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ فِي شَبَابٍ دَائِمٍ، وَمَعَ كُلِّ يَوْمٍ جَدِيدٍ، تَأْتِي بِالْإِسْتِقَامَةِ وَالسَّادَاتِ.

إِنِّي أَدِيرُ وَجْهِي شَطْرَ الْأَرْضِ وَأَصْنَعُ الْعَجَائِبَ مِنْ أَجْلِكَ. وَبَيْنَمَا تَحَاطُّ عُلَمَاءُ
بِأَنْتِصَارَاتِكَ عَلَى كُلِّ بِلَدٍ أَعْجَبِي، تَفْرَحُ الْآلِهَةُ فِي مَعَابِدِهَا، مِنْ أَجْلِكَ. وَسَوْفَ تُحَقِّقُ

زمنًا أبدى بصفتك ملكًا على عرش جب، بعد أن تتسلَّم الملك وتكون مقمعتك البيضاء
قد ضربت الأقواس التسعة.

إنى أتصرف بحيث يرون جلالتك، سيد الأشعة، بينما تتألق في وجوههم، مثل
صورتي.

إنى أتصرف بحيث يرون جلالتك وقد ارتدبت حلَّة الحرب، بينما تمسك بأسلحة
القتال على متن مركبتك.

إنى أتصرف بحيث يرون جلالتك، نجمًا يرسل بريقه في هيئة شعلة ويعطى
أنداءه.

إنى أتصرف بحيث يرون جلالتك ثورًا في شباب أبدى، ثابت القلب، بقرنين
حادين، من الصعب الهجوم عليه.

إنى أتصرف بحيث يرون جلالتك تمساحًا، رب الهلج على الشاطئ، من الصعب
الاقتراب منه.

إنى أتصرف بحيث يرون جلالتك بصفتك سخونة شعلة، وشكلًا من أشكال
سخمت وقد احتدم سعارها.

إنى أتصرف بحيث يرون جلالتك أسدًا، بينما تُحوِّلهم إلى جثث على امتداد
واديانهم.

إنى أتصرف بحيث يرون جلالتك وكأنك غسق^(٤٧)... لقد بلغت قدراته حدا من
القوة بحيث تستحيل مهاجمته، سواء في السماء أو في الأرض^(٤٨).

إن الصور البلاغية الجديدة، مقارنة بالأناشيد السابقة، والناشئة عن الشاعرية
المصرية مرهفة الحس، وُضِعَ تحتها خط، للإشارة إليها. فمن المفيد قراءة النصوص
المصرية، والإقلال من الكلام، من أجل كما هو سائد في أغلب الأحوال، والابتعاد عن
العبارات الرسمية الطنانة، وعن الصيغ المقولبة والنصوص الجامدة التي تلوكتها
الأسنن دون ملل، وعن الكلام والأساليب المسهبة المكررة بلا فائدة. ولا ريب أن هذا
النشيد العظيم ينهل من الأناشيد السابقة، ولكنه يتكيف مع الواقع السياسى الجديد،

فلم تعد النصوص تشير إلى أراضى الإمبراطورية، التى كانت قد أصبحت كلاً واحداً، لا فرق بين مختلف أراضيها، فلا تذكر أقسامها المكونة، كما كان الحال فى عهد تحوتمس الثالث، كما أخذت الصورة الأسطورية للملك - البطل تتعاظم. إنه كيان إلهى متعدد الأشكال المفعمة بالبركة وبالتأثير المواتى أو المرعب، إنه يحلّ الوئام بين أطراف الفتوحات التى تحققت بمساعدة أمون والدفاع عنها. إن ملكاً عظيماً، سوف ينول إليه العمل الفذ الذى بدأه سبتى الأول على الصعيدين المادى والروحى، ويحتفظ به بفضل ما بذله من جهد.

ولى العهد رمسيسيس

الابن الإلهى

كان سبتى الأول قد تزوج سيدة تدعى قوى، لا يجرى فى عروقتها دم ملكى، كانت ابنة رايأ القائد العام لسلاح المركبات. وثويأ، وكانت امرأة بسيطة المنبت. فعن طريق الأب والأم كان رمسيس ينتسب إذن من ناحيتين، إلى فئة العسكريين. كان له أخوان أو ثلاثة إخوة وأختان، إحداهما هى حلت مى رع التى سوف يتزوجها، لتصبح إحدى «الزوجات الملكيات العظيمات» الخمس.

ولما كان رمسيس لا ينتسب، من ناحية الأم إلى عائلة كريمة الأصل، فربما شعر بالحاجة إلى تبرير حقه فى اعتلاء العرش والتأكيد على ذلك، تأكيداً لا يمكن دحضه.

ومن ثم، فقد استعاد لصالحه مشاهد ونصوص الولادة الإلهية كما وردت فى معبدى النير البحرى والأقصر^(٤٩). وبالفعل، فقد عُثر على كتل حجرية تعود إلى عهد رمسيس الثانى، ثم أعيد استخدامها فى عدد من المباني اللاحقة^(٥٠)، وتحديدًا فى معبد رمسيس الثالث الجنائزى، فى مدينة هابو، بل وفى الكثير من مباني العصر البطلمى. وقد صُورت على هذه الكتل الحجرية والدة رمسيس الثانى، بالإضافة إليه وهو فى سن الطفولة، وهما يشاركان الآلهة فى بعض المشاهد الطقسية^(٥١). ويعتقد أن هذه الكتل الحجرية، كانت أصلاً جزءاً من المقصورة التى أمر رمسيس الثانى

بإقامتها من أجل والدته، عند الجانب الشمالى من **الرامسيوم** - وهو معبد الجنائزى فى البر الغربى من مدينة طيبة. وقد دُون على إحدى هذه الكتل النص التكريسى المعتاد: «**قند شيد معلماً صرحياً من أجل والدته، الوالدة الملكية توى، (شيد) مقصورة... (٥٢)**»

وللأسف، فإن هذه الكتل مشوهة تشويها بالغاً، ولكن ما زال فى وسعنا التعرف على النقوش التى تحتفل تحديداً بما يلى:

❖ اقتران **الإله أمون - رع** بالملكة **توى** الجالسة على سرير تحمله إلهتان، وقد تداخلت سيقانهما. ومن الحديث الإلهى ما زال فى إمكاننا قراءة الكلمات الآتية: «...كم مى مبهجة أندائى. إن عبرى هو عبير **بلد الإله** ورائحتى مى رائحة **بونت**. سوف أقيم ابنى ملكاً... (٥٣)»

❖ إرضاع المولود الإلهى، وإليه تتحدث **سشات**، إلهة الكتابة وزوجة **تحوت**. إن دورها مرضعة، الذى تقوم به فى المعتاد الإلهة **حتحور**، دور ملحوظ: «**بنى أَرْضع سيدى... وأقيم ملكه ملكاً راسخاً... على عرش رع، بحيث تكون مدة حياة هذا الأخير، مى مدته (٥٤)**».

❖ التقديم إلى **حتحور**، الإلهة السماوية الخصبة والمرضعة: الأمير الشاب **رعسيس** يواجه **حتحور** التى تسلمه قلايتها **مئات**، فى حين يقف من خلفه **أمون - رع**، وقد مدَّ ساعده الأيمن ليحميه ويقول: «**عندما كنت لا تزال طفلاً صغيراً، تأكد أن مدة حياة رع مى لك (٥٥)**».

❖ هبات تاسوع طيبة. ما زال فى وسعنا أن نقرأ: «**...مونتوى يعطى الحياة والقوة. وأتوم يعطى الازدهار. وشوى يعطى الفرح... (٥٦)**»

كان الأمير الشاب **رعسيس** سليل عسكريين، ولكنه كان أيضاً ابن إله، فقد وقع عليه الاختيار منذ وقت مبكر جداً ليخلف أباه **سيتى الأول**. وقد جاء اسمه «**الشخصى (*)**» ليؤكد على هذا الاهتمام: إنه **سيتى - إن - رع**، أى «هذا الذى اصطفاه رع».

(*) هو اسم العرش أو اسمه بصفتة ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

المشاركة فى الحكم

ربما يعود تاريخ المشاركة فى الحكم إلى العام السابع من عهد **سيتى الأول**، وإن كان نظام المشاركة فى الحكم هذا لا يعتبر ظاهرة جديدة فى التاريخ المصرى، فقد سبق أن لاحظنا وجوده بصفة خاصة، مع **أمن إم حات**، حول العام ٢٠٠٠، عندما اختار ابنه سنوسرت ليخلفه، ومع ذلك فإنه يعتبر من سمات عصر **الرهامسة**، إذ رأى كل من **رهمسيس الأول وسيتى الأول ورهمسيس الثانى**، على التوالى، أن يختار الابن الذى يشاركه السلطة. ومما لا ريب فيه أنهم حاولوا بتصرفهم هذا، أن يتجنبوا أى مناقشات حول وراثة العرش أو يحولوا دون تدخل كهنة **أمون** تحديداً، ولكن ربما أيضاً، لإعداد ولى العهد إعداداً أفضل للقيام بمهامه فى المستقبل، ففتح له فرصة الوقوف عن كئيب على شئون البلد وطرق إدارتها. هكذا كان من المأمول أن تتم مراسم تنصيب الملك الجديد دون اضطرابات أو حدوث انقطاع فى خط السياسة المعمول بها، كما كانت هذه التدابير أسلوبياً آخر للحفاظ على الإمبراطورية.

وتشهد مبانى **سيتى الأول** وأثاره بشتى الطرق والأساليب، على هذا الاهتمام بإشراك الأمير الشاب **رهمسيس** فى العرش. إن نصوص ونقوش **أبيدوس والقرنة والكرك** على وجه التحديد، تعزز ما كان يشغل بال **سيتى الأول**.

ويحتفظ المعبد الذى شيده **سيتى الأول فى أبيدوس^(٤)**، بمشهد يصور الملك **ورهمسيس** وهما يقدمان معاً القرابين إلى الآلهة وإلى خراطيش أسلافهم الملكيين^(٥٧)، كأسلوب صريح للتأكيد على استمرارية الأسرات الحاكمة. ويظهر **رهمسيس** فى هيئة أمير متوج، وإن لم يوضع بعد اسمه داخل خرطوش. كما تظهر هذه الحقيقة بكل وضوح، فى المدونة التكريسية التى أمر **رهمسيس الثانى** بنحتها فى هذا المعبد ذاته.

(*) وفى **العراية المنقوشة حالياً**، على وجه التحديد قرب **البليتا**. وربما كان هذا المعبد، من حيث جماله وأصالته، من أروع آثار **مصر قاطبة**، لا سيما أنه فى حالة جيدة من الحفظ. (المترجم)

(ذات يوم) ظهر أبى فى مجده للشعب، بينما كنت لا أزال طفلاً بين يديه،
وتحدث بشأنى قائلاً: «توجوه ملكاً، حتى أستطيع رؤية كماله وأنا على قيد الحياة».
فاستدعى رجال البلاط ليوضع التاج على هامتى، ولما كان لا يزال حياً على سطح
الأرض قال بخصوصى: «ضعوا أيضاً الصل على رأسه، حتى يكفل وحدة هذا البلد،
وحتى يربط (البلدان الأجنبية) ويعير الشعب اهتمامه...»، فعظيماً كان الحب الذى
يكُنّه نحوى. وخصننى بعد ذلك بحريم ملكى، يغصُ بالنساء الجميلات فى القصر.
واختار من أجلى زوجات... ومحظيات... انظروا، فقد كنت مثل رع فوق الشعب، بل
وكانت مصر العليا ومصر السفلى منذ ذلك الحين، تحت نعلى^(٥٨).

هكذا بدأت مسيرة حياة رمسيس الثانى «الغرامية» بكثرة علاقاته وتعددتها،
ومنذ أن كان صبيّاً. إنها أيضاً سمة أخرى من سمات، هؤلاء الجنود الأشداء المولعون
بالملاذات، أولئك هم الرعامسة.

وتحتفظ طيبة بنسخة مقابلة لما سبق، فعلى الجدار الشمالى من ردهة معبد
سيتى الأول الجنائزى فى القرنة، على البر الغربى من نهر النيل، صُوِّر رمسيس
بينما يقوم بتتويجه الثالوث الإلهى أمون - رع وموت وخونسو، فى حضرة أبيه سيتى.
ويتحدث أمون - رع قائلاً:

فليكن ثابتاً، فليكن ثابتاً التاج فوق رأسك. استدر ناحية أبيك رع، حتى تبقى
الأراضى المصرية من أجلك فى سلام، فى حين تبقى البلدان الأجنبية تحت نعليك^(٥٩).

وفى هذا المعبد نفسه، وجنوب الصفة، نرى مشهداً بالنقش الغائر يصور سيتى
الأول ورمسيس، وهما يستقبلان المراكب المقدسة لآلهة طيبة، وقد خرجت فى موكب
مهيّب. ودون خطاب الترحيب كما جاء على لسان سيتى:

مرحباً فى سلام، أيا أمون - رع، يا رب الأرباب، يا ملك الآلهة، يا أبا الآباء،
يا أقوى الأقوياء، أيها الأقدم الأصلي الذى جاء إلى الوجود قبل أى شىء سواه، يا
سيد العظمة والجلال، الذى سبق له أن ربط القطرين منذ أن كان فى النون^(٦٠)، بين
السماء العليا والسماء السفلى^(٦١). كم هو جميل ظهورك! كم هو لطيف وجهك! عندما
يصل مركبك إلى معبدى...

ليتك تثبت وريثى ثباتاً راسخاً، بعد أن يكون سيد القطرين أوسر
مامت رع ستب إن رع، قد اعتلى عرشى فى سلام، فى حين لا يزال الآن واقعاً أمامه،
بصفته ابنى المحبوب. ولكننى أعرف بما تحمله البذرة التى خرجت منك. ليتك تمنحه
زماً أبدياً، حتى يُحيى اسمى من جديد، تنفيذاً للأمر الصابر من فمك^(٦٢).

إن هذا النص وهو فى حقيقة الأمر، من وضع وهمسيس الثانى، يؤكد على
حقيقة البنية الإلهية لهذا الأخير، ثم المشاركة السياسية التى ربطته بأبيه الذى كان لا
يزال متربعا على العرش، وأخيراً الخلط بين النظام الملكى والدين، وما يجلبه من تأثير
مفيد.

كان الأمير وهمسيس شاباً فى مقتبل العمر، عندما بدأ تدريباته العسكرية.
فعلى أحد نقوش الجدار الشمالى من بهو أساطين الكرنك، صور فى صحبة والده
إبان إحدى حملات أسيا^(٦٣). هكذا فقد ألم منذ وقت مبكر جداً بفنون الحرب، كما
تعرف بلاشك على الدسائس التى كان يحيكها بلاط ملوك وأمراء الشرق الأدنى،
والمخاطر الكامنة التى كانت لا تزال تهدد مصر. ومن ثم، سنلاحظ أن تصرفاته منذ
اعتلائه العرش، تنم عن ذكاء ونفاذ بصيرة، لحماية الإمبراطورية.

إن لوحاً حجرياً عُثر عليه فى كويان من مواقع النوبة، ويعود تاريخه إلى العام
الثالث من عهد وهمسيس الثانى، يشير إلى مسيرة حياة الأمير الشاب المشارك فى
الحكم، على الصعيدين السياسى والعسكرى، والنص عبارة عن خطاب موجه من
أفراد حاشية الملك:

كنت ترسم الخطط بصفتك أميراً صيباً، بينما كنت لا تزال في البيضة. كنت تُبلِّغ بشئون القطرين، بينما كنت حدثاً، لا زال يحمل خصلة شعر الطفولة. فلم يُشيد مبنى إلا وكان تحت إشرافك، ولم يُكف أحد بمهمة إلا وكنت مسئولاً عنها. وعندما كنت حدثاً في العاشرة من عمره، أصبحت منذ ذلك الزمن، قائداً عاماً للجيش^(٦٤).

كما عهد إليه أبوه بقيادة بعض الحملات، وتحديدًا إلى المحاجر. إن اللوح الحجري الذي يعود إلى العام التاسع من عهد سيتي الأول، والذي عُثر عليه قرب الجنديل الأول^(٦٥)، يروي الواقعة الآتية:

أمر صاحب الجلالة بأن يكلف جمع غفير من العاملين بصنع مسلات سامقة ورشيقة، إلى جانب تماثيل شامخة ورائعة باسم صاحب الجلالة. كما أمر ببناء سفن كبيرة، رُبِطت بعضها ببعض، مثلها مثل الصنادل وتم سحبها. كان الكبراء والضباط في عجلة من أمرهم، بينما كان ابنه البكر واقفاً أمامهم، منجزاً من أجل صاحب الجلالة أعمالاً مفعمة بالبركة.

كما قاد شخصياً حملة عسكرية إلى النوبة، وهو لا يزال في الثانية والعشرين من عمره، وكان يصطحبه اثنان من أبنائه هما أمون حر ونم إف^(*) وكان عمره خمس سنوات وخمسة عشر عاماً^(**) وكان عمره أربع سنوات. وكان النصر حليف هذه الحملة. وإحياءً لذكرى هذا الانتصار أمر بتشيد معبد صغير في بيت الوالي، جنوب الجنديل الأول، نصفه مجفور في صخر الجبل.

(*) ومعناه: «أمون على ساعده الأيمن»

Ch. Leblanc, Nefertari, Ed. du Rocher, 1999, p.74. (المترجم)

(**) ومعناه «الذي يتجلى (في مجده) في طيبة». المرجع السابق، p.155. (المترجم)

عند وفاة سیتی الأول، حول عام ١٢٩٦ ق.م، كان رمسيس في الخامسة والعشرين من عمره، وكان منذ هذه السن أميراً واسع الخبرة، وعلى دراية بشئون الإمبراطورية.

كانت له زوجتان: نفرتاری (أى / الجميلة^(١٠))، وهى سيدة نبيلة، وتُبرز نقوشها ورسوماتها جمالها، وسوف تظل دائماً المحبوبة. والزوجة الأخرى هى إیزيس نفرت (أى / إیزيس الجميلة)، وتنحدر من أصول غامضة. وقد رزق بخمسة أبناء وابنتين، ولابد من أن يضاف إليهم الأولاد المولودون من المحظيات، وكانت أعدادهن كبيرة منذ ذلك الزمن. كان الأطفال كثر. ويشكلون خير ضمان لاستمرارية الأسرة الحاكمة.

رابعاً: رمسيس الكبير

حورس الثور القوى، محبوب ماعت، رب أعياد اليوبيل، مثل أبيه
بتاح تا تن.

السيبتان: هو الذى يحمى مصر والذى يربط البلدان الأجنبية.

حورس الذهبى: غنى بالسنوات، صاحب الانتصارات المهيبة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى، أوسر ماعت رع ستپ إن رع، (أى «قويتان»
هما حقيقة وعدالة رع، هو الذى اصطفاه رع).

ابن رع: رمسيس^(١١) (أى «هذا الذى أنجبه رع»)، محبوب أمون^(١٢).

(*) «أو «الأجل»، انرجع السابق p.15. (المترجم)

(**) تصحيف الاسم المصرى القديم رع - مس - سو. (المترجم)

(***) مرى أمون، بالمصرية القديمة. وقد استخدم مسيحيو مصر اللفظ الأول مرى أى محبوب، للإشارة إلى قديسيهم، كان يقال مثلاً: مار جرجس ومار مرقس، وما شابه ذلك... وهناك خطأ شائع، كان يقال مثلاً مارى جرجس. (المترجم)

حول عام ١٢٩٦ ق.م، اعتلى إذن **وهمسيس** الثاني عرش مصر، وظل ملكاً متوجاً لفترة حكم مديدة بلغت ٦٧ سنة، فكانت واحدة من أطولها^(*) وأكثرها مهابة في تاريخ وادي النيل، وكان مقدراً له ذلك سلفاً.

لقد ربط التاجين من أجلك، منذ أن كنت في بطن أمك **إيزيس**. لقد أعيد الاخضرار إلى نصيب **الحورسين**^(**) وسنواتك هي مثل سنوات **أتوم**^(٦٦) **أمير الشمال** وملك مصر العليا ومصر السفلى مثل **بتاح - تا - تن**. إن الأرض السوداء والأرض الحمراء تحت نعليك^(٦٧)، و**سوريا** وبلاد **كوش** اجتمعت في قبضتك. والبلد المحبوب في فرح، منذ أن تسلمت مقاليد الحكم، لأنك وسّعت حدوده^(٦٨).

سبعة وستون عاماً من الانتصارات وسلام مديد، سبعة وستون عاماً لإمبراطورية ظلت تنتقل من نصر إلى نصر، نتيجة لفكر ونشاط قائمين على عزم وتصميم.

كما أن الأعوام السبعة والستين، تؤكدنا بردية عُثر عليها **سير فليندرز بيتري** Sir Flinders Petrie في مدينة **الغراب**^(٦٩)، كما تتفق هذه المدة مع الأعوام الستة والستين وشهرين التي يذكرها **مانثون** Manéthon، ونقلها عنه بعد ذلك **يوسفوس**^(٧٠) Josephus. وقد احتفظت ذاكرة المصريين بهذا العهد المديد باعتباره نموذجاً. ومن ثم، ففي زمن لاحق وبعد مرور ١٤٠ سنة، سوف يُدوّن **وهمسيس** الرابع النص التالي في **أبيدوس**، على لوح حجري، مكرس للإله **أوزيريس**، ويعود تاريخه إلى العام الرابع من عهده:

(*) ربما كانت مدة حكم **بيبي** الثاني من الأسرة السادسة أطول، وإن كان هناك خلاف بين علماء المصريين حول الرقم الدقيق لعدد هذه السنوات. راجع: M.Damiano-Appia L'Egypte. Dict. en-

cyclopedique. Gründ, 1999, p.212 et 282. (المترجم)

(**) مثنى **حورس**. (المترجم)

المنافع التى أنعمتُ بها على حياتك، من أجل توفير ما يلزم قرايينك المقدسة، والسعى للحصول على كل ما هو مفيد وكل ما هو نافع، يمكن تقديمها لمعبديك على مدار الأيام، على امتداد هذه السنوات الأربع، إنها أعظم بكثير مما فعله من أجلك الإله العظيم، الملك أوسر ماعت رع - ستب إن رع، على امتداد سبع وستين سنة من عمره. ومن ثم، ليتك تمنحني الحياة المديدة والمُلك المجيد اللذين وهبتهما له^(٧١).

واجبات البر بالوالدين

قبل القيام بأي نشاط سياسى، أراد رعمسيس أن يكرم أباه مرة أخيرة، فيتقدم إليه بما يستحق من شكر وحمد. لما كان رعمسيس يراعى واجب الاحترام، فيبدو أنه كان مرتبطاً بالديه ارتباطاً حميماً. ومن ثم، فإن جميع المعالم المكرسة للملكة توى، تعود جميعها تقريباً إلى عهده.

كما أراد أن تقام لأبيه جنازة رسمية. كان سيتى قد وافته المنية فى قصره القريب من مدينة تانيس^(*). لقد تم إبلاغ طيبة بالنبا، عن طريق بعض الموفدين، لفتح المقبرة التى حُفرت وأُعدت، فى سرية تامة فى صخر جبل وادى الملوك، فى الشيخ عبد القرنه. وبعد انقضاء سبعين يوماً^(**)، ومع الانتهاء من تجهيز المومياء الملكية، انتهت عمليات حماية جسد المصلح الذى أعاد الإمبراطورية إلى سابق عهدها، حمايته إلى أبد الآباد، فأقْلَع موكب طويل من المراكب، صاعداً نهر النيل صوب الجنوب، يتقدمه رعمسيس الثانى. وفى الطريق وعند هليوبوليس ومنف، عرّف الملك الجديد نفسه. وبعد رحلة بطيئة، استغرقت قرابة خمسة عشر يوماً، رسى الموكب على البر

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم چانت، وصان الحجر حالياً، فى شرق الدلتا). (المترجم)

(**) جدير بالملاحظة أن سفر التكوين من الكتاب المقدس يشير إلى تحنيط يعقوب، قائلاً: «وأمر (يوسف) خدامه الأطباء أن يحنطوا أباه (يعقوب)، ... ودام ذلك أربعين يوماً، لأن كذلك تنوم أيام التحنيط. وبكى عليه المصريون سبعين يوماً». (الإصحاح ٥٠: ٢-٣). (المترجم)

الغربي المواجه لمدينة الأقصر وقصرها ومعبد أمنحوتب الثالث، وسلك الموكب الطريق الطويل الموصل إلى الجُرف الصخري في الغرب، كان التابوت الذهبي موضوعاً فوق زحافة، ومعه الأثاث والقطع الثمينة، بينما الملك واقف يطلق البخور على جثمان أبيه، وسط صراخ الندابات وأنين جماهير الشعب.

ومن الآن، سوف يرقد سيتي في بيته الأبدى، إلى أن طرده منه المفسدون في الأرض، اللصوص السلابون، وعلى مدار الأيام سوف يقيم الكهنة في معبده الجنائزى بالقرنة شعائر إحيائية، كما ستحافظ القرابين الغذائية على حياة الملك اللانهائية في العالم الآخر، بجوار أبيه رع وإلى جانب أوزيريس.

من أجل عاصمة للإمبراطورية

واتخذ رمسيس الثانى من الأقاليم الحدودية المحصنة مقاماً له، فكان قراره هذا باكورة نشاطه السياسى. ظلت منف وطيبة فى الماضى عاصمتى مصر بعد أن قامت بضم أراضٍ إفريقية وأسيوية، لتصبح أشبه بأعضاء فى دولة اتحادية تهيمن عليها مصر. تلك كانت على ما يبدو الفكرة التى حددت أبعاد سياسة تحوتمس الثالث. ولكن من الآن سوف تصبح العاصمة مدينة جديدة، تقع عند الحدود الفاصلة بين مصر وأسيا، إنها مدينة نصف مصرية ونصف أسيوية، فكانت حقاً عاصمة إمبراطورية شاسعة تجمع أجناساً مختلفة. كان ينظر الآن إلى الإمبراطورية باعتبارها مجموعة لأراضٍ تشكل وحدة، وقد تجمعت فى يد زعيم واحد، هو الفرعون الذى سيتولى من الآن التنسيق بين أنشطتها السياسية والروحية. وربما كان الملك الشاب قد فكر منذ زمن بعيد فى هذه الإمبراطورية الجديدة التى ستجعل من مصر مركز إشعاع لعالم شاسع ومتنوع. كان قد تمرّس، منذ أن كان حدثاً فى مقتبل العمر، على فنون الحرب، ولعبة الدسائس، فسعى بلاشك إلى صياغة هذا الفكر السياسى الجديد، ليؤمن بشكل أفضل عظمة وطنه وازدهاره. ونجد إرهابات هذا الفكر، من قبل، فى نشيد سيتي الأول الإمبراطورى.

سوف تُعرف المدينة الجديدة تحت اسم «بيت رمسيس - محبوب أمون،
مهية هي/انتصاراته». ويُختصر في الغالب في عبارة **پر - رمسيس**.

وحول قصر الصيف الذي شيده **رمسيس الأول**، حيث أقام **سيتي الأول**، أمر
رمسيس الثاني بتشديد تجمع سكني فسيح، بدياره وحدائقه ومبانيه الإدارية
ومعابده. هنا ستتحصن القوات البرية والبحرية، على مقربة من أرض العمليات
الحربية في **أسيا**. كانت أراضي **الدلتا** خصبة، وتغص بالقنص والأسماك، فكان إمداد
المدينة بالطعام أمراً سهلاً ميسوراً.

إن الفكرة التي وجهت تأسيسها، تظهر بكل جلاء في نشيد، تمّ الشدوُّ به
احتفالاً بالمدينة ذاتها:

لقد شيد **صاحب الجلالة** مقراً حصيناً، اسمه «**مهية هي انتصاراته**». ويمتدُّ
في موقع وسط بين **فينيقيا والبلد المحبوب**، يغصُّ بالأطعمة والأغذية. إنه يشبه مدينة
هرمونثيس ^(٧٢) *Hermionthis* (*) وسوف يدوم دوام منف. والشمس ^(٧٣) تسطع في
أفقيه، كما أنها تستريح فيه. وجميع الناس تركوا مساكنهم وجاءوا للإقامة في أرضه.
إن غربه هو معبد **أمون**، وقسمه **الجنوبي** هو معبد **سوتخ** (**)، ومشترويت تتجلى في
شرقه، وواحييت في شماله ^(٧٤). إن قصر المدينة يشبه أفق السماء و**رمسيس** -
محبوب أمون يقيم فيه كإله. إن مونتي - في القطرين هو حاجبه وشمس ^(٧٥) /الأمراء
هو وزيره، وسعادة مصر - محبوب أتوم هو حاكم إقليمه، فالبلاد قاطبة تأتي إلى هذا
المكان ^(٧٥).

(*) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم **إوني**، أرمنت حالياً. (المترجم)

(**) أي ست أو ستش بالمصرية القديمة. (المترجم)

(***) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكور في اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

إن، فقد كان المقر عاصمة إمبراطورية، رُسِمت حدودها معابد أكبر إلهين في مصر وهما: **أمون وواحييت**، ومعابد أكبر إلهين في آسيا وهما: **سوتخ وحشتروت**، وقد اتحدت جميعها لحماية المدينة. هنا يتولى الحكم **رعمسيس المماثل للإله - الشمس** في قصره - الأفق. إنه السيد الأوحد؛ بالنظر إلى أن أبرز وظائف الدولة وأرفعها، كالحاجب والوزير وحاكم الإقليم، هي في الواقع أشكال ونعوت ملكية مؤلهة: **موتق - القطرين وشمس الأمراء وسعادة - مصر**. ويُبرز هذا النص الفكر الجديد للنظام الملكي، الاتحاد السياسي والروحي لأراضي الإمبراطورية حول شخص **رعمسيس**. إنه فكر مزهو، بالنسبة لملك شاب وطموح.

إن وصفاً عادياً وإن كان مفيداً بمعلوماته عن العاصمة الجديدة، يقدمه خطاب دونه الكاتب **پاباسا**، أثناء إحدى سفرياته إلى **پر - رعمسيس**، وأرسله إلى سيده الكاتب **أمن - إم - اوييت**:

لقد وصلت إلى بيت **رعمسيس محبوب أمون**، ووجدته في غاية الازدهار. إنه مكان جميل لا مثيل له، ومع ذلك فإنه يشبه **طيبة**، إن رع ذاته هو مؤسسه. والحياة في **المقر الملكي** ممتعة وحقوله تزخر بكل أنواع المنتجات الطيبة وعلى مدار الأيام. تتوفر له الأطعمة على أكمل وجه، إن قنواته مليئة بالأسماك، وبركه بالعصافير، ومروجه يكثر فيها الكلا الأخضر الذي يصل (ارتفاعه) إلى ذراع ونصف. وفي الحقول المزروعة اكتسبت ثمارها مذاق العسل. إن شؤنه التي يلامس ارتفاعها السماء مليئة بالشعير والعسل، ويتكدس فيها البصل والكراث. وفي البساتين تتكؤم الزهور، وإلى جانب ذلك، فإن الرمان والتفاح والزيتون في حدائق الفواكه. إن عذوبة نبيذ **كاو إم كمت** تتجاوز حلاوة العسل، والأسماك الحمراء تسبح في بحيرة المقر الملكي وسط نبات اللوتس.

(يلي ذلك حصر بمختلف أنواع الأسماك الموجودة)

إن بحيرة **حورس** مليئة بالملح وقناة **پهر بالنطرون**. والسفن تغادر المرسى وتعود إليه.

وتتوفر للمدينة يوميا كميات كبيرة من الأطعمة، ومن ثم فكل من يقيمون فيها يفرحون، حتى لم تعد لديهم رغبات يريدون الإفصاح عنها، وفيها يتساوى العظماء بقليلي الشأن.

تعال حتى نحتفل من أجلها بأعياد السماء وأعياد بداية الفصول. إن البرك توفر نبات البردى وبحيرة حورس الغاب، كما توجد بساتين الفواكه وأطواق زمور الحدائق... وطيور البرك وعصافيرها...

إن شباب المدينة «المهية هي انتصاراتها» يرتدون يوميا ملابس (العيد). ويراق على رعوسهم زيت الزيتون العذب، بعد أن تم تصفيف شعرهم مؤخراً. إنهم يقفون هنا بجوار بابهم، وقد أمسكوا بأيديهم الزمور مع نبات البردى الوارد من معبد حتحور وياقات القناة **بهر** (٧٦).

إن **پر - رمسيس**، مدينة مزدهرة، في موقع حاله التوفيق عند اختياره. فتحيط به من الغرب ومن الشمال «مياه - رع»، وهي أحد الفروع الشرقية **لدلتا** نهر النيل، ومن الجنوب والشرق قناة اسمها «مياه **أواريس**» (*). هكذا كانت المدينة محاطة بدفاعات طبيعية. وفي الجنوب، كان دخول الميناء من جهة البحر المتوسط سهلاً، بفضل فروع **النيل** وقنواته، فتستطيع السفن أن ترسو في يسر. أما ثكنات القوات العسكرية فكانت موزعة على الجهات الأصلية الأربع، تحسباً لخوض معارك دفاعية محتملة، أيأ كان المكان الذي يصدر منه التهديد. كان القصر الملكي قائماً في الشمال الغربي وإلى جانبه المباني الرسمية. وقام **رمسيس** الثاني بتوسيع القصر إلى حد كبير. أما حى الحرفيين فقد كان قائماً في الجنوب الغربي، ويمتد باقى المدينة جنوباً وشرقاً (٧٧).

(*) (التصحيح اليوناني للاسم المصرى القديم لمدينة **حوت** و**مرع**، ويعتقد أنها لا تبعد كثيراً عن قنطير حالياً. (الترجم)

إن تحديد موقع **پر** - **رعمسيس** على وجه الدقة قد أثار مناقشات لا تنتهي: **أمو تانيس**، **أم أواريس**، **أم پلوزيوم** **أم جوشن**، **أم القنطرة**؟ ولا شك أنه كان لا يبعد كثيراً عن **تانيس**، إذا لاحظنا الأعداد الكبيرة من تماثيل **رعمسيس** الثاني العملاقة التي عثر عليها في هذه المدينة.

كانت **پر** - **رعمسيس** عاصمة سياسية، بعيدة عن **طيبة** التي ستقوم من الآن بدور العاصمة الدينية، إن بعد السلطة الدنيوية بالنسبة لكهنة **أمون** الأقوياء كان بادرة موفقة من جانب **رعمسيس**، وإن كان قد سبق أن استهلها أسلافه، منذ **حور إم حب**.

وأخيراً، فإن مدينة **پر** - **رعمسيس** المتيقظة، كانت تؤمن حراسة الإمبراطورية والدفاع عن وادي **النيل**. ففي سياق خطاب مسهب يوجهه الإله **پتاح** إلى الملك، يتحدث قائلاً:

لقد شيدت مقرا ملكيا مهيباً لتحصين حدود **القطرين**، (لقد شيدت) بيت **رعمسيس** - **محبوب أمون**. عساه يزدهر على وجه الأرض على غرار دعائم السماء الأربع، **فجلاتك** قائم بثبات في قصره (٧٨).

زمن الأبطال - ملحمة قادش

عندما أصبح **رعمسيس** الثاني ملكاً، كان الموقف في **أسيا** يشكل من جديد تهديداً خطيراً. فلم يتوقف مواتالي عن إبرام تحالفات جديدة مع شعوب **أسيا الصغرى** و**شمال سوريا**، ليشكل في مواجهة **مصر** كتلة رهيبة خاضعة لهيمنتها السياسية. ومن ناحية أخرى، كانت **الخاتى** تتجه أكثر فأكثر جهة البحر، لتتاجر مع شعوب الساحل وجزر بحر **إيجيه**، بعد أن أكسبتها قوة الشعوب **الميقانية**، أهمية

اقتصادية جديدة، باتت تنافس سياسة الهيمنة المصرية في البحر المتوسط. إن الصدام بين مصر والخاتى، كان أمراً لا مفرّ منه. واستعدّ الملكان لهذه المواجهة.

دعّم رمسيس جيشه، وطوّر الفرقة الرابعة التى يشملها برعايته الإله ست - المندمج فى الإله الأسىوى سوتخ. والآن أصبحت كل فرقة تضم خمسة آلاف فرد. وجُنّدت قوات من مستوطنات النوبة، بالإضافة إلى المرتزقة من بين أسرى الحرب الذين جاؤا من أموري ومن بين الشراننة الذين هاجروا إلى ساحل فينيقيا.

ومن المحتمل، أن رمسيس قد خاض المعارك فى أكثر من جبهة، منذ العام الثانى من حكمه. إن نص لوح حجرى جاء من أسوان يشير بالفعل إلى الآتى:

هُزِمَ **الأسىويون** وسُلِبَت أراضيتهم ونُهبت، لأنه داس بقدميه أجانِب **الشمال**. وسقط **التمح** بسبب ما يثيره من رعب. وحُرِمَ **النوبيون** من نسَمات (الحياة) ^(٧٩).

أهو مجرد تأكيد شكلى على الهيمنة؟ أم إشارة إلى اشتباكات عسكرية فى أسيا، كمقدمات للصدام الخطير بين المصريين والحيثيين؟ وهذا الرأى الأخير، هو الأقرب إلى الصواب. ومن المرجّح أيضاً أن بعض المعارك قد دارت رحاها عند الحدود الليبية والنوبية، تدعيماً للهيمنة المصرية على هذه المناطق، الأمر الذى سيساعد رمسيس بعد ذلك، تطبيقاً لتكتيك صائب وفطن، على حشد كل قواه فى حربه ضد الخاتى.

وفى العام الرابع من حكمه، كان **الفرعون** لا يزال فى أسيا. ولم يصلنا سوى القليل من الشواهد على نشاطه هناك. ولكن عُثِرَ على لوح حجرى شديد التشوه، بجوار **نهر الكلب**، فيما بين **بيروت** و**بيلوس** ^(*)، ويشهد على مرور العاهل المصرى فى هذه الأماكن. كذلك عُثِرَ فى **تل النوير** - على قصعة تحمل مدونة بالهيراغليفية تشير

(*) **جيل** حالياً، شمال **بيروت**. (المترجم)

إلى العام الرابع. ويساعدنا علم **الباليوجرافيا** (*) paléographie على تحديد التاريخ، وهو الأسرة التاسعة عشرة وعصر **همسيس** الثاني، بلا شك. ويبدو إذن أن **الفرعون** المصري قد رتبَّ على أحسن وجه، للهجوم الكبير الذي كان يستعد لشنه في العام التالي، فاتجه صعوداً على امتداد الشاطئ، وصولاً على ما يظن، إلى **بييلوس**، وهو ما فعله من قبله كل من **تحوتمس** الثالث ووالده **سيتي** الأول، بهدف تجهيز القواعد البحرية.

في هذه الأثناء، كان **مواتالي** قد شرع يبرم تحالفاً واسعاً مع أمراء **آسيا** الصغرى وشمال **سوريا**. وقد عمل أحياناً على شراء هذه التكتلات. هكذا استطاع أن يجمع من حوله أكثر من عشرين شعباً، من بينهم، على وجه التحديد، شعب **پداسيا** وشعب **داردانيا** (**) وشعب **موسيا** (***) وشعب **لوكيا** (****) وشعب **أرزاوا** وشعب إقليم **كودا**، الواقع بين **لوكيا** و**جبال طوروس**، ومملكة **نهارينا** والمدن **الفينيقية**: **أوجاريت** و**مشند**، وقلاع وحصون أعالي **سوريا** **كركميش** على نهر **الفرات** و**حران**، في الجنوب الشرقي، و**حلب** و**قناش** على نهر **العاصي**.

ومرة أخرى، كان من المنتظر أن تتم المواجهة أمام هذه المدينة الأخيرة. ولكن سيجد **مواتالي** أن من ينازله أمير شاب يتحلى بخصال بطولية.

كان صاحب الجلالة آنذاك سيّداً في مستقبل العمر، وبطلاً لا مثيل له. كان قوى الساعدين، مقدام القلب وقدرته أشبه بقدرة مولتي في زمنه، وشكله كاملاً مثل شكل أتم، والجميع كانوا فرحين لرؤية جماله.

(*) علم الكتابات القديمة. (المترجم)

(**) الاسم القديم لإقليم **طورانيا** وعاصمته **طورادة**. (المترجم)

(***) في شمال غرب **آسيا الصغرى**. (المترجم)

(****) منطقة ساحلية في جنوب **آسيا الصغرى**. (المترجم)

عظيمة هي انتصاراته على كل البلدان الأجنبية. ولا نعرف متى يتأهب لخوض المعركة. إنه سور منيع بجوار جنوده، ودرعهم في يوم الواقعة. إنه قوأس لا مثيل له، أقوى من مئات الآلاف مجتمعين. وعندما يتقدم، فإن وجهه الإلهي يخترق أعداداً غفيرة لا حصر لها، لأن قلبه ممتلئ بقوته. إنه راسخ الصدر ساعة المعركة، وكأنه لهب لحظة إنكائه. شجاعته صلبة، مثل شجاعة ثور مستعد للمعركة. إنه يعرف سائر البلدان. فقد لا يستطيع ألف رجل أن يستمروا في مقاومته. ومئات الآلاف يتلاشون عندما يرونه. إنه رب الرهبة، إن صيحاته، صيحات الحرب، تنفذ إلى قلب الأراضي قاطبة، بالنظر إلى عظمة هيئته، وضخامة الذعر الذي يثيره، مثله مثل الإله سوتخ فوق الجبل^(٨٠)... ناجعة هي خطته، كاملة هي أوامره، وكلمته ينظر إليها دائماً على أنها الأفضل.

إنه يهب لنجدة سلاح مشاته يوم المعركة، ويحمي سلاح مركباته على أفضل وجه. إنه يعود برفاقه ويعين جنوده. إن قلبه أشبه بجبل من النحاس، إنه:

ملك مصر العليا ومصر السفلى: أوسر مامت رع - ستب إن رع،

ابن رع: رعسيس - محبوب أمون، له الحياة للزمن الأبدى واللانهاى مثل أبيه رع^(٨١).

هكذا تحدث الكاتب **پنتاور** في مطلع قصيدة طويلة مكرسة لتقرير المعركة، ويجول بخاطرنا أحياناً أننا نستمع إلى نبرات **هوميية**. ولكن **هوميروس** الذي عاش، طبقاً للروايات المتواترة، بعد مرور أربعة قرون، ربما كان على دراية بهذه النصوص المصرية. ومن حقنا، على كل حال، أن نفترض ذلك.

وبفضل عدد من الوثائق، نستطيع أن نستعرض مختلف الوقائع التي تتابعت على امتداد هذه المعركة، التي كانت على جانب كبير من الأهمية من حيث تأثيرها على مستقبل **مصر والشرق الأدنى**. فقد وصلنا، بادئ ذي بدء، نص التقرير الرسمي المدون على جدران عدد من المعابد، بالإضافة إلى النقوش التي تزيينها بالصور

التوضيحية^(٨٢). كما حفظ لنا الزمن هذه القصيدة الملحمية الكبيرة التي وضعها الكاتب **پنتاور** احتفالاً بكبرى مآثر العاهل الملكى، وقد صلتنا منها نُسخ مدونة على ورق البردى، كما دُوِّنَ هذا النص على جدران عدد من هذه المعابد^(٨٣).

وفى اليوم التاسع من الشهر الثانى من فصل الجفاف، من العام الخامس من عهده - أى قرب نهاية شهر **مايو** - وبعد الفراغ، فى هذه السنة، من حصاد الشعير والقمح والكتان، زحف **رعسيس**، بمرافقه سلاحى مشاته ومركباته وفيالقه ومرتزقته وسلاحى الخدمات الإدارية والتموينية - أى ما مجموعه أكثر من عشرين ألف فرد - زحف متجهاً صوب الشمال، «ببسالة وقوة ومجد»، مرّاً **بالقنطرة** التى تشكل الحدود، وتجاوزها ليسلك **دروپ حورس**، الطريق الملكى لكل الفاتحين.

جميع البلدان ترتعد عند اقترابه، والأمراء يقدمون له الجزية، والمتمردون يأتون منحنين بسبب الرعب الذى يثيره مجده، ويتقدم جيشه عبر ممرات ضيقة بلا عناء أو صعوبة، وكما لو كان يسير على طرق مصر.

وتتقدم الفرق الأربع ببطء، فى صف طويل وبالترتيب، فرقة **أمون**، تليها فرقة **رع**، وفرقة **پتاح**، ثم فرقة **ست** فى آخر المطاف. ولم يتخلل هذا التقدم أحداث تُذكر، إلى أن وصل عند أطراف مدينة **قادش**.

كان **الحيثيون** قد سبق لهم «أن اختبأوا إلى الشمال الغربى من مدينة **قادش**، متأهبين لخوض المعركة». كانوا يشكلون «جمعاً غفيراً لا مثيل له، فيغطُّون التلال والوديان، وبسبب أعدادهم الهائلة كانوا أشبه بالجراد».

كادت خدعة **مواتالى** تتسبب فى ضياع مصر. ففى **شابتونا**، على بعد عدة كيلومترات من **قادش**، جاء **بدويان** من **الشاسو**، وكانا موفدين سرّيين من قبل **مواتالى**، والتقىا **الفرعون** وزعما أنهما قرأ من صفوف العدو وأقنعاه بأن ملك **الخاتى** ما زال فى حلب. ولم يخامر **رعسيس** أدنى شك حقيقى، فأقام بالتالى معسكره، عند

شاطئ نهر العاصي الذي وصل إليه رأس جيش أمون. وكان جيش رع على مسافة سبعة كيلومترات تقريباً، ولم يكن قد اجتاز حتى الآن مخاضة النهر. أما جيشا پتاح وست، فقد كانا أبعد بكثير. وأخيراً، فإن كتيبة من صفوة العناصر كانت تنتظر «عند شاطئ بلاد الأمور». واستراح الملك جالساً على عرش من الذهب الخالص وبجواره أسد، «إنه الأسد الحي، رفيق صاحب الجلالة والذي ينتصر على أعدائه». لقد صور الرعامسة أنفسهم في الغالب في صحبة أسد. أهو أسد تم ترويضه؟ لا يهم، لأن الملك والأسد، من طبيعة واحدة.

وفجأة جىء بجنديين من الحيثيين، قام بعض أفراد قوة الاستطلاع بأسرهما، وضرباً ضرباً مبرحاً «لاستنطاقهما عن مكان وجود زعيم الخاتى الخسيس»، وهكذا افتضح أمر الخديعة. وعلى جناح السرعة عقد رمسيس مجلس حرب مع ضباطه، وصدر أمر إلى الوزير بالإسراع بتقدم جيش رع في اتجاه الشمال. ولكن هجوم الحيثيين المباغت سوف يستبق هذا التحرك. وأوقع الأعداء الهزيمة بجيش رع، وهاجموا فرقة أمون وتوغلوا داخل معسكر رمسيس، هل كانت إمبراطورية مصر على شفا الانهيار؟

عندئذ نهض صاحب الجلالة مثل أبيه موتو. وبعد أن أخذ حُلّة المعركة، ارتدى الزرد. إنه مثل بعل^(٨٤) في زمنه. إن المركبة الكبيرة التي تحمل صاحب الجلالة اسمها «النصر - في طيبة»، وتعود إلى الإسطبل العظيم الذي يخص أوسر ماعت رع - ستب إن رع، محبوب أمون. إنه يندفع مسرعاً ومتوغلاً وسط الأعداء القادمين من الخاتى. إنه بمفرده، فلا أحد معه. ويتقدم لينظر خلفه ويكتشف أن ٢٥٠٠ مركبة تحيط به، ويسدّون الطريق إلى الخارج، إنها مركبات على متنها محاربو هذا العدو الخسيس، القادمون من خاتى ومحاربو عدد من المناطق الأخرى الذين في صحبته. لقد جاءوا من أرزاوا وحلب وأوجاريت وقادش ولوكيا. كانوا ثلاثة رجال معاً على متن المركبة الواحدة.

ورفع رمسيس صلاة متشامخة محرقة للمشاعر، طالباً مساعدة الإله أمون
الذى سيقوده إلى قمة النصر:

ما من قائد واحد معى، ما من قائد مركبة واحدة، ما من قائد مشاة واحد، ما
من حامل درع واحد. إن سلاح مركباتى، هو فى مواجهتهم أشبه بالغنيمة، فما من
جندى واحد صامد لخوض المعركة.

كما قال صاحب الجلالة: ماذا حدث إذن، أيا أبى أمون؟ فهل يمكن لأب أن
ينسى ابنه؟ وهل ما أفعله أمر تجهله؟ ألم أسير أو أتوقف إلا بأمرك، دون أن أخالف
الهدف الذى حددته لى؟ كم هو عظيم رب مصر، أعظم من أن يسمح لأجانب بالظهور
عند أطراف طريقه. من هم فى نظرك هؤلاء الآسيويون، يا أمون؟ إنهم كائنات
خسيسة، لا يعرفون الإله^(*).

ألم أشيد من أجلك العديد من المعالم العظيمة وملأت معبدك بالأسرى؟ من
أجلك شيدت معبدى لملايين السنين^(٨٥)، كما منحتك كل ثرواى ملكاً لك. إليك أقود كل
الأراضى مجتمعة لإمداد قرابينك الإلهية، وأتصرف بحيث يأتون إليك بعشرات آلاف
الأبقار، وفى الوقت ذاته يعطر الزهور بأريجها الطيب... من أجلك بنيت صروحاً
شامخة من الحجر، كما أقمت شخصيا سواريتها. وإليك أحضرت المسلات من
إلفنتين^(**) وأنا الذى رافقت الحجر. فمن أجلك تجوب السفن على صفحة الشديدة
الاخضرار لتجلب إليك جزية البلدان الأجنبية...

إنى أناديك، يا أبى أمون، إنى وسط جمع غفير من أعداء لا أعرفهم. لقد
اتحدت ضدى البلدان الأجنبية جمعاء. أنا وحدى ولا أحد معى على الإطلاق سوى...
لقد هجرنى سلاح مشاتى، وما من جندى واحد من جنود سلاح مركباتى قد نظر إلى...
إنى أصبح إليهم، ولكن ما من أحد منهم يسمعنى، عندما أناديهم.

(*) (إنهم الكفار، بلغة عصرنا). (المترجم)

(**) عرفها المصريون القدماء تحت اسم أبو. (المترجم)

ولكن **أمون** في نظري، أفضل من ملايين الجنود، ومن مئات آلاف المركبات، ومن عشرة آلاف رجل وإخوة وأولاد مجتمعين في قلب واحد. إن جهد الرجال لا ينفع في شيء، إن **أمون** أكثر فائدة منهم... إنني أرفع هذا الدعاء، أنا عند حدود البلدان الأجنبية، ولكن منذ الآن يندفع صوتي صوب مدينة **هرمونتيس**.

وألاحظ أن **أمون** يلبي ندائى ويمدُّ يده إلى وأنا سعيد. ويصيح من خلفي: «أنا، وجهاً لوجه معك، يا **رمسيس** - محبوب - **أمون**! أنا معك، فأنا أبوك ويدي مع يدك. أنا أفضل من مئات آلاف الرجال، أنا سيد الانتصار، الذي يحب البسالة».

عندئذ، اكتشفت أننى قوى القلب، منشراح الصدر (*) وكل ما أقدم عليه يتحقق. أنا مثل **موتى**، فأطلق السهام بيدي اليمنى وأمسك بقبضة يدي الأخرى. أنا أمامهم مثل **سوتخ**. واكتشفت فجأة أن المركبات الألفين وخمسمئة التى كنت وسطها قد طُرحت أرضاً ممددة أمام جوائى. فما من أحد من بينهم تلقى عوناً لمحاربتى، وفي أبدانهم وهنت قلوبهم بسبب الرعب الذى أثيره، وسواعدهم خارت قواها حتى أصبحوا لا يعرفون الرمي بالقوس، ولا يجدون ما يكفيهم من قوة للإمساك بحرابهم. وبسببى يغوصون فى الماء كما تغوص التماسيح، فيتساقطون على وجوههم، الواحد على الآخر، وأقتل منهم، كيفما أشاء. فما من أحد ينظر خلفه، وما من أحد آخر يلتفت وراءه، وما من أحد ممن سقطوا سينهض من جديد.

إن ملك **خاتى** الذى كان يقف وسط سلاحى مشاته ومركباته كان يشاهد المعركة التى يخوضها **صاحب الجلالة** بمفرده بدون سلاح مشاة أو سلاح مركبات، كان يقف هناك ويتلفت مذعوراً. عندئذ استدعى عدداً كبيراً من الأمراء الآخرين، كل واحد منهم على رأس سلاح مركباته. مجهزين بأسلحة المعركة. (فوصل) **أمير أروا** و**أمير موسيا** و**أمير حران** و**أمير لوكيا** و**أمير داردانيا** و**أمير كركميش** و**أمير حلب** وإخوة ملك **خاتى**، وشكلوا كياناً واحداً. والمجموع ٢٥٠٠ مركبة، اندفعت مباشرة ضد النار (٨٦).

(*) هكذا حرفياً فى الأصل. (المترجم)

(فعاودت) الهجوم عليهم. فأنا مثل موتى وتصرفت بحيث يعانون من قوة يدي، أثناء قيامي بمهمتي. فى لحظة. إنى أثنهم نبأ وأقتلهم فى أماكن وجودهم.

يتحدث كل منهم إلى رفيقه قائلاً: إن الذى بيننا ليس إنساناً، إنه سوتخ العظيم البسالة، إنه يعل ذاته. إن ما يُقدم عليه من عمل ليس من فعل بشر، بل عمل كائن متفرد، فى مقدوره إنزال الهزيمة بمئات الآلاف دون مساعدة سلاح مشاة أو سلاح مركبات. هياً، فلنسرع، وَلَنَلْذْ بالفرار من أمامه، حتى نبحت لأنفسنا عن الحياة ونستنشق نسمات الهواء (من جديد). انظروا، فكل من يتقدم ليقرب منه تصبح يده واهنة وتُشل حركة جسده بالكامل. فلا يستطيع المرء أن يمسك قوساً أو حربةً، عندما يشاهده قادماً مسرعاً على الطريق.

وبحلول المساء، وبينما كانت أرض قاذش مغطاة بالأعداء القتلى، عاد الجيش الذى كان قد لاذ بالفرار، فويخهم رعمسيس وقرعهم، على ما فعلوه.

وبعد تناول الفرعون قسطاً من الراحة ليلاً، ومع بزوغ فجر اليوم الثانى من أيام المعركة، بدأ يعد جنوده للقتال.

كنت متأهباً للمعركة، أشبه بثور نفد صبره. عندئذ نهضت ضدهم مثل موتى وكنت قد دبرت، فى هذه المرة، كل ما يلزمنى من جنود ورجال بوسائل. ونفذت إلى داخل المعركة، وقاتلت كصقر ينقض على فريسته. وصل جبينى كان يُجهز من أجلى، على الأعداء... كنت مثل رع عند الفجر وأشعنى كانت تحرق أجساد العصاة. وكل واحد منهم كان ينادى على رفاقه قائلاً: «احترسوا! احموا أنفسكم! لا تقتربوا منه! انظروا، إن سخمت^(٨٧) العظيمة هى التى توازره، إنها بجواره فوق جواده ويدها مع يده». وكل من كان يمشى ليقرب منه كان وهج اللهب يحرق جسده.

هذه القصيدة، هي أول نص غنائى كبير فى الأدب الفرعونى، إن غنائيته ذات «نبرة مصرية»، تتداخل فيها الصور الحسية وأبعاد الكلمة السحرية، ورواية الوقائع بالأساطير. إنه نصٌ لا يُفرِّق بين عالم الواقع والعالم الأسطورى، فيختلطان اختلاطاً لصيقاً، كما لا يفرق بين البطولة على أرض الواقع والإشادة بها إشادة حماسية فى أسلوب بلاغى جَزَل. لقد تركت ملحمة **قادش** والشجاعة الشخصية التى تحلّى بها **رعمسيس** الثانى أثراً عميقاً فى الوعى المصرى؛ فمن الآن سوف تُصاغ روايات الحرب فى الغالب باعتبارها **قصائد ملحمة**، تتحد من خلالها الآلهة وقوى الكون فى شخص الملك لإعطائه أقصى فاعلية.

إنه زمن الأبطال، فإذا سرنا فى اتجاه الشمال نجد أنه الزمن الذى شهد أسطول **الأخيين**(*)، يحمل على متنه طموحات أحفاد الملك الأسطورى **أثريوس**، عندما أقلعت سفنه مبحرة فى اتجاه **طروادة** بقيادة **أجاممنون** وأمراء **ميقينية** و**إسبرطة** و**بيلوس**(**).

إن مدينتى **قادش** و**طروادة** مكانان سالت فيهما الدماء وسجلتا أمجاداً ملحمة فى الروايات الأسطورية للبشرية. كان **رعمسيس** و**أخيليوس**(***) و**أوليسيس**(***) أبطالاً معاصرين، ما زالت مآثرهم الحربية تداعب ذاكرة البشر عندما يلتقى التاريخ بالأسطورة.

وترك ملك **خاتى** أرض المعركة، وأرسل موقداً حاملاً خطاباً إلى **رعمسيس**. ويتحدث الشاعر المصرى على لسانه قائلاً:

**أيها العامل الملكى، يا حامى جيشه المقدام بفضل ساعده القوى، أنت سور
لجنودك يوم المعركة، يا ملك مصر العليا ومصر السفلى، يا أمير الفرح ورب القطرين**

(*) أقدم الشعوب الإغريقية. (المترجم)

(**) مدن يونانية قديمة. (المترجم)

(***) من أبطال الأساطير الإغريقية. (المترجم)

أوسر مامت رع - ستب إن رع،

ابن رع، الأسد سيد القدرة

رمسيس - محبوب - أمون،

له الحياة إلى أبد الآباد.

إن خادمك يتحدث، ليعلم مجامرة أنك ابن رع ومن صلبه، وأنه وهبك البلدان قاطبة متحدة في بلد واحد. إن أرض مصر وأرض خاتى هما خدامك. إنهما تحت قدميك. إن رع والدك المعظم قد وهبهما لك. لا تكن عنيفاً معنا. انظر، إن مجدك لعظيم، وأرض خاتى (ترزح) تحت ثقل قدرتك... لا تجعل كلامك بالغ القسوة، أيها الملك المنتصر، فالسلام أنفع من الحرب، أعطنا نسمة الحياة^(٨٨).

كان النصر الذي حققته مصر نصراً ميبئاً، ولكنه أقل بكثير من الصورة التي نقلتها الصياغة الشعرية للوقائع، فلم تتم محاصرة قادش، والذي حدث فقط أن كل من الغريمين المتحاربين عاد إلى بلده. فمن جانبه استقبل رمسيس في مصر من قبل شعب في قمة الفرح والابتهاج، وكان الملك المنتصر يتقدم صفوفاً طويلة من الأسرى المحملين بغنائم لا حصر لها. وأخرجت تماثيل الآلهة عند مرور موكب الملك وسط تهليل الجماهير المحتشدة. وما إن يصل الفرعون إلى پر - رمسيس حتى يأمر بإقامة احتفال مهيب لتقديم الأضاحي إلى ثالوث طيبة: أمون - موت خونسو وإلى رع - حور أختي، وهي آلهة النصر واستعادة السلام.

الصراع المصرى الحيثى

كان هذا السلام سلاماً زائفاً، لم يدم طويلاً، فالنصر الذى تحقق فى **قائش** لم يكن سوى وقفة قصيرة، فى سياق التنافس السياسى والاقتصادى الذى وضع **مصر** والخاتى وجهاً لوجه.

وسيظل **رهمسيس الثانى** يحارب فى **أسيا**، من العام السادس حتى العام الثامن عشر من عهده.

فبعد أن هُزم **مواتالى** فى **قائش** عاد إلى الهجوم، بأن دبر مؤامرات جديدة. وعملاً بنهج سبق استخدامه، فقد أثار تمرداً فى أرض **كنعان** عند حدود **مصر** الشمالية الشرقية، وفى العام السادس انصرف البدو **شاسو** إلى الكثير من أعمال السلب والنهب فى المنطقة، بينما رفضت مملكتان جديدتان الاعتراف بالسيادة المصرية: **مؤاب** فيما وراء **البحر الميت**، و**أنوم** إلى الجنوب منه.

وفى حوزتنا بعض الشواهد على هذه الحملات العسكرية، التى قام بها **رهمسيس الثانى** فى **أسيا**، ولكنها تفتقر أحياناً إلى الوضوح والتفاصيل، ولا تحمل تاريخاً فى جميع الأحوال. والمقصود تحديداً النقوش المنحوتة على الصرح الأول من **الرامسيوم**، وعلى القسم الجنوبى من الجدار الشرقى من بهو الأساطين الكبير فى معبد **أمون - رع بالكرك**، وعلى الجانب الخارجى من الجدار الشرقى من فناء **رهمسيس الثانى** فى معبد **الاقصر**^(٨٩). إنها فى الأساس مشاهد الهجوم على مواقع حصينة والاستيلاء عليها، وقد ذُيِّلَ بمتن توضيحى على النحو الآتى: «/المدينة (الفلانية)/ التى هزمها **صاحب الجلالة**». وصوِّرَ الآسيويون فوق أسوار المدينة وقد أمطروا بوابل من السهام، ويتوسلون إلى **الفرعون المنتصر** أن يعفو عنهم.

إن العام الثامن من عهده - أى عام ١٢٨٨ ق.م، على وجه التقريب - قد شهد نشاطاً عسكرياً محموداً.

وبالفعل وفى هذه الفترة، توفى **مواتالى**، كما أدت الخلافات التى دبت فى أوساط الأسرة الحاكمة إلى إضعاف قدرات **الخاتى**. لقد احتدمت هذه النزاعات بين

أورهميتسوب، ابن الملك المتوفى وأخيه خاتوسالى. وبطبيعة الحال استغل **رعمسيس** هذه المشاكل المؤقتة التى ألت بمناخسه القوى، فبينما كان يؤيد مطالب **أورهميتسوب** زحف بجيوشه فى اتجاه الشمال.

فاحتلَّ ثمانىَ مدن على وجه اليقين، وربما خمس عشرة، إلا إذا كان قد شن جملة سابقة فيما بين العامين الخامس والثامن، وهو ما قد يشير إليه لوح حجرى عُثر عليه شمال نهر **الكلب**، وإن كان هو أيضاً شديد التشوه. فمن بين المدن التى تم الاستيلاء عليها، نذكر **سسقلان** - شمال غزة مباشرة وبعض مدن **الجليل** و**لبنان** مثل **ساتونا**. وإذا واصل تقدمه ناحية الشمال، استولى **رعمسيس** على قلعة **داپور** الحصينة فى بلاد **أمورو**. وتصور النقوش أن خمسة من الأبناء الملكيين كانوا فى رفقة أبيهم، فيتسلقون السلالم ببسالة ليصلوا إلى شرفات سور القلعة. ومن الملاحظ أن **رعمسيس** قد جعل من الحرب قضية عائلية.

وخلال هذه الحملة، على ما يعتقد، وبينما كان عائداً إلى **مصر**، قاتل فى مملكتى **مؤاب** و**أنوم**، واستولى تحديداً على مدينة **ديبون** فى **مؤاب**، إلى الشرق من **البحر الميت**. أو ربما دارت هذه الاشتباكات فى **شرق الأردن** الحالى، فى غمار حملة عسكرية أخرى، ومن الصعب أن نصل إلى رأى قاطع.

ففى عام ١٢٨٨ ق.م تقريباً، كانت سيطرة **رعمسيس** تمتد آنذاك على نطاق واسع فى **الشرق الأدنى الآسيوى**، وتحديداً حتى نهر **العاصى**، أو إلى الجنوب منه قليلاً، بحيث تشكل **دمشق** الحدود الفاصلة بين منطقتى نفوذ كل من **مصر** و**الخاني**.

وفى ذلك الزمان استفحل الوضع الخارجى وازداد خطورة، ومرة أخرى تقوض التوازن الدولى. وبالفعل، بينما كان الجيش المصرى ينقض على موقع **داپور** الحصين ويستولى عليه، فإذا بملك **أشور**، **هداد - نيرارى**، يستغل هو أيضاً المشاكل الداخلية التى كانت تعانى منها **الخاني**، ورغبةً منه بالتالى فى تعزيز وضعه بصفته ثالث القوى العظمى فى العالم الشرقى، إذا به يتوغل إلى داخل **الميتانى**، وهكذا وصلت مملكة **نينوى** إلى نهر **الفرات**.

ولكن **خاتوسالى** الثالث الذى كان قد استطاع أخيراً أن يخلف **مواتالى**،

تحالف مع مملكة بابل، ليضع حداً، ولو بصفة مؤقتة، للتطوعات الآشورية، فطرد قوات هداد - نيرارى من الميتانى.

وفى العام العاشر من حكمه، من المحتمل أن رمسيس قد تدخل عسكرياً فى فينيقيا، وهو ما يؤكد، على ما يبدو، لوح حجرى ثالث عُثر عليه إلى الجنوب عند نهر الكلب. وفى غمار ذلك ربما ضرب رمسيس الحصار على مدينة تونيب الكبيرة الواقعة إلى الشمال من قادش، ورأى ملك خيتا من المفيد أن يرسل إليها بعض المساعدات العسكرية للقضاء على الطموحات المصرية.

وصرف رمسيس انتباهه لبعض الوقت عن أسيا، ففيما بين العام ١٥ والعام ١٨ وقع تمرد جديد بمنطقة إريم فى السودان. كان سيتى الأول قد سحق التمرد الأول، فى العام الثامن من عهده، ثم قام الأمير رمسيس، عندما كان مشاركاً فى الحكم، بشن حملة عسكرية ثانية، خرج منها منتصراً.

عندئذ عقد الملك العزم على التدخل بجيشه لمساندة نائب الملك، الذى كان يجد بعض الصعوبات فى جباية الجزية. واصطحبه أربعة من الأبناء الملكيين، نذكر منهم ست - إم - سوا^(*)، وهو ابنه الثامن، ومر إن پتاح، وهو ابنه الثالث عشر، والذى سيخلفه على عرش مصر، وكان كلاهما فى سن العشرين. وعادوا بسبعة آلاف أسير. وفى المدينة الإقليمية الجديدة المسماة «مدينة - رمسيس»، فى غرب مدينة عمارة، نُقشت على جدران المعبد مشاهد احتفالية بمناسبة النصر، كما نُقشت أيضاً على جدران بوابة المدينة الرئيسية، لتعلن على هذا النحو جهاراً نهاراً، عن قوة الفرعون، موضوعاً للتأمل يتعظ به كل من يفكر فى التمرد، كما نُقشت بعض مشاهد هذه الحملة النوبية بمعبد رمسيس الثانى فى إيبينوس.

وفى العام ١٨، ظهر رمسيس الثانى من جديد فى أسيا، ويشهد على ذلك لوح حجرى عُثر عليه فى بيت شان. والنص المدون عليه لا يذكر أحداثاً محددة، ولكنه يؤكد على الإيديولوجية الجديدة بحماستها الغنائية التى تُجَدُّ النصر، وهى السمة

(*) ومعناه «ست - فى قارب(ل)». راجع:

(الترجم) Ch. Loblanc. Nefertari. Ed. du Rocher, 1999, p.286

المميزة لعصر **الرعامسة**، فتداخل فيها تداخلاً رائع الصور الحسية والأساطير، في صياغة شعرية تُرضى القلب والعقل، ومحركة للمشاعر في بعض الأحوال.

عندما يمسك قوسه على متن مركبته ويقبض على سهمه، فإنه أشبه بنجم وسط جمع غفير، إنه رجل قوى يخترق الأعداء الذين تهاوؤوا عند الأقاليم المحصنة في أطراف الأرض، بعد الإجهاز على زعمائهم وجيوشهم. وكان **صاحب الجلالة** من خلفهم مثل ثور من ذهب، وصقر في كبد السماء بالنسبة للعصافير الصغيرة، وأسد ضارٍ في حظيرة الأغنام، وشعلة تؤججها نباتات خطيرة، بينما عاصفة هوجاء تُسعر النار. إنهم أشبه بريش العصافير في مهب الريح. أبداً، لم يحقق أحد، ما حققه في مواجهة البلدان الأجنبية^(٩٠).

وبعد أن تربح **سلمانازار** الأول على عرش **أشور** بوقت قصير، اجتاح من جديد **الميتاني**، وأقام حدوده بصفة نهائية عند نهر **الفرات**.

وأمام هذا الخطر الجديد، وبعد أن ضاق كل من **مصر** و**الخاني**، ذرعاً من حروب استمرت ثلاث عشرة سنة، سعيًا إلى التحالف لتأمين السلام.

واستطاع **رمسيس الثاني** أن ينقذ الإمبراطورية، بفضل زكائه وشجاعته الشخصية. وأمر بأن يُنحت في الكرنك جانب من أول مقاطع **النشيد الإمبراطوري** للفرعون **تحوتمس الثالث**، ولكن دون أن يذكر أسماء أي بلد أو دولة، خلافاً لما كان قد فعله سلفه من ملوك **التحامسة**، وكان يقصد إيجاد صيغة لدولة اتحادية. ومن الآن، وبعد أن جرى تجميع البلدان الأجنبية وتداخلها، ولكن بلا تمييز بينها، أصبحت تشكل كلاً واحداً يدين بالولاء للفرعون **رمسيس** - **الإله** بمختلف أشكاله. ومرة أخرى يتحدث **أمون** - **رع** إلى ابنه، من خلال خطاب أكثر إيجازاً:

إنى أتصرف، بحيث يَروُن **جلالتك** مثل رب الضياء، بينما تتألق في وجوههم بصفتك صورتي

إنى أتصرف، بحيث يرون جلالتك، وقد ارتدبت حُكَّتكَ الحربية، بينما نمسك
بأسلحة القتال على متن مركبتك

إنى أتصرف، بحيث يرون جلالتك، مثل ثور، شبابه أبدي، ثابت القلب، حاد
القرنين، يصعب الهجوم عليه

إنى أتصرف، بحيث يرون جلالتك مثل تمساح، رب الرعب على الشاطئ
يصعب الاقتراب منه

إنى أتصرف، بحيث يرون جلالتك مثل وهمج شعلة، كشكل من أشكال سخمت
المرعبة^(٩١)

النشيد أقصر من نشيد سيتي الأول^(٩٢). ووفقاً للميثولوجيا الملكية لعصر
الرماسة^(٩٣) فإن الملك المحارب المرهوب الجانب يندمج فى الأجرام السماوية
والاشكال الحيوانية فى الكون. وعن نشيد تحوتمس الثالث، نُقلت المقاطع التى تتفق
والأيديولوجيا الجديدة.

معاهدة سلام وتحالفات قائمة على رابطة الزواج

الوفاق الودى

يبدو أن خوتاسا لى الثالث، المهدد أكثر من غيره بالطموحات الآشورية قد بادر
إلى الأخذ بسياسة التقارب مع مصر. ولا شك أن أسس المعاهدة قد وضعت فى
خاتوساس^(*). ويعتقد أن مشروع معاهدة، قد دُون بالاكديّة على لوحة صغيرة من
الفضة، ختمها الملك شخصياً وأرسلت إلى پر - رعسيس عن طريق موفد حيش^(**).

(*) عاصمة الخاتى، ويوفان كوى حالياً. (المترجم)

(**) الميثيون هم سكان بلاد الأناضول فى العصور القديمة، وسكان دولة خاتى، نسبة إلى
العاصمة خاتوساس. (المترجم)

وبعد أن أدخل عليه **رعمسيس الثاني** بعض التعديلات الطفيفة، أعاد إلى **خاتوساس** نصاً آخر للمعاهدة.

وضعت النسخة الحيثية، في **هليوبوليس**، عند قدمي تمثال الإله الشمسي، كما نحتت ترجمتها المصرية على جدران عدد من المعابد في **مصر** ذاتها: كالواجهة الجنوبية من الجناح الشرقي للصرح التاسع في **الكرنك**، وعلى مرسى جزيرة **إلفنتين**(*)، وفي النوبة أيضاً، وفي **السودان** في الفناء الخارجي أمام معبد **غرب عمارة**، وفي الجانب الجنوبي من واجهة المعبد الكبير في **أبوسمبل**، وفي **عكاشة** الواقعة على بُعد ٢٥ كم شمال **وادي حلفا**.

أما النسخة المتضمنة قسَم **رعمسيس الثاني** فقد وضعت عند قدمي تمثال **تاشوب إله الحيثيين**، وأعيد نسخها على ألواح صغيرة من الصلصال لتوضع في المحفوظات الرسمية لدولة **خاتى**، ليعثر عليها في مطلع القرن العشرين، إبان الحفائر التى قام بها عام ١٩٠٦، الدكتور **هوجو وينكلر** Hugo Winckler، في **بوغاز - كوى**، بتركيا.

وتاريخ المعاهدة محدد بكل دقة «فى اليوم الحادى والعشرين من الشهر الأول من فصل الإنبات، من العام الحادى والعشرين من حكمه» - أى فى النصف الأول من شهر ديسمبر، «فى زمن جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: **أوسر ماعت رع - ستب إن رع، ابن رع: رعمسيس - محبوب - آمون**».

إنها أول معاهدة فى تاريخ العالم يصل إلينا نصها(**).

وتعترف المقدمة بشكل رسمى بمسئولية **مواتالى** فى فسخ المعاهدة التى سبق أن وقعها كل من **أمحتوب الرابع** و**سوپيلوليوما**، وربما تم إحيائها من جانب **سيتى**

(*) أو جزيرة **أسوان**، كان اسمها **أبي بالمصرية القديمة**، ومعناها **الفيل**، (المترجم)

(**) الترجمة العربية الكاملة لنص المعاهدة واردة فى:

كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دينوية من مصر القديمة، المجلد الأول، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٦، ص ص: ١٠١-١٠٦. (المترجم)

الأول وموآتالى ذاته. ولما كانت المعاهدات تُبرم حتى هذا اليوم بين الملوك، ومن الضروري إذن تجديدها إذا لزم الأمر من قبل من يخلفونهم، فلأول مرة يُلزم هذا النص أخلاف الملكين:

فى البدء ومنذ الزمن الأبدى، قامت علاقات بين زعيم مصر العظيم وزعيم خاتى العظيم، ولم يسمح الإله أن يتدخل الأعداء للتفريق بينهما، (كل ذلك) بمقتضى معاهدة. ولكن فى زمن أخى موآتالى كان هذا الأخير يحارب زعيم مصر العظيم.

والآن، واعتباراً من هذا اليوم، لاحظ أن خاتوسالى، زعيم خاتى العظيم، قد حرر معاهدة ليسمح بإقرار العلاقات التى خلقها رع وخلقها سوتخ، (العلاقات) بين أرض مصر وأرض خاتى، وللحيلولة دون تدخل الأعداء للتفريق بينهما، (وذلك) لأبد الأبد.

أجل، فإن خاتوسالى زعيم خاتى العظيم، هو الذى أقرها مع أوسرمامت رع - ستق إن رع، زعيم مصر العظيم، ليسود بينهما اعتباراً من هذا اليوم وإلى الأبد، السلام والأخوة الصادقة. سوف يكون أخاً لى، ويعيش معى فى سلام، وسوف أكون أخاً له، وأعيش معه فى سلام، إلى الأبد...

وأولاد أولاد زعيم خاتى العظيم، سوف يتأخون ويعيشون فى سلام مع أولاد أولاد رمسيس - محبوب - آمون، زعيم مصر العظيم. هذا جزء من علاقات الأخوة وعلاقات السلام التى بيننا. فليكن شعب مصر فى سلام ويتأخى مع بلاد خاتى بأكملها وإلى الأبد^(٩٤).

تتضمن هذه المعاهدة، تحديداً، مواد تنص على عدم الاعتداء واحترام أراضى كل جانب، وحلفاً دفاعياً متبادلاً يكفل مكافحة المتمردين كفاحاً مشتركاً، والوعد بتسليم اللاجئين السياسيين، وضمان العفو عن هؤلاء. وقد وضعت المعاهدة تحت رعاية آلهة البلدين، وحمايتها المقدسة:

أما عن كلمات هذا الاتفاق الذى أبرمه زعيم **خاتى العظيم** مع **رعمسيس** - محبوب - **أمون**، زعيم **مصر العظيم**، فقد نُوتت على هذه اللوحة الصغيرة المصنوعة من الفضة.

وعلى هذه الكلمات، فإن ألف كيان إلهى من بين آلهة وآلهات أرض **خاتى**، وألف كيان إلهى من بين آلهة وآلهات أرض **مصر**، تقف معى شاهدة على هذه الكلمات **الشمس رب(*) السماء... ومملكة السماء والآلهة سادة القسَم والآلهات سيدات الأرض... وإيشمارا** سيدة الجبال وأنهر أرض **خاتى** وآلهة بلاد **كينزواتنا وأمون** و**رع** و**سوتخ** وآلهة وآلهات جبال (!) وأنهر أرض **مصر**، والسماء والأرض والبحر العظيم والرياح والسُحب.

إن الكلمات المدونة على هذه اللوحة الصغيرة المصنوعة من الفضة إنما هى من أجل أرض **خاتى** وأرض **مصر**.

وكل من لا يتقيد بها فإن ألف إله من آلهة أرض **خاتى**، وألف إله من آلهة أرض **مصر**، سوف تقضى على بيته وبلده ورعاياه.

أما من يلتزم بهذه الكلمات المدونة على هذا اللوح الصغير المصنوع من الفضة، سواء أكان من بلاد **خاتى** أم كان من أبناء شعب **مصر**، ولن يتجاهلها، فإن ألفاً من آلهة **خاتى** إلى جانب ألف من آلهة **مصر**، سوف تعمل حتى يكون مزدهراً وحتى يحيا مع أهل بيته وأولاده ورعاياه.

ومن بين الرسائل التى عُثر عليها فى **بوفاز - كوى**، والتى تبادلها **رعمسيس** الثانى و**خاتوسالى** الثالث، تؤكد رسالتان على هذا التعهد المتبادل بين الملكين، وعلى الضمانة المقدسة التى تكلفها الآلهة.

لقد كتب **رعمسيس** قائلاً:

(*) لما كان لفظ شمس، مذكر فى اللغة المصرية القديمة، أبقينا لفظ رب فى المذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

أجل، إن الوثيقة الخاصة بالقَسَم الذى أُدِيَتْهُ للملك العظيم، أخى ملك خاتى، قد وُضعت عند أقدام... وأمام الآلهة العظيمة التى هى أيضاً شاهدة على كلمات هذا القَسَم.

أجل، إن الوثيقة المتضمنة القَسَم الذى نطق به الملك العظيم ملك خاتى، بشأنى، قد وُضعت عند قدمى الإله الشمسى فى هليوبوليس وأمام كبار الآلهة، كى تصبح شاهدة على كلمات هذا القَسَم.

ورد عليه خاتوسالى قائلاً:

لقد أصغيت بانتباه إلى هذا القَسَم. أجل فإن لوحة القسم التى صنعتها من أجلك^(٩٥) موضوعة أمام الإله الشمسى فى أرينا^(٩٥) وأمام كبرى آلهة بلاد خاتى، فسوف تصبح شاهدة على كلمات هذا القَسَم الذى حلفتُ به من أجلك. أجل، فإن لوحة القسم التى صنعتها من أجلى موضوعة أمام الإله الشمسى، فى هليوبوليس وأمام أكبر آلهة بلاد مصر، وسوف تصبح شاهدة على هذا القَسَم الذى نطقت به من أجلى...

أجل، فإن أكبر آلهة بلدنا قد أصبحت شاهدة على القَسَم الذى تبادلناه. وعلى مرَّ الزمن لن أنساه أبداً، وأعيره أكبر قدر من الاهتمام وأحافظ عليه على أحسن وجه^(٩٦).

ومن جديد عرف الشرق الأدنى السلام واستعادت مصر الهدوء والازدهار.

(*) المقصود لوحة صغيرة من الفضة ملحقة بنص المعاهدة ومزخرفة على الوجهين بزخارف تصور سوتخ والإلهة - الأم عند الخاتى ويحتضن كل منهما على التوالى الملك والملكة. (المؤلفة)

أجل لم تكن الحدود قد رسمت بشكل دقيق، ولكنها، كانت معروفة ضمناً. ومن الآن وعلى امتداد خمسين سنة، سيظل نهر **العاصي** يشكل الحدود المعترف بها من جانب الدولتين القويتين في ذلك الزمن، واللتين ستسعيان إلى تطوير ثرواتها في جوف من الهدوء والوثام. عندئذ ستعيش **مصر** و**الخاتي** وبلاد **بابل** أسعد عصورها، على امتداد تاريخها.

ونشأت صداقة بين الملكين، وإن كدّرتها أحياناً بعض الحساسيات.

لقد أرسل **رمسيس** خطاباً إلى **خاتوسالي**، يقوله فيه:

عساك أن تكون في صحة جيدة، أنت والمقيمون معك في مقرّك، وزوجتك وأبنائك وجيوشك وجيادك. وعسى أيضاً أنت تكون جميع بلادك مزدهرة.

لقد قرأت لتوى الكلمات التي أرسلها لي أخي قائلاً: «لماذا، تتحدث إليّ يا أخي وكأنني أحد رعاياك؟». فما تقوله لي على هذا النحو، وهذه الكلمة التي كتبتها لي قد ألتفتني. إنني أعيرك أكبر قدر من الاهتمام، بالإضافة إلى ما حققته من أشياء عظيمة في كل البلاد. أجل، فإن الملك العظيم في مناطق بلاد **خاتي** هو أنت. إن الإله - الشمس(*) وإله العواصف، قد سمحاً بأن تأخذ مكان جدك. ترى، لم إذن أكتب إليك ظناً مني أنك أحد رعايائي؟ عليك أن تتأكد أنني أنظر إليك باعتبارك أخاً لي^(٩٧).

أهي مبارزة عبر الخطابات؟ أم صداقة متشامخة؟ أيّاً كان الأمر، فلم تترتب عليها نتائج خطيرة.

إن المبادلات بين البلدين وهي كثيرة، كانت ذات طابع سلمى. فنجد أن **رمسيس** يرسل إلى **الخاتي**، مهندساً معمارياً مصرياً يدعى **پريماخو**، ليشيد قصراً

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس، مذكّر في اللغة المصرية. (المترجم)

لأحد الأمراء التابعين للملك **خاتوسالى**، ويطالب هذا الأخير بأن يُرسل له كمية من الحديد، فقد تزايد استخدام هذا المعدن لصناعة الأسلحة، بعد أن شاع استعماله فى **آسيا** إبان الغزوات **الهندوأوروبية**. كما شكل منه ملوك **الخاتى** مخزوناً احتياطياً، يحتفظون به عند حليفتهم مملكة **كينزواتنا**، حيث تتم معالجة المعدن الخام، كما أُقيمت فيها ورش ملكية للسلاح.

وأرسل **خاتوسالى** خطاباً إلى **رهمسيس**، يقول فيه:

أما عن الحديد، وهو الموضوع الذى تطرقت إليه فى خطابك، فأنا لا أمتلك حديداً ضمن مخزونى فى **كينزواتنا**. فالوقت غير موات لصناعته، ومع ذلك فقد أرسلت خطاباً لإعداد حديد نقى. ولم يُجهز حتى الآن، وبمجرد الانتهاء من إعداده سوف أرسله إليك، وليس فى وسعى أن أبعث إليك اليوم سوى خنجر من حديد^(٩٨).

حفلات زفاف الربيع

إن الصداقة التى غالبت الأيام تعززت فى وقت لاحق، بعد مرور اثنتى عشرة سنة، فى العام ٢٤ من سنوات حكم **رهمسيس** بإقامة رابطة أوثق، فتزوج **رهمسيس** ابنة ملك **الخاتى**، فكانت نهاية سعيدة لصراع طويل الأمد حول مناطق النفوذ.

إن التحضير الدبلوماسى الذى استغرق فترة طويلة، والمفاوضات والرحلة الرسمية والاحتفال المهيّب الذى صاحب إتمام هذا الزواج، تؤكد على أهمية الطابع الاستثنائى لهذا القران.

ومن بين المراسلات العديدة المتبادلة آنذاك، فإن الخطاب الذى أرسله **رهمسيس** الثانى إلى **پولوخيپا**، ملكة **الخاتى** ملئاً بالدلالات الموحية إلى أبعد حد، بهذه المساومات الطائفة بشأن هذا الزواج، وموحية أيضاً بالدور السياسى التى قامت به **پولوخيپا**، ابنة أحد كهنة الإلهة **مشتار** أو **عشتروت**. فشأنها شأن ملكات **الخاتى**

الأخريات، كانت صاحبة تأثير مؤكد على إدارة شئون الدولة، فقد سبق لها أن وضعت ختمها على نص المعاهدة، وأرسل إليها رمسيس خطاباً شديد الشبه بالخطاب الذي أرسله إلى خاتوسالى ذاته.

هكذا يتحدث أوسر ماعت رع - ستب إن رع الملك العظيم، ملك مصر، ابن رع: رمسيس - محبوب آمون، إلى بوهوخيا الملكة العظيمة، ملكة الخاتى أقول لها: أجل، ففيما يخصنى، فإن أحوال أخيك (*) طيبة، وكذلك مقام إقامتى وأبنائى وجيوشى وجيادى ومركباتى والوضع الداخلى فى بلادى على أكبر قدر من الازدهار.

أما فيما يخصك يا أختى، فعسى أن تكون أحوالك أيضاً طيبة، وكذلك مقام إقامتك وأبنائك وجيوشك وجيادك ومركباتك وكبراء الدولة، وعسى أن يكون الوضع الداخلى فى بلادك على أكبر قدر من الازدهار.

هكذا أتحدث إلى أختى: أجل، فإن رُسلى قد وصلوا إلى جوارى مع وصول رُسلك. فقدموا إلى، تقريراً عن ازدهار الملك العظيم، أخى ملك خاتى. كما قدموا إلى، تقريراً عن ازدهار أختى وأولادها وبلادكما. إن قلبى يبتهج إلى أبعد حد، عندما يسمع ما يقال عن ازدهار أخى وازدهار أختى وازدهار بلادكما. عساكما تكونان فى صحة طيبة ومسرورين سروراً عظيماً!

لقد رأيت اللوحة التى أبلغتنى أختى إياها، وسمعت كل شىء عن الشئون الخاصة بأختى ملكة خاتى التى كتبت إلى بأسلوب على أكبر قدر من الكياسة.

كما قلت أيضاً لأختى: «أجل، إن الملك العظيم ملك خاتى، قد كتب إلى (أيضاً) على النحو الآتى: مرُّ بأن يحضر بعض رجالك ومعهم زيت فاخر صافٍ، فيمكن سكه على رأس ابنتى، لاصطحابها بعد ذلك إلى مقر الملك العظيم، ملك مصر». هذا ما قاله أخى فى رسالته. أجل إن هذا القرار صائب جداً: إن الإله - الشمس وراءه

(*) أى رمسيس ذاته. (المؤلفة)

والله العواصف وآله مصر والخاتى مى التى سببته. هكذا فقد أُتخذ هذا القرار من قبل البلدين الكبيرين^(١٩).

صحيح أن الأسلوب لا يتميز دائماً بطلاوته، ولكن الدبلوماسية التى وجهت هذه المبادلات نجحت نجاحاً مؤكداً.

وقرب نهاية خريف عام ١٢٦٢ ق.م تقريباً، غادرت الأميرة الشابة **خاتوسا**، فى رفقة موكب مرموق من الجند وكبراء الدولة وسفراء البلدين. وقد سبقتها بائنتها^(*) المكونة من قوافل محملة بالحلّى النفيسة والكنوز والخيرات. واجتازت الأميرة الشابة ممرات جبال **مُوروس** وعبرت **كيزوواتنا** ووصلت إلى حلب. واستجابةً لتضرعات **رمسيس**، ومن أجلها أصبح الجو فى هذا الفصل من السنة معتدلاً، فلم يتعرض للأمطار والثلوج. كانت الأميرة العربون الحى لأهم معاهدة فى تاريخ الشرق الأدنى، وهكذا وصلت إلى **قاندش**، عند الحدود الفاصلة بين الدولتين. هنا، تركتها أمها **پونوخيا**، فى حين استقبلها الجيش المصرى وكبراء الدولة المصرية، وقد جاؤا جميعاً للترحيب بها. وانضم الجنود المصريون إلى زملائهم الحيثيين من الآن فى استعراض واحد. واجتازت الأميرة، أرض **كلعان**، يتبعها موكبها الطويل، ثم سارت بمحاذاة ساحل **سيناء**، حتى وصلت إلى **پر-رمسيس**، عاصمة البلاد، حيث ينتظرها خطيبها المهيّب. واستقبل **رمسيس** الأميرة القادمة من أقاصى المعمورة. ومن الآن سيصبح اسمها **مأأت** ^(**) **حور نفروورع**، أى «تلك التى ترى حورس وجمال رع»، تعبيراً واضحاً عن علاقة المودة والألفة التى تربط الملك بزوجته، وعمت البلاد الأفراح.

وسجلت بعض النصوص هذا الحدث العظيم، وأقيمت ألواح حجرية تذكارية، ومنها تحديداً لوح **الكرتك** القائم أمام الجناح الشرقى من الصرح التاسع، وآخر أمام

(*) البائنة ما تحمله العروس من بيت أبيها من مال أو جهاز عند زفافها. المنجد فى اللغة العربية

المعاصرة، دار المشرق، بيروت، طبعة ثانية، ٢٠٠١، ص ١٢٧. (المترجم)

(**) **مأأت** = **يزى**. وقد انتقلت هذه الكلمة إلى العامية المصرية، مع غيرها من الكلمات والعبارات

والتركيبات النحوية. (المترجم)

معبد **قُرب معارة**، فى فنائه الخارجى، ولوح **مكاشة** واللوح الحجرى أمام الواجهة الجنوبية من معبد **أبوسمبل الكبير**. كما دوت نسخة مختصرة من هذا النص فى معبد **الإلهة موت**، جنوب معبد **الكرك**.
والمدونة المكونة من ٤١ سطراً، تبدأ بعبارات المديح والثناء المسهبة المتعارف عليها، ثم تنتقل إلى التعليق على الرحلة:

(1.32) عندئذ **أذن ملك خاتى العظيم** برحيل ابنته **البكر**، تتقدمها كميات كبيرة من الجزية من ذهب وفضة وبيرونز بمقادير وفيرة، ومن خدم وجياد بأعداد تفوق الحصر، ومن أغنام وماعز وكباش لا تُعد ولا تُحصى - تلك هى الجزية المقدمة إلى **ملك مصر العليا ومصر السفلى أوسر ماعت رع - ستب إن رع، ابن رع، رع مسيس - محبوب أمون**، له الحياة.

وجاء من يقول **لصاحب الجلالة**، ليدخل البهجة على قلبه: «أجل، **إن ملك خاتى العظيم** قد **أذن** بأن تأتى ابنته **البكر**، ومعها كميات كبيرة من الجزية ومختلف أنواع المنتجات (التي تفوق الحصر) حتى أنها تغطى الطريق (تغطية تامة). **إن الأميرة وكبراء دولة خاتى** ينقلونها معهم. لقد اجتازوا العديد من الجبال والممرات الرميية. لقد وصلوا الآن إلى حدود **صاحب الجلالة**. فليسمح **إن** للجيش وكبراء البلد بالتوجه لاستقبالهم».

عندئذ **ابتهج صاحب الجلالة** ودخل إلى قصره وقلبه يتهلل فرحاً، بعد أن نما إلى علمه هذا الخبر (الذى ظل) سرا لم يعرفه أحد فى **مصر** حتى الآن. فأوفد على جناح السرعة الجيش وكبراء الدولة لاستقبالهم.

عندئذ تدبّر هذه الفكرة فى قلبه وتأمّلها، قائلاً: «كيف سيتصرف أولئك الموفدون الذين أرسلتهم لتوى، ويسيرون الآن فى طريقهم إلى بلاد **چامى**، فى هذه الأيام بالذات، وفى هذا الفصل الذى تشتد فيه الرياح وتتساقط الثلوج؟» عندئذ قدم قريباً عظيماً إلى أبيه **سوتخ** واقترب منه قائلاً: «السماء بين يديك والأرض تحت قدميك، وما تأمر به يحدث. مرّ بأن يتوقف هطول الأمطار وهبوب الرياح الباردة وتتساقط الثلوج، حتى تصل إلى جوارى الرائعة التى وهبتها لى». سمع والده **سوتخ**

كل هذه الكلمات فاستكانت السماء وحلت أيام الصيف في زمن الشتاء. وبالنسبة لجيشه وبالنسبة لكبرائه، بدى الجسد أكثر نشاطاً وتفجر القلب فرحاً.

وعندما وصلت ابنة ملك خاتى إلى مصر كان مشاة صاحب الجلالة وجنود سلاح مركباته وكبراء دولته يرافقونها، وقد اختلطوا بمشاة الخاتى وجنود سلاح مركباته، ليشكلوا جيشاً واحداً من جنود **أسيويين** و**مصريين**. كانوا يأكلون ويشربون معاً، ولهم قلب واحد وكانهم إخوة. فلا أحد منهم يصدُّ الآخر، والسلام وروح الإخاء يسودان بينهم، عملاً بمقاصد الإله ذاته، ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**، **أوسر ماعت** رع - ستپ إن رع، ابن رع، رع، رع، **رمسيس** - محبوب - آمون، له الحياة.

كان جميع زعماء البلدان التى يعبرها الموكب فى حيرة من أمرهم، فأخذوا يتلفتون وقد أصابهم الهم، بعد أن شاهدوا رجال خاتى وقد انضموا إلى جيش ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**، رب الأرضين، العامل الملكى صاحب الساعد القوى، حامى مصر **أوسر ماعت** - ستپ إن رع. ابن رع، سيد التجليات المتألقة **رمسيس** - محبوب - آمون، له الحياة...

فى الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام ٣٤... أحضرت ابنة ملك خاتى البكر أمام صاحب الجلالة، ومعها العديد من خرائب الجزية (التي وصلت فى ضحبتها). ووجدها قلب الملك بالغة الجمال. وخلق عليها اسمها: «الزوجة الملكية مالت حور نفرو رع، ابنة ملك خاتى العظيم وابنة سيدة خاتى العظيمة».

كانت رائعة من الروائع الخفية، التى لم يعرف أحد أنها ستصل إلى مصر، ولم يسمع عنها أحد شيئاً. كان أبو الملك، الإله **پتاح** - **تا** - **تن**، هو صاحب هذا القرار. هكذا أصبحت بلاد خاتى بقلب واحد، تحت قدمى صاحب الجلالة^(*). وخذلت الملكة

(*) من المؤكد أن هذا القول لم يكن يروق لملك خاتى، ولكن كان يحلو للمصرى القديم المبالغة ويعظم كل شىء، لخلق واقع أكثر تأثيراً. (المؤلفة)

وما زالت هذه الظاهرة عنصراً مؤثراً فى موروثنا الثقافى. ومثال ذلك أن مذيعة مشهورة فى إحدى الفضائيات المصرية، قد ذكرت يوم ٢٧/٦/٢٠٠٦، بمناسبة الاحتفال بمرور ٥٠ سنة على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين **مصر والصين**، أن **حتشپسوت** فى رحلتها الشهيرة إلى الشرق قد وصلت إلى **الصين** على حد قول بعض العلماء!!! [مكذا]. (الترجم)

الشابة إلى الراحة داخل القصر، وتبعت الملك في كل يوم من الأيام، وسطم اسمها في جميع أرجاء البلاد (١٠٠).

إن الدور البارز الذي آل إلى پتاح في سياق هذا الحدث يظهر أيضاً في نص آخر، كما كان فضلاً عن ذلك وسيلة لإبعاد كهنة أمون عن كل بادرة مرتبطة بالحياة السياسية. هذا النص الآخر، هو مرسوم صادر عن الإله پتاح، ومؤرخ بالعام التالي، أى العام الخامس والثلاثين من سنوات الحكم، وأعيد نسخه في عدد من المعابد. فيتحدث پتاح إلى رمسيس قائلاً:

لقد حوَّلت بلاد خاتى بأكملها لتصبح عنصراً في قصرى. لقد وضعت في قلب أهلها (الرغبة) في التوجه إلى كائى، محملين بكل الجزية التى استولى عليها زعمائهم فضلاً عن ثرواتهم بصفة إسهام لجد جلالته. إن ابنة (ملك خاتى) تتقدم على رأس (الموكب) إرضاءً لقلب رب القطرين... إنها رائعة خفية، لم تعرف بعد العمل الفطن الذى حقَّقه ليعرف قلبك السلام (١٠١).

وبعد فترة من الزمن جاء أخو الملكة الشابة، ولى عهد ملك خاتى الذى سيخلف خاتوسالى الثالث، تحت اسم توتخالياش الرابع، جاء ليزور صهره الملكى. وأمضى فصل الشتاء في مصر، ومن المحتمل أن الأمير كان يمهد لقيام خاتوسالى ذاته بزيارة رسمية. وعلى كل حال كان المشروع قائماً. وبالفعل فإن خطاباً أرسله رمسيس إلى ملك خاتى، يدعو هذا الأخير لزيارة پررمسيس للتعرف على «أخيه» وبلده. ولما كان رد خاتوسالى مختصراً بعض الشيء وتسويفياً، فقد جدَّد رمسيس الدعوة:

الإله - الشمس في مصر وإله العواصف في خاتى سوف يُتيجان لأخى أن يزور أخاه، عسى أن يقبل أخى هذا الاقتراح ليأتى لزيارتي. هكذا سنتقابل وجهاً لوجه، ونجلس في المكان الذي أمارس منه الملك. سوف أواصل سيرى حتى أرض كنعان، اللقاء أخى ورؤيته والترحيب به وسط بلادى^(١٠٢).

يا له من تعبير موج، يعبر بوضوح عن فكر رمسيس الثانى الإمبراطورى، فتمتد الإمبراطورية بلا تمييز، من بلاد أو مناطق تبدأ من السودان وتنتهى عند نهر العاصى، لتشكل وحدة كاملة متكاملة.

هل نظر خاتوسالى إلى هذا العرض بارتياح؟ هل ذهب إلى الظن بأن هذه الرحلة قد تعنى من جانبه الاعتراف بنوع من التبعية لمصر؟ هل كان مريضاً؟ ويبدو أن الزيارة لم تتم. ومع ذلك فإن بعض الشواهد، وإن كانت غاية في الضالة في حقيقة الأمر، قد تبرهن على أن لقاء القمة هذا ربما حدث، ولكن في سرية تامة. هكذا، ففي خطاب مرسل من خاتوسالى إلى أمير كودا، يطلب ملك الحيثيين من هذا الأخير أن يستعد لمرافقته في رحلته إلى مصر. كما وردت إشارة إلى هذه الرحلة في خطاب حرره إينى - تشوب، أمير كركميش القوى.

حقاً، إنها قرائن هزيلة للغاية، بالنسبة لحدث بهذه الأهمية. إن الإجابة الشافية على هذا الحدث الذى ما زال يكتنفه الغموض، ربما يقدمه لنا في السنوات القادمة اكتشاف وثيقة جديدة أكثر وضوحاً.

لما كان هذا الزواج من أميرة حيثية قد استثار الخيال الشعبى استثارة شديدة، فقد نُسجت من حوله الحكايات والروايات الخيالية. وقد وصلتنا إحداها مدونة على لوح حجرى، من مقتنيات متحف اللوفر فى باريس (C284)، ويعود تاريخها إلى سبعة قرون أو ثمانية قرون لاحقه على التاريخ الحقيقى للحدث الذى ترويه. فعلى حد قول هذه الوثيقة، جاءت نفرو رع من بلد بعيد جداً، حتى إن رحلتها إلى مصر قد استغرقت سبعة عشر شهراً. ويُقال إن شقيقة الأميرة أصيبت بمرض غامض وإن

ومعسيس، على الرغم مما يتحمله المسافر من عناء ومشقة، قد أرسل طبيباً مصرياً وتمثالاً إلهياً لطرد الأرواح الشريرة التي تسلطت على المريضة الشابة.

وأخر شكل تقمصته هذه الأميرة الحيثية، يعود إلى القرن التاسع عشر الميلادي، في فرنسا، ومن وضع الشعراء **الپرناسيين** (*) les poètes parnassiens. إن الشاعر **ليكونت دي ليل** (**) Leconte de Lisle، قد كرّس في ديوانه القصائد الهمجية Poèmes barbares قصيدة يهديها إلى **نفرورع** التي حولها إلى ابنة **معسيس** الثاني:

Hier Neferou - Ra courait parmi les roses,
La joue et le front purs polis comme un bel or,
Et souriait, son coeur étant paisible encor,
De voir dans le ciel bleu voler les ibis roses.

وفيما يلي الترجمة العربية لهذه الأبيات:

بالأمس كانت **نفرورع** تجرى وسط الورود،
ووجنتها وجبهتها صافيتان وناعتان كالذهب الخالص،
كان قلبها لا يزال وادعاً وهي تبسم،
لشاهدة طيور أبي منجل الوردية اللون، محلقة في السماء الزرقاء.

قليل من التاريخ وكثير من الحكايات الخيالية، وتصورات شخصية عن فلورة مصر القديمة وفونتها...

(*) الشعراء **الپرناسيون**: هم مجموعة من الشعراء الذين ظهروا في فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر رد فعل للإغراق في الرومانسية، وامتدوا بتجويد الأسلوب وتنميقه. (المترجم)

(**) شاعر فرنسي (١٨٥٨-١٨٩٤). (المترجم)

وعلى كل حال فقد ترك **رعمسيس** الثانى فى الماضى أثراً عميقاً فى عقول البشر ومازال. إن ولعه الشديد بالمآثر البطولية والمغامرات فى المناطق النائية، ومصير خطيبته الشابة القادمة من بلاد **خاتى**، وعبورها الجبال والصحارى للالتحاق بزوجها المرتقب، كان من المستحيل ألا تهتز له مشاعر أصحاب النفوس المرفهة.

مرة أخرى، حفلات زفاف حيثية

وإذ بلغ الود والوئام أوجهما من الآن فصاعداً، يبدو أن **خاتوسالى** قد اقترح على **رعمسيس** الثانى أن يزوجه إحدى بناته الأخريات. ولكن أصداء هذا الزواج كان أقل دويماً من سابقه، بعد أن أصبح أمراً مألوفاً.

إن لوحين حجرين فى **مصر** يؤكدان هذا الحدث، فقد عُثر على أحدهما فى المعبد الكبير بمدينة **كوبتوس** والآخر فى **أبيدوس**، أمام الجدار الجنوبي للفناء الأول من معبد **سيتى الأول**.

أمر ملك **خاتى العظيم** بأن يرسل إلى ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى** **أوسر ماعت رع - ستب إن رع، ابن رع: رعمسيس - محبوب أمون**، كميات كبيرة من الجزية شديدة الثراء، واردة من بلاد **خاتى وجاسجا وأرزاوا وكودا**. (وكانت من الضخامة) بحيث استحال تحرير قائمة بها، (كما أرسل) قطعاً من الجياد بأعداد كبيرة وقطعاً من الماشية، وأعداداً ضخمة من قطعان الماعز والأغنام. وكانت تتقدم ابنته الأخرى، الآتية إلى **رعمسيس** نى **مصر**. لقد حدث ذلك، للمرة الثانية.

لم يكن المشاة يتقدمونها ولا راكبو المركبات الحربية. كانت آلهة أرض **مصر** وآلهة كل منطقة أجنبية هى التى تصرفن، بحيث يتولى كبار أمراء كل بلد شخصياً بإحضار جزيتهم إلى **رعمسيس**، ذهبهم وفضتهم وأوانيهم المصنوعة من الحجر الأخضر وقطعانهم من الجياد والماشية والماعز والأغنام (كما أحضروا) نى الوقت

نفسه أولاد أمراء أرض خاتى، كما قدموا كل ما يملكون حتى حدود أراضى
رمسيس. لقد حضروا بمبادرة منهم.

لم يكن زعيم يقودهم عندما حضروا، ولا جنود مشاة، ولا جنود سلاح
المركبات، بل پتاح - تا - تن، أبو الآلهة الذى وضع كل البلدان وكل المناطق الأجنبية
تحت قدمى هذا الإله الكامل، للزمن الأبدى، الأبدى^(١٠٣).

مرة أخرى نجد أن پتاح هو الذى يرأس حفلات الزفاف، إنه پتاح صاحب
العبادات الموهلة فى القدم، وقد أخذت أهميته تتعاظم آنذاك ويعلو نجمه^(١٠٤).

هكذا كانت إمبراطورية مصر تسير فى سلام على طريق الازدهار، تحت قيادة
عاهل ملكى بطل فخور بنفسه.

الفصل الثالث

إمبراطورية الرعامسة

والسلام المصرى

أولاً: فكر الإمبراطورية

تصوّر الرعامسة إمبراطوريتهم باعتبارها بلداً واحداً، ووحدة سياسية وروحية ودينية رحبة، تندمج فيها الشعوب والمعتقدات فى رابطة منسجمة، لا مجال لفض ختمها. إنه تصور جديد متشامخ، جعل من مصر مركز العالم. كان الرعامسة عسكريين طموحين، يدركون كل الإدراك عظمة وطنهم، كانوا رجال سياسة بارعين ورجال دولة ثاقبى البصيرة. ومع ذلك لم يكونوا فى مأمن من بعض المشاكل الداخلية المرتبطة بتدبير شئون مصر.

وفى أعقاب فتوحات سیتی الأول ورعمسيس الثانى العظيمة، والحروب الآسيوية والإفريقية، عرفت إمبراطورية الرعامسة عصرها الذهبى، فعلى امتداد نصف قرن من الزمن ساد السلام وتعاظمت ثروة مصر وخيراتها، بذل خلاله الملكان الجهد الجهد لتوحيد مختلف الأراضى التابعة لهما على الصعيدين السياسى والروحى، فلم يجرؤ أحد على معارضتهما بالنظر إلى هيبتهما الفائقة وما تثيره أسلحتهما من خوف بالغ.

عند حدود الأرض

فى نص المديح من أجل سیتی الأول المنحوت على اللوح الحجرى الذى عُثر عليه فى قصر إبریم^(*)، يبدو أن هيمنة مصر كانت عالمية على ما يبدو، فتمتد على كل

(*) شمال إبریم، (المترجم)

حال، بعيداً بقدر ما يمكن لخيال إنسان أن يكتشف من أراضٍ واقعة بين الرياح والبحر

إن حدودها الجنوبية تصل إلى أطراف الرياح، ويقال عن حدودها الشمالية إنها تلامس *الشمسيدة الاخضرار*^(١).

إن الإله رع - حور أختي الإله الشمسى للأيام الهادئة، عندما يمتدح ابنه رمسيس ينظر إلى مصر، باعتبارها محور الإمبراطورية التي تمتد حتى الجهات الأصلية الأربع

إنى أمتدحك بسبب ما فعلته، يا بنى المحبوب الذى أعرفه والذى أحبه. أنا أبوك وأمنحك الزمن الأبدى واللانهائى، بصفتك ملك *القطرين*. إن مدة حياتك ستكون مثل مدة حياتى على عرشى الأرضى. إن سنواتك ستكون مثل سنوات *أتوم*. إنك تسطع مثل *حورس* فى الأفق وتضىء *القطرين*.

إنك تحمى مصر وحدودك بعيدة. إنك تستولى على *سوريا* وبلاد *كوش* و*الثلثى* و*الشماسو* و*الجزر القائمة* فى قلب *الشمسيدة الاخضرار*، بفضل انتصار ساعدك *المقدام*^(٢).

إن *الثلثى* الذين يعودون إلى أقدم العصور، ما زالوا فى نظر المصريين العرق النمطى لأهل *ليبيا* فى الغرب، فى حين إن *الشماسو* يمثلون شعوب *آسيا* فى الشرق.

إن نصاً منحوتاً على الجدار الجنوبى من القاعة الأولى فى معبد *إبوسمبل* الكبير يشد انتباهنا، بصفة خاصة، لأنه يقدم لنا تعريفاً شاملاً للفكر الإمبراطورى لعصر *الرهامسة*

إن رعمسيس، الباسل المقدام مثل موتو، يسوق الزنجى إلى الشمال
والأسيرين إلى التوبة. لقد حدد مكان الشمس في بلاد الغرب وأقام الثحن في جبال
الشمال (لبنان)^(٣).

إن الشعوب المذكورة هي قبل كل شيء شعوب الإمبراطورية، فإليها يختسب
أفرادها قبل أن يكونوا من رعايا هذه المنطقة من العالم أو تلك. إننا أمام أدق تعريف
توصل إليه المصريون عند وصف هذه الإمبراطورية المصرية، كما داعبت خيال
الرعامسة واستطاعوا تحقيقها على أرض الواقع، قبل مئات السنين على ظهور
قيصرة روما. وهناك سمة مشتركة تقرب أبناء مصر من أبناء الإمبراطورية
الرومانية، فقد كانا شعبين من المزارعين، يرتبطان ارتباطاً لصيقاً بأراضيها، وفي
سعيهما للدفاع عنها جنحوا، خطوة فخطوة إلى غزو أقسام كبيرة من العالم.

من أجل روحانية عالية

في هذه الأزمنة القديمة، عندما كان ما هو روحاني على القدر نفسه من أهمية
ما هو زمني وديني، كان اندماج الشعوب يسير بالضرورة جنباً إلى جنب اندماج
العقائد اندماجاً متناغماً، في مناخ يقوم فيه التسامح واحترام مختلف الأيديولوجيات
بدور فعال وأساسي. إن الرغبة في فرض فكر واحد، مهما بلغ من السمو، لن تظهر
الحاجة إليه إلا في وقت متأخر، إذا وضعنا جانباً فترة «مرطقة» ملحوت^(٤) الرابع
القصيرة، إنها مرطقة بالنظر إلى العنف وعدم التسامح المصاحبين لها^(*).

(*) راجع: كلير لالويت، طيبة، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥،
ص ص ٥٨٥-٦٢٩. (المترجم)

فإذا كان من الممكن غزو الشعوب بالقوة، فإنه من الضروري بقاء العقول حرة، حينئذٍ سوف تسعى إلى الوحدة في سر وسعادة، تحركها رغبة مشتركة في الحفاظ على عقائد كل شعب من الشعوب. وقد كانت تشكل في ظل إمبراطورية الرعامسة روحانية وثنية رحبة، عاشت في إطارها الآلهة باعتبارها قوى العالم، ولا تختلف فيما بينها سوى بأسمائها.

كما أن العمل الأيديولوجي الذي اضطلع به الرعامسة، كان هو أيضاً على قدر كبير من الأهمية.

ففى سعيهم إلى توحيد المعتقدات، شرعوا في تبسيط مجمع الآلهة المصرية واختزال عناصره، من خلال مجهود رسمي، ونشأت بين الكيانات الإلهية نزعة تلفيقية(*) صارمة.

إن نص ترنيمة مكرسة للإله أمون - رع، ومن مقتنيات متحف ليدن في الوقت الراهن ومدونة على البردي في زمن رمسيس الثاني، تكشف بكل وضوح عن هذه النزعة

ثلاثة هي الآلهة جمعاء: أمون ورع وبتاح. فلا مثيل لها. إن اسمه(**) خفى بصفته أمون^(٤). ووجهه(**) هو وجه رع وجسده(**) هو جسد بتاح^(٥).

(*) ينبغي التمييز بين مفهومين:

١. التلفيقية syncrétisme نزعة فلسفية بعيدة عن الروح النقدية، وتيرى إلى جمع مصطنع بين أشقات من أفكار أو دعاوى غير متلائمة لتكوين مذهب واحد.

٢. التركيب synthèse الجمع بين عناصر متفرقة ومحاولة التأليف بينها.

مجمع اللغة العربية، معجم الفلسفة، القاهرة، ١٩٨٢. (المترجم)

(**) بضمير الغائب المفرد شكلاً. (المترجم)

إنه إله ثلاثى الأوجه. ففيه تتحد ثلاث شخصيات إلهية، وهى من كبرى الآلهة، على امتداد التاريخ المصرى. إن قوة الاسم، أى قوة الكلمة الخلاقة، هى من نصيب **أمون**. وتلقى وجهه الوضأ، هو تالق رع. أما جسده فهو جسد **پتاح**، الإله صاحب الرداء اللاصق المحبوك، فيشير جسده إشارة رمزية إلى لحاء شجرة يطوّقه تطويقاً، ويتمتع بالتالى بكامل قوى التجديد لعالم النبات. ويمثل هذا الثالوث المقدس إنن كبرى القوى الموجودة فى الكون، والتي تُبعث فيها على الدوام حياةً متجددةً، إلى جانب القدرة على الخلق.

ويستطرد النص على النحو الآتى:

لقد تأسست مدنها على سطح الأرض للزمن الأبدى، **طيبة** و**هليوپوليس** ومنف، للزمن اللانهائى. وإذا صدرت رسالة من السماء فإنها تُسمع فى **هليوپوليس**، وتردد فى **منف**، مدينة الإله صاحب الوجه الجميل^(٦)، وتُكتب بعلامات **تحوت**^(*) من أجل مدينة **أمون**، عند معالجة شئون البلاد. وإذا صدر قرار فى **طيبة**...

❖ **أمون ورع وپتاح كل جامع، وثلاثة.**

إن **هليوپوليس** وهى مدينة رع، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالسماء. وتسجل الرسالة فى منف. ولكن سوف يصدر أمر التنفيذ عن **طيبة**.

وفى فقرات أخرى من هذا النص، ينظر إلى آلهة **ثامون** مدينة **هرموبوليس**^(**) باعتبارها الشكل الأولى للإله **أمون**. فالآلهة الأخرى هى أقانيم للإله **أمون** أو أحد أوجهه المحورة.

(*) أى بالعلامات الهيروغليفية. (المؤلفة)

(**) ضمنى بالمصرية القديمة والاشمونيين حالياً. (المترجم)

وبطبيعة الحال، فإن هذه النزعة إلى التلفيقية تخص **أمون** بمكان الصدارة. أحدث ذلك، بتأثير من كهنة **طيبة**؟ ولكن، أليس **أمون** هو إله الانتصارات، والضامن الأمين لقوة الملوك؟ ويبرهن وجود **پتاح** على إرادة ملكية وراء هذه النزعة إلى إعادة تجميع مَجْمَع الآلهة المصرية. وبالفعل كان **الرعامسة** متحمسين لإله **منف**، ويكتئون له ورعاً حميماً. والشاهد على ذلك، دراسة أسماء الأعلام. هكذا نجد أن الابن الثالث عشر من أبناء **رعمسيس** الثاني وخليفته كان يُسمَّى **مر إن پتاح**، أى «محبوب **پتاح**». أكانت رغبة سياسية فى موازنة سلطة كهنة **أمون** المتعاظمة؟ أم الحاجة إلى الارتباط بأقدم التقاليد المتواترة للفكر المصرى، وإلى أول أزمنة المملكة، عندما كانت **منف** عاصمة البلاد، فظل المصريون يحتفظون على الدوام، بذكرى هذه الأزمنة، باعتبارها نموذجاً للعصر الذهبى، كما نعرف أن المصريين أكثر الشعوب حفاظاً على التقاليد.

إن المكانة المتميزة التى آلت إلى **پتاح** فى إطار حياة الدولة يظهر بوضوح من خلال نص مسهب، يتخذ شكل حوار بين **پتاح** و**رعمسيس** الثانى، وقد نُحت على جدران عدد من المعابد، فنذكر الجدار الجنوبي من الفناء الخارجى فى **الكرك**، والجناح الجنوبي من صرح معبد **مكاشة** وفى معبد **أبوسمبل**. كما سيستعير **رعمسيس** الثالث هذا النص بمعبد الجنازى فى **مدينة هابو**.

يتحدث **پتاح** إلى **رعمسيس** الثانى، قائلاً:

عندما أشاهدك يتحمس قلبى، فأقترب منك فى معانقة من ذهب، وأحتضنك فى أيدى الدهر والثبات والقوة، وأتحد بك فى ازدهار القلب وسعادتته. إنى أرتبط بك فى الحماس والابتهاج والمتعة واللذات. إنى أجعل فكرك فكرياً إلهياً مثل فكرك. إنى اختارك وأمعن النظر فىك وأهينك، ليكون قلبك سعيداً وتكون كلماتك مؤثرة. فلا يجوز أن تجهل شيئاً، لا شىء على الإطلاق. إنى أحيطك بنصائح الحياة، حتى تجعل الآخرين يحيون حسب مقصدك. لقد أقمته بصفته ملكاً للزمن الأبدى، وحاكماً يغالب الأيام للزمن اللانهائى. لقد صهرت أعضاءك فى الذهب الخالص وعظامك فى النحاس^(٧).

جمال هذا الخطاب محرك للمشاعر. إنه يقيم صلة جسدية وروحانية بين الإله والملك، تكاد تكون شراكة حب، وهى على كل حال انصهار تام وشامل.

كما يتحدث **پتاح** قائلاً:

إنى أمنحك البسالة والقوة، وقدرة ساعدك، فى كل بلد من البلدان. فمن أجلك
رَبَطْتُ رغبات الأراضى كافة بعد أن وضعتها تحت نعليك. عندما تظهر متألِّفاً على مرَّ
الأيام، تُؤدِّي لك جزية **الأقواس التسعة**، بينما يُقدم لك كبار أمراء كل بلد من البلدان
أولادهم الذين أخضعتهم لساعدك المقدام، لتفعل بهم ما تريد. لقد وضعت هيبتك فى
القلوب كافة وحب الآخرين لك فى كل جسد. لقد نشرت ما تثيره من رعب عبر البلدان
الأجنبية، بينما الخوف منك يجوب الجبال، والأمراء يرتعدون كلما تذكروك. ليت **جلالتك**
يزدهر وأنت قائم على رأسهم بثبات. إنهم يأتون إليك صائحين طلباً للسلام، لأنك
تسمح أن يحيا من تريد وتقتل حسب رغبتك^(٨).

هل أصبح **پتاح** منافساً للإله **أمون**، فى مجال كان حتى الآن من اختصاص إله
طبية، نقصد بذلك الحرب والهيمنة على القوى الأجنبية؟ الأقرب إلى الصواب، أن آلهة
الثالوث المقدس الجديد، التى كانت متشابهة من الناحية الرسمية فى قدرتها، كان لها
أيضاً صلاحيات مماثلة، بل قد تستطيع أن تتبادلها، فيما بينها. ولا شك أن عملية
الانصهار التى سعى إليها **رعسيس** الثانى كانت كاملة وأكثر فاعلية لحماية مصر.

وبطبيعة الحال، فإن هذه التلفيقية الرسمية، التى لم يترتب عليها أى تصرفات
قسرية، لم تحلْ دون استمرار إقامة الشعائر الدينية من أجل الآلهة المحلية وتحديداً
مونثو فى **هرموتيس** و**مين** فى **كوبتوس** و**حتحور** فى **لنخرة** و**حورس** فى **إنفو** و**خنوم**
فى **إلفنتين**، على سبيل المثال. وببساطة شديدة كان ينظر إلى هذه الآلهة باعتبارها
صورة محوَّرة للثالوث الرسمى. إن هذه المحاولة الساعية إلى تنظيم مَجْمَع الآلهة، لم
تكن الأولى فى واقع الأمر، فقبل سبعة قرون من الزمن سبق أن حاول **أمنمحات**

الأول، وإن في إطار أقل شمولاً، أن يصوغ منظومة تُخضع الآلهة المحلية إلى إله طيبة^(٩).

وظلَّ أوزيريس وحده، بعيداً عن هذه المبادرات ومحاولات التجميع. فلما كان يفتقر إلى سلطة سياسية ظل الإله الذي يعلم البشر الطريق إلى البعث واستعادة الحياة.



ولكن العمل الذي أقدم عليه الرعامسة على الصعيد الروحاني، والجدير بالملاحظة، هو اهتمامهم الدائم باستقبال الآلهة الأجنبية، بينما كانت الآلهة المصرية تجد أماكن جديرة لعبادتها في بلدان أخرى غير مصر. هكذا نشأت ديانة عظيمة حقا على امتداد الإمبراطورية.

إن عبادة بعل إله العواصف العظيم عند الساميين فكان بالتالي سيد الملاحة البحرية وحاميها، ثبت وجودها في مصر منذ عهد أمثووت^١ الثاني في برو نفر، أي «الخروج السعيد»، وهو ميناء مدينة منف. ولما كان بعل إله الحرب أيضاً، فقد أُجلَّه الرعامسة على وجه خاص وبجلَّوه. فكان يطيب للوك مصر، عند خوض المعارك الحربية، أن يندمجوا فيه. كان رمسيس الثاني في قادش هو «بعل ذاته» في نظر الحيثيين المرعوبين، وفي الكثير من الأحيان كان بعل وست يعتبران كياناً واحداً. فتأسست عبادة بعل - ست في أحد معابد العاصمة الجديدة، في بر - رمسيس.

كما أن هشتروت - وهى إلهة محاربة عند الساميين وكانت تُدعى في الغالب عنات عند المصريين^(*) - قد انضمت بكل وضوح إلى عالم الأساطير المصرية، ويطلق عليها أحياناً لقب «ابنة رع» أو «ابنة بتاح» أو «رفيقة ست». وفي النسخة المختصرة للوح الزواج يطلق على رمسيس الثاني اسم «رضيع عنات». فالإلهة هى التى تُرضع الملك - الطفل، لتقوم بالدور الذى يعود تقليدياً إلى الإلهة حتحور، كما قد تكون الإلهة

(*) ونجد على كل حال أن هذين الشكلين يندمجان في الغالب في كيان واحد. (المؤلفة)

التي تضمن انتصار الملك فى المعارك الحربية. إن الدعامة الرأسية لظهر مجموعة تمثالين جادت بها تانيس ومن مقتنيات متحف اللوفر Le Louvre فى الوقت الراهن، وتصور رمسيس الثانى والإلهة عنات، تحمل المدونة الآتية:

كلمات قالتها عنات:

أيا رب القطرين، يا أوسر مامت رع - ستب إن رع،
يا سيد التجليات المتألقة، يا رمسيس - محبوب - آمون،
أنا والدتك عنات، إنى أقيمك فى عيد بواسطة الحياة والثبات والقوة.
يا رب القطرين، يا أوسر مامت رع - ستب إن رع،
يا سيد التجليات المتألقة، يا رمسيس - محبوب - آمون،
لقد فتحت الأرضى قاطبة لأننى معك، والمذابح (التي تُقدم عليها) هى أشبه
بلهب نار فى قلب الأمراء.

يا رب القطرين، يا أوسر مامت رع - ستب إن رع،
يا سيد التجليات المتألقة، يا رمسيس - محبوب - آمون،
محبوب عنات، سيدة السماء^(١٠).

وعلى جزء من نقش جاء أيضاً من تانيس ومن مقتنيات متحف بروكلن Brooklyn فى الوقت الراهن، يقف رمسيس الثانى وعنات وجهاً لوجه. ويطلق على الإلهة لقب «عنات، سيدة السماء، من أجل رمسيس - محبوب - آمون^(١١)».

وعلى لوح حجرى مكرس للإلهة عشترت، موضوع بمعبد پتاح فى منف، نشاهد مر إن پتاح، وهو يقدم البخور للكيانين الإلهيين، بينما تدعى عشترت «سيدة السماء التي تقف على رأس الآلهة جمعاء^(١٢)».

ويشهد أيضاً علم أسماء الأعلام على انتشار عبادة عنات - عشترت فى

مصر على نطاق واسع. ونعرف أحد كبار الموظفين الذين عاشوا في عهد سبتى الأول وكان يُدعى «عشتروتى»^(*)، ويشغل منصب كبير المشرفين على إسطنبول أمون وقائد حاملى الأقواس^(١٣)». كما عُثر فى كانايس^(**) فى الصحراء الشرقية على لوح حجرى لهذا الموظف الكبير. وفى سياق النص المدون على هذا الأثر يقدم فروض الشكر والحمد لكبار آلهة مصر جمعاء، كما صُوِّرَ فى الجزء الأعلى من اللوح وهو يقدم القرايين لسبعة آلهة: أمون وموت ورح وأوزيريس وإيزيس وحورس وعشتروت. وقد صُوِّرَت هذه الأخيرة فى هيئة أحد أشكالها التقليدية، كإلهة فارسة^(١٤). ويوفر لنا هذا اللوح دليلاً آخر على الانصهار التام الحادث آنذاك، بين مختلف العبادات.

إن الإله حورون وهو إله - صقر، يعود إلى الساميين وإلى القاطنين فى البحر المتوسط، وكان يُعبد تحديداً فى أرض كنعان وفى لبنان، قد حظى فى مصر فى ذلك العصر، على قدر كبير من التبجيل والتوقير. كان قد لقي رواجاً واسعاً على المستوى الشعبى منذ عهد تحوتمس الثالث فى منطقة منف، وكُرِّس له معبد فى عهد أمنموتب الثانى، على ما يظن، بجوار تمثال أبوالهول فى الجيزة، بعد أن تم الخلط بينه وبين الإله الشمسى المسمى حور - إم - أخت، الذى صحفه الإغريق إلى حرماخيس Har-makhis، أى حورس فى الأفق. إن مجاورة أماكن العبادة والاستعانة بهيئة الصقر سهلاً اندماج هذين الكيانين الإلهيين. وربما كان منشأ هذه الظاهرة يعود إلى مستوطنين أنسيويين جاؤا ليعملوا فى مصر، وأقاموا عبادة حورون فى هذا المكان. وسرعان ما تبنى الرعامسة هذا الإله، وخصصوا له معبداً صغيراً فى العاصمة الجديدة، وكُرِّس له عدد من الألواح الحجرية^(١٥).

إن مجموعة نحتية من حجر الجرانيت جديرة بالملاحظة، وتشهدُ انتباهنا على نحو خاص، عُثر عليها فى تانيس وهى من مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن، تصور وممسيس الثانى فى حماية الصقر حورون. إن موضوع قيام أحد الآلهة

(*) أى المنتسب إلى عشتروت، والياء المشددة فى آخر الكلمة هى ياء النسب كما فى اللغة العربية. (المترجم)

(**) عند خط عرض ألفو. (المترجم)

بحماية العامل الملكى تناوله فن النحت فى مصر القديمة بكثرة، حتى أصبح كلاسيكيا، فقد سبق أن شاهدنا أجنحة الصقر حورس وهى تحتضن رأس خعفر(*)). كما صور أمنحوتب الثانى فى حماية البقرة حتحور، وقد استقر التمثال الملكى بين قائمتى الحيوان الإلهى وتحت خطمه القوى(**). كما أن أمنحوتب الثالث يقف بين القائمتين الأماميتين لكبش أمون فى حماية الحيوان الإلهى المهيمن عليه، حتى يكاد يسحقه سحقاً بضخامة قامته، عملاً بأسلوب التماثيل الجماعية شديد الذكاء والوحى إلى أبعد حد***). وتتميز مجموعة حورون - رعسيس الثانى بخصوصيتها المتميزة، فبين رجلى الصقر المهيمن الذى يرتدى التاج پشنث يوجد تمثال صغير بصور رعسيس فى هيئة طفل جالس القرفصاء ويعلو رأسه قرص الشمس، وقد وضع سبابته اليمنى فى فمه، وهى حركة تقليدية تدل على الطفولة، ويمسك بيده اليسرى ساق نبات البوص. إنه «تمثال - أحجية»، ينبغى قراءته باعتباره كتابة مشفرة. إن اسم الملك الصغير يقرأ رع، المقابل لصورة الشمس، ومس المقابل للاسم الدال على الطفل وعملية الإنجاب أيضاً، وأخيراً سى العلامة الصوتية(****) phonogramme الدالة على نبات البوص والمستخدم لكتابة ضمير الغائب. فتكون القراءة على النحو الآتى: رع - مس - سى أى «رع هو الذى أنجبه» = رعسيس(*****). هكذا نرى أن

(*) المتحف المصرى بالقاهرة، القاعة رقم ٤٢ من الطابق الأرضى. (المترجم)

(**) المتحف المصرى بالقاهرة، القاعة رقم ١٢ من الطابق الأرضى. (المترجم)

(***) راجع: أنيس كابرول، أمنحوتب الثالث، ترجمة مامر جويجاسى، المجلس الأعلى للثقافة،

٢٠٠٢، ص ٥٠٩ وما بعدها واللوحات ٧ و ٨ و ٩ و ٢٩ و ٣٠. (المترجم)

(****) أى استخدام العلامة التصويرية idéogramme لا بالنظر إلى معناها بل من أجل قيمتها الصوتية. (المترجم)

(*****) يمكن مشاهدة هذا التمثال الرائع الجمال فى المتحف المصرى بالقاهرة، الطابق الأرضى، الرواق رقم ١٠. كما وردت له صورة فى دليل المتحف المصرى باللغة العربية ١٩٩٩، ص ٩٣. (المترجم)

حورون يقوم فى هذه الحالة بالدور الذى كان ينول فى أحوال أخرى إلى أكبر الآلهة المصرية مثل حورس أو حتحور أو أمون. وتحمل قاعدة التمثال المدونة الآتية:

الإله الكامل أوسر ماعت رع - ستپ إن رع، ابن رع، رعسيس - محبوب -
أمون ومحبوب حورون، من مدينة پر - رعسيس.

هكذا صار حورون إلهاً مصرياً.

إن إلهاً سامياً آخر، وهو الإله المحارب ريشيپ الذى كان وجوده مؤكداً أصلاً فى ماري(*) وأوجاريت(**)، كانت عبادته قائمة فى مصر قرب نهاية الأسرة الثامنة عشرة. ثم زاد انتشارها فى عصر الرعامسة، لتستمر حتى عصر البطلمة. ويسهل التعرف على هذا الإله بفضل تاجه المخروطى العالى، الذى يتدلى شريطان من قمته جهة الخلف. وقد يزدان غطاء الرأس هذا برأس غزال، والذى قد يؤكد وجوده على طبيعة أصوله باعتباره من آلهة الصحارى. إن هذه الخصائص المتنوعة سهلت اندماج ريشيپ فى ست. ويوضح هذا الخلط قدرة الآلهة المصرية على التأثر أيضاً بالصفات الآسيوية، وبالفعل، يصورُ ست أحياناً مرتدياً التاج المخروطى نفسه الذى يرتديه ريشيپ^(١٦).

هكذا اتخذت الآلهة الأجنبية مكانها فى مجّمع الآلهة المصرية على أكمل وجه، وانصهرت فيه، عملاً بالنزعة الغالبة إلى العالمية التى تُغذى الفكر الدينى.

وصارت أوجه الترابط والتآلف على المعالم الصرحية كثيرة ومتعددة، بين الآلهة، بأصولها المختلفة. هكذا، فإن لوحاً حجرياً يحتفظ به فى الوقت الراهن، متحف القاهرة وجادت به منطقة القططرة، يصورُ على امتداد صفين أمون - رع يتبعه ريشيپ أمام مائدة قرايين، وفى الصف نفسه يظهر حورون فى هيئة آدمية وبرأس

(*) فى العراق الحالى. (المترجم)

(**) فى سوريا الحالية. (المترجم)

سقر يعلوه **الپشت**، بينما يتعبدُ صاحب اللوح إلى هذه الآلهة^(١٧). وعلى لوح حجرى آخر يعود إلى عصر **الرعامسة** جادت به **الدلتا** أيضاً، صُوِّرَ في الجزء المقوس من أعلى اللوح **ريشيب** إلى جانب **حورس** أو **حورون** وبجوارهما **پتاح**. وبالنظر إلى غياب أى نص توضيحي، وما ترتب عليه فى حقيقة الأمر من استحالة التمييز بين **حورس** و**حورون** من مجرد هيتهم الخارجية، خير شاهد على هذه التلغيفية الدينية البالغة. وتأسيساً على ذلك سوف نجد صعوبة فى التمييز بين صورة كل من **ست** أو **ريشيب** فى أحد التصاوير، إذا لم يذكر اسم الإله بوضوح فى سياق المدونة.

كما أن الآلهة الإفريقية قد شملها أيضاً هذا التجميع العظيم للمعتقدات. إن تبنى الإله **فيدون** يعود إلى ماضٍ موغل فى القدم^(١٨)، كما نجد أن بعض الآلهة الأخرى التى تتخذ هيئة الصقور وكانت تُعبد فى **إفريقيا** يُشار إليها مراراً وتكراراً فى عهد **الرعامسة**. ونذكر تحديداً الآلهة **حورس** الثلاثة، وأولهم فى **بوهن** العاصمة الإدارية لنانب ملك **مصر**، والثانى فى **ميعام** وهو الاسم القديم لمدينة **هنية** التى ظلت عاصمة **النوبة** لفترة من الزمن، والثالث فى **باك** من مدن **الجنوب** المهمة. وفى القسم المقوس فى أعلى لوح حجرى عثر عليه فى **كويان**، ويعود إلى العام الثالث من عهد **رمسيس** الثانى، يتعبد الملك لأبيه «**حورس** الذى فى **باك**» ويطلق فى اتجاهه **البخور**، ورداً عليه يوجه الإله الخطاب التالى، ليشكره:

إنى أضع من أجلك، البلدان الأجنبية تحت نعليك، وأمنحك الزمن الأبدى
بصفتك ملكاً^(١٩).

تلتزم هذه العبارات بأسلوب مصرى صرف، إلى حد كبير.

ويبدو أن **الرعامسة** قد أرادوا إقلمة ديانة عالمية، تنصهر فيها كافة العبادات انصهاراً متناسقاً، سعياً منهم إلى إيجاد مزيد من الترابط والتآلف بين أرجاء الإمبراطورية.



بل وربما سعوا، بدافع الكبرياء، أن ينضموا شخصياً إلى هذا المجمع الإلهي المركب من عناصر متنوعة. فأن يكون ملوك مصر موضع عبادة، لم يكن آنذاك أمراً جديداً. فقد كان سنوسرت الثالث يُعبد في النوبة وأمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع(*) في سيناء على وجه التحديد، كما كانت تماثيل الملوك تُعبد في كل مكان. ولكن يبدو أن هذه الظاهرة قد بلغت ذروتها في عهد رمسيس الثاني.

إن بعض أعمال التنقيب التي تمت في الخفاء قد قادت إلى الكشف عام ١٩٢٠ عن مجموعة من الألواح الحجرية جادت بها - على حد قول «المنقبين» من أبناء مصر - بلدة هريبط الواقعة في شرق الدلتا(**)، وأطلق عليها الإغريق فاربيتوس-Pharbal-thos. ومن سياق مدونات هذه الألواح نعرف أنها نُحتت من أجل جنود حامية أحد المواقع المحصنة، القائمة عند الحدود الشرقية لمصر السفلى، للحيلولة دون تسلل البدو السلايين. إن واهب كل لوح من هذه الألواح يتعبد للملك رمسيس الثاني ويقدم له القرابين، «فقد كان الملك موضع إجلال وتكبير من خلال مظاهره المختلفة التي تجسدها تماثيله العملاقة» [كما صُوِّرت على هذه الألواح] «لتكشف عن مختلف مقوماته وأوضاعه. وصُوِّر التماثيل العملاقة ذاتها، وكانت محل عبادة شعبية، عدها أربعة. وكل تماثيل منها صُوراً معاً وعلى حدة، ولهما المظهر نفسه، وأطلق على أحدهما اسم تنويج الملك وهو أوسر مامت رع، وعلى الآخر الاسم الشخصي للملك وهو رمسيس. كما أن تماثيل عملاقين يصوران الملك واقفاً وعلى رأسه تاج مصر العليا الأبيض». ويحمل الأول اسم أوسر مامت رع - مونتو - في القطرين، وقد أضيفت إليه مرة واحدة صفة «الإله العظيم المنصت إلى التضرعات»، وهي الصفة التي تُميّز العبادات الشعبية. ويحمل الثاني اسم «رمسيس - محبوب آمون - الإله». أما التمثالان العملاقان الآخران فيصوران الملك جالساً على العرش، واضعاً اليدين على رأسه. ويدعى أحدهما «أوسر مامت - ستب إن رع - محبوب آمون»، والآخر «رمسيس - محبوب آمون - شمس الأمراء».

(*) (وجميعهم من ملوك الدولة الوسطى. (المترجم)

(**) شمال الزقازيق. (المترجم)

«وإذا استندنا إلى كثرة تكرار صورة كل تمثال من هذه التماثيل العملاقة على الألواح الحجرية، نجد أن أوسرمامت رع - ستپ إن رع - مونتو - فى القطرين» كان إلى حد بعيد، الأكثر شعبية، فقد وُردت صورته على أكثر من أربعين لوحًا حجريًا^(٢٠)...». وعدد كل ما تم الكشف عنه من ألواح يصل إلى خمسة وستين.

والمقصود به هنا بكل وضوح، تماثيل عملاقة كانت محل عبادة. وعلى لوح موسيه^(*) الحجرى، صُوِّرَ رمسيس الثانى فى الصف الأدنى وهو يُوزَّع الهدايا على فرقه العسكرية، فى حضرة تمثاله الذى صُوِّرَ فى حجم أكبر من الملك ذاته مرتين، لأنه صورة إلهية. وعلى لوح آخر من هذه الألواح الحجرية ينعت التمثال الملكى «بالتمثال العظيم» وهى الصفة التى تستخدم على سبيل المثال للدلالة على تماثلى أمحتوتپ الثالث العملاقين، المعروفين اصطلاحاً بتمثالى «ممنون»^(**) Memnon، القائمين فى سهل البر الغربى لمدينة طيبة.

ومن المحتمل أن هذه التماثيل العملاقة كانت قائمة أصلاً أمام صرح معبد من المعابد وفقاً للعرف السائد، وربما فى مدينة پر - رمسيس؟

ولا يخامرنا أدنى شك أن هذه الشعائر كانت جزءاً من عبادة شعبية؛ الأمر الذى قد يبرهن أيضاً على ارتباطها بعبادة رسمية، بالنظر إلى أننا نشاهد رمسيس ذاته مصوراً على أحد هذه الألواح، وهو يقدم القرابين إلى تمثاله هو شخصياً. وبالمثل فإن الصف العلوى للألواح الحجرية التى عُثِرَ عليها فى وادى السبوع بالنوبة، يتحلى بمشاهد تُصوِّرُ رمسيس مزداناً بمختلف الألقاب والشارات، وفى رفقة عدد من الآلهة، وهو يتعبد شخصياً لذاته^(٢١).

(*) (أى: لقد وُكِّد!) (المؤلفة)

(**) لمزيد من التفاصيل راجع:

♦ كلير لالويت: طيبة، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥،

ص ٥٦١-٥٦٢. (المترجم)

♦ أنيس كابرول: أمحتوتپ الثالث، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة،

٢٠٠٢، ص ٥١٦. (المترجم)

فأن يكون العامل الملكي قد اهتم شخصيا بإعداد هذه التماثيل العملاقة هو ما يبرهن عليه نص لوح حجرى عثر عليه عام ١٩٠٧، فى منشية الصدر، قرب ضاحية مصر الجديدة

فى اليوم الثامن من الشهر الثانى من فصل خروج النبت (من الأرض) (١٠) ger-mination، من العام الثامن، من عهد

ملك مصر العليا ومصر السفلى أوسر ماعت - ستب إن رع،

ابن رع: رمسيس - محبوب - آمون.

فى ذلك اليوم، كان صاحب الجلالة موجوداً فى هليوبوليس، ليقوم المدايح الشعائرية من أجل أبيه الهليوبوليتانى

رع - حور أختى - أتوم، رب القطرين.

كان صاحب الجلالة يتنزه فى صحراء هليوبوليس، إلى الجنوب من معبد رع وإلى الشمال من معبد التاسوع، وتحديداً أمام معبد حتحور سيدة الجبل الأحمر (٢٢). وفجأة، لمح صاحب الجلالة حجراً رملياً ضخماً أحادى الكتلة (٢٣). لم يكن أحد قد شاهد مثله منذ زمن رع. كان ارتفاعه يتجاوز ارتفاع مسلة من حجر الجرانيت. لقد اكتشفه صاحب الجلالة شخصياً، بفضل توفّجه المائل لتوهج الأفق. وسلمه صاحب الجلالة لخيرة الحرفيين من أعظمهم برايةً ومهارةً، فى اليوم الحادى والعشرين من الشهر الثالث من فصل الجفاف (٢٤)، من العام الثامن. وفى اليوم الثامن عشر من

(*) وهى الترجمة للفظ *per* المصرى، والتى يأخذ بها البعض. د. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤، ص ١٠٥. ويرى البعض الآخر ترجمة هذا اللفظ بعبارة: انحسار المياه ويزول الحقل. Vercouter, l'Egypte. I. PUF. 1992. p.72. (المترجم)

(**) أو التحاريق، كما يطلق عليه د. عبد العزيز صالح، فى المرجع السابق، وهو فصل شمسى بالمصرية القديمة. (المترجم)

الشهر الثالث من فصل الجفاف، من العام التاسع - أى بعد مرور عام كامل، انتهى العمل من التمثال الكبير الذى يصور رمسيس - محبوب - آمون - الإله.

نتعرف فى هذا النص، على اسم أحد التماثيل العملاقة، كما ورد فى ألواح هريبط الحجرية.

عندئذ كافأ صاحب الجلالة المشرف العام على الأشغال، فقدّم له كميات كبيرة من الفضة والذهب، وأغدق بالعطايا الملكية على الحرفيين البواسل الذين عملوا على صنع التمثال، فأمنّ لهم صاحب الجلالة حمايته على مدار الأيام، فقد كانوا يعملون من أجله بقلب وودود^(٢٤).

فمن غير المستبعد إذن أن يكون رمسيس الثانى بصفته إمبراطوراً فى إفريقيا وأسيا قد سعى إلى تعظيم عبادته شخصياً. هكذا، فقد أصبح الرباط الطبيعى والمقدس الذى يوحد بين أراضى الإمبراطورية هو الإله الحى على الأرض. وإذا كان وجوده يضيف الشرعية على فتوحاته، فإنه يجعل من هذا الاتحاد واقعاً عادلاً ورأسخاً ونهائياً. ومن المحتمل أيضاً أن رمسيس الثانى، وقد أدرك كل الإدراك مدى عظمتة وسلطانه واتساع شعبيته وقوة بأسه، قد رأى من المناسب والطبيعى أن ينضم هو شخصياً إلى مَجْمَع الآلهة الرحب الذى سعى إلى التآلف بين آلهته، ليصبح من الآن نقطة التقائها ومحورها الأساسى.

كما أن يوليوس قيصر^(*)، سيصبح هو أيضاً إلهاً، فى وقت لاحق.

وفى عهد رمسيس الثانى وصلت الإمبراطورية المصرية إلى أعلى مدارج الهيبة والإجلال.

(*) فى القرن الأول قبل الميلاد. (المترجم)

ثانياً، السلام المصري

الثراء والازدهار

وتدفقت القبائل من كل حذب وصوب. ومع استتباب السلم والسلام عاد النشاط الاقتصادي إلى سابق عهده وعمّ الازدهار من جديد. وبعد أن ألقى الملوك سلاحهم، كرّسوا حياتهم لاستثمار ممتلكاتهم.

وتشيد النصوص بعظمة الرعامسة الذين يُشيِّعون الخير واليمن، فيُقال عن سيتي الأول: «فى زمنه، لم يتصور أحد جوعاً»^(٢٥)، وعن رمسيس الثاني: «إنه الإله الكامل، إنه «كا» مصر، فيوفر للبلاذ قاطبة ما تحتاجه من مأكّل وطعام»^(٢٦) وهو «من يجعل طيبة تفيض بكل ما هو خير وطيب، من طعام وغذاء»^(٢٧).

إن رمسيس الثاني هو، الملك العظيم، ملك الوفرة والبجوحة؛ فبفضله يعم الخير واليمن، كما يؤازره الإله پتاح مؤازرة بلا حدود، فيوجه إليه الحديث فى الخطاب الذى سبق ذكره^(٢٨)، بالعبارات الآتية:

إنى أعطيك ثياباً^(*) عظيماً، والأرضين لك، إن تفيضان بالخيرات والطعام الوفير، كما أن المأكّل، فى كل مكان، وحيثما تسير. إنى أعطيك الحبوب على الدوام، غذاءً للشياطين، فى كل فصل من فصول السنة. والقمح فى وفرة رمال الشيطان، والشؤون تلامس السماء وأكوام البنور أشبه بالجبال. ويفرح الناس عند رؤيتك ويشبعون، فالأطعمة والأسماك والطيور تحت قدميك. إن مصر العليا ومصر السفلى تاكلن من الأطعمة التى تخصك. لقد وهبت السماء، فضلاً عما تحتويه. وجيء (بالإله) جب^{(**)(٢٩)}، بالإضافة إلى ما بداخله. والمياه الرطبة تاتى إليك، محملة بطيورها. وحورسى خايت^{(**)(٣٠)} يجلب الأشياء المغذية لكاهن رع الأربعة عشر، وقد وضعها

(*) نهر النيل. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

تحويت على كل درويك. وإذا فتحت فمك فإنك تُثري من تريد، لأنك خنوم الحى ومُلك
قوى، وقادر مثل مُلك رع عندما كان يحكم القطريين، يا ملك مصر العليا ومصر
السفلى، يا أوسر ماعت رع - ستپ إن رع، وابن رع: رمسيس - محبوب - آمون.

إنى أجعل الجبال، تُشكّل من أجلك معالم جميلة، عظيمة ومهيبة. إنى أجعل
البلدان الأجنبية، تُبدع من أجلك مختلف أنواع الأحجار الكريمة القيمة، لتوضع
بصورة موفقة فى المعالم المشيدة باسمك. إنى أجعل كل الأعمال (التي تم إنجازها)
ذات تأثير مواتٍ من أجلك، وأن يعمل من أجلك كل الحرفيين، وكل من يسير على
قدمين أو على أربعة أقدام، وكل ما يطير وينطلق. إنى أضع فى قلب كل بلد من
البلدان (الرغبة) فى أن يقدم لك قرباناً، وأن يعمل الأمراء، من أجلك، كباراً كانوا أم
قليلى الشأن، فلا يسعون إلا بقلب واحد، لإرضائك، يا ملك مصر العليا ومصر
السفلى، يا أوسر ماعت رع - ستپ إن رع، أيا ابن رع، يا رمسيس - محبوب -
آمون^(٢١).

إن هذا النشيد الإمبراطورى الحق، لزمن السلم، لا يشيد بازدهار أسطورى.
فقد تضافرت بالفعل كل الظروف آنذاك، لتضع مصر على رأس البلدان الأكثر ثراءً
فى العالم.

ضرائب جزية إذعان أم صداقة

أراد رمسيس الثانى أن تُسجّل، إلى أبد الآباد، مظاهر الشكر والحمد التي
تقام إكراماً لرفعة عظمته. ففى فناء معبد الأقصر أمر بنقش موكب طويل يكون من
إحدى وثلاثين شخصية^(٢٢). ويتقدم هذا الموكب كيان إلهى خنثوى، بوصفه أحد
أشكال نهر النيل، الذى أضفى عليه طابع مقدس، وهو يقدم خيرات النهر فوق صينية.
وقد أطلقت عليه المسارد الخيالية اسم نوى أى «الذى يأتى ويجلب... بكميات كبيرة». و
نوى بوصفه كيان إلهى هو إما المياه المخصبة أو شكل من أشكال المحيط الأولى
الذى انبثقت منه الحياة فى أول أيام الخليقة، وهو على كل حال قوة من قوى الطبيعة،

تجود بالغذاء والخيرات. إن تحوت «سيد الكلمات الإلهية، وكاتب التاسوع» يلقى خطاباً، يصعب للأسف قراءته، من كثرة ما أصاب النص من تشوهات. أما الأشكال الثلاثون التي تسير في أعقاب نوى، فتشخص «مناطق المناجم» في العالم، وجميع «الجبال والتلال»، وما تحتويه من كنوز. ويوجه كل واحد منها كلامه إلى الملك العظيم قائلاً: «إني أتى وأجلب لك...»، فالإسهامات كثيرة وجليلة الفائدة. إن العديد من هذه المناطق الجالبة للخيرات قائمة في الجنوب، في النوبة وكوش حتى الجندل الرابع، أو في الصحراء الشرقية. ولكن من مصر ذاتها، يوجد «تل إلفو» بالذهب و«تل كوپيتوس» بالكحل والذهب والأحجار الكريمة بالملئات وعشرات الآلاف». وتقع إلفو وكوپيتوس، عند منافذ دروب عظيمة الأهمية، تقطعها القوافل القادمة من الجزيرة العربية ومن البحر الأحمر. ومن بونت تأتي «الأحجار الكريمة مكدسة تكديساً» بالإضافة إلى رأتنج البطم. وتوجد الواحات الخارجية والداخلية، في الصحراء الغربية، «بمختلف أنواع الأحجار الكريمة مكدسة تكديساً». ومن سيناء يأتى الفيروز. ومن كل حذب وصوب تتجه جميع الطرق إلى الأقصر.

كما أن بعض الإسهامات الأخرى تُقدّم عربون صداقة... أو تعبيراً عن احتراز ينم عن الخوف. ومن قبرص يأتى «معدنا الفضة والنحاس بملئات الملايين وعشرات الآلاف». ومن سنجار - ويحتمل أنه جبل سنجار، شمال بلاد الرافدين - تأتي «الفضة والأحجار الكريمة» ومن كريت «جميع أنواع الأحجار الكريمة بأكوام كبيرة». والكلمات الدالة على إسهامات جزر القوقلاذس les Cyclades ونهارينا وفينيقيا، غير مقروءة. وفي نهاية المطاف، وفي مؤخرة هذا الموكب الطويل، تأتي «مستنقعات» الأرض، ومن الواضح أن منطقة نهر الفرات هي المقصودة، فتقدم «مختلف أنواع الأحجار الكريمة الحقيقية، المعبأة في عدد كبير من الأكياس».

وحتى إذا كانت الكميات المذكورة مبالغاً فيها، يظل واقع الحال يؤكد أن مناطق إفريقيا وآسيا في مجملها، وقسماً من المناطق التي ستُعرف في زمن لاحق تحت اسم أوروبا، تساهم لمختلف الأسباب في ثروة مصر في العصر الإمبراطورى.

مكذا، فتحت مصر أبوابها على مصاريعها للتجارة.

فبعد أن استعادت سيطرتها على موانئ فينيقيا احتلت مكان الصدارة في حركة تجارة البحر المتوسط، إلى جانب التحكم في النشاط الاقتصادي للطريق الممتد من البحر المتوسط إلى إمبراطورية بابل.

حتى الآن لم تكن مصر تمتلك سوى موانئ نهريّة، ولا سيما منف. وفي ذلك الزمن فإن ميناءً بحرياً جديداً، سيصبح محطة تتوقف عندها السفن الشراعية التي تمرّ مياه البحر المتوسط، فكانت **فاروس pharos** في غرب الدلتا، الميناء المختار لرسو السفن المتاجرة مع مصر. فالسفن القادمة من جزر البحر الإيوني وبحر إيجه تدفعها الرياح الموسمية التي تهب من الشمال طوال فصل الصيف. كما كانت **فاروس** ميناءً تتوقف عنده السفن القادمة من موانئ فينيقيا والمبحرة من صور أو صيدا أو المتجهة إلى موانئ إفريقيا ومنطقة برقة ثم مدينة قرطاجنة. كما كانت نقطة مراقبة فريدة في بابها، فتسمح، في آن واحد، برصد كل التحركات في أعالي البحر المتوسط وساحل الدلتا وتخوم ليبيا.

لقد عُثر في الشمال الغربي من جزيرة **فاروس(*)** وإلى الجنوب منها، على بقايا منشآت بحرية ضخمة، غارقة في مياه البحر، ويعود أقدمها إلى عصر تحوتمس الثالث الذي يعتبر أول ملك مصري يدرك برؤيته الثاقبة أبعاد الإمبراطورية، ولكن معظم هذه البقايا تعود إلى عهد رمسيس الثاني. ففي عام ١٩١٦ وبطلب من **خديوي**** مصر، أرسلت فرنسا ضفادع بشرية مع المهندس **جوندت Jondet** للقيام

(*) فوق أرض هذه الجزيرة تقع حالياً قلعة قايتباي في الإسكندرية. (المترجم)

(**) مع ملاحظة أن لقب **خديوي** قد منحه السلطان العثماني لحكام أسرة محمد علي بداية من ١٨٦٧... وفي الوقت الذي فرضت فيه بريطانيا الحماية على مصر عام ١٩١٤، استبدل الإنجليز بلقب **خديوي** لقب سلطان... ثم تغير عام ١٩٢٢ إلى ملك. جوان فوتشر كنج معجم تاريخ مصر، ترجمة عنان على الشهاوي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ص ٣٩١. (المترجم)

بأعمال التنقيب فى أعماق البحر. ومن ثم تم الكشف عن رصيف طوله ٧٠٠ متر، يمتد داخل البحر، ويحميه حاجز لصد الأمواج، يبلغ طوله كيلومترين، وينتهى عند حوض لرسو السفن عند أرصفة عرضها أربعة عشر متراً، وتقع على امتداد أحواض مساحتها ستين هكتاراً^(*)(٣٣).

ولن يفعل الإسكندر الأكبر سوى استعادة الموقع الذى سبق أن استخدمه الرعامسة، قبل حوالى ألف سنة.

كما يذهب البعض أحياناً إلى أن علاقات مصر البحرية، إبان حكم سيسى الأول، قد توسعت لتصل إلى البحر الأسود، إذ عثر فى هذه المنطقة على تمثال صغير للإله أمون يعود تاريخه إلى عهد هذا الملك^(٣٤). ولكن من المحتمل جداً أنه وصل إلى هناك فى رفقة قافلة من قوافل التجار. فالتبادل التجارى على أساس المقايضة كان على قدر كبير من النشاط، وكان عدد لا حصر له من القوافل ينقل مختلف الخيرات، من أبعد المناطق وأقصاها.

كما ازدهرت التجارة النهرية إلى حد كبير، فكانت السفن الفينيقية والأكثانية^(**)، تشق مياه نهر النيل، متجهة جنوباً، وصولاً إلى مدينة طيبة، حيث ارتبط التجار الأكثانيون بأواصر الصداقة مع عائلات مصرية، وإن كانت هذه الروابط قد بدأت فى ظروف بعيدة عن صورة الرقة والوداعة والروعة الشائعة^(٣٥). ومن المحتمل، أن سفناً قادمة من بحر إيجه قد صعدت النهر حتى السودان، أسوة بما فعلته الآلهة الإغريقية التى كان يحلو لها أن تعرّج على الإثيوبيين - أى أصحاب الوجوه السوداء^(٣٦). إن تجاراً من بحر إيجه، من أمثال هذا التاجر الذى عثر على منزله فى تل العمارنة، قد اتخذوا من مصر مستقراً لهم، ليحققوا النجاح والثراء من تجارة المصوغات والأدهان والعلطور والسلع الترفية^(٣٧). وتحول النيل إلى طريق عبور عظيم.

(*) الهكتار الواحد يعادل ١٠٠٠٠ متر مربع أو فدانين وثلاث أرباع الفدان تقريباً. (المترجم)

(**) الأكثانيون هم أقدم الشعوب الإغريقية. (المترجم)

الأهمية، فأصبح ممراً لنقل السلع من **الهيليस्पونتوس** ^(١٠) Hellespont إلى قلب **إفريقيا**. ومع البضائع تنتشر الأفكار والقصص والمسارد الخيالية، هكذا تَبَوَّدَت الأفكار وامتزجت، لتخلق تصنيفاً أسطورياً رحباً، نهلت منه الحضارات المتعاقبة مختلف أساطيرها. إن البحارة وقادة القوافل وأفرادها، كانوا في العصور القديمة بمثابة الباعة الجائلين للأفكار.

لقد شددت خيرات البلاد وثراؤها الرحالة فتوقفوا عندها. وبعد أن استولى **مينلاس** ^(١١) Ménélas على **طروادة**، وصل إلى شاطئ **مصر**، ليبقى بها بعض الوقت «لئلا خزائنه ذهباً وموئناً، وهو يلتقى بهؤلاء الرجال الذين يتكلمون لغة غير لغته، مبحراً على مقربة من سواحلهم» ^(١٢). وربما حصل آنذاك من أحد الأثرياء المصريين على عشرة **تالانات** ^(١٣) ذهب وحوضي حمام من الفضة وركيزة ثلاثية القوائم من معدن الذهب ^(١٤). ويروى **أوليسيوس** ^(١٥) Ulysse أنه قضى سبع سنوات في **مصر**، حيث جمع ثروة طائلة، ليرحل بعد ذلك متجهاً إلى **فيثيقيا** ومعه شحنة كبيرة من البضائع يريد تصريفها ^(١٦). لقد ألقى أبطال الماضي السلاح، ليدخلوا مجال التجارة بحثاً عن الثروة.

كانت **مصر** أعظم أمة تجارية، في ذلك الزمن، ففي مناخ يسوده السلام والازدهار يكتسب المرء «قلباً شديد النعومة».

(*) الاسم الذي أطلقه القدماء على مضيق **الدردنيل** Dardanelles. (المترجم)

(**) ملك أسطوري على مدينة **أسبرطة** ومؤسسها. ورد ذكره في ملحمة **الإلياذة** التي وضعها

هوميروس. (المترجم)

(***) **التالان** وحدة وزن يونانية تعادل ٢٦ كيلو جراماً. كما أنها قطعة نقد. (المترجم)

(****) من أبطال ملحمة **الأوليسيا** التي وضعها **هوميروس**. (المترجم)

مناجم الذهب

الأمر اللافت للانتباه آنذاك إلى أبعد حد، أن تداول الذهب الذي كانت مصر مركزه، قد ساد وانتشر على نطاق واسع. وبذل سیتی الأول ورمسيس الثانی قصارى جهدهما لاستغلال مناطق الذهب فى الصحراء النوبية والشرقية. كانت الصعوبة الكامنة فى أن الدروب المؤدية إلى هذه المناطق تفتقر تماماً إلى نقاط لتزويد المسافرين بالماء، وترتب على ذلك أن معظم قوافل «عاسلى الذهب»، كان يستحيل عليها الوصول إليها، بالنظر إلى أن أفرادها يموتون عطشاً وهم فى الطريق.

وذهب سیتی الأول فى العام التاسع من حكمه، إلى الصحراء النوبية قرب وادى مياه، الواقع على مسافة ستين كيلومتراً شرق مدينة الرئيسية الحالية، وعلى بعد مئة كيلومتر تقريباً جنوب درب وادى حمامات القديم، عند خط عرض شمال إفريقيا.

فى ذلك اليوم كان صاحب الجلالة يقوم بجولة تفقدية فى الصحراء، على مقربة من الجبال [فى أطراف جرف الصحراء الشرقية]، عندما اشتاق قلبه أن يرى المناجم التى يُستخرج منها الذهب الخالص. وبعد أن صعد وتعرف على المجارى النابضة لعدد كبير من الأنهر، توقّف وهو فى الطريق ليتشاور مع قلبه. وقال صاحب الجلالة: «كم هو شاق السير فى هذا الطريق بدون ماء! فكيف يستطيع المسافرون أن يظلوا على قيد الحياة؟ سوف يهلكون حتماً، وقد جفّ خلقهم... إن الإنسان الظمآن تصعد منه الأنثاء لذاته هو وحده فى هذا البلد المشنوم. فلأسرع إذن! سوف أستفسر بدايةً عن احتياجاتهم، ثم أشق من أجلهم نقطة ماء حتى تعود إليهم الحياة... وستأتى الأجيال لتمتدحنى، ليس فقط بسبب قوتى بطبيعة الحال، ولكن أيضاً بسبب رقة مشاعرى واهتمامى بمصير رواد الدروب».

وبعد أن تفوّه صاحب الجلالة فى قلبه بهذه الكلمات، ظل يجوب الصحراء بحثاً عن موقع يقيم فيه بثراً. انظروا إذن، إن الله مرشده، كى يساعده على الوصول إلى

مُرادَه. عندئذ صدرت الأوامر إلى العمال قاطعى الأحجار بأن يحفروا فى صخر الجبل بئرًا، سوف تعيد الحيوية والنشاط إلى المسافرين المتعب فترطب قلبه المضطرم. وبعد الانتهاء من بناء المنشأة أطلق عليها هذا الاسم العظيم: «فلتكن عدالة رع ثابتة» وفاضت فيها الماء، فكانت مياه غزيرة مثل مياه كهفى إلفنتين. عندئذ قال صاحب الجلالة: «انظروا، لقد استجاب الإله لأدعيتى، فمن أجلى نقل الماء إلى الجبال»^(٤١).

وبعد ذلك، «وعملًا بالمقصد الآتى إلى قلبه، كما أمر به الله»، أسس سبتي مدينة لاستقبال الباحثين عن الذهب....

... بأن حفر فى الجبل معبدًا ليقيم فيه آمون و رع. كما أن پتاح سيسنقر فى قصره وحورس وإيزيس والملك سبتي والتاسوع الإلهى، سيتخذون من هذا المعبد مسكنًا لهم.

وعند الانتهاء من تشييد هذا المعبد، جاء سبتي شخصيًا لافتتاحه، وألقى خطابًا بعد أن تعبد إلى «آبائه الآلهة جمعاء». ورداً على «الراعى الصالح وعلى أبى البشر أجمعين وأمهم»، يتحدث الباحثون عن الذهب، معلنين معاً فى صوت واحد كلمات الشكر:

ايا آمون، أعطه الأبدية، ضاعف من أجله الزمن اللانهائى. أيتها الآلهة التى تقيم فى هذه البئر، امنحيه مدة حياتك، مثلما فتح من أجلنا الطريق الذى فى وسعنا أن نسير عليه الآن، فى حين كان مطلقاً فى السابق^(٤٢).

ولكن الذهب من الأشياء شديدة الإغراء. ولتجنب أعمال السرقة وضع سبتي المناجم فى حماية الآلهة التى ستتولى من جانبها إدانة اللص والحكم عليه. ويتحدث إلى العمال بأسلوب نصف جاد نصف مازح، قائلاً:

الذهب هو لحم الآلهة. إنه لا يخصكم. إياكم إذن أن تقولوا ما قاله رع عند بدء الكلام: إن بشرتى من ذهب إبريز وخالص! أما آمون رب معبدى، فإن عينيه على ممتلكاته. إنهما لا يريدان أن يسلبا ما فى حوزتهما^(٤٣).

أما كل من قد يدير وجهه عما أمر به أوزيريس، فسوف يلاحقه أوزيريس، وسوف تلاحق إيزيس زوجته وسوف يلاحق حورس أولاده... وسوف ينفذون حكمهم، كلٌ فيما يخصه^(٤٤).

كان التحريم قاسياً وصارماً. إن سرقة الآلهة من رابع المستحيلات. وانتقل ذهب الصحراء قرب الرئيسية ليزيد الخزانة المصرية ثراءً.



ركز رمسيس الثانى اهتمامه على مناجم الذهب فى وادى هكيتا، فى منطقة وادى العلاقى، وكان المصريون يستخرجون منه هذا المعدن النفيس منذ عصور موغلة فى القدم؛ الأمر الذى لم يكن على الدوام محل ترحيب أبناء هذه المنطقة. ومن ثم فقد شيد المصريون قلعة كويان، عند مدخل الدرب جهة نهر النيل وبداية وادى العلاقى. كان الهدف من هذه القلعة حماية هذه المنطقة المنتجة للذهب، وفى الوقت نفسه تخزين هذا المعدن النفيس. ولكن حدث بعد ذلك، بالنظر إلى ما كان يحيط هذه الرحلة من صعوبات ومشقة كالنقص فى التزود بالماء، أن تباطأ إلى حد كبير، نشاط هذا الموقع.

إن قصة رمسيس الثانى مع مناجم الذهب يرويها لوح حجرى عثر عليه بريس دافين Prisse d'Avennes (*) عام ١٨٤٢، فى خرائب قلعة كويان. وقد اقتناه لويس دى سان فيريول Louis de Saint-Ferriol ونقله من مصر إلى قصره فى أورياچ لى بان Uriages-les-Bains فى فرنسا، لينتهى به المطاف بعد ذلك فى متحف مدينة جرينوبل Grenoble الفرنسية. وتدرج الأحداث فى العام الثالث من عهد رمسيس، فى اليوم الرابع من الشهر الأول من فصل الإنبات:

كان صاحب الجلالة فى منف يقيم المذائح الشعائرية من أجل آبائه، آلهة مصر العليا ومصر السفلى، التى كانت قد منحته النصر وزمن حياة مديدة لملايين السنين. وحدث ذات يوم، بينما كان صاحب الجلالة جالساً على عرش من الذهب الخالص ومكلاً بالتاج نى الريشتين العاليتين، أن تذكر الأراضى الصجراوية التى يأتى منها الذهب. عندئذ شرع يضع خططاً لحفر الآبار على امتداد الدروب المفتقرة إلى الماء، وبالفعل، كان قد سمع أحاديث مفادها أن أعداداً كبيرة من مناجم الذهب قائمة فى صحراء مكيتا، ولكن الدرب المؤدى إليها يفتقر كليةً إلى الماء. وإذا كان عدد محدود فقط من أفراد القوافل من غاسلى الذهب يصل إلى هناك، فلأن الآخرين يموتون عطشاً وهم فى الطريق، وفى الوقت نفسه، كانت الحمير التى تتقدم القافلة تنفق وسواء فى غدواتهم أم فى روحاتهم، لم يكن فى وسعهم أن يتزودوا بما يكفيهم من ماء فى قريبتهم. ولذلك، وبسبب نقص المياه، لم يعد أحد يجلب الذهب من هذه المنطقة.

وتشاور رمسيس مع الأمراء وكبراء البلاط الملكى. وتحدث نائب الملك فى كوش قائلاً:

(*) عالم مصريات فرنسى (١٨٠٧-١٨٧٩). (المترجم)

هذا البلد محروم من الماء منذ زمن الإله، ويفوت المرء فيه عطشاً. لقد أراد كل ملك أن يحفر بئراً دون أن ينجح أحد منهم. إن الملك من مامت رع^(*) قد حفر (بئراً) عمقها مئة وعشرون ذراعاً^(**)، ولكنها صارت مهمة على الطريق في الوقت الراهن، فلا يتدفق منها الماء. ولكن إذا وجهت كلامك أنت شخصياً، إلى الإله حعبي أبى الآلهة، قائلاً: «مر لتأتى المياه إلى هذا التل»، فسوف يتصرف طبقاً لما طلبته ووفقاً لمقاصدك التى ستتحقق فى وجوبنا، حتى فى غياب أى خطاب^(***)، لأن آباءك الآلهة تحبك أكثر من أى ملك آخر جاء إلى الوجود منذ رع.

أنصت رعمسيس واتخذ قراره على جناح السرعة، ووجه حديثه إلى الأمراء قائلاً:

ما أصوب كل كلماتكم. ومن المؤسف أنه لم ينجح أحد فى انبثاق الماء فى الصحراء منذ زمن الإله كما أخبرتمونى. فسوف أكون أنا من يحفر هناك بئراً سوف توفر الماء على مدار الأيام... وفقاً للأمر الذى سيصدره أبى آمون رع، رب عروش القطرين والخورس الثلاثة، أرباب النوبة، لأنها «تغسل القلب»^(****) عن طريق الأمور المرغوبة.

وعلى الفور، أرسلت حملة. وتبرم العمال المحليون بعض الشيء وتأففوا، متعللين بأن البحث عن الماء يقتضى الذهاب «إلى العالم الآخر». وأخيراً، وبفضل ابتهالات رعمسيس الثانى تحقق النجاح، وكتب نائب الملك فى كوش يحيط الملك علماً

(*) سيقى الأول. (المؤلفة)

(**) (الزراع الواحدة تعادل نصف متر تقريباً. (الترجم)

(***) صلاة صامته يرفعها رعمسيس. (المؤلفة)

(****) أى تدخل السرور. (المؤلفة)

بما يأتى: «[لقد انتهينا من حفر البئر]. إن ماءً بارتفاع اثنتى عشرة نراعاً، بتدفق منها، على عمق أربع أذرع^(٤٥)».

وسياتى ذهب صحراء كويان ليزيد أيضاً من ثراء خزائن مصر.

هكذا، فإن مصر بفضل إمبراطوريتها الشاسعة، وبفضل أيضاً الذكاء السياسى الذى تحلى به الرعامسة ورؤيتهم الثاقبة للمستقبل، تزخر بالخيرات وتفيض بها. وتشهد ملحمة الإلياذة على ذلك^(٤٦).

هذا الازدهار سوف يوفر لجموع المصريين الأيام الهادئة التى كان يتطلع إليها كل مصرى، فهى أعز أمانيه. وسوف يحيا البلاط فى پررهمسيس فى رغد من العيش ونعومته. إن معابد الآلهة، وعلى رأسها معبد آمون الإله كافل الانتصارات، سوف تحصل على أملاك ومقتنيات دنيوية طائلة. وأخيراً، سوف يسهر الرعامسة أيضاً على تحسين ظروف حياة جماهير الشعب، التزاماً منهم بالطريق الذى سيق أن رسمه حور إم حب.

بلاط الرعامسة وكبرى مدنها

الملكات،(*) الثلاث

كانت ثلاثاً فى الأساس: منف، العاصمة العتيقة للمملكة، وكانت تعبد پتاح منذ أقدم الأزمنة. ثم طيبة، عاصمة الإمبراطورية الاتحادية للتحامسة والمكان المقدس للإله العظيم آمون. وأخيراً، پررهمسيس، عاصمة الإمبراطورية العظيمة الموحدة، فى عصر الرعامسة، وصاحبة مَجْمَع الآلهة التى جاءت من مختلف الأوطان.

(*) المقصود بالملكة المدينة العاصمة. (المترجم)

إن منف وهى أقدم المدائن فى مصر، والتي أسسها نعرمر على ما يعتقد، ظلت محتفظة بالهبة التي تضيفها عليها أصولها الموعلة فى القدم؛ فقد كانت فى نظر المصريين مدينة العصر الذهبى، المدينة التي يفترض أن الملوك الإلهيين قد اتخذوا منها مقاماً لهم، كما يرقدون فى أهراماتهم المشيدة على مقربة منها. ولكنها كانت أيضاً مدينة حديثة، أقام فيها الرعامسة فى أغلب الأحيان، وعملوا على تطويرها. كان ميناؤها واسع النشاط، وترسانتها ومصانعها مزدهرة. كانت مدينة حضرية تكثر فيها المباني المترفة والمساكن الفاخرة، وتزخر بحدائقها الغناء وفيلاتها (*). إنها مدينة مقدسة يرتفع فى وسطها معبد **بتاح**، وإلى الغرب من هذا المعبد أمر **رعمسيس** الثانى وابنه **خع إم واست** ببناء قصر فخم للاحتفالات اليوبيلية.

أما **طيبة** العظيمة الثرية المهيبة، فهى عاصمة روحية ذات تآلق واسع الانتشار. **وطيبة** هى أيضاً المدينة التي حرر أمراؤها البلاد مرتين متتاليتين، من الغزوات التي اجتاحت التراب الوطنى وأعادوا النظام الملكى.

وعلى البر الشرقى تمتد المساحة المقدسة الشاسعة **للكرنك**، الذى سعى فراعنة مختلف العصور إلى الإكثار من الشواهد على ورعهم حيال **أمون**، وإلى الجنوب منه شيد كل من **أمنحوتب الثالث** و**رعمسيس الثانى**، على التوالي، معبد **الأقصر**. وفى **الأقصر** أيضاً أقيم القصر الملكى والمساكن الفخمة المحاطة بالحدائق. وعلى البر الغربى من النهر، نجد أن المنطقة المحصورة بين الأرض المنزرعة والجرف الصخرى **للصحراء الغربية** تشغل كبرى جبانات الملوك والملكات والأمراء الملكيين، وقد دفن جميعهم فى بطن الجبل ابتداءً من عصر **أمنحوتب الأول**. كما أقيمت فى هذه المنطقة

(*) لفظ محدث، بناء واسع تحوطه مساحة خضراء، د. أحمد مختار عمر، المكنز الكبير، دار النشر سطور، ٢٠٠٠، ص ٧٩٥. (المترجم)

«قصور ملايين السنين»، إنها المعابد الجنائزية التى تقام فيها يومياً الشعائر الخاصة بالملوك، وفى المكان نفسه وُزعت مقابر كبار رجال الدولة. فهنا يلتقى جميع أفراد البلاط الإمبراطورى، فى جمود أبدى لموت لم يكن سوى حالة ظاهرية.

كانت طيبة مدينة مصرية، ولكنها جامعة أيضاً لمختلف الأوطان. فبستقبل ميناؤها السفن القادمة من بلدان قسيّة، مثل كريت وجزر بحر إيجة واليونان.

كانت مدينة مفعمة بالحياة، سعى الرومان إلى تحويلها فى المقام الأول إلى مكان مقدس عظيم الشأن. إن ترنيمة تعود إلى عصر رمسيس الثانى، نخصها بالشكر والحمد، على النحو الآتى:

إنها ملكة المدائن، إنها الإلهية، عين اتوم وعين رع. إنها طيبة الأقوى من أى مدينة أخرى. لقد أعطت الملك لسيد واحد بفضل انتصاراته. وعندما تقبض على القوس وتمسك بالسهم فما من أحد فى وسعه أن يحارب بجوارها، بسبب عظمة مقدرتها. إن جميع المدن الأخرى تُعلى من شأن اسمها، إنها قيّمة عليها، وأقوى منها جميعاً...

وطيبة نموذج كل مدينة. كان الماء والأرض فيها عند بدء الأزمنة^(١٧). ثم حلت الرمال لتحيط بالحقول وخلقت التربة فوق التل الأولى، عندما جاءت الأرض إلى الوجود. وبعد ذلك وصل البشر ليتخذوا منها مستقراً، وأسسوا كل مدينة وفقاً لاسمها الحقيقى. هكذا، فسائر المدن الأخرى خاضعة لسلطة طيبة، عين رع^(١٨).

طيبة الشامخة المزهوة، يسعى كهنة إلهها الأقوياء إلى الإعلاء من شأنها.

ولكن المدينة التي أراد رمسيس الثانى أن تكون المركز الجغرافى والسياسى لإمبراطوريته الشاسعة، كانت **پرسرمسيس**. إنها مدينة بلا ماضى، كما تتجه بالكامل صوب المستقبل الإمبراطورى الجديد لمصر، كما تصوره ملوكها الصناديد.

إنها مدينة متنافرة وشديدة الثراء، تمتزج فيها الشعوب ومختلف الآلهة، وفيها يخالط أناس من كل اللغات ومن كل الأجناس بعضهم بعضاً. إنها مدينة القصور والمسكن الفخمة والحدائق والأعياد وأماكن الترفيه، ففى **پرسرمسيس** كان يقيم أفراد البلاط والعائلة المالكة وكبراء رجال الملك.

القصور والقبيلات والحدائق

عمل رمسيس الثانى جاهداً على تطوير قصر رمسيس الأول وسيبقى الأول الصيفى، وزاده ثراءً. كان فسيحاً ويضم عدداً كبيراً من الحجرات. ويمكن أن نلمّ بمجمل تخطيطه استناداً إلى تخطيط القصر الذى ألحقه رمسيس الثانى بمعبده الجنائزى بالبر الغربى لمدينة طيبة، والمعروف اصطلاحاً بالرامسيوم Ramesseum.

كان القسم الأوسط يضم بهو أساطين، تحمل أساطينه اسم رمسيس باللونين الأبيض والأزرق، اللذين يرمزان إلى الشمس والسماء، هكذا يمتزج العاهل الملكى بالوسط السماوى امتزاجاً كاملاً. وفى الجنوب هناك ممر عريض يفضى إلى قاعة العرش، كما أنها فى شكل بهو أساطين، ومخصصة أيضاً للاستقبالات. كانت جدران القاعتين المتعاقبتين باللون الأبيض، فى حين كانت الأرضية وهى من القراميد البراقة، تتألق برونق مختلف الألوان الأصفر والأسمر والأزرق والأحمر والأبيض. وإلى الجنوب من الحجرة الثانية كان العرش الملكى قائماً تحت مظلة، وهو من الذهب الخالص، وللوصول إليه يصعد المرء عدة درجات. وازدانت المظلة والدرجات بزخارف تصور رعاًيا أجانِب فى وضع الخضوع. وعلى الدرجة الأخيرة كان المشهد يصور الأسد الملكى وهو يلتهم أحد الأعداء. وعلى قاعدة العرش هناك زخرف باللون الأزرق يصور نباتات المستنقعات. وإلى شمال بهو الأساطين الأوسط يوجد سلم صغير

يفضى إلى «شرفة التجلى»، التى تسمح فى بعض المناسبات بظهور الملك فى مجده، ليُشاهده رجال البلاط وأفراد الشعب. وإلى الجنوب من قاعة العرش، يُشكّل عدد من الحجرات المتعاقبة الأجنحة الخاصة وأجنحة العائلة المالكة. وفى هذا القسم من القصر كانت الزخارف أكثر حميمية وأكثر دفئاً. فعلى الجدران ذات الألوان الزاهية، صورت الطيور وحيوانات نهر النيل وجماليات الحريم.

وإلى الشمال من القصر كان الحى الراقى يمتد بمساكنه الفخمة. كانت القيلات المحاطة بالحدائق بنايات على قدر كبير من الأهمية. وتتكون كل واحدة منها من قاعة استقبال ذات أساطين وحجرة معيشة، متجهة ناحية الشمال، بها أريكة وقاعدة مرتفعة لقدر الشرب وغسل الأيدي وموقد مركزى. وأخيراً، يصل المرء إلى الأجنحة الخاصة، من حجرات نوم وحمامات ببلاطة مستوية لأعمال التطهر، وقنوات تصريف ومراحيض فى مكان معزول، مزودة بمقاعد ثابتة أو متحركة. كانت الأرضيات تتكون فى الغالب من أجرٍ مسطح، مغطى بزخارف نباتية ذات ألوان زاهية. ومن خلال حجرة المعيشة، كان فى وسع المرء أن يصل إلى السطح الذى يتجه، بطبيعة الحال، ناحية الشمال الذى يهب منه النسيم العليل المرطب للجو. وأحياناً، وفى القيلات الأكبر حجماً، خُصص طابق علوى للأجنحة الخاصة. أما المطابخ ومساكن الخدم وحظائر الحيوانات فكانت تقع بعيداً عن المسكن بالمفهوم الحقيقى.

كانت الحدائق والتعريشات وأحواض الماء تحيط بالقيلا التى شُيد سور من حولها. وكانت النباتات المفرطة النمو متنوعة، لا سيما أن العاملين فى بساتين الملك نجحوا، منذ عهد تحوتمس الثالث، فى أقلمة بعض الأنواع السورية. إن حوضاً أو أكثر كانت تظله الأشجار بمختلف أنواعها كنخيل الدوم وأشجار الجميز والسنط البرى والخروب والرمان والتين والصفصاف. وفى هذه الأحواض كانت تطفو أزهار اللوتس الزرقاء والبيضاء ويسبح فيها البط الأزرق والأسماك المتعددة الألوان. كانت هذه الأحواض من المفاخر التى تعتز بها كل حديقة مصرية. كانت مياه النيل تغذيها بعناية فائقة، بفضل شبكة من القنوات التى كانت تغطى ريف مصر. وكانت هذه

الأحواض أيضاً رمزاً للحياة والخصوبة فى بلد تحيط به الصحارى، كما أن بساتين الخُضر وحدائق الترويح عن النفس، حيث تنمو زهور الأقحوان والمريو والجلبان العُطر واللفّاح والورود الخطمية البرية والديدحان، إلى جانب بساتين الكروم المعرّشة، كانت تشكل من حول هذه البيوت واحات من الطراوة والنضارة، بألوانها المتناسقة وجمالها المتناغم. ويُشيد الحكماء بدور الحديقة فى سعادة الإنسان. فيقول الكاتب أئى (*) فى تعاليمه:

أعدّ لنفسك حديقة محاطة بالرياض، إلى جانب أراضٍ تفلحها. وازرع هناك أشجاراً تكون ملائماً للأماكن المجاورة لدارك. واملأ نظراتك من جميع هذه الزهور بقدر ما تستطيع عينك تأملها، فما ينبغى أن يُحرم المرء من أىّ منها. إنه لأمر مفرح ألا نتركها (٤٩).

العائلة المالكة

لا يمكن القول إن النساء كنّ قليلات فى بلاط پر - وهمسيس. وسواء ارتبطن بعلاقة القرابة أو المصاهرة إذ كنّ يُشكلن من حول وهمسيس الثانى كوكبة من الشابات الجميلات، فقد جنن إلى هناك عن حب أو بدافع سياسى أو قرابة الدم التى أولاهما الفراغنة على الدوام اهتماماً كبيراً. كان وهمسيس، وهو فى زهرة شبابه قد تعرف على عالم ملذّات العشق والغرام، حيث إن والده سيّتى الأول كما سبق أن رأينا (٥٠) قد أنشأ من أجله جناحاً للحريم، بينما كان لا يزال فى العاشرة من عمره!

إن المرأة التى أحاطها وهمسيس بكل مظاهر الاحترام والإكرام، كانت أمه الملكة تويّا التى كانت لاتزال على قيد الحياة فى العام ٢١ من حكمه، فقد عُثر على

(*) من الأسرة الثامنة عشرة. (المترجم)

خطاب أرسلته تويّا إلى بلاط الحيثيين، يعود تاريخه إلى هذا العام تحديداً. ولا شك أنها توفيت فى العام ٢٢ من حكم رمسيس، بعد أن بلغت الستين من عمرها تريبياً. وكان الملك قد أعد لها مقبرة كبيرة وجميلة فى وادى الملوك أو بيبان الحرم كما يُطلق عليه البعض أحياناً. وقبل ذلك لم تكن قد دفنت فى الجبل الغربى لمدينة طيبة سوى سات رع، زوجة رمسيس الأول ووالدة سيقى الأول. إن تابوتاً من حجر الجرانيت الوردى كان يحتوى التابوتين النفيسين اللذين يضمّان الجسد المحنط لوالدة الملك العظيم.

كانت لرمسيس شقيقتان. الكبرى وهى تيا كانت «منشدة أمون»، وارتبطت بعبادة هذا الإله فى پر - رمسيس. وبعد زواجها، عيّّن الملك زوجها «مشرعاً عاماً على خزائن الرامسيوم وقطعانه». أما الشقيقة الصغرى وهى حنت مى فقد تزوجها رمسيس وجعلها «زوجة ملكية عظيمة».

١ - المراتس

وبالفعل، كانت المرة الأولى التى يتمتع فيها الفرعون بعدد من الزوجات الرسميات، يقال لهن «الزوجات الملكيات العظيمات». كن أربعاً بل وربما خمساً: نفرتارى، المحبوبة. وإيزيس-نوفرت، والدة مر إن پتاح، خليفة رمسيس. وأخته، حنت مى رع. وما أت حور نفرورع(*)، ابنة ملك الخاتى، ومن المحتمل أيضاً، أنه تزوج ابنته بنت - عنات التى أنجبها إيزيس - نوفرت. أكانت إباحية مشينة كما يُقال أحياناً؟ لا، لقد كان رمسيس إلهاً، وما كان يبدو سلوكاً طبيعياً فى نظر ملك إلهى لم

(*) أى: «تلك التى ترى هورس (أى الملك) تجسيدا (للإله) رع».

(المترجم) Ch. Leblanc. Nefertari. Ed. du Rocher, 1999. p.269.

يكن مسموحاً به في الحياة العائلية للبشر، فبالنسبة لهم كان ما يعرف اصطلاحاً(*)
بالأخلاق تحدده قواعد شديدة الصرامة.

أما جميلات الحريم والمحظيات، وكنٌ بأعداد كبيرة، فقد أُتيّن من مصر ومن
مختلف بلدان الإمبراطورية.

إن لغوتاري التي ظل رمسيس يكنُّ لها على الدوام عظيم المودة، وبقيت
الزوجة الرئيسية حتى وفاتها، كانت أيضاً ملكة منذ العام الأول من حكمه. لم تكن
تنسب إلى أصول ملكية، بل كانت «سيدة نبيلة» شريفة النسب، تعود أصولها على ما
يعتقد إلى طيبة. وتدعى في الغالب «محبوبة موت». هل كان هذا اللقب مرتبطاً بمدينة
طيبة حيث كانت موت زوجة أمون؟ أو كانت هذه الصفة مجرد مقابل مطلوب للقب
«محبوب أمون» الذي كان ينعت به زوجها؟ وبالفعل فمنذ العام الأول نجد أنها ترافق
رمسيس الثاني إلى طيبة لحضور مراسم تشييع جنازة سيتي الأول، كما حضرت
تنصيب نب وننف، كبير كهنة أمون. وفي العام الثالث تصورها نقوش الصرح الجديد
في معبد الأقصر، القائم أمام المبانى السابقة التي شيدها أمنحوتب الثالث، تصورها
ممشوقة القوام بجوار العاهل الملكى. كما أنها بجواره في التماثيل الجماعية المنحوتة
في حجر الجرانيت والقائمة في الفناء الأول من المعبد. وفي وادي الملكات شرع
رمسيس يجهز من أجلها أجمل مقابر هذا الموقع. إن الرسوم بالكوانها المرفعة، تُكثر
من الصور الرقيقة للملكة المحبوبة بقدها الفارع وتخلدها. إنها ترتدى ثياباً من الكتان
الرقيق الناعم الشفاف، ذات الثنايا الرائعة المتنوعة، وتزدان بحلى نفيسة، ما زالت
ألوانها الزاهية متموجة. إن الملكة التي تصاحبها الآلهة تُكثر من الشعائر التي

(*) من وجهة نظر الحضارة الغربية، ويمكن القول إن فراعنة مصر قد سبقوا بعشرات القرون
وطبقوا ما سيقوله فيما بعد الفيلسوف الألماني نيتشه Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠). لا توجد
ظواهر أخلاقية، ولكن توجد ظواهر تُؤلِّق تلويلاً أخلاقياً Par delà le Bien et Mal: الفقرة
١٠٨. (المترجم)

ستجعلها خالدة خلوداً أبدياً. كما كرس لها رهمسيس، هي والإلهة حتحور، المعبد الصغير الذى أمر بحفره فى صخر جبل أبو سمبل بالنوبة، بجوار المعبد الكبير المكرس لشخصه ولإله آمون - رع: «لقد صنع هذا المعبد - الحفور فى الجبل، إنه عمل يدوم إلى الأبد - من أجل الزوجة العظيمة نفرتارى، محبوبة موت، للزمن الأبدى واللانهاى، (من أجل) نفرتارى، فالشمس تتألق حباً فيها». هكذا أراد رهمسيس تخليد حبه لها.

من المحتمل، أنها توفيت فى العام ٢٤ من حكمه، وعلى كل حال، أثناء أعمال زخرفة المعبد الصغير فى أبو سمبل، أى فيما بين العامين ٢٤ و٣٤.

هل قامت بدور سياسى؟ لا نستبعد ذلك.

إن بعض الألقاب التى منحت لها تحملنا على تأكيد ذلك. إنها ألقاب الفرعون، ولكن فى صيغة «المؤنث»، فهى «سيدة القطرين» و«القائمة على مصر العليا ومصر السفلى» و«سيدة الأراضى قاطبة» و«تلك التى ترضى الآلهة». وتأسيساً على واقع أنها كانت فى أغلب الأوقات تصاحب العاهل الملكى فى الاحتفالات الرسمية، يؤكد على الدور المهم الذى كانت تقوم به.

ومن جانب آخر، فإن عدداً من المدونات - ولاسيما تلك التى نُحتت على جدران مقبرتها - تشرك الملكة مشاركة مباشرة فى الدورة الأبدية الشمسية والأوزيرية، من خلال محاكاة مصائر الملك، اعتماداً على عملية خلط مقصودة بكل تأكيد. هكذا، فعلى الجدارين الشمالى والغربى من الحجرة الخارجية لمقبرتها نقرأ النص الآتى:

كلمات قالها أوزيريس - ونن نفر^(١) - المتسيد على الغرب، رب الأرض

(*) صفة من صفات أوزيريس ومعناها «ذاك الذى يبقى كاملاً». إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتي، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ٢١٩. (المترجم)

المقلسة، الإله العظيم، ملك الأحياء، رب الأرض الصمت: «إني قادم نحو ابنتي المحبوبة، سيدة الأرضين، والزوجة الملكية العظيمة، نفرتارى - محبوبة - موت، ليتها تحيا! إني أمنحها أفضل مقر إقامة في بلد الصمت، بينما تتجلى في السماء على غرار أبيها رع، وتصل إلى مكانها داخل الأرض المقلسة. إن قلبها سعيد في مكان الحقيقة، بعد أن التحقت بالتاسوع العظيم^(٥١)».

أما النص المدون على شابوتى من الحجر الصابونى^(*) stéatite الأسود، ومن مقتنيات متحف القاهرة، حالياً، فإنه يقول بشكل أكثر إيجازاً:

إن أوزيريس يُنير الزوجة الملكية العظيمة التى يحبها، (ينير) نفرتارى - محبوبة - موت^(٥٢).

كما يدل هذا النص على التليفقية الدينية السائدة في هذا العصر؛ فالتألق المشع وهو من أهم أنشطة رع، يمكن أن يكون أيضاً من أنشطة أوزيريس.

وفضلاً عن ذلك، ففي سياق خطاب أنوبيس الذى صُوِّر في هيئة ابن أوى الأسود الجنائزى، راقداً فوق مقصورته، تظهر نفرتارى وهى تؤدي الأنشطة التقليدية للملك المتوفى وقد بعث حياً:

تعالى إلى. سوف أعطيك مكاناً في الأرض المقلسة. سوف تشرقين، ممجدة، في السماء مثل أبيك رع، بعد أن تحصلى على زينة الرأس^(**) وتلحق بك والدتك

(*) أو الإستياتيت لهذا الحجر ملمس زلق أو صابونى. (المترجم)

(**) التيجان. (المؤلفة)

إيزيس ومعها نفتيس. إنهما تشكلاّن جمالك مثل جمال أبيك رع. هكذا ستظهريّن متألقة في السماء، وفقاً لهيئته. سوف تُضاء الجبانة بأشعتك، في حين نجد أن **التاسوع الإلهي الكبير القائم في الأرض المقدسة** يخصص لها مكاناً. إن والدتك **نوت** سوف تجزل لك المديح كما فعلته من أجل **حور أختي**. إن أرواح به وأرواح نخن سوف تقيم من أجلك شعيرة التهليل والاعتباط، على غرار أبيك المتسيد على الغرب. كما سيؤمن **التاسوع الإلهي الكبير** حماية جسدك. تعالى إلى والدتك **إيزيس**، وسوف تستريحين على عرش **أوزيريس**، بينما تستقبلك آلهة الأرض المقدسة. إن قلبك سيعمل سعيداً أمام الأبدية، أيتها الزوجة الملكية العظيمة، يا سيدة **القطرين المتسيّدة** على البلدان كافة، **أيا نفرتاري - محبوبة - موت** (٥٢).

سوف تمتزج الجميلة بالشمس وتجلس على عرش **أوزيريس**، شأنها شأن **فرعون**. إن اندماج الملكة في رع طبقاً لمختلف المقومات فكرة ثابتة ففي المدونة النخوتة على غطاء تابوتها الحجري، وهو من مقتنيات متحف **تورينو** في إيطاليا، يُقال أيضاً (*) :

... إن رع ذاته يجعلني طاهرة، بينما تقف هناك والدتي **نوت** فرحة وأنا سائرة في طريق الأفقين (٥٣).

وهناك صور أخرى محورة ستتخذها **نفرتاري** بعد وفاتها، ففي وسعها أن تصبح «نجوماً لا تفنى» متألقة في السماء. ولكن يبدو أننا نتعامل هنا مع مصير عادي لا غرابة فيه، بالنظر إلى أنه المصير المطلوب من أجل **إيزيس - نوفرث**، فيقال:

(*) مع ملاحظة أن الملكة هي التي تتحدث. (المؤلفة)

ليتها تحيا بصفتها **سوتيس** (*). ليتها ترتفع فى اتجاه السماء وسط الأجرام!
ليتها تسهر أمام **خبرى**! نجماً أوحده متفرداً، بجوار فخذى **نوت** (٥٥).

هل كانت **نفرتارى** تتمتع بذكاء سياسى ثاقب؟ هل عرفت برجاجة رأيها فى شئون الإمبراطورية؟ أو أنها كان على الأرجح مجرد حوار غرامى غريب، وصل إلينا بعد آلاف السنين؟ إن التوازي الواضح بين الصفات وبعض الأفعال الرسمية والمصائر الأبدية، لكل من **رمسيس** وزوجته الأثيرة، يبدو أنه كان أمراً مرغوباً ومطلوباً، ربما. للوصول إلى أعلى درجات الخلود، لاقتراح يريد أن يكون اتحاداً شاملاً وكاملاً. كانت **نفرتارى** ملكة محبوبة إلى أقصى حد. فأراد زوجها الملكى أن يمنحها، وهى على قيد الحياة وبعد مماتها، كبرى الامتيازات التى كانت حتى الآن مقصورة على الملوك.

كان مقدراً للفرعون **رمسيس** أن يتزوج إحدى بناته التى أنجبها **نفرتارى**، وهى الأميرة **مريت - آمون**، أى: «محبوبة **أمون**». غير أن **رمسيس** قد تزوج فى الحقيقة ثلاثاً من بناته على الأقل، ورزق منهن أولاداً. فكان فى ذات الوقت أباهم وجدّهم. إن إلهاً فقط كان فى وسعه أن يسلك هذا المسلك!

عند وفاة **نفرتارى** أصبحت **إيزيس** - **نوفرت** الملكة الرئيسية إلى جانب **حت** **مى رع**، أخت الملك التى لم تقم على ما يبدو سوى بدور مغمور.

أما **بنت - حنات** فهى شخصية فريدة، تشدّ اهتمامنا شداً. كانت ابنة **إيزيس** - **نوفرت** و**رمسيس** الذى تزوجها. إن اسمها فى اللغة الكنعانية يعنى «**خادمة حنات**» - أو **عشترتوت**. إنه دليل آخر على أن الديانة المصرية كما تصورها **رمسيس**، كانت

(*) أو **سيريس**. (المؤلفة)

تنهل من جميع الأوطان. لقد احتلت في البلاط الملكي مكانة مرموقة، إذ يبدو أنها كانت «الزوجة الملكية العظيمة»، في آن واحد، إلى جانب والدتها. فعلى لوح صخرى عُثر عليه في أسوان، ويعود إلى العام ٢٤ أو العام ٢٠ من حكم رمسيس، صُوِّرت إيزيس - نوفرت ومعها بنت عنات، وهما تحملان هذا اللقب. وفي وقت لاحق، وبعد انقضاء عدة سنّوات، وعلى لوح صخرى أيضاً في محاجر جبل السلسلة، صُوِّرت «الملكات» إلى جانب رمسيس الثاني^(٥٦) إبان الاحتفال بثاني أعياد اليوبيل.

وحول العام ٢٤ من الحكم يبدو من الواضح أن إيزيس - نوفرت كانت قد توفيت، لتنتقل بدورها إلى «بيت الأبدية»، في وادي الملكات. عندئذ، سوف يؤول الدور الرئيسي إلى الابنتين - الزوجتين: مريت آمون وبنت عنات، وربما رأى رمسيس في هذا السلوك أسلوباً يظل به وفياً للعاطفة الودودة التي كانت تربطه بوالدتيهما!

ب - الحريم والمحظيات

إن جناحاً للحريم على قدر كبير من الأهمية، كان تابعاً أيضاً للملك، ويضم محظيات مصريات أو بنات أمراء أجنبي. وإذا كانت الزوجات الرسميات يقمن في پر - رمسيس، بالإضافة على ما يظن إلى بعض المحظيات البارزات أو المحظوظات، فإن جناحاً كبيراً للحريم كان قائماً في مي ور عند مدخل الفيوم. كان أشبه بمكان معزول ملائم ومريح وبعيد إلى حد ما عن العاصمة، وربما كان رمسيس يهدف بلا شك، إلى عدم الخلط بين شئون الدولة وحياته الغرامية. كما كانت ترسل إليه المحظيات اللواتي فقدن القدرة على الإبهار، بعد أن تقدّمت بهن السن على سبيل المثال، أو لأي سبب آخر. والأقرب إلى الصواب أنه وقع الاختيار على هذا الموقع، لأنه كان في وسع المرء أن يمارس في هذه الواحة الخصبة رياضاته المحببة كالقنص أو صيد الأسماك، وباختصار فإن جميع المتع والملاذات وُجدت مجتمعة في هذا المكان للترويح عن نفس عاهل ملكي قري. لقد كانت مي ور مكاناً يستريح فيه المحارب.

كان يدير جناح الحريم هذا «مشرف على /الحريم»، موفد من قبل فرعون، يراقبه هو شخصياً، كانت هذه المؤسسة الملكية الحقيقية تمتلك أراضي وقطعان ماشية وتحتاج إلى خدمات عدد كبير من الكتبة والموظفين والعمال.

والفتيات اللواتي تجمعن هناك لم يعشن حياة كسل بلا عمل، في انتظار زيارة سيدهن العامل الملكي. بل كن يزاولن الغزل والنسيج، ويشرفن أيضاً على الأعمال المنزلية. ومن الصعب تقدير أعدادهن، ولكن يعتقد أنها كانت كبيرة. فالإمبراطورية شاسعة والملوك والأمراء يتطلعون إلى نيل رضى الفرعون القوى، وكانت فتاة جميلة تعتبر هدية تقدّر حق التقدير. ولن يجد المرء صعوبة في تصور الجو الذي كان سائداً في مي ور: إنها جماعة مؤلفة من مختلف الأجناس، ثرثارة ومنهمكة في أعمالها، تتنازعها الدسائس والغيرة والحسد. ولكن لم تصلنا سوى شواهد محدودة على الحياة الخاصة في الحريم الملكي.

ج - لرية كثيرة العدد

رزق رمسيس بطبيعة الحال بعدد كبير من الأولاد(*)، وهنا، فإن عالم المصريين الذي يحاول النفاذ إلى أعماق هذا الماضي السحيق، يجد نفسه يتصدى لمهمة شاقة وعويصة. إن «سجلات» المواليد الوحيدة التي بين أيدينا تضم نقوش المعابد وألواح المقابر الحجرية ورسوماتها. إن قوائم الأمراء الملكيين الرئيسيين تحديداً قد نقشت في معابد مصر والنوبة، وتوفر لنا، على الأقل، ترتيب ولادتهم، ولكنها ليست كاملة مطلقاً. إن أسماء ثلاثين أميراً فقط مذكورة في معبد وادي السبع، وتسعة وعشرين في أبيدوس، وثلاثة وعشرين في الرامسيوم، وثمانية عشر في معبد الأقصر، وثمانية في أنوسمبل والدنر، وخمسة في تانيس. وانشغل علماء المصريين في العصر الحديث بهذه القضية، واستطاعوا رغم ما واجهوه من مصاعب، أن يضعوا قوائم

(*) يلاحظ أن هذا اللفظ يطلق على الذكر والأنثى. المعجم الوسيط والمعجم العربي الأساسي. (المترجم)

إجمالية لهذه الذرية كثيرة العدد، ودارت مناقشات بين العلماء، واتفقوا أخيراً على إعداد حصر رسمى بهؤلاء الأولاد، فكانوا خمسين ابناً وثلاثاً وخمسين بنتاً، ولا يشمل هذا العدد سوى الذين صوروا على المعالم الأثرية. أما بالنسبة للباقيين، فالأمر متروك لشهود الخيال.

لقد أنجبت نفرتارى للملك أربعة أبناء وبنتين. وصُور هؤلاء الأولاد الستة على الواجهة الخارجية لمعبد أبوسمبل الصغير، واقفين على جانبي المدخل، بين تماثيل الملك والملكة، وباختصار فإنها لوحة عائلية.

ويبدو أن أبناء نفرتارى قد وافتهم المنية جميعاً وهم في زهرة شبابهم. وفي حدود علمنا، على كل حال، فلا يبدو أن أيّاً منهم قد قام بدور يذكر، ربما إذا استثنينا الابن البكر المدعو أمون حرخيشف ومعناه «أمون على ساعده»، وكان يلقَّب:

ابن الملك البكر، المولود من صلبه، الابن الملكي الأول، المولود من صلبه.

وبالفعل فقد ورد اسمه على الدوام على رأس قوائم الأمراء. وإذا تغير اسمه، كما يمكن أن يُفترض، إلى ست حرخيشف ومعناه: «ست على ساعده»، فمن المؤكد أن استبدال اسم ست باسم أمون^(*) قد حدث أيضاً بكل تأكيد بالنسبة لاسم الابن السابع للملك رمسيس، نقصد الأمير ست إم ويا^(**)، ومن ثم يمكن القول إن هذا الأمير البكر كان لا يزال على قيد الحياة في العام ٢١ من سنوات الحكم. وبالفعل، فقد عُثر في بوهاز - كوى، على خطاب وجهه إلى ملك الحيثيين. وربما كان لا يزال على قيد الحياة في العام ٥٢ من حكم رمسيس. إن أوستراكون، من مقتنيات متحف

(*) مع تجنب الخطأ الشائع، فالباء تدخل على المتروك. راجع على سبيل المثال: الآية رقم ٦١ من

سورة البقرة، والمعجم الوسيط والمعجم العربي الأساسى. (المترجم)

(**) أى: «ست فى قاريه»^(١). (المترجم)

اللوثر، فى الوقت الراهن، يذكر الأمير ست حرخيشف، حاملاً لقب رپعت الذى كان يطلق، على ما يعتقد، على المشارك فى الحكم. فمن المحتمل أيضاً، أنه كان ينظر إليه باعتباره وريث العرش (؟). ولكن يبدو أنه لم يحتل مكانة بارزة فى الحياة السياسية، وإن لم يصلنا، على كل حال، أى دليل قاطع فى هذا الشأن.

وفى المقابل، فإن اثنين من أبناء **إيزيس** - **نوفرت** الثلاثة كان ينتظرهما مصير عظيم.

إن ابنها البكر، ويدعى **رمسيس**، لم يترك هو أيضاً دليلاً على وجوده. ولكن على واجهات مقصورة منحوتة فى الصخر فى **جبل السلسلة**، صور **رمسيس** الثانى و**إيزيس** - **نوفرت** وبجوارهما ابنهما الثانى **خع إم واست** و**بنت** - **مئات**، أمام إلهى منف: **پتاح** و**نفرتوم**. إن المدونة التى تعود على ما يعتقد إلى العام ٣٦ من عهد الملك تذكر الآتى:

أخوه (*) **البكر، الرپعت، الكاتب الملكى، القائد العام والابن البكر للملك رمسيس**.

ومعنى ذلك كما يقال أن **ست حرخيشف** كان قد توفى إذن، الأمر الذى يناقض الشواهد السابقة. ولا شك أنه ينبغى النظر إلى عبارة «**الابن البكر**» باعتبارها تخص، فى هذه الحالة، ذرية **إيزيس** - **نوفرت**، على وجه التحديد. أما لقب **رپعت**، الذى ينعت به الأمير **رمسيس**، فإننا نلتقى به فى مدونة تذيّل مشهداً مماثلاً فى **أسوان**، يعود تاريخها إلى العام ٣٩ من سنوات الحكم. الأمر الذى قد يبرهن على أن هذا اللقب لا يطلق دائماً على المشارك فى الحكم مشاركة رسمية، كما تحاول إثباته نظرية حديثة. ولكنه يشير إلى ابن بارز ورفيع المقام، وإن لُقّب به المشارك فى الحكم أيضاً، فى بعض الأحوال.

(*) يشير الضمير هنا إلى **خع إم واست**. (المؤلفة)

ويظل من الممكن مع ذلك، أن الابنين البكرين لكل من **نفوناري** و**إيزيس** - **نوفرت** كانا يعتبران في بادئ الأمر، وريثي العرش. ولكن يبدو أن **رمسيس الثاني** قد عدل هذا الاختيار الأول، المتفق مع ترتيب الميلاد.

وبالفعل، فإن الدور الذي قام به الابن الرابع، وفقاً لقوائم الأمراء، أكثر وضوحاً، على الأقل بالنسبة لنا. كان اسمه **خع إم واست** أي: «ذاك الذي بشرق متألّفاً في طيبة»^(*) واحتل مكاناً مرموقاً إلى جانب أبيه الذي كان يسعى بكل وضوح إلى اختياره خليفة له.

كان الابن الثاني للملكة **إيزيس** - **نوفرت**، وقد ولد بلا شك في فترة مشاركة **رمسيس** في الحكم. وكما سبق أن رأينا^(٥٧)، فقد شارك عندما كان في الرابعة فقط من عمره، في حملة **النوبة** التي قادها أبوه. وفي سن العشرين، عُيّن كاهن مم^(**) للإله **پتاح**^(٥٨). كان مقرباً إلى **رمسيس الثاني**، فاستناداً إلى مدونة في معبد **بيت الوالي**، فهو...

...الابن الملكي، الذي من صلبه، محبوبه، والنطفة الإلهية الصادرة عن **الثور القوي**، إنه **خع إم واست**^(٥٩).

ومن سياق النص المنحوت على لوح حجري حامل **ناووس**^(***) stèle naophore عثر عليه في **السيروبيوم**^(٦٠) Seapeum، ينظر إليه باعتباره:

(*) على اعتبار أن **واست** هو الاسم المصري القديم لمدينة **طيبة**. (المترجم)

(**) راجع الهامش في آخر الكتاب. (المترجم)

(*** naophore (من اليونانية، أي: «حامل **ناووس**»). طراز من التماثيل يُصور بوجه عام، رجلاً راكعاً يحمل أمامه **ناووساً** يظلّ تماثلاً أو إشارة إلهية. تاکد وجوده في المعابد اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة. وفيما بعد سوف يُصور الرجل واقفاً أو جالساً.

(المترجم) Egypte. Édité par Regine Schulz et Mattias Seidel, Könemann, Traduction de l'allemand, p.517.

الريعت، القائم على رأس القطرين، هذا الذي يحل محل جب^(٦١).

وعلى تمثال في متحف فيينا، ينظر إلى الأمير باعتباره: صورة حورس^(٦٢). إن هذه الألقاب تجعل منه الخليفة المختار للفرعون رمسيس الثاني.

وسوف يتولى هو شخصياً، تنظيم احتفالات اليوبيل الملكية الأولى، من العام ٢٠ وحتى العام ٤٢. وبهذه المناسبة، نشاهد رمسيس وخع إم واست معاً، في المقاصير الصخرية في أسوان وجبل السلسلة، وهما يقدمان القرابين للآلهة.

كانت أنواره متعددة وأهميته مؤكدة. وقد وقع اختيار الملك عليه ليصبح كبير كهنة پتاح في منف، وبصفته هذه، اسندت إليه مسئولية حراسة مقبرة العجول أيس^(٦٣). إن مدونة تكريسية مسهبة تُشيد بمواهبه وبالأعمال التي أنجزها في عاصمة مصر القديمة:

يتحدث الكاهن سم، الابن الملكى خع إم واست قائلاً:

«أنا^(**) وريث صنيدي، وحام يقط، وحكيم بارع في أعماله، لقد كان محبوباً وتم اختياره منذ أن كان^(***) طفلاً. والذي نشأه (العجل) أيس الحى في حضرة پتاح، والذي تمت الإشادة به في وظيفته (باعتباره) يون موتف^(****)^(٦٤)، بينما كان شاباً فطناً...»

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم: حپ. (المترجم)

(**) (فى صيغة المتكلم. (المترجم)

(***) (هكذا فى صيغة الغائب. (المترجم)

(****) (راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

كما يتحدث الكاهن سم، الابن الملكي، خع إن واست، قائلاً:

«أيها الكهنة سم وكبار كهنة منف، يا كبار أعيان معبد بتاح. أيها الآباء الإلهيين والكهنة الأطهار، يا رؤساء المعابد وخُدّام الإله والكهنة المرتلين... يا جميع الكتبة العارفين بالإله العظيم... (أنتم جميعاً) الذين ستقفون في حضرة الإله عندما ستدخلون المعبد الذي كنت تعمل فيه من أجل أبيس الحي، عندئذ سوف تنظرون ملياً إلى ما صنعت من أجله والمنحوت على الجدار الحجري، بصفته شيئاً مباركاً وعظيماً، فريداً في بابه، لا مثيل له، لقد دُونَ كتابته، تدويناً ثابتاً في قاعة الأعياد الكبرى؛ في مواجهة هذا المعبد، من أجل الآلهة القائمة فيه... لقد صنعت تمثالاً من ذهب ومن كل أنواع الأحجار الكريمة. لقد عيّنت له قرباناً إلهياً يومياً، إبان أعياد السماء وإبان أيام مطلع العام، على مدار السنين، بالإضافة إلى القربان المقدمة له في المعتاد. لقد خصّصت له كهنة أطهاراً وكهنة مرتلين... لقد أعددت له أمام معبده، مقراً عظيماً من الحجر يستريح فيه أثناء النهار، بعد أن يكون قد اتحد بالأرض. وبجوار هذا المقر العظيم أقيمت من أجله مائدة قربان كبيرة، من الحجر الجيري الجميل الوارد من طرة، نُحِتَتْ عليها قربان إلهية وكل ما هو جميل وكل الأشياء الطيبة... سوف يصيح كل ذلك مباركاً لكم، جالباً للخير، وسوف تنظرون إلى ما صنّع من قبل باعتبارهم عملاً متواضعاً^(٦٤)».

يبدو إذن أن نشاط الأمير في منف، كان على قدر كبير من الأهمية.

وبينما كان عالم المصريات الفرنسي **أوجست مارييت** Auguste Mariette يُنقّب في **السراييوم** عثر على مخريشة مدونة على جدار إحدى الحجرات الجنائزية للعجل أبيس، توضح تاريخاً هو العام ٥٥، الذي حدده بحكم **رعمسيس الثاني**^(٦٥). كان يوجد تابوت حجري في هذه الحجرة، وبداخله عثر على جسد آدمي. واستنتج **مارييت**، أنه جسد **خع إم واست**، المتوفى بالفعل في العام ٥٥. ولكن العالم الفرنسي كان يتسرعاً في استنتاجه. فمن غير المحتمل أن يدفن أمير في **السراييوم**، وإن كان **خع إم واست**،

المرتبط بصفته الكاهن سم، ارتباطاً لصيقاً بدفنات العجل أيبس. ومنذ ذلك الحين، وجدت هذه المسألة حلاً لها، عندما تم الكشف في كفر البطران بجوار هرم خوفو الكبير على مقبرة تعود إلى هذا الأمير^(٦٦). ومع ذلك، فمن غير المستبعد أن تكون مقصورة جنازية قد كُرسَتْ له في جبانة العجول المقدسة. فعلى باب وهمى من حجر الجرانيت، عثر عليه في الموقع، يمكن للمرء أن يقرأ الأدعية الجنازية التالية، في شكل مردّات:

♦ على اليمين: فليحيَ الكاهن سم، الابن الملكي خع إم واست، كما تحيا النجوم في جسد نوت، فليتة يشاهد حتحوى سيدة السماء.

♦ على اليسار: فليحيَ الكاهن سم، الابن الملكي خع إم واست، كما تحيا في نوت، السماء المرصعة بالنجوم^(٦٧).

هكذا وعد الأمير بمصير نجمي، شأنه شأن والدته إيزيس - نوفرث والشخصيات الفاتكة التميز في الحاشية الملكية.

إذا كانت مقبرة خع إم واست قد تم الكشف عنها قرب الهرم الكبير، فلأن أنشطته في ملف، كانت بكل تأكيد، على قدر كبير من الأهمية، ولأنه كان بالإضافة إلى ذلك. بصفته مؤرخاً محنكاً ملماً بعظمة بلاده وسؤدها، فقد أحاط الآثار القديمة بكل اهتمامه وعنايته. وتنفيذاً للأوامر الصادرة عن أبيه فقد أخذ على عاتقه ترميم النصوص المدونة في أهرامات ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة. لذلك نجد أن هرم أوناس، وهو آخر ملوك الأسرة الخامسة، يحتفظ بقائمة ألقاب رمسيس الثاني، فوق النص الآتي^(٦٨):

أمر صاحب الجلالة بأن يكلف، كبير كهنة پتاح، الكاهن سم، الابن الملكي خع إم واست، بأن يعيد اسم أوناس ملك مصر العليا ومصر السفلى، لعدم ظهور

(*) على واجهة الهرم الجنوبية. (المترجم)

اسمه أمام الهرم، وجعل معالم ملوك مصر العليا وملوك مصر السفلى تُغالب الأيام، وبحيث يتم ترميم المعالم التي صارت خراباً^(٦٨).

ونُحِتَت مدونات مماثلة وأنجزت مثل هذه الأعمال، في أهرامات الملوك **حسر** من الأسرة الثالثة، و**شيسسكاف** من الأسرة الرابعة، و**أوسركاف** و**ساحور** و**أوسر رع** من الأسرة الخامسة.

إن نشاطه المتميز هذا، بصفته مؤرخاً وفقيهاً لغوياً وأثرياً، وباختصار العبارة لقلنا بصفته **عالم مصريات**^(*)، إن هذا النشاط قد امتد ليشمل معالم أثرية أخرى من الماضي، ليرتك عليها بصماته. فعلى أحد التماثيل العديدة للأمير **كا وب**، ابن **خوفو**، وهو من مقتنيات **متحف القاهرة** في الوقت الراهن، ما زلنا نقرأ على مقدمة القعد المدونة القديمة، في حين نحت **خع إم واست** مدونته الخاصة على جوانب القاعدة الثلاثة الأخرى. لقد أسس **رمسيس الثاني** مصلحة آثار حقيقية، وكان ابنه مديرها، لقد ركز جل اهتمامه على كل ما يرتبط بعظمة وطنه، سواء في الحاضر أو في الماضي.

كان **خع إم واست** الابن المفضل، والوريث المختار منذ زمن بعيد، وقد أُعد لتسلم السلطة، ولكن وافته المنية، في العام ٥٥ من حكم أبيه الذي كان آنذاك في الثمانين من عمره. من المؤكد، أن هذه الوفاة قد عكرت صفو السنوات الأخيرة من حياة العاهل الملكي، وهو ما يمكن أن نفترضه على الأقل!

كان الأمير يتمتع بشعبية كبيرة، لقد غالبت شهرته بصفته عالم الأيام، وبالتدريج نشأت حول شخصه حكايات خرافية. وبالفعل، ففي زمن لاحق تروى

(*) أقترح إضافة اسمه إلى قائمة علماء المصريات على النصب المحيط بتابوت **أوجست ماريوت** Auguste Mariette في الطرف الغربي من حديقة المتحف المصري. (المترجم)

نصوص برديتين من العصر الروماني مغامرات ستني - خع إم واست المثيرة للإعجاب، وكان معاصراً للفرعون رمسيس الثاني وكبير كهنة پتاح في منف.

فبمساعدة أحد السحرة، ومن خلال عدد كبير من المغامرات، توصل البطل إلى العثور على كتاب مقدس، «هو مخطوط دونه الإله تحوت شخصياً»، يضم مجموعة من التعاويذ السحرية القوية التأثير. ثم بمعاونة ابنه سنوسيريس، وهو أيضاً ساحر محنك، تمكن من الهبوط إلى مئوى الأموات، فكان النزول الأول(٥).

يكشف هذا النص عن بقاء ذكراه ماثلة في حافظلة المصريين، ويبدو أنهم جعلوا منه شخصاً فطناً وثاقب البصيرة وعالماً، وملماً إذن بأسرار السحر وخباياه.

وبوفاة خع إم واست، أصبح أخوه مر إن پتاح وريثاً للعرش، فى كل من پررمسيس ومنف. كان ثانى أبناء إيزيس - نوفرث والأمير الثالث عشر فى قائمة المعابد وثالث من وقع عليهم الاختيار ليخلفوا أباهم - بعد أمون حرخشف وخع إم واست.

كان منذ ذلك الحين يساعد أباه فى بعض المهام الإدارية فى العاصمة. هكذا، فإن ألقابه تبرهن على حسن اختيار رمسيس له، إنه...

... رعت، القائم على رأس القطرين، والكاتب الملكى، حارس الختم، القائد العام للجيش، الابن الملكى، مر إن پتاح(٦٩).

ومثله مثل أخيه، كان مكلفاً بالإشراف على مقبرة العجل أبيس.

(*) توجد ترجمة عربية كاملة لهذه القصة المثيرة. راجع: كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دينوية من مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتي، المجلد الثانى، دار الفكر، ١٩٩٦، ص ص: ٢٦٤-٢٩٩. (المترجم)

وإذ منحه رمسيس صفة «الابن البكر للملك»، فقد رأى مر إن پتاح أنه من المناسب إصدار بعض الجعارين^(٧٠)، لإبلاغ هذا القرار الملكي، على أن تحمل هذه المدونة:

الربعت، الذى يشغل مكان جب، إنه وريثه والنطفة الإلهية المنبثقة من الثور القوى. إن الأراضى المصرية والبلدان الأجنبية مجتمعة فى قبضته، إنه السامر على تقديم قربان ماعت^(٧١) إلى الآلهة جمعاء، إنه الواحد المتفرد، الذى لا مثيل له، الذى استحوذ على أمراء كافة البلدان الأجنبية، إنه الأول فى القطرين... الذى يقود الشاطئين، إنه الكاتب الملكى والقائد العام للجيش، إنه الابن الملكى، مر إن پتاح، لبتة يحيا للزمن اللانهائى^(٧٢)!

وعلى لوح حجرى عثر عليه فى السيراپيوم، ويعود إلى آخر سنوات حكم رمسيس الثانى ويحمل اسم الأمير، يُشار إليه بصفته...

الكاتب الملكى، ربعت، القائد العام للجيش، وابن الملك البكر، الذى من صلبه، إنه مر إن پتاح^(٧٣).

هكذا، فقد ورث هذا الأخير الألقاب التى نُعت بها على التوالى كل من أمون حرخيشف وضع إم واست، كما أضيفت إليها الألقاب التى تخص الملوك ذانهم. ولا يخامرنا أدنى شك أن تأثير مر إن پتاح على أبنيه بعد أن تقدمت به السن، كان عظيماً. وعلى امتداد الاثنتى عشرة سنة الأخيرة من سنوات حكم رمسيس الثانى كان قد أصبح فى الحقيقة مسئولاً عن تدبير شئون الإمبراطورية، وهو فى الستين من عمره.

وإذا كانت نفرتارى هى الأقرب إلى قلب العاهل الملكى، فإنه يبدو أن إرادة

العاهل الملكى قد سعت إلى إشراك أبناء إيزيس - نوفرث فى السلطة.

ومن بين أبناء نفرتارى الأربعة، فإن ابناً آخر خلاف أمون حر خيشف، قد برز بفضل تميزه، إنه مري - أتوم، ومعناه «محبوب أتوم»، الذى كان مسار حياته المهنية أشبه بمسار حياة خع إم واست، ولكن يبدو أن العلاقات التى ربطته بأبيه كانت عاطفية أكثر منها سياسية. ففى مدونة منقوشة على عمود ظهر تمثال يحتفظ به متحف بولين، يشار إلى الأمير بصفته:

عينا الملك، هذا الذى يقف على رأس مصر العليا ومصر السفلى،
والناس يفرحون لسماع كلماته، إنه كبير كهنة رع، صاحب اليدين الطاهرتين، إنه
مري - أتوم^(٧٤).

كان مري - أتوم كبير كهنة رع فى هليوبوليس. هكذا يمكن القول، إن أبناء
العاهل الملكى، كانوا يكلّفون بشغل منصبين من ثلاثة من أعظم مناصب كبار الكهنة
فى مصر بمدينتى منف وهليوبوليس.

أما الآخرون، فقد أسندت إليهم جميعاً مناصب مرموقة فى البلاط الملكى.

أما بنات رهمسيس، فقد كانت لهن قوائم مماثلة لتلك التى وضعت للأمراء، وإن
كانت أكثر اقتضاباً. فمن بين البنات الثلاث والخمسين اللواتى حصرهن المؤرخون فى
العصر الحديث، على مجمل المعالم الأثرية، فإن ستاً وعشرين بنتاً فقط ذُكرن فى
قائمة أبيبوس بالمعبد الجنائزى للملك سبتى الأول، وست عشرة فى معبد الأقصر،
وإحدى عشرة فى وادى السبع، وتسعاً فى أبى سمبل والدرّ وثلاثاً فى الرامسيوم.
إن أوستراكون من مقتنيات متحف اللوفر يذكر خمس عشرة. وإذا استثنينا تلك التى
تزوجهن أبوهن، فإننا نعرفهن معرفة قاصرة.

إن عائلة رهمسيس كانت كثيرة العدد وواسعة العطاء وبالغة الثراء. وفيما
يخصها يمكن القول إن عمل عالم المصريات لم يكتمل بعد، إن الكشف عن وثائق
جديدة، سوف يساعدنا، على ما يحتمل فى المستقبل المنظور، على توفير معرفة أفضل

بجميع هذه الشخصيات التي تشكل ذرية الملك العظيم بأعدادها البالغة الكثرة، وبحياتهم وما قاموا به من أعمال.

رجال الملوك وكبراؤه

كانت الحيلة بالنسبة لكبار أعيان الإمبراطورية تبدو حياة يسر، فينعمون في برد - رمسيس بسعة العيش ونعمته.

وتقدم لها النصوص والصور وصفاً طريفاً ممتعاً. هكذا فإن أوستواكون يُصور رجلاً على متن مركبته وهو يتفقد أملاكه، يتقدمه زنوجه الراكضون، ويقول النص:

مدى قلب أمون بواسطة قلبك. سوف يهيك شيخوخة سعيدة. سوف تعيش حياة ممتعة إلى أن تبلغ وضع إيماخو^(٧٥)، وشفثاك سالتان وأطرافك بالغة القوة، في حين تظل عينك ترى من على بعد. سوف تصعد على متن مركبتك مرتدياً الكتان الناعم وعصاً ذهبية في يدك، ممسكاً عصاً جديدة والسروج السورية من الجلد، ويركض الزوج أمامك، لتحقيق رغباتك. وسوف تنزل في قاربك المصنوع من خشب الأرز، وقد جُهِز على أكمل وجه من القيدوم وحتى الكوثل. سوف تلحق بمحل إقامتك الذي شيدته لنفسك. سوف تمتلئ بالنبيذ والجمعة، والخبز واللحوم، وتُذبح الأبقار وتُفتح جرار النبيذ، وتكون الأغاني الجميلة «في»^(*) وجهك. إن رئيس صانعي عطورك، سوف يمسحك بالزيت العذب، ورئيس كراميك سوف يقدم لك عناقيد العنب ويهديك رئيس حقولك طيوراً ورئيس الصيادين سمكاً. وتعود سفنك من سوريا محملة بكل ما هو طيب ومفيد. وتمتلئ حظيرتك بالعجول. وتزداد أعداد خُدّامك. سوف تغالب الأيام، بينما يسقط عدوك. إن من يتهمك سوف يصبح خائر القوة. وسوف تمثل بين أيدي الناس وتصبح باراً^(٧٦).

(*) هكذا في الأصل. (المترجم)

وإذا أردنا الوقوف على هذه الحياة، بثرائها وترفها، الناجمة عن ازدهار الإمبراطورية... أو تمنينا أن نعيش مثلها، يكفيننا أن نتأمل المشاهد المرسومة على جدران مقابر الأفراد على البر الغربي لمدينة طيبة... هكذا، نشاهد الأعمال التي يقوم بها أفراد حاشية الملك، وكيف يقضون أوقات فراغهم.

كان كباراء الدولة عديدين ويشغلون وظائف متنوعة. ففي بيت الملك ساهم الإداريون وقواد الجيش و«الأفارقة»، في تصريف شئون الإمبراطورية المترامية الأطراف.

د - الوزراء في السلطة

يظل الوزير هو الشخصية الأبرز والأهم في الجهاز الإداري، بل من الأحرى أن نقول «الوزيران»، فقد رأى **تحوتمس** الثالث أنه من الضروري ازدواج هذا المنصب فعين وزيراً **لمصر العليا**، في حين امتدت سلطة الوزير الآخر على **مصر السفلى**. كان منصباً ذا شأن واسع النفوذ. ففي الخطاب الذي وجهه **تحوتمس** الثالث إلى الوزير **رخ مي رع** يوم تعيينه، يؤكد على ضخامة وتنوع العمل المطلوب إنجازه، وعلى الأخص ضرورة أن يلتزم حكمه بالعدل:

اعلم أن الوزير هو النحاس الذي يحمي ذهب بيت سيده (٧٧) (*). إنه لا يخفض وجهه أمام كبار الموظفين والقضاة، ولا يختار تابعيه من بين كائن من كان، من الأفراد... عليك أنت، السهر على أن يتم كل شيء، طبقاً للقانون، وطبقاً أيضاً لحقهم، مع كفالة العدالة لكل امرئ. على القاضي أن (يحيا) سافر الوجه، لأن الماء والهواء ينقلان مختلف تصرفاته، ولا يجهل أحد أفعاله (٧٨).

(*) راجع الهامش في آخر الكتاب. (المترجم)

إلى جانب هذا الواجب الأخلاقي، يتولى الوزير عدداً من المهام المادية. فبتلقى تقريراً عن كل شكوى وصلت إلى الملك بشرط تقديمها كتابة، ويوفد رُسل الملك إلى حكام الأقاليم وإلى العمد، لكل عمل من أعمال التفتيش المفيد. كما أنه يعين مفرضي **مصر العليا ومصر السفلى**. ويقدمون له تقريراً كل أربعة أشهر على ما لمسوه، ويسلمون له كل وثيقة مرسله من محاكم دوائرهم.

كما يقوم بحشد الجيش لمرافقة الملك، عندما يقوم هذا الأخير بالانتقال على صفحة نهر النيل هبوطاً وصعوداً. ويُصدر تعليماته إلى الفرق العسكرية، ويستقبل كل الرؤساء، من أكبرهم إلى أقلهم شأنًا.

كما يأمر بقطع الأشجار، بناء على طلب **بيت الملك**. كما يُبلغ حكام الأقاليم الأوامر الخاصة بحرث الأرض أو الحصاد. كما يتولى أعمال الشرطة في كل إقليم ويعين الوظائف، ويحدد أملاك المعابد ويحرر كل العقود.

كما يحدد إيرادات الضرائب المستحقة للمخازن الملكية. ويفتح باب **بيت الذهب** في حضرة حارس الختم. ويحضر وصول الجزية الواردة من أقاصى الأرض وأدناها. ويقوم بإحصاء كل قطاعان المشية. كما يقوم بالتفتيش على خزانات مياه الشرب مرة كل عشرة أيام، وبالمثل على المخزون من الأطعمة الصلبة.

ويقدم له تقرير عن شروق النجم **سوتيس** وفيضان **النيل**. ويقدم له تقرير عن هطول أمطار السماء. كما يوفد كل رُسل القصر الملكي. ويدبر شئون **الأرضين** عندما يخرج الملك في حملة عسكرية على رأس الجيش. عندئذ يُقدم **لصاحب الجلالة** تقريراً عن أحوال **القطرين**. ويضع الاختام على كل مرسوم يصدره الملك^(٧٩).

ومن ثم نجد أن الوزير يتحكم في كل جانب من جوانب أجهزة الدولة، ولكنه

يظل على اتصال وثيق بالعامل الملكي (*).

إن أحد أهم الشخصيات على صعيد الإمبراطورية، في عهد سيتي الأول، كان الوزير **پاسر**، الذي ظل يشغل هذا المنصب، في مطلع عهد **رعسيس** الثاني، لمدة عشرين سنة.

كان ابن نب **نقرو**، كبير كهنة **أمون**. أما والدته التي لا نعرفها معرفة جيدة، فيبدو أن **منف** كانت موطنها الأصلي. فمن خلال أسرته كان **پاسر** يرتبط باثنتين من كبرى مدن **مصر**، فضلاً عن علاقته بكبار كهنة **طيبة**. هكذا يبدو لأول وهلة أنه شخصية عظيمة الشأن. واستناداً إلى المدونات التي عُثِرَ عليها يُعتقد أنه كان مقرباً من **سيتي** الأول، الذي كان يعرفه منذ زمن بعيد. إنه يوجه ترنيمة إلى العامل الملكي عند حضوره لمراسم تتويجه، فرُقّي منذ اليوم الأول من حكم **سيتي** الأول إلى أرفع المناصب.

تحية لك، يا ملك **مصر**، يا شمس **الأقواس التسعة**؛ أنت الإله الذي يحيا من الحقيقة والعدالة، العارف بسرائر القلوب فيزن الأجساد، عارفاً ما بداخلها، أنت الحكيم مثل سيد **الثمانية** (٨٢)(١٠٠) العالم مثل **پتاح** الذي خلق مهن الحرفيين.

وعرف قلب صاحب **الجلالة السعادة**، بعد أن اتحد به الفرح، في حين كانت البهجة والغبطة في القصر. كان يشعر بمتعة الإله **رع** نفسها، وهو في قلب الأفقين.

(*) (لاطلاع على النص الكامل لهذه التعليمات راجع: كلير لالويت، **طيبة أو نشأة إمبراطورية**، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥ ص من ٢٧٩-٢٨٧. (المترجم) (** راجع الهامش في آخر الكتاب. (المترجم)

كانت أمه **ماعت** تحمى أطرافه، بينما ظهر مع **الساحرة العظيمة**^(*) وكانت هذه الأخيرة فى مكانها، بين حاجبيه **والثعبان محن**^(٨٣) فوق رأسه^(**). ومع **الصولجان** **والسوط** حصل على وظيفة أبه **جب**. (كانت الآلهة) تصيح فى السماء، **والبلط** فى غيد. ولم تتوقف **أرباب هليوبوليس** عن إعلان سعادتها. كان **الكركك** يهلل فرحاً وغبطة، **وبالتحديد أمون - رع**، عندما شاهد ابنه على عرشه. وأخذ مكانه أمامه، فرح القلب، **منجزاً الأعاجيب من أجل صاحب الجلالة**. (ومن أجله) أعاد الاخضرار إلى **مصر العليا وإلى مصر السفلى**، بعد أن اتحد **الغرب والشرق**.

وأمر **صاحب الجلالة** **إزن**، بأن يصبح «هذا **الخاتم**»^(***١)، **الصيدى الأول** فى **القصر الملكى** ويرقى إلى **المشرف العام على الأملاك**، وكبير كهنة **الساحرة العظيمة** وأن **تجدد** من أجله وظائف **عمدة المدينة**^(***٢) و**الوزير**^(٨٤).

واستناداً إلى هذا النص، فمن غير المستبعد إذن أن يكون **پاسر** قد شغل منصب **الوزير** من قبل، فى زمن حكم **رعسيس الأول** القصير.

ومثل سلفه **رع مى رع** الذى سبقه بعشرات السنين، صور فى مقبرته^(****١)، القائمة فى البر الغربى لمدينة **طيبة**، الاحتفالات المصاحبة لتبوءه الرسمى منصب **الوزير**. وفى إطار أحد المشاهد، يُقدم له تمثال صغير ل**سيتى الأول**، ويتحدث إليه أحد أعيان **البلط الملكى** قائلاً:

(*) أى **الصل الملكى**. (المؤلفة)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(***) أى **پاسر**. (المؤلفة)

(****) أى **طيبة**. (المؤلفة)

جدير بالملاحظة أن من أسماء **طيبة**: **نيت**. ومعناها الحرفى: **المدينة**. (المترجم)

(*****) المقبرة رقم ١٠٦. (المترجم)

يبتهج صاحب الجلالة لكل كلمة من كلماتك. أنت عينا ملك مصر العليا ومصر السفلى، وأنتا ملك مصر السفلى، فأنت شخص مفعم بالبركة لسيده. إنك «تفتح قلب» كل وظيفة^(*)، وتعاليمك تنتشر في ورش الحرفيين^(٨٠).

إنه الرباط الحي بين البشر والفرعون.

ويقال له كل ما في القلب، فلا يخفى عليه شيء، إنه يملأ أننى حورس^(**) بكل حقيقة. ويبتهج الجميع (السماع) كلماته^(٨١).

على الرغم من إقامة پاسر في پررمسيس، فإنه كان كثير التردد على طيبة لمتابعة أعمال تشييد المقبرة الملكية... ومقبرته شخصياً. ويبدو أنه قد طبق بالفعل العدل، وحكم حكماً منصفاً، فتمتع بشعبية عريضة وسط عمال لير المدينة العاملين في مواقع العمل في طيبة.

كان موظفاً مخلصاً وفياً، وموضع ثقة الملك ورجل بلاط ثاقب البصيرة. ورغم روابطه برجال الدين في طيبة يبدو أنه التزم بالخط الدينى الجديد الساعى إلى إعادة البهاء الرسمى للتيد إلى عبادات هليوبوليس ومنف. إن العثور على قطعتين أثريتين تعودان إليه، عظيم الأهمية في هذا الصدد.

الأولى تمثال يُصورُ پاسر جاثياً متعبداً، يقدم قرباناً في هيئة لوح حجرى، وقد أصبح موضوعاً تقليدياً ثابتاً، منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة، ونُحتت ترنيمة على هذا اللوح. إن هذا القربان لا يخص أمون، كما كان الحال في أغلب الأحوال، بل إنه مقدم إلى رع - حور أختى، إله هليوبوليس.

(*) أى: مُلمٌ إلاماً تاماً بالشئون العامة. (المؤلفة)

(**) أى الملك. (المؤلفة)

التعبُّد إلى رع - حور أختي، عندما يشرق في الأفق الشرقي من السماء، من قبل الأوزيريس، عمدة المدينة پاسر، صيادق القول، الذي يقول:

«التحية لك يا إله الأفق، بمطالع فجرِكَ المتألق الذي يولد من جديد صغير السن على الدوام، على مدار الأيام، أيها الكباش الحى، يا بداية كل ما يوجد، أيها الأقدم الأصلي، يا أبا الآلهة. لقد أضأت الأرض، بفضل أشعة أعضائك الإلهية، أيها القدرة العظيمة القائمة فى السماء. ليتك تتصرف بحيث أغدو وأروح فى الجبانة، على امتداد كل يوم من الأيام. أتح لى أن أستطيع تأملك عندما تشرق وأن أرضيك عندما تغرب فى أفق(ك). ليتنى أذهب (من جديد) إلى منزل الأحياء، إذ يظل قلبى باقياً معى، فلا يفارقنى طوال الزمن اللانهائى^(٨٥)».

هكذا كان إله هليوبوليس مطالباً بتلبية الأمنى الجنائزية الأساسية، كحرية الحركة فى العالم الآخر، وإمكانية العودة إلى الأرض، ومرافقة نجم النور والحياة.

أما القطعة الأثرية الأخرى فهى تمثال من الجرانيت الرمادى، يُصور أيضاً الوزير پاسر، ومن مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن. وعلى جانب قاعدة التمثال، دُوِّنت صيغة القرايين(*) التقليدية التى يقوم الملك بموجبها بتقديم قربان إلى الآلهة التى تمنى فى المقابل ببعض الإنعامات على صاحب الصورة أو التمثال. وجدير بالملاحظة هنا، أن الصيغة موجهة فى البداية، إلى الآلهة الثلاثة، لثالوث الرعامسة:

(*) صيغة القرايين proscynème. وهى الصيغة التى تبدأ بعبارة **حتي دى نسو** أى «مبة يعطيها الملك». د.عبد الحليم نور الدين، اللغة المصرية القديمة، ١٩٩٨، د.ن، ص٢٦٦.(الترجم)

أمون - رع، سيد عروش القطرين،

ورع - حور - أختي - أتوم، الهليوبوليتاني^(*)، سيد الأرضين،

ويُتاح القائم إلى الجنوب من جداره، سيد حياة القطرين^(٨٦).

ثم ترد بعد ذلك، أسماء البعض الآخر من آلهة مَجْمَع الآلهة، نذكر منها تحوت
ونيت والساحرة العظيمة وأوزيريس وسوكر...

وقد يتفهم المرء السبب الذي حمل رمسيس على الاحتفاظ إلى جانبه، منذ
تربعه على العرش، على رجل سبق أم تمرَّس بشئون السياسة، ملماً كل الإلام بأحوال
البلد، كما كان الرفيق المخلص الأمين في خدمة أبيه سيتي الأول ومن رجال البلاط
المرتبطين بالتيار الروحاني الذي طبع الإمبراطورية بطابعه.

لقد تم الكشف عن عدد كبير من تماثيل هذا الشخص المرموق في مواقع طيبة
ومنف.

ولما كان منصب الوزير على قدر كبير من الأهمية، لم يكن من الغريب، أن يعهد
ورمسيس الثاني بهذا المنصب إلى خعي^(**)، بعد أن حُرِم من خدمات پاسر. ونعرف
أن أميراً يجمل هذا الاسم قد كُلف بتنظيم احتفالات اليوبيل السادس للملك، ونحن
على حق كل الحق، إذا ذهبنا إلى القول بأن هذا اليوبيل قد أُقيم في القنطرة، إذ عثر
فيها على قوالب من الطين المحروق تذكر اسمه. كما عثر في هذه المدينة ذاتها، على
سأكف من الحجر الجيري صور عليه الوزير خعي وهو يتعبد إلى خرطوشى ورمسيس
الثاني. وتأسيساً على ذلك، أمكن استنتاج أن الأمير الملكي خعي والوزير الذي يحمل
الاسم نفسه، كانا شخصاً واحداً^(٨٧).

(*) المنتسب إلى هليوبوليس. (المترجم)

(**) وهو من أبناء رمسيس الثاني، ومعنى اسمه «الذي يتجلى متألّفاً». (المؤلفة)

وبفضل مدونة من جبل السلسلة، نعرف أيضاً، أن الوزير خعى، قد شارك أيضاً فى الاحتفال باليوبيل الخامس إلى جانب الأمير خع إم واست، كما أنه اضطلع بمهامه فى وقت لاحق، فى إدارة الأعياد الملكية. ومن ثم، فمن الممكن جداً، أن هذا الوزير كانت تجرى فى عروقه دماء ملكية، بالنظر إلى أنه كان يشارك خع إم واست، ابن الملك المفضل، ويظهر معه جنباً إلى جنب.

ومن بين الوزراء الآخرين الذين عملوا فى خدمة رمسيس الثانى والإمبراطورية، كانت شخصية رع حوتپ(*)، من أبرزهم وأرفعهم شأنًا، إذا نظرنا إلى أهمية ألقابه، إذ كان شخصية مرموقة وكريمة النسب، بالإضافة إلى الوصف الذى يقدمه عن أنشطته، وذلك من واقع النص المنحوت على لوح حجرى يحتفظ به متحف القاهرة:

إنه...

...النبل الذى يتسيد على القطرين، والأب الإلهى المحبوب، رئيس أسرار معبد نيت، والذى يملأ قلب حورس فى الأفقين، وفم الملك فى أرجاء البلد، والقاضى الملحق بمدينة نخن(**)، وكبير كهنة الإلهة ماعت، حامل المروحة عن يمين الملك، وعمدة المدينة، إنه الوزير رع حوتپ(***).

كما أنه...

... كبير كهنة رع واتوم وكبير كهنة پتاح والكاهن سم (لهذا الإله ذاته)، ومدير أعياد ذاك - الذى - يوجد - إلى - الجنوب - من - جداره(***) وكبير المشرفين على

(*) ومعناه: «نيت رع يكون راضياً..» (المؤلفة)

(**) الكوم الأحمر حالياً، شمال إلفو. (الترجم)

(***) أى پتاح. (المؤلفة)

أملاك رب القبطرين فى القصر... إنه المشرف العام على مواقع العمل، ورئيس الحرفيين وحارس مدونات الإله الكامل فى قاعة الحقيقة، إنه فم ملك مصر العليا وموفد ومنادى ملك مصر السفلى، إنه من يسعد سيده فى القصر المهيب، ومن يقدم إلى سيده الحقيقة - العدالة، إنه الأمير على رأس جماهير البشر والخدم فى أرجاء البلد، وصدة المسينة، إنه الوزير رع حوتب^(٨٩).

يا لها من قائمة رائعة، تخط بين الألقاب والخصال الشخصية وما تحقق من أعمال، ولكن الأمر الجدير بالملاحظة على وجه التحديد، هو أن الوزير الذى كان كبير كهنة مامت، بحكم منصبه، يشغل أيضاً منصب كبير كهنة رع - أتوم فى هليوبوليس وكبير كهنة پتاح فى منف، وهما من كبرى المناصب، فضلاً عن أن هذا الوضع شديد الندرة. ويبدو أن هذا الشخص المرموق قد جمع بمفرده الوظائف التى شغلها الابنان الملكيان: مرى أتوم وخع إم واست، اللذان خلفهما على ما يُظن.

ويحلو له أن يتباهى بما حققه من أعمال وبملاحم شخصيته:

أنا مخلص وفى ومستقيم القلب، إنى أمقت الكذب، وأحيا من ممارسة العدل والإنصاف على مدار الأيام. أنا إنسان حكيم لا مثيل له، فى وسعه أن يشرح كل أعمال تحوت^(٩٠).

ربما يؤكد كل ذلك، على الأهمية المبالغ فيها (٩)، التى كانت من نصيب بعض كبار رجال الدولة، من شاغلى أكبر المناصب الدنيوية والروحية، فى النصف الثانى، من حكم رمسيس الثانى.

ولكن يبدو أن رع حوتب ظل خاضعاً للفرعون، وبالفعل فإننا نشاهده على أحد الألواح الحجرية التى تم الكشف عنها فى هريبط^(٩١) وهو يتعبد للعاهل الملكى.

إنه يغدق الدائع على **كا** رب التجليات المجيدة، **رعمسيس - محبوب - أمون**،
الإله العظيم الذى يُنصت إلى تضرعات البشر، ليمنح الحياة والصحة والقوة والمديح
والذكاء والحب لـ«**كا**» النبيل، الأمير... **رع حوتب** (١٢).

كان **رع حوتب** من كبراء حاشية الملك، فهل كان رجلاً خاضعاً لسيطرة الملك
الذى وثق به واستأنمته، فاحتلّ بالتالى مكانة مرموقة؟ أو كان طموحاً كثير التطلعات؟
إن الكشف عن آثار جديدة، ربما ساعد ذات يوم على التعرف بشكل أفضل على
مصيره.

هـ - العُمد

ومن بين رجال الإدارة الملكيين، نذكر أيضاً عُمد كبرى المدن، وفى مقدمتها
طيبة ومنف.

كان الوزير **پاسر عمدة طيبة** حيث كان أبوه كبير كهنة **أمون**. هكذا كانت مدينة
الجنوب (١٣) بين أيدي أصدقاء الملك وخلصائه.

ومن بين القائمين على إدارة **منف**، يشد اثنان منهم اهتمامنا أكثر من غيرهم،
بسبب آثارهما التى تم الكشف عنها، لأن ما نعرفه عن كبراء البلاط الملكى، شأنهم
شأن الجهاز الإدارى فى الأقاليم، نستقيه أساساً من مقابرهم فى **طيبة** وتماثيلهم
وألواحهم الحجرية التى كرسوها وأهدوها إلى الآلهة وإلى العاهل الملكى. تلك هى
قاعدة مألوفة فى مجال العلم الذى تخصصنا فيه. ومن هذا المنطلق فإننا نعرف

(*) من أسماء **طيبة** و**نبوت** و**رسيوت** بالمصرية القديمة. حول مختلف أسماء **طيبة** وألقابها راجع:
د. سيد توفيق، أهم آثار الأقصر الفرعونية، دار النهضة العربية، ١٩٨٢، ص ١٥ -
١٩. (المترجم)

حياتهم فى العالم الآخر أو على الأقل الحياة التى كانوا يتهيأون لها أو يتطلعون إليها، معرفة أفضل مما أنجزوه من أعمال إدارية، «فى زمن حياتهم على وجه الأرض». ومع ذلك، فإن المشاهد المرسومة على جدران «بيت الأبدية» الخاص بكل منهم، قد تقدم لنا بعض التوضيحات حول أنشطتهم الرسمية.

وفيما يتعلق بعمدة منف واسمه **حوى**، أو من الأفضل أن نقول إنه **أمحوتب** المدعو **حوى**، فقد عُثِر على تابوته، وهو من حجر الجرانيت الأحمر وآية فى الجمال، ويبلغ طوله ٢٧٠ سم. كما عُثِر على تابوته الداخلى الأدمى الشكل، وهو من الجرانيت الوردى، ويبلغ طوله ٢٢٥ سم وارتفاعه ١٠٧ سم^(٩٣). وعلى السطح الداخلى للغطاء الثقيل لأول هذين التابوتين، حُفرت، وفقاً للأعراف السائدة، صورة كبيرة لإلهة السماء **نوت** الممددة فوق جسد المتوفى المحنط، حمايةً له، كما تحمى الأرض وهى ممددة فوقها **فنوت** بجسدها المرصع بالنجوم، هى أم الشمس.

كلمات قالتها **نوت**: **إنى أتمدد فوق ابنى حوى، الكاتب الملكى الحق، عمدة منف... باسمى نوت. إن أبعد عن هذا الابن الذى هو ابنى، كما لن أبعد عن جب، محبوب الآلهة، الأول والأقدم من بين أفراد التاسوع^(٩٤).**

هكذا، فإن مقارنة، فيها الكثير من الإطراء، قائمة بين **حوى** وإله الأرض، إطراء وطمأنينة بالنسبة للحياة المنتظرة فى العالم الآخر، وقد تم توضيحها على أكمل الوجه بالصورة والنص.

إن مقبرة العمدة **پتاح مس^(*)** قد جادت بأربعة أعمدة مربعة، كانت فى السابق جزءاً من مجموعة أثرية فريدة، ومن مقتنيات متحف **ليلى** فى الوقت الراهن. وعلى

(*) ومعناه: «لقد أنجب **پتاح**». وهو اسم مختار سلفاً لمن يسهر على مصائر **منف**. (المؤلفة)

أوجهها نحتت ترانيم إلى الآلهة^(٩٥). وعلى كل عمود من هذه الأعمدة، صورٌ پتاح مس، مرتدياً ثوباً طويلاً من الكتان الأبيض له ثنايا، ونراه على أحد الأوجه متعبداً للإلهين رع وأوزيريس لمرتين على التوالي، ولإله رع - حور أختي. وعلى كل وجه من الأوجه الجانبية صورُ العمود جد، الرمز الأوزيرى للثبات والديمومة، كما دُون ابتهاج إلى أوزيريس. وأخيراً، نُحِتَت، على الوجه الرابع من كل عمود، ترنيمة إلى كبرى آلهة الخلق أو تجديد الحياة:

« الحمد لك والثناء، أنت يا من أتى إلى الوجود بصفته رع، والذي يسطع الآن متألقاً بصفته حور أختي، الصورة المقدسة ذات الأشكال المتعددة، رب السماء وحاكم الزمن اللانهائى. ليته يَمْنَح القدرة على الذهاب والمجىء فى الجبابة وأن يتأمل قرص الحياة عندما يتألق من أجل كا... پتاح مس.

« الحمد لك والثناء، أنت يا من أتى إلى الوجود بصفته پتاح - أوزيريس، حاكم الزمن اللانهائى، ملك منس ورب أبيبوس، العامل الملكى القائم على رأس التاسوع. ليته يَمْنَح القدرة على الذهاب والمجىء فى راستاو^(٩٦)، والركون إلى الراحة فى الجبابة، وإنجاز تحولاته من أجل كا... پتاح مس.

« الحمد لك والثناء، أنت، أيها الوديع حبا، يا سيد الغرب والصحراء، الكبش الإلهى القائم فى السماء، الذى أُخْذَت منه العدالة كل مأخذ. ليته يجعل قلبى دائم الازدهار للزمن اللانهائى، من أجل كا... پتاح مس.

« الحمد لك والثناء، يا تا تن - پتاح، يا رب الفرح الذى يظل قلبه باقياً، والذى يهنا بالحقيقة والعدالة. ليته يَمْنَح القدرة على الذهاب والمجىء فى الجبابة وأن يتأمل قرص الشمس عندما يظهر ساطعاً فى السماء، من أجل كا... پتاح مس، صاحب القبر الجميل^(٩٧).

جاءت صياغة هذه النصوص الأربعة صياغةً متوازنة، مُتسقة مع ذوق المصريين المولع بالتناغم والتناظر، الموفق بين القوالب التشكيلية أو بين الجمل. إنها عبارات شكر وإجلال للآلهة، ومطالب يلتزمها للحصول على بعض المزايا بعد وفاته. وجاءت هذه النصوص تعبيراً صادقاً عن النزعة التليفية الدينية، عملاً بإرادة **الرهامسة** الرسمية. لقد ذكرت آلهة ثلاثة، وإن لم يُشر إلى **أمون** في سياق هذه التضرعات، فلا غبار على ذلك، لوجودنا في **منف**. ولكن يلاحظ أيضاً أن الأشكال والصفات الإلهية تتداخل وتتبادل بين **رع** و**بتاح**، وأكبر الآلهة **الإقليمية**، و**أوزيريس** الإله المستقل للبعث واستعادة الحياة. ولما كان **بتاح مس** من رجال البلاط المشهود لهم بالاستقامة فقد التزم بالحركة الدينية السائدة في عصره.

و- ويمنض كباراء النولة الآخرين

في استطاعتنا أن نتعرف، إلى حد ما، على كبار رجال الجهاز الإداري الذين لا حصر لهم، العاملين في بلاط **الرهامسة**، والمسؤولين عن إدارة جانب كبير من شئون الإمبراطورية، أو نلّم بهم إلمامة سطحية، في استطاعتنا ذلك بفضل مقابرهم أحياناً، أو تمثال عُثر عليه هنا، أو مدونات لوح حجرى جاء من هناك. كان بعضهم مشرفاً عاماً **لسيد القطرين** أو رئيس الخزائن أو مدير الشونة^(*) المزوجة، إلى جانب أعداد كبيرة من الكتبة المالكين، وكانوا شخصيات مرموقة، يشكلون دوائر أساسية في الجهاز الإداري المعقد الضخم، وينتسبون في الغالب إلى طبقة النبلاء. وفي هذا الصدد، وفي عهد **سيتى الأول** تحديداً، نذكر على سبيل المثال **يوى**، ابن كبير الأطباء **أمحوتب**، وكان...

(*) شئون بالمصرية القديمة. (المترجم)

النبي، الأمير، الصديق الأوحد، فم الملك، العظيم الشأن فى وظيفته المرموقة.
إنه يملأ أُنْزَى حورس(*) بالحقيقة والعدالة، إنه كبير الكهنة المرتلين والمشرف العام
على الأملاك الملكية(٩٨)...

كانت كلها مناصب دنيوية وروحانية، يمكن أن تُعهد بلا تمييز إلى شخص
واحد.

ز- العسكريون

قام العسكريون، بطبيعة الحال، بدور بارز فى بلاط الرعامسة، ونذكر منهم:
قواد الجيوش، وقواد سلاح المركبات، ورؤساء الإسطبلات، والموفدين الملكيين، وحملة
البيارق... كان الوزير هو المسئول الإدارى عن هذا العالم بأكمله، ويسهر على تجنيد
العناصر الجديدة وعلى حسن أداء الجيش، كما أن رجال الحاميات فى القلاع
والحصون كانوا مسئولين منه. ولكن إذا دارت رحى الحرب يقوم الملك بوضع خطط
العمليات الحربية، ويقود الجند إلى ساحة الوغى.

كانت بعض الشخصيات عظيمة الشأن أو هى كذلك على الأقل فى نظرنا،
استناداً إلى الكشوفات الأثرية غير المنتظرة والفريدة فى بابها. نذكر منهم على سبيل
المثال سوتى(**) الذى كان فى عهد رمسيس الثانى

كبير الملك، ومحبوبه، والقائد العظيم للجيش، وكبير قادة مركبات صاحب

الجلالة.

كما كان أيضاً

(*) الملك. (المؤلفة)

(**) صيغة معدلة للاسم سوتى، وكانت مأثوفة فى ذلك العصر. (المؤلفة)

رئيس خزائن رب القطرين والمشرف العام على مواقع العمل فى مكان
الأبدية^(٩١) [أى المقبرة الملكية].

هذا القائد للجيش كان مسئولاً أيضاً عن مالية الدولة وبناء مقبرة الملك
الصخرية. ربما كان سوتى أحد الرجال الذين لاحظ رعمسيس تميزهم فى المعارك
الحربية، فأسند إليه أرفع المناصب.

وبشأنه يمكن أن نتحدث عن صُدف الحفائر، فقد شاء الحظ ذات يوم من أيام
شهر أكتوبر ١٨٩٩، بينما كان أحد أبناء قرية الخوالد، المواجهة لمدينة أبو تيج فى
محافظة أسيوط، يقوم بعمل ورع، إذ كان يحفر مقبرة لعائلته فى مكان لا يبعد كثيراً
عن بلدته، أن أخرج إلى النور، عن غير قصد، مقبرة صخرية، بدا له أنها تعود إلى
عصور قديمة. لقد اعتاد الفلاحون المصريون أن تُفاجأ معازقهم أو معاولهم أو
محاريثهم، بالكشف عن ثروات وكنوز ظلت مدفونة فى أراضيهم لآلاف السنين. لقد
قامت مصر وروما «بزرع» الآثار فى طول البلاد وعرضها. وأبلغ الرجل الطيب المأمور
المحلى، وأخطرت مصلحة الآثار. عندئذ تم الكشف شمال القرية وجنوبها عن جبانة
يعود تاريخها إلى الأسرة التاسعة عشرة، وقد توارت أسفل مدافن حديثة^(٩٢). كانت
مقبرة سوتى محفورة فى منطقة تربتها طُفلية ورطبة، ومن ثم اضطر العمال أن
يرفعوا سقفها فوق أعمدة من الحجر الجيرى، بسبب هشاشة التربة. كانت المقبرة
تتكون من بئر مغطاة ببلاطة، تفضى إلى بهو يضم ستة أعمدة مربعة من الحجر
الجيرى، دونت عليها صيغة القرايين، ثم نصل إلى حجرة أخرى، تتصل بحجرة الدفن
بواسطة خندق.

كان سوتى يدخر لنا مفاجآت أخرى. وفى شهر يوليو ١٩١٨، وبجوار بئر
الشلوبيت عند الطرف الجنوبى من جبانة طيبة، وفى المنطقة التى شُيد فيها معبد صغير
فى العصر الرومانى، عثر أحد الفلاحين وسط حقوله على تمثال من الجرانيت الأسود

مزركش ببقع وردية اللون، ويصور رجلاً جالساً على الأرض، ومدثر في معطف كبير، وتكتف ساعده فوق ركبتيه وهو وضع شائع عند نحت التماثيل، ومستمد من وضع الكاتب. كان رأسه ناقصاً^(١٠١)، ولكن نُحتت مدونة على جانبي المعطف الأمامي والخلفي.

سوتى الذى يمتدح الإله الكامل، (سوتى) القائد العام لجيش سيد الأرضين، ومدير بيت الفضة وبيت الذهب يتحدث قائلاً: «إنى قادم إليك، يا رب الأرض المقدسة، يا أوزيريس الواقف على رأس الغرب، إنى أدخل فى وجودك، والقلب محمّل بالحقيقة والعدالة»^(١٠٢)...

يدخل **سوتى** إلى القاعة الكبرى حيث سيقوم **أوزيريس** ومساعدوه الإلهيون بمحاكمته، ويوزن قلبه على ميزان العدالة.

إنها الآمال التى كان يتطلع هذا الشخص العظيم فى بلاط **رعمسيس** الثانى إلى تحقيقها بعد وفاته، كان يرقد إذن فى منطقة **طيبة**، فى هذه الأرض المقدسة التى كان قد سَجى فى باطنها لأكثر من ثلاثة آلاف سنة. إن علم الآثار مغامرة يباغتنا أحياناً بما ليس فى الحسبان، ويقدم لنا علم المصريات المفاجآت والعجب العُجاب المتجددة على الدوام.

إن **سوتى** الذى كان يجمع بين الوظائف العسكرية والإدارية، كان بلا شك من أبناء الجنوب، وقد جاء إلى البلاط الملكى، ربما بعد أن أبلى مرةً بلاءً حسناً فى ساحة القتال إلى جانب **رعمسيس**. وبالفعل فإن تمثالاً من الألبستر، من مقتنيات **متحف القاهرة** فى الوقت الراهن، يصوره جاثياً، بينما يقدم ثلاثة آلهة فوق قاعدة، التزاماً بحركة شعائرية. وهذه الآلهة الثلاثة هى **خنوم** و**ساقيس** و**أنوكيس**. ومن حقنا أن نذهب إلى الاعتقاد بأن هذا الورع من جانب **سوتى** نحو ثالث مدينة **إلفنتين** يشير إلى موطنه الأصلي.

وبطبيعة الحال ليته كان فى وسعنا أن نقدم وصفاً وتحليلاً لحياة بعض الضباط أو الجنود. ولكننا نفتقر إلى الوثائق، ولا توفر لنا المقابر سوى أسماء وألقاب ونذور جنائزية. وقد نعرف أحياناً صورهم وبعض المشاهد البارزة من حياتهم، خلقتها جدران مقاصيرهم الجنائزية، إلى جانب بعض الإشارات المتفرقة. ويمكن أن نتخيل عددهم وأهميتهم فى مدينة **پر - رعمسيس**. فهناك، وفى الجهات الأصلية الأربع، أقيمت معسكرات **جيش - الانتصارات**، ولكن أمجاد **الفرعون** فقط كانت تستحق أن تخلد، إلى أبد الآباد.

ومع ذلك فإننا نعرف تاريخ حياة **مننا**، مرافق مركبة **رعمسيس** الثانى، يوم احتدام المعركة أمام **قائش** فى العام الخامس من حكمه. كان **مننا** الوحيد من بين أفراد الجيش كله الذى لم يتخل عن سيده، رغم ما أصابه من هلع. ففى قصيدة **بتاؤور**، صدرت هذه الكلمات على لسان **رعمسيس**:

عندما لاحظ **مننا** المرافق لمركبتى أن أعداداً كبيرة من المركبات تحاصرنا، خارت قواه، وصار قلبه جباناً، ونفذ رعب عظيم إلى بدنه. عندئذ قال **لصاحب الجلالة**: «يا سيدى الكامل، يا أمير البسالة وحامى مصر الأعظم، يوم الوغى، إننا هنا بمفردنا وسط الأعداء. انظر، لقد تخطى عنا سلاح المشاة وسلاح المركبات. وأه! لما تبقى هنا، حتى ينتزعا النسمات من فمنا؟ أتح لنا أن نبقى سالمين، نجنا، يا **أوسر ماعت** رع - ستب إن رع!»

عندئذ قال له **صاحب الجلالة**:

«شدد من أزرِك! ثبَّت قلبك! يا مرافق مركبتى! سوف أهاجم الأعداء مثل الصقر الذى ينقض على فريسته. سوف أقتل وأتخذ نهباً. من هم هؤلاء الآسيويون فى مواجهتك؟ ماذا يستطيعون ضد **أمون**، هؤلاء الجبناء الذين لا يعرفون الله؟ لن يشحب وجهى من الخوف، حتى فى مواجهة الملايين منهم» (١٠٢).

حقاً إنها وسيلة وإن كانت سحرية لشحذ بسالة **فرعون** عن طريق الكلمات، ولكنها وسيلة أيضاً لتكريم الرفيق المخلص الوحيد الذى وجده **رعمسيس** واقفاً بجواره فى المعركة، لتظل ذكراه على هذا النحو باقية مع ذكرى سيده، إلى أبد الآباد.

كما عرف الجهاز الإدارى العسكرى أعداداً كبيرة من الكتبة. لقد تميزوا بالفطنة والحصافة، سواء كانوا كتبة الجيش أو كتبة سلاح المركبات أو كتبة الأسطبلات، فسجلوا بعناية فائقة كل ما يرد من جياذ وبشر ومؤن، وكان يقع على عاتقهم، إلى حد كبير، فاعلية الجيش المصرى.

وحديثاً، وعند الزاوية الجنوبية الغربية للسور الذى يرسم حدود حرم المعبد الكبير للإله **پتاح** فى **منف**، وتحديداً فى بهو أساطين معبد صغير، شيده **رعمسيس** الثانى، فى هذا المكان، وكرسه أيضاً للإله **پتاح**، عُثر على مائدة للمسكوبات من الماء بغرض التطهر. إنه معلم نذرى مكرس لإله **منف**، ومقدم من **أمن إم حات**، كاتب ترسانات المدينة البحرية^(١٠٤). كان تمثال الكاتب يشغل أحد جانبي المائدة الصغيرين، ولكنه شديد التلف. وما زال الجذع ملتصقاً بالمائدة، لأن تفريغ الكتلة الحجرية فى هذا المكان كان يحتاج إلى عمل على قدر كبير من الدقة. والجدير بالملاحظة أن المعلم الأثرى يتخذ فى مجموعه شكلاً نمطياً إلى حد ما، يحاكي سور حصن، يتكون من ثلاث زوايا ناتئة وبروزات أربعة فى السور وبرجين ركنيين وبرجين فى الوسط. وفى أعلى السور شرفات محفورة حفراً بارزاً عند حافة الوعاء المستطيل. إننا أمام وثيقة فريدة فى بابها، فقد أرادت بكل وضوح أن تحاكي الجدار الكبير لسور معبد **پتاح** الذى بدأ **رعمسيس** الثانى بناءه واستكماله ابنه **مر إن پتاح**. وحول جوانب الأثر الثلاثة نُحتت ترنيمة اتخذت أسلوب المناجاة، وهو أسلوب أدبى شاع على نطاق واسع فى ذلك العصر:

المديح لك، أيا پتاح، يا من يرفع السماء ويخلق قوت البشر والآلهة.

المديح لك، أيا پتاح، عندما تتألق فى قاربك للملايين السنين.

المديح لك، أيا **پتاح**، يا رب الزمن الأبدى، الذى يجعل جميع البشر يحيون من
جمالك.

المديح لك، أيا **پتاح**، يا صاحب القلب الوديع، أيها الكائن المقدس الذى يُظهر
الحقيقة والعدالة.

المديح لك، أيها الإله صاحب الوجه الجميل، والإله المحبوب.

المديح لك، يا رب الحقيقة والعدالة، الذى يستمع إلى من يعملون على إرضائك،
المديح لك، فى منف، الأعظم من سائر المدن.

المديح لك، بجوار السور العظيم، فى هذا المكان الذى يُستجاب فيه
للتضرعات^(١٠٥).

هكذا فإن المديح يخص ثلاثة أوجه للإله: الإله العالمى الذى يبدو أنه، استناداً
إلى بعض النعوت، قد تمّ الخلط بينه وبين رع. وأخيراً إله منطقة منف وهو الإله الأكثر
شعبية الذى يستجيب للتضرعات، «بجوار السور العظيم»، فكان يسهل على عامة
الناس الوصول إلى هذا المكان حيث كان يفترض أن **پتاح** الرعوف العطوف يستجيب
لطلبات والتماسات أتباعه المؤمنين به.

هذه الدراسة التى خصصناها لكبراء رجال بلاط **پر - رعسيس**، وإن كانت
جزئية وغير شاملة، فإنها تُلَمِّح إلى وجود عائلات على قدر كبير من النفوذ، وقد أغدق
عليها **الفرعون** أسمى الرتب والمرتبات وأشرفها، وأهم المناصب وأرفعها شأنًا.

وفى هذا الصدد، نشير إلى نص يبين ما نقصده بأكبر قدر من الوضوح، وقد
دُوِّنَ على لوح حجرى - من مقتنيات متحف **ناپولى** فى الوقت الراهن - ومُقَدَّم من

أمن إم إينت^(*) بن ون إن نفر، كبير كهنة إله طيبة، ورفيق الصِّبا لرعمسيس الثانى. استطاع أمن إم إينت أن يحصى أربعة وعشرين من أقاربه شغل جميعهم مناصب رفيعة فى الجهاز الإدارى أو الجيش أو سلك الكهنوت. كان يريد أن يبرهن بذلك أن أبناء جلدته كانوا من ذوى النفوذ والشأن الرفيع^(١٠٦). وكما سنلاحظ فيما بعد، فإن البعض الآخر من هذه العائلات قد تمتع بالتالى بسلطة سياسية أكيدة، ربما أصبحت تشكل، فى آخر المطاف، خطراً على الملك، بعد أن أصبح طاعناً فى السن.

ح - الأفارقة

كما كان بلاط رعمسيس يضم الأفارقة، إذ كانت النوبة والسودان خاضعتين للسيطرة المصرية، وتدار وتُدبر شئونها من عاصمة الوطن الأم. وكان موظفو المستعمرات بأعداد كبيرة.

كان أمن إم أوبت^(**) بن الوزير پاسر «حاكم بلاد الجنوب، والابن الملكى فى كوش» فى عهد سيتى الأول وبداية عهد رعمسيس الثانى. وفى هذا السياق لا ينطوى لقب «الابن الملكى» بالضرورة على وجود علاقة عائلية بالعامل الملكى، كانت التقاليد المتوارثة تقضى أن يحمل نواب الملك هذا اللقب، منذ أن كان أول من شغل هذا المنصب أميراً حقيقياً تجرى فى عروقه دماء ملكية. ومن ثم كانت عائلة پاسر تشغل فى أنحاء الإمبراطورية أكبر المناصب التى تلقى على عاتق صاحبها مسئوليات جسام. وكان الفرعون يعرف كيف يكافئ أصدقاءه وموظفيه المخلصين الأوفياء.

كان يونى «ابنًا ملكيًا فى كوش» فى عهد رعمسيس الثانى، ولكن وردت إشارة إليه بالفعل، فى مدونة تعود إلى عهد سيتى الأول. كما كان موظفًا مرموقًا فى خدمة العائلة المالكة.

(*) ومعناه: «أموون فى الوادى». (المؤلفة)

(**) ومعناه: «أموون فى الحريم». (المؤلفة)

ولا شك، أنه بصفته، «المشرف العام على مواقع العمل فى معبد آمون»، بدأ بإنشاء معبدى أبو سمبل. لقد أمر بنحت لوح صخرى على مقربة من معبد نفرتارى الصغير. وفى جزئه العلوى المقوس نشاهد يونى وهو يقدم مروحة من الريش إلى رمسيس الجالس على عرشه. والنص القصير عبارة عن ترنيمة إلى الملك.

ليت أباك آمون - رع يحميك ويمنحك كل الحياة والثبات والقوة. ليت يعطيك الزمن الأبدى بصفتك ملكاً والزمن اللانهائى بصفتك القيم على الأقواس التسعة^(١٠٧).

وعملًا بأسلوب بلاغى شاع على نطاق واسع فإن شخصية الملك مزدوجة، تمامًا كما أن الزمن الذى لا حدود له والذى سيعطى له مزدوج. هكذا، فإن هذين الوجهين للعاهل الملكى يكشفان بكل وضوح التمييز الذى عرفه المصريون بين لفظ نسوت ومعناه: «ذاك الذى ينتسب إلى البوص»، وهو النبات الذى يرمز إلى مصر العليا التى جاء منها فى كثير من الأحوال ملوك وحدوا مصر، ومن ثم فإنه يطلق على ملك مصر، وبين الإمبراطور أى القيم على الأقواس التسعة، أو كما يقال أحياناً بنبرة تشدد على الجانب الدينى، فيطلق عليه «شمس الأقواس التسعة». هذان اللقبان اللذان سبق أن التقينا بهما فى نص للوزير پاسر^(١٠٨)، يؤكدان على تصميم رمسيس الثانى على ربط الحكومتين فى شخصه، حكومة مصر وحكومة البلدان الخاضعة للهيمنة المصرية، بعد أن أصبحت لا تشكل سوى قطر واحد.

ومن العام ٢٥ إلى العام ٢٤ من عهد رمسيس الثانى، قام پاسر آخر، الذى نطلق عليه پاسر الثانى، بشغل منصب نائب الملك فى بلاد الجنوب. كان لا يرتبط، على ما يبدو، بأى علاقة عائلية بالوزير. فاسم پاسر من الأسماء الشائعة، كما يعنى «السرى»^(*). بل كان ابن عم أمن إم إيفت الذى ربطته صداقة حميمة بالملك رمسيس

(*) أى: الشريف، الكريم الحسب. المعجم الوسيط والمعجم العربى الأساسى. من حقنا مقارنة اللفظ المصرى القديم باللفظ العربى. (المترجم)

منذ نعومة أظفارهما، فنال مقابل ذلك هو وعائلته أسمى مراتب الشرف. إن **پانست** **تاوى**، وهو أحد أعمام **پاسر** الثانى، كان قائد الجيش، ثم شغل ابنه **نخت مين** هذا المنصب نفسه.

وفى العام ٢١ أصابت منطقة **أبو سمبل**، هزة أرضية عنيفة، مُحطمة أساسات المعبد. بالإضافة إلى بعض الأعمدة المربعة والتماثيل. وساد الاعتقاد بأنه غضب الآلهة^(*). وأحبط **رمسيس** علماً ولكن أمكن استئناف العمل فيما بعد، إلى الانتهاء منه دون حوادث أخرى. وبعد إنقاذ **أبو سمبل** من زلزلة الأرض، جرى إنقاذه حديثاً من المياه^(**). إن **أمون ورع** - **حور أختى وپتاح**، ثالث **الرهامسة المقدس**، المائل بجوار **رمسيس**، يحمون «بيتهم».

ومرة أخرى، نقف أمام إحدى المغامرات الرائعة والموفقة التى يفاجئنا بها علم الآثار، عندما تمَّ الكشف عن ألواح **پاسر** الثانى الحجرية، فى **أبو سمبل**. فائتاء إحدى بعثات **باريز Baraize** فى النوبة، وكان مدير الحفائر فى **أبو سمبل**، التقى فى الموقع، فى فبراير ١٩٣٢ بسائحة من مدينة **نيويورك**، هى السيدة **أن أرشبولك Anne Arch-bold**، التى سألته عن بعض الإيضاحات. وأبدى أمامها افتراضاً مفاده أن معبداً ثالثاً، ربما يكون قائماً بين المعبدتين وما زالت أكوام الرمال تغطيه^(***). وواصلت السيدة **أرشبولك** رحلتها فى اتجاه الجنوب، ومن وادى حلفا، أرسلت برقية إلى **باريز** فى ١١ فبراير، تخبره بأنها تضع تحت تصرف مصلحة الآثار المصرية مبلغ ألفى دولار للقيام بإزالة الرمال عن المنطقة المحصورة بين معبدى **أبو سمبل**. ووافق وزير

(**) وتحديداً الإله **ست** رب الاضطرابات.

(المترجم) Ch. Desroches Noblecourt. Ramsés II. Pygmalion, 1996, p.328:

(**) الإشارة هنا إلى إنقاذ معبدى **أبو سمبل**، عند بناء **السد العالى**. (المترجم)

(***) إن أحلام علماء المصريين لا حدود لها. فيرون أن أصغر كوم من الرمال قد يخفى كنزاً مدفونة. (المؤلفة)

المعارف العمومية ومصلحة الآثار^(*). وتم إبلاغ السيدة **أرشبولد** بتقبل أحرّ آيات الشكر والامتنان، ولكن لم يتحقق حلم **باريز**. ومع ذلك، فأتثناء القيام بأعمال رفع الرمال، عُثِر على ثلاثة ألواح كبيرة تعود إلى **پاسر الثاني**، لوحين حجرين غير ثابتين، والثالث منحوت في الصخر^(١٠٩).

ووسط القسم العلوى المقوس من اللوح الصخري، صُوِّر **پاسر** متعبداً إلى **رهمسيس الثاني** الجالس على عرش نحتت على قاعدته صورتا عدوين صريعين. فلما كانت هذه الصورة تشير من ناحية إلى الانتصار على أبناء **إفريقيا**، وإلى ألوهية **الفرعون** من ناحية أخرى، فقد كانت مؤهلة لبث الرعب في قلب **النوبيين** عند صعودهم نهر **النيل** وهبوطهم، ومن ثم دفعهم إلى الخضوع. كان هذا اللوح أشبه بما نطلق عليه، في أيامنا هذه، نُصَب «الردع» وفي الوقت نفسه كان يشيد **پاسر** من خلاله بسيدته **ويثنى** عليه.

أما اللوحان الحجريان غير الثابتين، فقد نقلّا إلى المتحف المصرى بالقاهرة الذى يحتفظ بهما ضمن مقتنياته. وفي القسم العلوى المقوس من اللوحين صُوِّر **پاسر** وهو يتعبد للإله **أمون**، إلى جانب نص منحوت يحدد هبة من الأراضى تدوم إلى الأبد، يقدمها **پاسر** بناء على أمر من **رهمسيس الثاني** وباسمه. وسوف تخصص إيرادات هذه الأراضى لضمان قيام العبادة فى «**الركيزة العظمى للإله أمون فى فارس**»^(**). وترتبط هذه «**الركيزة**» بأحد الأعمدة الأربعة التى ترفع السماء، كما ترتبط بالشكل الذى كانت تقوم عليه عبادة **أمون** فى هذا الموقع **النوبى**. إن إدارة هذه الأراضى وإيراداتها كانت تُعهد بالوراثة إلى عائلة موظف محلى، هو الكاتب **خاى**. وكانت مساحة هذه الأراضى تبلغ هكتارين^(***) تقريباً. إن الأراضى التى تُقدم هبة للمعبد،

(*) وكانت تابعة لوزارة المعارف. (المترجم)

(**) وتقع إلى الجنوب من **أبوسمبل**. (المترجم)

(***) أو ما يعادل حوالى خمسة أفنة. (المترجم)

من أجل ضمان صيانتته وإقامة الشعائر بفضل ما تدره من إيرادات، كانت أمراً شائعاً مألوفاً.

وفي العام ٣٤ خلف **ياسر** شخص متقدم فى السن، اعتزل بسرعة، ولكن أراد **رهمسيس** أن يعبر له عن تقديره. هذا الشخص هو **هو** الذى كان قائد سلاح المركبات، ورافق موكب الأميرة الحيثية **ما أت - حور - نفرو رع** حتى **پر - رهمسيس** لتتزوج من الملك.

إن الأقوى، على ما يبدو، من بين سائر نواب الملك فى عهد **الرعامسة**، كان **بلا شك**، **سيتاى** الذى شغل هذا المنصب من العام ٢٨ حتى العام ٦٣ من عهد **رهمسيس** الثانى.

هل كان ابن العاهل الملكى؟ إنه لم يذكر، على كل حال، فى القوائم الرسمية للأمراء الذين تجرى فى عروقتهم دماء ملكية. حقاً لقد كان يحمل لقب «**الابن الملكى**»، ولكن كما سبق أن لاحظنا، كان يُمنح هذا اللقب أحياناً إلى أشخاص يريد الملك أن يميزهم على هذا النحو. كما تظل أصوله غير مؤكدة.

كان شاباً نشطاً حازماً، قام بأعمال على قدر كبير من الأهمية. ووصلتنا رواية مختصرة عن حياته، نُحتت على لوح حجرى شديد التلف والتشوه، مع الأسف الشديد.

إنى أكرم الإله الكامل، **الحورس** المحبوب من **المحيقة - العدالة**. أنا إنسان علمه **صاحب الجلالة** داخل قصره... لقد شببت فى بيت الملك منذ أن كنت طفلاً... وتوفرت لى أطعمة طيبة مقدمة من الموائد الملكية وتخرجت من بيت **التعليم** بصفتى كاتباً... ورقيت **صديقاً** **أوحداً لصاحب الجلالة**، بينما كنت لا أزال فى مقتبل العمر، وعُيّنت الكاتب الرئيسى للوزير. وحددت الضرائب للبلد بأكمله على لفة كبيرة من ورق البردى، وكنت ملائماً لأهمية هذا العمل وكفىءاً له... واستطاع سيده أن يلاحظ كم كنت ناجحاً، عندما زدت من كميات القرابين الإلهية المقدمة لجميع الآلهة، فزخرت

خزائنها بمختلف الأشياء، بينما كانت شُونها تلامس السماء، وقطعائها بلا حصر. كما استطاع أن يكتشف فاعليتي، لأننى كنت أمر بنقل حصيلة الحصاد إلى الشُون (الملكية)... بالملايين وجعلتها تفيض بالقمح... لم أسمح على الإطلاق بالإضرار بالبلد بأى شكل من الأشكال، وتصرفت بحيث يُجلُّ الشباب **صاحب الجلالة** ويجلونه. عندئذ عيني العاهل الملكى كبير المشرفين على أملاك **أمون** - رع، ملك الآلهة. كنت مدير الخزائن الإلهية وقائد عيد **أمون**، ممسكاً بين يدي مائدتين من ذهب متالفتين لأقدمها لوجهه، توقيراً **لصاحب الجلالة** ولتعظيم **رب القطرين** وتمجيده... ومن جديد لاحظ سيدى أن اسمى عظيم وجالب للخير. عندئذ، عيني «ابناً ملكياً فى هذا البلد كوش»... وجلبت ضرائب كوش بعد أن ضاعفتها، وأمرت بأن تصبح وفرة جزية هذا البلد كوفرة رمال الشيطان، الأمر الذى لم يصل إليه من قبل أى ابن ملكى فى كوش منذ زمن الإله، رغم غنائم الساعد القوى **للفرعون**، سيدى الكامل. عندئذ، فإن بلد **إيريم** الخسيس (جاء راضخاً) بالإضافة إلى زعيم **إيكوياتا** ومعه زوجته وأولاده وعائلته وأهل بلده. وربطت قوسه، بينما سرت فى الطريق على رأس جيشه. وبعد ذلك، تم جمع ضرائب جزية طائلة ونقلت إلى مصر.

ثم شيدت معبد **رمسيس** - محبوب - **أمون** فى أملاك **أمون**، بأن أمرت بحفر الجبل، وأنجزت عملاً مقدراً له أن يدوم للزمن الأبدى. وملأت المعبد بعدد كبير من العاملين من بين أسرى **صاحب الجلالة**، بينما امتلأت مخازنه بالمؤن حتى لامست السماء. كان الشعير والعلس والقمح، بكميات كبيرة. كان قائماً بجوار معبد **أمون** (الذى شيده) سيدى، **رمسيس** - محبوب - **أمون**... كما أعدت بناء كل معابد كوش بالكامل، والتي كانت قد تهدمت فأقيمت من جديد، لصالح الاسم العظيم **لصاحب الجلالة**.... وامتدحنى سيدى من أجل ما صنعت، والذى كان يعلى من شأنه.

وجعلنى شخصاً عظيماً فى المحكمة، لأفصل فى دعاوى **القطرين**، كما أصبحت أول **الاصفاء**، على رأس رجال البلاط... كان جميعهم ينحنون أمامى... لأننى أقول دائماً الحقيقة، ولا أقترف الكذب. وفى حقيقة الأمر، فأنا أعرف أن **صاحب الجلالة** يحب الحقيقة - **العدالة**.... وأنا خادم الإلهات (١١٠).

فمنذ نعومة أظفاره إذن، تعلم **سيتا** وتربى في القصر الملكي، سواء كان ابن **رمسيسيس** أو ربما بدافع من المودة والصداقة نحو عائلته، هكذا كان الصبي متميزاً^(١١). لا شك أنها كانت أيضاً وسيلة لإعداد من سيصبحون في المستقبل على رأس الجهاز الإداري، إعداداً ملكياً. وقد حصل على التأهيل الموسوعي المخصص للكتابة^(*). كان مسار حياته المهنية فيما بعد، ما يسمى اصطلاحاً بالمسار «//الباهر المرموق»، كان في البداية جابياً نشطاً مخلصاً لعمله، عند تحصيل ضرائب البلد لخدمة المعابد والملك، ثم ألحق، على نحو أكثر تحديداً، بأُملاك **أمون - رع**. وإذا لاحظ **رمسيسيس** الثاني قيمته ومزاياه الشخصية، عينه «**بناً ملكياً في كوش**». ويبدو إذن أن صاحبنا قد أُنقل إلى حد ما بالضرائب على كاهل السودانيين الخاضعين لمصر، الأمر الذي قد يفسر التمرد الذي ورد ذكره. وفي هذا الصدد، يصعب على المرء أن يكتب كلمة تمرد أو النطق بها، فقد يعنى ذلك إضفاء واقع خطير عليها. إننا نذكر هذه الكلمة فقط لوصف ما حدث في البلد الجنوبي **إيريم**، كما في عهد **سيتي الأول** وفي منطقة مجاورة بلا أدنى شك. إن نشاط نائب الملك، في مجال البناء والتشييد كان بلاشك على قدر كبير من الأهمية، وذلك قبل أن يصبح أحد كبار القضاة في محكمة الدولة.

فقد شارك إلى حد كبير، في إقامة المعابد النوبية في **أبوسمبل** و**جرف حسين** و**وادي السبع** وكان يوجد في هذا الموقع الأخير معبد سبق أن شيده **أمنحوتب** الثالث، ولكنه كان مهدماً. وإلى جانب الأيدي العاملة التي وفرها أبناء هذه المناطق، فإن قسماً منها جاء من الإغارة على الواحات **الليبية** في **كركور** أو **نقل** أو **سليمة**.

وفي فبراير/ مارس ١٩٠٩، وأثناء القيام بأعمال إزاحة الرمال عن ممر تكتنفه تماثيل **أبي الهول** وعن المباني المشيدة من الطوب التي تنصدر معبد **رمسيسيس** الثاني في **وادي السبع**، تم الكشف تحت الرمال عن أحد عشر لوحاً حجرياً، ظلت مدفونة

(*) بمقياس هذا العصر، وبعبارة عن أي مفارقة تاريخية *anachronisme*، كان هذا الأسلوب في إعداد القيادات أسلوباً ناجحاً وفعالاً، يبتعد عن الاختيارات العشوائية القائمة على المحسوبة أو العلاقات الشخصية أو غيرها، بصرف النظر عن الكفاءة. (المترجم)

فى هذا المكان طوال آلاف السنين. ويعتقد أنها كانت معاصرة لتاريخ بناء المعبد. كانت سبعة منها لاتزال فى مكانها، الواحد بجوار الآخر، وتستند إلى الجدار المبنى من الطوب، والذي يشكل السور الشمالى لمر تماثيل أبوالهول، وكانت قائمة بداخله وتتجه واجهتها الأمامية، ناحية الجنوب^(١١٢). وقد نقلت من مكانها لتصبح من مقتنيات **متحف القاهرة**، فى الوقت الراهن.

إن أكبر الألواح - ويعود تاريخه إلى العام ٢٤ من عهد الملك - دُون عليه نص حياة **ستاق**. لقد كانت جميعها ذات أشكال وأوضاع مختلفة، ومكرسة للآلهة المحلية والفرعون **رعمسيس الثانى**. إن ثلاثة من هذه الألواح مقدمة من **ستاق** شخصياً. أما الأخرى، فمقدمة إلى نائب الملك هذا، ذاته، من قبل مساعديه، ولاسيما من العسكريين ومن حملة البيارق، على وجه التحديد. وتشهد جميع هذه المعالم على إقامة الشعائر من أجل «**رعمسيس فى بيت آمون**»، أى الملك ذاته، تماماً كما كان يُعبد فى معبد **وادي السبع**^(١١٣).

كما كان يدخر لنا الموقع مفاجآت أخرى. وحديثاً وفى عام ١٩٥٩، وبينما كان **لييب حبشى**^(*) يقوم بجولة فى هذه المنطقة، ويزور خرائب معبد **أمحوتب** الثالث، سأل الحارس، وهو من أبناء المنطقة، لمعرفة «ما إذا كانت هذه الخرائب لا تزال تخفى شيئاً هاماً». فأجابه الرجل عن احتمال وجود تمثال ما زال مخفياً تحت الرمال^(١١٤). وكشفت أعمال التنظيف عن قاعدة تمثال جماعى وجزئه الأسفل. لقد كان حجمه فى الأصل حجماً طبيعياً. وهو من الحجر الرملى، ويصور **ستاق** وزوجته **موت** - **نفرت** أى «**موت - الجميلة**»، «**رئيسة حريم آمون**». فكم من الآثار ما زالت تنتظر الكشف عنها!

كما تساعدنا مبدونات **ستاق** على التعرف على بعض أحداث حياته الأخرى، الزاخرة بمختلف الأنشطة. هكذا، فمن المرجح أنه قد صعد إلى **مصر العليا**، بمناسبة الاحتفال باليوبيل الملكى الخامس، فى العام ٤٢ من عهد الملك. وبهذه المناسبة، فقد

(*) عالم مصريات مصرى. يحمل أحد شوارع **الاقصر** اسمه، ويقع بجوار فندق **إيتاپ** ETAP، ويربط شارع **كورنيش النيل** بشارع **معبد الكرنك**. (المترجم)

فعل في الحقيقة ما أقدم عليه الأمير **خع إم واست**، إذ أمر بنحت لوح صخري في بلدة **الكاب بمصر العليا**، وهو جدير بالملاحظة. وقد عُثِرَ عليه بجوار معبد، من العصر البطلمي، حُفِرَ نصفه في الجبل واللوح منحوت في ضلع من صخرة بارزة بروزاً طفيفاً. وقد شُيِّدَت أمامه شرفة من العصر **الهلينستي**، ومن المؤكد أنها قد أقيمت مع مراعاة وجود هذا اللوح، دون أن نعرف الهدف منها، على وجه التحديد^(١١٥)، حيث كان اللوح يضم الصور والنصوص المألوفة.

كان عدد كبير من الموظفين، يعاونون نائب الملك في إدارة مقاطعات **الجنوب**. وكان الأقرب منه «**قائمقام (إيدنق) منطقة واوات**» و«**قائمقام منطقة كوش**». إن عُمَدَ كبرى المدن مثل **ميعام (أو عنيية)** كانوا من المصريين، وفي الوقت نفسه كان يقع على عاتقهم إقامة الشعائر من أجل الآلهة المحلية. فالجمع بين مختلف الوظائف كان أمراً مقبولاً. هكذا فإن **حور نخث^(*)**، **قائمقام واوات**، كان أيضاً عمدة **ميعام**، وأيضاً ابن العمدة السابق. فقد أخذت وراثته المناصب تصبح أمراً مستقراً في مقاطعات الإمبراطورية البعيدة. وفي الوقت نفسه كان **حور نخث** كبير كهنة **حورس المحلي**. كما وُجِدَ أيضاً منصب «**رئيس كهنة كافة آلهة بلدان الجنوب**»، الغرض منه التنسيق بين مختلف العبادات.

كان «**رئيس شونة حورس (بلدة) ميعام**» و«**رئيس شونة حورس (بلدة) بوهن**»... وغيرهم، يحصون المحاصيل وقطعان الماشية، فيساهمون بالتالي في ازدهار البلاد. وكان «**رئيس حملة الأقواس ورئيس صحارى نهب آمون في النوبة**» يسهرون على استخراج المعدن النفيس.

كان الأفارقة كثيرون، فيقومون بحماية حدود الإمبراطورية الأكثر تطرفاً ناحية **الجنوب** ويؤمنون استثمار هذه الأصقاع.

(*) أي حورس قوى. (المؤلفة).

الأعياد الملكية، وأعياد اليوبيل

كان يفترض بصفة دورية أن يقوم الملك بتجديد ملكه، فضلاً عن تجديد قواه الحيوية فى الوقت نفسه، من خلال احتفالات طقسية، يدور بعض فقراتها علناً، فى حين كان بعضها الآخر على قدر كبير من الخصوصية. كان المصريون يطلقون فى العصور القديمة على احتفالات اليوبيل هذه، عبارة **أعياد سيد** ^(١١٦) (*).

كان الاحتفال باليوبيل عيداً كبيراً يعمُّ البلاد بأسرها، يستوجب استعدادات لفترة طويلة مع وجود مشرف عام مسئول عن التنفيذ.

كان جمع غفير من الحاضرين المختارين يحتشدون لهذه المناسبة. ويبدأ الاحتفال بوصول الآلهة والإلهات التى وُضعت تماثيلها على متن القوارب التى تشق مياه نهر النيل، لتلقى مراسيها فى المكان المخصص لإقامة هذا العيد. ومن بين الحضور كان الأمراء وكبراء أعيان البلاط وممثلو بلدان الإمبراطورية وسفراء البلدان الأجنبية. وفى المكان واليوم المحددين، يُعلن رسمياً الاحتفال بالعيد **سيد**.

تبدأ مراسم الاحتفال بموكب رسمى فى الفناء العام للمعبد، وفيه وفوق قاعدة أقيمت مقصورة مشيدة من مواد خفيفة، ويدخلها عرش. كان الملك فى صحبة الأمراء والوزيرين وكبار شخصيات الدولة وأعيانها قد غادروا القصر متجهين إلى المعبد. عندئذ يجلس العاهل الملكى على العرش بعد أن وضع التاج المزدوج ^(**) على رأسه. وأحياناً كانت تضم المقصورة غرفتين، فيظهر فيهما الملك على التوالى، مرتدياً تاج **مصر العليا** الأبيض فى الأولى، وتاج **مصر السفلى** الأحمر فى الأخرى. عندئذ كان يدير وجهه صوب الجهات الرئيسية الأربع، فارضاً سيطرته على هذا النحو، على الأرض بأسرها. وفى هذه اللحظة تقوم أربع مجموعات، تتكون كل واحدة من إلهين - هل كانت مجرد تماثيل أو أدوار إيمائية يؤديها الكهنة؟ - فيرفعون فوقه أياديهم. كان **تاتن وست** يمثلان الجنوب، و**أتوم وحورس** (؟) يمثلان الشمال، و**خپرى وجب**، يمثلان -

(*) **سيد**: كلمة مصرية قديمة. وأعياد **سيد** بالمصرية القديمة: **حب سيد**. (الترجم)

(**) **البيشت**. (المؤلفة)

الغرب، وإيزيس ونفتيس يمثلان **الشرق**. كان بعض الكهنة يصعدون درجات القاعدة ويقدمون للملك مختلف الأشياء المقدسة. نذكر منها على سبيل المثال، عمود سارية ينتهى برأس كبش **أمون** أو تصوير للإله **أتوم**، أو تمثال صغير لأبوالهول، بينما يرتل كاهن آخر التعويذة الآتية:

يتجلى حورس فوق عرش الجنوب، وعندئذ تلتقى السماء والأرض.

وتتكرر هذه التعويذة أربع مرات فى اتجاه كل جهة من الجهات الأصلية الأربع. وربما أشارت هذه الشعيرة إلى زمن لم تكن السماء والأرض منفصلتين فيه، فكانت الآلهة أول الملوك الذين حكموا العالم. ومعنى ذلك أن يكتسب الملك بفضل سحر الحركات والإيماءات والكلمات ملكاً ومصيراً إلهيين، بالإضافة إلى تسيدته على الكون.

بعد ذلك، يغادر الموكب فناء المعبد، ويتجه إلى مكان القصر الذى وقع عليه الاختيار لإقامة الشعائر الأخرى. وعندئذ تستطيع الملكة أن تنضم إلى الموكب، ولكنها لا تدخل المبنى. وعند مدخل القصر كان الملك يرتدى التاج الأبيض ويحمل الصولجان والسوط، وهى من شارات الملك. ويقدم قرباناً عظيماً إلى ضيوقة الآلهة. ثم يجلس فوق عرش متحرك يحمله ستة كهنة، ويدخل القصر.

ثم يظهر مرتدياً المعطف اليوبيلى. إنه رداء محبوب، يصل إلى الركبة، يتخذ من الأمام عند الرقبة شكل الرقم سبعة. ولا يظهر من هذا الرداء سوى اليدين. هكذا، وإذا ظهر الملك فى هذه الهيئة، يبدو أنه أراد الانتساب إلى آلهة الخلق ذات الرداء اللاصق المحبوك، مثل **پتاح** أو **أوزيريس** أو **مين**. إنها مالكة للقوى المتجددة إلى أبد الآباد، مثل قوى عالم النبات^(١١٧)، وهو ما تبرهن عليه، على ما يبدو، فقرات العيد التالية، وما زالت توضحه المشاهد المنحوتة على جدران معبد **سيلى** الأول الجنازى فى **أبيدوس**. كانت الشعيرة تقام إما فى مقبرة أو فى مقصورة صغيرة تحاكي شكلها. فيصور الملك ممدداً فوق سرير، وقد لُوئت بشرته باللون الأخضر. وعلى المظلة فوق السرير كتبت عبارة: «**استيقظ**». ويجوار المضجع الملكى، وضعت شارات السلطة من ملابس وأسلحة مُرتبة، والتي سيرتديها الملك أو يمسك بها، بعد أن يعود إلى الحياة. هنا نصل إلى ذروة الشعائر. سوف يعود الملك إلى الحياة، كما فعل **أوزيريس**، ليستهل

عهداً جديداً. وتتقف الآلهة هنا، تراقب الحياة الجديدة، على اليسار إمستى وحيى(*)، وهما من أبناء حورس، ومن آلهة الأكنية الكانوبية، الأول برأس آدمى والثانى برأس قرد شبيه برأس الكلب، وبجوارهما أنوبيس. وفى المقدمة صُور أوزيريس. أما على اليمين، فتوجد عشرون آلهة أخرى، نذكر منها نوا موتف وقبح سنوف، إنهما ابنا حورس الآخران، ورأسهما يزدان بهما غطاء الإناجين الكانوبيين الآخرين وهما على التوالى رأس كلب ورأس صقر. وبجوارهما توجد الآلهة شوت وتحتوت وإيزيس. ثم تُؤدَّى شعيرة فتح الفم التقليدية بواسطة آلهة من النحاس تشبه القدموم. كما تقدم له «هين حورس» وهى القربان الذى أعطاه الابن البار إلى أبيه أوزيريس بعد أن بُعث حياً. كما تقدم له جرة لبن، غذاء لهذا المولود الجديد المتميز. واللبن هبة من إيزيس.

وتتراحم الآلهة - كل الآلهة - لمشاهدة الملك، بعد أن تجددت قواه واستعاد شبابه ونشاطه، ليعود من جديد إلى قصره، حيث ينتظره عرشه الذى كان قد تركه ملكاً «خارت قواه».

هكذا، فإن الفرعون على امتداد زمن حياته، كان يحتفل لحسابه فى واقع الأمر، بسر أوزيريس المقدس. إنه لعبة درامية كبرى للحياة والموت وإعادة بعث الحياة، والتوحد مع مصير عالم النبات. إن أوجه الشبه مع المواقف والتعاويز، بتأثيراتها السحرية، كان يُنتظر منها أن تساهم فى الشباب الأبدى للعاهل الملكى. إن العيد سيد، وهو بمثابة إعادة شحن القوى الحيوية، ينطوى على لحظات أساسية ثلاث:

١ - فى المعبد، حيث يتوحد الفرعون مع الآلهة، أول الملوك الذين حكموا الأرض.

٢ - فى المقبرة، للانتقال إلى حياة جديدة.

٣ - فى القصر، فإن الملك المنهك القوى يستعيد نشاطه وحيويته ليبدأ عهداً جديداً.

(*) يجب التمييز بين الأسماء المصرية القديمة الآتية: حيى وهو اسم العجل أيبس، وحيى إله النيل، وحيى أحد أبناء حورس الأربعة. (المترجم)

كما أن طقسين بما لهما من مغزى، يختتمان هنا العيد: طقس رفع العمود جد وإقامته. إنه يصور شجرة قُضِبَتْ فروعها، رمزاً للآلهة الزراعية ومن ثم الجنائزية، مثل **سوكر وأوزيريس**. فمع طلوع الفجر يقوم الملك برفع العمود الراقد على الأرض بواسطة حبال، هكذا فإنه يحاكي التجديد المزدوج لقوى الحياة، ظهور الشمس فى الصباح واستفاقة عالم النبات. فالملك يولد من جديد، شأنه شأن الشمس والأشجار... إن هذا الطقس يؤكد ويثبت الطقس السابق الذى منح **الفرعون** حياة جديدة.

وكان فى وسع الملكة والعائلة المالكة أن يرافقوا الملك لحضور هذا الاحتفال. وأخيراً، يأتى الدور على طقس العدو. بل المقصود تكرار العدو، أربع مرات، لإتاحة الفرصة للملك الجديد، وقد ارتدى نقبة بسيطة يتدلى منها ذنب حيوان وتتقدمه سارية **وآب وأوات**، الإله ابن أوى، «**فاتح الطريق**»، أن يبسط من جديد سلطته على أملاكه الأرضية، فى الجهات الأصلية الأربع. ولاشك أن إتمام هذين الطقسين، كان يجرى فى مكان، لايبعد كثيراً عن القصر.

وأخيراً، وفى ختام هذه السلسلة الطويلة، تجرى محددًا احتفالات تتويج الملك.

ثم تستسلم المدينة للفرح والابتهاج ويبدأ العيد الشعبى.

إن «**إعادة شحن**» القوى الملكية لم تكن سمات تنفرد بها مصر فى العالم القديم. إننا نلتقى بها فى حضارات أخرى، وإن بمقومات مختلفة. إن التجديد والإحياء بواسطة النار، على وجه التحديد، كانا يمارسان فى كبرى المدن الفينيقية، مثل صور. فتُحرق دُمية تصور الملك، ليولد من جديد من رمادها ويحيا حياة جديدة^(١١٨).

من العام ٢٠ وحتى العام ٦٧ من حكمه، احتفل **رعمسيس الثانى** بثلاثة عشر يوبيلاً - أى مرة كل ثلاث سنوات تقريباً، بعد اليوبيل الأول، فى العام ٢٠.

إن الأعياد الأربعة الأولى، فى السنوات ٢٠ و٢٤ و٢٧ و٤٠ تولى الأمير **خع إم** وأست الإعلان عنها والإعداد لها، كما تشهد على ذلك المدونات والمشاهد المنحوتة فى المعبد المحفور فى صخر **جبل السلصلة**، بمصر العليا:

العام ٣٠، العيد سيد الأول، السيد القطرين، أوسر ماعت رع - ستپ إن رع، له الحياة للزمن اللانهائى. أمر صاحب الجلالة بالإعلان عن العيد سيد فى أنحاء البلاد، (من قبل) ابن الملك، الكاهن سم، خع إم واست^(١١٩).

النص منحوت فى كوة عند واجهة المعبد المحفور فى صخر الجبل وأمام صورة للأمير. وفى جزيرة بيجة^(*) أيضاً، قرب الجندل الأول، على نهر النيل، فى وسعنا أن نقرأ هذه المدونة الصخرية:

العام ٣٠، أول عيد سيد. العام ٢٤، تجديد العيد سيد. العام ٢٧، العيد سيد الثالث، السيد القطرين، أوسر ماعت رع - ستپ إن رع، سيد التجليات المجيدة، رمسيس - محبوب - آمون، له الحياة للزمن اللانهائى. قام صاحب الجلالة بتكليف^(**) الكاهن سم، خع إم واست، ابن الملك، بالإعلان عن أعياد اليوبيل فى أرجاء البلاد^(١٢٠).

والأقرب إلى الصواب، أن أحداث أول هذه الأعياد اليوبيلية على الأقل، قد دارت فى منف، العاصمة العتيقة، حيث كان يجرى على ما يرجح الاحتفال بأول هذه الأعياد الملكية. وفى سياق حديث تحتفظ به بردية هاريس Harris، يقول رمسيس إلى الإله پتاح:

من أجلك جعلت من اليوبيل الأول فى عهدى عيداً كبيراً وعظيماً (للإله) تاتن... لقد رُممت معبدك ومقاصير قصر اليوبيل بعد ما أصابها من دمار، منذ وقت بعيد^(١٢١).

لقد أراد رمسيس الارتباط بماضى مصر التليد والعريق بمختلف الأساليب.

(*) غرب جزيرة فيلاى. (المترجم)

(**) حرفياً: وضع أمام وجهه. (المؤلفة)

وكان الاحتفال باليوبيل الثانى احتفالاً عائلياً. إن لوحاً حجرياً جاد به أيضاً معبد **حور إم حب**، المحفور فى صخر جبيل **السلسلة**، يقف خير شاهد على أهمية درجة القرابة لكل فرد من أفراد العائلة المالكة. وكانت أولى الشخصيات النسائية آنذاك، **هى إيزيس - نوفرت**، بعد أن كانت **نفرتارى** الجميلة قد انتقلت إلى «دار الأبدية» الخاص بها.

وفى مشهد الوسط، المنحوت بالنقش الغائر، وأمام الإلهين **پتاح ونفرتوم**، نرى **الفرعون** فى صحبة «ابن الملك، محبوبه، الكاهن **سم**، **خع إم واست**» و«الزوجة الملكية العظيمة **إيزيس نوفرت**» و«الأميرة الأولى، العظيمة، ابنة الملك، الزوجة الملكية العظيمة **بنت - عنات**». وقد دُوِّنَ اسما الملكتين، الأم والابنة، داخل خرطوش. وصُوِّرَ فى الجزء الأسفل أميران، هما **رعمسيس وممر إن پتاح**^(١٢٢). إن ذرية **إيزيس - نوفرت** تحتل مركز الصدارة.

إن هذه الأعياد الملكية التى كان يصاحبها سلوك حاتمى من قبل العاهل الملكى فيكثر من العطاء، كانت بلا شك أعياداً شعبية. فنقرأ على **أوستراكون**^(*) النص الآتى:

منسوب **النيل** مرتفع من أجل العيد **سد الأول** (للفرعون) **أوسر مامت رع** - **ستپ إن رع**، ابن **رع**، **رعمسيس - محبوب - آمون**، له الحياة. إنه يجلب ذراعاً (من الماء)، ولا يوجد **سد** يصمد أمامه، إنه يصل إلى التلال، ويضم أعداداً لا حصر لها من الأسماك والطيور... وكل ما هو طيب يمكن أكله. القلوب سعيدة والآلهة تقيم الأعياد وروح **مصر** هادئة فى زمنه. إنه يخفى (?)، على مدار الأيام، أسماكاً وطيوراً والناس لا يحتاجون شيئاً، وعاد البلد إلى مكانه. و**التاسوع الإلهى** حشد (أبناء) **مصر العليا** للإكثار من أطعمتك، فتكون فى وفرة الرمال، وتفيض خزائنك بكل ما هو طيب،

(*) ostracon لفظ يونانى مفرد، وجمعه **أوستراكا** ostraca. إنه شقفة من الفخار أو الحجر الجبرى تستخدم فى الكتابة أو الرسم. (المترجم)

من زيت زيتون وبخور ونبيذ، بكميات لا حصر لها. إن شؤك تلامس السماء وتذخر
بالمأكولات، فهي مثل حبات الرمل.

وبعد أن تصور أبوك أمون كمالك في قلبه، فإن جميع الآلهة وجميع الإلهات
ترضى عن كمالك وتمضى سحابة يومها في المجامرة به: «أنت الملك الذي يعمل كليةً
بيديه، إنه يعرف قدرته، إنه باسل...» (١٢٣)

وبمناسبة الاحتفال بعيد اليوبيل الرابع، في العام ٤٠، يبدو أن بعض التنافر
قد نشأ بين خع إم واست والوزير خعي الذي كان قد خلف پاسو المخلص الأمين^(١٠).
فعلى اللوح الحجري الملكي في معبد حور إم حب المنحوت في صخر جبل
السلسلة، ورد النص الآتي:

كُفَّ صاحب الجلالة، الكاهن سيم، خع إم واست، ابن الملك، بالإعلان عن عيد
سد الرابع، في جميع أرجاء البلاد وفي أنحاء مصر العليا ومصر السفلى.

وعلى لوح حجري وضع في هذا المعبد ذاته، من قبل الوزير خعي، ورد النص
الآتي:

كُفَّ صاحب الجلالة الوزير خعي، النبيل، الأمير، الأب الإلهي، المحبوب، فم
نحن، الخادم الأول للإلهة ماعت، قاضى المدينة وعمدتها، (كُفَّه) أن يعلن إقامة العيد
سد الرابع، في جميع أرجاء البلاد وفي أنحاء مصر العليا ومصر السفلى^(١٢٤).

هل هو صراع على النفوذ؟، أو هو مجرد توزيع للأعباء، بين شخصين يحتلان
مكانة مرموقة في الدولة، فيقوم أحدهما بالنور الأكبر في مدينة منف والآخر بصفته

(*) كان رمسيس الثانى آنذاك فى الخامسة والستين من عمره. فبصفته حاكماً أوتوقراطياً، وفى
هذه السن الكبيرة بمقياس هذا العصر، وبعد أن حكم أربعين سنة متواصلة، هل يمكن القول
إن سيطرته على شئون الحكم قد بدأ يزحف عليها وهن الشيخوخة؟ (المترجم)

عمدة طيبة، مع بقاء الصيغة التقليدية دون تغيير؟ وعلى كل حال، فقد تكررت الظاهرة نفسها عند الإعلان عن عيد اليوبيل الخامس. أما العيد السادس فيستولى **خمي** بمفرده، على الإعلان عنه.

ونظل لا نعرف المدينة التي وقع عليها الاختيار لإقامة هذه الأعياد.

ويبدو أن **رهمسيس**، بعد أن احتفل بعيد اليوبيل التاسع في العام ٥٤ من حكمه، قد عهد إلى أبناء طيبة مهمة الإعلان عن هذه الاحتفالات والإعداد لها، على أن تقام في مدينة **هرموتيس** (*) (؟)، العاصمة القديمة لإقليم طيبة. ففي العام ٥٤، **كُف يوتا، الكاتب الملكي، كبير المشرفين في الروامسيوم ومعبد أمون.**

ثم جاء الدور على **ثغررنت**، عمدة طيبة، في العامين ٥٧ و ٦٠. أيعتبر هذا التكاليف دليلاً على الطموحات الجديدة التي كانت تحرك كهنة **أمون** الذين كانوا يستعيدون شيئاً من قوتهم، وهو ما نعرفه، على كل حال، من شواهد أخرى؟

وأكثر من أي ملك آخر، كان **رهمسيس**، «سيد أعياد اليوبيل» مثله مثل «أبيه»

بتاح.

المعابد والكهنة والأعياد المقدسة

إن «سلام الرعامسة» الذي استمر أكثر من خمسين سنة، قد أتاح للملوك تشييد المعابد وتجهيزها تجهيزاً نفيساً، بينما كان الاحتفال بأعياد الآلهة يجرى وسط مظاهر البذخ والأبهة، وابتهاج وأفراح شعب لم تعد أحزان الحروب الخارجية تعكر صفو حياته.

(*) أولى بالمصرية القديمة، وأرمنت حالياً. (المترجم)

ماذا كان الهدف من إقامة معبد إلهي وما هي دلالاته؟ إن معبد **أمون-رع** الكبير في **الكرك**، خير ما يوضح ذلك. فإذا تركنا جانباً ما دخل عليه من تغييرات ثانوية، يُمكننا الكشف عن العناصر الثابتة التي تشكل البنية الأساسية «لـ **قصر الإله**».

بداية فلننظر إلى النسق الذي يربط مختلف أجزائه، فمن خلال مسار قد يطول أو يقصر من الغرب إلى الشرق، ينتقل المرء من عالم الدنيا إلى عالم المقدس، ومن النور إلى العَمة.

ومن النهر يبدأ طريق كبير، تحفه على الجانبين تماثيل أبو الهول، ويفضي إلى الصرح الذي يشكل مدخل المكان المقدس. كانت الآلهة تتجسد آنذاك في هيئة أبو الهول، لتقوم بحراسة مسكنها الخاص. وأمام المعابد المكرسة للإله **أمون**، كانت هذه التماثيل برأس كبش، الحيوان المقدس للإله **طية**. وفي **الكرك** وُزِعَ أربعون منها على صفين متواجهين. ولكن في **وادي السبع** على سبيل المثال، فإن تماثيل أبو الهول وهي بجسم أسد. كانت برأس صقر، وهي حالة شنيعة الندرة. ومردُّ ذلك أن المسكن الإلهي كان مكرساً للإله **رع** -- **سور أختي**، **الهنويوتاني**.

كان الصرح يتكون من برجين كبيرين من الحجر، يستطيلان عرضاً، وتميل واجهته الخارجية بوضوح كلما ارتفعنا إلى أعلى، مع بقاء واجهته الداخلية عمودية. ويكتنف البرجان باب المدخل، كان طول الصرح الأول في **الكرك** ١١٢ متراً وسُمكه ١٥ متراً. والصروح مجوفة في داخلها، وقد يُبنى فيها أحياناً سلَّم يصعد إلى القمة، إلى جانب حجرات للكهنة أو لاستخدامها مخازن (?). كانت واجهة الصرح تزدان بسوارٍ مركبة في سُمك البناية، ترفرف في أعلاها البيارق التي تشير، من على بعد، إلى وجود مسكن إلهي. وأمام الصروح تنتصب مسلتان من كتلة واحدة في أغلب الأحوال، وفي بعض الأحيان كانت تقام تماثيل عملاقة للملك، فأقيمت ستة تماثيل في معبد **الأقصر**، تُصور **رهمسيس الثاني**، في صحبة **نفرتاوي**. وعلى سطوح الصروح وعلى جدران المعبد الخارجية، كانت النقوش تروي مآثر العاهل الملكي البطولية.

وبعد عبور الصرح ندخل إلى فناء ذى صُفَات، وهو القسم العام من المعبد، حيث تنتظر جماهير الشعب، على وجه التحديد، مرور المواكب الدينية. وفي الغالب كانت تماثيل ملكية وموائد قرابين مقامة فى الفناء.

يلى ذلك بهو الأساطين الذى تؤدى فيه بعض المراسم الشعائرية، التى لا يحضرها سوى الكهنة وبعض المحظوظين من عليّة القوم. كان هذا الفناء عبارة عن صحن فسيح من الأساطين. كان بهو الكرنك، وهو من عمل سيتى الأول ورعمسيس الثانى، فى المقام الأول، يبلغ ١٠٢ متر طولاً و٥٢ متراً عرضاً، ويضم ١٣٤ أسطواناً عملاقاً، يبلغ ارتفاعها ٢٣ متراً. وقد نُقِشت عليها ورُسِمت مشاهد دينية، تلتزم بالمواضيع الثابتة المتواترة، فتُصور تقديم القرابين وإطلاق البخور والتطهر والتعبد للإله.

وأخيراً، وفى المؤخرة، وشرق بهو الأساطين، توجد أجنحة الإله الخاصة، حيث لا يدخلها إلا الكهنة «أصحاب الأيدي الطاهرة» أو العاهل الملكى. وتضمّ، **الناوس**، وهو عبارة عن مقصورة مربعة ذات سقف هرمى الشكل، إشارة إلى المعابد البدائية، وكان يُحتفظ بداخلها بتمثال الإله، فى دولاّب من الحجر الصلد. كما كان يوضع قارب المواكب الرسمية أحياناً فى هذا **الناوس** أو فى حجرة ملحقة. وفى بعض الأحوال كانت مقاصير ثانوية تظلّل بعض الآلهة الأخرى. هكذا، فبمعبد **پتاح** فى **منف** حلت **هشتروت** ضيفة عليه، بصفتها «ابنة» الإله، عملاً بحركة التجميع الروحى الكبرى التى أرادها **الرعامسة**. وكان بعض المقاصير الجانبية بمثابة حجرات يحفظ فيها كل ما هو ضرورى لإقامة الشعائر.

وبجوار المعبد كانت «بحيرة مقدسة»، تعيد إلى الأذهان المياه الأولية التى غطّت الكون فى مرحلة ما قبل الخلق، ثم انبثق منها الإله الخالق، من تلقاء ذاته، فى اليوم الأول. كانت البحيرة المقدسة احتياطياً كامناً للقوى، فمنها ومع كل فجر جديد، من المنتظر أن ينبثق الخلق من جديد، فى دورة أبدية للحياة المتجددة على الدوام. وهنا، كانت تقام مراسم شعائرية فى تواريخ محددة، كما كان يجد فيها الكهنة ماء الطهور اللازم للوضوء.

وكانت تلحق بالمعبد فى حد ذاته بعض المباني لاستخدامها سكناً للكهنة أو شؤناً أو مخازن أو «بيوت حياة» (*) للكتابة والحرفيين والمزخرفين. كان سور شاسع من الطوب يحيط بالحيازات المقدسة. وفى الكرك كانت أبواب من الحجر الرملى تتفتح فى محاور المعبد.

كانت المعابد الجنائزية لفراعنة مصر تلتزم بصفة عامة منذ عصر التحامسة، بالتخطيط نفسه للمعابد الإلهية. وتقام على مقربة من النيل، على البر الغربى من مدينة طيبة، عند الحد الفاصل بين الأرض الزراعية والصحارى، وبعيدة عن المقبرة المحفورة فى صخر الجبل الغربى.

كان المعبد المصرى يرتبط بفلسفة خاصة، فجاء تعبيراً عنها. فلم يكن مكاناً للصلاة أو للخلو مع النفس، يستطيع كل فرد أن يحضر الشعائر الدينية، كما هو الحال بالنسبة للكنائس المسيحية أو المساجد الإسلامية أو المعابد اليهودية.

المعبد المصرى مكان مغلق، يعمل فى خدمته أشخاص من أصحاب الحظوة، وقع عليهم الاختيار طبقاً لمعايير على قدر كبير من الصرامة، فيكلفون بالسهر على إله المعبد ورعايته. هكذا كانوا يساعدون فى الحفاظ على ترابط عناصر العالم وتماسكها. وبالفعل، فإن ما صنعه الخالق من عمل منظم منذ اليوم الأول، تهدده على الدوام قوى الخواء، فعلى الرغم من إقصائها فإنها تظل تشكل خطراً دائماً. والآلهة وحدها فى وسعها حماية النظام. وإذا كانت هذه الآلهة تتجلى فى أشكال مرئية متعددة، آدمية أو حيوانية أو نباتية، فقد كانت لها «قصور» على الأرض. ولما كانت حالة فى تماثيلها، كان لابد من حمايتها من كل إصابة عداوية أو شوائب تنتقص من فاعليتها. لهذا السبب يتم إسكان الإله فى أعماق المعبد، تحميه سلسلة متعاقبة من الحجرات والقاعات، يحرم دخولها على البشر، وتظل غارقة فى ظلام دامس لا يوحى بأى شىء. إن خدمة الآلهة تستدعى ليس فقط التعبد لها ولكن أيضاً حراسة يقظة وفطنة.

(*) أى مدارس. (المترجم)

إن مختلف عناصر البناء فى حد ذاته، لها دلالتها الرمزية. فيشير الصرح إلى جبل الأفق بـتليّه(*)، فمنه تبرز الشمس مع كل فجر جديد(**)، إنها لحظة خلق متجدد إلى أبد الأبد. ومدخل المعبد بمثابة بياض الصبح الذى يدعو يومياً إلى حياة جديدة، المدخل إلى الطريق الذى يسلكه أجرم الحياة.

كان المصريون «يصعدون» إلى المعبد. وبالفعل فإن أرضية المكان المقدس ترتفع ارتفاعاً منتظماً إلى حد كبير، بدءاً من المدخل وصولاً إلى قدس الأقداس، وعلى العكس يميل السقف إلى الانخفاض. هكذا، فإن الكون قبل الخلق، كانت تعلوه الأكمة المنبثقة من المياه، وعليها سوف يُقدم الخالق على عمله المبدع. إن **الناووس** الذى يضم صورة الإله، وهو النقطة التى تتجه إليها أرضية المعبد وسقفه، يشير إشارة موحية إلى هذه الأكمة، تماماً كما أن مياه البحيرة المقدسة تشير إلى العالم غير المخلوق، وإن كان يحتوى منذ تلك اللحظة قوة النور والحياة وقدرتهما.

ويشير بهو الأساطين إلى العالم المصرى، فالسقف الملون باللون الأزرق هو السماء. إنها مرصعة بالنجوم الصفراء، فالنحاس فى نظر الفكر المصرى كان المادة التى تتكون منها النجوم. ويزدان أحياناً بخرائط النجوم(***) أو بدوائر البروج(****). ومن «تربة» الأرضية، ترتفع نباتات المستنقعات، التى تزخرف صورها قاعدة الجدران،

(*) راجع العلامة الهيروغليفية جي برناديت موني: المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٩٩، ص ١٩. (المترجم)

(**) راجع العلامة الهيروغليفية أ. هـ. المرجع السابق ص ٣٦. (المترجم)

(***) ومن أمثلتها الحجرة الفلكية فى **الرامسيوم**، معبد ومسييس الثانى الجنازى. (المترجم)

(****) ومن أشهر أمثلتها دائرة بروج معبد **لمنفة**، وهى من الحجر الرملى، وتعود إلى القرن الأول قبل الميلاد. ومساحتها ٢٥٥ سم × ٢٥٢ سم. وللأسف فقد قطعها أحد تجار الآثار الفرنسيين عام ١٨٢١، ونقلها إلى فرنسا. وهى من مقتنيات متحف اللوفر فى الوقت الراهن. راجع:

G.Andreu, M.-H.Rutschowskaya, Ch.Ziegler. L'Egypte Ancienne au Louvre, Hachette. 1997,

pp.210-211. (المترجم)

فى حين إن «غابة» الأساطين النباتية بتيجانها التى تحاكى شكل نبات اللوتس أو
البردى أو سعف النخيل تشير إلى خصوبة الأرض.

ولما كان المعبد هو العالم الأصغر microcosme، المحمل بقوى سحرية، فقد
كانت الغاية منه حماية الآلهة، وبالتالي الإبقاء على ترابط الكون وتماسكه.

كان الملك الضامن الأول لهذه الحماية ولهذا الترابط ولهذا التماسك، لأنه هو
الذى يقوم بتشديد القصور للآلهة^(١٢٣)، ويوفر لها كل الخيرات ويكفل حسن أداء العمل
فيها. ولما كانت الآلهة والملوك مرتبطة من خلال خدمات متبادلة، فإنها تساهم فى
توازن العالم وفى الوثام والسلام بين البشر.

إن مدونتين كبيرتين، تعودان إلى عهد سیتی الأول، تقدمان دليلاً مسهباً على
هذه الأيديولوجية. الأولى وهى مشوهة فى بعض أجزائها، منحوتة على الجدار
الجنوبى من معبد إسطنبول منتر^(*)، فى مصر الوسطى، إلى الجنوب قليلاً من بنى
حسن، والمكرس للقطعة پاخت^(**). وفى لوحة ضخمة نرى، على اليسار، سیتی الأول
راكعاً بين أمون رع الذى يمد يده نحوه، وپاخت التى تنظر إليه، وهى بجوار تحوت.
وعلى اليمين تقدم پاخت شارات الملك، بينما يلقى تحوت الخطاب المألوف فى هذه
المناسبة.

ويقول النص تحديداً:

الإله الكامل، ابن باستت، الذى أرضعته سخممت^(***)، سيدة السماء^(١٢٤)، إنه
بيضة رع، التى جاءت پاخت بها إلى الدنيا، والذى قامت الساحرة العظيمة على
تربيته، إنه البذرة الإلهية المنبثقة من أئوم، والذى أطعمته واپت... إنه الملك اليقظ

(*) أطلق الإغريق على هذا «البيت الإلهى فى الوادى»: سبيوس آرتميدوس Speos Artemidos، أى

كهف آرتميس Artemis. (المؤلفة)

(**) قطه أو أسدة، فالخلط بين الحيوانين قائم فى بعض الأحوال. (المؤلفة)

(***) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

الفطن، الذى أنجز أشياء مباركة، إنه ابن **التاسوع** البكر على أكمل وجه، الذى يبنى المعابد، ويرمم المعابد التى تهاوت وغطتها الأتربة، ليجعلها أكبر من ذى قبل... والذى يتيح للصور المقدسة أن تستريح فى مقاصيرها، ويمدُّ موائد القرابين باحتياجاتها اليومية... ودُشِّنت معالم أكثر جمالاً من تلك التى كانت موجودة من قبل. كانت موائد قرابينها مصنوعة من الذهب والفضة وبأعداد تفوق الحصر... ومباخرها من الذهب والفضة. وشؤونها(*) تفيض بالقمح، وخزائنها تزخر بثروات متنوعة، والخدم ملحقون بالمعابد، والحقول والبساتين وظفت بها هيئة من العاملين... هكذا فإن الساكن المقدسة مجهزة «بما يفوق الأفضل» ولن يقال فى المستقبل: «آه! لو كنت!» وذلك بفضل حياة وازدهار وقوة **ملك مصر العليا ومصر السفلى**. من **ماعت رع**، ابن **رع**: **سيتى - محبوب - پتاح...**

وتتحدث **پاخت** سيدة **چو-دس** إلى **تحت**، سيد الكلمات الإلهية، قائلة:

تعال، لمشاهدة هذا المعلم البالغ العظمة والروعة، الذى صنعه من أجلى ابنى الحبوب، **سيد القطرين**، من **ماعت رع**، وفقاً لما أمرت به فى المرة الأولى، بعد أن تحدثت بفمك قائلاً: «سوف يشرق ابنى على العرش ويبقى على كرسى الملك لزمان لانهاى، إنه ابن **رع**، **سيتى - محبوب - پتاح**. سيقوم شخصياً ببناء العالم من أجل الآلهة، بموجب ما يأمره به ملك الزمان الأبدى. سوف يشيد معلماً صرحياً من أجل **پاخت** ويشكل (صور) الآلهة.

(*) جمع **شولة**. وفضلت استخدام هذا اللفظ، المستخدم فى المصرية والمنقول عن المصرية القديمة **شلتوت**، أى مخزن غلال، راجع: المعجم الوسيط، وبرناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى، الترجمة عن الفرنسية، ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩، ص ١٢٠. (المترجم)

لقد عمل وفقاً لما أمرته به، يا رب الزمن الأبدى. لذا، امنحه الحياة والثبات والقوة، ويكون الفرح كله إلى جواره.

امنحه أبدية مماثلة (الأبدية) جلالتك والالاهائية التى تقيم فيها.

امنحه نصراً على نصر، مثل (الإله) مع... فلتكن ضرائب الجزية بلا حصر، (الضرائب) التى تقدمها (بلاد الإمبراطورية)، مجمعة فى قلب واحد.

امنحه أعداداً وفيرة من القطعان وعشب بلا حصر كالجراد.

امنحه أنهار نيل عظيمة، تتوفر فيها الأشياء كلها بأنواعها.

امنحه بلداناً سالمة... وليسكن قلبه فى كل مكان، يود أن يوجد فيه!

يسر له أن تضع الآلهة جمعاء من حوله حمايتها السحرية، مع الحياة والثبات والقوة، بمقتضى دعاء ابنتك العظيمة. فلا ينسين أحد ما أقوله»

كلمات قالها تحوت، رب الكلمات الإلهية:

«كم هى رائعة كلماتك، يا پاخت، يا سيدة حوس. سوف أقيم ابنى إقامة راسخة، (ابنى) سيد القطرين: من مات رع، ابن رع الذى يرضى الآلهة، سيد التجليات المجيدة، سيتى - محبوب - بتاح، بصفتك الملك الأبدى، بسبب المعلم الذى شأده من أجل أمه پاخت، سيدة حوس العظيمة، للزمن الأبدى وللزمن الالانهائى (١٣٧)».

إن العبارات الدالة على هذا التبادل الموفق للخدمات بين الآلهة من جهة والملوك من جهة أخرى، نلتقى بها فى نص آخر يعود تاريخه أيضاً إلى عهد سيتى الأول، وعُثر عليه مؤخراً فى بلدة فوري بالسودان، على بعد ٢٥ كم شمال الجندل الثالث، إنه منحوت على لوح صخرى ضخمة، مساحته ٢٨٠ سم فى ١٥٦ سم، ويضم نصاً من ٥٩ سطراً. وعلى يسار هذا اللوح نحتت فى الصخر ذاتة مدونة من ٦٩ سطراً. وهنا

فإن أملاك **أوزيريس** المقدسة فى **أيبلوس**، هى هدف هبة العاهل الملكى. ويعلم النص على وجه التحديد، فى سياق خطاب الملك:

لقد وفرت حماية جديدة لمدينة **أيبلوس** وازدهاراً لهيئة العاملين بها، بفضل ما قرّرتّه. لقد شُيّدت قصره الإلهى ليكون شبيهاً بأفق السماء، فبغير إشعاعه كل الوجوه. لأن صور **أرباب الأرض الكبيرة** (١٢٨) (*) قد عُشّيت بالذهب. أما الصور الإلهية القائمة على عروشها فإن أشكالها حقيقية وسليمة، كما كانت فى زمن رع، بينما رُصّعت قواربها بالأحجار الكريمة. إنك تقدم لها ماص (١٢٩) على مدار الأيام، لأنها تحيا بها. كما تُقدّم لها المسكويات الطاهرة والنباتات والأزهار وقرابين الخبز. وتجلب لها «المياه المتدفقة فى اتجاه الشمال»، إلى المكان الذى يريده **[أوزيريس]** من أجل إطعام **أرباب الأرض المقدسة**.

لقد ازدان القصر الإلهى بكميات كبيرة من الذهب، من إبريز الصحارى. وعندما يشاهده الناس تهلل القلوب فرحاً وتتعالى أصواتهم حمداً وتسيباً. إن قيمته تُضفى عليه هيئته، مثل مية أفق رع فى فجره الفتى. إن الباحة فى المعبد أشبه بمسطح من الفضة، تتألق عند مشاهدتها. إن أبواب القصر الإلهى البالغة الضخامة، مصنوعة من خشب أشجار أرز الغابات، وعُشّيت مصاريعها بالذهب الخالص والجانب الخلفى من تجايفها (?) من النحاس. ويستعيد المرء نشاطه وحيويته عندما يشاهد أشكالها والصروح الضخمة من الحجر الجبرى الوارد من طرة، وأبوابها من الجرانيت، إن جمالها يدانى عمود السماء، ويتأخى مع رع فى أفقه.

وتبدو البحيرة الممتدة أمام المعبد أشبه بالشديدة الاخضرار التى لا نعرف شيئاً عما تحيط به. وعند النظر إليها، فإنها تتألق مثل لون اللازورد. وفى وسطها نبات البردى والبوص. وتزخر يومياً بنبات اللوتس المزفر... إنها محاطة بأشجار تلامس السماء، صلبة العود صلابة أشجار الأرز فوق جبالها. إن القارب **نشمس** (١٣٠)

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

الكبير ينضم إلى البحيرة لتأمين إبحار والد هذا المعلم. (وإذ يشاهد كل ذلك)، يتهلل فرحاً ويسعد ملاحوه...

إن المخازن مكدّسة بالأطعمة والقرايين الإلهية بملايين الملايين. والخدم العاملون هنا هم أولاد الزعماء الذين أسرههم الملك فى بلاد **الريقتو**. ويجعل كل واحد يعرف واجبه المرتبط بقواعد الطهارة. كما قدّم له أيضاً مواقع تربية الطيور فى بركة، حيث أعداد الطيور بعدد حبات رمال الشاطئ... ومن أجله، تُشوى الطيور فى معبده. والحظائر مملوءة بالثيران السمينية والأبقار والعجول والمعز والمهوات^(*). ويصل عدد العجول الصغيرة إلى مئات الملايين. ولا توجد قواعد تساعدنا على حساب كمياتها الضخمة. إنه يُكثر من **أجله** جميع المواشى من كل الأنواع التى تضرب فى الأرض. والثيران التى تُساند الأبقار، تزيد أيضاً من أعدادها. والنباتات الغضة كثيرة وسط العشب، ونبات البوص يزدهر من جديد، فى فصل النماء، وبالملايين أيضاً... ويسهر الرعاة على قطعانهم، وسوف تنتقل هذه المسئولية أباً عن جد، للزمن الأبدى واللانهائى. وتُعطى لهم المروج، عند مدخل مواقع تربية الطيور^(?) فى البرك، كما تقدم لهم الأوراق والزهور. وتترك لهم الأرض لاستخدامها طريقاً للسير ولايدخلها أحد، وتتجول الثيران والأبقار فى البرك وعلى الشطآن... فى حين تلد الأبقار وتلازم العجول الصغيرة أمهاتها، لأنها لم تنفصل بعد عنها.

كما تكونت أساطيل صغيرة من المراكب، لتجلب إلى المعبد مزيداً [من النباتات المقدسة؟، أهى أشجار بخور؟]، وقد وصلت أعدادها الكبيرة جداً حتى أصبحت تغطى **الشبيدة الاخضران** فى حين لم تعد المراكب موجودة عند مصبات النهر. كان طول السفن المزودة بملاحين، يبلغ مئة ذراع، ومن بين حمولاتها نباتات بلد الإله [أى بلاد **بونت**]. وكانت ترسو فى الميناء، حتى تُطعم **الأرض الكبيرة**، حتى أطرافها.

كما أجرى من **أجله**، تعداداً بالملايين، للأراضى المنخفضة وللجزر والأراضى المرتفعة ولجميع الحقول ذات المحاصيل الوفيرة بالخيرات، والتى ينوى تقديمها إلى **كانه**^(١٣١).

(*) جمع: المهاء. (المترجم)

يميل هذا النص أحياناً إلى الأخذ بمواضيع تقدم وضعاً لمشاهد ريفية مثالية، إذ كان المصريون بصفتهم فلاحين، تشد حياة الحقول انتباههم على الدوام، وأحبوها، كما يعطينا عن ثراء المباني الشامخة والهبّات المقدمة إلى المعابد فكرة يعوزها الوضوح والدقة، وإن أخذت بطبيعة الحال، بعين الاعتبار، تمجيد أفعال العاهل الملكي، كاللزّمة مألوفة شاعت في كتاباتهم ومدوناتهم.

يلى ذلك نص مرسوم **سيّتى الأول**، الذى يمنح بعض الامتيازات لأملاك **أوزيريس** فى **أبيدوس**، وتحديدأ إعفاء هيئة العاملين فى المعبد من التجنيد ومن أعمال السخرة المعتادة، والتصريح لهم بحرية الملاحة عبر نهر **النيل**، ومنع أى كائن من كان، أن يقترب من أراضي المكان المقدس ليضع يده على أى شخص أو يستولى على أى حيوان من حيوانات القطعان أو أى حقل. وسوف يعاد نسخ هذا النص، بعد انقضاء قرن من الزمن تقريباً، فى عهد **رمسيس الثالث**، لصالح الإله **خنوم** فى **إلفنتين**.

لماذا إذن نُحت هذا المرسوم فى أراضي **السودان** القصية؟ إنه أيضاً أسلوب آخر من التدوين كتابية، ينطوى إذن على قدرة إيجاد واقع ملموس، والإعلاء من شأن قوة ملك **مصر** وسط هذه الشعوب التى تجنح بسرعة إلى التمرد، بالإضافة إلى التأكيد، بأسلوب على قدر كبير من الوضوح، على سعة الرخاء الذى فى وسعه أن يمنحه.

وفى المقابل، فإن آلهة **أبيدوس** و**أوزيريس**، اعترافاً بالجميل، سوف تمنح العاهل الملكى «مدة حياة ربح ومُلْكاً أرضياً ثابتاً ودائماً على عرش **حورس**، لزمن لانهائى^(١٣٢)». كما سيقوم **رمسيس الثانى**، فى سنواته السلمية، بإمداد الأماكن المقدسة بثروات مادية طائلة.

الكهنة والشعائر الدينية

كان المعبد إذن مكاناً أثيراً، ففيه يحافظ الإله على توازن العالم، بمعاونة الملوك. ولما كان موجوداً فى تمثاله، داخل **الناوس**، فقد كان كياناً معرضاً للإصابة بأى

أضرار، ولابد من حمايته ومساعدته على الحياة، بتنظيفه بالماء وإلباسه وإطعامه وحفظه بعيداً عن أى شائبة أو دنس، من أجل تأمين فاعليته المقدسة.

ومن الناحية النظرية، كان الملك وحده أهلاً لأداء الطقوس الإلهي. فالنقوش المصرية، تصور دائماً الملك وهو يقيم هذه الطقوس. ولكن لاستحالة وجوده فى جميع معابد البلاد فقد فوض سلطاته لبعض الكهنة المختارين. إن إدارة الأملاك الدنيوية وأداء الشعائر، كانا يتطلبان وجود هيئة كبيرة من العاملين فى كل معبد من المعابد، سواء كانوا من العلمانيين أو من رجال الدين.

١ - رجال المعبد

تيسيراً على القارئ، سوف نطلق اسم «كبير الكهنة» على الحبر الأعظم على رأس كل عبادة من العبادات، ولكن المصريين كانوا يطلقون عليه فى معظم الأحوال «الخادم الأول للإله»، أو على وجه التحديد، «كبير متاملى رع» للإشارة إلى كبير كهنة هليوبوليس، أو «رئيس الحرفيين» للإشارة إلى كبير كهنة پتاح أو «كبير الخمسة فى منزل تحوت»، وهو كبير كهنة هرموبوليس، كإشارة إلى أولى النظريات اللاهوتية التى تمت صياغتها فى هذه المدينة، والقائلة بأن العالم خلقته خمسة كيانات إلهية. إن كبير الكهنة، وهو الرئيس الدينى الذى ينوب عن الملك، كان يشغل أيضاً منصباً إدارياً، فينهض بأعباء عدد من الوظائف الدنيوية المهمة: فيقوم بتدبير شئون الأملاك التابعة للمعبد. بل حدث فى عهد رمسيس الثانى، أن كهنة أمون فى طيبة، كانت تحت إمرتهم ملشيا مسلحة.

كان كبير الكهنة، من حيث المبدأ، يعينه الإله بواسطة هاتف الوحي الإلهي، ولكن فى واقع الأمر، كان يعينه الملك الذى يختاره، فى أغلب الأحوال، من بين كبراء العصر، تقديراً لخدماتهم المخلصة النزيهة، ورغبة منه فى تكريمهم. كأن يكون من أعيان البلد أو وجهائه أو من قادة الجيش، وقد سبق أن تحدثنا عن بعض هذه النماذج. لم تعرف مصر تراتبية هرمية كهنوتية، بالمعنى الحرفى للعبارة. إن اثنين فقط

من كبار كهنة أمون، استطاعا في عهد رمسيس الثانى، أن يصلا إلى منصب الحبر الأعظم، بعد أن اجتازا كل درجات المراتب الكهنوتية.

كانت هذه المراتب بالغة الأهمية. فالكهنة الذين وصلوا إلى أعلى الدرجات، كان يُسمح لهم «بتأمل كل تحولات الإله»، أى الاقتراب من قدس الأقداس، ومشاهدة تمثال الإله. كان يطلق عليهم، حسب المكان، «الآباء الإلهيون» أو «خُدَّام الإله» فى أغلب الأحوال. أما الإغريق فقد أطلقوا عليهم اسم *الأنبياء* Prophètes^(*)، لأنهم نظروا إليهم باعتبارهم لسان حال الوحي المقدس. إن هذه التسمية تقلص إلى حد كبير من دورهم، كما كانوا يوزعون، فى أغلب الأحوال، على أربع طبقات متعاقبة. وفى استطاعة «خادم الإله الثانى» أن يحل محل كبير الكهنة فى مختلف مهامه.

ولما كان المعبد مكان طهارة، فلا يُسمح بالتالى بدخول عامة الشعب، فقد كانت الطهارة البدنية فرضاً أساسياً لابد أن يلتزم به خُدَّام الإله. كان عليهم أن يتوضأوا «مرتين أثناء النهار ومرتين أثناء الليل»، وأن تكون رءوسهم محلوقة وقد أزيلت أشعارهم وتُتفت، وختنوا أيضاً، وأن يمتنعوا عن كل علاقة جنسية طوال فترة خدمتهم فى المعبد، وألا يتصرفوا بما يتعارض مع النواهي الدينية الخاصة بالإله المدينة كالحرمانات الغذائية أو الأفعال الممنوعة. وعليهم ألا يرتدوا سوى الملابس المصنوعة من أرق أنواع الكتان، لأن استخدام الصوف والجلود كان محظوراً حظراً مطلقاً، فكلاهما ناتج من حيوان فيه حياة.

كانت هذه الفروض الصارمة تُلزم أيضاً الكهنة من شاغلي المراتب الأخرى. كان الكهنة - المرتلون^(**) هم العلماء الذين يعرفون إذن التعاويذ المطلوبة لأداء الشعائر وترتيب فقراتها. إنهم ينظمون الاحتفالات الدينية، ويسهرون على التقيد بتقيداً صارماً بترتيبات الطقوس الدينى، ويقومون بتلاوة الترانيم الخاصة بإقامة الشعائر.

(*) من اليونانية *prophētēs* أى لسان حال أحد الآلهة. (المترجم)

(**) ويطلق عليهم بالمصرية القديمة: «أولئك الذين يحملون لُله» (بردى) «نُوتت عليها تعاويذ ترتيبات الطقوس النينية». (المؤلفة)

وكان كبير الكهنة المرتلين هو أيضاً كبير السحرة، فوجوده يبعث الحياة فى عدد كبير من قصص الأدب المصرى المثيرة للإعجاب.

ومن بين هيئة الكهنة العلماء فى المعبد نذكر **الكهنة - الفلكيين**، الذين يحددون أنسب المواقيت لإقامة الاحتفالات الدينية، و**الكهنة - المنجمون**، الذين يميزون بين أيام السعد وأيام النحس على مدار السنة. كانوا عارفين معرفة واسعة بدلالة الإشارات التى ترسلها الآلهة إلى البشر، كما كانوا يقدمون خدماتهم بصفقتهم قادرين على طرد الأرواح الشريرة أو بصفقتهم أطباء.

كان «**الكهنة - الأطهار**» يقفون، على ما يبدو، على رأس التراتبية الهرمية لكهنة مصر، كما كان يطلق عليهم «**الكهنة من أصحاب الأيدى الطاهرة**»، ويكلفون تحديداً بزينة الإله. وفى المواكب الدينية، كانوا يسيرون أمام القارب المقدس أو يحملونه. كما كانوا يؤدون بعض الأعمال المادية فى المعبد، فهم أشبه بالكاهن المسئول عن شئون المعبد، فيصعب الاستغناء عنه.

ولكن الخدمة الإلهية فى مصر التى تؤديها هيئة ثابتة من الكهنة، لم تكن هى نفسها على مدار السنة. كانوا موزعين على أربع فرق متماثلة من حيث تشكيلها. كانت كل فرقة منها، تأخذ على عاتقها الإدارة المادية وأداء ترتيبات طقوس الشعائر الدينية طوال شهر واحد. ومن الناحية النظرية، فإن كل كاهن من كهنة كل فرقة، لم يكن فى الخدمة سوى لفترة ثلاثة أشهر فى السنة. وفى فترات فراغهم، كان فى وسعهم، إذا رغبوا، أن يعودوا إلى قراهم ويعيشوا حياة المصريين العاديين. فلم توجد حواجز صارمة تفصل حياة رجال الدين عن غيرهم من العلمانيين. ولكن كان الكهنة طوال فترة خدمتهم فى المعبد يخضعون لفروض بالغة الصرامة، والتقيد بها أمر واجب، لتجرى فقرات إقامة الطقوس الدينية حسبما تقتضيه الشعائر المقدسة. كما كان لابد أن يتمتع هؤلاء الرجال بمثل أخلاقية سامية حتى لا يستسلموا لبعض إغراءات الحياة العلمانية التى يعودون إليها بصفة دورية، فيظلون الخدام «من أصحاب الأيدى الطاهرة»، فلا يحق لهم انتهاك أى من المحرمات المادية أو الروحية. فإذا كان الدين

religio(*) رباطاً يوحد الآلهة والبشر، ويسمح لهؤلاء أن يفهموا القوى الخارقة للطبيعة، ويؤثروا فيها عند الضرورة، فقد كان الكهنة بفضل نظامهم الشخصي المنضبط يساهمون أيضاً في تأمين حماية كل ذلك والحفاظ عليه.

إن عدداً كبيراً من العلمانيين كانوا يعاونون الكهنة، ومن بينهم «أصحاب العمل الموقوت» الذين يقدمون بلاشك خدماتهم طوعاً ومجاناً، ويؤدون في المعبد أعمالاً مادية. ومن الراجح أنهم كانوا في الأصل، ومن واقع الاسم الذي أطلق عليهم، يقدمون خدماتهم لفترة لا تتجاوز بالضرورة الساعة الواحدة.

كما كان المعبد يضم المنشدين والموسيقيين، كالعازفين على القيثارة والناقلين في المزمار أو البوق، وكانوا مصدر فرح وابتهاج للآلهة. كانوا معاونين لا غنى عنهم، ولكنهم لا يشغلون أى منصب ديني بمعنى الكلمة.

وكما كان الملك الرئيس الطبيعي للكهنة الذكور، كانت الملكة، من الناحية النظرية، تتولى إدارة هيئة المعبد من النساء. فكانت «زوجة الإله»، على رأس الحريم المقدس، لتصبح في وقت لاحق «المتعبدة الإلهية». ويبدو أن الحريم الإلهي، لم يكن يتكوّن من خليلات عزّلن عن العالم، بل إن هذه التسمية النظرية، كانت تضم سيدات نبيلات من البلاط الملكي، يشغلن مجرد مناصب شرفية. ومن بين السيدات المرتبطات ارتباطاً حقيقياً بالمعابد، وجدت بطبيعة الحال، كاهنات لأداء الشعائر الدينية للإلهات وتحديداً شعائر **حتحور**، وإن لم يكن الأمر قاعدة ثابتة. كما أن بعض السيدات العلمانيات كنّ يقدّمن مساهماتهن طوعاً وبدون مقابل، بصفتن موسيقيات ومنشدات وراقصات، فيدخلن قدراً من البهجة والسرور بفضل سلوكهن المرح وأناشيدهن المقدسة.

وأخيراً كان إداريون يساعدون كبير الكهنة في الإشراف على اقتصاديات قصر الإله، وإدارة أراضيه وقطعانه، ويراقبون واردات الضرائب. وكان الكتبة معاونين لا غنى عنهم، يضبطون الحسابات ويسطرون المحررات المقدسة.

(*) كلمة لاتينية. (المترجم)

ب - ترتيبات الطقس الدينى

فى جميع معابد مصر، وفى لحظات حياة البشر الثلاث الكبرى، أى فى الفجر والظهر والمغرب، كانت تقام شعائر، تحدت ترتيبات طقسها الدينى اليومى تحديداً واضحاً. ولما كان الهدف منها الحفاظ على حياة الإله فى مسكنه، كانت تحاكي أفعالاً بشرية، بعد ارتقانها إلى مستوى أكثر سمواً، من خلال تأويلات أسطورية، مستعارة فى الغالب من اللاهوت الشمسى ومن اللاهوت الأوزيرى، ويرمز كلاهما إلى استعادة الحياة وتجديدها بشكل ثابت ودائم.

ونذكر تحديداً، النقوش الجدارية المنحوتة فى المقاصير السبع، فى المعبد الذى شيده سبتى الأول فى أبيدوس، والتى تقدم لنا وصفاً لمشاهد ترتيبات الطقس الدينى عند إقامة هذه الشعائر التى تتكرر يومياً، بلا كلل أو ملل. إن نسخة مكتوبة لترتيبات إقامة هذه الشعائر، عثر عليها مدونة على بردية، جاد بها معبد آمون-رع فى الكرنك، ومن مقتنيات متحف برلين، فى الوقت الراهن.

فمع شروق الشمس، عندما تعود الحياة إلى سابق عهدها، يخرج الكهنة، وقد ارتدوا ملابس من الكتان الأبيض، يخرجون من مساكنهم القائمة على مقربة من المعبد، ويسيروا فى صفوف طويلة تتخذ شكل الموكب، ويتجهون صوب البحيرة المقدسة، ليتوضأوا ويتطهروا فى الماء الأول. ومع أول النهار وبياض الصبح يتجهون إلى المعبد، حيث يتممون توضعهم فى «بيت الصباح».

عندئذ، كانت توضع كميات كبيرة من الأطعمة على منضدة فى القاعة التى تسبق القسم الخاص بقدس الأقداس.

وبدوره يتطهر الملك. وعلى النقوش الجدارية، يصور دائماً الملك، ولكن فى الواقع، كان كبير الكهنة هو الذى يقوم بأداء الشعائر الدينية. إن كاهنين يقومان بدور كل من حورس وتحوت، يصبان عليه محتوى إبريقين، يتحول سائلهما إلى خيط رفيع

وطويل من علامتى(*) الحياة والازدهار(**). وبعد ذلك يمسك المبخرة بيده بينما يصعد ببطء إلى قسم قدس الأقداس، الذى يتكون فى أبيدوس من شطرين، يفصلهما فاصل وهمى، عبارة عن صورة عمود مربع متصل بالجدار، الشطر الأول مخصص لاستراحة المركب المقدس، ويضم الثانى الناووس وهو من حجر أحادى الكتلة، ويظل تمثال الإله، القابع فى غبش مسكنه.

ومن احتكاك حجر الصوان يشعل الملك المسارح، ويجوب بها ليلقى شعاعاً من الضوء على باب الناووس وجوانبه الخارجية. هكذا، كان يشرق أيضاً الفجر الوضاء على الإله الحبس فى بيته المصنوع من الجرانيت ويدعوه إلى الاستفاقة. كما أن النور مصدر الحياة يطرد الأرواح الشريرة والضارة.

إن أدخنة حبات البخور التى تحترق، تتصاعد لتتقى الجو وتطهره وتعطره، ويبدأ الحضور فى تلاوة التعاويذ المقدسة وترتيلها.

وهنا نلتقى بالتصور الثانى الأساسى فى مصر القديمة، عندما يفتح الناووس مرتين متعاقبتين، فيُفتح إذن من الناحية النظرية، مرة من قبل ملك مصر العليا وأخرى من قبل ملك مصر السفلى. ويكسر الملك الختم المصنوع من الصلصال، والذى كان يغلق المكان المقدس غلقاً محكماً. ثم يحرك المزلاج الذى كان ينظر إليه أحياناً، بصفته إصبع بيت، السىء القصد، لأنه يشكل عائقاً أمام خروج الإله بعد أن أوقظ من نومه الذى دام طوال الليل. ويفتح الفرعون بابى الناووس(***)، «/ن بابى السماء مفتوحان،

(*) العلامتان ملغ روأس. يمكن مشاهدة صور تمثل هذه المشاهد فى:

OMM Sety and Hanny Elzeini: Abydos. LL Company, Los Angeles, 1981, Fig 10-15, 10-16, 10-

18.(المترجم)

(**) أصبحت العلامة وأس رمز الهناء والرفامية والازدهار. راجع:

M.Damlano - Appla. L'Egypte. Dictionnaire encyclopédique, Gründ, édition française, 1999, p.

274.(المترجم)

(***) كان أغلبها من الخشب ليسهل نقلها على متن القوارب، إبان المراكب الاحتفالية. وللناووس حجرته الخاصة فى المعبد. وكانت هذه المقصورة تسمى أيضاً الناووس. المرجع السابق

ذكره، L'Egypte. Dict. enc. p.193.(المترجم)

إِنْ بَابْنِ الْأَرْضِ قَدْ أُزِيلَ حَاجِزَاهُمَا»، ويتجلى الله فى النور. أى «يتم الكشف عن وجهه». ويسجد الملك، ويرتفع شَدُو الترانيم، من خلال أناشيد مناجاة مُسهبة تعبيراً عن ذرع شاكر النعمة:

التحية لك، يا **أمون - رع**، فى قُتُوتك، يا رب طيبة، يا زينة الآلهة. فعند رؤيتك يهزل البشر فرحاً، يا سيد الهيبة، إنك تُهدئ المخاوف الشديدة، يا ملك الآلهة جمعاء، أيها الإله العظيم الحىُّ حياً، يا ملك السماء، وخالق النجوم، إنك تجعل من الآلهة ذمباً خالصاً، وتُنجب السماء وتفتح الأفق، وعندما تحدث تأتى الآلهة إلى الوجود. أيا **أمون رع**، يا سيد **عروش القطرين**، القائم فى **الكرك**، أيا **أمون رع**، يا ثور أمه^(*)، الجالس على عرشه العظيم، يا سيد أشعة النور الذى يخلق الكثرة الكثيرة، أيها الإله يا صاحب الريشتين العاليتين، يا ملك الآلهة، أيها الصقر العظيم، إنك تُدخل البهجة فى الصدر^(**)، فجميع البشر يعبدونك حتى يتمكنوا من الحياة^(١٣٣).

ومن جديد، يصعد دخانُ البخور. ويدخل الملك إلى **الناووس**، ويحتضن تمثال الإله، فى عناق له فاعلية سحرية، ثم يقدم له قرباناً.

وتتكرر ترتيبات هذا الطقس الدينى مرتين، ولكن يختلف القربان فى كل مرة. ففى المرة الأولى، تُقدّم عين **حورس**، رمزاً للبرِّ بالوالدين، من جانب الإله الابن تجاه **أوزيريس**، والعودة إلى موقف صائب وعادل، بعد أن يكون ست قد أشاع الفوضى واستعاد الخواء. ويرمى هذا الموقف، بلا شك، إلى الإفصاح عن التوازن الطبيعى للعالم، الذى يسهر عليه الآلهة والملوك. أما القربان الثانى وهو مكملٌ للأول، فهو القربان **ماحت**: فيرفع **الفرعون** ناحية وجه الإله تمثالاً صغيراً للإلهة التى تضمن

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى،

دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ٢٥١. (المترجم)

(**) أى فى القلب. (المؤلفة)

المحافظة على الحقيقة والعدالة، وبالتالي على ترابط العالم وتماسكه. إن مامت من حيث جوهرها ذاته، لا يمكنها سوى أن تندمج في الإله اندماجاً كاملاً:

يعود إليك شبابك بمجرد رؤية ابنتك مامت، إنها تحييكَ بفضل عطر أندائها.
وتضع مامت نفسها كالتميمة على عنقك، تضع نفسها على صدرك. والآلهة تقدم لك
مامت فائدة لك، لأنها (*) تعرف حكمتها. أجل، إن الآلهة والإلهات التي في طويتك^(١٣٤)،
تجىء إليك (بالإلهة) مامت، لأنها (*) تعرف أنك تحيا بها. فعينك اليمنى هي مامت،
وعينك اليسرى هي مامت، ولحمك وأعضاؤك هي مامت. ونسمات جسدك وقلبك تعود
إلى مامت. إنك تجوب القطرين حاملاً مامت. ومسح رأسك بالأدهان هو مامت وتسير
بينما يداك ترفعان مامت. إن ثيابك هي مامت. وما تاكله هو مامت وما تشربه هو
مامت ونسمات أنفك هي مامت^(١٣٥)...

من الصعوبة بمكان أن يكون التعبير عن التعايش المطلق بأسلوب أوثق وأكثر
إحكاماً ودقةً. هكذا، فمنذ أن يستيقظ الإله يتأكد من أن توافق وتناغم العالم المحيط
به على أكبر قدر من الانسجام.

عندئذ، وبعد أن يشعر بالرضا، يتناول طعام إفطاره وسط دخان المبخار، ليوفر
لـ«كاسه» احتياطات سحرية من الطاقة الكامنة في الأطعمة.

كان لابد بعد ذلك من إتمام زينته. ومن جديد، يتطهر الملك^(**) بالماء وبالبخور،
ويتناول التمثال ليخرجه من الناووس ويضعه على الرمل، أى على أرض مصر. ثم
يحضر أربعة صناديق تحتوى أقمشة وأدهاناً، ويكرسها للإله باستخدام البخور.
ويُغسل بدن الإله مرتين بالماء ومرة واحدة بالبخور، بعد أن يكون القائم على أداء

(*) أى الآلهة. (المترجم)

(**) أو الكاهن الطاهر في حقيقة الأمر. (المؤلفة)

الشعائر قد دار من حوله أربع مرات، ويلبَس الإله أقمشة بيضاء وخضراء وحمراء، إنها بالتأكيد ألوان رمزية. فالأبيض هو لون ضوء الشمس. والأخضر لون عالم النبات وأوزيريس، والأحمر لون الدم. هكذا يصبح الإله على اتصال بكل عناصر مصادر الحياة في الكون. كما يُمسح بزيوت صافية وأدهان وعلطور، ويُرَين بالحلي. ثم يُعاد وضع التمثال في **الناووس**، بينما يُنثر الرمل على الأرضية. وتتم عملية تطهير أخيرة بواسطة النطرون والماء والبخور. ويُفلق **الناووس** من جديد بالمزلاج، ويوضع ختم جديد، وعند انسحابه يحو الكاهن أثار قدميه بواسطة مكنسة، حتى لا يأتى شيء يُعكّر طهارة المكان المقدس الذي يسهر منه الإله على العالم.

أما القرايين التي اقتات منها الإله، فقد توضع أمام موائد آلهة ثانوية، أو أمام تماثيل الملوك أو الأفراد الذين نالوا شرف وضع تماثيلهم في المعبد. ثم تنقل القرايين لتوزيعها على رجال الدين والعاملين العلمانيين في المكان المقدس.

وعند الظهيرة كانت الشعائر تقتصر فقط على الرش بالماء وإحراق البخور، ولا تتكون من وجبات طعام.

أما الشعائر التي تقام في المساء فإنها تكرر جزئياً شعائر الصباح، وإن ظل **الناووس** مغلقاً. بل يبدو أن مشاهد الطقوس الدينية كانت تقام في مقاصير ثانوية مجاورة للناووس.

عندئذ، يخلد الإله إلى النوم، مثله مثل البشر.

وللمرة الأخيرة، يُطهر المكان المقدس بإحراق البخور. وعندما يرخى الليل سدوله يعود الكهنة إلى مساكنهم القائمة بجوار المعبد، ويسيرون في موكب يتكون من صفوف طويلة. وإن كان الإله والبشر قد خلدوا إلى النوم، فإنهم كانوا ينتظرون عودة الشمس لتبعث الحياة من جديد.

كانت ترتيبات الطقس الديني في المعابد الجنائزية الملكية تقام وفقاً لأساليب شبيهة إلى حد كبير. ومن الناحية النظرية، كان الابن البكر للملك يتولى الخدمة، وهو

الذى كان يفوض سلطاته لبعض الكهنة، تماماً كما كان الفرعون ابن الإله يقيم شعائره أبيه بواسطة هيئة متخصصة من العاملين.

ج - كبار الأحياء وكهنة آخرون

فى عصر الرعامسة كان أخبار آمون شخصيات عظيمة ذات حَوْل وطَوْل. وقرب نهاية عهد سبتى الأول قام نب ثثرى كبير كهنة الكرنك، بدور عظيم الأهمية، فكان والد الوزير پاسر، وينتسب إلى عائلة من أصحاب الخطوة عند الملك. وعند وفاة سبتى الأول توقف ابنه مؤقتاً عن ممارسة أى نشاط سياسى، ورافق، بَدْءَ بالغ، جسد أبيه المحنط، إلى مقره الأبدى فى وادى الملوك. وبعد الانتهاء من شعائر الدفن، وبعد الاحتفال بالعيد أوبت فى معبد الأقصر^(١٣٦)، كان أول أفعال رمسيس الثانى الذى مكث فى مصر العليا، تعيين كبير كهنة آخر للإله آمون، إذ كانت المنية قد وافت نب ثثرى. ويبدو أن مجلساً قد انعقد، حضرته الجميلة نفرتارى. ووقع اختيار الملك على نب وثلف الذى كان بالفعل كبير كهنة أونوريس^(*) والإلهة حتحور فى بندرة^(**)، وكانت سلطاته الكهنوتية تشمل جزءاً من مصر الوسطى ومن الإقليم الثينى. وقد صدق آمون على هذا الاختيار.

وفى مقبرته، أمر نب وثلف بنحت نص يصف تولّيه منصبه بحضور الفرعون والملكة وكبراء البلاط الملكى:

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم إن - حوت). (المترجم)
(**) الاسم الحالى لمدينة إونت تلتيرى عند قدماء المصريين، كما أطلق عليها الإغريق تالتيريس Tentyris. المرجع السابق ذكره، p. 94 Dict. enc. (المترجم)

فى اليوم الأول، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان^(٩)، من العام الأول، أبحر صاحب الجلالة فى اتجاه الشمال قادماً من مدينة الجنوب حيث قام بتأدية المذائح الشعائرية من أجل أبىه أمون رع، سيد عروش القطرين، الثور العظيم، رئيس التاسوع، ومن أجل موت العظيمة، سيدة إيشرو، ومن أجل خونسو - نفرحوتب، ومن أجل التاسوع المقيم فى طيبة، وذلك إبان عيد أوبت الجميل. وعند الوصول، أعلنت التمنيات بالحياة والازدهار والصحة، من أجل ملك مصر العليا ومصر السفلى، أوسر ماعت رع - ستب إن رع، ليته يحيا للزمن اللانهائى! وبعد النزول إلى البر فى الإقليم الثينى، أحضر نب وننف، كبير كهنة أمون، ليمثل بين يديّ صاحب الجلالة. كان لا يزال آنذاك، كبير كهنة أونوريس^(١٣٧) وكبير كهنة حتحور، سيدة لنفرة، وكبير خدام جميع آلهة الجنوب، وحتى المكان المسمى: «وجهى - على - أمون»، فى الشمال حتى ثنى.

وقال له صاحب الجلالة: «سوف تكون من الآن كبير كهنة أمون. وتصبح خزانته وشؤنه، تحت ختمك، وتكون رئيس معبده، وتخضع كل مؤنه لسلطاتك. أما معبد حتحور، سيدة لنفرة، فسوف تنول، من الآن، مسئولية الإشراف عليه إلى (ابنك^(١٣٨))، بالإضافة إلى جميع مناصب آبائه والموقع الذى كنت تشغله. إنى أقسم، وقدر حقيقة أن رع يحببنى، وأن أبى أمون يمتدحنى، أننى عيّنت فى وجوده جميع رجال البلاط، و«العلم الأعلى» فى الجيش. ومن أجله، أُعيدت تلاوة أسماء الكهنة - خُدّام الآلهة، وأسماء كبراء معبده الذين كان فى وسعهم إمعان النظر فى وجهه. ولم يشعر بالرضا عند سماع أى منهم، إلا عندما نطقت باسمك.

أنجز إنن من أجله أشياء مفيدة، لأنه يتوق إليك. أما أنا، فكنت أعرف أنك إنسان مقتدر، ومفعم بالبركة، ومن ثم فليتك تُزيد أيضاً من مقدار المذائح المخصصة لكاسه وتجديد تلك المخصصة لكاسى. عندئذ، سوف يثبتك على رأس معبده ويمنحك شيخوخة (سعيدة)، ويسمح لك، أن تلقى مراسيك عند أرض مليتته ويعهد

(*) وهو الفصل أخص، بالمصرية القديمة. (المترجم)

إليك بحبل قيداً م (*) (قصره الإنهى) وحبل كوئله (**). لأنه يتوق إليك أنت وحدك، وأنه لم يذكر اسم أحد غيرك. سوف يُعطيك الغرب، لأن أبى آمون إله عظيم لا مثيل له، إنه يفحص الأبدان ويفتح القلوب (***)، إنه حكيم مطلع على سرائر كل كائن من الكائنات. لا يوجد إله سواه بلغت قدرته حياً، يُمكنه من إنجاز ما فعله. فلا يُمكن للمرء أن يتجاهل نصائح، ولا بد من الوثوق فى كلماته، لأنه رب **التاسوع**، فهو الذى اختارك... وجذبك إليه بسبب فاعليتك.

عندئذ اجتمع رجال البلاط و**الثلاثون** (****) (١٣٩) لعبادة كمال صاحب **الجازلة**، وللسجود مرأت ومرأت عديدة أمام هذا الإله الكامل، وإغداق التهليل له (****) (١٤٠)، وإرضاء (الصل الموجود على جبينه) وتبجيل وجهه والإعلاء، إنى غنان السماء، من شأن قدرته. وتحدثوا قائلين:

«أنت، يا أيها الحاكم (فى خدمة) **آمون**، سوف تدوم للزمن الأبدى، هذا الزمن الذى خلقه الإله قبل أجيال وأجيال، ليتك تحتفل بأعياد اليوبيل بالآلاف، ليت عدد سنواتك تكون بقدر حبات الرمال، ليتك تعود إلى الحياة مع كل فجر جديد، ليتك تستعيد شبابك، من أجلنا، مثل قرص الشمس ومثل القمر... إنك تحكم بصفتك ملك **القطرين**، وقد أضحت **الأقواس التسعة** تحت إمرتك. إن نطاق حدودك يصل إلى حدود السماء، وكل ما يغطيه يخضع لك، وما يحيط به القرص تحت بصرك، وما تلامسه **الشديدة الاخضرار** يرضخ لك، فى حين أنك قائم على الأرض، على عرش **هوس**، متألقاً بصفتك ملك الأحياء. إنك تجنّد الأجيال الشابة فى **البلد المحبوب**، وتقضى على

(*) مقدمة السفينة. (المترجم)

(**) مؤخرة السفينة. (المترجم)

(***) من حقنا أن نعقد مقارنة مع الآية رقم ٩ من الإصحاح الأول من **سفر الحكمة** من الكتاب المقدس المسيحى: **إنك فاحص القلوب والكلى، أيها الإله البار**. وقد ورد فى هامش هذه الآية وتفسيراً لها أن الكيتين هما مركز الأمواء والنزوات الواعية، والقلب هو مركز النشاط الواعى للعقل والعاطفة. الكتاب المقدس، دار المشرق، بيروت ١٩٨٩، ص ١٢٩٩. (المترجم)

(****) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

الأعداء، أنت يا صاحب الثبات والملك على الأرض مثل أبيك أمون - رع. إنك تحكم بأسلوبه نفسه، إنك على الأرض أشبه بالقرص في السماء، إن مدة حياتك مساوية لمدته، حيث إنه يمنحك الزمن الأبدى والزمن اللانهائى والحياة والقوة، أيها الملك الكامل، يا محبوب أمون...»

عندئذ، قام صاحب الجلالة (وسلم نبوننف) حلقته الذهبيتين وعصاه المصنوعة من الذهب الخالص، ورقى إلى كبير كهنة أمون ومدير بيتى الفضة والذهب وكبير المشرفين على الشؤون ورئيس الأشغال ومدير كل فرق حرقى طيبة. ومن ثم فقد كلف رسول ملكى بإبلاغ مصر بأسرها، بأن بيت أمون وجميع أملاكه وكل رجاله (قد سلّموا إلى نبوننف)^(١٤١).

وبعد الخطابات والاحتفالات المعتادة فى مثل هذه المناسبات، يبدو أن رمسيس، رغبة منه فى تكريم هذا الشخص(٩) أو بالأحرى لإبقائه خاضعاً له، أسند إليه أيضاً مناصب دنيوية رفيعة فى جهاز الدولة. ومن الواضح أيضاً أن ظاهرة توريث المناصب الكهنوتية قد أخذت تنزع إلى تأكيد نفسها، فنلاحظ أن وظيفة كبير كهنة حتحور التى كان يشغلها نبوننف، قد أسندت إلى ابنه.

ونهض نبوننف بأعباء منصبه هذا لمدة اثنتى عشرة سنة. ولما وافته المنية، عين الملك خلفاً له، ون إن نفر والد صديق طفولته أمن إم إينث، الذى سبق أن تعرفنا عليه، وأقرّ إذن فى منصبه، فى العام ١٢ من حكم الملك، ليحتفظ برتبته الكهنوتية حتى العام ٢٧.

وفى هذا التاريخ، فإن الوفى الأمين پاسر، وكان وزيراً منذ عهد سيسى الأول، بل ربما ورمسيس الأول(٩)، وجد نفسه ينهى مسار حياته العملية بطريقة مشرفة وكريمة، فأسند إليه منصب الحبر الأعظم للإله أمون، وكان والده قد نهض فيما مضى

بأعباء هذا المنصب المرموق. ورغم كبر سنه، فقد ظل كبير الكهنة فى طيبة، حتى العام ٢٨، يعاونه خادما الإله الثانى والثالث(*) : **روما وابنه باكن خونسى**

وسوف يصبح هذا الأخير، منذ العام ٢٩، كبير الكهنة، الأرفع شأنًا والأعظم قدرًا فى عهد **رهمسيس الثانى**، واستنادًا إلى المدونات التى وصلتنا، يبدو أن هذا الرجل كان مزهواً بشخصه، ولكنه فى الوقت نفسه، كان محباً لأعمال الخير، ثاقب البصيرة، وفياً للملك مخلصاً له، ويكنُّ للإله **أمون** ورعاً يهزُّ المشاعر، إذ ظل فى خدمته منذ نعومة أظفاره. كان آنذاك فى الستين من عمره، واستمر فى النهوض بأعباء منصبه طوال سبع وعشرين سنة. ويعتقد أنه قد توفى وهو ابن مئة سنة. وقد وصف هو بنفسه، مسار حياته العملية الطويلة فى نص منحوت على دعامة ظهر رأسية لتمثال، من مقتنيات متحف ميونيخ Munich فى الوقت الراهن:

يتحدث النبيل، الأمير **باكن خونسى** كبير كهنة **أمون**، قائلاً:

«كنت إنساناً باراً وعادلاً ومفيداً لسيده، يراعى مقاصد إلهه ويسير على صراطه، ويقيم على أفضل وجه مراسم الاحتفالات داخل معبده. كنت كبير المشرفين على مواقع العمل فى معبد **أمون**، متمتعاً بثقة سيده الكاملة.

أنتم، يا أيها الرجال أجمعين، يا أصحاب البصيرة الثاقبة، وأنتم يا من ستدوم إقامتكم وتأتون فى أعقاب الملايين والملايين من السنين، فبعد أن بلغت أقصى الكبر وأصابنى الوهن، أنتم يا أصحاب القلوب التى انفكت عقدها إلى حد ما، حتى تميز القيمة وتتعرف عليها، أنتم جميعاً، سوف أعزفكم بنفسى، عندما كنت لا أزال على الأرض، فتعرفون كل وظيفة شغلتها، منذ أن ولدت.

لقد امتدت طفولتى لأربع سنوات.

(*) أى الكاهن الثانى والكاهن الثالث. (المترجم)

ثم امتدت أيام الفتوة لاثنتي عشرة سنة، وأنا رئيس إسطنبول الترويض التابع للملك من مامت رع^(١٤٢).

وأصبحت بعد ذلك، كاهنًا طاهرًا، لمدة أربع سنوات.

ثم كاهنًا إلهيًا للإله أمون لمدة اثنتي عشرة سنة.

وأصبحت أخيرًا، الخادم الثالث للإله أمون، لمدة خمس عشرة سنة.

ثم الخادم الثاني للإله أمون، لمدة اثنتي عشرة سنة.

عندئذ، امتدحني [الملك رمسيس]، لأنه تأكد من خصالي وصفاتي، فعيّنتني كبير كهنة أمون، لمدة سبع وعشرين سنة.

كنت أبًا صالحًا لأهل داري، فأساعد على تربية الشباب، ومن كان ضيق الحال أمد له يدي، وأجعل المعوز يسترد قواه، وأعمل في معبد أمون، عملاً متقناً.

كنت كبير المشرفين على مواقع العمل في طيبة، من أجل ابنه(*) الذي من صلبه، (ابنه)، ملك مصر العليا ومصر السفلى: أوسر مامت رع - ستب إن رع، ابن رع: رمسيس - محبوب - أمون، له الحياة. لقد شيدت مباني أبيه أمون الذي كان قد أقامه على عرشه. كنت مساعد الملك وكبير كهنة أمون، أنا ياكفن خونسو، الذي يتحدث ليقول ذلك أيضاً.

لقد عملت عملاً متقناً في معبد أمون، عندما كنت كبير المشرفين على مواقع العمل، في خدمة سيدي. لقد شيدت من أجله معبداً اسمه: رمسيس - محبوب أمون - الذي - يُهني - إلهي - التفرعات^(١٤٣)، قائماً عند الباب العلوي من معبد أمون^(١٤٤). وأقمت داخل أسواره، مسلات من الجرانيت، كان جمالها يقارب السماء. وأمامها، أقيم مبنى من الحجر، قبالة طيبة. ورويت الحدائق وغُرست بالأشجار. كما صنعتُ بابين كبيرين من الذهب، كان جمالهما يلتقي بالسماء. وشذبتُ سوارٍ بالغة

(*) أي ابن أمون. (المترجم)

الطول، وأقامتها في الفناء المقدس أمام المعبد. كما بنيت مركبتين كبيرتين، من أجل
أمون وموت وخونسو للانتقال على صفحة النهر^(١٤٥)».

أما القسم الأكثر إثارة للمشاعر والأكثر إنسانية، من هذه المدونة، فيقرأ على
قاعدة التمثال:

كنت إنساناً صموئلاً، عادلاً، مفيداً لإلهه، إنساناً ينحني الآن على كل ما
أنجزه... فتقبض يداه على الحبل الذي يتحكم في رفقته، وهو على قيد الحياة.
اليوم أنا أكثر سعادة من الأمس. إن كل فجر جديد يعطيني مزيداً من البهجة،
ذلك منذ أن كنت طفلاً، وحتى هذا اليوم الذي حُلَّت فيه سنّتي الكبيرة، وأنا داخل معبد
أمون، فبينما أتبعه في كل مكان ما زالت عيناى تستطيع، مشاهدة وجهه المقدس. ليت
يكافئني، ويبقيني واقفاً على الدوام وسعيداً، بعد أن تجاوزت سن مئة وعشر.

من المؤكد أن **باكُن خونسو** كان يتحلّى بحكمة عظيمة وإيمان عميق. كان
شاهداً على أكبر أحداث الإمبراطورية. ولا يجانبنا الصواب، إذا قلنا إنه ولد في عهد
حور إم حب، وبدأ يصعد درجات سلمه الوظيفي في عهد **سيتي الأول**. كما كان
موظفاً مرموقاً في خدمة عائلة **الرحامسة**.

وفضلاً عن ذلك فقد عُرف عنه نشاطه الواسع على الصعيد المعماري، فإليه
يرجع الفضل في إقامة القسم الأكبر من المعبد الذي شيّده **رعمسيس الثاني** في معبد
الانصر. كما أن ذكرى **باكُن خونسو** يحتفظ بها ميدان **الكونكور** **place de la Con corde**، في قلب **پاريس** **Paris**، وذلك بفضل المسلة الشامخة المنحوتة في كتلة واحدة
من الجرانيت الوردي، والتي أشرف شخصياً على إقامتها أمام قصر الإله. إنه يرقد
منذ ثلاثة آلاف سنة في مقبرته في **لراع أبو النجا**، بالبر الغربي لمدينة طيبة. ولكن
كما كان يرجوه بقيت ذكراه حية، إلى جانب ذبوع شهرته. إنه أحد كبار الكهنة الذين
نعرفهم على أفضل وجه، أو على الأقل مقارنة بأخرين نعرفهم معرفة سيئة.

والأمر الجدير بالملاحظة بدايةً، في شأن تعيين كبار الكهنة هؤلاء، أنهم يُختارون في الواقع من قبل الملك. كما نلاحظ أيضاً، في مصر العليا أن المناصب التي تُسند إلى كبار الدولة المحليين ووجهائها، كانت تُورث أباً عن جد. ولا نلتقي بهذه الظاهرة بهذا الوضوح في مصر السفلى، حيث يبدو أن الوزراء أو الأمراء أو كبار ضباط الملك، يُكفون في أغلب الأحوال بشغل منصب كبير كهنة منف أو هليوبوليس، وهما المدينتين الأقرب إلى العاصمة وإلى السلطة المركزية.

هكذا ففي مصر العليا، انتقل منصب كبير كهنة حتحور في منفرة من باكن خونسو، وهو غير الشخص الذي يحمل الاسم نفسه وسبق ذكره، انتقل هذا المنصب إلى ابنه. والشئ نفسه حدث في أبيدوس، مع ون نفري، وهو أيضاً غير الشخص الذي يحمل الاسم نفسه، وسبق ذكره. كان كبير كهنة أوزيريس، وشغل هذا المنصب منذ عهد سيتي الأول، واستمر فيه في عهد رمسيس الثاني، لينقله بعد ذلك إلى ابنه حوري، بعد موافقة الملك.

هكذا تشكلت عائلات من كبار الكهنة، وكان مين مس، كبير كهنة أونوريس في مدينة ثني، من أقارب ون نفري ذاته.

وفي منف، في مصر السفلى، شغل حوري ثم پاحم نثر على التوالي، منصب كبير كهنة پتاح، وانتقل هذا المنصب بعد ذلك إلى نيليا، ابن پاحم نثر البكر، ليعود بعد ذلك إلى الأمير خع إم واست. وعند وفاة هذا الأخير أسندت هذه الوظيفة إلى أصغر أبناء پاحم نثر، وهو الوزير رع حوتي الذي سيشغل إلى جانب الوزارة منصب كبير كهنة رع في هليوبوليس. وفي السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثاني، نجد أن حوري حفيد الملك، وابن خع إم واست، سوف يصبح كبير الكهنة في منف.

وفى هليوبوليس وفى صدر عهد رمسيس الثانى، أسند هذا الأخير منصب كبير الكهنة إلى **باك**، رئيس سلاح مركباته، رغبةً منه فى تكريمه، تقديرًا على ما قدمه من خدمات مخلصه. ثم آل هذا المنصب إلى **أمن إم أوبت**، من عائلة **أمن إم إينت**، رئيس الفرق النووية المعاونة الملحقه بالجيش. وبعد ذلك، شغل هذا المنصب، **مري أتم** الابن السادس للملك، والذي رزق به من زوجته **نفرتارى**، واستمر فيه من العام ٢٦ إلى العام ٤٦ من عهد الملك، وخلفه الوزير **رع حوتب**.

وهكذا، وباستثناء بعض الأمراء الملكيين وبعض العسكريين الذين أراد الملك مكافأتهم، نلاحظ أن كبرى العائلات قد استحوذت تدريجيا على كل المناصب الدينية المهمة. وكانت هذه الظاهرة، أحد العناصر التى وراء الضعف الذى عانت منه السنوات الأخيرة من عهد الملك. زد على ذلك أن المناصب النسائية الأساسية فى المعبد سوف يسندها كبار الكهنة فى الغالب إلى قريباتهم.

إن مقبرة من المقابر فى حالة جيدة من الحفظ، إلى حد ما، أو لوحًا حجريًا أو تمثالًا، ما زالت تشهد على كثرة الكهنة والرجال العاملين فى المعبد، فننتعرف من خلالها شيئًا فشيئًا، على هذا العالم فى هيئة نُبذ ولحات خاطفة.

وفى حوزتنا مصادر المعلومات نفسها، فيما يخص كهنة المعابد الملكية الجنائزية، ولكنها محدودة للأسف. كان هؤلاء الكهنة مفوضين من قبل الملك لضمان إقامة الشعائر على مدار الأيام، من أجل أبائهم وإدارة حيازاتهم الجنائزية الخاصة.

وفى هذه الحالات أيضًا نعرف العديد من أسماء الأشخاص والوظائف المنوطة بهم، فضلًا عما يعبرون عنه من رغبات لحياتهم الأبدية، ولكن لم تتوفر سوى القلة القليلة من المعلومات عن حياتهم أو مسارها الوظيفي.

ومع ذلك، قد نتوصل إلى التعرف أحيانًا على طباع الشخص أو موطنه الأصلي أو عائلته.

بل يحدث أحياناً أن تفصح زخارف المقبرة عن قدر بسيط من شخصية صاحبها. فلنذكر على سبيل المثال **خونسو**^(*)، كبير كهنة معبد تحوتمس الثالث الجنازى، فى عهد **رمسيس الثانى**. ألم يكن يتميز إلى حد ما، بطبيعة ميالة إلى حياة الريف؟ فقد أمر بأن تُرسم فى أحد أسقف مقبرته فى **الشيخ عبد القرنة** تحليل فرَاشات وردية اللون وجراد أزرق واندفاع العصافير حول عُشِّها.

ألم يكن المدعو **أمن إم إيت**، الأب الإلهى فى معبد **أمنحوتب** الثالث الجنازى، خاضعاً للنظام الملكى ومدافعاً أميناً عنه، عندما أمر بغرض إطالة زمن خدمته فى منصبه إلى أبد الآباد، والترفيه عن الملوك الموتى، بأن تُرسم على جدران مقبرته فى **قرنة مرعى**، مشاهد طواف تماثيل **أمنحوتب** الثالث والملكة **تتى** على صفحة البحيرة المقدسة، خلف موكب احتفالى طويل، بعد أن يكون الكهنة قد وضعوا التماثيل على متن القارب، بكل مظاهر الورع والخشوع؟ ويعتبر هذا الرسم من التصاوير شديدة الندرة.

ويمكن أحياناً الجمع بين الوظائف فى المعابد الجنازية مع إقامة الشعائر فى المعبد الإلهى. هكذا فإن **پانحسى**، «**خادم**»^(**) **أمنحوتب** الأول، فى عهد **رمسيس الثانى**، كان أيضاً رئيس منشدى مائدة **أمون**. فقد يتناول الإله طعامه على أنغام الموسيقى. كان **پانحسى** شأنه شأن الكثير من المصريين، تشده مشاهد الحدايق وما تثيره فى النفس من إحساس بالانتعاش والنشاط، فأمر بزخرفة القسم الشمالى من سقف مقبرته، بكرمة متشعبة، تنشر على نطاق واسع فروعها المحملة بعناقيد العنب ذات اللون الأخضر الغامق، على خلفية صفراء، كما تتدلى منها، مرسومة رسماً

(*) المقبرة رقم ٢١ من مقابر الأفراد بالبر الغربى لمدينة الأقصر. (المترجم)

(**) ترجمة حرفية لكلمة حم بالمصرية القديمة. ويقصد بها كاهن. (المترجم)

نمطياً مبسوطاً. أوراق باللون الأخضر الفاتح وعناقيد عنب ضخمة باللون الأزرق الغامق، وتتألف كل تلك الألوان في تناغم رقيق يُشعُّ نوراً. وفي وسط السقف تنتشر أزهار عريضة متألقة.

إن المكان الحالى لهذه المقبرة، في جبانة **نراع أبو النجا**، مكان غريب^(*)، إذ يقع السقف بكن وضوح عند مستوى الطريق الحالى، وينحشر حشراً وسط البيوت المدفونة مثله في الأرض نفسها، ولكنها تقع عند مستوى أعلى بعض الشيء. هكذا يشاطر **پانصی** عن كتب حياة البشر، في أيامنا هذه.

كن **نجم** المشرف العام في معبد **رعسيس** الثاني الجنازى في حياة الملك، بل وكان تحديداً مدير شؤون المعبد. إن تمثلاً يصوره جالساً فوق وسادة، وقد تدثر جسده ثي رداء واسع، ويضع يديه على ركبتيه، ويمسك في يده اليمنى سنبله قمح يانع^(١٤١). وبين رجليه، ينتصب تمثال للإله **پتاح** - **تائن**. هكذا يُعبر عن شكره شكراً مزدوجاً: بداية إلى إله **منف** الذى كان **نجم** على ما يظن من أتباعه المؤمنين، ثم إلى إله القمح وخصوبة أراضى **الرامسيوم** التى يُقدم باعتزاز غلة من غلاتها، فيُعرف على هذا النحو المنصب الذى شغله. فكان على ما يعتقد رجلاً مرتبطاً بالأرض، يعشق السلم والسلام وقد يشير اسمه أيضاً إلى هذه الخصال، فالاسم **نجم**، يعنى «**الوريع**» إن صيغة القرايين المنحوتة على دعامة ظهر التمثال الرأسية. تعلن:

فنيتمصل الملك بتقديم قربان إلى **پتاح** حتى يمنع هذا الأخير مدة حياة على الأرض تصاحبها الإنعامات الملكية، ومجموع سنوات (تبلغ من الكثرة) حتى إنها تستعصى على الحصر، (حياة) بلا تعاسة، يُستبعد منها الرعب، (يمنحها) إلى كاهن **نجم**^(١٤٧).

(*) وهي المقبرة رقم ١٦. (المترجم)

إن النصوص المدونة على المعالم التي خلّفها هؤلاء الكهنة تكشف، في بعض الأحيان، عن أصالة متفردة.

إن **أوسرحات**، كبير كهنة معبد **تحوتمس** الأول الجنائزى فى عهد **سيتى الأول**، يتقدم إلى الآلهة والإلهات، فى سياق صيغة القرايين، المدونة على جدران مقبرته، بالطلبات الآتية:

ليتها تمنحنى نضارة النجوم وشذى النسومات المنعشة، دون أن يُطرد **باؤه** (١٤٨)(٥) أبداً. ليت اسمه يُنادى عليه، ويظهر فى كل الأعياد، على مرّ الأيام... من أجل **كا... أوسرحات** (١٤٩).

وننتقل إلى **نخت أمون**، رئيس مائدة قرايين **الرامسيوم** فى عهد **رمسيس** الثانى. إنه يقارن نفسه بالإله **تحوتمس**، الذى ينظر إليه بصفته شبيهاً له، استناداً إلى كل الأفعال الخيرة التى قدمها هذا الأخير من أجل **أوزيريس**. وهكذا، فإنه يسعى إلى انتزاع رضا إله البعث إلى أبد الآباد:

أنا قادم إليك، يا سيد **الأرض المقدسة**، القيم على الزمن اللانهائى، الابن البكر الذى أنجبه جب، الأول الذى ينتسب إلى جسد **نوت**. إننى ألامس الأرض بجيبنى أمام سيد الجبانة الذى رفع السماء بساعديه. أنا شبيه **تحوتمس**، وأبتهج بسبب كل ما فعله، فقد جلب لك النسومات من أجل أنفك والحياة والقوة من أجل وجهك الجميل... يا حاكم الغرب. إنه يسمح بتألق النور على صدرك، إنه يضىء الطريق المعتم، ومن أجلك يطرد الشرور العالقة بجسدك (١٥٠)...

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

إننا نعرف أحياناً أصل هؤلاء الرجال أو عائلاتهم.

هكذا، فإن ثيا مدير خزانة الرامسيوم والكاتب الملكى، كان قد تزوج شقيقة رمسيس الثانى، ابنة سيتى الأولى والملكة توى. وكانت تدعى أيضاً ثاي، مثل زوجها. ولا شك أن رمسيس، رغبة منه فى تكريمه، قد عهد إليه بإدارة الشؤون المالية فى معبده الجنائزى. وحفظ لنا الدهر عدداً من معالم ثيا الأثرية، نذكر منها هُريماً نحتت عليه ترانيم للآلهة^(١٥١) وأيضاً لوحاً حجرياً فريداً فى بابه، إذ له «أربعة أوجه»، وفى حقيقة الأمر، فهو كتلة حجرية مربعة القُطع، قممها الأربع مستديرة مثل الألواح الحجرية^(١٥٢)، ودُوِّنت على كل وجه من أوجهها ترانيم إلى رع وأتم وأوزيريس وسوكاريس. ومن ترنيمة رع ننقل النص الآتى:

تحية لك، يا رع - خپرى - أتم - حورس، أنت يا من تعبر السماء، أنت أيها الصقر الإلهى للآلهة، يا صاحب الوجه الجميل بريشتيه العاليتين؛ ليت يسمع، بتأمل القرص ومشاهدة القمر وتوقير الإله العظيم على عرشه، من قبل... ثيا^(١٥٣).

إن التليفية الدينية التى تُميز عصر الرعامسة تحديداً تتجلى هنا بكل وضوح. فالكيان الإلهى المشار إليه يجمع بين شخصيات رع^(*) وخپرى^(**) وأتم^(**) وحورس، الصورة القديمة للصقر السماوى، وإلى الكيان الإلهى المذكور، تضاف شخصية أمون الأحدث عهداً، والذي جرت العادة أن توضع على رأسه قاعدة تاج تلوه قادماتان^(***) سامقتان. وتأسيساً على ذلك، ومن خلال وحدة وثيقة تجمع بين الأسماء والأشكال، نحصل على كيان شمسى كامل. ويبدو أن هذا النص يؤكد أيضاً على الشعائر الدينية التى تُقام من أجل الملك؛ فالقروصون يشكل ثالوثاً مقدساً مع الشمس والقمر، عند الإعلان عن المصائر الأبدية التى يتطلع إليها صهره.

(*) القرص الشمسى. (المؤلفة)

(**) الشكل الأول والآخر، لدورة الشمس، عند الصباح وعند المساء. (المؤلفة)

(***) القادمة: الريشة الكبيرة فى مقدم جناح الطائر. المعجم الوسيط. (المترجم)

ولأسباب نجهلها، كان فى استطاعة الأجانب أحياناً، أن يتبوأوا مناصب عظيمة الأهمية. هكذا، فإن رعمسيس - إم - پر - رع ومعناه رعمسيس - فى - معبد - رع كان كبير حراًس الرامسيوم فى عهد رعمسيس الثانى ومم إن پتاح، وكان اسمه الأصلى بن أزين، أى ابن إيزن، وهو اسم سامى يشير إلى الأصول الكتانية لهذا العظيم من وجوه المجتمع^(١٥٤). ونعرف من جهة أخرى أنه كان قادماً، مثل أبيه يوپا، من بلدة زيرى باشان، وهو اسم مكان كتانى، كان معروفاً عند المصريين، وقد ورد ذكره فى لوحات العمارة، وتقع هذه البلدة فى شمال دولة الأرين الحالية^(١٥٥). وربما أتى به رعمسيس الثانى إبان حروبه المظفرة فى هذه المناطق، بل وربما تم تنشئته فى مصر فى بيت حريم مى ور، على سبيل المثال، شأنه شأن غيره من أسرى الحروب. وهكذا فقد تمصر، واتخذ لنفسه اسماً جديداً، ويبدو أنه ارتبط بعبادة الشمس. وبالفعل كان أحد ألقابه: «هذا الذى يحب هليوبوليس». كم كنا نود أن نعرف المزيد، عن حياة هذا الشخص، التى تتفق تماماً مع التصور الذى تفتق عنه ذهن رعمسيس الثانى حول مصر، إنها جماعة مؤلفة من أوطان مختلفة موحدة.

ومن المسلم به أن هيئة الموظفين هذه، هى فى نظرنا مكونة من عناصر متعددة ومتنوعة. إن الكشف عن وثائق جديدة، وهو ما نرجوه ونتوقعه دائماً، ربما سيساعدنا على فهم هذه الهيئة فهماً أفضل.

الأعياد المقدسة

كان الاحتفال بالأعياد فى عصر الروامسة تعمها كل مظاهر الفخامة والعظمة. وفى مصر الفرعونية، كانت الأعياد تعود إلى أصول متنوعة. فقد عرفت أعياد قومية أو محلية وأعياد مواسم أو أعياد دينية بالإضافة إلى الأعياد الجنائزية التى كانت العائلة تقوم فى هذه المناسبة بزيارة قبر القريب المتوفى، لتقديم له بعض الأطعمة المفضلة^(١٥٦).

(*) وليس فلسطين، حتى لا يأتى من يقول إنه كان يهودياً. (المترجم)
 (***) يبدو أن هذه العادة لم تختف، وإن دخل عليها بعض التغيير. (المترجم)

إن مهرجانات تقريظ أكبر الآلهة ومدحها، كانت تعتبر مناسبة قد يتوقف أثناعها نشاط المجتمع في طول البلاد وعرضها لعدد من الأسابيع، ويترتب عليها انتقال الحجيج والدخلاء الفضوليين، على نطاق واسع. إن تقويماً دقيقاً، يحدد قائمة الأعياد، نُحت في معبد **رمسيس الثاني**، في **أبيدوس**.

ويبدو أن نصوص وتصاوير عصر **الرخامسة** تؤكد على أهمية ثلاثة أعياد: عيد **حريم أمون** في **طيبة** أو عيد **أوبت**^(*) كما كان يطلق عليه. وقد نحتت مشاهدته الرئيسية على أساطين بهو الأساطين الكبير في **الكرنك**. ثم عيد **مين** الذي صُوِّرت مواكبه الاحتفالية وشعائره في **الرامسيوم**. وأخيراً، عيد **الوادي** الذي صُوِّرت فقراته في معبد **سيتي الأول** الجنائزي في **الشيخ عبد القرنة** وعلى جدران **الرامسيوم** وعلى أساطين بهو الأساطين الكبير في **الكرنك**.

ونعرف أن **رمسيس الثاني** عندما شرع يحتفل بأول عيد **أوبت** في عهده، بعد أن انتهت مراسم دفن والده، مكث في **طيبة**. ولما كان **نب نثرو**^(**) قد وافته المنية، ولم يكن **نبوننف** قد نُصَّب بعد رسمياً في عمله الجديد، ترأس الملك شخصياً الاحتفالات بدلاً من كبير الكهنة. هكذا فقد باشر بنفسه، أحد أهم الامتيازات الملكية، ليؤكد بثبات أنه سيد البلاد الجديد، كما كان في الوقت نفسه، يستحوذ على حق إقامة الطقوس الدينية في **طيبة**.

كان العيد يبدأ في اليوم التاسع عشر، من الشهر الثاني، من فصل الفيضان، أي خلال النصف الأول من شهر أكتوبر، قبل انحسار مياه الفيضان، مخلفاً وراءه التربة المخصبة. كان يستمر لفترة أربعة وعشرين يوماً بل وسبعة وعشرين يوماً، أحياناً. كان موضوعه الزيارة التي يقوم بها **أمون الكرنك** إلى حريمه في معبد

(*) **وأوبت** هو الاسم الذي كان يطلق على الحريم. (المؤلفة)

(**) كبير كهنة **الكرنك**. راجع الفقرة السابقة من هذا الفصل. (المترجم)

الأقصر. كان إذن عيداً مزدوجاً للخصوبة، خصوبة الأرض وخصوبة الآلهة، عيد استعادة الحياة وتجديدها، والحفاظ على القوى الحيوية والطاقة الخلاقة.

فى **الكركك**، وعند الفجر، يُفتح الناووس الذى يضم تمثال **أمون**، ويقوم الملك شخصياً بوضع القرايين أمامه من أطعمة وزهور لتتكسد أمام الصورة المقدسة. وهنا، ينتظر فى مقصورته، قارب الإله - القارب **أوسرحات** (*) - المصنوع من خشب الأرز «وقد كُفَّت بالذهب، من أفضل ما جاء من الصحارى، إنه يتألق بكل أنواع الأحجار الكريمة»^(١٥٥)، ينتظر لحظة الرحيل. وفى الخارج توجد ثلاثة قوارب فوق قاعدة، يخص أولها الإلهة الأم **موت**، والثانى الإله الابن **خونسو** والآخر الملك، لمرافقة الإله فى رحلته.

يبدأ الموكب من الطريق المؤدى إلى نهر **النيل**. يتقدمه جندى معلناً انطلاق الموكب، عندما ينفخ فى نفيره، وإلى جانبه ضارب الطبل ينظم بإيقاعه سير الموكب. والحدث الاستثنائى أن **رمسيس الثانى** شخصياً يتقدمه، «فاتحاً الطريق للإله **أمون**». إنه يرتدى فوق ثيابه الملكية الزى الكهنوتى بجلد الفهد. ويُلقَّب بعبارات متألقة تألفا فريداً، إنه: «كبير كهنة **أمون**، ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**، له الحياة». وتصل القوارب الأربعة عند شاطئ النهر، محمولة على أكتاف «الكهنة الأطهار». وهنا، توضع على متن مراكب كبيرة مخصصة للملاحة فى النهر. ويبحر الأسطول الصغير، يتقدمه قارب **أمون** المتألق، وينساب على صفحة النهر متجهاً إلى معبد **الأقصر**. وعلى شاطئ النهر. أيضاً، يرافقه موكب طويل، يضم الكهنة بطبيعة الحال، وقد جاؤا جميعاً، لأنه يوم عيدهم، وإلى جانبهم الجنود والموسيقيون والمنشدات والراقصات. إن مرتزقة ليبين وزنوجاً جاؤا أيضاً ليعبروا عن فرحتهم، بأداء رقصات بلادهم، بينما تتمايل الراقصات على إيقاع الموسيقى. إن جمعاً غفيراً من عامة الشعب ومن الحجيج تجمعوا فى مكان لا يبعد كثيراً عن الشاطئ، ويطلقون الصيحات ويهللون فرحاً وابتهاجاً. ويتداخل كل صخب الأعياد هذا مع دق النفير وقرع الطبول ورنات تحريك

(*) ويعنى: «نو القيدام القوى». (المؤلفة)

والقيدام هو مقدمة القارب. (المترجم)

المصلصلات الأكثر حبة ورقة تناغم آلة العود، يتداخل جميعها لتتجه صعوداً نحو **أمون القوى**، تقديرًا لعظمته وإجلالاً له.

كما عاش معبد **الأقصر** ساعات انتظار محموم. وعلى جانبي الطريق المؤدى من نهر **النيل** إلى المعبد، أقيمت مقاصير صغيرة من الخشب تشبه مثيلتها في المعابد، وتزدان بظلة يرفعها أسطونان على شكل نبات البردى. وتتكدس في كل منها الأطعمة من مختلف الأنواع، كتعبير آخر عن الخصوبة موضوع هذا العيد. ويتولى المضحون ذبح الأبقار السمينة، ويتم تقصيبها في مكانها، وينهمك الخدم ينقلون قطع اللحم على عجل إلى المعبد. يحدث كل ذلك وسط الصياح والشمس والغبار والذباب.

ويصل **أمون**، وعلى الفور تُنقل القوارب المقدسة إلى داخل المعبد وتوضع في مقاصيرها، وعلى امتداد أحد عشر يوماً تجرى وقائع عرس الإله في أعماق غبش المكان المقدس والصمت المهيمن عليه. وفي هذا الإطار تدور فقرات شعبية أسرار الحياة التي تولد من جديد، لتضمن على هذا النحو في الخفاء استعادة قوى الحياة وتجديدها، في ذات اللحظة التي يقوم فيها **النيل** بتخصيب تربة **مصر**.

وفي الخارج يحتفل سواد الشعب بالعيد، فيقيمون في الطعام والشراب واللهو ويفرطون فيه^(*).

وسوف تلتزم العودة إلى **الكرك** بالشعائر نفسها، وسط مظاهر مماثلة من الفرح والابتهاج.

إن أحد مشاهد هذه العودة جديرة بأن تسترعى انتباهنا. فقرب **الكرك** صُور في مقدمة الموكب طاوور من الأبقار السمينة وقد زُينت قرونها بالأزهار، استعداداً لذبحها. وفي معبد **الأقصر**، وفي الركن الجنوبي الغربي من الفناء الأول، سَجِّل هذا الموضوع بمزيد من التوضيح: «خلف سبعة عشر ابنًا من أبناء **وهمسييس** الثاني يتقدم صف من الكهنة و/**شيران**. وبشكل عام، فإن كل عنصر من هذا الطاوور يتكون من شخص يمسك حبلًا يسحب به ثورًا يكتفه كاهن آخر. إن الشخص الأول

(*) إنها مشاهد مألوفة في الموالد في **مصر** (المترجم)

من كل مجموعة يضع على رأسه شعراً مستعاراً، ويتقدم في وضع التعبد، وقد حنى صدره إلى الأمام انحناء بسيطة، ويمسك على امتداد جسده باقة زهور كبيرة مركبة. أما الشخص الثانى حليق الرأس فهو يقدم فى كثير من الحالات أرغفة خبر مثلثة الشكل. لقد سُمّنت، الثيران جيداً، وتسير متناقلة على حوافرها المشوهة، وقد تزيّنت بمناسبة العيد، وطوّقت أعناقها بالزهور أو بالحلقات المجدولة، وعلقت بأذان بعضها صفائح أو حلقات. وبين قرون الثيران الأربع الأولى صور الموضوع المألوف للريش المركب العالى، إلا إذا كان يمثل سيقان زهرة اللوتس. ويحمل الثور الخامس رأساً مستعاراً يمثل زنجياً. أما الحيوان السادس فيبدو أنه يشبه نوعاً من البقرات ذات السنّام... وتتصب فوق رأسه صورة أسويى، يمكن التعرف عليه من صورته الجانبية ولحيته المديبة الطويلة. كان له ساعدان مضمومان ويرتفعان إلى الأمام فى وضع التعبد^(١٥٦)».

ولأول وهلة، فإن الاختلاف بين **الإفريقى والأسويى** واضح جلى ويجدر ذكره. فالإنسان فى الحالة الأولى هو جزء من بدن الحيوان، كما أن قرنيه يشكّلان مع ساعدى **الزنجى**، شيئاً واحداً. أما فى حالة **الأسويى** فإنه لا يظهر سوى ملامح آدمية، وكل ما فى الأمر، أنه موضوع فقط فوق جبين الحيوان الذى يبدو أنه ينبثق منه. وتكشف هذه الجزئية فى تناول الصورتين عن الاختلاف العميق فى نظرة المصريين لكل من شعوب **الجنوب والشمال**^(٥).

إن الموضوع وهو سياسى بكل تأكيد، كان يرمى فى إطار أعياد مدينة **الجنوب**^(٥٥) الدينية، المكرسة لدوام الحياة واستمراريتها، إلى تعزيز فكرة دوام الإمبراطورية واستمراريتها. وهو ما يفسر وجود أبناء **رعمسيس** الثانى فى مقدمة الموكب، تأكيداً على استمرارية الأسرة الحاكمة، كواقع مستقبلى. إن وجود رعوس

(*) يا له من وصف رائع تقدمه المؤلفة، جعلنا نعيش لحظة بلحظة هذا المشهد الرائع، بصورة المبهرة ونغماته التى تسحر الألباب. شكراً لها إذ أعادتنا عن جدارة ثلاثة آلاف سنة إلى الوراء. (المترجم)

(**) **نيوت رسيه** بالمصرية القديمة، أى طيبة. (المترجم)

الزئوج والآسيويين بين قرون الحيوانات رافعين أيديهم متوسلين، وفقاً لحركة تقليدية، والذين سيتم ذبحهم مع الحيوانات فى أن واحد، قد يبدو ظاهرة غريبة غير مألوفة. ولكن إذا أدركنا أن ذبح حيوان يعتبر أحياناً بمثابة ذبح عدو، تصبح الرمزية فى هذه الحالة مزدوجة، فتتعاظم إذن فاعلية الصورة. هكذا، تؤكد هذه الشعييرة هيمنة مصر على الأراضى القصية إلى جانب استمرارية النظام الملكى. وقد ظهرت أساساً فى عصر الرعامسة وتحديداً فى عهد رمسيس الثانى، كما صُورت فى معابد الكرنك والأقصر وأبيدوس، وأيضاً فى معابد النوبة فى بيت الوالى وكوة، وسط السكان الأفارقة لمطالبتهم بالخضوع. وفى هذا الزمن، تشكل إذن هذه الشعييرة إضافة ذات بعد سياسى إلى عيد أوبت، فكان عيداً يحتفل فى أن واحد بخصوبة الأرض الخضراء، العامرة انتظاراً لموسم الحصاد المقبل، وأيضاً بالخصوبة الإلهية واستمرارية الحياة، وأخيراً بدوام الإمبراطورية حتى تغالب الأيام. هذه الإضافة تتفق كل الاتفاق مع فكر رمسيس الثانى.

ومن جهة أخرى، يمكن النظر إلى هذا المشهد الختامى، مشهد العودة، بصفته ردّاً متناغماً كمقابل لمشهد آخر، كان يمهد لهذا العيد ويتفق مع خروج الآلهة من ناووسها، بينما يقيم التاسوع الكبير شعائر العبادة من أجل آمون وموت وخونسو وتُصاغ الكلمات على النحو الآتى:

آتوم : ليتك تُشرق شروقاً جميلاً، يا آمون - رع!

ليتك تُعطى حياة وقوة لرب القطرين،

أوسر ماعت رع - ستب إن رع.

شسو : ليتك تتجلى تجلياً جميلاً، يا سيد الآلهة!

ليتك تُعطى الصحة لسيد التجليات المجيدة،

رمسيس - محبوب - آمون.

تفنوت : ليتك تُشرق شروقاً جميلاً، يا آمون - رع!

ليتك تُعطى البسالة لرب القطرين،

أوسر ماعت رع - ستب إن رع.

جب : ليتك تتجلى تجلياً جميلاً، يا سيد الآلهة!
ليتك تُعطي النصر لسيد التجليات المجيدة،
رمسيس - محبوب - آمون.

[نسوت : تُعطي الحياة والقوة].

أوزيريس : ليتك، تتجلى تجلياً جميلاً، يا سيد الآلهة!
ليتك، تُعطي الملك لسيد التجليات المجيدة،
رمسيس - محبوب - آمون.

إيزيس : ليتك تُشرق شروقاً جميلاً، يا آمون - رع!
ليتك تُعطي مدة حياة رع، لرب القطرين،
أوسر مامت رع - ستب إن رع.

سحت : ليتك تتجلى تجلياً جميلاً، أيها القيم على التاسوع!
ليتك تُعطي سنوات أتون لسيد التجليات المجيدة،
رمسيس - محبوب - آمون!

نفتيس : ليتك تُشرق شروقاً جميلاً، يا آمون - رع!
ليتك تُعطي عرشك لرب القطرين،
أوسر مامت رع - ستب إن رع.

كما أن حتحور، سوف تُعطي رمسيس الزمن اللانهائي، وتغدق عليه آلهة أخرى، صفات مادية وروحانية، من خلال صياغة مقاطع شعرية مماثلة، تتوازن توازناً متتناغماً (١٥٧).

هكذا، فربما عمل رمسيس الثاني، على إطالة فترة أعياد أوبت وتأطيرها، إذا صح التعبير، بمشاهد سياسية، الهدف منها ضمان أن تتحقق على أرض الواقع الإمبراطورية التي كان يحلم بها، وأن تغالب الأيام، وذلك بفضل آمون وبنعمته.

كما تُقدّم لنا آثار **رعمسيس الثانى** صوراً تعود إلى غيرها من المدايح الإلهية.

ففى الفناء الثانى من **الرامسيوم**، صُوّرت مختلف فقرات عيد الإله **مين**. إنه إله خالق بعضو ذكر منتصب، برداء محبوب، وربما كانت شواطئ **البحر الأحمر موطنه الأصلي**، فهو الإله القديم لأصحاب القوافل وقوادها، واتخذ من مدينة **كوبتوس**، شمال **طيبة**، مكانه المقدس الرئيسى. ولكن كان له فى **المدينة** (*) ذاتها، مقصورة. ويبدو أن شخصيته قد «تركت أثراً» فى هيئة **أمون** الذى عبّد فى معبد **الأقصر**، إذ صُوّر أيضاً بعضو ذكر منتصب، برداء محبوب رافعاً ساعده، وممسكاً بسوط، مثله مثل **مين**.

كما أن «**طلعة مين**» هذه، كانت تجذب أعداداً كبيرة من الحجاج وجماهير غفيرة. كانت تقع فى الشهر الأول (**) من فصل الجفاف (***)، أى قرب نهاية شهر **مارس**، فى زمن الحصاد. ومن ثم كان عيد **أوبت** وعيد **مين** لحظتين بارزتين فى حياة الحقول، يتعين على الآلهة والملك أن يحتفلوا بهما.

وفى اليوم المحدد، كان ينتظم فى **طيبة**، الموكب الأول، خارج القصر الملكى. ويظهر الملك مرتدياً زيّه الرسمى ويجلس على مُتْكاً، موضوع تحت قبة، ومحمول فوق محفة يرفعها اثنا عشر رجلاً. وكانت المظلات والمذبأت توفّر للملك وسائل الراحة (١٥٨).

(*) **ليوت**، وهى من أسماء **طيبة**. (المترجم)

(**) شهر **بأخنس** الذى تحول إلى **بشنس** فى التقويم المصرى المعاصر المعروف بالقبطى، بعيداً عن أية دلالة دينية. ويرى د. عبد العزيز صالح أن **بشنس** نسبة إلى الإله **خونسو** (حضارة مصر القديمة، د.ن، ١٩٨٠، ص ٤١). والنقطة الجديرة بالملاحظة أن أقباط مصر يحتفلون بمولد العذراء **مريم** فى اليوم الأول من شهر **بشنس**. (راجع **السفكسار**). فهل من وجه للمقارنة؟ (المترجم)

(***) **شمع** بالمصرية القديمة. ما زال المصريون يحتفلون بهذه المناسبة، يوم **شم النسيم**، بعد تصحيف كلمة **شمع** إلى **شم**. ويدخل المسيحية مصر أصبح هذا العيد يقع فى فترة الصوم الكبير لدى الأقباط، فتأجل الاحتفال به، إلى يوم الاثنين التالى لعيد القيامة الذى يحدد نهاية الصوم، وتاريخه غير ثابت يتغير من سنة إلى أخرى، ولكنه يتفق دائماً مع أحد أيام **الأحد**. (المترجم)

وفى مقدمة الموكب كان الموسيقيون والكهنة يسرون. ثم يأتى الأبناء المكيون وكبار رجال الدولة. كان كاهن مرتل يشرف على الاحتفال، ويقرأ من برنية طويلة، بينما كاهن آخر حليق الرأس وعارى الصدر حتى الخصر، يتقدم مقصورة الملك، ويطلق البخور فى اتجاه العامل الملكى، وخلف الفرعون يسير وجهاء وجند آخرون.

وعند وصول الملك أمام مقصورة مين يهبط من المحفة ويصبح أمام تمثال الإله. إن إطلاق البخور وإهراق ماء المسكوبات وتقديم القرابين، كانت توفر للإله مظاهر الشكر والحمد الرئيسية. عندئذ تبدأ طقوس الاحتفال الدينى. وصُوِّرت فى مقصورة مين اثنتان من صفاته المميزة، الأولى هى عبارة عن كوخ مخروطى الشكل، ربما كان محاكاة لمعبده العتيق فى الصحراء الشرقية، وتُصور الثانية خستين نواتى أوراق طويلة(٢) وكانت معروفة لدى القدماء بخاصيتها فى تقوية النشاط الجنسى.

عندئذ، يضع «الكهنة الأطهار» التمثال الإلهى على حامل، ليبدأ موكب احتفالى آخر ينتهى عند استراحة، سوف توضع فيها الصورة المقدسة.

وعلى رأس الموكب، يسير الكهنة موزعين على صفين، ويحمل كل واحد منهم على كتفه الأيمن تمثالاً صغيراً لأحد الملوك من أسلاف رمسيس، ويسنده بيده اليسرى. وفى الرامسيوم صُوِّرت هذه التماثيل موزعة على صفين، ومرتبّة ترتيباً زمنياً عكسياً حسب حكم كل من أصحابها، بدءاً من رمسيس الثانى ورجوعاً إلى الوراء وصولاً إلى نعرمر. وبطبيعة الحال لم يُصور جميع الملوك. وبالفعل لا يوجد سوى أربعة عشر ملكاً. خمسة فى أحد الصفين وتسعة فى الآخر وهم: نعرمر ومونتحوتب وأحمس وأمنحوتب الأول وتحوتمس الأول فى جانب وفى الجانب الآخر، تحوتمس الثانى وتحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى وتحوتمس الرابع وأمنحوتب الثالث وحرر إم حب ورمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى. فلم يُصور سوى ملكين من أقدم الملوك، وهما الملكان اللذان استهلا نظاماً ملكياً موحداً جديداً. واستعادة المؤسسة الفرعونية، بعد سنوات طويلة من انفراط عقد الوحدة. وبعد ذلك صُوِّر جميع

(*) لقد شاهدت هذا النوع من الخس فى أسواق الأقصر ويختلف عن الخس الذى يباع فى أسواق القاهرة مثلاً، بأوراقه القصيرة. (المترجم)

ملوك الأسرة الثامنة عشرة، باستثناء **حتشپسوت** مغتصبة العرش و**أمنحوتب** الرابع وتوت منخ آمون. كما صُوِّر ملكا **الرعامسة** الأوائل. ويبدو أن هذا الاختيار يعكس بوضوح رؤية متبصرة لتاريخ **مصر**. هكذا يظهر **رعمسيس** بصفته الوريث الحق لأجداده، كما أن استمرارية النظام الملكي، فضلاً عن استمرارية الحياة، أباً عن جد، وخلفاً عن سلف، في حدود سلسلة متواصلة، تسعى إلى تأكيد تجديد القوى التي تولد بالضرورة من جديد، وعلى الدوام. كما صُوِّرت الملكة ضمن الموكب، إنها الملكة المخصَّبة، التي يتجسد فيها الملك، والتي تضمن من جانبها استمرارية ملوك الأسرات الحاكمة.

وبصفته العنصر المركزي في هذا الموكب الاحتفالي، يسير بعد ذلك التمثال **مين** فوق حامله، وفي أعقابه يأتي **رعمسيس** شخصياً مصحوباً بثور أبيض مكرس للإله. ويرمز وجود الثور بكل وضوح إلى قدرات **مين** الجنسية، في حين يُقربه لونه الأبيض من الدورة الشمسية. إن طقس الثور الأبيض معروف في حوض **البحر المتوسط** وفي جزيرة **كريت** تحديداً.

وهنا يقال للإله:

ليتك تتجلى متألقاً من أجل آلهة الشرق!

ومن ثم، يندمج **مين** في الشمس، إذ تشمل كلاهما الدورة نفسها لقوى الولادة المتجددة والحياة التي تستعيد نشاطها على الدوام.

وبينما ينشد كاهن مرتل ترنيمة، يطلق البخور، تعبيراً موحداً عن شكره وامتنانه للإله والملك وللحيوان المقدس، لأن ثلاثتهم من أصحاب القدرات الإنجابية.

وفي أعقابهم، يسير ثمانية عشر من حاملي القرابين والشارات الإلهية.

في هذه اللحظة، ووفقاً لترتيبات الطقس الديني، تقع فقرة بالغة التفرد، إنها «نشيد زُنجى **پونت**»، ونذكر فيما بعد كلماتها ذات الإيقاع المتناغم:

إن حبى لك، يا مين، هو الأثر الذى أقدمه لك. تحية لك، يا مين، يا رب سينوت
وسيد إيبى إن جسدك من اللازورد^(١٥٩). كم هو قوى وجهك، أيها الثور القادم من
الصحارى، وصاحب القلب السعيد عند تعيينك ملك الآلهة.

هل كان هذا «/الزنجى من پونت» كاهناً؟ أو منشداً زنجياً؟ ولما كان مين أصلاً،
على ما يعتقد، إله أصحاب القوافل وقوادها، فقد وحد المصريين دائماً بينه وبين
المناطق الواقعة شرق مصر وجنوب شرقها، ومن أشهرها كانت بلا شك بلاد پونت،
وهى الصومال حالياً، بل وربما جزء من السودان. إن سكان پونت ليسوا من الجنس
الحامى، ولكن تفترض إحدى الأساطير أن مين قد خلق الزوج الذى يقومون بدور ما،
فى الشعائر التى تقام من أجله.

عندئذ، يصل الموكب إلى الاستراحة التى ترتفع أربع درجات ويستقر فيها
التمثال الإلهى.

وبحضور الملك تطلق الطيور ناحية جهات الأفق الأصلية الأربع:

أيا (مس) (*). اتجه ناحية الجنوب، وقُلْ لآلهة الجنوب،

أيا حى (**). اتجه ناحية الشمال، وقُلْ لآلهة الشمال،

أيا (بواموتف) (***). اتجه ناحية الشرق، وقُلْ لآلهة الشرق،

(*) أحد أبناء حورس الأربعة، ويصور فى الغالب برأس آدمى، ويسهر فى المعتاد على الإناء

الكانوبى، الذى يحتوى على كبد المتوفى. (المترجم)

(**) أحد أبناء حورس الأربعة، ويصور فى الغالب برأس قرد، ويسهر فى المعتاد على الإناء

الكانوبى، الذى يحتوى على رتتى المتوفى. (المترجم)

(***) أحد أبناء حورس الأربعة، ويصور فى الغالب برأس كلب، ويسهر فى المعتاد على الإناء

الكانوبى، الذى يحتوى على معدة المتوفى. (المترجم)

أيا قنبح سنوف^(*)، اتجه ناحية الغرب، وقلّ لآلهة الغرب،
إن حورس بن إيزيس وأوزيريس قد أخذ التاج الأبيض والتاج الأحمر،
وملك مصر العليا ومصر السفلى، أومر ماعت رع - ستب إن رع،
قد أخذ التاج الأبيض الكبير والتاج الأحمر.

وبعد أن اتخذ أبناء حورس الأربعة هيئة الرسل المجنحين، يعلنون في أرجاء
العالم سيطرة رمسيس الثانى وهيمنته، بعد أن استحوذ على عرش حورس.
هكذا، فإن هذا العيد، عيد الحصاد وسلطة الإله مين المخصبة، كان أيضاً
بمثابة ترنيمة مديح ملكية فى حق الفرعون الباسط سلطته على الأرض.
وفى الفصل قبل الأخير، يقدم الملك إلى الإله ضُمة من نبات العُلس، بصفة
باكورة الحصاد. ولا يختلف ترتيب القائمين على الشعائر. فمن جديد، تتقدمهم تماثيل
الملوك الأجداد الأوائل، يليها الثور الأبيض، ثم الملك والملكة نفرتارى، وقد ثنت
ساعديها على صدرها. وتشير جميع هذه العناصر، بشكل من الأشكال، إلى فكرة
الخصوبة واستمرارية سلالة الأسرة الحاكمة. ويقدم أحد الكهنة ضُمة سنابل قمح إلى
رمسيس الذى يقوم بشذبتها وتسويتها بواسطة منجل:

ويُحضر أحد كهنة الموكب منجلاً من النحاس، مغشًى بالذهب، ومعه أيضاً
ضُمة من نبات العُلس، ويُسلّمهما للملك. عندئذ، تقوم كاهنة بتلاوة التعويذات سبع
مرات، بينما تطوف حول الملك الذى يقوم بقطع الضُمة بواسطة المنجل الذى يمسكه
بيده. ثم توضع أمام أنفه، فأمام الإله مين، وتُسَلَّم إحدى السنابل إلى الملك.

(*) أحد أبناء حورس الأربعة، ويصور فى الغالب برأس صقر، ويسهر فى المعتاد على الإناء
الكلنوبي الذى يحتوى على أمعاء المتوفى. (الترجم)

إن عيد **مين** هذا، شأنه شأن عيد **أوبت**، كان ترنيمة مديح عظيمة، تقدم في أن واحد الشكر والحمد للإله، بصفته منجياً، إذ تظل فيه القوى الخلاقة حية نشطة على الدوام، على غرار قوى الأرض المنتجة للمحاصيل، كما تؤكد في الوقت نفسه على استمرارية النظام الملكي ودوامه، من خلال عملية تماثل وتطابق، من أجل مزيد من الفاعلية.

ولم يرد المشيد الأخير في **الرامسيوم**، ولكنه صُور بالإضافة إلى العيد بأكمله في معبد **رعسيس** الثالث الجنازى، في مدينة **هابى**.

فبعد الانتهاء من هذه الاحتفالات، يلتحق **مين** بمقصورته، وبعد إرضاء القوى المنجبة وتلبية ما تحتاج إليه، يؤدي **الفرعون** للمرة الأخيرة شعائر إطلاق البخور وإهراق ماء المسكوبات.

إن هاتين الترتيمتين المكرستين لمذائح الشكر والحمد، تعتبران نداءً بالغ الشدة موجهاً إلى قوى الحياة، وتربطان رباطاً وثيقاً بين النظام الملكي والمصائر الإلهية والأبدية للأرض.

إن عيداً آخر في **طيبة** يجدد هذا النداء، ولكن لصالح الأموات هذه المرة. إنه عيد **الوادي**، وتدور وقائعه مع ميلاد الهلال الجديد، خلال شهر **أبريل**، ويستمر أحد عشر يوماً.

وعند خروج الملك من قصره يتجه إلى **الكركك**، في معبد **أمون**، ويدعو الإله للانتقال إلى البر الغربى من النهر، لزيارة المعالم الجنازية لأسلافه، لإنعاشهم وإحيائهم.

وكما هو حادث دائماً، يعبر **أمون** النهر على متن قاربه المصنوع من خشب الأرز والذهب متجهاً إلى **الغرب**، يسبقه القارب الملكي ويسير في أعقابه قارباً **موت** و**خونسو**، ويصل إلى شاطئ الجبانات، ويواصل رحلته عبر القنوات حتى مشارف الصحراء ويتوقف برهة عند **الرامسيوم**.

ويوجه الإله حديثه إلى **رعمسيس** قائلاً:

يا بُنَى المحبوب، إن قلبي يفيض فرحاً بسبب الحب الذي تكنه لى. إنى أتحد
بجمالك، فى الحياة وفى القوة، ويبدى وجهى إعجابه بوجهك الجميل، فى حين يتحد
صداً على جبينك.

سوف أعلن من أجلك انتصاراتك على كل البلدان الأجنبية،

أجل، إن الجنوب مثل الشمال والغرب والشرق، أخضعها لسلطتك، وأجعل
زعماء البلدان الأكثر بعداً، يأتون إليك، (البلدان) التى كانت تجهل منذ زمن الإله،
سادة مصر. إنهم يحملون بمختلف أنواع الجزية الواردة من مناطقهم، إنها تنقل
ظهورهم، بسبب ما تثيره فى نفوسهم من خوف.

أجعل صيحات حريك تنتشر فى كل البلدان الأجنبية، فالرعب الذى تثيره نغذ
إلى قلوبهم مثل رعب إله **أومبوس** (*) [ست].

وأجعل شهرتك وانتصاراتك المجيدة تتعاضد، وتتجاوز شهرة وانتصارات أى
ملك من ملوك **مصر العليا** الآخرين، وأى ملك من ملوك **مصر السفلى** الآخرين، من
سادة القدرة.

إنى أجعل اسمك يظل مزدهراً مثله مثل **المنطقة العليا**. وما دُمت باقياً تظل
السماء باقية للزمن اللانهائى، لأنك ابنى المحبوب، الذى يتربع على عرشى ويسعد
قلبي (١٦٠).

(*) أطلق الإغريق اسم **أومبوس** على بلدين. الأولى هى **نبي** عند المصريين و**كوم أمبو** الحالية. أما
أومبوس التى تعني هنا، فهى **نوبت** عند المصريين، وتقع حالياً شمال **قادة**. والمسافة بين
البلدين حوالى مئتى كيلومتر. تقول متون الأهرام: «ست المقيم فى **نوبت**، رب **مصر العليا**».

M. Damiano - Appia. L'Egypte. Dictionnaire Encyclopédique, Gründ, 1999, pp. 162, 193, 232.

(الترجم)

إنها قصيدة منظومة من أجل **رمسيس الثانى**. وعند قراءتها نسمع أصداء الخطاب المسهب الذى وضعه **أمون** من أجل **تحوتمس الثالث**، وهو النشيد الإمبراطورى الذى سيعود إليه كل الفاتحين. وإذا كان مصدر الإلهام واضح، فإن النشيد الذى نحن بصدده مختصر، وأكثر جزالة وأصاله، ويشدّد على اتساع الإمبراطورية وأبدية ألوهية **رمسيس**.

وعندما يصل **أمون** إلى **الرامسيوم** سوف يرحب بزيارة آلهة الجبانة، نعى تماثيلها، إلى جانب **أمنحوتب الأول**، الوليِّ القيم على شاطئ الأموات وحاميه، فقد كان أول الملوك الذين دفنوا فى البر الغربى لمدينة **طيبة**. ويوضع تمثال الملك المتوفى فوق محفة يحملها الكهنة، ويحيط به حملة المراوح فيحركون المراوح والشماسى. وسوف يترتب على اجتماع الآلهة تجديد حياة كل الذين دفنوا على مقربة من هذا المكان.

وفى المساء تحضر كبرى عائلات **طيبة**، بعد أن عبرت بدورها النهر، وتنتظم فى موكب، ليسير أفرادهم على ضوء المشاعل التى يحملونها، حتى يصلوا إلى مقابر ذويهم. كانوا يجلبون معهم مؤناً طائلة، ليحتفلوا بين الأمل بزيارة **أمون** إلى «**الغرب الجميل**».

وعلى البر الآخر كان فى استطاعة أبناء **الأقصر** أن يتابعوا ببصرهم هذه المسيرة بمشاعلها التى تتلألأ ومضات نورها فى ظلام الصحراء، فتجلب للموتى النار مجددة الحياة.

لما كان المصريون يتمتعون بطابع الوداعة والبشاشة، فقد أحبوا الأعياد التى تجدد حياة البلاد والبشر بمختلف الأساليب. لم تكن مناسبات عابرة لمجرد التسلية واللهو لا طائل منها، لا هدف منها سوى إسعاد النفس، بل كانت أيضاً أنشطة روحانية سامية، تنطوى أفعالها، فى الغالب، على قيمة أسطورية، والمجاهرة بعقائد إيمانية عظيمة ترتبط بالقوى التى تسيّر العالم، ألا وهى الآلهة والملوك الذين يشكّون مع قوى الطبيعة شيئاً واحداً، فيضطلعون بعمل تجديدى أبدى.

كان الاحتفال بأعياد **الرهامسة الثالثة**، تجرى وقائعه فى **طيبة**. وهكذا ترسّخت مكانتها بصفتها عاصمة مصر الدينية.

قرية بجوار النهر

إن معلوماتنا عن حياة سواد الشعب المصرى شحيحة والشواهد الأثرية نادرة، فالبيوت المبنية من الطين أو الطوب اللبن لم تقاوم صروف الدهر^(*).

ولكن أطلال قرية حرفيين ما زالت باقية فى البر الغربى لمدينة طيبة، وتحديداً فى **نهر المدينة**^(**)، قرب تل قرنة موهى، جنوب الجبانة.

كان **تحوتمس الأول** قد أنشأ هذه القرية لجميع العاملين فى المقابر والمعابد الجنائزية الملكية من حرفيين وعمال. كانت تضم فى هذه الفترة حوالى أربعين منزلاً محاطة بجدار أشبه بسور للحماية. كان السكان أساساً من المصريين، وأيضاً من بعض المهاجرين **الهكسوس والنوبيين**، بصفتهم عاملين أحراراً. إن الجبانة المجاورة تكشف عن معاناتهم من ضيق ذات اليد.

ثم تحسنت ظروف حياتهم فى عهد **التحامسة**. فنظم الجهاز الإدارى إمداد القرية بالماء. وبجوار الباب الشمالى أقيمت نقطة ماء، يشرف عليها حارس، ووضعت الأزيار على امتداد حوارى القرية. وفى عهد **أمنحوتب الثالث** كانت القرية تضم حوالى خمسين منزلاً داخل السور، وبدأت تتوسع خارجه.

وسيتولى **الرهامسة** إعادة بناء وتنظيم قرية **نهر المدينة**، بعد أن هُجرت فى عهد **أمنحوتب الرابع**، عندما رحل البلاط الملكى بعيداً إلى **تل العمارنة**. وشُقَّت شوارع جديدة عبر المنازل القديمة، وشيِّدت أحياء جديدة. وفى عهد **سيتى الأول** كانت القرية تضم سبعين منزلاً داخل سور القرية، وخمسين أخرى خارج السور، وتقف شاهداً على تطور القرية، فكان الحرفيون يسكنون منازل يحميها سور القرية، ويسكن العمال غير المهرة خارج السور. ووصلت القرية فى عهد **رهمسيس الثانى** إلى قمة

(*) راجع حول هذا الموضوع: دومينيك فالبليل، الناس والحياة فى مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦. (المترجم)

(**) كان المصريون يطلقون عليها اسم: **تاسيت مامت أى مقر المدينة العادلة**. (المترجم)

ازدهارها(*)). بل يبدو أن قدرًا من الاهتمام بتنايم القرية وتجميلها قد وجه التخطيط الجديد الذي نفذته **الرومامسة**. فيمكن التعرف على خمسة شوارع مستقيمة، تصطف على امتدادها المنازل التي شيدت بالطوب وكسيت جدرانها بطبقة من البلاط قبل طلائعها بالجير. إنها صغيرة إلى حد ما، وعمقها كبير مقارنة بعرضها. إن أكبر الحجرات حجرة المدخل التي تضم ما يشبه المصطبة، وتبلغ حوالي مترين طولاً و١٢٠ سم عرضاً، وترتفع عن الأرض بمقدار ٩٠ سم، ويصعد إليها المرء عبر ثلاث أو أربع درجات. ويدخلها الضوء من خلال شبابيك، بُنيت عليها عناصر متشابكة. أما القسم المتبقى من المنزل فيتكون من حجرة أخرى أصغر، هي حجرة النوم، وربما كانت هناك حجرتان. وينتهي هذا القسم بالمطبخ وكان غير مسقوف، ويضم فرناً وعجناً. إن بقايا الدرجات الأولى من سلالم تحملنا على الاعتقاد بأن هذه المنازل كانت تضم أقباء، بل وأسطحاً أحياناً. وكانت جميع الأبواب مدهونة بطلاء أحمر، وهو اللون الذي يطرد الأرواح الشريرة، أما الجدران فهي بيضاء، ومزخرفة أحياناً ببعض الرسوم، ولكن لحقت بها أضرار بالغة. والرسومات ذات مواضيع دينية مثل **هوس** و**إيزيس** في مستنقعات الدلتا، أو مواضيع دينية فتصور راقصات عاريات ونساء ومن يتزيّن. وكانت أرضية الحجرات من تربة معبّدة، مغطاة بطبقة من الملاط وملونة باللونين الأبيض والأحمر في المساكن الأكثر ثراءً(**).

وقرب القرية شُيِّدت مقاصير نذرية للآلهة والملوك: **أمنحوتب الأول** و**تحتومس الثالث** و**سيتي الأول** و**رعسيس الثاني**.

(*) وإلى هذا العصر تعود أروع مقابر **عين المدينة**، ورغم صغر حجمها فهي آية في الجمال ونضارة الألوان. ونذكر منها على سبيل المثال: مقابر **سن نجم** وإن **حس خعو** و**باشد**.
(المترجم)

(**) راجع: د. محمد أنور شكرى، العمارة في مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ص ٨٢-٨٤ و ١٤٥.

ود. سيد توفيق، آثار الأقصر، النهضة العربية، ١٩٨٢، ص ص ٢٧٨-٢٩٢.

و. Alberto Siliotti. Guide illustré. Vallée de Rois, des Nécropoles et des Temples de Thèbes.
(المترجم) White Star S.r.l. 2004. pp.130-139.

أما الجبانة فكانت لا تبعد كثيراً. وقد أعدت حجرات الدفن لتستقبل عدداً كبيراً من أفراد العائلة. كانت المقابر تضم أحياناً مقصورة جنازية يعلوها هُرمٌ منحوت، يصل إليها المرء عبر سلّمٍ لوُئت درجاته باللون الأزرق أو الأصفر. إنهما لونا المجال السماوى، المفعمان بالخير والبركة. وفى أغلب الأحيان، كانت ألواح حجرية ذات ألوان زاهية تزدان بها الواجهات.

والحياة فى القرية حياة ميسورة نسبياً والطعام متوفر ومناسب، وأساسه الخبز ويقدم أحيانا محشواً بالحبوب أو اللحم. كان أبناء القرية يستهلكون اللحم البقرى أو البتلو وأيضاً لحم الغزلان والظباء والضباع التى يتم تسمينها بعد اصطيادها. ويأكلون العصافير والطيور مشوية أو مسلوقة، أما الأسماك بمختلف أنواعها فكانت تؤكل أيضاً مشوية أو مسلوقة، وأما الخضراوات فعدة منها البصل والثوم والفاصوليا والكراث والعدس وورق نبات اللوتس، كما كانوا يتناولون الفواكه كالباح والتمر والرمان والمشمش وثمار العنّاب والخروب. وبعض هذه الفواكه كان يجفف ويحفظ للشتاء. كما كانوا يشربون الجعة والنبيذ واللبن^(*).

كان العمال يخضعون لسلطة رئيسين، يعاونهما مجلس من الحرفيين والعمال غير المهرة، وتحت تصرفه إدارة صغيرة من الكتبة والمراقبين. ومن المرجح أن الرئيسين كانا ينوبان عن الوزير، وأن أعضاء المجلس كانوا يُختارون بالانتخاب^{(؟)(**)}.

كما وُجدت روابط خاصة، هى أشبه بالطوائف الحرفية. كانت النخبة تضم رؤساء العمل والمشرفين على العمال والنحاتين والمصورين والرسمين والكتبة، ثم يليهم منفذو الأعمال المطلوبة من عمال غير مهرة وقاطعى الأحجار والحفّارين، وأخيراً نصل إلى عامة الناس وصغارهم الذين يوفرّون لأبناء القرية معاشهم من طعام

(*) لقد سال لى على قائمة الطعام هذه وأنا أترجمها، فهل يشاركنى القارئ الشعور نفسه!

(الترجم)

(**) وذلك قبل ثلاثة آلاف سنة. (الترجم)

ومشرب وغيرهما، كالسقّائين والبقّارين وصيّادى السمك وصيّادى العصافير والغسّالين(*)). كانت هذه الطوائف أو الاتحادات منضمة إلى جمعيات دينية تمتلك المقاصير التى يجتمعون فيها فى الأعياد لإقامة الطقوس الدينية وتنظيم المواكب الاحتفالية. وكان الملك الوليُّ **أملحوتب** الأول سيد الجميع وشفيعهم، أما الملك المتربع على العرش، فهو حاميههم. هكذا ظهرت أول حركة نقابية خاضعة للدولة وعلى الطريقة المصرية(**).

وبالفعل كان عقداً يربط هؤلاء العاملين الأحرار بالدولة، لفترة محددة. ويبدو أن الحقوق نفسها كانت مضمونة للجميع، وحتى للعاملين الأجانب الذين تُعطى لهم أسماء مصرية. ولكنهم كانوا يندمجون مع أبناء البلد إلى هذا الحد أو ذاك. ويحدّد العقد الأجر وكمية العمل. هكذا، فإن العامل صانع الطوب كان مطالباً بصب عدد معين من الطوب يومياً. كما أن الشهر المكون من ثلاثين يوماً، كان ينقسم إلى ثلاثة أسابيع من عشرة أيام للأسبوع الواحد، وعلى العامل أن يعمل ثمانية أيام ثم يحصل على يومين راحة(***)). كما كان يمنح أجازات استثنائية بمناسبة أكبر الأعياد(****): أربعة أيام مثلاً فى أكبر المواكب الملكية الاحتفالية^(١٦١). إن معلوماتنا مستمدة من نصوص **الأوستراكا** التى عثر عليها بكميات كبيرة بجوار القرية(*****).

إن مشرفاً عاماً على العمل كان يراقب بكل دقة التقيد بأيام العمل وعدد ساعاتها. وكان كاتب مكلفاً بتسجيل العطلات. وقد عثر على ورقة بردى مؤرخة بالعام ٤٠ من حكم **همسيس** الثانى، دون عليها أحد الكتب غياب عدد من العمال وأسبابه:

(*) يا له من مجتمع فائق التنظيم. (المترجم)

(**) وذلك أيضاً قبل ثلاثة آلاف سنة. (المترجم)

(***) نعم، هكذا! (المترجم)

(****) عن عدد أيام الأعياد والأجازات راجع: **كلير لالويت**، طيبة، ترجمة وتعليق **ماهر جويجاتي**،

المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، هامش ص ٥٢٩. (المترجم)

(*****) فى المكان الذى يطلق عليه حالياً اسم **بئر الأوستراكا** الكبيرة وتقع شرق المعبد البطلمي

الكائن إلى الشمال الشرقى من القرية. (المترجم)

❖ **بين نوا** : فى اليوم الرابع عشر، من الشهر الأول، من فصل
الفيضان^(*). خرج ليشرب بصحبة **خونسو**.

❖ **حور إم ويا** : فى اليومين الحادى والعشرين والثانى والعشرين، من الشهر
الثالث، من فصل الفيضان. خرج بصحبة المشرف على
العمال.

فى اليوم الثامن، من الشهر الثانى، من فصل البذر^(**)
(الشتاء). كان يعدُّ الجعة.

فى الأيام السابع عشر والثامن عشر والحادى والعشرين، من
الشهر الثالث من فصل الجفاف^(***) (الصيف). كان
مريضاً^(****).

❖ **حوى نفر** : فى اليومين السابع والثامن، من الشهر الثانى من فصل البذر.
كان مريضاً.

فى اليومين الثالث والخامس، من الشهر الثالث، من فصل
الصيف. كان يعانى من متاعب فى العينين.
وفى اليومين السابع والثامن: كان مريضاً.

❖ **أمن إم ويا** : فى اليوم الخامس عشر، من الشهر الأول، من فصل البذر.
كان يعاون فى تحنيط **حورمس**.

فى اليوم السابع، من الشهر الثانى، من فصل البذر. كان
غائباً.

وفى اليوم الثامن. كان يعدُّ الجعة.

(*) لخص، بالمصرية القديمة. (المترجم)

(**) پره، بالمصرية القديمة. (المترجم)

(***) شمعى، بالمصرية القديمة. (المترجم)

(****) أى كان فى أجازة مرضية! (المترجم)

وفى اليوم السادس عشر. عمل على تدعيم الباب.

❖ **سـبـبـيـا** : فى اليوم السابع عشر، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان.
لدغه عقرب.

فى اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الأول، من فصل
البذر. كان مريضاً.

❖ **خونسو** : فى اليوم السابع، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان. وفى
اليومين الخامس والعشرين والثامن والعشرين، من الشهر
الثالث، من فصل البذر. كان مريضاً.

فى اليوم الثامن، من الشهر الرابع، من فصل البذر. كان
يؤدى الخدمة لإلهه.

فى اليوم الرابع عشر، من الشهر الأول، من فصل الفيضان.
كان عيده.

وفى اليوم الخامس عشر. كان عيده.

❖ **أنسو** : فى اليوم الرابع والعشرين، من الشهر الأول، من فصل
الشتاء. ذهب لإحضار الحجر، من أجل **قن حر خيشف** (*).

وفى اليوم السابع، من الشهر الثانى، من فصل البذر. الشىء
نفسه.

وفى اليوم السابع عشر. كان غائباً^(١٦٢) (**).

كانت الأجازات المرضية نادرة. ولكن الأحداث قليلة الأهمية سواء المرتبطة
بالحياة اليومية أو ذات الطابع العام أو الشديدة الخصوصية، كان يترتب عليها فى
بعض الأحيان أيام غياب، فتسجل بكل دقة.

(*) أى كان فى مأمورية رسمية؛ (المترجم)

(**) يا لكفاءة هذا الجباز الإدارى ونقته. (المترجم)

وإذا رأى العمال أن ظروف العمل مكروهة أو غير مناسبة، كان في استطاعتهم أن يضربوا عن العمل، فكانوا «يرقلون»^(*)، على حد التعبير المصرى.

كان عمل الحرفيين منذ عهد **هوسر إم حب** فى حماية الملك. وفى وسعهم أن يمتلكوا بيتاً، وفى هذه الحالة كان عليهم فقط دفع الضريبة فى هيئة بعض أعمال السخرة^(**). إن سرقة أدوات عامل كانت تعتبر إثماً شنيعاً، تستحق عقاباً تنزل الآلهة. وبالفعل فإن العامل الذى يشكل الحجر أو يلون أو يصور، يُبدع أشكالا ينظر إليها الفكر المصرى باعتبارها مستودعاً مفترضاً للحياة الكامنة فيه^(***)، عرضة لأن تدبّ فيه الحياة. وتأسيساً على ذلك كان العامل أو الحرفى خالقاً، وبالتالي شخصيته ذات شأن، يستحق كل التقدير. كان عمال **دير الممينة** يلعبون دوراً ضرورياً ومفيداً على أكبر قدر من الأهمية، فقد كان عملهم ينصبّ تحديداً على بناء المعابد الجنائزية وحفر المقابر وتشكيل التماثيل، فيعملون إذن من أجل الحياة الأبدية **للفراعون**، الذى كان من جانب آخر، يقرّ لهم بالجميل، ولجميع من شاركوا فى العمل فى إقامة هذه المعالم، الأمر الذى يشهد عليه نص يعود إلى العام الثامن من عهد **همسيس** الثانى، منحوت على لوح حجرى عُثر عليه فى **منشية الصدر**، وسبقت الإشارة إليه^(١٦٣):

أيها العاملون المختارون والبواسل، إنى أعرف أيديكم التى شكلت من أجلى الكثير من معالى. أنتم يا من تعشقون صياغة الأحجار الكريمة من كل نوع، وتنفذون إلى داخل الجرانيت وترتبطون بالكوارتزيت، أنتم (يا أيها الرجال) الشجعان الأقوياء عندما تشيدون المعالم، فبفضلكم سوف أتمكن من تزيين كل المعابد التى أقمتها، طوال

(*) يا لعظمة هذا الرجل! قبل ثلاثة آلاف سنة. (المترجم)

(**) حول أعمال السخرة يمكن الرجوع إلى تعليقات المترجم فى: **كلير لالويت**، طيبة، ترجمة وتعليق، **ماهر جويجاتى**، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، هوامش ص ص ٨٥-٨٦ و ٥٢٩ و ٥٤١ و ٥٤٢.

(المترجم)

(***) كان يطلق على النحات، **صى** هتخ فى اللغة المصرية القديمة أى «هذا الذى يعيد إلى الحياة».

المرجع السابق، ص ٤١٥. (المترجم)

مدة زمنها. أنتم، يا أيها المحاربون الأشاوس الذين لا يعرفون الكلل، ويسهرون على الأشغال طوال فترة استمرار العمل، وتنجزونها بحزم وفاعلية. أنتم يا من يُقال لهم: «اعملوا وفقاً للخطط». أنتم يا من تذهبون لإحضار الأحجار من **التل المقدس**، لقد أصغيت إلى أحاديث بعضكم للبعض الآخر. لن أدخر وسعاً لأغدق مِننى عليكم وتكون أفعالي مطابقة لأقوالى.

أنا رعمسيس - محبوب - أمون، أنا الذى يساعد الأجيال الشابة لتنمو وتترعرع فأتيج لهم أن يحيوا، وسوف تغمركم الأطعمة ولن ترغبوا أيضاً فى زيادة مأكلكم من حولكم. سوف أوفر لكم كل ما تحتاجون إليه بشتى الوسائل. هكذا ستعملون من أجلى بقلب محب، فأنا حامى مهنتكم القوى والمدافع عنها. وبين أيديكم ستكون الأطعمة أثقل من الأعمال التى تقومون بها، هكذا تتمكنون من العيش والنمو. إنى أعلم مدى قسوة صنعتكم وفائدتها، وأعزف أن العمل أمر مفرح عندما تكون البطون ملائمة.

من أجلكم سوف تتكسد الشئون بالقمح، حتى لا تقضوا يوماً واحداً محرومين من الطعام الخيى. سيحصل كل واحد منكم مؤناً تكفيه لمدة شهر. كما ملأت المخازن بكل الأصناف من خبز ولحوم وفطائر لحمايتكم (من التضور جوعاً، وملأتها) بالنعال والملابس، وبالكثير من الأدهان حتى يمكنكم مسح رءوسكم مرة كل عشرة أيام، وارتداء (ملابس جديدة) مرة كل سنة، وتكون أقدامكم راسخة ثابتة كل يوم. إن أياً منكم لن يبيت حزناً مهماً، بسبب القحط.

كما عيّنت عدداً كبيراً من الإداريين لقلبية احتياجاتكم. سوف يوفر لكم الصيادون الأسماك وآخرون كالفلاحين، سيزرعون الخضراوات. والفخاريون سوف يشكلون على دولا بهم أعداداً كبيرة من الأزيار، هكذا سوف تصبح المياه من أجلكم رطبة فى فصل الصيف.

ومن أجلكم أيضاً، لا تتوقف **مصر العليا** عن الإبحار فى اتجاه **الدلتا**، و**الدلتا** فى اتجاه **مصر العليا**، (بحمولات) من الشعير والكتس والحنطة والملح والقول بكميات كبيرة.

لقد فعلت كل ذلك، حتى يُقال إنكم تزدهرون، بينما تعملون من أجلى، بقلب واحد (١٦٤).

هذا الكرم الحاتمي من جانب الملك، الذي خصَّ به تحديداً حرفيّ منطقة هليوبوليس، كان يوزع بأسلوب مماثل في نهر المدينة، موقع العمل العظيم، للملوك الرعامسة.

كانت لروابط طوائف عمال القرية محاكمها الخاصة. فتعرض المنازعات على ما يشبه مجلس من المحكّمين، يتكون من حرفيين، يرأسه أحد المشرفين على العمال، ويُصدر المجلس أحكامه باسم الملك (١٦٥)، ولكن كانت اختصاصاته تنحصر في الشئون العادية. أما العقوبة التي يتم توقيعها فكانت في المعتاد الضرب بالعصا، أما القضايا الخطيرة، لا سيما الجنائية، فكانت من اختصاص محكمة يرأسها الوزير.

وبالنسبة للمصريين المولعين بالمرافعات والشكايات، فتتيح لهم كثرة القضايا أمام المحاكم إشباع هوايتهم هذه. إن أعداداً كبيرة من البرديات قد نقلت إلينا الدعاوى التي تدور حول خلاقات محلية تافهة، بل ونعرف دعوى قضائية رفعت بشأن انتقال أحد المناصب، واستمرت، في نفس العائلة، بدءاً من عهد آمحس واستمرت حتى عهد رمسيس الثاني، أي أن نظر القضية دام ثلاثة قرون.

كما تروى لنا المقابر وسطوح الأوستراكا، حياة القرية ذاتها وحياة سكانها.

ففي مقبرة إيبوي (*)، النحات في عهد رمسيس الثاني، ما زال في وسعنا متابعة سير أعمال الحقل وقطف العنب والصيد النهري ونشاط الأسواق والتجار المنهمكين في أشغالهم والعودة من رحلة صيد في الصحراء، بل ومشاهد أعمال الغسيل والصباغة.

(*) وهي مقبرة رقم ٢١٧ من مقابر نهر المدينة. (المترجم)

وقد يحقق الحرفيون أحياناً نجاحاً في حياتهم المهنية، ليصعدوا درجات الترقى الوظيفي. ونعرف رساماً أصبح كاتباً وأنهى حياته في منصب حامل المروحة على يمين الملك^(١١٦). وهو منصب مرموق، إذ كان هذا اللقب من ألقاب الأمراء الملكيين.

كما أن حياة **رع مس**^(*) تميّز اللثام عن الكثير. فقد عُيّن كاتباً في **دير المدينة**، في العام ٥ من عهد **رع ميسيس** الثاني، قبل معركة **قائش** ببضعة شهور. كان ابن موفد ملكي، ومن العاملين بخزينة معبد **تحتوتس** الرابع الجائزى في بداية الأمر. كان فطناً، ثاقب البصيرة، فآثره الوزير **پاسر** وأكرمه وأرسله إلى **دير المدينة**، وسرعان ما حقق هناك ثروة كبيرة، إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد الآثار الكبيرة نسبياً التي خلفها وراءه، ومنها الكثير من الألواح الحجرية إلى جانب ثلاث مقابر^(**). كما كان يتمتع بمواهب أدبية. وكتب، على وجه التحديد، مرجعاً موجزاً في تفسير الأحلام وكتاباً في الافتتان السحري.

وللتعرف على أخبار قرية **مصرية**، فما علينا إلا التوجه إلى **دير المدينة**. فإلى جانب الأحداث ذات النطاق الرسمي، سنجد وقائع بسيطة تشكل نسيج الحياة اليومية لسواد الشعب^(***). وإن ظلت تحرك مشاعرنا بعد مضي آلاف السنين^(١١٧).

(*) وهو بالطبع خلاف **رع مس** وزير **أمنحوتب** الثالث، ومقبرته رقم ٥٥ في **الشيخ عبد القرن**.

راجع: **كلير لالويت**، طيبة، ترجمة وتعليق **ماهر جويجاتي**. المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص ٥١١. (المترجم)

(**) وهي المقابر أرقام ٧ و ٢١٢ و ٢٥٠، في **دير المدينة**. (المترجم)

(***) إذا أراد القارئ أن يعرف المزيد عن الحياة اليومية في **مصر القديمة** يمكنه الرجوع إلى: **دومنيك فالبل**، الناس والحياة في **مصر القديمة**، ترجمة **ماهر جويجاتي**، دار الفكر، طبعة ثانية، ٢٠٠١. (المترجم)

ثالثاً: القوى الداخلية وأول التهديدات

قرب نهاية عهد رمسيس الثانى كانت بعض عناصر المجتمع المصرى من كهنة وعسكريين وعمال أجنبية قادرة على تهديد السلطة الملكية، أو إضعافها على أقل تقدير. كما أن كبر سن العامل الملكى الذى كان يناهز التسعين من عمره، قد جعله لا يقوى على التصدى للتهديدات المتنامية.

كان رومع - روى، كبير كهنة أمون فى طيبة، قد خلف باك إن خونسو. وظل فى هذا المنصب بصفته الحيز الأعظم حتى نهاية الأسرة التاسعة عشرة تقريباً. وقد شغل جميع أفراد عائلته أكبر مناصب الكهنة، كان باك إن خونسو، ابنه البكر، «الخادم^(*) الثانى» للإله أمون، وابنه الثانى الكامن سم فى الرامسيوم، وأكبر أحفاده «الخادم الرابع للإله» أما ثانى أحفاده فكان «الكامن صاحب اليدين الطامرتين» فى معبد أمون. ومن ثم، كان أفراد هذه العائلة ذاتها، يشغلون جميعهم مناصب رسمية مرموقة. ولا يبدو أن رمسيس قد تصدى لهذه المحسوبة الخطيرة التى مارسها رومع - روى.

وفضلاً عن ذلك، فقد استطاع هذا الأخير أن يحصل من الملك الطاعن فى السن، على لقب «رئيس خدام الآلهة الجمعاء». فكان وضعاً يمنح كهنة أمون سيادة وهيمنة تثيران القلق.

هكذا، ومع ظهور عائلات كهنوتية قوية سواء من حيث تكوينها أو بما اكتسبوه من تفوق على العبادات الأخرى، من الناحية النظرية على الأقل، أخذت مكانة كهنة أمون فى التعاظم تعاظماً له شأنه داخل الدولة.

وفى الوقت نفسه، كانت أراضي المعابد وأملكها تتحول إلى حيازات إقطاعية حقيقية تنافس سلطات الفرعون الديوية. لقد تزايد ثراؤها بفضل سخاء الهيئات الملكية والغنائم التى جاءت بها الحملات العسكرية المظفرة، حتى أخذت تتحول، أكثر فأكثر،

(*) أى الكامن. (المترجم)

إلى كيانات إدارية واقتصادية، تميل إلى الانسلاخ بعيداً عن وصاية الملك. إن مرحلة جديدة تم تخطيها عندما منح **رعسيسيس** الحيازات الدينية امتياز الإعفاء من الضرائب.

كما كان لكهنة **أمون** جماعات مسلحة خاضعة لهم. وكان لهم سلطاتهم القضائية الخاصة ومحاكم دينية تُصدر أحكامها استناداً إلى قوة الوحي الإلهي.

هكذا ظهرت إلى الوجود قوة **طيبية**(*) في الأساس، على هامش السلطة الملكية، أصبحت على وشك التحول إلى تهديد لها. وسوف يصبح هذا الخطر واقعاً حياً قرب نهاية الأسرة العشرين، عندما قام **حور كبير كهنة أمون** بإقامة نظام ملكي **ثيوقراطي**(**) في **مصر العليا**، ليؤسس الأسرة الحادية والعشرين. وكان في الإمكان الكشف عن هذا الخطر منذ أواخر عهد **رعسيسيس الثاني**.

كما أن شريحة اجتماعية أخرى مكونة من رجال الجيش، بدأت أيضاً تشكل تهديداً على السلطة المركزية. فإذ أراد **رعسيسيس** مكافأة ضباط جيشه البواسل، منحهم أراضى لا يجوز التصرف فيها، وسرعان ما أخذ مالكوها يعتبرون أنفسهم من المحظوظين أصحاب الامتياز. لقد أُعِدَّت عليهم المنح والمكافآت في هيئة ذهب إلى جانب الألقاب الفخرية، وكان تحت تصرفهم جماعات كبيرة من الخدم، تتكون من الأسرى الذين جاؤا بهم من الحروب التي خاضوها وقدمهم الملك لهم. فصاروا يمتلكون بكل وضوح ثروات دنيوية طائلة(***) .

(*) نسبة إلى مدينة **طيبة**. (المترجم)

(**) كلمة *théocratie* مكونة من كلمتين يونانيتين: *theos* وتعنى الله و *Kratos* وتعنى القوة والسلطة. ومن ثم فإن **التيوقراطية** هي نظام في الحكم يفترض أن السلطة تنبع مباشرة من الله، وتمارسها عملياً طبقة من رجال الدين وعلمائه. Dict. Robert. هكذا يمكن القول، مع شيء من التجاوز، إن **مصر** قد أحرزت قصب السبق في تأسيس أول حزب ديني في التاريخ. (المترجم)

(***) حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى الكتاب القيم: د. أحمد قدرى، المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية، ١٥٧٠ ق.م - ١٠٨٧ ق.م، ترجمة مختار السويفى ومحمد العزب موسى، مراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار، هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٥. (المترجم)

هكذا نشاهد على ما يبدو، وإن فى حدود ضيقة، ولكنها جديرة باكتساب أبعاد غير محمودة العواقب، نشاهد تجزئة الحيازات الملكية لتوزيعها على الكهنة والعسكريين. ومن جهة أخرى، وكما لاحظنا من قبل، أخذت عائلات قوية تجمع بين مختلف مناصب الدولة الكبرى، التى كانت ترمى إلى أن تصبح وراثية. هكذا كانت الأوضاع تتجه إلى اقتطاع المزيد من سلطة الفرعون المطلقة.

لقد نشأت صعوبة أخرى من أعداد العاملين الأجانب الكبيرة التى استقرت فى مصر. ولكن كان رد فعل رمسيس على هذا الصعيد أكثر صرامة.

لقد جاء هؤلاء العاملون من أصول مزوجة، فمن جهة، كانوا رجالاً أحراراً أتوا يبحثون عن عمل فى مصر التى كانت الحياة فيها ميسورة. كانوا يعتبرون أيدي عاملة مفيدة، فى ذلك الزمن، عندما كان ازدهار الإمبراطورية يتيح لفرعون القيام بمشاريع إنشائية ضخمة، بدءاً من قلب السودان وحتى شواطئ البحر الأبيض. كان العاملون الأجانب يوفرون للأيدي العاملة المحلية مساهمة لا يستهان بها.

ومع ذلك فإن رقابة صارمة عند الحدود كانت تأخذ ذلك بعين الاعتبار. كان ضباط يسجلون لكل مهاجر من هؤلاء المهاجرين، يوم عبوره وموطنه الأصلي، وحالته الاجتماعية، واسم والده، وكانت أوضاعهم معاملة لأوضاع العمال المصريين.

والى جانب هؤلاء العمال الأحرار، وجد أسرى الحرب الذين كانوا يشكلون أيدي عاملة خاضعة للسخرة.

كان الأجانب يعيشون فى أغلب الأحوال فى طوائف، تتجمع على أساس الجنسية الواحدة. هكذا، فحول معبد الكرنك أقيمت مستوطنات من السوريين منذ عهد تحوتمس الثالث. وجاء تجار من الأصل نفسه ليعيشوا بين ظهرائهم. وعلى مقربة من معبد أمنحوتب الثالث، فى الأقصر، أقيم حى سوري، يرأسه ابن أمير جى به من سوريا. وفى محاجر طرة، على البر الشرقى من النيل، قبالة منف، كان بعض

الهكسوس لا يزالوا يعملون. وقد استخدم بعض الفيلقيين لتشييد معبد پتاح الكبير
فى منف. كما كانوا يعملون فى الترسانة البحرية فى المدينة العظيمة...

وفى بعض الأحوال، كانت بعض القبائل الأجنبية تُطرد من مصر، فى أعقاب
بعض أعمال العصيان أو المطالب غير المبررة...



هكذا عاشت مصر فى سلام وازدهار لمدة تقارب خمسمائة سنة.

إن سيتى الأول ورعسيس الكبير، قد أسَّس مع غيرهم من عظماء الفاتحين
إمبراطورية شاسعة، يحميها تحالف يضم الآلهة المصرية والآسيوية والإفريقية.
وإذا كانت بعض العناصر الداخلية فى مصر عرضة لتصبح خطيرة، فإن الوضع
الخارجى، فى المقام الأول، هو الذى كان يُشكِّل تهديداً خطيراً على السلام، عندما
تربُّع مر إن پتاح على العرش، ليخلف أباه.

الفصل الرابع أمجاد الإمبراطورية وانحطاطها أو الدفاع عنها

أولاً: انتصارات مر إن پتاح

كان مر إن پتاح مشاركاً فى الحكم^(١) خلال السنوات الأخيرة من عهد رمسيس الثانى الهرم، بل ربما أدار بالفعل دفة الحكم. كان الابن الثالث عشر من أبناء العاهل الملكى، وتُوِّج ملكاً نحو عام ١٢٢٩ ق.م. وعلى امتداد عشر سنوات سيظل سامراً على مصائر الإمبراطورية، لا يغمض له جفن.

حورس : الثور القوي الذى يفرح مع مامت.

السيستان : إنه صاحب القدرة العظيمة والانتصارات الهيبة.

حورس الذهبى : سيد الرهبة، صاحب الهيبة الجليلة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: يا إن رع - مرى آمون (كبش رع، محبوب آمون).

ابن رع : مر إن پتاح (محبوب پتاح)، الذى يجد فى مامت ما يرضيه.

بعد سنوات حكم أبيه المديدة، يبدو أن البلاط والشعب كانا يعرفان مر إن پتاح حق المعرفة، ولذلك فقد لقي من جانبهم كل الترحيب. إن نشيداً، على الطريقة المصرية، يمتدح صفاته:

أيا يا إن رع - محبوب - أمون، الأول على كل السفن^{(٢)(*)}، العصا القديرة،
والحسام الذى يُثخن فى الشعوب الأجنبية ثقيلًا، أيها الرُمح! لقد هبط من السماء
وولد فى هليوبوليس، بينما كانت تنظّم من أجله، انتصارات على كل البلدان. كم هو
سعيد اليوم على مدار سنواتك، كم هو عذب صوتك، وكم هى رقيقة كلماتك، بينما
تُشيدُ بر - رمسيس - محبوب - أمون، المدينة التى تتقدم البلدان الأجنبية، وترسم
حدود مصر^{(٣)(*)}، إنها المدينة ذات الشرفات الجميلة، والمنازل المتألقة باللازورد
والفيروز. فقيها يُعسكر سلاح المركبات، ويتجمع سلاح المشاة ويرسو الأسطول. إنها
تجلب إليك، الجزية (قائلة): «لك الحمد». كما حضرت مع كتائبك من حملة الأقواس،
أصحاب الوجوه الأبية والأنامل الملتهبة، التى تتقدم... عندما يشاهدون الملك، واقفاً
متأهباً للقتال، فحتى الجبال لا تستطيع أن تقف أمامه ثابتة راسخة، لأنها تخشى من
الهيبة التى تحيط به. يا يا إن رع - محبوب - أمون، ستظل باقياً ما بقى الزمن
الأبدى، وسوف يظل الزمن الأبدى موجوداً ما دمت أنت موجوداً. لأنك تجلس على
عرش أبيك رع - حور أختي، جلوساً راسخاً^(٤).

أخطار جديدة تهدد التوازن الدولى

وبعد قليل، سوف يضطر الجيش إلى مغادرة معسكراته فى بر - رمسيس،
فمنذ نهاية عهد رمسيس الثانى أخذت تهديدات جديدة تقوض التوازن الدولى الذى
كان قائماً بفضل المعاهدة المصرية الحيثية. والآن، كانت تأتى هذه التهديدات، فى آن
واحد، من البر والبحر.

فمن ناحية، كانت مملكة آشور، بعد أن استقرت عند نهر الفرات وسيطرت على
بلاد الرافدين، صار يقودها ملوك طموحون وأقوياء، اتخذوا من مدينة نينوى عاصمة
لهم. وباتت هذه المملكة تشكل خطراً داهماً ودائماً على بلاد الحيثيين ومناطق شمال
سوريا، حيث سعت إلى بسط نفوذها.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (الترجم)

ومن ناحية أخرى، كان **الأخائيون**، المنتصرون في **طروادة** قد بسطوا آنذاك نفوذهم بلا منازع، على بحر **إيجة** بالكامل وعلى مضائق **الدردانييل**. كانت الحضارة الآخائية بالغة الازدهار. ولكن **الدوريين** القادمين من شمال **البلقان** بدأوا يزحفون على **اليونان**، واجتاحوا البلاد عبر موجات متلاحقة، وفي طريقهم كانوا يأتون على الأخضر واليابس. فأحرقت كل المدن الآخائية الكبيرة. إن شبه جزيرة **أتিকা** (*) فقط، لم يتعرض لها أحد. ومن شبه جزيرة **البيلوپونيز** (**)، انتقل **الدوريون** إلى جزيرة **كريت**، وأجهزوا على ما تبقى من حضارتها واحتلوا جزيرة **رودس**. وفي **آسيا الصغرى** وصل الغزاة إلى المستوطنات الآخائية الساحلية، ولكن تصدت لهم جيوش **الحيتيين**، وأوقفت زحفهم، ومنعتهم من الوصول إلى جزيرة **قبرص**.

ومن ناحية أخرى، يبدو أن غزو **الدوريين** لـ **اليونان** سبقه غزو لقسم من **آسيا الصغرى**، فقد سعت على ما يبدو شعوب **هندوأوروبية** جديدة إلى الاستقرار فيها. وحاولت مملكة **خاتى** أن تتصدى ببسالة للغزاة على جميع الجبهات وأن تطردهم. ولكن الغلبة كانت إلى جانب هذا الاجتياح العاصف.

إن حركة الشعوب هذه، القادمة من **اليونان** أو من **آسيا الصغرى**، ترتبت عليها نتيجتان خطيرتان، كان لهما تأثير على استمرار حالة السلم في الشرق وعلى مستقبل الإمبراطورية المصرية مصيرها.

فمن ناحية، وبعد أن رفض **الأخائيون** الإذعان للغزاة، أبحروا على متن سفنهم، ومعهم نساؤهم وأولادهم. لجأ بعضهم إلى شبه جزيرة **أتিকা** وإلى جزيرة **وييه** (***). أما القسم الأكبر منهم، فقد ركب البحر ليتجه بعضهم إلى **ليبيا**، والبعض الآخر إلى **فينيقيا** وأرض **كتمان**.

(*) وتضم العاصمة **أثينا**. (المترجم)

(**) جنوب **اليونان**. (المترجم)

(***) جزيرة **وييه**. كبرى جزر **إيجة**، وتقع إلى الشمال من شبه جزيرة **أتিকা**. (المترجم)

ومن ناحية أخرى، فإن الشعوب القاطنة في المناطق الساحلية، من أسيا الصغيرى، بعد أن طردت من موسيا وليديا وكاريا ولوكيا، سافرت بحرًا إلى ليبيا. في حين رحل بعضهم برًا، هابطين بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، فكانت عملية خروج على نطاق واسع.

هذه الشعوب التى أخذت في بحثها عن موئل جديد تجوب البحار والأراضي في جميع الاتجاهات، تطلق عليها النصوص المصرية اسم شعوب الشمال والبحر. وفي هذا الإطار الدولي المتوتر وهذه الأجواء المريعة، تربع مر إن پتاح على عرش مصر، ليخلف أباه رمسيس الثانى.

مقدمات العام الرابع

كان عمر مر إن پتاح آنذاك يناهز الستين. ولكنه كان رجلاً نشطاً حازماً، وعلى دراية تامة بأحوال الإمبراطورية وشؤونها، ويبدو أنه كان مصمماً على دفع الخطر الذى سيشكل تهديداً مباشراً على مصر، البلد الأكثر ثراءً في هذا الزمن والأكثر جاذبية للطامعين، فإليه قد تتجه أنظار هذه الشعوب بأصولها المختلفة، والتى أخذت تتجمع شيئاً فشيئاً، في ليبيا وبلاد كنعان.

وأرسل سيفناً محملةً بالقمح إلى تودا خليا الرابع، ملك خاتى الذى انهزم أمام الغزاة، على جميع الحدود، وكان يحاول أن يقاوم مقاومة بطولية. إن إرسال هذه الشحنة لخير دليل على أن مصر كانت لا تزال تحتفظ بسيطرتها على البحر المتوسط.

ومن المحتمل أيضاً أن بعض الأسلحة قد أرسلت إلى الأمراء السوريين لمساعدتهم على الدفاع عن أنفسهم وعن الإمبراطورية. ولا تستند هذه الفرضية سوى على قرائن ضئيلة، فقد عُثر تحديداً في أوجاريت على سيف يحمل خرطوش مر إن پتاح^(٥).

إن هذه الوقائع، ونحن لا نعرف سواها في الوقت الراهن، تبرهن على أن الفرعون الجديد قد اتخذ موقفاً بالغ النشاط في مواجهة هذه الاضطرابات القادمة من الشمال، وأنه كان واعياً كل الوعي بخطورتها.

كما كان مدركاً أن الصدام المسلح أت، لا مفر منه، فعمل في بادئ الأمر، على تعزيز دفاعاته عند حدوده مع كل من ليبيا وأسيا، حيث حدثت على ما يعتقد أولى عمليات تسلل أجنبي. وربما استغلت كوش هذه الأوضاع لتعلن تمرداً. وهو ما يشير إليه، على ما يعتقد، النص المنحوت على لوح حجرى جاد به معبد هذا:

جاء من يقول لصاحب الجلالة، إن العدو عند الحدود [الليبية] قد عبرها، ناحية الجنوب. حدث ذلك، في اليوم الأول، من الشهر الثانى، من فصل الجفاف، من العام الرابع. عندئذ أجهز الجيش الباسل لصاحب الجلالة على الليبي الخسيس، بحيث لم يبق أحد من شعب هذا البلد... بمئات الآلاف. أما الباقون فقد عُرِضُوا في أعلى الأشجار، جنوب منف. وكل المقتنيات التى تم الاستيلاء عليها، نقلت إلى مصر، فقد هُزِمَ مجموع زعماء هذه المناطق، بفضل المجد المتشامخ لصاحب الجلالة، لتظل صيحات حربه في القلوب.

لقد جَولُوا الريتلو إلى بلد يتقدم فيه الأسد وتتعرأ أقدامه. لأن شعة فمه كانت موجهة ضد الحدود لتَهْزِمَ (الأعداء) دفعة واحدة. وأصبحت هذه البلاد بلا خلف أو ولد. وجيء بالمجائى^(٦) إلى مصر، وأضرمت فيهم النار في حضرة من تبقى منهم. وقُطِعَت أيديهم، لأنهم كانوا قد تمردوا، وقُطِعَت آذان الآخرين وسُملت أعينهم^(٧). وهكذا نُقِلُوا إلى بلاد كوش، وأصبحوا في مدنهم أكواماً، حتى لا تتمرد كوش بعد ذلك، للزمن الأبدى، بعد أن صار هذا البلد بائساً.

(*) هذه القسوة غير المعهودة، ستقدم المؤلف تفسيراً لها في الأسطر اللاحقة. (المترجم)

فكذا، فإن با إن رع - أمون... اندفع كالأسد فى اتجاه حدوده الغربية، ثم انتصب ليحارب حتى أطراف الأرض، بحثاً عن جميع أعداء هذا البلد، حتى لا يتكرر أبداً مثل هذا التمرد.

يا مر إن پتاح، يا صورة رع الحية، إن ما تثيره من رع قد نفذ إلى جنوب البلاد، بينما ترتعد الأقواس التسعة وبلاد الريفلى المجتمعة، وحتى أطراف الظلام. إن با إن رع - محبوب - أمون، قد ساقهم، بفضل أنفاس فمه، لقد ساقهم (جميعاً) دفعة واحدة.

إنه يحمى مصر، ويؤمن البلد المحبوب. إنه يهمل النوبيين، ويجعل بلاد الخاتى، تأتى إليه على أقدامها، مثلها مثل الكلاب. ومن كانوا يجهلون مصر فى السابق يأتون من تلقاء ذاتهم، بسبب قوة الخوف الذى يثيره فى النفوس، وبسبب قدرته. لقد ربط البلاد ومنح السلام للأراضى المصرية. إنه يسعد مصر، لأنه يعرف كل مفيد لها^(٧).

وفى العام الرابع من عهده، شنت إثن حملتان عسكريتان على الأقل، وربما ثلاث. كان الهدف منها صد الغزاة عند الحدود الليبية وربما الآسيوية. إن ذكر الخاتى فى عداد الأعداء لا يخص شعوب الحيثيين^(٨) ذاتهم، بل الغزاة القادمين من هذه المنطقة أو بالأحرى بعض الحيثيين المعزولين الفارين من بلادهم والباحثين أيضاً عن أرض تأويهم.

أما عن القسوة غير المعهودة، المستخدمة عند قمع التمرد فى بلاد كوش، فإنها صادرة عن رغبة مر إن پتاح فى السيطرة سيطرة تامة على الجنوب، بعيداً عن أى قيود، ليركز كل قواه فى مواجهة الخطر الرئيسى.

(*) الحيثيون هم سكان بلاد خاتى، فى الأناضول. لأن الحاء تنطق خاء.

(الترجم) M. Damiano-Appia. l'Egypte. Dict. Enc. Gründ, 1999, p.124.

فى العام الخامس من عهد **مر إن پتاح**، وتحديدأ فى الشهر الثانى^(*)، من فصل الجفاف، تم غزو مصر من جهة الغرب.

وحول هذا الحدث، نُحتت فى الكوكب مدونة مسهبة من ثمانين سطراً. وللأسف، يعانى هذا النص من الفجوات، ولاسيما فى مطلعها:

الزعيم الخسيس، المهزوم فى ليبيا، مريى، ابن سيد، سليل بلاد الثحنى مع حاملى أقواسه... **الشراثة** [شاردن] **والشكش** [شاكاروشا] **والأخانيين** [اكاواشا] **واللوكيين** [روكو] **والإتروسك** [توروشا]^(**)، هكذا، فقد جاء ومعه صفوة محاربى بلده ومقاتليه. كما اصطحب معه زوجته وأولاده... ووصل إلى الطرف الغربى (من مصر) فى حقول **پر إير**^(*).

كان جيش الغزاة قد اقترب فى واقع الأمر، من منطقة منف. والشعوب المذكورة هنا تعود أصلاً إلى بلاد اليونان ومنطقة أسيا الصغرى الساحلية، وللأسف فإن فجوة فى النص تحرمنا من اسمين، ربما كانا اسمى **الفلسطينيين** [پالستيو] **والليبيين** [لييو] الذين أعطوا اسمهم لليبيا، فيما بعد. فى هذه الفترة كانت أعداد كبيرة من المهاجرين قد اتخذوا إذن من السهوب الليبية مقاماً لهم. كانت هذه الأراضى قليلة الخصب، فلا توفر لهم ما يكفى من أسباب العيش، مما يفسر سعيهم إلى التوغل فى أرض مصر، التى أغدقت عليها الآلهة بنعمها وخيراتها. ويُعتقد أنهم كانوا قد اكتسبوا قدرأ من التنظيم. وعلى كل حال، فقد اختاروا لهم زعيماً هو مريى، ليقودهم للانقضاض على الأرض التى ساد بينهم الاعتقاد بأنهم وعدوا بها^(***).

(*) فى شهر مايو (المؤلفة)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(***) فكانت فى نظرهم أرض الميعاد! (المترجم)

يبدو إذن أن رد فعل **مر إن** **پتاح** لم يكن فورياً. وبالفعل، فإن نصى أسطون عثر عليه فى خرائب معبد هذا الملك، فى **هليوبوليس**^(١٠)، يشير إذن، إلى وصول الغزاة فى الشهر الثانى من الصيف، فى حين إن المعركة ذاتها لم تقع إلا فى الشهر الثالث، استناداً إلى مدونة **الكركك**. فكان أمام **مرنى** متسع من الوقت، خلال هذا الشهر، ليتقدم إلى الأمام فى **الدقا**، وقد عانى أبناء هذه المنطقة آنذاك، بإحساس مؤلم وخوف شديد، بعد فترة السلام التى دامت طويلاً فى عهد **رهسيس** الثانى. كما بدأوا، على ما يعتقد، يستقرون فى الأرض التى احتلوها، وهو ما تشير إليه بقية نص **الكركك**:

وبسببهم، ثارت ثائرة **صاحب الجلالة** وصار كالأسد.

استمعوا إلى كلمات سيدكم الملكى وتعرفوا على ذلك^(١٠). أنا زعيمكم الذى يرشدكم كما يرشد الراعى قطيعه. إنى أقضى سحابة يومى فى البحث [عماً يفيدكم] كالأب الذى يسهر على إعالة أولاده. إنكم ترتعدون كالعصافير، لأنكم لا تعرفون الآن الخير الذى فى وسع هذا الأخير [الوالد] أن يفعله... لقد سبق بالفعل أن اجتاحت **الأقواس التسعة الحدود**، وعلى مر الأيام يعبرها المتمردون... لقد دخلوا، المرة تلو المرة، إلى حقول مصر ووصلوا حتى **النهر العظيم**. إنهم هناك، يمضون الأيام والشهور، وقد استقروا... لقد وصلوا أيضاً إلى **تلال الواحة**، وأخترقت مقاطعة **الغرافرة**^(١١). لقد حدث الشئ نفسه فى عهد ملوك آخرين، وفى أزمنة عويصة أخرى... ويقضون يومهم فى التجول فى البلد، ويحاربون يومياً ليملاؤا بطونهم. إنهم يتجهون إلى أرض مصر بحثاً عماً هو ضرورى لقمهم... إن زعيمهم يتخذ هيئة كلب، إنه رجل حقير، معدوم القلب^(١١).

(*) من المعتقد أن الملك كان يوجه حديثه إلى رجال حاشيته الذين تجمعوا على جناح السرعة، وقد

أصابهم الذعر عند الإعلان عن الغزو الجديد. (المؤلفة)

(**) إلى الجنوب الغربى من **الفيوم**. (المؤلفة)

وفى الشهر الثالث من فصل الصيف، غادر الجيش المصرى معسكراته قويا وعلى أعلى قدر من التدريب، رغم خمسين سنة من السلام:

كان قائد حملة الأقواس على رأس الجيش الزاحف للقضاء على ليبيا. وبينما كانوا يسرون قدما كانت يد الإله معهم، وكان آمون القريب منهم بمثابة درعهم^(١٢).

وأنعم پتاح على فرعون برؤيا جاءت في المنام ليشجعه على خوض المعركة:

عندئذ رأى صاحب الجلالة فى منامه شيئا يشبه تمثال پتاح، واقفا أمامه... وإذا (بالتمثال) يوجه إليه حديثه قائلا «أمسك». وأعطاه حساما. (وأضاف قائلا): «اطرد بعيدا عنك قلبا يرتعد خوفا»^(١٣).

وفى اليوم الثالث، من الشهر الثالث، من فصل الصيف، أى حوالى ٢٢ يونيو:

خرج جيش صاحب الجلالة بمركباته الحربية. إن آمون - رع معهم، وإله أومبوس [ست] يمد لهم يده... فى دمائهم، لن يفلت منهم أحد. وظل حملة أقواس صاحب الجلالة يقتلون منهم، لمدة ست ساعات. هكذا أسلموا للسيف... وبينما كانوا يحاربون كان زعيم ليبيا الخسيس واقفا، مرعوبا، ثم جثى على ركبتيه... ملقيا بسرعة نعليه، وقوسه ودرعه... بسبب الفزع الذى غمر جسده والخوف الشديد الذى سرى فى أعضائه. عندئذ، ذبح...

... (وتم الاستيلاء) على ممتلكاته، ومعداته، وفضته، وزمبه، وأدوات أكله البرونزية، وممتلكات زوجته، وعرشه، وأقواسه، وسهامه، وكل المشغولات التى جاء بها من بلده، بالإضافة إلى أبقاره ومواعه وحميده، (ونقل كل ذلك) إلى القصر الملكى، ليقدم فى آن واحد، مع الأسرى. ومع ذلك، فقد أسرع زعيم ليبيا الخسيس بالهروب فى اتجاه بلده... ثم أرسل (قائد) قلعة الغرب تقريراً إلى القصر قال فيه: «لقد جاء

مريض المهزوم، كان جسده يهيم بالفرار بسبب جُبنه. لقد مرَّ بجوارى، فى قلب الليل، ما عدا... ولكنه مُزِم لأن كل الآلهة تحمى مصر. إن كل الفاخر التى تباهى بها استحالت عدماً، وكل ما قاله عاد وسقط على رأسه. ولا يُعرف الآن إن كان ميتاً أو حياً.. ولكن إذا كان لا يزال حياً فلن يقود أبداً (الجيش)، لأنه لم تعد له مكانة، بعد أن أصبح عدواً لجيشه... لقد عُنِ مكانه (قائد) آخر، تم اختياره من بين إخوته، والذي سيحاربه إذا رآه^(١٤).

وتُقطع أيدي الموتى فى ساحة القتال، إنها من مغانم النصر التى تقدم إلى الفرعون، واهب المكافآت، كما تقطع أعضاء تذكير الليبيين القتلى وغيرهم من الشعوب غير المختونة كالأخائيين. ثم تُضرم النار فى معسكر العدو، بعد سلبه ونهبه بكل عناية، كما تُحرق الخيام المصنوعة من الجلد.

هكذا، ينطلق الجيش المنتصر، ومعه الأسرى والغنائم، سائراً فى موكب طويل لا ينتهى، مخترقاً مدن الدلتا وقراها، وسط تهليل الجماهير الشعبية وابتهاجها.

كان قادة حَمَلَة الأقواس والمشاة وسلاح المركبات وكل الفيالق محملين بالغنائم. تتقدمهم الحمير التى تحمل أعضاء التذكير الغُلفاء لرجال ليبيا ومعها فى الوقت نفسه أيدي أبناء كل البلدان التى كانت معهم. كانت أشبه بالأسماك وسط الأعشاب.... عندئذ، تعالت صيحات فرح البلد من أقصاه إلى أنبائه، والمدن والأقاليم تهلل ابتهاجاً بهذه الأحداث الرائعة التى شهدها (مصر)... (وسار الجيش) تحت شرفة (القصر الملكى) لِيُتاح لمصاحب الجلالة مشاهدة بساتنه^(١٥).

إن قائمة الغنائم ذاتها تعرضها وثيقتان أساسيتان من خلال نص الكرك
وأسطون النصر في هليوبوليس.

وفى الكرك، ينصب التركيز على الأسرى من البشر:

المجموع ٩٣٧٦ شخصاً [منهم]:

أبناء الزعماء : ٦٣٥٩

الشكلش : ٢٢٢ رجلاً

الإيتروسك : ٧٤٢ رجلاً

الليبين : ٢١٨ رجلاً

زوجات الزعماء : ١٢

ولكن أيضاً:

سيوف برونزية للماشياش^(١٦): ٩١١١

جيا كانت مخصصة لركوب زعيم الليبيا الخسيس وأولاده وجميعها حية: ١٢.

ماشية من مختلف الأنواع: ١٣٠٨

أدوات أكل متنوعة: ٣١٧٦^(١٧).

وعلى أسطون هليوبوليس، يُذكر أيضاً ٩٣٧٦ أسيراً. وهو خير دليل على أن
كتبة مصر كانوا يراعون الدقة التامة في أعمالهم. ولكن غنائم الحيوانات والمشغولات
أكثر تحديداً:

حلى من الذهب والفضة : ٥٣١

أوان برونزية : ٣١٧٤

جيار: ٤٤ (٠)

أبقار حية وحمير وموا عز وكباش: ١١٥٩٤

قطع من الكتان الملكي: ٦٤

سيوف: ٩٢٦٨

أقواس: ٦٨٦٠

كنائن (**) وسهام: ١٢٨٨٦٠

بالإضافة إلى كل ممتلكاتهم.

وفى قاعة القصر الملكى الكبرى، يظهر الملك فى حضرة رجال البلاط:

كان موظفو صاحب الجلالة يطلقون صيحات الفرح لتصل إلى عنان السماء،
والحاشية كانت هناك، على الجانبين...

♦ الملك (نهاية الخطاب):

إن ربح منتصر، وقوته موجهة ضد الأقواس التسعة. إن سوق يخهب النصر
والقدرة إلى الحورس الذى يسعد بالحقيقة - العدالة. لقد ضُربت الأقواس التسعة...
أنا الابن البكر على عرش جب. عندما شغلت وظيفتى... كان هؤلاء الليبيون يتأملون
للنيل من مصر. أجل، لقد سقطوا الآن، لقد أجهزْتُ عليهم... إن نَعْمى فى جسد
الرجال، وأجلب عليهم الخيرات أكثر من أى أب أو أم... إنى أتصرف بحيث تتقدم
مصر، مثلها مثل النهر. والشعب يحبنى، تمامًا كما أحبه. إنى أعطى الناس نسمات
(الحياة) فى مدنهم... وتُقدم لى المدائح بسبب قدرتى. ويظل عصرى باقياً فى فم

(*) من المؤكد أن الغزاة كانوا لا يعرفون سلاح المركبات، واكتفوا بالعربات التى تجرها الأبقار
ولم يمتلكوا سوى أعداد محدودة من الجياد. (المؤلفة)

(**) جمع كنانة: جعبة صغيرة من جلد أو نحوه لوضع السهام. ويطلق مجازاً على مصر أرض
الكتانة. (المترجم)

الأجيال الشابة، عصرى الذى أنجزت فيه أعمال ميمونة، انطلاقاً من الأعمال العظيمة والخيرة التى حققتها من أجلها...

♦ رجال البلاط:

عظيم هو ما حدث لمصر... إننا أمام وقائع مهيبة، لم يشهدها أبائنا من قبل، إنها روائع سينصت إلى روايتها رجال آخرون. فمن الآن أصبح الليلى طالباً للرحمة، وأسيراً تم إحضاره. لقد أتحت للأعداء أن يصبحوا كالجراد المنتشر على الطرقات... أما نحن، فننام فى فرح وسرور، فى كل فصل من فصول السنة^(١٨).

وفى هذه الحالة على الأقل، لا يبدو أن مر إن يتاح قد اشترك فى المعركة. كان طاعناً فى السن^(١٩)، وربما ذهب إلى الاعتقاد بأن هزيمة الغزاة أمر لا شك فيه، لافتقارهم إلى التدريب الكافى على فنون الحرب، ولأن تحركاتهم فى ساحة القتال كان يعوزها التنسيق والتنظيم، بالإضافة إلى تدنى مستوى تجهيزاتهم الحربية. ترى، ماذا كانت تفعل إذن هذه العربات الثقيلة التى تسحبها الأبقار الضخمة، فى مواجهة المركبات الحربية الخفيفة وجياد صاحب الجلالة الرشيق؟ وبالفعل، كانت ست ساعات كافية ليهزمهم الجيش المصرى. فكانت هزيمة فادحة، أتاحت لمصر سلاماً مؤقتاً. هكذا تحطم الهجوم الأول الذى شنته شعوب البحر.

وشيدت المعالم الأثرية احتفالاً بهذا النصر. وربما أقيمت أساطين تذكارية أخرى مثل الأسطون الذى عثر عليه فى هليوبوليس، ومن مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن. كما يروى نصه معركة العام الخامس. إن التماثيل التى نحتت عليه بالنقش الغائر تعبر تعبيراً بالغ الدلالة عن الفكر الدينى للرعامة.

وبالارتباط مع نص النصر صُوِّرت على أحد الجوانب ثلاثة آلهة وهى تقدم للملك حُسام النصر. والآلهة هى بالترتيب، من أسفل إلى أعلى: أمون وعشتروت وسخمت. وعلى الجانب الآخر، وفى خط موازٍ مطلق، وبالارتباط مع مشاهد تُصور الأسرى، تُقدم ثلاثة آلهة أخرى، حُساماً إلى الملك. والآلهة هى بالترتيب، من أسفل إلى

(*) كان يناهز آنذاك الخامسة والستين من عمره. (المترجم)

أعلى، رع حور أختي وست ومونتو. إن هذا التوازي مقصود بكل تأكيد، بالنظر إلى أنه يضع على المستوى نفسه، إلهين شمسيين عظيمين وإلهين أجنبيين أو مندمجين وإلهين محاربين، كما أن الإلهين المصريين يحيطان في تناسق تام بالآلهة الأجنبية. ولكنها جميعاً ترمز معاً إلى قوة الإمبراطورية وقدرة الدفاع عنها.

ولما كانت هذه الغزوة وهذه المعركة، قد حدثتا بعد نصف قرن من السلام، فلا شك أنهما تركتا أثراً عميقاً في النفوس.

لقد نُحت نشيد عظيم للنصر على لوح حجرى، وضع فى الكرنك. إنه يجعل من مر إن پتاح بطل أسطورى، وينتهى بترنيمة من أجل السلام، محرقة للمشاعر:

لقد حلَّ فرح عظيم فى مصر، ويتصاعد الابتهاج والتهليل فى مدن البلد المحبوب التى تتحدث عن الانتصارات التى أحرزها مر إن پتاح على الثحنوا^(*). كم هو محبوب الأمير المنتصر! كم هو عظيم بين الآلهة! كم هو فطن، صاحب الحل والربط!

كم هو لطيف أن يجلس المرء ويثرثر فى الكلام! وأن يتمكن من السير بخطى واسعة فى الطريق، بلا خوف فى قلب البشر. لقد هُجرت القلاع، وأُعيد فتح الآبار، فأصبحت من الآن متاحة للموفدين. إن شرفات أسوار الحصون هادئة والشمس فقط هى التى تُوَقِّظ الحراس الرقباء، ويرقد رجال الشرطة وينامون. ورجال الاستطلاع فى الحقول (يسكرون) كما يروق لهم. والماشية فى الريف ترعى فى حرية، بلا رعاة، وتعبّر (وحدها أيضاً) أمواه النهر. ولم نعد نسمع فى الليل نداءات أو صيحات (مُعلنة): «قف! انتبه، هناك شخص قادم يتحدث لغة الرجال الآخرين». والمرء يسير وهو يغنى، ولم نعد نسمع أصوات النواح. ومن جديد، عُمِّرت المدن بسكانها ومن يحرق (الأرض) على أمل الحصاد، هو الذى سيأكله.

(*) لم يكن المصريون قد تعرفوا حتى الآن، على أسماء هذه الشعوب الجديدة، فكانت تخوم الغرب أى ليبيا، لا تزال فى نظرهم بلد اللثقى الذين وجبوا منذ ماخر موغل فى القدم. (المؤلفة)

وأقبل رج على مصر، بينما ولد من كان مقدراً له أن يكون حاميتها، ملك مصر
العليا ومصر السفلى، با إن رج وابن رج: مر إن پتاح.

وبعد أن تجمعت الإمبراطورية من جديد استعادت السلام. ويواصل النص
حديثه قائلاً:

يتساقط الزعماء قائلين: سلام^(١٩)! ولا أحد من بين الأقواس التسمية يرفع
رأسه، وبلد الثحنى مهزوم.
والخاتى مسالة.
وتخلت أرض كنعان عن كل ما كان لديها من مساوى.
وشدّت مسقلان شدا.
وتم الاستيلاء على جيز.
وأصبحت ينعام، كأنها لم توجد مطلقاً.
وبادت إسرائيل^(*)، بل إن بذرتها لم يعد لها وجود^(**).
وصارت سوريا^(***) أرضاً في نظر مصر.
لقد اتحدت كل البلدان. إنها في سلام.
وكل من كانوا يهيمون، يربطهم الآن ملك مصر العليا ومصر السفلى:
با إن رج، ابن رج: مر إن پتاح، له الحياة، مثل رج، على مر الأيام^(٢٠).

(*) الإشارة هنا إلى قبيلة وليست إلى قطر أو دولة أو مملكة، كما يتضح من المخصص المرفق بهذا
الاسم المخصص علامة مفسرة ليست لها دلالة صوتية، تضاف إلى الكلمة لتحديد مجال
دالتها). بل ويؤكد الدكتور رمضان السيد أن القراءة الصحيحة لهذه الكلمة بالمصرية هي
يزويل، ومن ثم يشير هذا الاسم إلى سكان سهل يزويل - مرج ابن عامر حالياً، شمال شرق
جبال الكرمل وليس إلى إسرائيل. راجع: تاريخ مصر القديمة، هيئة الآثار المصرية، ١٩٩٣،
الجزء الثاني، ص ١٨٠-١٨٥. (المترجم)

(**) تشبيه كثير الاستعمال لبلدة خربت، سليم حسن، مصر القديمة، الجزء السابع، هيئة الكتاب،
١٩٩٢، ص ١٠١. (المترجم)

(***) هارو بالمصرية القديمة. المرجع السابق. (المترجم)

ويطلق على هذا اللوح الحجرى أحياناً اسم لوح إسرائيل، لأنها المرة الأولى فى التاريخ التى يرد فيها هذا الاسم.

كان المصريون يعشقون السلام والحياة التى لا تعرف الخوف. ويبدو أن الوعد بحلول أيام تشرق فيها شمس حانية مع مطلع كل فجر، نستشفه من خلال هذا الخطاب الذى وجهه أمون - رع إلى مر إن پتاح، فى الكرنك:

أمسك بيلطتك من أجلك^(*)، أيها الملك، يا صاحب مطالع الفجر المقدسة، والقوة النافذة، والساعد المقدام عندما يقاتل عدوه^(*). لقد جئت^(*) بكل البلدان الأجنبية التى كانت قد تعدت على حدودك^(*). لقد استحوذت^(*) على الأرض قاطبة، فى قسمها الجنوبى وختمتها بختمك فى شمالها^(**).

وبعد الهزة العنيفة، استعادت الحياة فى مصر مسارها الطبيعى «وكأنها نهر».

استعادة السلام، الآلهة والإمبراطورية

كانت العائلة المالكة تعتقد على ما يبدو أن فى وسعها الحفاظ على استمرارية الأسرة الحاكمة. كان مر إن پتاح قد اتخذ لنفسه زوجتين: الأولى اسمها إيزيس - فوفرت الثانية والأخرى بنت - عنات^(**) الثانية أيضاً.

كان الابن البكر سيتى - مر إن پتاح، ومنذ أن كان فى الثانية عشرة من عمره، وعملاً بتقاليد الرعامسة، يشارك فى الحملات العسكرية التى قادها والده، وربما تلك التى خاضها فى العام الرابع. ففى بردية أوربينى Orbiney، نجده يحمل الألقاب الآتية:

(*) يتحول النص دون حرج من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب والعكس، وهو ما لاحظناه من قبل. (المترجم)

(**) ويلاحظ أن تأثير وهمسيس العظيم لم يُمح. (المؤلفة)

«الكاتب الملكى، قائد الجيش، كبير الملك، ابنه المعظم: سيتى - مر إن
پتاح»^(٢٢).

كما يبدو أنه كان إلى جانب والده فى تصريف شئون البلاد، بصفته مشاركاً
فى الحكم، عملاً بتقاليد الرعامسة.

واصل مر إن پتاح عمل والده الروحى وتقيد بالأيديولوجيا الإمبراطورية
الجديدة التى كان حور إم حب^(*) قد سبق أن أدرك أبعادها.

كما وردت أكبر آلهة ثالث الرعامسة فى أسماء تتويج الملك ذاتها^(**). إنه
«كيش رع» و«محبوب آمون» و«محبوب پتاح».

واستمرت آلهة الإمبراطورية تحظى بكل الإجلال والتبجيل أسوة بالآلهة
المصرية. إن نقشين آخرين نُحِتَا على أسطون هليوبوليس لهما دلالة ملحوظة، ففوق
المشاهد التى سبق وصفها يُوجد تصويران. فمن ناحية، نجد أن آمون الواقف أمام
مر إن پتاح، يعطيه حساماً بيده اليمنى، قائلاً له:

أمسك حسامك فى مواجهة كل الأجانب.

والملك واضحاً التاج الأحمر على رأسه، يُطلق البخور من أجل الإله، ويؤدى
شعيرة الرش بالماء الطاهر. وفى المقابل، فإن الإلهة عنات تظهر مرتدية التاج الأبيض
تكتنفه ريشتان وقرنان أفقيان، ويتدلى شريط طويل على ظهرها، وتقدم بيدها اليمنى
الحسانم إلى الملك. إنها: «عنات المتسيدة على البلد بالكامل». أما مر إن پتاح الذى
يطلق البخور فإنه يرتدى التاج الأزرق^(***). هكذا، فإن كيانه إلهين كبيرين من مصر

(*) آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة. راجع أيضاً: كليلر لالويت، طيبة أو نشأة إمبراطورية، ترجمة
وتعليق ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، الفصل العاشر. (المترجم)

(**) راجع مطلع هذا الفصل. (المترجم)

(***) لمزيد من التفاصيل عن التاج الأزرق ومختلف التيجان. راجع: إيزابيل فرانكو، معجم
الأساطين المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ٨٥-٨٩
و١٤١ و٣٠١ و١٨٦. (المترجم)

والإمبراطورية، وهما **أمون** و**هنات**، يشملان النصر برعايتهما. هذان التصويران هما أشبه «بنسخة مختصرة» للتصاوير التي سبق وصفها، ولكن دلالتها أكبر بكثير، لا سيما إذا لاحظنا أن اهتمام **أمون** ينصب على البلدان الأجنبية^(*)، في حين إن **هنات** معنية بالبلد ذاته^(**). إن هذا التبادل المقصود للصلاحيات. يؤكد بلا شك على التعايش المشترك اللصيق للكيانين الإلهيين، وقد اتحدا دعماً لإمبراطورية **الرهامسة** وحماية لها.

إن أوضاع المعابد التي عمل **الرهامسة** على زيادة ثرائها - كما لاحظنا من قبل - قد أخذت تتحول ومعها أراضيها، إلى حيازات شاسعة، مستقلة عملياً عن العرش، لها فرقها العسكرية التابعة لها ونظامها القضائي الخاص، ولم تكن هذه الأوضاع تشكل فقط خطراً، بل تفتقر أيضاً إلى الوضوح، وتميزت بقدر كبير من الغموض.

قام **مر إن پتاح**، منذ العام الثاني من حكمه، بإحصاء كل ممتلكات المعابد وإعداد حصر بها. إن نص المرسوم الذي فرض هذا الجرد الرسمى منحوت في معبد **مدينة هابو الصغير**^(***)، على الجانبين الجنوبي والشمالي من القسم المكرس ل*قدس الأقداس والمخصص للقارب المقدس*:

في اليوم التاسع والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الفيضان، من العام الثاني، في عهد جلالة ملك **مصر العليا ومصر السفلى**، **با إن رع** - محبوب - **أمون**، أمر صاحب **الجلالة** بأن يُطلب من الكاتب الملكي، كبير الكهنة المرتلين، كبير الحجاب، والأب الإلهي الثاني^(٩) الحقيقي والمعظم، أن يتولى حصر جميع آلهة وإلهات **مصر العليا ومصر السفلى**^(٢٣).

(*) خاصو، بالمصرية القديمة. (المؤلفة)

(**) تا، بالمصرية القديمة. (المؤلفة)

أى مصر ذاتها. (المترجم)

(***) بجوار معبد **رهمسيس الثالث**. (المترجم)

ويُجدد هذا المرسوم في العام الثالث. ونُحت نصه تحديداً في الشرفة العليا من معبد الملكة حتشپسوت الجنائزى في الدير البحرى، جنوب البوابة المشيدة من حجر الجرانيت:

في الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام الثالث، في عهد جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: يا إن رع - محبوب - أمون، ابن رع: مر إن پتاح. أمر صاحب الجلالة بأن يُطلب من الكاتب الملكى، كبير الكهنة المرتلين، الحاجب، الأب الإلهى الأول، الحقيقى، المعظم، أن يتولى حصر جميع آلهة مصر العليا ومصر السفلى (٢٤).

ولا نعرف نتائج هذا التعداد الذى كان يخص بطبيعة الحال ثروات الآلهة، إذ يبدو أن الملك أراد أن يعرف مدى ضخامتها على وجه الدقة.

وفى طيبة كان رومع روى لا يزال يشغل منصب كبير كهنة أمون. فعلى لوح حجرى عُثر عليه فى جبل السلسلة، صُوِّر بجوار الملك مر إن پتاح وهما يتعبدان لإله طيبة. ومن المعتقد أن هذا الأثر قد أقيم بمناسبة زيارة قام بها الفرعون وكبير الكهنة، إلى محاجر هذه المنطقة. ويحمل رومع روى الألقاب الآتية:

الأمير، الأب الإلهى صاحب اليدين الطاهرتين، رئيس الأسرار فى السماء وفى الأرض وفى العالم الآخر، ذابح أضاحى (?) كاموتف، قائد جُند أمون، رئيس الفضة والذهب فى بيت أمون، رئيس الأشغال الخاصة بكل معالم صاحب الجلالة، إنه كبير كهنة أمون (٢٥).

وفضلاً عن ذلك فهو:

رئيس جميع كهنة مصر العليا ومصر السفلى (٢٦).

لقد كان إذن شخصاً جليل القدر، بعيد المطمح.

وشأنه شأن العديد من كبار كهنة أمون، فهو مدير الإنشاءات الملكية. وطوال فترة شغله لمنصب الحبر الأعظم فى الكرنك، يبدو أنه لم يُشيد معبداً أو مقصورة، ولكنه ركّز جل اهتمامه على إصلاح وترميم مساكن كبار الكهنة، القائمة فى جنوب شرقى أملك أمون، عند مستوى الفناء الممتد من الصرح السابع وحتى الصرح الثامن وخارجه، أى فى محور المعبد الشمالى الجنوبى، وعند حافة البحيرة المقدسة. وكان تأسيس هذا المبنى يعود إلى الأسرة الثانية عشرة. وعلى وجه التحديد فقد أعاد بناء المبنى الملحق، المخصص للخبازين وصنّاع الجعة للأملك الإلهية. وللاحتفاظ بذكرى هذا الحدث، أمر بنحت صورته إلى جانب مدونة، على الصرح الثامن من صروح الكرنك. كان هذا الأسلوب وقفاً حتى الآن على الفرعون، فلا يحق لأحد غيره استخدامه. وهنا، استطاع ربيع روى أن يسلب هذا الحق. إنها واقعة بالغة الأهمية، وتدل بكل وضوح على التفتت التدريجى لبعض الامتيازات الملكية لصالح كهنة طيبة. ويقدم النص وصفاً للأعمال الإنشائية التى تم تنفيذها لصالح كبير الكهنة، إجلالاً له، وارتقاءً بشأنه:

أيها الكهنة الأطهار وكتبة معبد أمون، أيأ خدام القرابين الإلهية السعداء، أيها الخبازون وصنّاع الجعة وصنّاع الطوى والعياشون(*)، أيأ جميع من ينجزون كل أعمالهم من أجل سيدهم، ومن يدخلون القاعة الطاهرة القائمة فى المعبد، تفوؤوا باسمى كل يوم من الأيام، حافظوا على سمعتى الحسنة، مجدونى بسبب أعمالى الخيرة بصفتى رجلاً مقتدراً. لقد وجدت هذه القاعة مدمرة تدميراً كاملاً: جدرانها متصدعة ومشغولاتها الخشبية تالفة وعضادات الأبواب الخشبية متداعية، كما تتساقط الألوان التى كانت تغطى الصور. وقمت بإصلاحها وترميمها وجعلتها أكبر مما كانت عليه فى الماضى، فأصبحت أكثر ارتفاعاً وزدت من عرضها، بحيث تصبح

(*) صانع العيش أو بانه. المعجم الوسيط. (المترجم)

عملاً يغالب الأيام. هكذا شيدت عضادات الأبواب من الحجر الرملى ودُعمت الأبواب بخشب الأرز الأصلى. (وصنعت الشئ نفسه) للحجرة الداخلية المخصصة للخبازين وصنّاع الجعة. وأنجزت هنا، عملاً أفضل من سابقه، لتأمين حماية (هيئة العاملين فى خدمة) إلهى آمون، سيد الآلهة. فانتبهوا إذن واصغوا إلى ما أقوله (٢٧).

وفى منف كان منصب كبير كهنة پتاح لا يزال يشغله أحد أفراد العائلة المالكة. وبالفعل كان حورى بن خع إم واست، على رأس كهنة منف، كما تقلّد كل اختصاصات والده. كان إذن ابن أخ مر إن پتاح.

أما فى مصر العليا، ولا نقصد طيبة فقط، ولكن بعض المدن الأخرى، فقد كانت الأوضاع أكثر صعوبة أو غموضاً.

ففى أبيدوس، نجد أن يوى وهو ابن كبير الكهنة السابق ونن نفر، قد خلف والده. وبدوره سوف يخلفه ابنه. هكذا صار هذا المنصب حكرًا على هذه العائلة.

وقد كرس مر إن پتاح فى المعبد لوحاً من الأليستر لآلهة أبيدوس. يتميز هذا اللوح بقدر من الأصالة، إذ يمكن النظر إليه من كل أوجهه. ففى الجانب الأمامى، تطل ثلاثة تماثيل صغيرة بالنقش البارز. تمثال أوزيريس فى الوسط، تكتنفه صورة إيزيس على اليسار وعلى اليمين صورة مر إن پتاح الذى يقوم هنا بدور الإله - الابن حورس، فى الثالوث المحلى. ويطوّق الملك والإلهة بساعديهما الإله، ليشكلوا وحدة محملة بالقدرّة السحرية نفسها. وعلى ظهر اللوح نُحت نص موزع على أربعة أعمدة، يبرز ما فعله الملك من أجل إله أبيدوس، ويعلو كل عمود بالتناوب، أحد خرطوشى الملك.

يا سيدى، يا أبى أوزيريس، إبنى أحمى مدينتك فى إقليم أبيدوس، إبنى أعظم معبدك فى روستاوى (٢٨). وأضاعف كمية أرغفة خبز القرابين، المخصصة لك (٢٩).

وعلى المقطع الأيمن من اللوح نقرأ الآتى:

يا أبى أونوريس، اسمح لى أن أبقى بجوارك مثل ابنك حورس، لأننى جالب الخير لك وله أيضاً، كما إننى أحبك (٢٠).

كان مر إن پتاح موجوداً أيضاً فى أيببوس، هذا المكان المقدس الجليل الذى أقام فيه جدّه ووالده مبانى عظيمة، ولكن وجوده كان أكثر تواضعاً.

وفى مصر العليا كانت وظائف كبار الكهنة الروحية تتداخل بشكل يزداد غموضاً مع أهم المناصب الدنيوية وأرفعها.

هكذا، نجد أن كبير كهنة أونوريس فى مدينة ثنى، ويدعى أونورمس أو إنحرمس^(١)، كان يقوم على الدوام بدور بارز، فقد جمع بين أرفع الوظائف الدينية والمناصب العسكرية، بل وبأشرف بعض الأعمال فى القصر الملكى ذاته. إننا نعرفه من خلال سيرة حياته التى أمر بنحتها على جدران مقبرته المحفورة فى صخر جبل نجع المشايخ.

الكاتب الملكى، كاتب مجندى سيد القطرين كبير كهنة رع فى ثنى، رئيس حجاب شمو وتفنوت، وكبير كهنة أونوريس، (إنه المدعو) أولورمس، هذا الذى يُعد أعياد يوبيل وازدهار سيده الملكى، سيد القطرين: با إن رع - محبوب - آمون، وسيد التجليات المجيدة، مر إن پتاح - الذى - يجد - فى - ماعت - ما يرضيه. إنه يتحدث قائلاً: «كنت طفلاً متميزاً وفتى حقيقياً وغلماً راجع العقل وشاباً فطناً. كما كنت طالباً ثاقب الذكاء فى بيت التعليم. فكان من الصعب انفصالى عنه.

كنت إنساناً يحبه سيده الملكى، مفيداً لإلهه، كان قلبى لا يشبع أبداً، مهما فعل من أجلهما من أشياء خيرة.

(*) لاختلاف الدلالات الصوتية لاسمه. (المؤلفة)

كنت إنساناً يقظاً في السفينة، لا يخلد أبداً إلى النوم، عندما (يستريح) طاقم الحراسة، بفضلتي.

كنت شجاعاً مقداماً في السماء كما على الأرض، لا أتعب، بينما أشاهد المسيرات العديدة (للجنود)، مثل... وبالفعل، كنت كاتب فرق سلاح المركبات، وهي فرق جرارة، عظيمة وبلا حدود. كما كنت مترجماً فوراً لكل بلد أجنبي، في حضرة سيدي الملكي، وكاتباً عزيز الجانب عند القيام بواجباته. كان سيدي يتحدث إليّ بحضور كل أبناء البلد، كنت أمتدح الملك، يوماً عندما أخطب باسمه كل الموظفين، وأتحدث إليهم، فيقولون (إلى): «كم هي عظيمة النعم التي يغدقها عليك!» كنت من يعين رجاله ويحمي موظفيه، إلى أن يدعم الملك أيضاً وظيفتي، ليجعل مني صديقاً.

كنت خادماً... فهو، ومن يملأ خزانته، والمشرّف العام أيضاً على الشونة المزبوجة التي تفيض بالخيرات. كنت مفيداً للمعبد، جسوراً في الحقول...^(٢١).

يا لها من أعمال عديدة ومتنوعة، يتولاها رجل واحد بمفرده!

هذا الجمع بين عدد من السلطات الروحية والدنيوية في أيدي أعيان المجتمع ووجوهه - علماً بأنه كان من الناحية النظرية من حق الفرعون وحده - كان يشكل بطبيعة الحال، على المدى الطويل، خطراً على العاهل الملكي، ويساعد أيضاً على مضاعفة تفهيت سلطته الحقيقية، تماماً كما كانت تعاني من التعدي على امتيازاته أو من ظاهرة استئثار عائلات بعينها ببعض الوظائف.

كما كان في إمكان شخص واحد أن يشغل منصب كبير الكهنة في خدمة أكثر من إله، وقد لاحظنا ذلك، عند الحديث عن أونورمس كبير كهنة رع وأونوريس في ثني، في آن واحد.

وهناك أيضاً هذا المدعو أمن واح سو (أي ليت أمون يعطيه الديمومة!) الذي نعرفه بفضل لوح صخري عُثر عليه في جبل السلسلة، وكان كبير كهنة كل من سويك وأنوبيس وخونسو.

وفى القسم المقوس فى أعلى اللوح، نشاهد الملك مر إن پتاح الذى يسير الوزير پانحسى فى أعقابهِ، وهو يقدم مامت إلى أربعة آلهة تقف وجهاً لوجه، إنها أمون - رع ومونتو وسوبك وحتحور. ومن الواضح أن نحت هذا اللوح قد جاء تنفيذاً لأمر من الوزير فى أعقاب قيام الملك بزيارة المحاجر. ولكن صور أمن واح سو نفسه، فى وضع التعبد فى الجزء الأسفل من هذا الأثر، وبجوار ترنيمة مدائح للآلهة، لصالح الكا الملكى:

أرفع المدائح إلى «كا»ك، يا أمون - رع، أيها الإله الأقدم الأصلى، وأول من جاء إلى الوجود! التهلل والاعتباط من أجل مونتو، سيد هرمونتيس! السجود أمام إلهى سوبك! التعبد للإلهة من أجل الكا الملكى، لسيد القطرين: يا إن رع - محبوب - أمون، له الحياة. وانطلاقاً من «كا» أنها، لينها تمنح أيضاً فترة حياة سعيدة إلى كا صاحب الخطوة الأثير عند الإله الكامل، محبوب سيد القطرين، المُفعم بالمدائح طوال حياته فى الدنيا بجوار الحورس، الثور القوى، صاحب الأفعال الميمونة والخطابات المنتقاة التى يرضى المرء بكلماتها، والذى يملأ قلب سيده، بطريقة ذات تأثير موات، إنه رئيس كهنة الآلهة جمعا، كبير كهنة كل من سوبك وأنوبيس وخونسو هذا هو أمن واح سو^(٣٢).

ربما تؤكد هذه الوقائع على السعى الحثيث إلى تحقيق التليفيقية الدينية بوصفها سمة مميزة لعصر الرعامسة، كما تُبرز أيضاً السلطة المتزايدة التى يتمتع بها بعض رجال الدين.

إن الأهمية التى اكتسبها مختلف رجال الدين فى عهد مر إن پتاح، تشكل تهديداً خطيراً على المستقبل، اللهم إلا إذا تربّع ملك حازم قوى الشكيمة على العرش.



لم يصلنا سوى القليل من الإيضاحات الحقيقية عن نظم الإدارة فى عهد
مر إن پتاح.

وفى اللوح الصخرى الذى سبق أن أشرنا إليه، فإن الوزير پانحسى، وهو من
وجوه مجتمع هذا العهد، يرافق الملك. ولما كان اسمه يعنى «الزنجى»، فربما كانت
أصوله تعود إلى جنوب مصر.

وفى تمثال جماعى، جاد به نير المدينة، صور خلف الملك والملكة حاملاً الألقاب
المألوفة التى كانت تخص هذه الشخصية المرموقة، إنه
«حامل المروحة عن يمين الملك، وعمدة المدينة»

وعلى لوح حجرى من جبل السلسلة، يمكن أيضاً مشاهدة ثلاثى الهيئة
الحكومية فى ذلك الزمن: الملك والأمير سيتى - مر إن پتاح والوزير پانحسى، وهم
يتعبدون للإله آمون. واللوح مقدم من پانحسى لصالح الملك، كما يتضح من المدونة
المنحوتة على القاعدة:

أرفع الدائح إلى «كاسك»، وكذلك إلى التاسوع الإلهى القائم فى النون^(*). ليتها
تمنح الحياة والثبات والقوة والازدهار والسعادة إلى كاسك الملك: يا إن رع - محبوب -
أمون، لك الحياة. من إعداد الوزير پانحسى كاتم أسرار صاحب الجلالة ومريده وعمدة
المدينة^(٣٢).

من المعتقد، أن هذا الأخير، قد شغل منصبه لعدة سنوات. وفيما بعد أسند
هذا المنصب إلى بن سخمت (أى «رجل - سخمت») ومرى سخمت (أى «محبوب
سخمت»)، على التوالى، والذين كانا على ما يُعتقد وزيران، وموطنهما الأصلي منف.

(*) المياه الأولية التى كانت موجودة قبل الخلق. (المترجم)

وهو ما يمكن استنباطه من اسميهما. ولكن لا نعرف شيئاً عن نشاطهما أو شخصيتهما.

وتعاقب اثنان من نواب الملك فى اللوية، ليقوما بحكم البلاد فى الجنوب. إنهما ميسوى وخع إمتير. لقد خلفا وراءهما مدونات مختصرة، مخربشة فى أسوان لأول، بالإضافة إلى بعض التصاوير فى معابد اللوية والسودان، فى بيت الوالى وفى عمدا - حيث يظهر ميسوى فى أحد النقوش راکعاً، متعبداً للإله رع حور أختى - وأيضاً فى عنبية وفى عكاشة.

أما خع إمتير الذى يحتفظ له معبد بوهن بصورة، فكان لا يزال يشغل منصبه فى عهد سيتى الثانى.

ثانياً، أمن مس المغتصب، وعودة سيتى الثانى

لقد استطاع مر إن پتاح إنن، أن يحافظ على الإمبراطورية سالمة وعلى سلطته، رغم الأخطار الجسيمة. وحتى إذا أخذت بعض الصعوبات الداخلية تبرز بوضوح، فإنه احتفظ بالعرش بلا منازع. وظل العمل فى تجهيز مقبرته فى وادى الملوك مستمراً، وفى العام السابع أو فى العام الثامن ذهب پانصسى لمتابعة سير العمل فيها.

وعند وفاته، حول عام ١٢١٨ ق.م، طرأ فجأة حادث، لا نعلم عنه شيئاً. ونلاحظ فقط أن الذى خلفه شخص يدعى أمن مس (أى: «أمون هو الذى أنجبه»)، وليس سيتى - مر إن پتاح، وريث العرش الفعلى.

ترى ماذا حدث؟ ليس فى وسعنا سوى أن نتقدم ببعض الفرضيات.

يذهب البعض^(٢٤) إلى أن أمن مس ربما كان كاتباً فى جبانة طيبة، ثم أصبح وزيراً. وبالفعل، ففى بردية سالت^(٢٥) Salt، فإن الحكم فى نزاع بين عمال دير المدينة، كان معروضاً على المدعو «الوزير أمن مس». ويعد أن خسر رئيس العمال نائب قضيته، رفعها إلى شخص يدعى موسى، الذى كان على ما يُعتقد لقبُ سُمى به سيقى - مر إن پتاح. وخطأ موسى الوزير، وأقاله من منصبه. ولما كان أمن مس يعرف أن الأمير هو المسئول عن عزله وبدافع الانتقام، فربما اغتصب العرش عند وفاة مر إن پتاح. ولكن هذه الحبكة تفترض شبكة مقعدة من التواطؤ^(٢٦).

واستناداً إلى فرضية أخرى^(٢٧)، كانت هذه المسألة نتيجة لمؤامرة فى الحريم الملكى، فكم عرفت مصر أمثال هذه المؤامرات! وبالفعل، تشير النصوص إلى والدة أمن مس باعتبارها «تأخت، والدة الملك»، فى حين لم تكن على ما يبدو زوجة مر إن پتاح أو إحدى أميرات العائلة المالكة. وربما كانت إحدى المحظيات. وعند وفاة مر إن پتاح، وبشرط افتراض غياب الوريث سيقى، فربما استطاع هذا الابن المولود من الملك المتوفى وإحدى نساء الحريم، أن يتربع على العرش، ثمرة لمؤامرة. وفى هذه الحالة أيضاً كان من الضرورى وجود مشاركة فعالة من الأصدقاء والأتباع^(٢٨).

وأياً كان الأمر، فقد كانت سنوات حكم أمن مس باهتة وقصيرة، وفى حدود سنوات أربع، حتى ١٢١٢. ولم يُعثر حتى الآن سوى على بعض أسماء هذا الملك داخل خرطوش، والقليل من المدونات الواضحة فى الكرنك والشيخ عبد القرنه والرامسيوم. كما أمر أمن مس بأن تحفر له مقبرة فى وادى الملوك. ولكن ما إن تربع سيقى الثانى على العرش حتى أمر بإزالة اسم المغتصب من على جميع المعالم.

وأياً كان الأمر، فإن هذا الفصل القصير يبرهن على أن السلطة الملكية كانت مهددة فى الداخل تهديداً بالغاً، بالنظر إلى وقوعها تحت رحمة المؤامرات التى يحيكها

(*) القنصل العام لبريطانيا فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر. عمل بلزوني Belzoni الإيطالى لحسابه، وكانا فى مقدمة من سرقوا الآثار المصرية ونقلوها إلى الخارج. (الترجم)

أعيان الدولة ووجهاؤهما(٤) أو بعض أفراد الحريم الملكي(٤). وربما تلقى بعض الوثائق في المستقبل النور على هذه الأحداث التي ما زالت غامضة في نظرنا.



وبعد عودة سيتي الثاني استعادت سلالة الرعامسة الشرعية السلطة لفترة ست سنوات تقريباً.

حورس: الثور القوي، محبوب أمون.

السيبتان: هذا الذي يحمي مصر ويربط البلدان الأجنبية.

حورس الذهبي: صاحب الانتصارات المهيبة في جميع بقاع الأرض.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: أوسر خپرو - رع - مري - أمون.

(أي «قوية هي مصائر رع، محبوب أمون».)

ابن رع: سيتي - مر إن بتاح.

وفي مدونة، نُحتت في فناء معبد أمنحوتب الثالث، في الأقصر، يؤكد سيتي الثاني على قدراته الملكية والإمبراطورية:

الإله الكامل، ابن أمون، الذي أنجبتهُ موت، سيدة السماء، العاهل الملكي الذي استولى على أرجاء الأرض، الملك القوي الذي يربط البلاد وفقاً لمقاصده، بعد أن جعلها ترسو في الميناء رسواً موفقاً(٥)... الثابت على عرش ملك مصر العليا ومصر السفلى، ملك مصر وشمس الأقواس التسعة(٦).

(*) راجع الهامش رقم ٢ من هذا الفصل. (الترجم)

هكذا يؤكد سيتي الثاني بشكل قاطع، التزامه بالخط التقليدي للرماسية. ولكن يبدو أن هيئة الفراعنة التي جسدها رمسيس الثاني على أفضل وجه، قد أخذت تخبو وتتقوض.

كما أراد الملك الجديد أسوة بجده، أن يكون سيد الازدهار، والملك واهب الطعام لمصر. هكذا يصور في سياق نص مرسوم منحوت على لوح من الحجر الرملى أقيم في الكونك، أمام الواجهة الداخلية، للجدار الغربى من فناء الخبينة. وللأسف فإن علامات الكتابة شديدة التشوه فى بعض أجزائها، كما مَحَى التاريخ فى جانبه الأكبر:

ابن رع، سيد التجليات المجيدة، سيتى مر إن يتاح، له الحياة، الذى يحب آمون أكثر من أى ملك آخر والذى من أجله يعيد الاخضرار^(٣٧) إلى مصر وإلى الصحراء... وتأتى الأطعمة فى أعقابهِ، بعد أن اتحدت رنن وتت^(٣٨) بجسده. لقد جعل مصر باقية مستقرة، بفضل منتجات الصيد البرى والصيد النهري والغذاء... كما كان الحال (؟) فى السابق. والآلهة جمعاء راضية وتُسرف فى التهليل له. إن قلوبها سعيدة، وسواعدها محملة بالحياة والقوة... أنا صورة آمون، صاحب الاسم الخفى والكلمات التى صاغها قلبه، فى قمى^(٣٩).

يندرج هذا النص أيضاً فى إطار أيديولوجيا رمسيس الثانى. فعند قراءة مدونات هذا العصر يخيل للمرء أن ذرية الملك العظيم قد أرادت الإبقاء على التراث المادى والروحى الذى تركه لهم. إنهم يؤكدون ذلك تأكيداً قاطعاً. ولكن يبدو بوضوح أنهم كانوا يفتقرون إلى الوسائل، أى مقدرة بلا منازع أو مِماراة، وانعدام السلاح بلغة هذا الزمن.

ومع ذلك، فيبدو أن سيتى قد أراد معالجة المصاعب التى أُلْتُ بالسلطة الداخلية.

وإذا كان أمن مس، الوزير المتحدر من طيبة، هو بالفعل الشخص الذي اغتصب العرش، فيبدو أن الفرعون قد استطاع أن يستخلص عبرة من هذه التجربة الرهيبة. إن الوزيرين اللذين وصلتنا معلومات عن وجودهما في عهده، كانا على الأرجح من رجال الشمال. ويدعى أحدهما پا - رع - إم - حب (أى «رع فى صيه»)، وربما كان الطفل قد وُلد فى هليوبوليس يوم أحد أعياد الإله. والآخر هو حورى كبير كهنة پتاح فى منف وحفيد رمسيس الثانى، عن طريق خع إم واست، فكان إذن ابن ابن عم الفرعون.

كما سبق أن أشرنا إلى الامتيازات التى استأثر بها رومع - روى، الحبر الأعظم فى طيبة، عندما أمر بنحت صورته الشخصية على أحد صروح المكان المقدس فى الكرنك. كان رومع روى الذى ظل يشغل منصبه منذ أواخر عهد رمسيس الثانى، قد أصبح طاعناً فى السن. فقام سيتى الثانى بتعيين محوى بدلاً منه، والذى كان، على ما يبدو، أحد خلصائه الأوفياء. وكان هذا الأخير يحمل لقب «الكاتب الملكى /الحقيقى» أى أنه كان سكرتير الملك الخاص، وهو أمر شديد الندرة بالنسبة لكبار كهنة آمون. ومن ثم فقد كان من رجال البلاط، الملحق بخدمة العاهل الملكى.

هكذا يبدو أن سيتى قد أراد اختيار رجال ثقة مؤتمنين، لشغل أرقى مناصب الدولة. ولكنه فشل فى وقف الحراك الذى يرمى إلى جعل كبرى المناصب الكهنوتية وقفاً على عائلات بعينها. هكذا، نجد أن پاحم نثر أخو حورى، فى منف، قد خلفه من منصبه. إن تمثالاً ثنائياً، من مقتنيات متحف اللوفر فى الوقت الراهن، يصورهما معاً، جنباً إلى جنب. وربما كان الخطر فى هذه الحالة محدوداً للغاية، بالنظر إلى أن كلا منهما كان ينتسب إلى عائلة الرعامسة.

ولكن فى أبيدوس على سبيل المثال، نجد أن الذى خلف يوى كبير كهنة أوزيريس، هو ابنه ونن نفر الذى كان جدّه يحمل الاسم نفسه، ومن كبار رجال الدين أيضاً، وقد أعد منذ نعومة أظفاره ليشتغل هذا المنصب، الذى كان حكراً على العائلة

منذ عدة أجيال، وهو ما يوضحه نص منحوت على تمثال لهذا الشخص، يحتفظ به متحف اللوفر:

بدأ يخدم هذا الإله منذ أن كان صبياً فطناً وقوى العزم ومزدهراً، في
سحابة(*) كل يوم من الأيام، شأنه في ذلك شأن طفل المستنقعات(١٠)(**) وكلما مرت
الأيام، تعاظمت مدائحه(١١).

كما أن وثن نغر كان أقوى من آبائه، بالنظر إلى أنه جمع بين يديه مختلف
مناصب إيبيلوس، فكان أيضاً كبير كهنة إيزيس وخادم حورس.

ورغم كل جهوده، لم يتمكن سبتي الثاني إلا من أن يبطئ فقط من تسارع
عملية تقويض السلطة الملكية، من خلال تعاظم المصالح الخاصة للمسئولين المحليين،
ولكنه لم يتمكن من السيطرة على مجرى هذه الأحداث.

وظلت المشاكل الداخلية تتفاقم حتى نهاية الأسرة التاسعة عشرة، فاضطربت
عمليات وراثة العرش وانتقال السلطة، وتدرجياً سادت الفوضى وانتشرت.

ثالثاً: الانحدار الأول، رعمسيس - سى پتاح والملكة تاوسرت

كان سبتي الثاني قد تزوج سيدة تدعى تاوسرت (أى «القوية»)، وجعلها
«زوجته العظيمة»، ولكن لا يبدو أنها كانت من سلالة ملكية، كما لا نعرف أنه اختار
ولياً للعهد ليخلفه، ولكن معرفتنا عن هذه العهود شحيحة، بسبب ندرة الآثار.

(*) أى معظم اليوم. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

وعند وفاة سیتی الثاني، حول عام ١٢٠٦، خلفه شاب يُدعى رمسيسيس - سى پتاح (أى رمسيسيس - بن - پتاح). ولفترة طويلة ساد الاعتقاد بوجود ملكين يدعى الأول مر إن پتاح - سى پتاح والثانى رمسيسيس - سى پتاح، فإذا كان اسم سى پتاح مشتركاً بينهما، فإن الاسم نيسو پیتی أى اسم ملك مصر العليا ومصر السفلى داخل الخرطوش مختلف. وتبدو إعادة صياغة هذا التاريخ مهمة صعبة أحياناً، ولكن توصل العلماء أخيراً أن المقصود بهذين الاسمين فرعون واحد، كان قد غير اسمه بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى^(٤٢). تُرى من كان؟ لم تكن أمه زوجة ملكية عظيمة. وربما كان ابناً أنجبه مر إن پتاح، بعد أن أصبح طاعناً فى السن، من إحدى المحظيات، فكان أخاً صغيراً غير شقيق للملك سیتی الثاني؟ أو ربما كان ابن سیتی الثاني من إحدى المحظيات؟ أو أيضاً ابن أمن مس، فكان مفتصباً آخر للعرش؟

والأمر اللافت للانتباه أن الموكب الاحتفالى لتماميل ملوك أجداد رمسيسيس الثالث، كما تصوره نقوش معبد الجنازى فى مدينة هابى يشير فقط بعد مر إن پتاح إلى سیتی الثانى وست نخت^(٤٣). فقد استبعد عن قصد أمن مس ورمسيسيس - سى پتاح والملكة تاوسرت التى اتخذت لنفسها الألقاب الملكية.

وبالفعل فقد استأثرت هذه الأخيرة على جانب كبير من السلطة، بمساعدة حامل الأختام باى، رجليها الموثوق فيه، وربما كان يعود إلى أصول سورية. ومن المحتمل أنهما قد أجلسا رمسيسيس - سى پتاح على العرش، عند وفاة سیتی الثانى وأن تاوسرت، أرملة الملك الراحل، قد تزوجت الصبى الملكى. وإذا كانت المومياة التى دُثرت، على ما يبدو على عجل فى أكفانها، وسُجيت فى تابوت حجرى يحمل اسم رمسيسيس - سى پتاح، فى مقبرة أمحوتپ الثانى^{(٤٤)*} فى وادى الملوك، هى حقاً مومياؤه، فيمكن القول إنه كان فى ريعان الشباب عند وفاته. وسواء، أكان ابن سیتی الثانى أو أمن مس من إحدى المحظيات، فقد يفسر ذلك، على ما يُظن، اهتمام حامل الأختام باى به. وعلى كل حال، فإن زواج تاوسرت به قد خوّل بعض الشرعية.

(*) وهى المقبرة رقم ٣٥. (المترجم)

فهل كان فى بداية الأمر واجهة صامئة، تسترت وراءها طموحات **تاوسرت** وبأي؟ ويتضح من العديد من الوقائع أنها كانا ضالعين فيما فعلاه؛ فقد أمر كلاهما بحفر مقبرتهما فى **وادي الملوك**، وهو امتياز، كان حتى هذه اللحظة حكراً على **الفرعون** وحده دون سواء. كما أمرت **تاوسرت** بأن تصور على جدران مقبرتها فى صحنبة زوجها الملكين المتعاقبين: **سيى الثانى** و**رمسيس - سى پتاح**.

لم يكن من المستغرب أن ينال كل ذلك من سلطة **الفرعون** ومن هيبة **مصر**، وإن ظل النظام بجاهر بعقيدة **رمسيس الثانى** الإمبراطورية.

هكذا، فعلى لوح صخرى وضعه نائب الملك فى بلاد الجنوب فى الشرفه الشماليه، من المعبد الكبير فى **أبو سمبل**، نشاهد **رمسيس - سى پتاح** يتعبد للالهة **أمون وموت ورع وست** و**مشتروت**، عملاً بتقاليد **الرعامسة** الحقيقية.

ويبدو أن **رمسيس - سى پتاح** قد اهتم منذ أن اعتلى العرش بحكومة النوبه. هل كان هناك تمرد استغل الأحداث المضطربة التى شهدتها **مصر**؟ الأمر شديد الاحتمال ويتفق مع العادات الإفريقية. أو كانت وسيلة لإبعاد الملك الشاب عن البلاط الملكى، ولو بصفه مؤقتة، ليخلو الجو لطموحات **تاوسرت** وبأي؟

وعلى كل حال، فمنذ العام الأول من عهده، سافر العاهل الملكى إلى النوبه وصوباً إلى **أبوسمبل**، لإقامة نائب الملك الجديد **سيى** فى منصبه، فكانت نريعه رسميه. وتحفظ مخريشتان بمعلومات عن هذه الرحله:

« الأولى فى **أبوسمبل** على جدار السور الصغير الممتد، أو الذى كان يمتد من قاعدة التمثال الملكى العملاق الجنوبى إلى الصخره التى نُحت فيها المعبد الكبير.

فلترفع المدائح إلى **أمون**، ليُعطى الحياه والصحة والازدهار إلى **كا** الموفد الملكى إلى كل البلدان الأجنبية، إنه **ساقا سيد القطرين**، الذى يملأ قلب **الحورس** فى قصره، إنه الأول بين قادة مركبات **صاحب الجلاله**... عندما جاء **صاحب الجلاله** ليقيم

الابن الملكى سبتى فى منصبه فى كوش، فى العام الأول (من عهد) سيد القطرين،
رمسيس - سى پتاح^(٤٥).

♦ والمخربشة الثانية فى وادى حلفا:

العام الأول، (من عهد) الإله الكامل، رمسيس - سى پتاح، فلترفع المدائح إلى
حورس بوهن، ليعطى الحياة والصحة والازدهار والفاعلية والمدائح والحب إلى كا
الموفد الملكى إلى كل البلدان الأجنبية، وخادم الإله - القمر، الكاتب نفرحوص بن
نفرحوص التابع لدائرة محفوظات الفرعون، بعد أن حضر وتلقى الشكر والحمد من
زعماء النوبة، فى صحبة سبتى نائب الملك فى كوش، إبان حملته الأولى المظفرة^(٤٦).

أتريد عبارة حملة مظفرة التأكيد على وجود تمرد، المطلوب قمعه؟ أم كانت
مجرد تعبير شكلى؟ ويبدو أن الافتراض الأول هو الأقرب إلى الصواب، إذ دأب
السودانيون فى الغالب على استغلال لحظة انتقال السلطة من ملك إلى آخر، لشق
عصا الطاعة. ولكن لا توجد بين أيدينا معلومات أخرى حول هذا الموضوع.

ولكن عاد الهدوء على كل حال إلى سابق عهده، فى العام الثالث. إن مدونتين
منحوتتين فى معبد وادى حلفا تشيران إلى خضوع زعماء بلاد كوش:

♦ فى العام الثالث، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى:

أخ إن رع - سبتى إن رع، (أى هذا الذى يفيد رع، المصطفى من رع)، ابن رع:
«مر إن پتاح» - سى پتاح. حضر حامل المروحة عن يمين الملك، (حضر) الكاتب الملكى،
المشرف العام على الخزينة، الكاتب الملكى فى دائرة محفوظات الفرعون، المشرف
العام فى معبد آمون، (حضر) هى أى، للحصول على الأشياء المفيدة لبلاد كوش.

❖ فى العام الثالث... أُعدَّ من قبل كبير قادة مركبات صاحب الجلالة، الموفد الملكى إلى كل بلد أجنبى، (الذى حضر) لإقامة كبار الزعماء على عروشهم وإنجاز المقاصد التى «على قلب» الفرعون، إنه حورى بن كاوا (٤٧).

هكذا حضر موفدون استثنائيون من القصر الملكى، ليقوم بعضهم بجباية الجزية والآخرين ليدعموا الزعماء الذين ظلوا على ولائهم لمصر فى مناصبهم. كما أن هذا الشخص نفسه، المسمى حورس بن كاوا، قد خلف سبتي فى منصب نائب الملك فيما بين السنتين الثالثة والسادسة من عهد الملك.

ومع ذلك فقد ظلت ذُرِّيَّة الرعامسة الشرعية مؤثرة. هكذا، فإن حورى ابن كبير كهنة پتاح، الذى يحمل الاسم نفسه، ومن ثم فهو ابن حفيد رمسيس الثانى، عيّن وزيراً وعمدة طيبة. كان حورى من رجال منف، ولما كان يقوم بواجبات منصبه فقد قام بعدد من الزيارات إلى مدينة الجنوب، يرافقه موظفون من منف، وتحديداً، فى العام الرابع. وقد ورد اسمه بكثرة فى الأوستراكا التى عثر عليها فى وادى الملوك.

إن تاريخ مصر فى هذه الفترة سلسلة من البقع المظلمة والمضيئة فى نظر الباحث. فمصادرنا شحيحة وتعكس حالة الفوضى التى عمت البلاد، فتضاءلت أهمية أعمال الحرفيين إلى حد كبير.

وتبدو لنا ملامح بعض الشخصيات شاحبة فى أغلب الأحوال. إن شخصاً آخر ويدعى أيضاً حورى، كان كبير كهنة أمون، ورغم منصبه الرفيع فإننا لا نعرفه سوى من خلال مدونة منحوتة على قاعدة تمثال ابنه كائخت، قائد سلاح المركبات وسلاح حملة الأقواس، يعلن فيها عن بنوته. ونذكر شخصاً آخر كان كبير كهنة أمون يدعى مين مس، نعرفه من خلال تمثال يصوره ممسكاً بلوح حجرى رافعاً ترنيمة إلى رع:

إنك تُعرب يومياً، فى أفق مانو^(٤٨)، والنجوم التى لا تكل تُغدق عليك التهليل،
والنجوم التى لا تغنى تتعبد لك. ليتك تتيح لى أن أرتوى من مياه النهر، من أجل «كا»
مين مس^(٤٩).

وإذا لاحظنا قصر النص وغياب الألقاب، لا سيما بالنسبة لشخص رفيع
الشأن مثله - فلم يرد لقبه بصفته كبير الكهنة إلا على حافة اللوح الحجرى -
لاستخلاصنا مدى الفقر الذى وصل إليه مجتمع هذا العصر واستشعرنا وجود مشاكل
داخلية خطيرة.

كما نعرف أيضاً إيروى، كبير كهنة پتاح، والذى يعتقد أنه خلف حورى، ولكننا
نجهل الظروف التى أحاطت بشغله هذا المنصب، وأيضاً موطنه الأصلي.

ولكن منصب كبير كهنة أبيدوس وحده، ظل على ما يبدو تحتكره على الدوام
العائلة نفسها. إن سا-أست (أى «ابن إيزيس»)، «هو الذى يملأ قلب سيد القطرين
ويملأ أذنيه بأفعال عادلة وخطابات لن يُنتقص منها شىء»^(٥٠). إنه ابن يويو وأخو
وثن نفر اللذين خلفهما دون مشاكل.

ولا نعرف كيف انتهت سنوات حكم ومسيس - سى پتاح. ولكن حدث بعد
وفاته أن اتخذت تاوسرت لنفسها قائمة الألقاب الملكية^(*) وحكمت البلاد لعدد من
السنوات، وظل باى السورى، معاوناً لها.

وتفاقت الأخطار فى ربوع الإمبراطورية، وفى طول العالم الشرقى وعرضه.
كانت شعوب البحر - كثيرة العدد والأفضل تنظيماً - قد استقرت فى ليبيا وبلاد
كنعان^(**)، لتشكل تهديداً مباشراً على مصر ذاتها من الغرب ومن الشرق، تصاحبها
قوات أرضية وبحرية مرهوبة الجانب.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) وأهمها سات - رع (أى «ابنة رع») ومن إن موت (أى «محبوبة موت»). (المترجم)

(***) أى فلسطين. (المترجم)

رابعاً، ست نخت والآلهة ينتقدون مصر

أما عن الحياة ذاتها فى مصر فلم تصلنا وثيقة واحدة، ولا يوجد تحت تصرفنا سوى النص الذى دونه رمسيس الثالث بعد أن تربع على العرش، ليُصور أبعاد الفوضى التى كانت قد ضربت أطنابها فى مصر قبل أن يتبوأ والده عرش القطرين:

هذا البلد مصر كان قد تُرك وشأنه مرفوضاً، وكان هذا حال كل إنسان أيضاً. إن فمك أسمى لم يعد له وجود منذ سنوات مديدة مضت وللأزمة الآتية. كانت مصر (بين أيدي) وجهاء البلد وزعماء المدن. وكل امرئ كان يقتل نظيره، كبيراً كان أو صغيراً. وحلت أزمة أخرى، فكانت سنوات خاوية، أصبح خلالها سورى^(٥١) يدعى يارسو زعيماً على رجال مصر. وأمر البلاد قاطبة بأن تقدّم له الهدايا. وجمع بعد ذلك أتباعه لينهب الممتلكات ويسلبها. وحولوا الآلهة إلى مجرد بشر. ولم يعد أحد يقدم القرابين فى معابد المدن.

ولكن الآلهة قوّضت هذا الوضع ونشرت السلام، لإعادة النظام إلى البلاد، وفقاً لعاداتها المألوفة. وأقامت ابنها الذى من صلبها، ليصبح ملك البلاد قاطبة على عرشها العظيم، إنه أوسر خع رع - ستي إن رع^(٥٢)، ابن رع: ست نخت^(٥٣). محبوب رع ومحبوب أمون. إنه مثل خپرى^(٥٤) (ولكنه مثل) ست أيضاً، عندما تشور ثأثرته. وأعاد النظام إلى البلاد التى كانت قد عمّتها الثورة وقتل الرجال من أصحاب القلب المخادع [باى؟] الذين أقاموا فى البلد المحبوب. وطهر عرش مصر العظيم، وأصبح ملك القطرين على عرش اتوم. وقوم الوجوه التى كانت مقلوبة، وتعرف كل امرئ على

(*) (راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) (أى «تقدير موتجلى رع، المصطفى من رع». (المؤلفة)

(***) (أى «ست قوى». (المؤلفة)

(****) (راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

أخيه الذى كان مسجوناً حتى الآن. ورُمِّمَ معابد المدن، وزخرت من جديد بالقرايين
التي قُدِّمَت للتاسع، كما هي العادة.

واختارنى لأكون أميراً على عرش جب. وأصبحت الفم الأسمى للأراضى
المصرية، وقائد أركان البلاد قاطبة، وقد تجمَّعت فى كل واحد (٥٣).

أكانت هناك نزاعات داخلية؟ أم ثورة؟ أم صراع محتمل ضد الحزب السورى
الذى اغتصب العرش على حساب السلالة الملكية الشرعية؟ وكل ما نعرفه أن ست
نُخت، بعد أن أقدم على بعض المذابح واغتيال باي(٩)، استعاد النظام وعادت مصر
إلى حياتها المعتادة بعد أن استردت السلام.

وينظر إليه إذن باعتباره مؤسس أسرة ملكية جديدة، هى الأسرة العشرون.
وربما كان ينتمى إلى ذرية رمسيس الثانى، كثيرة العدد، وهو ما قد يشير إليه نقش
مدينة هابو الذى ذكرناه من قبل. وشأنه شأن سلفه المجيد، أبدى قدرة كبيرة على
العمل وجباً مماثلاً للوطن.

إن نصاً آخر، يشير أيضاً إلى معارك ضارية، ويلقى بعض الضوء على عصر
الفوضى هذا، وإن كان ضوءاً خافتاً. إنه منحوت على لوح حجرى عُثر عليه فى
إلفنتين:

فليحى جلالة

الحورس : الثور القوى، صاحب البسالة العظيمة.

السيبتان : صاحب التجليات الجميلة، مثل (تجليات) تاتان.

حورس الذهبى : القوة القديرة التى تصد المتمردين.

مالك مصر العليا ومصر السفلى : رب القطرين، أوسر خعورع - ستب إن رع.

ابن رع : سيد التجليات الجيدة، ست نخت (محبوب رع ومحبوب أمون).

محبوب أمون - رع، ملك الآلهة، الذى خلق رع هيئته وجعلها شبيهه، كما أن اسمه هو صورة أتوم، وجسده صورة التاسوع العظيم. ويسعد الجميع من مقاصده، الشبيهة بمقاصد عين رع. والآن لم يعد هذا البلد خرباً، وابتعد البلد المحبوب عن الناس. إن قلب الإله سعيد... فقد اختارت يده صاحب الجلالة، القائم على رأس ملايين (السنين؟)، بينما يُهمل مئات الآلاف السابقة. كل البلاد تلتزم بمقاصده التى تهب الازدهار إلى الحزانى، كما يفعل رع...

كان صاحب الجلالة مثل أبيه سوتخ باسطاً ساعديه لينتزع مصر من الذى استأثر بها، إذ تطوقها قدرته بحماية سحرية. عندئذ، كان الأعداء أمامه، واستولى على قلوبهم الخوف الذى كان يثيره، فلانوا بالفرار وكانوا أسرع من الغرافير^(*)، بينما كانت هيئة الصقر تلاحقهم^(**)، وتركوا هناك الذهب والفضة اللذين يخصان مصر، والتى أعطيت لهم من قبل مؤلاء الأسويين، حتى تقترب منهم الانتصارات التى قد تضمن السيطرة على البلد المحبوب^(***). ولكن فشلت خططهم وكانت وعودهم بلا غد. فقد أشرق أنذاك كل إله وكل إلهة، وصنع (كل واحد منها) الأعاجيب، من أجل الإله الكامل، وتنبأوا له أنه سيقدم على مذبحه هائلة، لأن الآلهة كانت قد قرّرت أن ينتشر النور من جديد (على مصر).

وفى اليوم العاشر، من الشهر الثانى، من فصل الجفاف، من العام الثانى، كان المتمردون على صاحب الجلالة فى كل بلد من البلدان قد قُضى عليهم. وأصبح من الممكن أن يُقال لصاحب الجلالة: يا سيد هذه الأرض، إن قلبك سعيد لأن نبوءة الآلهة ضد أعدائك قد تحققت، فلم يعد لهم وجود، من الآن فى هذا البلد، ولا وجود أيضاً لقوة سلاح المشاة والمركبات الحربية عدا سلاحى أبيك^(*). وأعيد فتح كافة المعابد، ومن جديد أصبح فى الإمكان الدخول إلى المخازن الإلهية لزيادة (مؤنها)^(*).

إن الجزء الأخير من النص، وهو سطر واحد، قد أصابه تشويه بالغ.

(*) (العصافير الصغيرة). (المترجم)

(**) (راجع الهامش فى آخر الكتاب). (المترجم)

(***) (راجع الهامش فى آخر الكتاب). (المترجم)

يشير هذا النص إذن إلى معارك يُفترض أنها احتدمت في مصر ذاتها واستطاعت الآلهة وست نخت أن يضعوا لها نهاية موفقة. فإما أن يكون هؤلاء الأعداء يعملون لحساب الأسسيويين مقابل رشوة، أو أن يكونوا من الأسسيويين ذاتهم. وإذا أخذنا بالافتراض الأول فربما كان المقصود محاولة قام بها حامل الأختام باي للاستيلاء على السلطة، «فاشترى» بعض الأتباع وربما قسماً من الجيش، وبطبيعة الحال فقد تصدى لهذه الحركة عدد كبير من المصريين ولا سيما الأمراء من نسل رمسيس الذين سبق أن رأينا أنهم كانوا يشغلون مناصب مرموقة. ولكن قد نذهب إلى الظن أننا أمام محاولة الغزو الأولى، التي قامت بها شعوب البحر القادمة من بلاد كنعان، مستغلة حالة الفوضى التي عمت مصر آنذاك، سعيًا منهم، إلى الاستقرار فيها، وهو ما قد يعلّل الإشارة إلى سلاحى المركبات والمشاة الأجنيين. كما يفسر قيام حملة أسيوية في العام الثامن من عهد رمسيس الثالث - وهو ابن ست نخت وخليفته. ولكن، لمَ لم يذكر أى اسم من أسماء الشعب الغازي، وهو ما كان يحدث دائماً؟

ومرة أخرى، فإننا نأمل أن تخرج وثائق أخرى إلى النور، حتى نتتمكن من استجلاء الأمر.

كانت سنتان كافيتين على ما يبدو، ليتمكن ست نخت القوى الشكيمة من سحق الثورة أو الغزو، وإعادة النظام الملكى إلى مصر، وما يعنيه من استقرار وازدهار. يا لغرابة الأمر، إذا قارنًا هاتين السنتين مع السنتين، اللتين استغرقتهما مدة حكم رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

كانت ثمرة زواج ست نخت من الملكة تيبى - مري أست(*) ابناً يُدعى رمسيس، وقد اختاره ليرث عرشه، ليكون آخر أبطال مصر، فاستطاع وحده أن يحميها وينقذها من كل الغزوات، بينما غرقت النول العريقة في الشرق القديم، الواحدة تلو الأخرى، وسط أمواج متلاطمة لبحر من الاضطرابات.

(*) أى تيبى محبوبة إيزيس. (المؤلفة)

خامساً: رعمسيس الثالث، أو آخر الأمجاد

حول العام ١١٩٨ ق.م، استهل رعمسيس الثالث عهداً جديداً، دام إحدى وثلاثين سنة.

حورس : الثور القوى، صاحب الملك المجيد،

السيبتان : (الملك) صاحب أعياد اليوبيل المهيّب مثل تاتن،

حورس الذهبي : الغنى بسنواته مثل أتوم، الملك الذى يحمى مصر ويربط البلدان الأجنبية.

ملك مصر العليا ومصر السفلى : أوسر ماعت رع (أى «قوية هى عدالة رع»)، محبوب أمون،

ابن رع : رعمسيس، حاكم هليوبوليس^(*).

عند وفاة ست نخت، وقبل أن يقوم رعمسيس الثالث بأى نشاط سياسى، أخذ على عاتقه إنجاز واجباته بوصفه ابناً باراً، على غرار ما فعله رعمسيس الثانى مع أبيه سيتى، فمن جديد تُقلع السفينة الملكية، حاملةً جسد الملك المتوفى المحنط فى صحبة رعمسيس ووجهاء الدولة وكبرائها، متجهةً إلى طيبة، حيث سيرقد ست نخت المخلص، فى مقبرته القائمة فى الغرب:

(*) رع مس سى حقا إيهن. بالمصرية القديمة. (المترجم)

نمب. (أبى) ليرقد فى **أفقه** مثل **آلهة التاسوع**. وأعد له ما كان قد أعد من أجل **أوزيريس**. ثم نقل على متن سفينته الملكية على صفحة النهر، ليرقد فى قصره، القصر الأبدى، فى غرب **طيبة** (٥٨).

الملك المصطفى من الآلهة

ويبدو أن تتويج الملك الجديد، قد تم فيما بعد مباشرة، فى مدينة **طيبة**. وإذا أراد **همسيس** الثالث تأكيد التقليد المتواتر، كما فعل **تحوتمس** الثالث فى وقت سابق، فقد أعلن أن اختياره اختيار إلهى، وكما كان الحال بالنسبة للملك **حور إم حب**، أقيم الاحتفال وسط ابتهاج وأفراح الآلهة والبشر:

إن أبى **أمون - رع**، سيد الآلهة و **رع - أتوم** و **پتاح - صاحب - الوجه الجميل** (٥٩)، قد أظهرونى بصفتى **سيد القطرين**، على عرش من أنجبى. وتسلمت منصب أبى، وسط التهليل. كانت البلاد قد استعادت السلام وكانت منقطعة، سعيدة لرؤية ملك **القطرين**، كما كان **حورس** على عرش **أوزيريس**. وظهرت إنن بالتاج **أتف** واضعاً الصل، كما وضعت أيضاً التاج ذا الريشتين مثل **تاتان**. وجلست على عرش **حور أختى**، مزداناً بالحلل (الملكية) مثل **أتوم** (٥٩).

بعد انتصارات كبرى الحروب، فى العام ١٢ من عهده، سوف يعيد **همسيس** الثالث إلى الأذهان أن الآلهة قد سبق لها أن اختارته ووضعت السلطة بين يديه، وذلك فى نصر منحوت على لوح حجرى مقام فى مدينة **هابو**. ويوجّه الملك كلامه إلى رجال البلاط المجتمعين قائلاً:

(*) يمكن التعرف هنا على ثالث الرعامسة المقدس. (المؤلفة)

كنت ملكاً منذ طفولتي كأحد مخلوقات الله، وجلست في سلام على العرش. لقد اختارني [أمون - رع]، لقد وجدني وسط مئات الآلاف، وقام بترقيتي شخصياً إلى سيد الجنوب والشمال. لم استأثر بشيء بالعنف، لم أستول على منصبى بالغش والتدليس^(١٠*) ولكن نُيَّبَ التاج على رأسي بقلب حنون. لقد سبق أن أبلغت أنني سوف أصبح ملكاً على مصر. كانت الآلهة والإلهات مغتبطة مبهجة، عندما تسلمتُ حلي السبعين والسيبتين^(١١)، بينما كانت يداي تحملان السوط^(**) والصولجان حقاً والصولجان أمس^{(٦٢)(١٠٠٠)}.

وبإبان كبرى الاحتفالات والأعياد جميعها، وتحديدًا عيد أوبت، سنجد أن الملك، وفاءً منه، يعلن أنه يطيع الإله أمون ويعترف بجميله:

إن قلبي يلتزم بنصائحك، على مر الأيام، منذ أن وقع على الاختيار من بين مئات الآلاف لأكون ملكاً وحاكم الشاطئين. لقد وجدتني منذ أن كنت رضيعاً، ثم أقمت على عرشك وتربعت عليه^(٦٣).

هذا الودع نحو إله التتويج والانتصارات يفسر الهبات النفيسة والبالغة الثراء التي يقدمها الفرعون لمعبد الإله في طيبة.

(*) راجع الهامش في آخر الكتاب. (المترجم)

(**) نخشى بالمصرية القديمة. من حقنا عقد مقارنة بين هذا اللفظ ولفظ العامية نَحْ، (المترجم)

(***) وهي المقومات التقليدية للعامل الملكي في جلاله. (المؤلفة)

الحروب ضد شعوب البحر

كانت الأوضاع الخارجية بالغة الخطورة. ففي ليبيا كانت شعوب البحر، منذ الهزيمة التي تكبدوها على يدى مر إن پتاح، قد شرعت تنظّم نفسها وتتغلغل فى الدلتا. والخاتى فى الشمال، ورغم ما بذله سويلولويوما الثانى من جهود بطولية، كان يحتضر بعد أن تم اكتساحه، ليختفى بعد فترة وجيزة من على خريطة الشرق الأدنى. فانتشر الغزاة فى اتجاه الجنوب، فى كيليكيا^(*) وفى النهارينا وبلاد الأموريين. إن موانئ فينيقية كبيرة مثل أوجاريت، كانت قد دُمّرت وأحرقت، وسقطت قبرص بين أيديهم. وبالتدريج انتشرت فى أرض كنعان هذه الشعوب الهندوأوروبية، فبعد أن حطّت الرحال فى الإمبراطورية المصرية الشاسعة فى آسيا، باتت تهدد الآن مباشرة الوطن الأم ذاته. وضد هؤلاء المحاربين فى البحر والبر، كان مقدراً للفرعون رمسيس الثالث أن يتصدّى لهم ويقاومهم مقاومة شرسة، ولن يبقى من العالم القديم سوى مصر.

والمصادر التى تحت أيدينا لمعرفة هذه الصراعات غزيرة إلى حد كبير. وبالفعل، فقد أمر رمسيس الثالث بنحت النقوش والنصوص التى تروى فى تتابع زمنى تقريبي الحروب التى اضطر إلى خوضها ضد شعوب البحر، على جدران معبده الجنائزى فى مدينة هابو^(**)، على البر الغربى من مدينة طيبة. إن مدينة هابو سفّر ضخم لتاريخ متحجّر. إنها مصدر سعادة لا مثيل لها، فى نظر علماء فقه اللغة والمؤرخين فى العصور الحديثة الذين يحاولون من خلال تسلسل النصوص والصور، أن يصلوا إلى حقيقة التتابع الزمنى لأهم الحروب ووقائعها كما جرت فى واقع الأمر، منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، لتصبح الرحم الذى نشأ منه عدد من الدول الحديثة.

(*) فى جنوب شرقى الأناضول، فى تركيا، على البحر المتوسط. (المترجم)

(**) جنوب البر الغربى، وإلى الغرب من تمثالى معلون. (المترجم)

إن الأسلوب الملحمي الذي كان أسلوب مدونات رمسيس الثاني، هو السائد في هذه الروايات. هكذا ظهرت إلى الوجود قصائد جديدة تروى أيام المصريين(*) البطولية. وإذا كانت القيمة السحرية للكلمات تؤدي إلى ما يبدو أحياناً، في نظر العقل الحديث، مبالغة طنانة أو ما يشبه «الدعاية» الملكية، إنما كان في نظر مصريي العصور القديمة وسيلة لجعل قوة مصر وانتصاراتها تعيش إلى الأبد، بفضل قيمة الكلمة الخلاقة. كما تنتشر في هذه النصوص صور رائعة الجمال، معبرة أحياناً عن شاعرية غنائية مهيبية أو عن قريض(**) يأخذ القلوب.

الاشتباكات العسكرية في السودان

وإذا أخذ رمسيس بتكتيك الفراعنة التقليدي، فقد أراد تأمين حدوده الجنوبية. فقام قبل العام الخامس من عهده بشن حملة عسكرية خاطفة على السودان. ولم يكن الأمر، على ما يبدو، مجرد استعراض للقوة بل حرباً حقيقية. ثم عاد الملك إلى طيبة، وكرس للإله آمون ولإلهة موت، ثلاثة صفوف من الأسرى السودانيين:

وقال زعماء كوش البلد الخسيس: «تحية لك، يا ملك مصر وشمس الأقواس
التسعة، امنحنا نسمات الحياة التي تهبنا إياها في المعتاد، عندئذ سوف نخدم
صليبيك(٦٤)».

وإذا ضمن هدوءاً ولو وقتياً، في الجنوب، فسوف يغادر رمسيس طيبة ليذهب إلى ليبيا التي وصلته منها أخبار تنذر بالخطر.

(*) كقولنا أيام العرب بمعنى حروبها ووقائعها. (المترجم)

(**) أي شعر. المعجم الوسيط. (المترجم)

العام الخامس، شعوب البحر تشن هجوماً من جهة الغرب

وصعد رعمسيس وجيشه في اتجاه الدلتا، تسبقهما بيارق واپ وأوات(*)
وخونسو وموت وأمون. لأن إله طيبة هو الذى يرسلهم ويرشدهم:

تقدم صاحب الجلالة بقلب مقتدر وبقوة وبانتصار، (تقدم) ضد البلد الخسيس،
بلد التيمص الذى تحت سلطان صاحب الجلالة. إن أباه [أمون] هو الذى يرسله فى
سلام انطلاقاً من قصره فى طيبة والذى يُسلمه حسامه ليطرد المتمردين ويقضى على
أولئك الذين أصبحوا لا يقيمون على مائه، فاتحاً من أجله الدروب التى لم تطأها من
قبل أقدام أحد(٦٥).

وتتطلع الأيويولوجيا الإمبراطورية لتكون كل البلدان المحيطة خاضعة لسلطان
مصر.

إن الملك على متن مركبته التى يجرها فرسان. اسم الأول: «النصر - فى -
طيبة»، وهو الاسم نفسه الذى كان يطلق على أحد الفرسين المصاحبين للملك
رعمسيس الثانى فى قادش. أما الآخر، فاسمه «بعل - على ساعده»، دليلاً على
استمرارية النزعة إلى اعتبار الإنسانية أسرة واحدة(**) التى تسعى إليها المعتقدات
الدينية. وفجأة،

جاء من يقول لصاحب الجلالة: «التمصو قادمون، لقد تآمروا ويُسكُون الآن كلا
موحداً بلا حدود، ويضمون الليبى(***). والسيد والماشواش(****). والبلدان المجتمعة

(*) الإله المحارب «فاتح الدروب». (المؤلفة)

(**) أوقرية واحدة، برطانة العولة فى العصر الحديث. (المترجم)

(***) شعب من أسيا الصغرى وقد أعطى اسمه لهذا البلد. (المؤلفة)

(****) شعب تعود أصوله إلى البربر، وقد استقر فى المناطق الغربية منذ الأسرة الثامنة
عشرة. (المؤلفة)

تنقض انقضاضاً شرساً على البلد المحبوب». عندئذ، اقترب صاحب الجلالة من أفق سيد الكون(*) طالباً منه القوة والبسالة والقدرة. وقام أبوه آمون، سيد الآلهة، بإعادة الاخضرار إليه(**) وقوة يده كانت مع يده، لتحطيم بلد التمحص الذي انتهك حرمة حدوده. ومع ذلك كان مونثو وست يؤمنان الحماية السحرية، عن يساره وعن يمينه. وكان واپ واوات أمامه يشق الدروب. وجعلت (الآلهة) قدرته عظيمة وقلبه قوياً للإجهاز على البلدان المتبجعة(٦٦).

انطلق رمسيس إلى المعركة وانقض على الأعداء وأجهز عليهم بسهامه وبنار حية الصل(***).

لقد توغل وسط مئات الآلاف، إنه الجسور، وعندما يبسط ساعده، فإنه يسدّ سهمه في المكان الذي يؤدّ (إصابته). إنه الثور المقاتل، صاحب القلب الثابت، والقرنين الحاذين، الذي يهلك كل بلد من البلدان. لقد أجهز على التمحص فذبحوا في مكانهم، إنهم ممدّدون على الأرض أكواماً أكواماً، أمام جياده. لقد وُضع حدا لتبجعاتهم في بلدهم، وبُدد ساعده بنورهم، بفضل قدرة أبيه آمون الذي أعطاه كل الأراضي مجتمعة(٦٧).

ونازلهم صاحب الجلالة وكان أشبه بالذهب الذي يُعثر عليه مزمجراً في الأجمات... وصاروا عندئذ مثل العصافير التي وقعت في فخ الشباك. وضربوا داخل هذه المصايد وتحولوا إلى رماد بعد أن أجهز عليهم وألقى بهم على الأرض، رأساً لقدمين(****)، (غارقين) في مائتهم. كانت هزيمتهم فاحشة بلا حدود. أجل، إن

(*) أي معبده. (المؤلفة)

(**) أي منحه طاقة متجددة على النوام. (المؤلفة)

(***) حية الصل هي ابنة رع، فتشارك أباماً طبيعته النارية. (المؤلفة)

(****) أي رأس أحدهما من الجهة التي تكون فيها رجلا الآخر. المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، لبنان، ط٢، ٢٠٠١، ص٥٢٢. (المترجم)

مأساتهم في مثل ارتفاع السماء، وجموعهم النفيرة مطروحة أرضاً في مكان المذبحة ذاتها، وتشكّل جثثهم أهراماً على الأرض، بسبب قدرة الملك الجسور، لأنه ينفرد وحده بالقوة، مثل مونتقو^(٦٨).

انتهت المعركة نهاية سعيدة. ولكن هل كان من الممكن أن تكون النتيجة غير ذلك، فالإله كان يقف إلى جانب مصر ويساعدها:

لقد انقلبت خططهم (أى الأعداء) رأساً على عقب، قدّمروا وسقطوا بفضل مشيئة الإله. فبفهمهم كانوا يبحثون بإلحاح عن زعيم (أدمى)، ولكن هذا الإله الخير المنان، الذى يعرف مقاصدهم، لم يكن فى قلبهم. لأن هذا الإله، وهو سيد الآلهة، يعمل من أجل عظمة مصر، للزمن الأبدى^(٦٩).

وبعد أن تحقق النصر، مع أول صدام مع شعوب البحر - فى ظروف ما زلنا نجهل تفاصيلها، أخذ رمسيس الثالث وهو يستريح جالساً على متن مركبته، يتأمل ما تجمع من غنائم وأسرى رُبِطت سواعدهم خلف ظهورهم وبُتِرت أعضاء الموتى المنتشرين على أرض المعركة. ولما كانت مصر أرض الكتبة، فقد تمّ حصر أعداد كل هذه العناصر حصراً دقيقاً. بعد أن وزعت بعناية فائقة على أكوام، بلغت الخمسة:

♦ جملة الأيدي: ١٢٦٥٩

♦ جملة الأيدي: ١٢٥٣٢

♦ جملة أعضاء الذكورة: ١٢٨٦٨

♦ جملة الأيدي: ١٥٥٣٥

♦ جملة أعضاء الذكورة ١٢٥٣٥ (٧٠).

حقاً، لقد كان المصريون مولعين بالنظام والمقادير فى كل شىء!

أما رمسيس الثالث، فقد عاد منتصراً إلى عاصمته محملاً بهذه الغنائم، يرافقه جنوده وضباطه، يتقدمه الأسرى الذين تمتد أعدادهم خلال أربعة صفوف طويلة، بل رُبط بعضهم بمركبة الفرعون ذاتها... يا له من انتصار روماني(*) حق، عندما أخذ الأسرى المربوطون في أصفادهم يسرون أمام القصر الملكي:

ومن بقوا على قيد الحياة، اقتيدوا أسرى إلى مصر، والأيدى وأعضاء الذكورة كانت بأعداد لا تحصى، ونقلت ضمن الغنائم. وشُدَّ وثاق الزعماء تحت نافذة الظهور الخاصة بالملك. وكان كبار جميع البلدان الأجنبية مجتمعين هنا، يشاهدون وضعهم المزرى... فلن توجد فقرات التمحو أبداً^(٧١) للزمن اللانهائي. هكذا فلن تطأ أقدامهم بعد الآن حدود مصر... ويتحدثون عن البلد المحبوب قائلين «إنه البلد الذي كسر فقراتنا»، وقام سيده بتدمير بآتنا للزمن الأبدى واللانهائي^(٧٢).

ويقوم رمسيس محاطاً بكبراء الدولة، بإلقاء خطاب:

انظروا إلى هذه الأشياء الجميلة والشجاعة التي صنعتها. إن آمون - رع سيد الآلهة، الذي ينتمى إلى - صغيره - الفرعون، قد «اقتاد» بلد التمحو والسييد والماشواش، هؤلاء اللصوص الذين كانوا سيشيعون البؤس في مصر على مدار الأيام. إنهم من الآن، أكوام تحت نعلٍ، أما جنودهم فقد اقتلعت. ويفضل عمل واحد، لم تعد أقدامهم تطأ أرض مصر، ويعود ذلك إلى الخطط الموفقة التي وضعها جلالتي في مواجهتهم، حتى يسترد البلد المحبوب سعادته. فلترتفع الابتهاجات والأفراح من أجلك إلى عنان السماء. أما أنا فقد ظهرتُ ممجداً مثل آمون، لتوسيع حدود مصر^(٧٣).

(*) (الإشارة إلى عصر الإمبراطورية الرومانية القديمة). (المترجم)

(**) راجع الهامش في آخر الكتاب. (المترجم)

وردُّ عليه كبراء الدولة قائلين:

إنك ربح الذي يشع نوراً على مصر. فعندما تظهر. يعود الشعب إلى الحياة، لأن قلبك يُسدى نصائح مواتية. إن الخوف منك، قد صدَّ الأقواس التسعة، والتمحو أصابهم الوهن، وانتزعت قلوبهم. لقد توقفوا عن مهاجمة البلد المحبوب. إن قلوب الأراضى المصرية والبلدان الأجنبية^{(٧٤)(٧٥)} قد سُحقت، لأن الخوف الذي تشيره فى النفوس أمامهم على مدار الأيام.

ولكن قلب مصر مطمئن، للزمن اللانهائى، بفضل حاميتها الجاسور، إنه ثور قوى، ورب الشايطين، وأسد ضارٍ، ييسط قدرته بأن يتسلط على من انتهكوا حرمة حدوده، فيصيرهم ويدحرهم، بفضل قوة أبك **أمون**، الذى وهبك البلد بأكمله متحدًا^(٧٥).

وبعد ذلك يقود **رهمسيس** ثلاثة صفوف من الأسرى إلى المعبد حيث يكرسهم للاله **أمون** وللإلهة **موت**.

ولما كان الملك على قدر كبير من الفطنة فقد اصطحب معه ابن أحد زعماء الليبيين، وكان ينوى تربيته تربية مصرية ثم إعادته إلى بلده، بصفته شخصاً موالياً له. كان هذا الأسلوب قد استهله **تحوتمس** الثانى:

كان **صاحب الجلالة** صائب التفكير ونافذ البصيرة مثل **تحوت**... فقد اصطحب صغيراً من بلد **التمحى** كان طفلاً هزمته قدرته^(٧٦) وفى نيته رفعه إلى منصب الزعيم، حتى يعيد تنظيم بلدهم^(٧٦).

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) أى قدرة **صاحب الجلالة**. (المترجم)

ومن جديد، ومع استعادة السلام، عرفت مصر السعادة والوفرة.

الأغذية متوفرة (والناس ياكلون) حتى الشبعب، والبلد المحبوب زاخر بالأطعمة،
والجمامير الغفيرة تطلق صيحات الفرح. فلا وجود للأسى والهموم، لأن آمون سرع قد
أقام ابنه فى مكانه، وكل ما يحيط به قرص الشمس تجتمع فى قبضته^(٧٧).

ومع تقرير حملة العام الخامس ضد ليبيا، تتداخل معها بعض الأوصاف التى
تروى أحداثاً تشير إلى شعوب قادمة من أسيا. ويعتقد أن هذا القسم من المدونة
يخص حملة العام الثامن التى تعامل خلالها المصريون مع شعوب الشمال، وقد وردت
هنا عن «طريق الخطأ»^(٩). إنها الفرضية التى يأخذ بها جمهور العلماء، ولكن تلتزم
هذه الوقائع بوجه عام، فى مدينة هابو بتتابعها الزمنى. ويمكن أيضاً أن نفترض إذن
أن هذه النصوص الواردة فى سياق روايات تخص الحملة الليبية فى العام الخامس،
تسجل حقيقة أن شعوب البحر المقيمة فى أسيا، قد أرسلت بعض المشاة والسفن لدعم
الحرب الليبية. ونذكر فى هذا الخصوص نصين على أكبر قدر من الأهمية.

يخص أحدهما بلاد الأموري، إذ نعرف أن المهاجرين قد أقاموا لهم معسكراً
مركزياً، كان يُنظَّم انطلاقاً منه الزحف فى اتجاه الجنوب. ويقال فى مدونة العام
الخامس الكبرى:

صار عدو بلد الأموري رماداً، ولم يعد لبذرتة وجود. إن شعبه بالكامل فى
الأسر وقد تفرق وأجهز عليه. والباقون على قيد الحياة، يأتون مائتين مهللين
فيشاهدون فوقهم الشمس العظيمة^(*) - شمس مصر - وإلى جوارهم جمال القرص.

(*) ليستقيم المعنى كان من الأفضل القول «الشمس العظيمة» لأن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية
القديمة. (المترجم)

إن الشمسين اللتين(*) ترتفعان وتسطعان على الأرض مما نور مصر(**) والنور الذي
فى السماء. عندئذ يقولون: الثناء كل الثناء على رع! لقد دمر بلدنا، ولكننا نقيم الآن
فى بلد الحياة، لقد طُرِحت الظلمة(٧٨).

يرسم هذا النص صورة جميلة لبلد ذى شمسین ساطعتين(***)، الملك والجِرم
السماوى. كما أنها صورة نادرة غير مألوفة. لقد حدثت إذن اشتباكات برية مع أقوام
قادمة من الأمور. ولكن هل فى أسيا؟ أو فى إفريقيا؟ كما وردت أيضاً إشارة إلى
هذا الحدث فى النص التالى.

فالنص الآخر المعنى، والذى ما زال يدور فى إطار رواية حملة العام الخامس،
يؤكد على دعم، ربما استفاد منه الليبيون برا وبحراً على حد سواء:

كانت بلاد الشمال ترتجف فى أبدانها. كانوا من الفلسطينيين والثيكر(****).
كانوا قد انقطعوا عن بلادهم، ولم يكن لـ«با» شهم وجود. كان محاربون موجودين على
البر، وآخرون على الشديدة الاخضرار. فالقادمون برا سقطوا صرعى وذبحوا
نبحاً... لأن أمون - رع كان خلف ظهرهم، ليبيدهم. ومن اخترقوا مصبات النهر، تم
اصطيادهم كالطيور التى وقعت فى الشباك. لقد انتزعت قلوبهم، وأمسك بها خارج
بدنهم. وتم اقتياد زعمائهم، وذبحوا وسقطوا قتلى وصاروا أسرى... لم يتوقفوا عن
الارتعاد (من شدة الخوف) قائلين معاً فى صوت واحد: «تُرى أين نحن زاهيون؟»(٧٩)

(*) أو «الذين» ليستقيم المعنى. (المترجم)

(**) أى الفرعون. (المؤلفة)

على اعتبار أن الشمس لفظ مذكر فى المصرية القديمة. (المترجم)

(***) أو «ساطعين». (المترجم)

(****) كانوا شعبياً من البحارة والقراصنة أكثر منهم شعبياً من التجار، وكانت الطرود -
وعاصمتها طرودة - موطنهم الاصلى، على ما يظن. (المؤلفة)

إن الحزن الشديد والحيرة اللذين تعاني منهما الشعوب التي يطردها الغزاة من أرضها، يظهران هنا في أسلوب إنساني.

واستناداً إلى هذين النصين، من غير المستبعد، بينما كان الجيش المصري يوقف تقدم الشعوب الزاحفة من ليبيا، أن يسرع رمسيس في الوقت نفسه بإرسال أسطول إلى البحر المتوسط، ليهاجم من الخلف سفن شعوب البحر التي قد تكون توغلت في الدلتا. والأقرب إلى الصواب أيضاً أن أول معركة بحرية قد نشبت في العام الخامس وأن تكون معركة العام الثامن، وهي المعركة الثانية إذن، قد جاءت روايتها في عبارات قريبة الشبه، ولكنها تخص شعباً أخرى غير الفلسطينيين والثير، مع سرد بعض الوقائع سرداً مختلفاً^(٨٠).

كما أنه من المحتمل أن الأسطول المصري قد قام بعملية إنزال لجنوده لشن هجوم من الخلف^(*)، على العدو الزاحف براً.

ومن المعتقد أن الإغارات على جميع الجهات كانت إغارات عنيفة. ولكن بصيرة رمسيس النافذة وشجاعته وبسالة جيشه، استطاعت طرد الغزاة. هكذا أمكن إنقاذ مصر.

وانطلق سحر الكلمة يصوغ المدائح من أجل الفرعون المنتصر. فهل يمكن في هذا الصدد ألا نعيد إلى الأذهان ترنيمات رمسيس الثاني^(٨١) ولكن اللغة هنا أكثر قوة، وأكثر ثراءً بمفرداتها، وكأن المقصود تسخير كل المصادر السحرية للكلمة لمساعدة العاهل الملكي على إحراز النصر، في هذه السنوات الأخيرة من عظمة مصر وأمجادها. لقد تحول اللوجوس Logos إلى سلاح ماضٍ بتأر في ساحة الوغى.

(*) «كان أمون - رع خلف ظهرهم». (المؤلفة)

إن ملك مصر العليا ومصر السفلى سيد عظيم وقدير. إن ما يثيره من هيبة ورعب قد طرحا الأقواس التسعة أرضاً. إنه مثل أسد فوق الجبال، قوى زئيره. إن التخوف منه ينتشر بعيداً، بسبب مجده. إنه أشبه بعنقاء^(*)، واسع الخطى، متحكم فى جناحيه، إنه (يعبر) الأنهار والأراضى بخطوة واحدة. إنه فهد يعرف فريسته حق المعرفة، يضع يده على من يهاجمه، بينما تمزق يداه صدر من تجاسر على انتهاك حدوده. وتثور ثائرتة بأسطاً ساعده الأيمن عندما يخوض المعركة. هكذا يقتل مئات الآلاف فى مكانهم، وتطوهم جياره بحوافرها. وفى نظره تصبح الأعداد الغفيرة والكثيفة أشبه بالجراد، إنها ملعونة ومهانة، وقد تحولت إلى مسحوق يشبه الدقيق^(**).

كما تتواصل المدائح اعترافاً بالجميل، مع تداخل الصور الشاعرية الغنائية والأسطورية، تداخلاً واضحاً.

العام الثامن. شعوب البحر تشن هجوماً من الشمال

ومن جديد بدا بوضوح أن الخطر قادم هذه المرة من أرض كنعان ومن البحر. فتشكل إذن اتحاد، أقرب إلى التحالف، كان مركزه فى بلاد الأمور.

لم يتمكن بلد من البلاد أن يصمد فى مواجهة سواعدهم، بدءاً من الخاتى إلى كركميش وإلى أريزاو... وأقيم معسكر فى مكان واحد، فى بلاد الأمور... كان جميع (هذه الشعوب) يضم الفلسطينيين والنيكر والشكلش والدانانيون^(**) والواشاشا. لقد

(*) كائن خرافى، نصفه صقر ونصفه الآخر أسد، يرمز للملك المنتصر على أعداء مصر. راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ٢٢٥. (المترجم)

(**) إذا رجعنا إلى بعض ما ذكر فى رسائل تل العمارنة، سنجد أن الموطن الأصلي لهذه الأقوام كان فى منطقة تقع إلى الشمال من أوجاريت^(**). (المؤلفة)

تجمعت هذه الشعوب كافة، «وأبيدها على البلاد»، حتى دائرة الأرض. كانت قلوبها واثقة مطمئنة، «سوف تنجح خططنا!». ولكن قلب هذا الإله، ملك الآلهة، كان مستعداً لاصطيادها في الأشراك كالطيور. عندئذ، «أعطى القوة» لابنه رمسيس^(٨٣).

وجمع هذا الأخير، رجال البلاط وقدم وصفاً للموقف، واستعرض كل التدابير التي سبق أن اتخذها، للتصدي لهذه الغزوات، بصفته ملكاً فطناً بعيد النظر.

لقد نظمتُ حدودي (عند أطراف) فينيقيا، ولواجهتهم أعدت الأمراء المحليين وقادة الحاميات والماريانو^(٨٤). وجُهزت مصبات النيل بالمعدات، وهكذا أقمت سوراً متيناً من المراكب والسفن الحربية، محملة من قيادتها إلى كوثلها بالمحاربين البواسل وبالأسلحة. إن خيرة مشاة البلاد المحبوب كالأسود المزمجرة في الجبال. وقادة المركبات عدائون ورجال مدربون وقادة مركبات مهرة. بل إن جيادهم ترتعد أطرافها من الآن، متأهبة لسحق البلدان الأجنبية بحوافرها، أما أنا فأبني مونتى الجسور، القائم بثبات على رأسهم، بحيث يشاهدون ما تقبض عليه يداي،

أنا ملك مصر العليا ومصر السفلى، أوسر ماعت رع - محبوب - آمون.

أنا ابن رع. رمسيس، حاكم هليوبوليس.

أنا من يتصرف بنشاط، أنا الجسور المقدام، المدرك قوته،

أنا البطل الذي ينقذ جيشه يوم الوغى^(٨٤).

في البداية، يستعد رمسيس لخوض المعركة على رأس سلاح مشاته وسلاح مركباته. ويسهر بنفسه على إمداد جيشه بالسلاح، إنه ملك نافذ البصيرة لا يترك

(*) إنهم ضباط أسيوبيون. أكانوا مرتزقة أم حلفاء؟ ويبدو على كل حال أن قسماً من الإمبراطورية المصرية في آسيا، كان لا يزال خاضعاً لسلطة الفرعون. (المزلفة)

شيئاً لعامل الصدفة. وتصوره النقوش، عند وصوله إلى المعسكر، تستقبله نغمات عزف الأبواق، ويقدم له حملة البيارق وكبار الضباط التحية.

ثم يوجه الملك شخصياً كلامه إلى وجهاء الدولة والأصدقاء وكل قائد من قادة سلاح المشاة وسلاح المركبات الواقفين بين يديه:

أخرجوا أسلحتكم! أرسلوا الجند للقضاء على البلدان الأجنبية المتمردة التي لم تعرف بعد مصر ولا قدرة أبي أمون^(٨٥).

ويتولى الملك شخصياً تسليم الأسلحة لخيرة جنوده، وبناءً على الأوامر الصادرة من العاهل الملكي، وكما قام بإبلاغها...

...النبيل، الكاتب الملكي، الابن الملكي الذي قال لكبار قادة الجيش وقادة السرايا والضباط، هكذا يتحدث الفرعون قائلاً: «على كل رجل من الصفوة، وكل جندي باسل يعرف صاحب الجلالة، فليمرّ أمامه ليتسلم أسلحته»^(٨٦).

وإذ تحمّس قادة الجيش لوجود رمسيس يعلنون رداً على ما سمعوه:

هيا بنا! هيا بنا! لقد تجمّع الجنود، إنهم ثيران البلد، إنهم صفوة مصر قاطبة^(٨٧).

وفى جَوْ أخوة السلاح وفى غمرة صخب الاستعداد للمعركة، أخذت الحرب تشمر عن ساقها.

سارت القوات صاعدة بمحاذاة الشاطئ، عبر الطريق الإمبراطوري القديم، طريق حورس، وينبئنا النص بإحراز النصر دون أن نعرف مكانه أو تفاصيله. وتصور لنا النقوش رمسيس الثالث على متن مركبته وهو يقود الهجوم، وفى أعقابهِ يسير

سلاح مشاته وسلاح مركباته والمرتزقة، بينما تفرُّ شعوب البحر سيراً على الأقدام أو على متن مركباتها، وترحل النساء والأولاد وأمتعتهم على عربات متباطئة تجرها الأبقار. ولولا هزيمة الغاتي ودول أخرى، لحقَّ لنا أن نتساعل إذا كان إحراز النصر على هؤلاء المهاجرين التعساء لم يكن أمراً هيناً!

أما في البحر، فكانت السفن المعادية قد توغلت داخل مصبات نهر النيل، ولكن تم تطويقها، وأخذ الأسطول المصرى يضيق عليها الخناق ويوقع بها الهزيمة، بينما كان رعمسيس الثالث وحملة أقواسه يمحطون المهزومين بوابل من السهام من جهة البر:

كان (أبناء) بلدان الشمال القائمين في جزرهم ترتعد أجسادهم. لقد استولوا عنوةً على لروب مصبات النيل. عندئذ توقفت أنوفهم عن التنفس، وتطلعوا إلى استنشاق النسيم العليل من جديد. فانقض صاحب الجلالة بين ظهرائهم، كالعاصفة، يقاتلهم في ساحة الوغى، فكان (سريعاً) مثل عداءٍ، عندئذ، نفذ مجده والخوف منه في أجسادهم، فترنحوا وأبيدوا في مكانهم، وأصيبوا في قلوبهم، وانخلعت بأءاتهم وألقيت أسلحتهم في الشديدة الاخضرار لأن سهمه اخترق من بينهم من يريد إصابته، في حين إن من كان يحاول الهروب سقط في الماء... إن أمون رع، هو الذي أجهز من أجله، على هذه البلاد، ومن أجله سحق كل شعب تحت نعليه، (من أجل) ملك مصر العليا ومصر السفلى، سيد القطرين، أوسر ماعت رع - محبوب - أمون^(٨٨).

ثم تمّ تجميع الأسرى، واقتادهم الضباط إلى الملك الموجود عند أحد الحصون. ووُسِّم بعضهم على أكتافهم بالحديد المحمى، وفي وجودهم تحدث رعمسيس إلى جيشه قائلاً:

تأملوا مدى عظمة قدرة أبى أمون - رع! لقد جاءت شعوب من بلادها القائمة في الجزر - قى - وسط الشديدة الاخضرار^(٩٠). كان أبناؤنا قد ولّوا وجوههم شطر

(*) بحر إيجه. (المؤلفة)

البلد المحبوب، وقلوبهم واثقة بسواعدهم. ولكن أعدت لهم شبكة للإطباق عليهم. ومن منهم تقدم لاختراق مصبات النيل سقط فيها، وكانت أجنتهم قد انتزعت فى مكان وجودهم، وبُترت سواعدهم وصدرهم أيضاً. وأررت تمكينكم من مشاهدة قدرتى التى تبرزها أفعال ساعدى... كان أمون - رع يقف عن يمينى وعن يسارى. إن هيئته والخافة اللتين يثيرها، كانتا فى جسدى^(٨٩).

ثم، تقدم رمسيس صفيين طويلين من الأسرى، لتكريسهم لثالوث طيبة، داخل إحدى المقاصير:

«أمون - رع:

مرحباً، فى فرح! لقد أثخنت فى الأقواس التسعة تقنياً وقضيت على المهاجمين. لقد انتزعت قلوب الآسيويين وتملكت أنفاس أنفهم... أنا سعيد إن صارت خُطى ناجعة، وفُطِنَت الكلمات الخارجة من فمى.

رمسيس:

... كم هو «أخضر» من وثق بنصائحك، أيها الحامى، يا رب القدرة!

«الأسرى:

عظيمة هى قوتك، أيها الملك، يا شمس مصر، أيتها الشمس العظيمة^(٩٠). عظيمة هى قدرتك، فتفوق جبلاً من نحاس. إن هيبتك تشبه هيبة ست. أعطنا النسيمات لنستشقيها، أعطنا الحياة التى فى قبضتك^(٩٠).

ويعلن رمسيس انتصاره بنبرات شاعرية غنائية وكلمات مزهوة تذكرنا، ويا للغرابة، بأسلوب رمسيس الثانى.

(*) ليستقيم المعنى كان ينبغى أن أكسر قواعد اللغة العربية، فأقول أيها الشمس العظيم، لأن لفظ شمس مذكر، فى المصرية القديمة. (المترجم)

من اقتربوا من حدودى لم يعد لبذرتهم وجود، وتوقفت قلوبهم وباءاتهم عن الوجود للزمن الأبدى واللانهاى. أما أولئك الذين كانوا قد تجمعوا على صفحة الشديدة الاخضرار فإن شعلة حارقة أوقفتهم عند مصبات النهر، بينما طوقهم سور من حديد عند الساحل. لقد صُنعوا ودمُروا وقُضى عليهم عند شاطئ النهر، وتكدسوا فى هيئة أهرامات، تستعصى على الحصر. وغرقت سفنهم وأمتعتهم فى الماء. إنى أتصرف بحيث تتراجع كل البلدان عند ذكر البلد المحبوب. من يتفهمون باسمى فى بلادهم، سوف يفنون. ومنذ أن تربعت على عرش حور أختى، ولأن الساحرة الكبرى مثبتة على جبينى، كما على جبين رع، فإننى لا أسمع للبلدان الأجنبية أن ترى حدود مصر. عندئذ، فإننى أستولى على بلدانهم، وتلحق حدودهم بحدودى^(٩١).

إن فرعون المنتصر هو ثثار مصر ولياسها. إنه يحميها ويضمن لها الامان والازدهار.

يا مصر، أطلقى صيحات الفرح حتى عنان السماء، لأننى حاكم الجنوب والشمال على عرش أتوم... إنى أطرد الكرب الذى كان فى قلوبكم وأساعدكم على الجلوس، فى اطمئنان لا ينقطع. إنى أدثر مصر وألبسها، وأحميها بفضل ساعدى الجسور، منذ أن توليت السلطة بصفتى ملك مصر العليا ومصر السفلى، على عرش أتوم... لأن قلبى «ممتلى» بالهى، سيد الآلهة، آمون رع، الجسور، سيد القدرة. وأعرف أن قوته أعظم من قوة غيره من الآلهة، وأن مدة الحياة والمصير والسنوات فى يده. ولذلك، فإننى شجاع وجسور، وتنجح مقاصدى، ولم يفشل شىء مما باشرته من أعمال، ونشاطى كله خير وبركة، لأننى «ممتلى» بهذا الإله، بأبى الآلهة... أبى. إنى لا أنسى معبده. إنى ثابت فى رغبتى فى مضاعفة قرابينه وأطعمته مقارنة بما كان قائماً فى السابق، إبان الأعياد...^(٩٢)

العام الحادى عشر، هجوم جديد تشنه شعوب الغرب

فى اليوم العاشر، من الشهر الرابع، من فصل الصيف، من العام الحادى عشر^(*) من حكم الملك، بدأ الماشواش ومعهم التمحو والتحنو والسييد والليبو يجتاحون مصر من جهة الغرب.

كانوا يقولون فى فم واحد: «سوف نذهب لنسكن أرض مصر». وعبروا حدود البلد المحبوب. ولكن حاصرتهم المنية وهم فى الطريق، وضربت مقاصدهم السيئة فى أجسادهم^(٩٣).

أغار رمسيس على العدو، يسانده سلاح المشاة وسلاح المركبات، فى حين كان الجنود يسدّدون السهام ويطلقون الحراب من قلعتين، فى اتجاه العدو الذى ولّى هارباً. وتقع أرض المعركة بين المدينة المسماة «رمسيس- حاكم - هليوبوليس» التى لا تبعد كثيراً عن الحدود^(**) ومدينة حوت شع^(***)، على مسافة ثمانية إيترو^(****)، أى «امتدت المجازر لمسافة ثمانية إيترو»^(٩٤).

وامتعض الماشواش والتحمو من مرارة الهزيمة وألقوا بالمسئولية على تقاعس الليبو فى ساحة الوغى، وهم القادمون الجدد من أسيا الصغرى. كان الليبو وراء ما أصابنا وأصابهم من ارتباك، لأننا عملنا بمشورتهم. والآن، فقد سلّبتنا فورة نشاطنا وأصبحنا مثلهم، على طريق النكبة. فليكن ما حدث درساً، للزمن الأبدى واللائهائى^(٩٥).

(*) أى قرب نهاية شهر أكتوبر فى قلب موسم الحرث. (المؤلفة)

(**) ومن المعتقد أن تدخل الملك قد جاء على جناح السرعة. (المؤلفة)

(***) أى: «قصر الرمال». (المؤلفة)

(****) الإيترو يعادل عشرة كيلومترات ونصف. (المترجم)

إنها معركة أنزلت بالماشواش عقاباً أليماً، ولكنهم سيأخذون ذات يوم بثأرهم^(*).

إن معركة شرسة وحادثة مفاجئة، دمغنا إرادة رمسيس الثالث القاسية، في رغبة منه في القضاء قضاءً مبرماً على الغزاة.

ارتعى زعيمهم^(**) ميشيشور بن كاير على الأرض واستلقى تحت قدمي صاحب الجلالة. كان أبناؤه وأفراد قبيلته وجيشه قد دمروا، وكُفَّت عيناه عن رؤية شكل قرص الشمس. لقد سبى محاربوه... وزوجاتهم وخلفتهم... (وقيدت) أيديهم فوق رؤوسهم كالأسرى، وكان عبء أمتعتهم وأولادهم ثقيلاً على ظهورهم، كانت قطعانهم وجيادهم قد نقلت إلى مصر... وكل من نجوا، فرّوا في اتجاه مدنهم، لأن مستنقعات اللات كانت خلفه^(***) شعلة حارقة، تقذف ألسنة اللهب القادمة من السماء، فتبحث عن بلاءتهم لتقتلع جنودهم التي مازالت في وطنهم... إنه لا يترك المعركة، في عنفوان احتدامها (واضحاً) حافره على رأس الماشواش^(٩٦)...

وفي النص المسمى قصيدة العام الحادي عشر، يأتي كاير ليستسلم، ومعه جيشه، متوسلاً طالباً العفو الملكي:

جاء كاير طالباً السلام على طريقة كفيف البصر. وألقى بأسلحته على الأرض، بالإضافة إلى أسلحة جيشه، وأطلق صرخة وصلت إلى عنان السماء، متوسلاً أن يسترد ابنه. عندئذ «شُلت» ساقاه ويده، وظل واقفاً في مكانه، بلا حركة... فألقى

(*) عندما تولى شاشانق زعيم الماشواش عرش مصر بطريقة سلمية وأسس الأسرة الثانية

والعشرين. (المترجم)

(**) أي زعيم الماشواش. (المؤلفة)

(***) أي خلف رمسيس. (المؤلفة)

القبض على كايهر وتم اقتياده، وأبيد جيشه الذى وثق به لإنقاذه. وأُردى قتيلاً، وقد شدَّت يداه فى الوثاق كالعصفور الذى سقط على المركبة، تحت قدمى صاحب الجلالة. كان الملك مثل مونتق القدير، وقدماه على رأسه^(*). بينما قُتل أمامه الزعماء وهم فى قبضته. إن نصائجه تمنح الفرح، وتنجح مقاصده وينتعش قلبه^(١٧).

إنه مشهد على طريقة العصور القديمة، مشهد كله قسوة وشراسة. هذه الواقعية اللفظة، البعيدة عن الأساليب المصرية المعتادة، تشهد على ما كان يستشعره المصرى القديم من خوف تحت وطأة هذه الغزوات المتلاحقة والرغبة التى يتوق إليها فى إنقاذ مصر. ومن ثمَّ، بدا من الضرورى ومن المفيد حدوث مثل هذه النماذج الدموية.

ومرة أخرى، نشاهد عودة الفرعون المظفرة وتقديم الغنائم إلى الآلهة.

وفى أرض المعركة ذاتها، وبحلول ساعة الاسترخاء ليستريح الجنود، جاء أحد وجهاء الدولة يرافقه الوزيران، ليقدموا الأسرى والغنائم إلى رمسيس، وهو فى صحبة ضباطه، بينما انكبَّ الكتبة يمارسون عملهم المعتاد، فيدونون فى سجلاتهم كل شىء بأعلى قدر من الدقة، بما فى ذلك الأكوام المعهودة من أياد وأعضاء ذكورة، بعد فصلها عن جثث القتلى. واقتيد إلى مصر ٢٠٥٢ رجلاً وامرأة وولداً أسرى، بالإضافة إلى ٢٨٩٢٧ رأس ماشية وأغنام. وشكّل كل ذلك طابوراً طويلاً يضج بهديره الصاخب، ويسير خلف جيش - الانتصارات. ثم تم تبادل خطابات الحمد والثناء والعرفان بالجميل المألوفة.

وعلى امتداد المسار، وقف شعب مصر فرحاً، وقد أصبح بمنأى عن المخاطر، فيطلق أيضاً التحية للملك الذى يُوفّر له الحماية. وبينما يتقدم على متن مركبته، يسير من خلفه الأسرى فى صفين طويلين كشاهد بين على النصر. وعند وصول الملك إلى

(*) أى على رأس كايهر (المترجم)

المعبد يستقبله الكهنة حاملين باقات الزهور، رمز الحياة المتجددة إلى الأبد. ويتم تكريس الأسرى للإله **أمون وإلى موت**. والخطاب الذي يلقيه عندئذ **أمون**، من أجل العامل الملكي يكشف عن بعض الحقائق السياسية الجديرة بالاهتمام.

مرحباً في سلام... لقد رسمت الحدود التي كنت تسعى إليها، وما تكهنت به تحقق في الحال. كلماتي فاعلة ويدي معك على الدوام لصد **الأقواس التسعة**. إنني أقتل من يعتدى عليك، وأمنحك السلطة والنفوذ في مواجهة البلدان الأجنبية. وينحني **الشاطئان أمامك**. إن طعام **فينيقيا** وأقوات **البلد المحبوب** قد اجتمعت من أجل **ملكك** (٩٨).

يؤكد هذا النص ما سبق أن لاحظناه^(٩٩)، أي الحفاظ على سلطة **الفرعون** على قسم من **آسيا**، وإن كانت اسمية على الأقل. وهو ما قد تشهد عليه أيضاً الأحداث التي أعقبت حملة العام الحادي عشر جهة **الغرب**، والتي يصعب علينا للأسف، في حدود الوضع الحالي لمعارفنا، أن نحدد تاريخها على وجه الدقة.

الحفاظ على الإمبراطورية المصرية في آسيا (٩) (٥)

وبالفعل، فبعد حملة العام الحادي عشر، وربما في العام التالي (٩)، خاض **رهمسيس الثالث**، حروباً في **آسيا**، يشير إليها، على ما يبدو، نص الانتصار المدون على لوح حجري مؤرخ بالعام الثاني عشر، والقائم أمام الصرح الأول من معبد **مدينة هابو** ويشيد من بين أمور أخرى، بما حققه **الفرعون** من نجاحات في **آسيا**. هذا ممكن ولكن غير مؤكد، فقد سبق للملك أن انتصر على شعوب الشمال في العام الثامن.

(*) نذكر أن علامة الاستفهام الموضوعة بين قوسين، تعني أن الكلمة أو الجملة التي تسبقها تنطوي على معلومة غير مؤكدة. (المترجم)

هل سار **رعمسيس** الثالث صاعداً حتى نهر **الفرات**؟ وإن ظل على كل حال، ملتزماً بفكر **الرعامسة**، فقد سعى على الأرجح، إلى محاولة الحفاظ على الإمبراطورية الشاسعة التي سبق أن أسسها أجداده.

وفى وسعنا أن نتابع مراحل تقدمه المظفر، فيما وراء مدينة **القنطرة**، في بلاد سادت فيها الفوضى، وكانت مسرحاً لأعمال الإبادة والنهب والسلب من جانب مختلف الغزاة. وبداية، أنزل **رعمسيس** الهزيمة بحصن سورى لم يذكر اسمه. فقام شخصياً، ومعه ضباطه بالاستيلاء عليه.

ثم فتح مدينة **تونيب**، وهى مدينة محصنة تقع فى منطقة **قادش**. فهاجم **رعمسيس** الحصن، بينما كان الجنود المصريون يقتلعون الأشجار عند مشارف المدينة، إنه عمل رمزى يشير إلى القضاء على قوى الحياة. ويقوم جنود بتحطيم الباب الرئيسى بالبلطات، بينما يقود آخرون الاقتحام بتسليق الأسوار مستخدمين السلام. وفى أعلى البرج يُلَوَّح السوريون بمِجْمرة مشتعلة، ليراها المصريون، إشارة إلى الاستسلام. وتذكرنا هذه الإيماء ببعض الطقوس الإفريقية التى ترى أن النار أو السيف، أو أى آلة مدببة عند اللزوم، ضرورية لطرد الأرواح الشريرة. كما يذكرنا ذلك بفقرة من قصة **ستتى خع إم واست**، (وهو أيضاً من **الرعامسة**)، وفى سياقها نرى **خع إم واست** قادماً فى أعقاب تمرد محدود، إلى جانب **نن نفر كاپتاح** «ممسكاً عصا متشعبة، واضعاً مجمرة مشتعلة فوق رأسه»^(*). إن الاستسلام بواسطة النار المطهرة يطرد الأرواح الضارة التى تسببت فى اندلاع التمرد. ومنذ الآن كانت نغمات أبواق المصريين تتعالى معلنة الانتصار على **تونيب**.

كما تساعدنا أيضاً نقوش مدينة **هابو** ونصوصها على مشاهدة الاستيلاء على حصن آخر قائم فى بلاد **الأمور**، وفتح مدينتين **حيثيتين**، الأمر الذى قد يشير من

(*) يمكن قراءة النص الكامل لهذه القصة فى: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الثانى، الترجمة العربية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٦. (المترجم)

ناحية إلى أن بعض عناصر هذا الشعب ربما كانت لا تزال محتفظة ببعض المواقع المحصنة، وأن رمسيس، من ناحية أخرى قد وصل بالفعل إلى نهر الفرات.

وهو ما تؤكدُه قوائم المدن والبلدان التي تم فتحها، وقد سجلت بالנקش فوق الباب الكبير للصرح الأول من معبد مدينة هابو. فإلى جانب مشهد من مشاهد النصر على واجهة البرج الشمالى^(٥)، حُدِّت المواطن الأصلية لسبعة من زعماء بلدان الشمال. إنهم **حيثيون وأموريون** ومن أبناء **نكر وشراندو وشاسو وأتروسكيون وفلسطينيون**.

وعندما قفل الملك عائداً إلى **پر رمسيس** بعد أن تمكن من الحفاظ^(٦) على الإمبراطورية، استقبله **الكهنة - حاملو - باقات - الزهور**، والوزيران وكبار الرسميين في البلاط، فضلاً عن **أمون** الذي تحدث إليه قائلاً:

قلبي سعيد لأنه في وسعي مشاهدة انتصاراتك، يا سيد الحسام، يا محبوب رع. مرحباً في البلاد، بعد أن أكملت فتوحاتك^(١٠٠).

أما الأسرى الذين ساروا أمامه في صفين إبان رحلة العودة، فسيصبحون من الآن في خدمة إله النصر، على حد قولهم.

كلمات قالها المهزومون الواقفون أمام صاحب الجلالة:

«منك، تأتي نسمة (الحياة)، يا سيد مصر وشمس الأقواس التسعة. لقد وَضَعْنَا أبوك **أمون** تحت قدميك. وأهلاً! فليتنا نبصر ونستنشق النسمات العلية ونصبح خُدَّاماً في معبده. فأنت السيد في نظرنا من الآن، وعلى امتداد الزمن الأبدى، شأنك شأن أبينا **أمون**»^(١٠١).

(*) وهو على يمين الداخل إلى المعبد. (المترجم)

وبعد ذلك صدر الأمر الملكي:

تحدث الملك شخصياً إلى النبيل والكاتب الملكي وقائد الجيش والابن الملكي،
قائلاً: «اجمع هؤلاء الأسرى الذين أتى بهم الساعد المقدام **الفرعون**. أقمهم خداماً في
معبد آمون - رع، ملك الآلهة، لأن يده هي التي جاءت بهم»^(١٠٢).

هل كان كل ذلك مجرد استعراض وقى للقوة؟ أو نشاطاً حقيقياً للحفاظ على
إمبراطورية أسيا؟

ويُعلن لوح العام الحادى عشر الحجرى، انتصار رمسيس الثالث على شعوب
البحر:

أنصتوا إليّ، أنتم فى أرجاء البلد، ويا جميع الأحياء فى **البلد المحبوب**، وأجياله
الشابة ورجاله المحترمين. أنا ابن إنسان مقدام، وبذرة (الإله) وبطل واسع القدرة
وملك **الجنوب والشمال**. لقد حطمت الأراضى والبلدان الأجنبية التى تعدت على
حدودى، منذ أن تربعت على عرش **أتوم**، بصفتى ملكاً. فما من بلد يبقّى بجوارى
لينا فسنى. أنا صلب كالثور فى مواجهتهم، أنا (ثور) حاد القرنين. لقد حملتُ
الآسيويين الذين داسوا أرض مصر، على التقهقر... إن ذكرى اسمى يُسبب الرعب
فى بلادهم... لقد حطمتُ **الثيكر وأرض الفلسطينيين والدانيين والواشواش والشكش**.
لقد قضيت على نسمة **الماشواش**... لقد رفعت وجه مصر الذى كان قد انخفض^(١٠٣).

[وللأسف يعانى النص من تشوهات ملحوظة، تحول دون قراءة أسماء الشعوب
الأخرى التى كانت مدونة أصلاً].

وإن أراد رمسيس الثالث الإبقاء على ذكرى الإمبراطورية ماثلة إلى الأبد والتأكيد على عظمة الرعامسة ورفع شأنهم، أمر بنقش نشيدى إمبراطورين على جناحى الصرح الأول من معبد الجنائزى فى مدينة هابو فرسم صورة مهيبة فى توازن رائع ومبهر. أولهما «قول ماثور» صادر عن أمون رع، صيغ صياغة تحاكي النموذج الذى وضعه تحوتمس الثالث. أما النشيد الآخر فهو «قول ماثور» صادر عن رع - حور - أختى، ويستعيد فى جوهره الفقرات التى صاغها لأول مرة أمنحوتب الثالث^(١٠٤)، وإن تضمنت أيضاً بعض مقاطع من ترنيمات التهامسة.

هاتان القصيدتان اللتان ترتبطان على هذا النحو بالتقاليد الإمبراطورية المتواترة، تكشف عن عظمة مصر وشموخها، من خلال ترديد مقاطع متكررة، تعبر عن أمجادها وإيمانها. كما تكشفان عن التطور الذى طرأ على فكر الإمبراطورية، تحت تأثير الأحداث الخارجية.

❖ نشيد الجناح الجنوبى من الصرح الأول:

... أنت مثل حورس المتسيد على القطرين، يا شمس الأقواس! إنى أشيد بانتصاراتك. إنى أقيم الخوف منك فى قلب بلاد الحاونبوت^(*)، فالرعب الذى تشيره يتعاطم فى أبدانهم. لقد قضى جلاتك عليهم، إذ ضُمَّت يدك فوق رأس أعدائك، لأننى أقمته فوقهم. والسائرون - على الرمال^(**) ينحنون أمام اسمك، لأن المشعة^(***) (التى على جبينك) تستولى عليهم. لقد دحرت قلوب المتمردين، والمقعة البيضاء فى

(*) جزر بحر إيجة. (المؤلفة)

(**) لميى - شمعى، بالمصرية القديمة، وهم البنو. راجع: برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩، ص ٣٠٤. (المترجم)

(***). الصل. (المؤلفة)

يدك اليمنى. والصولجان أمس فى يدك اليسرى. ويأتى إليك الزعماء حاملين الجزية، كل أنواع المنتجات الطيبة فى بلدانهم. إنى أهبك مصر محملة بالخيرات، وقد صارت الأقواس خُدَامًا فى قصرِكَ. إليك يأتى الجنوب، ينوء بالخوف منك، (وتأتى) بلدان الشمال إجلالاً لمجْدِكَ. ومن أجلك أفتح دروب بونْت، (دروب) المُرّ والبخور، من أجل صِلِكَ. إنى أقودك، فقوَّتى فى بدنك لتحطيم البلاد التى تهاجمك.

إنى أعطيك حسامى درعاً لصدرك، وأظل الحماية السحرية لجسدك بأكمله فى جميع المعارك.

[هنا إذن يتحوّل النشيد الجديد ليحاكى الصيغ القديمة].

إنى أجعلهم يرون جلالتك سماءً محجوبة ملبّدة بالعاصفة، عندما تقتلع الأشجار من جذورها.

إنى أجعلهم يرون جلالتك مثل قدرة حورس وست، بينما يتم القضاء من أجلك على الأقواس أضحيان لهيبتك.

إنى أجعلهم يرون جلالتك صقراً إلهياً، عندما ينقض على العصافير الصغيرة، أنت الذى بسببه تُسحق مئات الآلاف.

إنى أجعلهم يرون جلالتك مساوياً لقوتى، إذ أصبح حُسامى هو حُسامك منتصباً فى المعركة، فى حين يقعون صرعى رعيهم من جراء هذا الخوف الذى تثيره، لأن هيبتك فى وجوههم أشبه بهيئة الشمس.

إنى أجعلهم يرون جلالتك محملاً بالانتصارات، مثل ست عندما يقتل الشعبان المعادى، عند قيام قارب السماء^(١٠٥).

وإذ ظلت هذه المقاطع تحتفظ بأسلوب العرض عند التحامسة، فإنها تختلف من حيث الأيديولوجية. إن تصور الملك يُركز الآن على شموخه وما يثيره من رعب. لقد

تطور فكر الإمبراطورية، فلم يعد **الفرعون** يكتفى عند ربط الأراضى الأجنبية بالكشف عن نفسه للبلاد المفتوحة بصفته إلهًا، بل عليه من الآن أن يفرض نفسه بالقوة والعنف، للحفاظ على قدرة **مصر** فى مواجهة المخاطر التى تهددها. إننا نعيش فى عصر قعقعة السلاح، وصارت الآلهة محاربين.

♦ نشيد الجناح الشمالى من الصرح الأول:

لقد دُمّرت بلاد **النوبيين** تحت قدميك. وأجعل زعماء بلاد الجنوب يتقدمون نحوك وهم يحملون على ظهورهم جزيتهم وأولادهم، بالإضافة إلى كل منتجات بلدهم الطيبة. إنك تعطيتهم النسومات العلية حسب رغبتك، أو تُدمّر من تريد حسب مرادك. وأولّى وجهى شطر **الشمال**، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب. ومن أجلك أضرب الصحراء، وأضعأ إياها تحت نعليك. هكذا تطأ بقدميك عشرات الآلاف من الرجال الفسقة وتقضى على **السائرين - على - الرمال**. بفضل ساعدك المقدام. وأجعل البلاد الأجنبية التى كانت تجهل **مصر** حتى الآن، تأتى إليك وهى تحمل أكياساً مملأى بالذهب والفضة واللآلئ وكل أنواع الأحجار الكريمة، ومن أجملها الواردة من **بلد الإله**، من أجل وجهك الجميل.

وأولّى وجهى شطر **الشرق**، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب، فأربطهم جميعاً وأجمعهم فى قبضتك. فمن أجلك أوحّد بلد **يهوت** بأكمله، وجزيته من الراتنج والبخور المقدس والنباتات من مختلف العطور ذات العبير الطيب، من أجل وجهك والثعبان الذى على رأسك.

وأولّى وجهى شطر **الغرب**، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب. ومن أجلك أدمّر أراضى **الثلثى** بحيث يأتون إليك، فى وضع الخنوع، فيمتدحونك ويرتمون راكعين عند سماعهم صيحتك، صيحة الحرب.

وأولّى وجهى شطر السماء، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب. إن آلهة الأفق السماوى التى أتى بها **رع** إلى الوجود عند مطلع الفجر، تهتف من أجلك وتهلل، فتعود شاباً نشطاً، مثل القمر عندما يأتى بشهادته (شهادة الحياة).

وأولّى وجهى شطر الأرض، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب. وأعلن الانتصارات التى أحرزتها على كل بلد من البلاد الأجنبية، والآلهة المقيمة فى السماء فى قمة الاغتراب والابتهاج. إن حورس بحدت ينشر من أجلك جناحيه، ليُبقى الجو الرطب. إن الدورة الكبرى والدائرة الكبرى خاضعتان لسلطانك، يا ابن رع، يا رمسيس - حاكم - هليوبوليس.

إنى أضع حُسامك أمامك، للإجهاز على الأقواس التسعة، ومن أجلك ألقى الأرض قاطبة تحت نعليك.

إنى أعرف أنهم يرون جلالتك أشبه بقوة لون^(١٠٦)، عندما يحطم ويهزم القرى والمدن من وراء أمواج مياهه الدافقة.

إنى أجعلهم يرون جلالتك تمساحاً هائجاً، تضرب أرجله الأجساد حسبما يريد.

إنى أجعلهم يرون جلالتك أسداً اشتد هياجه، فتمزق مخالفه وأسنانه صدور الأغنام.

إنى أجعلهم يرون جلالتك ثوراً، فى شباب دائم، عارفاً قدر قوته، عندما يظهر فى الحلبة^(١٠٧).

لقد أعلن جهراً عن انتصارات رمسيس، فى الجهات الرئيسية الأربع^(*)، من السماء إلى الأرض، وفى طول الكون وعرضه. فقد صنع الإله من أجله العجب العُجاب.

إن هذا الفيض من الصور ووفرتها، فى إطار رؤية ملك مرهوب الجانب، يزداد هنا شدة وحدة.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) يشير مطلع النشيد إلى بلاد الجتوب. (المؤلفة)

لم يكن الأمر مجرد التمسك بشكليات غالبت الأيام، وخير برهان على ذلك تنوع الصور وتطورها، وإن ظل إطار القصيدة هو ذاته. كما لم يكن مجرد دعاية رخيصة مأثوفة أو لغو ثرثار، بل كان وسيلة تعتمد على سحر الكلمة لمساعدة رمسيس على تحقيق الانتصارات وتأمين خلود صيرورته.

وكرجع الصدي يعود بعض مقاطع نشيد تهميس، إلى الظهور في روايتها الحديثة، في مدينة هابو، عند الباب الشرقي الشامخ^(١٠٨). في حين نُقش النص الأصلي من جديد، في الكركك، على جدار البرج الغربي من المعبد الذي شيده رمسيس الثالث من أجل أمون^(١٠٩).

العالم الشرقي الجديد، ومصر تستعيد سعادتها

بعد موجتي الغزو، التورية في بلاد اليونان والهندوأوروبية في آسيا الصغرى، اللتين أطلقنا العنان لجحافل المحاربين، برأ وبحراً، كانت أحوال العالم الشرقي العتيق، قد انقلبت رأساً على عقب.

وأصبحت إيونيا^(*) Ionie أرضاً يونانية بشكل قاطع، مرتبطة بالتجارة التي ستشكل أساس ثرائها.

وحلت الحضارة الفريجية محل حضارة الحيثيين، في بوغاز - كوي^(**) وإليشا وغيرهما من المواقع. كانت حضارة ريفية في الأساس، فظلت معزولة إلى حد ما. ومن غير المستبعد أن بعض المدن ظلت تضم بين ظهرانيها مجموعات محدودة من الحيثيين، ولكن المملكة التي كانت قد بلغت شأواً كبيراً من القوة حول عام ١٣٠٠ ق.م، حتى شكلت تهديداً على مصر، لم يعد لها وجود.

(*) اسم المنطقة الساحلية من آسيا الصغرى، عندما استقر فيها الإيونيون بعد أن طردهم النوريون من اليونان في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. (المترجم)

(**) في وسط آسيا الصغرى، وعاصمة نولة الحيثيين. (المترجم)

أما **فينيقيا** فقد عانت من العديد من أعمال العنف. كانت **أوجاريت** على وجه التحديد، وهى ميناء الشمال الكبير الواسع الثراء، قد أصبحت أثراً بعد عين، بعد أن دُمّرت تدميراً شاملاً. ولن يعود الحديث عن حضارتها التليدة إلا فى القرن العشرين الميلادى، عند الكشف عن نصوص أسطورية فى رأس شمرا، وهو الميناء الحالى الذى شُيِّد على أنقاض الموقع القديم.

وظهرت دولة جديدة عند شواطئ البحر المتوسط، فعند واجهة بلاد **كنعان** المطلة على البحر وحول موانئ **غزة** و**صقلان** و**يافا**، استقر **الفلسطينيون**، فأعطوا هذا البلد اسمه وهو **فلسطين**، وسوف يعلو شأن هذه الدولة فى القرون اللاحقة، وتتعاظم أهميتها، وإن كانت لا تزال آنذاك تابعة لمصر.

أما **الشرانة** و**الواشواش** فقد تركهم **همسيس** يحطون الرحال سلميا فى مصر. فاقاموا فى حصون، وعملوا من أجل **فرعون**، يمدونه بالحبوب وينسجون الثياب^(١١٠).

وظل **الماشواش** و**الليوبل** وبعض **الأخائيين** على ما يظن يقيمون فى **ليبيا**، إلى جانب **الخنو** و**التمحو** سكان البلاد الأصليين.

ولكن ماذا كان مصير **شعوب البحر** الآخرين؟ فربما كانت هذه اللحظة مناسبة **للأوتريسكيين** و**الشكلش**، بعد أن طُردوا من كافة الشواطئ، أن يبحثوا فى مكان آخر عن أرض مضيافة. وإذا جابوا البحار على متن سفنهم فربما حملوا حضارة العالم القديم وثقافته إلى الأراضى الأوروبية، فوصل بعضهم إلى **أومبريا** (*) **Umbria** والبعض الآخر إلى **صقلية**، ليشكلوا المصادر البعيدة لعظمة **روما**. ويلاحظ أننا ما زلنا فى العام ١١٨٠ ق.م تقريباً. ولن تظهر الحضارة **الأوتريسكية** إلا فى القرن السابع قبل الميلاد، بعد أن تكون قد تشكلت. كان الأمر يحتاج إلى كل هذه الفترة الطويلة لتضرب بجذورها فى أعماق أرضها الجديدة وتزدهر. ويوحى بعض الوقائع بذلك، فمقبرة فى

(*) تقع هذه المنطقة جنوب وسط **إيطاليا**. (المترجم)

مدينة **تاركوينيا** (*) Tarquinia، نجد أن حجرة الدفن تظلها صورة كرمة متشعبة تبدأ من أرضيه المقبرة لتنتشر الفروع القصيرة المحملة بعناقيد العنب على نطاق واسع على السقف، كما نشاهد نماذج لها في المقابر المصرية(**)(١١١). وقد عولجت الأوراق بأسلوب التبسيط الزخرفى نفسه. أهى مجرد مصادفة؟ أم تأثير؟ أم طريقة من طرق الانتقال؟ إن إمكانية أن ترث حضارة ما حضارة أخرى، ما زال يحتاج فى الغالب إلى إزاحة اللثام عنه.

أما **الشكلش** ربما وجدوا الوفرة والأرض الخصبة فى جزيرة **صقلية** التى يعتقد أنها قد سُميت باسمهم، وهو ما فعلته شعوب أخرى مهاجرة فى الأرض التى رحبت بها **كاليبين والفلسطينيين**.

وعلى امتداد عدة قرون، سيواصل **الثيكر** أعمال القرصنة فى **البحر المتوسط**، ويعيشون على اقتحام السفن وسلبها ونهبها.

إن كبرى تحركات **شعوب البحر** فى حقيقة الأمر، كانت بمثابة مقدمة مهدت لنظام العالم القائم فى الوقت الراهن. فلو لم يكن **رمسيس الثالث**، هذا الملك المقدم الثاقب البصيرة وهذا المحارب البطل، قد ظهر على مسرح الأحداث، لربما تبدلت مصائر روما واختلفت!

ويمكن القول إن ملحمة **رمسيس الثالث** العظيمة، عندما خاض الملك معاركه ضد **شعوب البحر** كان يبادر بالقيام بأولى مغامرات **العصر الحديث**. إن جانباً من جذورنا(***) تضرب فى أعماق أرض مصر.

(*) فى وسط **إيطاليا**. (المترجم)

(**) ونذكر مقبرة **سن نفر** المعروفة اصطلاحاً بمقبرة **العنب** وتحمل رقم ٩٦ ٢٢، وهى جديرة بالزيارة رغم مشقة الوصول إليها. (المترجم)

(***) ضمير المتكلم يعود إلى المؤلفة الفرنسية. (المترجم)

هكذا تمكن البلد الوحيد الباقي من العالم القديم من استعادة السلام. فيقول
رعمسيس الثالث:

لقد أعدت النشاط والحيوية إلى البلاد قاطبة، غارساً الأشجار التي ستستعيد
أخضرارها (إلى الأبد)، فيستطيع الشعب الجلوس في ظلالها. وأمكن كل امرأة (من
نساء) البلد المحبوب من السير إلى المكان الذي تقصده مكشوفة الرأس، إذ لن تحتك
بعد الآن في الطريق بأجنبي يعاملها معاملة خشنة. وأجعل سلاح المشاة وسلاح
المركبات يستريحان إبان سنوات حكمي، لأن الشرانة والكهك^(١٠) يرقدون في مدنها
على ظهورهم. لقد اختفى الخوف لعدم وجود متمردين ينتمون إلى بلاد كوش، ولا
أعداء قادمين من سوريا. إن أقواسهم وأسلحتهم في مخازنهم، فقد كانوا من جانبيهم
شباغى وسكارى، ويطلقون صيحات الفرح. إن زوجاتهم معهم وأولادهم بجوارهم.
وأصبحوا من الآن لا ينظرون خلفهم، فقلوبهم مطمئنة، لأننى معهم، فأنا حامى
أجسادهم، وأعيد الحياة للبلاد قاطبة، إلى الأجانب وشعب مصر رجالاً ونساءً.

إنى «أسحب» الإنسان خارج شقائه وأعطيه النسمات، وأخلصه ممن هو أقوى
وأقدر منه. إنى أمنح الأمن والسلامة لكل امرئ في مدينته. وآخرين أعيد الحياة في
قاعة العالم الآخر. وأزود البلد بالمؤن في كل مكان سبق اجتياحه، بحيث يشبع
(الجميع) كل الشعب، على مدار سنوات ملكي.

إنى أنجز أعمالاً موفقة من أجل الآلهة ومن أجل البشر، على حد سواء. ولا
أستولى على شيء من الآخرين. هكذا، باشرت سلطتي الملكية على الأرض بصفتي
حاكم القطرين^(١١).

(**) جنود مرتزقة في الجيش. (المؤلفة)

إن الحملتين العسكريتين اللتين نظمهما رمسيس الثالث، تبرزان بوضوح حقيقة أن الطرق البحرية والبحرية استعادت حرية الحركة، وفتحت أمام التجارة المصرية. فاتجهت الأولى إلى **يونت** وانتهت بزيارة زعماء البلاد إلى بلاط **الفرمون**:

لقد بنيت سفناً كبيرة (تدفع) أمامها صنادل، وكانت مجهزة بطاقم من البحارة بأعداد كبيرة وجمع غفير من المرافقين. كان من بينهم قباطنة ومفتشون وضباط من رتب صغيرة لقيادتهم. كانوا محملين بمنتجات مصر بأعداد تفوق الحصر، وتبلغ كل كمية عشرات الآلاف. وأرسلوا عبر محيط النهر الشارد^(*)، حتى وصلوا إلى بلاد **يونت**، دون أن تقع أحداث مؤسفة، (وصلوا) سالمين معافين، ناشرين الخوف. وحملت السفن والصنادل بمنتجات بلد **الإله**، وبكل أصناف روائع البلد الخفية، وعلى رأسها بخور **يونت**، «بعشرات الآلاف»، وبلا حدود.

هكذا، جاء أبناء زعماء بلاد **يونت** واتخذوا أماكنهم أمام جزييتهم، وقد ولّوا وجوههم شطر مصر. ووصلوا سالمين معافين إلى شاطئ **كويقتوس** الصحراوي، ورسوا في سلام ومعهم ما جلبوه من المنتجات التي وضعت، بعد ذلك، على ظهور الحمير والرجال، وأنزلت إلى البر ثم حملت على متن السفن (المنتظرة) عند النهر، عند مرسى **كويقتوس**. ورحل الجميع في اتجاه الشمال ووصلوا في جو احتفالي. وقُدّمت قرابين من روائع المنتجات بحضور^(**).

وصاح أمامي، أبناء الزعماء هاتفين مهللين، ثم لامسوا الأرض ساجدين أمامي. «أعطيتهم» **التاسوع** وآلهة البلاد جمعاء^(١١٣).

(*) تشير هذه العبارة الأخيرة عادة إلى **نهر الفرات** الذي ينساب من الشمال إلى الجنوب، على عكس **نهر النيل**. أما المحيط المقصود فربما كان المحيط الهندي فالخليج الفارسي أو العربي كما نقول، جزء منه، وفيه يسب **نهر الفرات**. (المؤلفة)

(**) أى بحضور رمسيس. (المؤلفة)

يحيطنا هذا النص علماً بأن رمسيس الثالث، كان لا يقيم في طيبة، بالنظر إلى أن الجميع «يهبطون» مع التيار من كويتوس إلى المقر الملكي. فمن المعتقد أن العاهل الملكي كان إما في منف أو برسمسيس. ومن ناحية أخرى، وهو ما يبدو أمراً غير معتاد، نلاحظ أن أبناء زعماء بونت يرافقون السفن المصرية. هل كان الغرض من ذلك القيام بزيارة؟ أو الحصول على تعليم مصرى، شأنهم شأن غيرهم؟ أو مجرد القيام بالخدمة في المعابد؟ ولكن هذا الوضع الأخير كان مقصوراً على أسرى الحرب، في حين بدت بونت بلداً ارتبطت بها مصر بصلات تجارية سلمية. فهل تسلل إلى هذا البلد القصى، بعض العناصر الأجنبية، القادمة من كوش أو من البحر؟ يبدو من الصعب فيما نعلم في الوقت الراهن، أن نصدر حكماً قاطعاً حول هذا الموضوع.

كما أرسلت حملة عسكرية أخرى إلى سيناء أرض المناجم، بحثاً عن النحاس والملاخيت والفيروز.

هكذا، وبعد الصدمات العنيفة التي هزت مصر، عاد النشاط الاقتصادي، إلى سابق عهده. واستعادت مصر حياة الأيام الهادئة والعيش في سلام ووثام، حيث يستطيع المرء بلا خوف أن يخدم الآلهة التي قامت مع رمسيس بإنقاذ البلاد.

وبعد أن استتب السلام استطاع العاهل الملكي أن يحتفل في العام ٢٩ من عهده بأحد أعياد اليوبيل. وقد وردت الإشارة إليه في مقبرة ستاو كبير كهنة الإلهة نخبت، في الكاب^(*)(١١٤)، وكان قد خلف أباه في هذا المنصب. ومن المعتقد أنها كانت لحظة بالغة الأهمية في سيرة حياته الوظيفية، عندما قام معه الوزير ثا بقيادة قارب نخبت للمشاركة في العيد سد المقام في العاصمة، على شرف رمسيس الثالث.

(*) نخب بالمصرية القديمة وإليسياسبوليس Eileithyaspolis عند الإغريق، وتقع قبالة نخن، الكرم الأحمر حالياً. (المترجم)

ترتيبات خدمة الآلهة

الآلهة التي أنقذت مصر

منذ العام ١٥ من سنوات حكمه، وبعد أن ساد السلام، أمر رمسيس الثالث بالقيام بحصر للآلهة وللإلهات، على غرار ما فعله من إنفتاح، من قبله. وقد احتفظ برج صرح الرعامسة في إدفو(*) بنص هذا المرسوم الذي نُقش عليه:

في الشهر الثاني، من فصل الفيضان، من العام ١٥ (**)، من عهد صاحب الجلالة، ملك مصر العليا ومصر السفلى، سيد القطرين:

أوسر مامت رع - محبوب آمون، ابن رع سيد التجليات المتألقة، رمسيس - حاكم - هليوبوليس، له الحياة، مثل رع، للزمن اللانهائي.

أمر جلالته بتطهير كل معابد مصر العليا، وإعداد حصر بثرواتها وشؤونها، ومضاعفة القرابين الإلهية لتصبح أعظم من ذي قبل. وبعد ذلك أحيط يا - إن - يا - تا، كبير موظفي المحفوظات للعلم، (والتنفيذ)(١١٥).

كما نُقش نص مماثل على السطح الخارجي من الجدار الشرقي من معبد تحيط به الأساطين شيده تحوتمس الثالث في مدينة الطود(***) (١١٦). ويشار فيه أيضاً إلى «القيام بحصر المعابد بدءاً من منف وحتى إلفنتين»، أي معابد مصر العليا.

(*) وهو صرح صغير جداً، يواجه الشرق ويقع خارج المعبد، وملاصق من الناحية الشمالية للطرف الشرقي من البرج الشرقي لصرح المعبد. راجع:

(المترجم) Sylvie Cauville: Edfou. I.F.A.O. Le Caire 1984, p.52 et plan iv

(**) ويضيف نص آخر: في اليوم الثالث عشر. (المؤلفة)

(***) جنوب الأقصر. (المترجم)

ولاشك أن نص مرسوم آخر، لم نعثر عليه، كان يخص القيام بحصر معابد مصر السفلى.

وتحتفظ بردية هاريس Harris أيضاً بأصداء هذه العملية:

[يتحدث رمسيس الثالث إلى الآلهة قائلاً]:

لقد أحصيت كنوزكم واستكملت بها بثروات طائلة. لقد ملأت شونكم بالشعير والقلس، أكواماً أكواماً^(١١٧).

تم ذلك على ما يعتقد، بمناسبة أعياد كبيرة على الطريقة التي عشقها المصريون، تعمها الأفراح والمباهج الشعبية، كما كانت في الوقت نفسه تعبيراً إيمانياً تجاه تماثيل الآلهة التي أخرجت من مسكنها الخفي. إن لوحاً حجرياً يستند إلى الجانب الجنوبي من البرج الشرقي من صرح معبد إلفو يشير إلى هذه الأحداث. ولم يبق من النص سوى الأسطر الستة الأخيرة:

... في اليوم الذي ظهر فيه آمون رع ملك الآلهة، للإعلان عن الأفعال العديدة والجميلة التي أنجزت طوال عهد الفرعون ابنه، وذلك أثناء العيد الذي تُعرض من خلاله كل آلهة مصر العليا ومصر السفلى على شعب البلاد بأسرها - وللإعلان أيضاً عما فعله ملك مصر العليا ومصر السفلى: [....]، ابن رع: رمسيس [....] الذي يُوزع الأطعمة التي تؤمن حياتكم، ويجعل كل أصناف الأشياء الجميلة موجودة من أجلكم.

افرحوا وأطلقوا أصوات السعادة. اجعلوا أيضاً أبناء المناطق التي تقيمون فيها يهللون ابتهاجاً بسبب الأفعال الميمونة التي أنجزت من قبل آمون رع، ملك الآلهة، من أجل ملك مصر العليا ومصر السفلى: [....]، ابن رع: رمسيس... ابنه. تصرفوا بحيث تُجزل له الأعياد، على مرّ السنين، للزمن الأبدى وللزمن اللانهائي. (إنه) محبوب حورس مدينة إلفو، والإله العظيم بريشه المبرقش، ورب السماء، مثل رع^(١١٨).

لقد نقشت قائمة بألكة مصر على سقف سطح معبد مدينة هابو^(١١١).

وتظل النزعة التليفية وإقامة الشعائر للآلهة الأجنبية من سمات عصر الرعامسة هذا.

وكما لاحظنا من قبل فإن عبادة **مشتروت** و**عنات** المتحدتان في كيان واحد، بل والتي يتم الخلط بينهما في بعض الأحوال في الأساطير **الكنعانية** التي نظرت إليهما بصفتيها إلهتي حرب، لاحظنا أن عبادتهما كانت منتشرة في مصر على نطاق واسع، حيث وُصفت في كثير من الأحيان بصفتيها ابنتي **رع**، علماً بأن **مشتروت** كانت تعتبر أحياناً ابنة **پتاح**. إن لوحاً حجرياً من عصر **رعمسيس الثالث** يُنعت هذه النزعة واسعة الانتشار بالوحدة الدينية. إنها تقدم ثلاث إلهات: **عنات** و**مشتروت** و**قادش**^(*)، من بين أهم إلهات **أسيا**، وقد جُمعت في كيان إلهي واحد، اصطُبح بمقامات **مصرية**: ويصوّر هذا الكيان الإلهي الواحد واقفاً فوق أسد، ممسكاً بثعبانين في يده اليسرى وبباقة زهور في يده اليمنى، ومرتبداً الشعر المستعار المميز للإلهة **حتحور**^(١٢٠). إنه إذن كيان إلهي مركب، يجمع بين المظاهر والمقامات المميزة لثلاث إلهات. إننا هنا أمام أسلوب تليفي بسيط، لقي رواجاً كبيراً في عصر الرعامسة.

ويبدو أن إقامة شعائر العبادة للملك ذاته، كما عمل على نشرها **رعمسيس الثاني**، كانت لا تزال فاعلة.

هكذا، فعلى لوح حجري مؤرخ بالعام الثاني، جادت به مدينة **المدامود**، قرب **طيبة**، نقرأ النص الآتي:

في الشهر الأول، من فصل الإنبات، من العام الثاني، أمر صاحب الجلالة بأن

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذه الإلهة راجع: **إيزابيل فرانكو**، معجم الأساطير المصرية، ترجمة **ماهر جويجاتي**، دار المستقبل العربي، ٢٠٠١، ص ٢٢٩. (المترجم)

تُعطى حقول (مساحتها ٥٠ أورو^(*)) إلى تمثال آمون - رع، ملك الآلهة، وفي الوقت نفسه إلى تمثال رمسيس - حاكم - مليمبوليس، ابن آمون، الذي ولدته مونت^(**)، إنه سيد الأطعمة^(***).

وترسم بوضوح الحدود الدقيقة للأراضي الممنوحة، ويُذكر بالاسم الأشخاص المعينون المكلفون بالإشراف على هذه الأراضي والعناية بها، وتوفير الخدمة اليومية للقرابين المخصصة للتمثالين الإلهيين.

إن هذه المؤسسة المناط بها إقامة الشعائر لتمثال ملكي لا تُعتبر ظاهرة فريدة في بابها. فقد وصلنا مثال آخر، يعود على ما يظن إلى العام ٢٤ من حكمه. وبالفعل فقد عُثر على لوح حجري في منف^(***)، نُحت عليه نص يحدد كيفية قيام الخدمة اليومية الواجب أدائها من أجل أحد تماثيل رمسيس الثالث^(١٢٢). إن أربعة أشخاص، رجلين وامرأتين، خُصِّصوا للعمل على تأمين هذه الشعائر. كما أن القرابين المطلوب توفيرها على مدار الأيام، تم تحديدها تحديداً دقيقاً، وتتكون من طعام وشراب وزهور وملابس.

هكذا، تاکدت الأيديولوجية الإمبراطورية بكل وضوح طوال عهد الرعامسة.

ثروة المعابد

إن الوثائق التي تكشف عن اعتراف الملك بجميل الآلهة التي ساعدته على حماية مصر، عديدة ودقيقة. وتعبيراً عن شكره لها خص الفرعون «بيوتها» بثروات طائلة وأتاح لها أن تنعم على الأرض بحياة بذخ مترفة.

(*) الاسم اليوناني للاسم المصري القديم سنث الذي يعادل ٢٢٧٢٥م، أو حوالي أكثر من نصف

فدان بقليل. (المترجم)

(**) إنها باختصار عبادة عائلية. (المؤلفة)

(***) والأقرب إلى الصواب أنها كانت في خرائب معبد من إن بتاح. (المؤلفة)

إن نصوص مراسيم القرايين الثلاثة المقدمة إلى **أمون-رع**، والتي تعود على التوالي إلى الأعوام ٦ و ٧ و ١٦ من عهد **رمسيس الثالث**، وُجِدت منحوتة على الواجهة الخارجية من الجدار الشرقي لمعبد **العاهل الملكي في الكرنك** (١٢٣).

ولكن توجد وثيقتان رئيسيتان تشهدان على هذه الهبات الطائلة. تعود الوثيقة الأولى إلى العام ٢٢ من عهده، فقد وضعت إذن بعد وفاة **العاهل الملكي** الذي حكم البلاد فترة ٢١ سنة، وقام بإعدادها ابنه وخليفته **رمسيس الرابع**، رغبة منه في تكريمه. نقصد بذلك بردية **هاريس الكبيرة**، وهي أطول البرديات المعروفة حتى الوقت الراهن (*). إنها تضم حصراً على أكبر قدر من الدقة بكل الخيرات التي منُ بها **رمسيس الثالث** على الآلهة وعلى ثروات المعابد، ومن بينها تقف على رأسها ثلاثة معابد تميزت بغزارة العطاءات التي حصلت عليها، وهي في مدن **طيبة** و**هليوبوليس** و**منف**. ولكن لم تُهمل المعابد الأخرى، فنذكر منها، معبد **أونوريس** في **ثني** ومعبد **تحوت** في **منف** وأماكن **أوزيريس المقدسة** في **أبينوس**، و**واب** و**أوات** في **سيوت** (**) و**ست** في **أومبوس** و**حورس** في **أتريس** (***).

«كانت الثروات التي تحت تصرف معابد **مصر** لا حصر لها. فقد ألحق بها ١٠٧٦١٥ من العاملين أي ما يعادل ٢٪ من سكان **مصر** (****) و ٤٩٠٢٨٦ رأس ماشية و ٥١٣ مزرعة كروم وبستان و ٨٨ قارباً وسفينة و ١٦٩ مدينة منها تسع مدن في **سوريا** وبلاد **كوش** و ١٠٧١٧٨٠ **أوردا** أي ما يعادل سُبُع مساحة أراضي **مصر**

(*) طولها ٤٢ متراً، Pierre Grandet. le papyrus Harris I. Vol. 1. IFAO. 1994. p.26 (المترجم)

(**) **أسيوط** حالياً. (المترجم)

(***) **تل أتريب**، على مسافة ثلاثة كيلومترات شمال شرقي مدينة **بنا**. (المترجم)

(****) وبحسبة بسيطة يمكن افتراض أن عدد سكان **مصر** كان آنذاك: خمسة ملايين ونصف. (المترجم)

الزراعية^(*). ومن هذا المجموع حاز أمون على نصيب الأسد. فقد كان في حوزته ثلاثة أرباع هذه الممتلكات وأحياناً أربعة أخماس أو أكثر: ٨٦٤٨٦ من العاملين و٤٢١٣٦٢ رأس ماشية و٤٢٢ مزرعة كروم وبيستان و٨٢ قارباً وسفينة و٦٥ مدينة، منها ٩ مدن في البلدان الأجنبية السابق ذكرها و٨٦٤١٦٨ أورو أو ما يعادل عشر أراضي مصر الزراعية^(**). وبالمثل، فإن عائدات معبد أمون الواردة سنوياً من أملاكه كانت تتفاوت، من بعيد مقارنة بعائدات معابد مصر الأخرى. كان الوحيد الذي يرد إليه الذهب، وتحديداً من بلاد كوش فهي «بلاد ذهب أمون». كان ما يتسلمه من الفضة سبع عشرة مرة أكثر من المعابد الأخرى، ومن النحاس إحدى وعشرين مرة أكثر، ومن رعوس الباشية سبع مرات أكثر. كان هذا الوضع عائداً إلى الكرم الحاتمي للملك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وما أُجزلوه من عطاء على هذا المعبد. ولم يكن الأمر قاصراً على رمسيس الثالث الذي ورث هذه الأوضاع عن سبوقه. لقد خضع لها، ولكنه حاول على ما يعتقد أن يُدخل عليها بعض التعديلات، إذ بدا أن ما يجود به كرمه الشخصى يفضل أن يتجه إلى كهنة ومعابد منف وهليوبوليس وغيرهما من المدن، التي لم يجزل لها أجداده العطاء بسخاء. هكذا فمن بين ٣٦٤٨ لبنين^{(***)(١٢٤)} من الذهب استطاع توزيعها على المعابد طوال سنوات حكمه، لم يخص أمون سوى ١٨٢ و ٨٢٢ لبنين من الفضة من بين ٨٠٢٧ و ١٤ لبنين من اللازورد من بين ٢٨ و ٨٢٢ لبنين من النحاس من بين ١٨٨٥٤ و ٢٩٧ رأس ماشية من بين ٢٤١٨^(١٢٥).

وبطبيعة الحال تم استخلاص هذه الحقائق من بردية هاريس. إن هذا السعى الحثيث في خلق توازن بين إيرادات المعابد ليبرهن على حنكة رمسيس الثالث

(*) أى أن مساحة أرض مصر الزراعية كانت ٧٥٠٢٤٦٠ أورو وحيث إن الأورو، وهى الاسم اليونانى للاسم المصرى سئات تساوى ٢م٢٧٢٥، تصبح مساحة أراضي مصر الزراعية،

حوالى ٥ مليون فدان. (المترجم)

(**) أى حوالى ٥٠٠٠٠٠ فدان. (المترجم)

(***) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

السياسية، فأراد أن يشمل برعايته عائلات كهنوتية أخرى خلاف عائلة طيبة، ليتمكن من إيجاد حلفاء فى جماعات أخرى من رجال الدين، ويستعيد قيادته لجميع رجال الدين، وهو وضع كان من حقه، من الناحية النظرية. ولكن لا ينبغى النظر إلى هذا السلوك باعتباره إجراءً سياسياً فقط. فلما كان رهمسيس رجلاً تقياً، فقد أراد أيضاً بلا شك، التعبير عن العرفان بالجميل نحو «جميع الآلهة والإلهات» التى مدت إليه يد العون والمساعدة. ومن هذا المنظور، الساعى إلى «إعادة فرض» سلطة الملك على كل رجال الدين، فإن معبد العاهل الملكى الجنازى فى مدينة هابو - وكان فى الوقت نفسه معبداً للإله أمون - قد حلّ محل معبد الكرنك بصفته المركز الإدارى لتصرف شئون ممتلكات أمون. ومن ثم، فمن بين العاملين الملحقين بمعابد طيبة، الذين تم حصرهم، وعددهم ٨٦٠٠٠، كان ٢٦٦٢٦ من نصيب معبد مدينة هابو، الذى أصبح الموقع الكبير لإقامة الشعائر فى آن واحد، من أجل الملك ومن أجل الإله.

ولأن أمون - رع يظل دائماً «سيد الآلهة»، كانت القرابين تتضاعف إبان كبرى الأعياد، فى الكرنك أو فى مدينة هابو. إن نصاً، يحلو للمؤرخين المعاصرين أن يطلقوا عليه «النصر الشعاعى»، ينقل إلينا حديث رهمسيس إلى أمون، إنه فى آن واحد، حديث ثناء ومديح، وملخص لما أنجزه العاهل الملكى من أعمال، ويهدف إلى التعبير من جانبه عن العرفان بالجميل.

..أنا من يُقدّس الطريق، من أجل سيد الآلهة، أمون رع، إبان عيده، (وذلك) للملايين السنين. كما أننى أيضاً من يترأس العيد.

طاهرة هى يديّ لكى أكرّس القرابين الوفيرة أمام من أنجبني. إنى أجعل معبدي قائماً فى معيتك، يا أبى الجليل!

لقد تصرفت، لينصّ كتابتُ (على حيازتك) للأمالك التى تضمها قبضة يدك. لقد أعددت من أجلك، حصراً بممتلكاتك، لتظل مرتبطة باسمك، إلى الأبد. لقد حكمت القطرين من أجلك، باعتبارهما نصيبى الكامل، وكما أعطيتهما لى منذ أن ولدت.

لقد شُيِّدت باسمك مدناً محصنة في البلد المحبوب وفي النوبة وفي أسيا.
وفرضت عليها ضرائب سنوية، فتأتى الأقطار والمدن، كل واحد منها باسمه، (تأتى)
محملة بضرائب جزيتها، لتقديمها إلى كائك، يا رب الآلهة! الخفى فى السماء والأرض
والنون والنوات.

لقد جعلتك تتعرف على ما فعلته من أجلك، لأن آمون -رع، هو أبى المعظم، الذى
يفرح بالحقيقة وبالعدالة.

لقد تصرفت، على هذا النحو، بسبب قدرتى، عن طريق ما أتى به كائى إلى
الوجود، وأيضاً عن طريق الغنائم القادمة من بلد الزنجى وبلاد چاهى، على حدِّ
سواء. لم يُقدِّم شيء لآى إله (من الآلهة الأخرى)، ولكننى أعطيت (كل) ذلك لكائك لكى
تكون راضياً، لأنك أبى الإلهى، وريث الزمن الأبدى، واهب اللانهاية، بصفتك سيد
الآلهة.

فليظل معبدى باقياً فى قلبك فى كل لحظة، فليظل راسخاً رسوخ طيبة. إنه
مكانك الحق (١٢٦)....

إنه نص ثناء ومديح مفعم بالحماس، ثناء ومديح فى لحظة تفيض إيماناً، ربما
كان ثناء ومديحاً نفعين، إذ لا يبدو أنهما مطابقان دائماً للحقائق على أرض الواقع.

يلى ذلك نص مرسوم ملكى، يحدد تحديداً صارماً، بأكبر قدر من التفاصيل،
قائمة القرابين الجديدة المطلوب تقديمها لكل عيد من أعياد طيبة. إن تقويم الأعياد هذا
عبارة عن نص مسهب، يغطى بالكامل تقريباً الجدار الجنوبي من معبد مدينة
هابو (١٢٧).

ثم يأتى الدور على نشيد العرفان بالجميل الذى تعلنه الآلهة المفعمة بالنعم،
يصطحبها آمون -رع.

كلمات قالها آمون -رع، ملك الآلهة، إلى آلهة وإلهات مصر العليا ومصر
السفلى، وإلى التاسوع الإلهى، وإلى المحكمة الإلهية الكبرى التى فى معبته:

«فلنذهب محملين بأعياد اليوبيل بملايين السنين، إلى ابني صاحب السنوات
الواسعة النعم، (ابني) القائم على عرشى أوسر مامت رع - محبوب - أمون، الذي
شيد مسكنى المقدس كمثل أفق السماء.

لقد نشأته شخصياً بيدى، لينجز من أجل معبدى أفعالاً ميمونة. لقد أنجبته من
صلبى بصفته مخلوقاً، كى يفعل ما يُرضى قلبى.

اتحدوا به فى الحياة وفى القوة، انشروا مفاتنكم السحرية من خلفه. تاخوا
معه. فليكن مثاقفاً فيما بينكم، كما أنكم متآلقون. فليكن اسمه مزدهراً مثل أسمائكم
للزمن الأبدى - وكما أعاد من أجلى تشييد معبدى فوق تل نب-منخ^(١٢٨).

رجال الدين

الحديث عن ثروات المعابد يعنى ضمناً فى الغالب، الحديث عن قوة رجال الدين
وسعة قدرتهم.

لقد كان باك إن خونسو^(*) كبير كهنة أمون، منذ عهد ست نخت، ليستمر فى
منصبه فى عهد رمسيسيس الثالث. كان ابن أمن إم أويت المنخرط فى سلك الجندية،
فكان «قائد الجند وقائد العاملين الجدد فى أملاك أمون». ومن ثم فقد نشأ وتربى فى
الكرنك، حيث قضى حياته. كان يلقب «بالنبيل والأمير»، كما شغل مناصب «من يفتح
الأبواب لمشاهدة الإله العظيم»، و«حامل بيرق أمون»، و«قائد العاملين الجدد فى
الأملاك»^(**)، و«مدير كهنة الآلهة جمعاء»، وهو ما نعرفه من المدونات المنحوتة على
أربعة تماثيل عُثر عليها لهذا الشخص. كما كان أيضاً قائد ملبشيا أمون، الأمر الذى
قد يبدو خطيراً. ولكن إذا كان الملك حازماً قوى العزيمة، لا يستطيع رجال الدين أن
يعلنوا استقلالهم. ولم يتعامل باك إن خونسو الثالث مع السلطة بالقدر نفسه من

(*) وهو تحديداً باك إن خونسو الثالث. (المؤلفة)

(**) كان قد ورث هذا المنصب عن أبيه. (المؤلفة)

الحريات مثل سلفه رومع روى، فقد عرف رمسيس الثالث كيف يبقى كهنة طيبة خاضعين منصاعين له.

أما مصير ثانفر كما كان مقدراً له بعد وفاته، فحافل بمختلف المغامرات. كان «خادم أمون ثالث» وكبير كهنة رع وأتم في طيبة، وينحدر من عائلة مرموقة من رجال دين طيبة. كان ابن أمن حوتپ، «الخادم الثانى للإله» ورئيسة حريم أمون. كان جده بالمصاهرة هو باك إن خونسق الأول. وسيصبح أحد أبنائه «الأب الإلهي لأمون»، و«كبير كهنة رع في طيبة»^(*) وكبير كهنة موت. وسيصبح ابن آخر «كبير كهنة موتوت». لقد عُين من قبل رمسيس الثالث ليظل يشغل هذا المنصب فى عهد كل من رمسيس الرابع ورمسيس الخامس.

إن ثراء العائلة يظهر بوضوح فى عظمة المقبرة التى أقامها ثانفر فى دراع أبى النجا. كانت مجهزة بصرح وهرم وأكثر مقابر الجبانة ارتفاعاً. لذلك فقد أثارت الأطماع منذ وقت مبكر جداً. فقام اللصوص بنهبها منذ أواخر الأسرة العشرين، شأنها شأن غيرها من مقابر هذا العصر^(١٢٩). وحفظ لنا الزمن اعترافات أحدهم^(١٣٠):

نهبنا إلى مقبرة ثانفر الذى كان كامن أمون الثالث. وفتحناها وأخرجنا توابيتها. وأخذنا مومياءها وتركناها فى ركن من مقبرته. وحملنا توابيتها على متن السفينة، ومعها الباقي، واتجهنا إلى جزيرة (؟) أمن أوبه، وأشعلنا فيها النار ليلاً، ورحلنا ومعنا الذهب الذى عثرنا عليه.

ولا شك أنه عُثر على المومياء، وأعيدت إلى سابق عهدها، واستؤنفت الشعائر الجنائزية. وعلى كل حال فقد تمت سرقة المقبرة مرة ثانية ونهبها. وفى العصر الحديث، جاءت عائلة من أبناء القرية المجاورة لتتخذ من المقبرة مسكناً لها. وترتب

(*) وقد ورث هذا المنصب عن أبيه. (المؤلفة)

على ذلك، إصابة سطوح الجدران بتلفيات خطيرة، بينما اسود السقف بفعل سَحْم الدخان. وربما عانت المقبرة أيضاً من هزة أرضية فتشققت أجزاء من الحوائط وتصدعت. وجاء أخيراً لصوص العصر الحديث، وقطعوا واجهات جدارية ضخمة منحوتة ومرسومة ليبيعوها. هكذا يمكن القول إن مصير ثانفر بعد وفاته كان مصيراً شديداً الاضطراب.

كما عانى مصير **إيروى** بالقدر نفسه من الاضطراب، ولكن وهو على قيد الحياة، وكان رئيس «الكهنة الأطهار» للإلهة **پاستت** فى **پوياسست** (*).

وعند قراءة التراجم التى أمر بنحتها على ساكف باب، عثر عليه قرب **القنطرة**، قد يذهب المرء إلى الاعتقاد أنه كان من المخلصين الأوفياء للملك. إن النصين المتناظرين يكتنفان مشهداً للتعب لخرطوشى الملك:

*التعبُ للملك فى أفقه للزمن الأبدى، للشمس المتألقة، (الملك) المُرْتدى التاج الأزرق. ليتة يسمح لكَا الكاتب الملكى، **إيروى** من **پوياسست**، أن يدخل إلى قصر الملك ويخرج منه مغموراً بنعمه.*

*التهنأ والتهلل لكَاك، أيها العامل الملكى الجميل المحبوب، وشبيه **أمون**. ليتة يمنح الحياة والازدهار والصحة والذكاء والمن والحب لكَا الكاتب الملكى، إنه حقاً محبوبه، إنه كبير الكهنة المرتلين، وكبير الكهنة الأطهار، إنه **إيروى** من **پوياسست**، (فلينعم) فى سلام^(١٣١).*

ومع ذلك، فإن هذا الشخص نفسه، وهو **إيروى** كما عرفناه، سوف يكون ضالماً فى مؤامرة حيكّت فى القصر ضد **رعمسيس الثالث**، وهو ما سنلاحظه فى الصفحات التالية^(١٣٢).

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **پوياسست**، ثل **پسطا**، حالياً. (المترجم)

بلاط رعمسيس الثالث

وإن كانت عائلة رعمسيس الثالث أقل عدداً من عائلة رعمسيس الكبير، فإنها لم تكن أقل منها شأنًا.

كانت الملكة إيزيس الزوجة الملكية العظيمة، ابنة امرأة أجنبية هي حاباچيلات وربما كانت سورية، وما زال النقاش محتدماً حول أصولها^(١٣٣). كانت هذه الأخيرة تدعى «والدة الملك» وصوّرت مع رعمسيس الثالث في أحد مشاهد عيد الوادى. وأُحيط اسمها بخرطوش ودُفنت في وادى الملكات، بالبر الغربى لمدينة طيبة. هكذا تمتعت بالامتيازات الملكية، رغم أصولها الأجنبية. وربما كانت إحدى زوجات ست نخت ومن ثم حماء رعمسيس الثالث، ولكن من المؤكد على كل حال أنها والدة الملكة إيزيس.

تشير نرية رعمسيس الثالث وإيزيس من الذكور بعض الإشكاليات لعلماء المصريين المعاصرين.

ومن بين أبنائهما نذكر بكل تأكيد من سيصبحون فى المستقبل رعمسيس الرابع ورعمسيس السادس. ولكن تمّ الكشف فى وادى الملكات عن مقابر خمسة أمراء آخرين. إنهم پارع حرومف^(*) (أى «رع على ساعده الأيمن») وكان رئيس مركبات إصطبل فرعون. وضع إم واست^(**) الكاهن سم للإله پتاح - وكان يحمل إذن اسم سلفه الذائع الصيت، ابن رعمسيس الثانى، ويشغل منصبه: وأمون حرخيشف^(***) (أى «أمون على بلطته») وكان كاتباً ملكياً والمشرف العام على جياذ القصر. ورعمسيس^{(١٣٤)(****)} الكاتب الملكى وقائد الجيش وحامل المروحة عن يمين الملك.

(*) المقبرة رقم ٤٢. وادى الملكات. (المترجم)

(**) المقبرة رقم ٤٤. وادى الملكات. من أروع مقابر البر الغربى، وجديرة بالزيارة. (المترجم)

(*** المقبرة رقم ٥٥. وادى الملكات. من أروع مقابر البر الغربى، وجديرة بالزيارة. (المترجم)

(**** المقبرة رقم ٥٢. وادى الملكات. (المترجم)

وست حرخيشف^(*) (آى «ست على بلطته»)، وكان كبير قادة مركبات صاحب الجلالة. كان هؤلاء الأمراء يحملون جميعاً أسماء تميزت بها عائلة الرعامسة الكبيرة. وشغل جميعهم مناصب عسكرية، ما عدا خع إم واست. وهؤلاء الخمسة هم الذين تفرّدوا من بين أمراء الرعامسة بأن حفرت مقابرهم فى هذا المكان. ولانعرف حتى الآن أين دُفن أبناء رمسيس الثانى. كما لم يلتزم خلفاء رمسيس الثالث بهذا الأسلوب.

تقدم البعض بعدد من الأسباب لتفسير هذا الواقع، فربما لم يكن هؤلاء الأمراء قد تزوجوا، إذ ما زالوا دون سن البلوغ، ترعاهم أمهم وتسهر عليهم، ومرتبطين بها. وبالفعل فإن المومياء التى عُثِرَ عليها فى مقبرة أمون حر خيشف هى بالفعل مومياء لصبى لم يبلغ بعد مبلغ الرجال. ما سبب وفاته؟ هل نذهب إلى القول إنه كان ضحية أحد الأوبئة؟ وقيل إنه داء الجُدري بعد أن أصبح مرضاً متوطناً. أو ربما كانوا ضحايا مؤامرة، مثلما حدث فى أواخر أيام حكم أبيهم؟ فجاء دفنهم فى وادى الملكات كحل سهل وسريع، إذ كان عمال دير المدينة على مقربة من هذا المكان.

بل إن أحدهم قد ظل على قيد الحياة، وظلت مقبرته فارغة، بعد أن حفرت دون جدوى. إذ لم يبق ست حرخيشف على قيد الحياة فقط، بل تربع على عرش مصر، بصفته رمسيس الثامن^(**).

وربما سيأتى اليوم الذى يُفك فيه لغز هؤلاء الأمراء الخمسة.

فالوزير تا هو الذى كلّفه رمسيس الثالث بتشييد هذه المقابر الخمس المنحوتة فى الصخر.

(*) المقبرة رقم ٤٣. وادى الملكات. (المترجم)

جميع أرقام هذه المقابر منقولة عن:

(المترجم) Ch. Leblanc: Nefertari. Ed. du Rocher. 1999. p.95

(**) لمزيد من التفاصيل حول هذا الفرعون راجع:

(المترجم) Claude Vandersleyen: l'Egypte et la Vallée du Nil, Tome 2. PUF, 1995, pp.634-635.

فعلى أوستراكون وهو من مقتنيات المعهد الشرقي في شيكاغو -Oriental Institute of Chicago، عُثِرَ على نسخة من الخطاب الذى أرسله من بير المدينة، الكاتب نفروحتب المشرف على مواقع العمل، إلى الوزير:

إنى أعمل فى مقابر الأمراء الملكيين التى أمرنى سيدي بتشبيدها. أجل، إنى أعمل عملاً جيداً على أكمل وجه وبطريقة مفيدة. إنه إنجاز جميل وفعل. وعلى سيدي ألا يسمح لقلبه أن يقلق. حقاً، إنى أعمل بامتياز، ولا أقصر فى شيء على الإطلاق.

وأبلغ سيدي رسالة أخرى: إننا نفتقر إلى كل شيء. لقد نفذت كل المؤن التى كانت فى الخزانة وفى الشونة وفى المخازن، فليس من الأمور السهلة أن يرفع المرء الحجر لمن. لقد سحبت منا ستة مكابيل من الحبوب وأعطينا ستة مكابيل من التراب. فليوفر لنا سيدنا معاشنا لنبقى على قيد الحياة. حقاً، إننا نموت، فلم نعد نحيا. قدّموا لنا وسائل الحفاظ على حياتنا، بأى شيء كان^(١٢٥).

هذا الالتماس المقدم على الطريقة الشرقية، بقدر كبير من الحدة، قد لقي على ما يعتقد أنذا صاغية، إذ شيدت المقابر الخمس المحفورة فى الصخر. كان الوزير قد شخصاً عظيم الشأن، عاش فى كنف رمسيس الثالث. وبالإضافة إلى مناصب الوزير المعتادة، كان «رئيس الأسرار فى معبد نيت». وكان نجم هذه الآلهة بمدينة سايس^(*) فى الدلتا قد أخذ يعلو.

ومن شخصيات هذا العهد الأخرى، نذكر پاسر، وكان «عمدة طيبة، وأبا إمون صاحب اليدين الطاهرتين، ورئيس أعياد إمون، وحارس أسرار السماء والأرض والعالم الآخر المقدسة. إننا نعرفه معرفة جيدة إلى حد ما، بفضل نقوش ورسومات المقبرة التى أمر بتجهيزها فى مدينة هابو^(١٢٦). ومن بين المشاهد المصوّرة، يشد أحدها اهتمامنا، إنه يبرز الملك جالساً على عرش، فى مقصورة مصنوعة من مواد خفيفة، بينما تُقدم له ستة تماثيل ملكية، إبان الأعياد التى جرى الاحتفال بها فى

(*) التصحيف اليونانى، للاسم المصرى القديم: ساو، وصا الحجر حالياً، شمال كفر الزيات. (المترجم)

الأعوام ٢ و٣ و١٨ من عهده. ويقدم **رعسيس** البخور والماء الطهور للتماثيل. ولا شك، أننا نشاهد هنا أحد مظاهر شعائر العبادة التي تقام من أجل أحد ملوك **الرعامسة** من قبل الملك شخصياً، على طريقة **رعسيس** الثاني. كما يبرز هذا المشهد سمة أخرى من سمات ملوك **الرعامسة**. فيقدم الإله **الليل** قرباناً إلى الملك، وتصاحبه إلهة الحصاد **رتن** وقت التي تقدم للملك عصا احتفالات **اليوبيل** وعلامة الحياة. إن **رعسيس** هو ملك الوفرة الذي تحميه آلهة الخصب.

وتعبيراً عن شكره، يقوم **رعسيس** الثالث بالثناء على **پاسر** وامتداحه، مناشداً الآلهة أن تمنحه بركاتها:

فليمنحك **أمون** و**آتوم** نعمهما.

فلتمنحك **آلهة السماء** نعمها.

فلتمنحك **آلهة الأرض** نعمها.

فلتمنحك **آلهة الفرعون**، سيّدك الأكمل، نعمها.

إنه مثال رائع «لارتقاء» رجل، عُرِف عنه نفعه وتأثيره المبارك (١٣٧)...

بعد التضرع إلى كبرى آلهة **طيبة** و**هليوبوليس**، يناشد جماعة الآلهة المنتسبة إلى كبرى عناصر الكون، لصالح **پاسر**: السماء والأرض و**الفرعون**. ويظل الزهو سمة من السمات البارزة للملوك **الرعامسة**، بصفتهم آلهة، وسط غيرهم من الآلهة.

وظل نواب الملك في **النوبة** يتعاقبون أباً عن جد، فبعد **كاوا** شغل ابنه **حوري** الأول هذا المنصب، ثم خلفه **حوري** الثاني وهو ابن نائب الملك السابق، وسيظل يشغل هذا المنصب في عهد **رعسيس** الرابع. واستناداً إلى المصادر التي في حوزتنا يتضح أن حكم بلاد **الجنوب** لم يثر أى مشاكل..

ومن بين المهندسين والرؤساء المشرفين على الأعمال يبرز اسم **أمن موسى**. فقد عهد إليه **رعسيس** الثالث، على ما يظن، بتأسيس مدينة جديدة إلى الشمال الغربي من **الدلتا**، صنواً لمدينة **پر - رعسيس**، لتواجه الأراضي الليبية (٩). فكما كان **رعسيس** الثاني قد شيد مدينة عاصمة في الشرق، لتواجه **أسيا**، فإن **رعسيس**

الثالث وكان قرين الملك العظيم(*) وواحدًا ممن خلفوه، هل فكّر في تأسيس مدينة أخرى، لتواجه الغرب وليبيا؟ هكذا فربما شُدَّت الحراسة على الإمبراطورية عند منطقتين حدوديتين، أثبتت الأحداث أنهما كانتا تشكّلان تهديدًا خطراً، وربما استطاعت قوة مصر أن تُبقي على توازنها في هذين الاتجاهين الرئيسيين. ولكن معلوماتنا حول هذا الموضوع ليست ذات بال، ونستمدّها مما نقوله مدونة منحوتة على تمثال أمن موسى، وهو من مقتنيات متحف القاهرة في الوقت الراهن:

كنت رئيس الأعمال في نا - إمن - رع، قرب نهر - الغرب، الذى كان عبارة عن مستنقعات. وشييت معابد ومقاصير، لتأسيس أماكن للإله آمون^(١٢٨).

وربما قام أمن موسى بإعداد مساحة من الأرض، ظلت حتى الآن تغطيها المستنقعات. وشرع في تشييد أماكن لعبادة آمون. وكانت نا - إمن - رع معروفة منذ عهد رمسيس الثانى باعتبارها مركزاً لزراعة الكروم، ومن ثم فقد أراد رمسيس الثالث أن يقيم بجوارها مدينة جديدة(٩). كما أن نهر - الغرب، هو اسم مكان، يمكن أن نحدد موقعه إلى الشمال الغربى من الدلتا.

ولا توجد تحت أيدينا، فى الوقت الراهن، معلومات أخرى حول مشروع التشييد هذا.

أما أمن خعو، رئيس حرفيّ معبد رمسيس الثالث الجنازى، فربما كانت منف موطنه الأصلي. وقد أمر أن يُصور فى مقبرته فى طيبة، فى صحبة ابنه وأمه وزوجته وهم يتعبدون للإله پتاح والإلهة سخمت، فيرفع إليهما صلاة محرّكة للمشاعر:

التحية لك يا پتاح، يا رب الحقيقة والعدالة، يا ملك القطرين، وصاحب الوجه الجميل، يا أبا الآلهة الذى رفع السماء، وحدد الأراضى الخصبة، وخلق كل ما يوجد، وشكّل البشر، وخلق الآلهة. فبأنامله يستدعى، على مرّ الأيام، كل الكائنات إلى

(*) الذى كان قد توفى قبل ربيع قرن تقريباً. (المترجم)

الحياة^(١٣٩) (*). إنه يضع النور فى السماء، والخصب فى التربة والنصر فى الجبابة.

ليتنى أرافق سوكان^(**) فى روستاى وأوزيريس فى بوزيريس^(***)، وتُعطى لى
أرغفة خبز القرابين فى معبد پتاح وماء المسكوبات الطهور والزهور فى هليوبوليس.

من أجل كا الأوزيريس^(****): آمن خصو رئيس حرقى المعبد الملكى.

(ومن أجل) ابنه چموتى إم حب الكامن الطامر (للإله) آمون.

(ومن أجل) والدته ماعت نفرت، منشدة آمون.

(ومن أجل) زوجته، نفرتارى إم حب، منشدة آمون^(١٤٠).

إننا أمام مثال جيد للترابط العائلى المحبب إلى قلوب المصريين. إن الترتيب
الوارد فى هذا الإعلان يعكس بكل وضوح أهمية كل فرد من أفراد العائلة حسب
درجة القرابة. كما أنه مثال جيد، يكشف عن حياة أحد رؤساء الحرقين، الذى يختار
مسار حياته المهنية فى طبية، موقع العمل الكبير، حيث تتوفر فرص العمل، بينما
انخرط جميع أفراد العائلة فى سلك كهنوت طيبة.

هكذا، كانت مصر قد استعادت حياتها الطبيعية، ليعيش أبناؤها حياة طمأنينة
تتوفر لها راحة البال. ولكن الأيام الأخيرة من عهد رمسيس الثالث، كدرتها مشاكل
داخلية لا حصر لها.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) إله قديم لمنطقة ملف وراعى صواغ الحلى. راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية،

ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ص ١٨٤-١٨٥. (المترجم)

(***) الاسم اليونانى للمدينة المصرية القديمة، چلى، وهى أبوصيرينا حالياً، جنوب

سمنود. (المترجم)

(****) اعتباراً من الدولة الوسطى سيصبح جميع الموتى أوزيريس.

(المترجم) M. Damiano-Appia, L'Egypte. Dict. encyclopédique. Gründ. 1999. p.209

الصعوبات والمؤامرات عند نهاية هذا العهد

يبدو أن مؤامرة أولى كان قد حاكها وزير مصر السفلى، فحاول القيام بانقلاب للاستيلاء على السلطة في أتريس، وقد ساعده على ما يعتقد، أهل المدينة الذين احتلوا معبد حورس وطردوا منه هيئة العاملين به، وحاولوا تدبير شئون الأملاك. ولكن جاء رد فعل رمسيس صارماً قاطعاً.

لقد طردت الوزير الذي سبق أن توغل بينهم^(١٤٠)، وقبضت على كل الرجال الذين كانوا معه. ومن جديد جعلت المعبد مماثلاً لكبرى معابد هذا البلد، (جعلته منيعاً ومحميّاً للزمن اللانهائي. وأعدت إليه هيئته من العاملين الذين سبق أن طردوا منه، (أعدت) كل امرئ، وكل رئيس، لينظموا مجدداً إدارة الأملاك المقدسة^(١٤١).

وإن كان هذا التنويه مقتضباً، فإنه يوحى بوجود اضطرابات خطيرة. وعلينا التريث حتى نصل إلى اكتشاف محتمل لوثائق جديدة تميط اللثام عن الأسباب الحقيقية وراء هذه الأحداث، وربما عرفنا أيضاً تفاصيلها.

إن مؤامرة أخرى حيكت خيوطها في حريم رمسيس، نعرفها معرفة أحسن، بفضل النص الذي يحتفظ به عدد من البرديات، وعلى رأسها بردية تورينو القضائية، ولكن أيضاً برديتي لي و رولان Lee et Rollin. كما نعرف ما وقع من أحداث بفضل المدونة التي وصلت إلينا، بعد أن نسخها في النوبة الرحالة ريفو Rifaud، في مطلع القرن التاسع عشر، فاستطعنا الوقوف على ما حدث من وقائع. وربما كانت هذه المدونة عبارة عن تقرير أو تحقيق قضائي مع عدد من الأفراد المنعوتين «بالجرمين» و«المنبوين من آلهة البلاد»، وكانوا قد تحالفوا لتدبير تمرد ضد رمسيس الثالث^(١٤٢).

(*) أى بين أبناء المعبد. (المؤلفة)

وعلى ضوء هذه النصوص المختلفة يتضح أن إحدى الملكات المدعوة قبي، قد تأمرت بغرض تمكين ابنها **يقتامور** من اعتلاء عرش البلاد. فدبرّت مؤامرة بمعاونة عشرة موظفين من الحريم، وأربعة من السقاة الملكيين، وخازن ملكي، وضابط من سلاح حملة الأقواس في **كوش**، وقائد في الجيش، وثلاثة كتبة ملكيين على وجه التحديد، فكانوا جميعاً من أصحاب الرتب الرفيعة في حاشية الملك، ويكشف وجودهم إذن عن خطورة هذه المؤامرة ومدى اتساعها. كما وُجد من بينهم بطبيعة الحال بعض مراقبي وكتبة الحريم. ويعتقد أن زوجات هؤلاء الموظفين في الحريم - وكان عددهن سناً - قد قُمن بتأمين انتقال الرسائل إلى أشخاص آخرين من خارج البلاط الملكي لم تُذكر أسماءهم. فمن المعتقد أن ثورة من خارج القصر، كان مقدراً لها أن تتزامن مع هذه المؤامرة الداخلية. وانصرف أفراد الحريم إلى ممارسات سحرية محظورة. فبواسطة تماثيل من الشمع، أمكن التأثير تأثيراً سحرياً على الأشخاص المطلوب السيطرة عليهم أو التخلص منهم. ولكن ارتكبت خيانة كشفت سر المتآمرين، من خلال ضبط بعض الخطابات، على ما يظن. ومن الراجح أن **رهمسيس الثالث** لم يُقتل (؟) فقد ذكرت بردية **رولان** أن «**رع** لم يسمح بنجاح المخططات الضارة»، ولكن الشكوك تظل تراودنا. فمن المحتمل أن آخرين غيره قد نظّموا حملة قمع رادعة، وأن المقصود ما أنزل من عقوبات بعد وفاته.

وأياً كان الأمر فقد تم القبض على المتهمين، وأحيلوا للمحاكمة أمام محكمة ذات سلطات استثنائية، وإذا أخذنا بالافتراض الأقرب إلى الصواب لقلنا إن الملك شخصياً هو الذي أمر بتشكيل هذه المحكمة. كانت تضم أربعة عشر موظفاً: اثنين من كبار مديري الخزينة، واثنين من حاملي البيارق في الجيش، وسبعة من السقاة الملكيين، وأحد الحجاب الملكيين، واثنين من الكتبة. وكان من بينهم أحد الليبيين، وأحد أبناء **لوكيا**، وأحد السوريين، وهو ما يوضح الطابع «الإمبراطوري» للمقربين من **رهمسيس** وانتماءهم إلى مختلف الأوطان. ومن جانب آخر، فإن اثنين من القضاة وهما **الساقى** **بيبس** والكاتب **ماي** كانا على اتصال باثنين من الضباط المكلفين بحراسة الأسرى، بل واستقبلا في منزلهما بعض زوجات المتآمرين. واكتشفت خيانة

الأربعة، وألقى القبض عليهم. وجُدعت أنوفهم وقطعت أذانهم ليُحرموا من نسمات الحياة وليُمنعوا من الاتصال بالعالم، أما **بييس** فقد انتحر.

وحُكم على المتآمرين بالإعدام. ومع ذلك فقد تُركت لهم حرية اختيار الانتحار. ولانعرف مصير الملكة **تثي** التي أُحيلت إلى السلطة القضائية للملك شخصياً أو ربما إلى من خلفه(؟).

وفى عداد المتآمرين، نذكر «المجرم الخطير **إيروى** الذى كان كبير الكهنة الأطهار للآلهة **سخت** - **باسقت**». وقد ذكرت هذه الإفادة فى بردية **تورينو**. وبالنسبة فإنه الشخص نفسه الذى كان قد أمر بكتابة الترانيم الجميلة من أجل الملك^(١٤٣).

وإذا كانت رواية هذه المؤامرة والعقاب الذى أنزل بالمشاركين فيها قد نُحتت فى **كوش**، ثم جاء **ريغو** لينسخ نصها دون الإشارة إلى مصدرها الأصلي، فسبب ذلك أن أحد المتآمرين وهو **بين** - **إم** - **واس** كان قائد حملة الأقواس فى السودان. فقد اتُّهم بتلقى تعليمات من أخته، من سيدات الحريم، بأن «يجند الرجال ويحرض على التمرد، ثم يأتى (إلى مصر) لإثارة أعمال العصيان ضد صاحب الجلالة». ولما كان السودان ميّالاً على الدوام إلى التمرد، فقد كان رافداً يعظّم من فاعلية «الثورة» المصرية. كانت المؤامرة تدبيراً انتشر على نطاق واسع. ومن ثمّ، ما إن تم إخماد التمرد وصدور الأحكام فى القضية، فمن المحتمل أن نسخة من النص المتضمن قائمة العقوبات التى أنزلت بالمتهمين قد نقشت على صخرة أو جدار معبد، فى المدينة ذاتها التى شهدت ميلاد التمرد، لتلقين درس يكون رادعاً لغيرهم من المتآمرين المحتملين.

وتشدد أسماء بعض المتآمرين انتباهنا ونذكر فى المقام الأول اسم **بين** - **إم** - **واس** الذى يعنى «**الخسيس فى طيبة**». ونُحتت خمسة أسماء أخرى بالطريقة نفسها، تعبيراً عن نظرة الآلهة والبشر إلى هؤلاء الأشخاص باعتبارهم «ملعونين»، ومن ثمّ حرمانهم من أية فرصة للبقاء على قيد الحياة بعد الوفاة. وهذه الأسماء هى: «**رع** - **يكرمه**» و«**رع** - **يُعميه**» و«**بين حوى** - **الخسيس**» و«**الشعبان** - **الشیطان**» و«**الإنسان** - **نو الأذنين المقطوعتين**». إن عقوبة تبديل الاسم لم ترد ضمن الجزاءات التى حكم بها القضاة. ويعتقد أنها طُبقت على المتهمين قبل محاكمتهم. فكانت نتيجة طبيعية أبدية

للحكم بالإعدام. هكذا كان موتهم موتاً إلى الأبد^(١٤٤)، فالنطق باسمهم باعتباره اسماً ملعوناً، هو فى الحقيقة مساوٍ لإعدامهم.

ومن ثم فقد، انتهى حكم رمسيس الثالث نهاية حزينة وصعبة. انتهى حكم من أنقذ مصر من أخطار بالغة، وظل فى الكثير من أفعاله وأفكاره، «خليفة»^(*) رمسيس الثانى، كما كان فى واقع الأمر آخر الفراعنة العظام الذين حكموا مصر القديمة.

سادساً، من رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادى عشر.

الانحطاط البطيء

سلسلة الرعامسة

حول عام ١١٦٦ ق.م، خلف رمسيس الرابع أباه رمسيس الثالث. كان ابن «الزوجة الملكية العظيمة» إيزيس، ففى بردية هاريس Harris التى حررها رمسيس الرابع، تكريماً لما قام به والده من أعمال، يضع الملك على لسان رمسيس الثالث صلوات محرقة للمشاعر تُبلِّغ الآلهة والبشر بأنه اختاره ليخلفه على العرش. هكذا تسبغ عليه الآلهة الشرعية ولكن بناءً على تدخل أبيه.

ولذلك يتم مناشدة الآلهة:

پتاح:

أعطنى عينيك وأذنك، يا سيدى پتاح، يا أبا الآباء، الذى شكل التاسوع.
أنصت إلى التبرير الذى قدمته أمامك. أنا ابنك المحبوب الذى بذل لك إنعامات عظيمة.

(*) من الناحية المعنوية، إذ كان ترتيبه من الناحية الفعلية، تاسع الفراعنة الذين حكموا مصر بعد رمسيس الثانى. (المترجم)

لذلك، اتخذ ابني ملكاً، وأقمه على عرشك بقوة وثبات، على رأس الشعب، بصفته حاكم البلاد قاطبة، (أقم) **أوسر ماعت رع - المصطفى من آمون**^(١٤٥)، الصبى الذى من صلبك. اسمح بأن يُتَّوَّج على الأرض، مثله مثل ابن الإلهة **إيزيس**، عندما تناول التاج **أتف**، المحمل بالزَّين^(٩). اسمح بأن يتربع على عرشه فى سلام، بصفته ملك **القطرين**، مثل **حورس الثور القوى محبوب ماعت**. أعطه مُلكى، كما ستقيم من أجله أيام حياة سعيدة، مفعمة بالبهجة والسرور. اجعل سيفه منتصباً، فتسقط الأراضى والبلدان الأجنبية تحت نعليه، طالما دام الزمن الأبدى. اسمح له أن يضم مصر بصفته حاكم **القطرين**، وأن يصبح إلهياً أمامك، ومفعماً بنعمك. ومن أجله، وسَّع حدود شعوب **الأقواس التسعة**، لتأت بسبب قدرته وليكثروا له من التهليل. واجعل الحياة والقوة تتحدان فى أعضائه، ولتكن الصحة من نصيب جسده، فى كل فصول (السنة)^(١٤٥).

الصلاة جميلة حقاً، ولكن قدرتها على إثارة النفس تتضاءل إذا عرف المرء أنها من تأليف وريث العرش شخصياً!

كما وُجِّهت تضرعات إلى الإله رع^(١٤٦) ومجموع الآلهة للغرض نفسه^(١٤٧).

ونلمس الورع ذاته فى هذه التمنيات من أجل سنوات حكم سعيدة، التى نقلتها إلينا بردية **هاريس Harris**.

من **رمسيس الثالث** المتوفى إلى ابنه:

انظر، فابنى أُرقد الآن فى العالم الآخر، مثلى مثل أبى رع. لقد اندمجت فى **التاسوع الإلهى العظيم**، فى السماء والأرض واللدوات، بينما يقوم **آمون - رع** بتنصيب ابنى على عرشى. إنه يتسلم وظيفتى فى سلام، بصفته حاكماً **للقطرين**، جالساً على عرش **حورس**، بصفته رب **الشباطين**. لقد اتَّحد به التاج **أتف**، كما (يتحد

(*) سقې إن آمون بالمصرية القديمة. كان رمسيس الثانى يلقب أوسر ماعت رع - سقې إن رع، أى أن آمون حل محل رع. (المترجم)

بالإله) تاتان، إنه أوسر مامت رع - المصطفى - من - أمون، وابن رع البكر الذى أنجبته هو شخصياً، إنه رمسيس - حاكم - الحقيقة - العدالة - و - محبوب أمون(*)، إنه غلام، ابن أمون ومن صلبه، إنه المتزوج رب القطرين، مثل تاتان، إنه ابن بار، محل مديح أبيه(**).

المسوا نعليه، اسجدوا بين يديه، انحنوا أمامه، اتبعوه فى كل لحظة على مدار الأيام، اعبدوه، عبّروا له عن الشكر والحمد، أشيدوا بكماله، كما تفعلون من أجل رع، عند مطلع الفجر. قدموا له جزييتكم فى قصره المهيب. فلتُجلب له منتجات وأطعمة الأراضى والبلدان الأجنبية. تدبّروا أقواله والأوامر التى يُصدرها إليكم. أطيعوا أقواله فتزدهروا لقبولكم قدرته. اعملوا من أجله كرجل واحد فى كافة أنشطته. شيدوا من أجله المعالم الصرحية وشقوا من أجله القنوات، ولتنجز أيديكم أشغالكم من أجله. هكذا تنهال عليكم إنعاماته وتتجاوز الأطعمة حاجتكم على مرّ الأيام. لقد أصدر أمون مرسوماً يحدد حكمه، وضاعف من أجله مدة حياته، لتصبح أطول من أى ملك آخر(١٤٨).

هذه النصوص التى تؤكد على شرعية رمسيس الرابع وتقدم التمنيات التى أعلنها أبوه رمسيس الثالث - وإن بعد وفاته - تعكس الصعوبات التى لازمت موضوع وراثة العرش، فى وضع شديد الاضطراب.

سوف يدوم حكم رمسيس الرابع ست سنوات تقريباً. وعند وفاته سوف يحل ابنه رمسيس الخامس محله، ليديم حكمه أربع سنوات. وبعد ذلك تربع على العرش ابن آخر للملك رمسيس الثالث والملكة إيزيس، هو رمسيس السادس. وكان عهده

(*) إنه اسمه بصفتة ابن رع والذى حمله منذ ولادته، فيقال له بالمصرية القديمة رمسيس - حقا مامت - مرى أمون. (المترجم)

(**) الملك الجديد، هو إذن ابن الآلهة الثلاثة الكبرى فى مجمع آلهة الرعامسة، ومن ثم فقد اكتسب حقوقاً لا جدال فيها فى تسلم تاج البلاد. (المؤلفة)

قصيراً. ويبدو أن العائلة المالكة كانت تتكون من فرع رئيسى يضم ذرية **رهمسيس** الثالث والزوجة الملكية العظيمة **إيزيس**، ومن فرع ثانوى يضم ذرية **رهمسيس** الثالث أيضاً وربما الملكة **تيى** وابنها **پنتاور**. ولكن ما زال كل ذلك غامضاً^(١٤٩). وعلى كل حال فبعد **رهمسيس** السابع الذى حكم البلاد لمدة سبع سنوات، جاء **رهمسيس** الثامن، ابن **رهمسيس** الثالث و**إيزيس**، وهو ليس سوى الأمير **ست حر خيشف** الذى كانت مقبرته قد حفرت مبكراً فى **وادي الملكات**^(١٥٠). وكانت سنوات حكمه قصيرة جداً.

وسوف يحكم البلاد ثلاثة آخرون يحملون اسم **رهمسيس**^(*) لفترة خمسين سنة، لتتقرض رسمياً سلالة **الرعامسة** حول عام ١٠٨٥ ق.م.

عهود بلا أمجاد

ولما كان **رهمسيس** الرابع ما زال يحكم فى ظل أبيه فقد أمر بنحت أحد مشاهد الطقوس المقدسة لتتويجه، على جناحى الصرح الأول من معبد **مدينة هابو**. إنه مشهد الشجرة **إيشد**، شجرة **هليوبوليس** المقدسة^(**)، التى جرى العرف بأن تدون عليها أسماء الملوك.

فعلى الجناح الشمالى^(***)، يقوم **أمون - رع** و**پتاح** باستقبال الملك راكعاً، ويصطحبه **تحت** كاتب الآلهة و**سيشات** إلهة الكتابة.

أمون - رع:

أنا أبوك المهيّب، أنا سيد الآلهة، الذى يحبك أكثر من أى ملك آخر. إنى أعطيك الزمن الأبدى، بصفتك ملك القطرين.

(*) وهم على التوالى **رهمسيس** التاسع والعاشر والحادى عشر. (المترجم)

(**) ربما كانت شجرة **پيساء**. (المؤلفة)

(***) ويقع على يمين الداخل إلى المعبد. (المترجم)

بتاح:

إنى أعطيك أعياد يوبيل متعددة وعظيمة والزمن اللانهائى، فى البسالة والقوة،
(أعطيك) انتصارات ابن نوت^(١٠)، ومُلك حورس فى مدينة به، والأرض قاطبة تحت
نعليك.

تحوت:

إنى أنون من أجلك السنين بالملايين وأعياد اليوبيل. إنى أعطيك الزمن
اللانهائى بصفتك ملكاً، فالبلاد تحت نعليك، والدائرة الكبيرة والمدار الكبير فى
قبضتك، محملة بالجزية...

سپشات:

إنى أكتب لصالحك أعياد يوبيل رح، وسنوات أبدية ولا نهائية بصفتك ملكاً،
ومدة حياة مثلها مثل مدة حياة أتوم، وانتصارات وقدرة حورس وست، بقدر ما
يحالف التوفيق السماء^(١١).

وعلى الجناح الجنوبي، يقوم ثالوث طيبة فى حضرة أتوم باستقبال الملك راکعاً.

أتوم:

إنى أنون اسمك من أجلك على الشجرة المقدسة، طالما ستظل السماء راسخة
على الدعائم الأربع، وفى ذات الوقت (أدون) أعياد يوبيل تاتن ومدة حياة رح فى
المنطقة العليا، للزمن اللانهائى^(١٢).

(*) أى ست. (المؤلفة)

ويظل رمسيس الثانى النموذج الآخر المهيّب، والدليل الحى على السعادة التى عمت فى عهده، فيريد كل فرعون جديد أن يحذو حذوه، ويطالب الآلهة على وجه التحديد، أن تمنحه مدة حياة مثل سلفة المجيد. فعلى لوح حجرى يكرسه رمسيس الرابع للإله أوزيريس فى إبيدوس، فى العام الرابع من عهده، أمر بتدوين النص الآتى:

إبنى آت إلى جوارك، فانت الذى أنجيتنى. ليتك تُنعم على بالبركات كما تفعل مع ابنك حورس... أعطنى الازدهار والحياة، حياة مديدة وملكا يدم طويلا، (أعط) الصلابة والحيوية لكل أعضائى، والبصر لعينى وقدره السمع لأذنى والنعمة لقلبى، على مدار الأيام. أيا أنت، وفر لى أن أكل كفايتى، وأتح لى أن أشرب قدر استطاعتى. ليتك تقيم نُريتى ملوكا فى هذا البلد، لفترة تدوم قدر دوام الزمن الأبدى والزمن اللانهائى. ليتك تعطينى أنهر فيل عظيمة، لأتمكن أيضا من توفير قرابينك الإلهية، وتوفير القرابين الإلهية لجميع آلهة وإلهات مصر العليا ومصر السفلى، وتوفير معيشة العجول المخصصة للآلهة، وتوفير معيشة شعب هذا البلد بأكمله، وحتى أقصى حدوده، بعد أن تجمعت ماشيته وقطعانه، فقد خلقتهم بيدك... وطوال عهدى، سوف تكون راضيا عن هذا البلد مصر، بلدك أنت. لذلك، فإن فترة الحياة المديدة والحكم المديد (للملك) أوسر ماعت رع - ستب إن رع^(١٥٢) الملك العظيم، سوف تضاعفها من أجلى... فما فعلته لمعبدك، ولتوفير قرابينك، ولاغتنام الفرص للقيام بأعمال خيرة من أجل معبدك، يوما بعد يوم، على امتداد السنوات الأربع التى مضت، أكثر فائدة مما فعله الملك أوسر ماعت رع - ستب إن رع، الإله العظيم، طوال ٦٧ سنة من حكمه^(١٥٣)!

(*) لقب رمسيس الثانى، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

وبطبيعة الحال، فإن هذا الحديث ليس سوى لغة شكلية بعيدة عن أى مضمون، تلوكه السنة أسرة حاكمة، أنهكت قواها، وأخذت تبحث عن أمثلة لأمجاد تليده، فى العهود الملكية التى سبقتها.

ومن جانب آخر، نلتقى بهذا الأسلوب الشكلى نفسه الذى تحتفظ به فى الكرنك مدونة منحوتة على ما تبقى من لوح حجرى، عُثر عليه أمام الصرح العاشر. يقول النص:

...المنصب الذى وهبنى إياه بالكامل^(*) بصفة فريدة، والذى سبق أن اضطلع به أوسر مامت رع - ستپ إن رع، سوف أعيش (مدته). أما أنا، فسوف أضاعف من أجلك كل الأفعال الخيرة التى حققها من أجلك أوسر مامت رع - ستپ إن رع، طوال حكمه الذى دام ستاً وستين سنة^(١٥١).

ويظل رعمسيس الثانى، فى نظر كل من خلفوه، حتى البعيدين عنه، المثل الأعلى للملك الكامل الذى لا نظير له.

ويبدو مع ذلك أن تتويج رعمسيس الرابع قد قوبل بالبشر والترحاب، بعد هذه السنوات من المشاكل الداخلية، وأن الملك الجديد قد استطاع أن يعيد إلى البلاد تماسكها وترباطها، إلى جانب بعض الثقة فى السلطة الملكية. إن نص ترنيمة إلى العامل الملكى، مدونة على أوستراكون يحتفظ به متحف تورينو فى الوقت الراهن، يقدم وصفاً لمظاهر البهجة الشعبية والرقص وصيحات الفرح التى شهدتها البلاد يوم التتويج، فكان عيداً تصاحبه، على الأرجح، هبات وإنعامات ملكية كتوزيع الطعام والشراب والثياب وإصدار عفو عام.

(*) الكلام الموجه إلى أمون - رع. (المؤلفة)

يا له من يوم سعيد! فالسما والارض فى فرح، لأنك سيد مصر العظيم.
فمن كانوا قد هربوا، عادوا إلى مدنهم. ومن كانوا قد اختبأوا ظهوروا من
جديد.

ومن كانوا جوعى يأكلون كفايتهم، ومن كانوا عطاشاً، هم الآن سكارى.
ومن كانوا عرايا يلبسون أرق أقمشة الكتان، ومن كانوا يرتدون الأسمال
اكتسوا بملابس بيضاء.
ومن كانوا فى السجون أخلى سبيلهم إلى الخارج، ومن كانوا تعساء هم فى
فرح وسرور.

ومن كانوا ينشرون الاضطرابات فى البلد صاروا ودعاء، وفيضان النيل بعد
أن تدفق (من منابعه) سوف يمر الآخرين [أى الأجانب].
والأرامل، فتحت بيوتهن (استعداداً لاستقبال؟) المسافرين.
والفتيات يتهللن فرحاً، ويطلقن صيحات البهجة ويرقصن، بكامل زينتهن.
والأولاد الذكور المولودون فى هذا اليوم، لحسن حظ الزوجين، سيصبحون
أجبالاً جميلة وموفقة.
أيها الملك! سوف تكون أبدياً.

وتسعد السفن (المبحرة) ... وترسو بفضل الرياح (المواتية) وبمساعدة
مجاديفها، بعد أن غيرت اتجاهها، وأخذت كفايتها من العواصف.
والملك... تسلم التيجان من والده، فقد أعلن سيد القطرين... إن حورس جميل
على عرش أبيه آمون رع. فمرحباً ببسالة الملك (١٥٥).

صحيح أنه يوم عيد ورجاء وأمل. ولكن الرهامة الكبار لم يعد لهم وجود.

كان رمسيس الرابع ملكاً بناءً، ولما كان تَوَاقُفاً إلى التوسع فى ازدهار البلاد،
فقد نظمَ عدداً من الحملات إلى وادى الصمامات وإلى سيناء.

إنه الملك الذى ساهم أكثر من غيره فى استغلال وادى رومانو، بوادى
الصمامات. فمنذ العام الأول من سنوات حكمه، وإبان فصل الربيع، أرسل أولى
البعثات التى نعرفها بفضل اللوح الصخرى المنحوت من أجل أوسر مامت رع - نخت
أى رمسيس الثانى قوى. يا له من اشتياق يفيض حناناً إلى هذا الفرعون العظيم!
يقول نص اللوح:

إن سيدى، حاكم الحقيقة والعدالة، العاقل الملكى ابن الآلهة، قد أرسلنى فى
العام الأول من عهد الملك لإحضار تماثيل كبيرة من الحجر بيخن^(*) مستخرجة من
الجبال الخفية الواقعة عند مشارف كويتوس^(١٥٧).

وبعناية شديدة تم بالتفصيل توضيح تشكيل الحملة، فتضم قائداً من الحاشية
الملكية وكاتباً للمؤن الغذائية وكاهناً من معبد مين ورئيس نحاتين^(**) وعشرة نحاتين
وعشرين قاطع أحجار وعشرين محاي^(***) وخمسين من حاملى الأحجار وأربعة من
رؤساء حملة الأقواس والتروس، ومئة من حاملى الأقواس المزودين بالتروس ومئتى
حمال. إنها إذن حملة على قدر كبير من الأهمية، ترافقها قوات من الشرطة والجيش.
وجرى تأمين إمدادهم بالطعام: «هذا ما أُعطى لهم، عشرة أرغفة وثلاثة أباريق جعة
واثنتى عشرة قطعة لحم وثلاث قطع حلوى، طوال فترة مهمة». فإذا كانت هذه

(*) هل كانت هذه التماثيل الكبيرة مخصصة للشعائر الدينية الملكية التى سبق أن أقامها، على

ما يبدو، رمسيس الثانى لأول مرة؟^(١٥٦) (المؤلفة)

(**) حرفياً: «رئيس أولئك الذين يُحَيِّون الحجر». (المؤلفة)

(***) مرتزقة نوبيون يقومون بأعمال الشرطة. (المؤلفة)

الحصص من الطعام مخصصة ليوم واحد، تصبح مناسبة لعاملين يقومون بأعمال شاقة ومرهقة.

وبعد انقضاء خمسة أشهر، وعند نهاية فصل الجفاف، كُفَّ **توروي** كبير كهنة **مونتو** وهو من كبار الشخصيات الدينية في ذلك العصر، كُفَّ من قبل القصر الملكي بالتوجه إلى **وادي الحمامات**، للقيام على ما يعتقد بالترتيبات اللازمة لزيارة الملك شخصياً، والتي تمت بالفعل بعد ثلاثة أشهر.

وفي العام الثالث من عهد الملك، وبعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على إقامة **رهمسيس الرابع** في الجبل الشرقي، قام **رهمسيس** بنحت كبير كهنة **أمون** بالخروج بدوره على رأس حملة بالغة الأهمية إلى حد كبير، فكانت تضم أكثر من ثمانية آلاف رجل، والغرض منها إحضار كتل الحجر **بيخن** التي اختارها العامل الملكي.

وفي التاريخ نفسه، أي في العالم الثالث، والشهر الثالث تحديداً، من فصل الفيضان، وبأمر من **رهمسيس الرابع** أرسلت حملة أخرى إلى مناجم الفيروز في **سرابيط الخانم بسيناء**. والشاهد على هذه الحملة هو أساساً لوح حجري قام **سويك حوتب** بتدوينه:

أمر صاحب الجلالة أثيره ومحبيه الذي يملأ قلب سيده، المشرف العام على بيت الذهب وبيت الفضة، كاتم أسرار المقصورة المقدسة، (أمر) **سويك حوتب**، بأن يحضر الفيروز الذي يرغب قلبه، وذلك إبان حملته **الرابعة** (١٥٨).

تندرج هذه الحملة إذن، ضمن سلسلة من الحملات التي تبرهن أن **رهمسيس الرابع**، قد قام بنشاط مهم في مختلف محاجر مصر.

وفي العام الخامس أيضاً، وإبان فصل الجفاف دائماً، أرسلت حملة جديدة إلى **سرابيط الخانم**، بغرض تشييد بناية. ونقرأ على لوح **پانفر** الحجري:

أمر صاحب الجلالة ببناء معبد للملايين السنين، من أجل رمسيس - محبوب
- آمون - و - ماعت، في معبد حتحور سيدة الفيروز، (يقوم بتنفيذه) كاتب قائد
الجيش، بانفر، الذي كان ضمن الحملة وهو ابن ~~يا-إيري~~ (١٥٩).

وإلى عهد رمسيس الرابع تعود كسف متنوعة عُثر عليها أيضاً في سيناء.
إنها عناصر تبقت من أعمدة وأساور. ويبدو أن الحملات قد توقفت، بعد ذلك.
وبالفعل فقد تقلص الازدهار شيئاً فشيئاً، فلم تعد جزية بلدان الإمبراطورية
تُدفع، أو كانت تصل بطريقة غير منتظمة، فأصبحت مصر تفتقر إلى المال الضروري
لقيام حملات بعيدة إلى النوبة أو سوريا. فطوقت حلقة الفقر البلاد، وأهملت مصر
السفلى ومنف، وتوقفت كبرى أعمال التشييد.

إن الروابط التي أقامها التحامسة والرعامسة مع العالم الإفريقي والآسيوي،
على أسس راسخة أخذ عقدها في الانفراط، والإمبراطورية التي لم تعد تحافظ عليها
قبضة الفرعون - الجندي القوية ولا روحانية سامية تفتتت بالتدريج.

كان الرعامسة الأواخر ملوكاً ضعفاء، سيطر عليهم أشخاص مرموقون من
علية القوم في البلاد، وكانوا تحديداً من الشخصيات الدينية، فلم يعرفوا كيف
يتجنبون تسلل الأجانب إلى مصر كظاهرة متعاظمة. فالعصر لم يعد عصر الفتوحات
المجيدة والازدهار، إنه عصر سلسلة طويلة من ذرية تسير إلى الزوال، خارت قواها
فغرقت في العجز والخمول.

شخصيات سياسية ودينية

يُخيلُ لنا أن الحياة السياسية ظلت راکدة بعد الهزات العنيفة التي شهدتها في بداية عهد رمسيس الثالث ونهايته. ولكن ربما كان سبب ذلك عدد الوثائق القليلة نسبياً التي في حوزتنا. ويقتصر الأمر على التعبير تعبيراً روتينياً انطلاقاً من القوة الدافعة التي أطلقها الملوك الرعامسة الذين سبقوا رمسيس الرابع.

فيابان عهد هذا الأخير، كان أحد أبناء منف، وهو نفر رثيث(*) وزيراً وكبير كهنة پتاح، في أن واحد. وقد خلفه نحي ورمسيس نخت في عهد رمسيس السادس، والوزير خع إم واست في عهد كل من رمسيس التاسع ورمسيس العاشر، وإذ كان هذا الوزير قد حمل اسم ابن رمسيس الثاني الأثير، فإنه كان يفتقر إلى شهرته ذائعة الصيت.

وفي الجنوب ظل نواب الملك يتعاقبون في أغلب الأحوال، أباً عن جد، وخلفاً عن سلف. واعتباراً من رمسيس السادس أصبحت هذه الوظيفة وقفاً على عائلة واحدة هي التي ظلت تشغلها على امتداد أجيال ثلاثة، وحتى رمسيس التاسع(**). ولم يظهر ما يعكّر صفو هذه الحكومة التي افتقرت إلى روح التجديد والإبداع، ومع ذلك فقد ظلت بعيدة كل البعد عن السلطة المركزية.

ويظل الملك يعرب عن أمنيات ورعة عن عمر مديد، وضرورة دوام النظام الملكي، في حين بدأت تطل برعوسها قوى منافسة. هكذا فعلى قاعدة تمثال من البرونز عُثر عليه في مجلس ومن مقتنيات متحف أورشليم في الوقت الراهن، ويعود إلى عصر رمسيس السادس، نقراً:

(*) أى «عام سعيد»! (المؤلفة)

(**) حكم رمسيس السادس من ١١٤٣ إلى ١١٣٦ ق.م. ورمسيس التاسع من ١١٢٦ إلى

١١٠٨ ق.م. (المترجم)

طالما ستدوم السماء على سواعد النور، سيظل اسمك في هليوبوليس، أيها الملك...

فليحيَ الحورس صاحب القلب الذي يرضى بماعث مثل پتاح، ويقدمها إلى أئوم من أجل المعبد الكبير، (فليحيَ) ملك مصر العليا ومصر السفلى، الحاكم مثل رع، سيد القطرين (١٦٠)...

وظلت مجموعة الألقاب المدونة على المعالم الأثرية التي عثر عليها كثيرة غزيرة، إنها مناجاة مُسَهبة عن الوجود والاستمرار المرجو لسلطة الفرعون وسيادته، وإن بدتا باهتتين شاحبتين إلى حدٍ كبير، بالمقارنة مع الأمجاد المتأفقة لرهامسة الأزمنة الغابرة. وفي المقابل نشطت الحياة الدينية، وظهرت شخصيات قوية، ساهم تأثيرها ونشاطها شيئاً فشيئاً، في تفكك السلطة الملكية، بعد أن صارت بالغة الضعف وبلا موارد.

والمعابد وحدها ظلت تزداد ثراء على ثراء. ووُضعت قوائم للقرايين الجديدة. هكذا فإن القوائم الواردة في سياق نصوص معبد خونسو(*) التكريسية في الكرنك، والتي تعود إلى رمسيس الرابع، تذكر الآتي:

قرايين يقدمها الملك إلى جب وإلى التاسوع الكبير وإلى التاسوع الصغير وإلى معابد الجنوب وإلى معابد الشمال وإلى كافة الآلهة. قرايين يقدمها ابنك ومحبوبك سيد القطرين... إنها تنامز ألف رغيف خبز وألف إبريق جعة وألف عجل وألف طير من الطيور الدواجن وألف قطعة كتان وألف ثوب وألف حبة بخور وألف جرّة زيت وألف زهرة وألف عصفور وألفاً من كل شيء جيد وطاهر وألفاً من كل شيء جميل ورقيق. وتماماً كما أنك وضعت السماء، وخلقت الأرض وجلبت النيل من كهفه، جاعلاً مياهه غزيرة وطاهرة، كذلك فإن سيد القطرين... يقدم القرايين إلى أبيه أمون -

(*) القائم في الركن الجنوبي الشرقي من المعبد. (المترجم)

رع... إبنى أعرف من هم فى السماء وأعرف من هم فى الأرض وأعرف من هم فى
حورس، وأعرف من هم فى ست. إبنى أرضى حورس وعينيه، وأرضى ست الحُمْل
بميراثه، فأنا تحوت الذى يُرضى الآلهة. وأضع الأشياء فى المكان المحدد لها^(١٦١).

إنه تصريح هزيل عن القوة، من جانب ملك يتحصن وراء صيغ وعبارات لا
طائل منها.

وعلى الجدران القائمة أمام معبد مدينة هابى، أمر رمسيس بنحت قائمة
بالآلهة وبالمدين التى تُؤدّى فيها الشعائر، وتكشف هذه المدونة عن نص أُدخلت عليه
تعديلات كثيرة، مقارنة بالنص الذى كان رمسيس الثالث قد أمر بنحته على الجدران
الخارجية للمجموعة الجنائزية ذاتها^(١٦٢). وصارت طيبة تحتل الآن مكان الصدارة.
طيبة التى ستخرج عما قريب، منتصرة من الصراع الطويل الذى احتدم حول دائرة
النفوذ والتأثير منذ عدة قرون، ليضع كهنتها فى معارضة مضمرة مع سلطة العاهل
الملكى.

وبينما كانت ثروات كبار كهنة أمون تتضخم باستمرار، تزايدت فى الوقت
نفسه قدرتهم وقوتهم.

إن عائلة واحدة سوف تشغل منصب كبير كهنة طيبة منذ رمسيس الرابع
وحتى رمسيس الحادى عشر^(*): بدءاً من رمسيس نخت^(**)، ثم ابنه على التوالى،
نسى أمون^(***) وأمون حوت^(****).

(*) حكم رمسيس الرابع من ١١٥٢ إلى ١١٤٦ ق.م وحكم رمسيس الحادى عشر من ١١٠٥
إلى ١٠٧٨ ق.م. (المترجم)

(**) أى «رمسيس قوى». (المؤلفة)

(***) أى «المنتسب إلى أمون». (المؤلفة)

(****) أى «ليت أمون يكون راضياً». (المؤلفة)

لقد انحدرت هذا العائلة أصلاً من **هرموپوليس**(*)، مدينة الإله **تحوت**، حيث كان **مرى باستت**، والد **رمسيس نخت**، كبير كهنة هذا الإله. وهو ما يفسر أن أحد تمثالي **رمسيس نخت**، اللذين عُثر عليهما، عندما أراد التعبير بلا شك عن احترام صاحبه لأصوله العائلية، قد صورّه جالساً متربعاً، حاملاً قرناً على كتفيه، وهو من حيوانات **تحوت** المقدسة. إنه وضع مماثل لوضع الكتبة الذين يقرؤون على هذا النحو بتبعيتهم للإله المثقف الملم بالآداب والعلوم. وربما احتفظت العائلة ببعض الروابط بمدينة **بوياس** في الدلتا. وبالفعل فإن اسم أبيه يعنى: «محبوب الإله **باستت**».

وإذا كان **رمسيس نخت**، كبير كهنة **أمون**، فقد ظل أيضاً «رئيس كهنة جميع الآلهة»، وهو اللقب الذى ثبت سيادة كهنة **طيبة** وهيمنتهم. كما شغل مناصب دنيوية، عظيمة الشأن. فكان «**كاتباً ملكياً**، **المشرف العام فى القصر الملكى**»، فصار بالتالى كما رأينا، مقرباً من **رمسيس الرابع** وموضع ثقته، فكلفه بقيادة بعثة على قدر كبير من الأهمية إلى **سيناء**.

وإذا كانت حياة **نسى أمون** فى سلك الكهنوت، القصيرة بلا شك، معروفة معرفة سيئة، فقد اتضح أن ما شغله أخوه **أمن حوتب** من مناصب فى هذا المجال كان حاسماً بشأن مستقبل **طيبة** وكهنتها.

كان **أمن حوتب** أباً إلهياً وصار بلا شك كبير كهنة **أمون** عند بداية عهد **رمسيس التاسع**، كما شغل فى القصر الملكى مناصب أبيه نفسها.

وبصفته «**المشرف العام على أشغال بيت أمون**»، أنجز أعمال ترميم القسم الشرقى من معبد **الكرنك**، ولاسيما إلى الجنوب من البحيرة المقدسة حيث مساكن الكهنة(١٦٣).

وتتبدى عظمته ومقدرته، فى التصاوير التى أمر بنحتها فى **الكرنك**(**)، فى العام العاشر من عهد **رمسيس التاسع**، وعلى الجدار الخارجى من الفناء الممتد بين

(*) (**خمتى** بالمصرية القديمة، **الاسمونين**، حالياً. (المترجم)

(**) مثل سلفه **رومى** - **روى**. (المؤلفة)

الصرحين السابع والثامن. إن اللوحة الوسطى تصور كبير الكهنة أمن حوتب مرتين، وقد ارتدى زى الاحتفالات، وهو عبارة عن رداء طويل من الكتان الأبيض بثنايا، واضعاً جلد فهد على كتفه، رمزاً لمركزه الدينى، ومرتبياً قلادة عريضة ذات صفوف ثلاثة من الخرز. إن قامة الصورتين بالحجم البطولى، وتواجه إحداهما الأخرى، وتكتنفهما من جهة اليسار - أى من الناحية الجنوبية - ومن جهة اليمين أى من الناحية الشمالية، صورة مشهدين متماثلين، فيمدُّ رهمسيس التاسع يده اليمنى فى اتجاه أمن حوتب الذى يتعبد إلى العاهل الملكى، رافعاً راحتيه ناحية وجهه. ولكن الأمر الموحى، إذا أخذنا بعين الاعتبار المبادئ الأساسية لفن الرسم المصرى، أن أمن حوتب قد صوِّر نفسه بحجم الملك ذاته، بينما الخدم المنهمكون من حوله فى أعمالهم، قد صوِّروا بطبيعة الحال بأحجام أصغر بكثير. ومع ذلك، فللدلالة على قدر بسيط من الأفضلية للملك وضعت قدماه فوق موطئ قليل الارتفاع على كل حال، كما رُصَّت بينهما ست موائد محملة بالكنوس والأوانى والقلائد النفيسة، وكلها مكافات خصصها الفرعون لكبير الكهنة، العظيم الشأن.

تحدَّث صاحب الجلالة شخصياً إلى الأصفياء الواقفين بجواره، قائلاً: فلتُعْطَ أعداد كبيرة من الإنعامات ومكافات متعددة من الذهب الخالص ومن الفضة، بالإضافة إلى الملايين من كل الأشياء الجميلة والطيبة، (فلتُعْطَ) إلى أمن حوتب، كبير كهنة آمون سرع ملك الآلهة (*). لما حققه من أعمال خيرة عديدة فى معبد آمون سرع ملك الآلهة، وذلك من قبل الاسم العظيم للإله الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى (١٦٤).

(*) نسوت نثرى بالمصرية القديمة، ومن صفات آمون - رع. راجع: برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٢٥. (المترجم)

وفى الجزء الأسفل من التصوير نونت ثلاثة أسطر تقدم حصراً بهذه المكافات النفيسة.

إن المدونة التى تضم سبعة عشر سطراً الملحق بهذا المشهد على قدر كبير من الأهمية:

اليوم التاسع عشر، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام العاشر، فى معبد آمون رع، ملك الآلهة، وصل أمن حوتب كبير كهنة آمون - رع ملك الآلهة إلى الفناء الكبير (للإله) آمون المسمى «تعلن المدائح»^(*). وتم تمجيده عن طريق أحاديث جميلة منتقاة. إن وجوه المجتمع الذين تقدموا ليمتدحوه هم مدير خزانة الملك، وأمن حوتب المشرف العام الملكى، ونس آمون المشرف العام الملكى وكاتم أسرار الفرعون، ونفركارع - إم - پر - إيمن المشرف العام الملكى ورئيس حجاب الفرعون^(**).

وفى يلى، الحديث الذى ألقى فى ذلك اليوم، فى الفناء الكبير (للإله) آمون رع، ملك الآلهة، امتداحاً لشخص أمن حوتب وتمجيذاً له:

«ليت مونتى يمنحك نعمة! ليت آمون - رع ملك الآلهة، و رع - حور أختى، وبتاح العظيم القائم جنوب جداره وسيد حياة القطرين، وتحوت سيد الكلمات الإلهية، وآلهة السماء وآلهة الأرض، ليتها تمنحك نعمة! فضلاً عن ذلك، ليت كا رمسيس التاسع، أمير مصر، الولد المحبوب من جميع الآلهة، ليتها يمنحك نعمة! بسبب العمل الذى أنجزته. إن عشور المحاصيل، وحصيلة الرسوم والضرائب التى يدفعها العاملون فى معبد آمون - رع ملك الآلهة، ستوضع فى يدك، فضلاً عن حصيلة الجزية التى ستدفع لك بالكامل حسب مقدارها^(؟). ستصرف بحيث تملأ من الآن. خزائن

(*) لقد جرى هذا الاحتفال إذن بعد انقضاء شهر كامل على بداية العيد أوبيت الذى كان يدوم سبعة وعشرين يوماً، وبعد نهايته مباشرة. ومن ثم، فقد كان التكريم المقدم إلى أمن حوتب يندرج ضمن الاحتفالات المقدسة، وهو أسلوب آخر لإبراز أهمية هذا الشخص. (المؤلفة)

(**) وجميعهم فى الجهاز الإدارى من المقربين إلى شخص الملك. (المؤلفة)

معبد **أمون** - رع ملك الآلهة، ومخازنه وشؤنه. وبالإضافة إلى ذلك ستوفر ضرائب الرعوس والأيدى إعاشة **أمون** - رع ملك الآلهة، هذه الجزية التى كنت تسلمها فى الماضى إلى سيّدك **الفرعون**. إنه عمل يُقدم عليه خادم أمين مفيد لسيده **الفرعون**، ويبدل أيضاً ما فى وسعه للقيام بأعمال مفيدة، من أجل **أمون** - رع ملك الآلهة، ومن أجل **الفرعون**، على حدّ سواء... خُذ بعين الاعتبار التعليمات التى صدرت إلى رئيس الخزينة ورئيس جميع المشرفين فى خدمة **الفرعون**، لتشملك برعايتها، وتمجيدك حتى تُمسح بزيت عطر، كما تقدم لك فى الوقت نفسه أحواضاً من الذهب والفضة. وهو تقليد مخصص لكل خادم (أمين)، والتى يمنحك إياها **الفرعون** سيّدك».

عندئذ سلّمت له فى ذلك اليوم، فى الفناء الكبير (للإله) **أمون**، باعتبارها منّة له ومكافأة. كما ستسلم له على مرّ السنين، باعتبارها نِعماً ومنّاً (١٦٥).

فى نهاية هذا الحديث الذى يفتقر إلى المرونة والمجاملة، منح **رعمسيس** التاسع كهنة **أمون** امتيازات بالغة الخطورة، بل تفوق التصوّر فإن جانباً من الإيرادات التى كانت تحصلها فى السابق الخزينة الملكية سوف يتولى كتابة معبد **أمون** تحصيلها مباشرة وتحويلها بعد ذلك إلى خزينة رجال الدين. «ومن ثم أصبحت مَالِيّة **أمون** مستقلة، إذا صح القول، وحلّ كبير الكهنة محلّ الملك فى تحصيل جانب من إيرادات الدولة والإشراف عليها واستخدامها» (١٦٦). إن طموح **أمن حوتب** ثاقب البصيرة، والأكثر إخلاصاً على ما يبدو لمصالح طيبة، بل ربما لمصلحته الشخصية أكثر من اهتمامه بمصالح ملكه، قد نجح فى تحويل جانب من الإيرادات العادية التى تغذى خزينة الدولة لمصالح بيت **أمون**. وقد زادت هذه التصرفات العاهل الملكى ضعفاً على ضعف، ورُسخت فقر البلاد، بينما تعاظمت ثروة **أمون**.

هل كان **أمن حوتب** يتطلع إلى التربع على عرش مصر؟ لربما راودته هذه الفكرة.

وانتهت حياته فى ظروف غامضة. هل حدث تحول من جانب **رعمسيس** التاسع؟ فى سياق نص بردية **ماير Mayer**، وردت فى مجرى إحدى المحاكمات إشارة إلى «القضاء على **أمن حوتب** الذى كان كبير كهنة **أمون**». وفى نص بردية

أخرى معاصرة(*) يُقال: «عندما وقعت الحرب التي شُنت على كبير الكهنة...»(١٦٧). هل حدثت محاولة انقلاب من جانب كهنة طيبة، سُحقت سحقاً عنيفاً؟ هل سُحب من أمن حوتب منصبه، قرب نهاية عهد رمسيس التاسع، بعد أن تنبأ الملك إلى ما يدور من حوله؟ أو ربما حدث ذلك في عهد رمسيس الحادى عشر؟ فعلى التوابيت التي يحتفظ بها متحف اللوفر Le Louvre ، والتي تنسب إلى أمن حوتب، دُونَ عدد كبير من ألقابه الدينية، عدا لقب كبير كهنة آمون. ولكن هل يمكن الجزم بأن هذه التوابيت هي توابيته؟ كلها أسئلة ما زالت بلا إجابة قاطعة.

وعلى كل حال، فإن حرى حور خلفه فى طيبة، سوف يُرسخ واقع انتصار كهنة طيبة انتصاراً قاطعاً ونهائياً.

إن ضعف السلطة المركزية وعدم الاستقرار الاقتصادى والبؤس التي عمت البلاد كانت وراء الفوضى المتعاظمة وبعض الفضائح. ووصلت بعض قضايا فساد رجال الدين إلى ساحة المحاكم. ففي عهد رمسيس السادس استطاع باك إن خونسو، وكان مجرد «كاهن طاهر» بسيط فى إلفتين، أن يصل إلى مرتبة كبير كهنة خنوم، بعد قيامه بتوزيع بعض «العمولات»، كما ينبغي. واستطاع أيضاً نب وئنف المتواطئ مع السابق أن يصل من بعده إلى منصب كبير كهنة خنوم وساتيس وأنوكيس وأيضاً آلهة وإلهات إلفتين والنوبة السفلى، عن طريق رشوة الموظفين.

ويرسم سيرج سونرون(**) Serge Sauneron صورة واضحة وموحية لهذه الأزمنة القاسية التي عاشتها مصر:

(*) رقم 10052 من مقتنيات المتحف البريطانى. (المؤلفة)

(*) عالم مصريات فرنسى. كان مدير المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية فى القاهرة IFAO، عندما توفي هو وابنه فى منتصف السبعينات من القرن الماضى، إثر حادث سيارة فى الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية، وكان فى الخمسين من عمره. راجع:

(المترجم) Ch. Desroches Noblecourt, la Grande Nublade. Stock. Pernoud. 1992. p.393.

تُعد لنا بردية تورينو ووثائق أخرى أقل أهمية، ما حدث من سرقات في الحيازات المقدسة ومن أعمال سلب ونهب، ومن رشوة الموظفين، والحصول على المناصب الكهنوتية دون وجه حق، بل وبمساندة الإله إذا لزم الأمر، وتصفية الحسابات على المستوى المحلي. ولا يسعنا إلا أن نلاحظ أن كهنة الجندل الأول لم يُقَضْ مضجهم قيد أنمله، رغم الاتهامات التي انهالت عليهم أو على الأقل الاعتراف الرسمي بإذنتهم... وعرفت التكاليف العامة للمعيشة ارتفاعاً تجاوز كل الحدود. وإبان الأسرة العشرين بلغ سعر القمح أرقاماً لم يعهدا من قبل. فلا غربة إن في هذه الظروف، أن نرى المكلفين بمرافقة مؤن المعابد يستولون على قسم كبير من الحبوب التي ينقلونها لاستخدامهم الخاص، كما سعى مختلف رجال الدين إلى التكيف بطريقتهم مع المصاعب الاقتصادية التي قد تعاني منها معابدهم. كان وضع الفلاحين والعاملين في الحقول، عند مصادر الإيرادات العقارية ذاتها، يجعل على ما يظن، معاناتهم من صروف الدمر وشدائده أقل وطأة. ولكن صفار الموظفين والوسطاء بأعدادهم التي لا حصر لها، من جُباة ومرافقي المؤن الغذائية وكتبه الإدارات المحلية ورؤساء الحيازات، كانوا يستفيدون جميعاً من مناصبهم الرسمية ليضمنوا لأنفسهم حياة كريمة على حساب الجهاز الإداري الذي يعملون به. ومن باب أولى، انتشرت هذه الأساليب نفسها في الأقاليم التي شاع فيها الإفلات من القصاص بالنظر إلى بعدها عن المراكز الإدارية، وتواطؤ بعض الشخصيات المحلية الرفيعة التي كانت تستفيد بطبيعة الحال استفادة مباشرة من كل هذه الاختلاسات. أما جمهور عمال منطقة طيبة وحرفييها، فقد كانوا يحصلون على أجور متدنية، غير كافية أو تقلص نشاطهم، وأصبحت أوضاعهم غير مستقرة ورهن الظروف. فعماً قريب سوف ينقضون على المقابر الملكية في البر الغربي لمدينة طيبة، فيعيثوا فيها نهباً، محاولين عن طريق تدنيس الحرمات وانتهاكها أن يفلتوا من السنوات العصيبة، سنوات البؤس وشظف العيش^(١٦٨).

وفي عهد رمسيس السابع وخلفائه الاثني عشر، عانت مصر من محاصيل متدنية، فزادت حدة المجاعة. وفيما بعد، سوف يشار إلى هذه الأزمنة كتاريخ مرجعي فيقال: «سنة الضياع، عندما كان الناس جوعى».

نهب المقابر الملكية وسرقتها

هناك أزمنة تصبح فيها حاجة المرء إلى التصدى للبؤس وإلى البقاء على قيد الحياة، هي شغله الشاغل وأقوى بكثير من السنن المقدسة. إننا أمام مشهد بالغ الوضوح ومحزن إلى أبعد حدٍّ، عن الضياع المادى والأخلاقى لبلد لم يجد من يحميه، ملوك بات يؤخذ عليهم ضعفهم المتناهى.

وقرب نهاية عهد رمسيس التاسع، حاول البعض نهب وسرقة المقابر الملكية، فى البر الغربى من مدينة طيبة، بعد أن جذبهم ما بداخلها من ثروات طائلة. والمقبرتان الأوليان المستهدفتان كانتا مقبرتى سخم رع - شنتاوى - سويك إم ساف، من ملوك الأسرة السابعة عشرة، ومقبرة الملكة إيزيس زوجة رمسيس الثالث.

إن پاسر عمدة طيبة هو الذى اكتشف ما حدث. ولما كان يرغب رغبة حثيثة فى معاقبة هذه الجريمة، فضلاً عن اهتمامه بالإساءة إلى زميله ومنافسة پاور الذى كان مسئولاً عن إدارة البر الغربى، فقد قام بإخطار الوزير الذى عين لجنة للتحقيق على أرض الواقع، فى دراع أبى النجا^(*)، فاكتشفت أن بعض مقابر الأفراد قد سرقت أيضاً. ولما كان الوزير يدعو پاور إلى الاستعجال، فقد توصّل هذا الأخير إلى الكشف عن المتهمين. ولكن الغموض كان يكتنف هذه القضية. فقد اعترف أحد المتهمين بأنه دخل إلى مقبرة الملكة إيزيس، إلا أنه فشل عند إعادة تمثيل الجريمة أن يهتدى إلى الطريق الموصل إلى المقبرة المنقورة فى الصخر. وعلى كل حال فقد اتضح فيما بعد أنه برىء.

أما پاور فقد جرى الاحتفاء به، وثار پاسر محتجاً. ولغلق ملف هذه القضية الغامضة أمر الوزير بتبرئته المتهمين المزعومين.

والأقرب إلى الصواب أن پاور كان على علاقة باللصوص، وربما كان الوزير شخصياً قد تمت رشوته كسباً لتأييده فى الامتناع عن الحكم فى هذه القضية^(١٦٩).

(*) تقع هذه المنطقة على يمين بداية الطريق المؤدى إلى النيل البصرى. (المترجم)

وبالطبع كان هذا الموقف بمثابة تشجيع للجناة الذين أخذوا يعتدون آنذاك على مقابر وادى الملوك، ومن بينها تحديداً مقبرتى سيتى الأول ورعمسيس الثانى. ولكن أنزل العقاب فى هذه المرة بالمنزبين.

ومع ذلك، فقد استمرت أعمال السلب والنهب، إلى الحد الذى بات من الضرورى، فيما بعد، فى زمن الأسرة الحادية والعشرين، تخزين المومياوات فى أكثر من خبينة، حمايةً لها.

وفى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى، اكتشفت الخبينة القائمة فى حضن جبل النير البحرى^(*).

الأجانب فى مصر

منذ انتصارات رمسيس الثالث أخذ الليبي والماشواش يتسللون إلى مصر، فى هدوء وبطريقة سلمية. وفى عهد رمسيس الحادى عشر باتت مستعمرتهم فى الإقليم السابع عشر من أقاليم مصر العليا، إقليم كينوپوليس^(**)، مستعمرة قوية يخشاها المصريون. وفى هذا الزمن تفجرت اضطرابات خطيرة فى هذه المنطقة، وللقضاء عليها اضطر رمسيس الحادى عشر أن يستنجد بنائب الملك فى بلدان الجنوب، پانحسى الذى كان موجوداً آنذاك فى مصر العليا، ومعه فرقة من المرتزقة النوبيين.

وانتهت هذه المشكلة شديدة الخطورة باستيلاء القوات الملكية على مدينة حردي^(***)، عاصمة الإقليم السابع عشر، والتى كان «الليبيون» قد استولوا عليها.

(*) راجع: المومياوات المصرية، الجزء الأول، دار الفكر، ١٩٩٧، والجزء الثانى، دار الفكر، ١٩٩٩.

ترجمة ماهر جويجاتى. وتحديداً الجزء الأول، ص ص ٤٢-٤٦. (المترجم)

(**) الاسم اليونانى لإقليم ألبى - أى إقليم ابن أوى، ويقع فى محافظة المنيا الحالية. (المترجم)

(***) تقع قبالة بلدة بنى مزار الحالية وشمال الشيخ فضل. (المترجم)

كما قام الماشواش بمحاولة أخرى للاستيلاء على السلطة قرب نهاية الأسرة الحادية والعشرين. وسوف تنجح هذه المحاولة، ليعتري على عرش مصر ملوك ينحدرون من أصول ليبية ويحكموا البلاد على امتداد أسرتين ملكيتين هما الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، من ٩٥٠ إلى ٧٢٠ تقريباً، ق.م. وفضلاً عن ذلك، ومنذ عهد رمسيس الثانى، كانت مستعمرات آسيوية قد استقرت فى الفيوم.

«فى بداية الأمر، وفى عهد كل من رمسيس الثانى وسيتى الثانى، إذا كان مقدراً للآسيويين الذين استقروا فى الفيوم أن يتلقوا تنشئة مصرية، فيبدو أنهم تلقوا تعليمًا يؤهلهم لشغل أعلى المناصب فى الدولة. ولكن يعتقد أن المستعمرات التى جاءت بعد ذلك لتستقر فى هذه الأماكن نفسها، كانت أصلاً مجرد مستعمرات عسكرية. إن مدينتى نا-خارو - أى «السوريين» وبن - خاسو أى «مدينة الشاسو»، كانتا معسكرات جنود وليستا مدرستى إدارة. ويمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أن عصر رمسيس السادس قد شهد تمركزاً ضخماً للمستعمرات الآسيوية فى الفيوم ومصر الوسطى... وكان كل من سيتى الثانى ورمسيس الثالث، قد ساهما فى زيادة أحجامها (١٧٠)».

وفى ظل حكم ملك قوى وحازم كانت هذه المستعمرات الأجنبية القائمة فى قلب العاصمة ذاتها انعكاساً للإمبراطورية الشاسعة التى تداعب خيال الرعامسة، ولكن ما أن يتبوأ ملك ضعيف العرش حتى يشكل الأجانب تهديداً خطيراً.

هكذا كانت مصر تقوضها من الداخل مختلف القوى التى تسعى إلى القضاء عليها، وإلى تدمير سلطة الفراعنة، على كل حال. أما الإمبراطورية فقد كان وجودها الآن مجرد وجود شكلى.

إن زمن الأمراء العظام، كان قد ولى وانقضى.

نهاية عصر الرعامسة وتأسيس نظام

ثيوقراطي^(*) فى مصر

وعما قريب، وفى عام ١٠٨٥ ق.م تحديداً، سوف يتربع على عرش القطرين **حري حور كبير كهنة أمون فى طيبة**، ليؤسس الأسرة الحادية والعشرين.

ولا نعرف شيئاً عن أصول **حري حور**. والأقرب إلى الصواب أنه كان عسكرياً، ولا شيء كان يؤمله ليصبح كبير كهنة، اللهم إلا أنه كان من المقربين إلى **رمسيس الحادى عشر** ومن ذوى الحظوة لديه. وسرعان ما جمع بين أعلى المناصب، فكان بالفعل كبير كهنة **أمون**، والقائد العام لجيش **الجنوب والشمال**، فضلاً عن ذلك عينه **رمسيس الحادى عشر** نائب الملك فى بلاد **الجنوب**، ثم وزيراً فى العام ١٩ من عهده. هكذا كان الجهاز الحكومى بأكمله بين يديّ شخص واحد. وفى حقيقة الأمر، يمكن القول إن **رمسيس الحادى عشر** قد تنازل عن الحكم، من الناحية العملية، وسلم كل سلطاته إلى **حري حور**. ولكن السبب الذى أدى إلى هذه الأحداث يظل فى نظرنا غامضاً.

وفى المدونات، يطلق أيضاً على العام ١٩ من حكم **رمسيس الحادى عشر** «**العام الأول من النهضة**». هكذا كشف **حري حور** عن طموحاته. إنه ييسط سلطاته فى الواقع، إن لم يكن على **مصر** بأكملها، فعلى **مصر العليا** على الأقل. ففى **مصر السفلى** كان الوزير الثانى **سمندس** يتولى أمر حكومة **الدلتا**.

وتساعدنا التصاویر والنصوص المنحوتة فى معبد **خونسو بالكرك** على متابعة لرتقاء كبير الكهنة الطموح ارتقاءً تدريجياً، حتى تربعه على العرش. فيظهر أولاً فى صحبة الملك، وإن كان منذ الآن على قدم المساواة معه. أما المدونات التكريسية

(*) أى حكومة دينية، نظام سياسى يستند على التفويض الإلهى الخارج عن إرادة البشر، حيث يتولى السلطة رجال الدين، كما يرى أن السلطة النبوية يجب أن تتبع السلطة الروحية. د. أحمد زكى بدوى، معجم العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦. (المترجم)

الأحدث عهداً، فلا تذكر سوى حري حور، وفى نهاية المطاف وفى فناء المعبد تحديداً، يظهر حري حور بمفرده مرتدياً التاج الملكى.

ولا نعرف شيئاً عن مصير رمسيس الحادى عشر.

هكذا انتهت السلالة الطويلة لأقوى ملوك مصر، وسقط نجمها فى غياهب الفقر والنسيان.

ومع آخر الرعامسة انتهى تاريخ مصر المستقلة، فأتت الغزوات من كل حدب وصوب، لتشمل أرض الآلهة وتغطيها.

واختفى من أرض مصر الجنود الأشاوس وجهابذة رجال الإدارة، فلم يعد وجود لمن يدافع عنها ويعمل على ازدهارها. ولكن يبقى للرعامسة أنهم استطاعوا الارتقاء بالروحانية المصرية وبأمجاد أرض الكنانة إلى أعلى المراتب وأسمى الدرجات.

الباب الثانى
الفرعنة الأباطرة،
سماتهم وأعمالهم

الفصل الأول

الملك - البطل،

أسطورة ملوك الرعامسة

من الممكن رسم صورة شخصية ذات سمات خاصة للرعامسة الذين ابتكروا أسطورة حقيقية للملك - البطل.

ترتبط هذه الأسطورة فى جانب منها بروح الماضى التليد، ولكنها تُطور تحديداً، إلى أبعد الحدود، المفهوم الذى كان سائداً حول الملك، كقائد عسكري مقدام. وترسم له فى الغالب صورة جديدة، حتى يستطيع المرء أحياناً أن يحدد تاريخ نص من عصر الرعامسة استناداً إلى أسلوب تعبيراته أو الفكر الذى يحركه.

وتسترسل الصور وتتابع فى إطناب، جامعة بين وقائع بسيطة قائمة على ملاحظات ثاقبة وأكثر الأساطير سمواً، كما تفتق بها ذهنهم، مع فيض من الكلمات ورونق الأساليب وتالق الفكر، مقتربةً فى الغالب من الصياغات الشعرية. ونذكر تحديداً نصوص مدينة هابو، لأنها رائعة الجمال فى بعض الأحيان، فلنعلن عن خالص امتناننا لهؤلاء الكتبة الملهمين!

وحتى الرعامسة الضعفاء فى نهاية هذه السلالة، سيستخدمون أيضاً هذه الصور، وإن كان أسلوبهم أسلوباً شكلياً بحثاً، ولكنهم سيحاولون هكذا أن يرتبطوا ولو بالكلمات، بالتقليد العظيم المتواتر الذى أسسه أجدادهم الأمجاد.

ويادى ذى بدء، ترتبط هذه الأسطورة بشخصية الملك - البطل ذاتها؛ أى الخصال التى تميزه، والوظائف الأساسية المطلوب منه النهوض بأعبائها، والأشكال العالمية التى فى وسعه تقمصها، وأخيراً العلاقات الفريدة التى تربطه بالآلهة.

وتتعدد الصور الأسطورية عندما يخوض المقاتل الملكى المعارك. إن وصف الأسلحة ومراحل المعركة ذاتها، يرتبط بعالم الأسطورة بقدر ارتباطه بالملاحظة العينية على أرض الواقع.

والأبطال أيضاً يتمتعون بقسط من الراحة، كما أبدع الرعامسة أسطورة
للسلام، لتُعبّر بوضوح بسيطة محركة للمشاعر، عن ولعهم بالأيام الهادئة التي تعشقها
قلوب المصريين.

أولاً، الصورة الشخصية للبطل

إنه الملك المقدام الذى يحمى مصر، رب القدرة، صاحب الساعدين الجسورين،
والصدر العريض، المدرك قوته. إن اسمه وحده يلحق الهزيمة بالأقواس التسعة. إن
هيئته ممثلة زهواً، بعد أن رأى تقتيل الفسقة، بينما يتأمل هادئاً راضياً، (بعد أن
أردى) عشرات الآلاف (من الأعداء قتلى). إنه يفرح عند سماعه صياح (المعارك)،
فلا يتوقف عن الانقضاض على الرجال الأقوياء الذين يرتعدون (عند رؤيته).

إنه سيد القطرين: أوسر مامت رع - محبوب - أمون،

ابن رع: رمسيس - حاكم - هليوبوليس.

إنه العامل الملكى النّان، فظهره سند وعون. وشامخة هي هيئته فى قلوب
الآسيويين، هو الذى يُردى البلدان الأجنبية قتلى ويهزم مدنها ويميت أفواهم. إنه سور
عظيم حول البلد المحبوب، والثور القوى الذى ينقض على كل من يهاجمه، إنه الأمير
المقدام فلا مثيل له، وقوانينه تغالب الأيام.

إنه سيد القطرين، أوسر مامت رع - محبوب - أمون، وسيد التجليات
المجّدة، إنه رمسيس - حاكم - هليوبوليس^(١).

هكذا صور رمسيس الثالث.

صفات الأمير

ترتبط هذه الصفات بجميع جوانب الشخص، الجسمانية والذهنية والأخلاقية.

الملك جميل، شأنه شأن أبطال كل الحكايات الخيالية.

بل ومنذ رابع التحامسة كان الملك يتباهى بجمال مظهره:

ولما كان صاحب الجلالة لا يزال فتى مثل الولد حورس فى خميس^(*) كان
جماله منذ ذلك الوقت مثل جمال «حامى والده» (أى حورس) وكان ينظر إليه بصفته
الإله ذاته^(٢).

ويمتدح «الوجه الكامل» للملك رمسيس الثانى، إنه «جميل عندما يرتدى
الخوذة الزرقاء». ولا يقصد بذلك فقط الجمال الذى تعنيه كلمة نهر المصرية^(**)، بما
تنطوى عليه أيضاً من دلالة معنوية، بل أيضاً الجمال البدنى المحض الذى تترجمة
كلمة هن^(***) المصرية التى تعنى «ما يمتع الناظر إليه».

إن جمال رمسيس الثالث من جمال الآلهة. إن العاهل الملكى «جميل عندما
يشرق على عرش أتوم. وقد يخيل للمرء أنه يرى رع عند مطلع الفجر». «إن جمال
وجهه يشبه جمال قرص الشمس». إنه «جميل عندما يتجلى باعتباره ملك مصر العليا
ومصر السفلى، بصفته ابن إيزيس».

وفى خضم المعركة يزداد جمال البطل تألقاً. إن رمسيس الثالث «جميل عندما
ينقض مهاجماً، فهو يشبه صورة ست رافعاً ساعديه، إنه بطل». «الملك جميل عندما

(*) جزيرة أسطورية تقع فى مستنقعات الدلتا، ولاتبعد كثيراً عن تل الفراعين - شمال غرب
وسط الدلتا. لجأت إليها إيزيس بعد مقتل زوجها أوزيريس. راجع: إيزابيل فرانكو، معجم
الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ١٤٢. (المترجم)

(**) راجع رسم علامات هذه الكلمة بالخط الهيروغليفى. برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة
المصرية بالخط الهيروغليفى، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩،
ص ٢٩. (المترجم)

(***) راجع رسم علامات هذه الكلمة بالخط الهيروغليفى. المرجع السابق، ص ٦٥. (المترجم)

يمتطى جواده، قمثله مثل مولتى عندما يظهر أشبه بشمس مصر... وقد اتحدت الهية والهلع والخوف بأعضائه^(٢).

إن الجمال هو المظهر الذى يتخذه كائن فذ.

الرجولة والقوة

حقاً، إنها صفات ضرورية، تكاد تكون مألوفة بالنسبة لفتاح مغوار.

لقد حدث فى السابق أن قام أمون «بتأسيس» أمفحوتب الثانى على «المقدرة والقوة».

وعلى وجه التحديد، فإن رمسيس الثانى هو «رجل مصر وزوجها الذى يجعلها شديدة العزم، وأكثر من أى بلد آخر». «كان صاحب الجلالة سيداً شاباً، وبطلاً لا مثيل له، مقتول الساعدين، شديد القلب». إنه وصف عالمى للبطل: سواء فى الأناشيد الهوميرية^(*) أو فى ملاحم العصور الوسطى.

أما من إن يتاح فقد «نهض ليضمن حماية الشعب، إنه يتحلى بالقوة لتحقيق ذلك».

وأما رمسيس الثالث فهو «صاحب القلب الثابت العزم»، وعندما تحاصره الأخطار، يستطيع أن يظل سيد الموقف، لأنه «يستند إلى ساعده، ويدرك مدى قدرته».

(*) نسبة إلى هوميروس، من أعظم شعراء الإغريق، ويعتقد أنه عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد. من أهم أعماله ملحمتا الإلياذة والأوديسة. (المترجم)

بالإضافة إلى الصفات البدنية الواضحة، لابد أن يتمتع الأمير بذهن مستنير وقدرة على المعرفة والفهم. فمنذ أقدم الأزمنة، بل ومنذ ساحورج^(*)، يعتبر الفرعون «فاحص الأبدان والقلوب». ولكن أكثر من أى وقت مضى، وفي ظل حكم الرعامسة، وهى سنوات وقعت تحت وطأة مشاكل دولية عويصة، أصبحت معرفة العالم معرفة تامة، وضرورة أن تعتمد الخيارات السياسية على ذهن صافٍ، أمران لا غنى عنهما:

«فلا شيء يجهله» سيقى الأول. إنه «فطن فى كل مكان، متحدث بفمه عامل بساعديه»: فالتصور يأتى من الذهن والكلمة تنقل الأمر كما تم تصوره، ثم يحققه الساعدان. فالفعل يأتى من وعى ثاقب ونشط بالأشياء. وفى كثير من الأحوال، تقابلنا فى نصوص الرعامسة كلمة ذكاء، صفة من صفات الملك، والتي نترجمها إلى المصرية بعبارة سييد-حر، ومعناها الحرفى «يكون حاد الوجه». وكما هو الحال، فى الغالب، فإن اسم الصفات المجردة يجد تعبيراً له عن طريق مظاهره العينية الملموسة، وفى الحالة التى نحن بصدها، نقصد الشد البدنى الناتج عن عملية التفكير.

إن رمسيس الثانى «لا يجهل كل البلدان المجتمعة». «إن حافظته تتذكر البلدان الأكثر بعداً». «إنه يعرف مقراً - يده^(**)، نظرا إلى حدة إدراكه لكل بلد من البلدان الأجنبية».

إن القوة والذكاء تقودان إلى الفاعلية الناجعة.

إن رمسيس الثالث:

(*) من ملوك الأسرة الخامسة. (المترجم)

(**) بمعنى: ما كان فى وسعه عمله. (المؤلفة)

قوى ومقدام بينما يجمع البلدان ومصر^(*)، وقد انحل قلبه وانفك مثل قلب
تحوت^(**). إنه يضمن مصائرهما مثل يتاح، إنه فكر ثاقب، نواميسه مفعمة بالبركة، ولا
مثيل له، ويشبه رع بعد أن بدأ (ينظم) البلد نظاماً ملكياً^(١).

الحكمة والعقل

إنهما صفتان إلهيتان من الطراز الأول، كما أنهما تجسدان حقيقة فكر الملك
المستقيم، ثاقب النظر.

كان تحوتمس الثالث قد سبق له أن تبنى هاتين الصفتين الأساسيتين:

وأنعم على بكل تآلقه وحصلت على كفايتي من حكمة الآلهة، مثل حورس الذي
شُب وترعرع في منزل أبيه آمون-رع، ومُنحت الصفات الإلهية، بالكامل^(٢).

وحور إم حب هو «أبو الشاطئين»، وهو الحكمة الفائقة المنوطة بإله طيب، لسن
قوانين القطرين^(٣) (٦) (***).

أما رعمسيس الثاني «فقد خرج من بطن (أمه) وهو منذ هذه اللحظة
حصيف^(****) في مقاصده، حكيم في حدود الزمن الأبدي [بإكماله]^(٥)». بل إن قائمة
ألقاب الملك ذاتها تبرز هذه الصفات ذات الأصول الإلهية: «إن مقاصده في مثل
مقاصد تحوت الذي يسن قوانين صالحة في البلدان... إنه حكيم في كل مشاريعه،
مثل تحوت^(٦)». أما رعمسيس الثالث، «فإنه يجمع بين مقاصد موفقة، بالنظر إلى
جصافته منذ طفولته». إنه «حكيم مثل تحوت وحصيف مثل شو».

(*) إنه تعريف للإمبراطورية. (المؤلفة)

(**) لما كان القلب مركز الفكر، فإننا أمام أسلوب آخر للدلالة على ذكاء الأمير. (المؤلفة)

(***) إنه تآلق آمون على الصعيدين البدني والروحي. (المؤلفة)

(****) الفعل العربي حَصَفَ يعنى: استحكم المرء عقله وجاد رأسه. المعجم الوسيط. والاسم
حصيف يعنى: محكم العقل جيد الرأي. المعجم العربي الأساسى. (الترجم)

إن الكلمة التي تعرّف العقل - وهى إيبى بالمصرية القديمة، هى الكلمة نفسها الدالة على الفعل «حَسَبَ». إنها تترجم عملية العقل التى ينتج عنها خيار، أمعن النظر فيه(*) . والتماثل نفسه قائم مع الكلمة اللاتينية ratio(**).

اليقظة والفاعلية

وُجِدَت هذه الصورة، منذ **هور إم حب**، مؤسس سلالة **الرعامسة**: «**كان جاللة** يسهر ليل نهار، فاحصاً ما يمكن أن يفيد **البلد المحبوب**، باحثاً عن أفعال جالبة للخير...»

هذا الأمير اليقظ الساهر على شئون شعبه ورخائه، نلتقى به فى كثير من الأحيان فى نصوص **الرعامسة**، فعن **رمسيس الأول** قيل: «**كان القلب ساهراً على الدوام**». أما **سيتى الأول**: «**فيظل واقفاً ساهراً، ببسالة وقوة مثل نوت**»(***) . أما **رمسيس الثانى** فهو «**الاستشار اليقظ للمقاصد جالبة الخير**». إن اليقظة الدائمة تجلب المنافع والفوائد والفاعلية، فعن **رمسيس الثانى** يقال: «**نصائحه مرغوبة، فلا تمنى واحدة منها بالفشل**».

ويكتمل هذا الوصف بهاتين الصورتين الذهنتين للفتاحين المغوارين:

❖ رمسيس الثانى:

لقد وحد القطرين فى سلام، مثل أبيه تاقان. لقد أقامه رع على عرشه، ضماناً لحماية هذا البلد، لأن فكره سام واسمه المقدس ثابت. كما لا يوجد كمثل إله. إن كلماته منتقاة، ومقاصده تحقق النجاح، لأنه حصيف(٩).

(*) (انظر المرجع السابق ذكره، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية. ص ٤٦. (المترجم)

(**) (الفكر، والحكم: بمعنى قرار ذهنى برأى مُعَيَّن. مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الفلسفى. (المترجم)

(***) (إنها إلهة السماء التى لا تغلبها سنة ولا نوم. (المؤلفة)

❖ رمسيس الثالث:

لا تحلُّ لحظة واحدة... لا تأتي بغنائمها، بفضل المقاصد والنصائح التي في
قلبي والهادفة إلى ازدهار البلد المحبوب^(١٠).

الهيبة والمجد

وهما أيضاً صفات معنوية جوهرية يتحلَّى بها الملك - البطل، كما ستصبح
بالنسبة له أسلحة أسطورية في ساحة القتال.

وقد سبق أن تمتع **التحامسة** الأوائل بهذه الهيبة. ففي المدونة المتشامخة
المنحوتة على صخور **طمبس**^(٩) وردت هذه الجملة المقتضبة التي عاد الفاتحون
الآخرون، إلى استخدامها من جديد: «إن مجد صاحب الجلالة يُفقد بصر» الأعداء.

كما أن **سيتي الأول** يصيب العدو بالشلل، لمجرد وجوده:

إنه زاهب لتوسيع حدوده. كان وجهه مهيباً، بسبب ما يظهره من مقدرة. فلا
يوجد بلد أجنبي واحد في وسعه أن يبقى أمامه واقفاً. يخافه الجميع بسبب هيبتة،
وصيحاته صيحات الحرب تنتشر عبر الأراضي الأجنبية، ويظل مجده في قلوب
الأقواس التسعة^(١١).

أما **رمسيس الثاني**: «فلا يستطيع ألف رجل البقاء بقاءً ثابتاً أثناء وجوده».

وكثيراً ما يدعى **رمسيس**: «سيد الفرح والسرور»، لأن صفاته تجلب السعادة
على شعبه.

الملك الحامي

أن يتولى الملك تأمين حماية البلد، ليس وظيفة جديدة. ولكنه أمر ملح بالنسبة
للرعامسة. إنها مدونة ضمن أسمائهم، أي جوهرهم ذاته. وكثيراً ما تلحق صفتان

(*) جنوب الجندل الثالث. (المترجم)

بلقب «**السيئتين**» أو بلقب «**حورس الذهبي**». ونذكر في هذا الصدد **رهمسيس الثاني**، إذ يوصف بأنه «من يحمى مصر ويربط البلاد الأجنبية». وفيما بعد سوف يتخذ الإسكندر الأكبر من الصفة الأولى شعاراً له. كما نشير تحديداً إلى أن الصور التي تُعرف سلطة الملك صور متنوعة وموحية.

رهمسيس الثاني هو:

من يهب لمساعدة الضعيف، وزوج الأرملة وحامي اليتيم، ومن يستجيب للمحتاج، والراعى المقدام الذى يحافظ على حياة البشر، وسور مصر شديد الفاعلية، ودرع ملايين البشر، وحامى الجماهير المؤلف^(١٢).

الراعى الصالح

هذه الصورة التى شاع استخدامها فى العهد الجديد من الكتاب المقدس، صفة **السيد المسيح**^(*)، قديمة جداً فى وعى الساميين. وتعود أولى أمثلتها إلى الأسرة العاشرة المصرية وتحديداً إلى **خيتى الثالث**. وكثيراً ما أعيد استخدامها فيما بعد. إن **سيتى الأول** هو «**الراعى الصالح الذى يُحيى جيشه، إنه أبو وأم البشر أجمعين**».

ورهمسيس الثاني هو: «الراعى الصالح لشعبه».

ويُطمئن مر إن **پتاح** المصريين الذين انتابهم القلق مع وصول **موى** إلى **برى رع**. فيقول لهم: «أنا راعيك، إنى أسهر لأسحق (أعداكم)، فمتلى مثل أب يؤمن حياة أولاده، فى حين أصابكم الهلع مثل العصافير»^(١٣).

(*) الإصحاح العاشر من إنجيل **يوحنا** مكرس للراعى الصالح وأذكر بعض آياته على سبيل المثال: أنا هو الراعى الصالح والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف... أما أنا فأنى الراعى الصالح وأعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى... وتكون رعيّة واحدة وراع واحد. (المترجم)

إنه الثور الذى يقود قطيعه، هكذا تظهر صورة **رهمسيس الثالث**: «تتجمع
أرجاء البلاد بجوارى، فأننا قائم إقامة راسخة، وأقف على رأسهم، مثل الثور».

الجدار النحاسى

كما أن **فرعون** هو أيضاً جدار حام، من النحاس فى أغلب الأحوال، وفى بعض
الاحيان ولكن من النادر، أن يكون من **الظُرَان**(*).

النحاس رمز لتألق يذكّرنا بتألق الذهب، وإن كان بقدر أقل بريقاً، وإذا كان
الذهب يشكل لحم الآلهة وبدن الشمس، فالنحاس هو المادة الأسطورية لعناصر الكون
السماوى الأخرى، فالنجوم والقبة السماوية من النحاس. كما أن أبواب السماء
والجدران التى تحمى **المنطقة العليا**، هى أيضاً من النحاس^(١٤). هكذا فإن الملك هو
بمثابة جزء من جدران السماء، وكأنه وجهها الأرضى المحوّر. ومنذ قيامه بنشاطه
حامياً، يكون انعكاساً **للمنطقة العليا**.

ويبدو أن هذه الصورة قد برزت إلى الوجود فى ظل الأسرة الثانية عشرة، فى
أعقاب الثورة الداخلية الأولى التى عرفها **المصريون** الذين سعوا بطبيعة الحال إلى
الاحتواء **بفرأطة جدد**. ففى ترنيمة إلى **سنوسرت الثالث** نقراً:

«كم هو عظيم **السيد** من أجل مدينته! إنه سور، جدرانه من نحاس».

كما أن **تحتوتمس الثالث**: «حصن عظيم **الفائدة لجيشه**. إنه سور مانع من
النحاس».

وفى عهد **الرهامسة**، تطورت هذه الصورة لأن أى صورة تفتق عنها ذهن الفكر
المصرى لا تظل ثابتة على الدوام. بل تزداد انتشاراً، مع إدخال تعديلات عليها، بفضل
خيال شاعرى خصب. فنجد فى أغلب الأحوال أن ساعدى الملك، أو جناحيه الممدودان،
يشكلان ما يشبه غطاءً شاسعاً أو سوراً مانعاً وحامياً.

(*) نوع من الحجارة الصلدة. (المترجم)

أما سِيتى الأول:

فإنه يخلق من ساعديه سوراً من نحاس، عندما يبسطهما، يوم الوغى.

وتتحدث الإلهة سيثات إلى رعمسيس الثانى الذى أصبح أشبه بسور الصين العظيم، قائلة:

لقد أعدت الشجاعة إلى مصر، لأنك سيدها. لقد مددت جناحيك فوق شعبها، ولذلك فانت بالنسبة لها سور عظيم من نحاس. إن قمته من الطران، وفيه تكون أبوابك من النحاس. ولن يستطيع رجال الصحراء اجتيازها (١٥).

فى مساء اليوم الأول من معركة قالمش، عندما انضم الجيش المرتبك خجلاً، والنادم على ما ارتكبه، إلى البطل الذى استطاع انقاذ مصر بمفرده، تحدث إليهم هذا الأخير متهمكماً قائلاً: «حقاً، لا تستطيعون أن تجهلوا فى قلوبكم أننى بالنسبة لكم سور من نحاس!»

وعند وصول النجدات، كان لا يزال هناك:
مثل جبل من نحاس ومثل سور مانع من النحاس، (ليغالب الأيام) للزمن
اللانهاى وللزمن الأبدى.

والصورة فى نصوص مدينة هابو هى صورة «جدار شامخ» يحمى فى آن واحد من الأعداء ومن شدة الحر.
إن رعمسيس الثالث هو:

من يُطمئن قلب مصر، لأنه مكلف بحمايتها. إنه يحمل البلد على أعلى ظهره، ومن ثم لم يعد أحد يسمع النحيب والنواح. إنه السور المنيع الذى يُلقى بظله من أجل الشعب (١٦).

وبالنسبة للإنسان البعيد، فهو أشبه بأنفاس قرص الشمس القائظة فوق
القطرين، ولكنه سور عال يلقى بظله على البلد المحبوب، جالباً الجو المنعش للجالسين
تحت ساعديه المفتولين^(١٧).

هنا تتداخل الصورة مع الصورة التي سبق وصفها.

درع البلد

هذه الصورة قريبة من سابقتها.

إن رمسيس الثالث هو:

الدرع الكبير الذي يستر مصر، جالباً الجو اللطيف للجالسين في ظل ساعديه.

كما تبرز عبارات أخرى هذه الحماية التي يضمنها الأمير، فيقال عن رمسيس
الثالث:

❖ لقد التففتُ حول مصر التقاف الثوب. لقد سترتها بساعدي الباسل، منذ أن نُويى
بى ملكاً على مصر العليا ومصر السفلى، متربعاً على عرش أتوم.

❖ كانت مصر فى ضيق، فلا يوجد من يرعاها، وهو ما كان يحتاج إليه الشعب، بسبب
الأقواس التسمية. عندئذ دُثِّرتْها وشدت من أزرها بفضل قوتي، فقد كنت باسلاً
مقدماً. وظهرتُ مثل رع بصفتى ملك مصر وشملتْها بحمايتى^(١٨).

ونجد أحياناً أن المصريين قد عبروا عن عرفانهم بالجميل بطريقة مثيرة
للمشاعر. فعن رمسيس الثانى يقولون:

جماله فى الجسد كالماء والنسيم. والجميع يحبونه كما يحبون الخبز والثياب،
إنه أبو وأم هذا البلد بأكمله، إنه نور الشاطئين والقطرين والبشر أجمعين^(١٩).

كان مقدراً لكل ملك من ملوك الرعامسة أن يكون محارباً. كان هذا المصير محدداً له حتى قبل أن يولد. كانت هذه الوظيفة الملكية أساسية في زمن الرعامسة.

فيقول رمسيس الثاني:

«إن وظيفتي مماثلة لوظيفة رع ووظيفة ست عندما يستشيط غضباً عند قيام قارب الليل».

يولد الملك مجهزاً تجهيزاً كاملاً لخوض معارك مظفرة، مهيناً من قبل الآلهة.

فيقول رمسيس الثاني:

منذ أن خرجت من بطن أمي كنت مزوداً بالفعل بالبسالة والقوة، ومجهزاً بالكامل، كنت قادراً متأهباً للقتال. كنت أسير وكأني ولد الإله، كما تربعت بثبات على عرشه «الخضوضر» ولاحظت أن الجميع سعداء بسببي، وكأني حورس بن إيزيس^(٢٠).

عندئذ تصبغ أعضاؤه باللون الأحمر، لون الدم، الذي يبعد أيضاً القوى الضارة. وتظهر هذه الحقيقة بصدد رمسيس الثاني:

لقد خرج من بطن (أمه)، متأهباً للقيام بالفتوحات، فكان على قوته أن تتوسع في حدوده. عندئذ اصطبغت أعضاؤه باللون الأحمر، أي بمقدرة موتى ومقدرة حورس وست^(٢١).

فهل تحقق أيضاً هذا العمل من أجل حور إم حب؟

«لقد خرج من بطن (أمه) وقد تحلى بالفعل بالهبة، إذ كان اللون الإلهي عليه».

وكان «صورة إلهية بلونها، في نظر من يتأمل شكله»^(٢٢).

وقصارى القول فريما كان لون البطل علامة على مصير يميل إلى الحرب.

قصة تمثال عجائبي

وتشهد مغامرة أركيولوجية غريبة عن دور **الفرعون** بصفته حامياً، وهى الوظيفة التى تولاهها **الرعامسة** على وجه التحديد، فى هذه الأزمنة التى انتشرت فيها الاضطرابات.

فعندما كان القس **إيتيين نريوتون** (*) **Etienne Drioton** مديراً لمصلحة الآثار المصرية، روى قصة تمثال **رمسيس** الثالث العجائبي (٢٣). فقد جاعى ذات يوم «أحد الباحثين عن الكنوز غير المعترف به»، طالباً التصريح بالقيام بأعمال التنقيب، فى مكان حدّده بكل دقة «فى الصحراء الواقعة شرق القاهرة، يبعد أربعة كيلومترات جنوب **الماظة**». وفى المكان المفترض على وجه التحديد، عُثِر على بقايا تمثال جماعى من الكوارتزيت الوردى «كان قائماً عمودياً وكأنه وضع أصلاً فى هذا المكان»، فى حين تُهدّم المبنى الذى كان يظله. كان هذا التمثال الجماعى يصور ملكاً، نعرف أنه **رمسيس** الثالث، من واقع الخرطوش المنحوت، وبجواره ملكة أو إلهة لم يتبق منها سوى الساعد الذى كان يحيط بكتفى الملك والجزء الأسفل من الجسد. كانت ساقا **رمسيس** وساعده ووجهه قد حُطّمت. هكذا فقد القدرة على المشى والحركة والإبصار، بعد أن حاول البعض **اقتيال** السحر العتيق للأشكال. وعلى جانبى العرش وظهره، نُحت تسعة وأربعون سطرّاً من النصوص، كانت عبارة عن رُقَى سحرية ضد الثعابين والعقارب.

«إن المعبد الصغير الذى عُثِر على تمثال **رمسيس** الثالث الجماعى بين جدرانها، لم يكن سوى مُصلية مخصصة لأفراد القوافل، مثل المعابد التى تحتفظ بها مدينة **الكاب**، عند مشارف الدروب التى تخترق الصحراء فى اتجاه **البحر الأحمر**. ومثلها كان هذا المعبد الصغير مقاماً على مقربة من **وادي النيل**، فى النقطة التى

(*) عينته الحكومة المصرية عام ١٩٢٤ مديراً لمصلحة الآثار المصرية، خلفاً للعالم الفرنسى **بيير**

لاكى Pierre Lacau.

(المترجم) Ch. Desroches Noblecourt. La Grande Nublade. Stock / Pernoud. 1992, p.99.

تختفى فيها مشاهد الطبيعة، فلا يتبقى للمسافر سوى أن يسلم أمره لألهة الصحراء التي كانت تشرف على الطريق المؤدى إلى برزخ السويس والذي يتفرع، بعد اجتياز الجبل الأحمر، من الطريق الكبير الذى يربط منف بمدينة هليوبوليس. ومن المعروف أن صحراء برزخ السويس كانت قد اكتسبت، منذ العصور القديمة سمعة مأساوية. فيقال إنها تعج بالثعابين المتوارية فى الرمال... وبالتالي كان تمثال رمسيس الثالث الجماعى، فى هذه المصلية القائمة عند بداية رحلة المسافرين، يهدف إلى حمايتهم من الزواحف ومن لدغتها التى قد تعرض حياتهم، فى كل لحظة من اللحظات، للموت».

وتختلف آلية هذه التماثيل عن آلية التماثيل الشافية من الأمراض. ففى هذه الحالة الأخيرة، كان الشفاء هو المطلوب، أى «التصدى لعدو دخل بالفعل إلى المكان، أى دخول السم فى الجسد»، ومن ثم ضرورة تناول شراب سحرى وهو عبارة عن سائل سكب على التعاويذ ذاتها فامتص قوتها السحرية. أما فى الحالة التى تعيننا، فكان المطلوب «استباق الأمور»، أى إقصاء عدو ما زال خارج الجسد. فالتعاويذ المنحوتة على التمثال «تعطيه قوتها وبذوره بعد أن شُحن التمثال بهذه القوة الكامنة، يصبح فى وسعه نقلها عن طريق الملامسة». هكذا ينشأ من حول الإنسان «إشعاع سحرى»، يعمل على إبعاد الحيوانات الخطرة.

وفيما نعلم، لا نعرف بوجود مثل هذا المعلم الأثرى قبل رمسيس الثالث^(٢٤). إنه ابتكار تفتق عنه زمن الرعامسة، الراغبين فى إيجاد الحماية لشعب مصر، بشتى الطرق والأساليب.

الملك البطل والكون

كان البطل فى مصر القديمة لا يكتفى بمجرد الوسائل البشرية عند خوض المعارك، فيتخذ أشكالاً حيوانية أو يندمج فى عناصر الكون. ولا يقتصر الأمر على مقارنات بسيطة أو مجرد صور، ولكنها إمكانيات للوجود، إنها حرية لا تعرف لها حدوداً.

إن الحرية فى نظر المصرى تعنى ليس فقط قدرته أن يغدو ويروح بلا قيود، ولكن أيضاً أن يتخذ لنفسه الشكل الذى يريده من بين أشكال العالم المخلوق. كانت هذه الحرية غير متاحة للبشر إلا بعد وفاتهم، بفضل معرفتهم للتعاويد المناسبة، أما الفرعون باعتباره كائناً استثنائياً، فكانت هذه الإمكانية متاحة له طوال فترة حياته على الأرض، وتحديداً إبان المعارك، عندما تصبح كل الفعاليات الكونية ضرورية ضمناً لانتصار البطل.

الأشكال الحيوانية

يتخذ الملك المقاتل هيئة حيوانات قوية وعدوانية، ويستخدم أسلحتها، كالثور والأسد والفهد، أو هيئة حيوانات مفترسة تعيش على القنص كالصقر وابن أوى، بل وهيئة حيوانات أسطورية، نذكر منها على سبيل المثال العقاب^(*) griffon.

إن استخدام رمزية الثور والأسد لنعت زعيم الحرب لم يكن شيئاً جديداً. فقد سبق أن ظهرت من قبل على نقوش الصلايات التى تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. ونلتقى عادة بصفة «الثور القوي» التى تُذيل أول ألقاب الملك وهو الاسم الحورى. ولكن أوصاف الحيوان الملكى فى خضم المعركة اكتسبت فى نصوص الرعامسة بُعداً على قدر كبير من الواقعية، بل وشديد القسوة، وتبرهن على ملاحظة ثاقبة فى التعرف على حياة الحيوانات وسلوكها.

إن سيقى الأول هو «الثور القوي»، ثابت القلب فى الحلبة، فتستحيل هزيمته».

وفى اليوم الثانى من معركة قادش، يقول رمسيس الثانى:

«كنت متأهباً للمعركة، مثل ثور نقد صبره»

و ضد الجنوب، فهو أيضاً:

(*) طائر متوهم لا وجود له، تخيله القدماء ثم صوروه برأس العقاب وجسم الأسد. المعجم العربى الأساسى. راجع أيضاً: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ٢٢٥. (المترجم)

ثور قدِير ضد بلد كوش الخسيس، يصل عجيج خُواره إلى منطقة الزنجى. إن حوافره تدمس النوبيين، بينما يخترقهم قرناه^(٢٥).

أما من إن يتاح فهو:

الثور الراقف فى الحلبة، وعينه وقرناه فى الوقت نفسه، متأهبة (على الدوام) للاصطدام برأسه على كل من يهاجمه^(٢٦).

كما أن فرعون هو «أسد قدِير» أو «أسد هائج».

فينفذ رمسيس الثانى، إلى قلب الأجانب، كالأسد إلى وادٍ (ترعى) فيه الماشية^(٢٧).

أما من إن يتاح فهو «الأسد الضخم الذى يستدير على يمينه^(*)، ثم ينتصب ويثب فى اتجاه حدود الأرض^(**)، بحثاً عن عدو البلد ولايسمح له أن «يتفياً» مرة ثانية^(٢٧)».

يا له من زهو وتشامخ فى ملامح هذا الأسد الملكى!

كان فى وسع الملك، منذ عهد تحوتمس الأول، أن يتخذ شكل الفهد، فطابعه العدوانى يليق بمحارب مغوار. إن رمسيس الثالث هو «فهد الجنوب الذى شامد المذابح».

إن مخلبى الصقر والسرعة التى ينقض بها على فريسته تُنسب إلى فرعون. ففى معركة قالمش يتحدث رمسيس الثانى ليُهدئ من روع قائد مركبته منّا المذعور، قائلاً له: «سوف أهاجم الأعداء كما ينقض الصقر على فريسته». هكذا «فأبته أسرع من السهم على القوس، لأنه يطير كالصقر الإلهى». وبعد أن تحقق له النصر «يتجمع

(*) فى اتجاه ليبيا. (المؤلفة)

(**) بلد كوش. (المؤلفة)

الزعماء فى قبضته، كما يطوق الصقر صغار العصافير». ويظل رمسيس الثالث:
«الصقر الإلهى الذى يضرب ويمسك».

أما الاندماج فى العنقاء فهو ظاهرة أحدث. والعنقاء حيوان أسطورى له منقار
نسر، أما فى مصر فله فى الغالب خَطْم ابن أوى الطويل أو حيوان ينتسب إلى ست،
وله أيضاً جناحان قويان وجسد أسد. وفى العالم الهليني «كانت طيور العنقاء مكرسة
للإله أبولون، فتحرس كنوزه فى مواجهة فرسان منطقة سكيتيه Scythie فى أقصى
الشمال. وبعض الباحثين الآخرين يجعلون من إثيوبيا أو الهند أيضاً، مكاناً لوجود
العنقاء». كما ترتبط طيور العنقاء بالإله ديونيزوس Dionysos، فقامت على حراسة
وعاء خمره^(٢٨)، إنها إذن حيوانات وظيفتها الحراسة والحماية، بسبب ما تتحلى به من
قدرة تأتى من أشكالها الحيوانية المتنوعة التى تجمعت فى كائن خيالى، يسعى إلى
مزيد من الفاعلية. وفى مصر، ذُكر الملك - العنقاء لأول مرة فى عهد رمسيس الثانى،
ليشيع استخدامه فى عهد رمسيس الثالث. تُرى لمَ ذكر طائر العنقاء فى هذا العصر
تحديداً؟ إن كبرى تحركات الشعوب التى كانت السمة البارزة لهذا الزمن، ونزوع
الرحامسة إلى إكساب الروحانية أبعاداً عالمية، قد ترتب عليها تبنى أشكال جديدة،
أتت بلا شك مع شعوب البحر.

هكذا ففى معركة قادش، كان رمسيس الثانى يطارده الحثيين «مثل العنقاء».
وكان صوت رمسيس الثالث «يتضخم عند إصدار الأوامر مثل صوت العنقاء». أما
ليبيو الزعيم مريى فيقولون عن المصريين: «إن سيدهم أشبه (بالإله) ست، محبوب
رع». «إننا نسمع صيحته - صيحة الحرب - مثل صيحة العنقاء، عندما يطاردها،
وينصرعنا بلا رحمة»^(٢٩).

ويبدو من المؤكد، أن شكل العنقاء المركب قد لقي استحسان المصريين.
فبالنسبة لهم لم يكن هذا الشكل واحداً أو ثابتاً على الدوام، إن مختلف الأشكال
الحيوانية التى يتخذها الفرعون فى المعارك لا تتعاقب بالضرورة، بل يمكن أن تتوافق
الواحدة مع الأخرى، وتتداخل وصولاً إلى فاعلية سحرية أكبر. ويتحول البطل إلى
كائن مركب متعدد الأبعاد، ينتمى بالكامل إلى الفكر الأسطورى.

سيتى الأول هو:

الصقر الإلهى، بريشه المتعدد الألوان، الذى يعبر السماء مثل جلالة رع، وابن
أوى عظيم القُدو، الذى يعبر أرجاء البلاد فى ساعة زمن، والأسد الشرس الذى يذرع
الطرق السرية فى كل البلدان الأجنبية، والثور القدير صاحب القرنين الحادين والقلب
الأبى، الذى يدوس الأسويين بقدميه ويسحق الميثيين^(٢٠).

ورعسيس الثانى هو:

« ثور بقرنين حادين، إنه بكر البقرة، تاركاً أرض المعركة بعد أن أجهز على أعدائه.
« وأسد قدير، تقتنص مخالفه اقتناصاً، مزمجراً فيطلق صوته فى الوادى حيث ترعى
الأغنام.

« وابن أوى السائر مسرعاً، باحثاً عمن يقترب منه، ومتجولاً فى لحظة عبر مدار
الأرض حتى أطرافها.

« وصقر إلهى مقدس له جناحان، ينقض على الصغار وعلى الكبار^(٢١).

ورعسيس الثالث هو:

أسد صيحاته متناقلة فى قمة الجبال... وطائر العنقاء بخطواته الواسعة،
صاحب الجناحين. وملايين الإيتو^(٢٢) فى نظره، كأنها... إنه الفهد الذى يعرف فريسته
ويُمسك بمن يهاجمه^(٢٣).

إن خلط الأشكال المطلوب يظهر بكل وضوح فى نص مدينة هابو:

(*) مقياس مسافات، ويعادل الإيتو الواحد عشرة كيلومترات ونصف.

Sir A. Gardiner. Egyptian Grammar. Ashmolean Museum, Oxford. Third édition, revised, 1982,

p.199. (المترجم)

قلب صاحب الجلالة خطير، لأن قوته هي قوة أسد مترصد يقف متأهباً
للانقضاض على الأغنام. إنه مُجهز كثور مقدم، إن ساعديه البتارين هما قرنان لفلق
الجبال في ظهر من يهاجمه (٣٣).

وقد تبلغ هذه التحولات الأسطورية في الفكر المصري أبعاداً كبيرة، خالقة
مشهداً خيالياً، وكنمط رائع خلاب من الأشكال والضوضاء الصاخبة سيصبح أداة
سحرية لتحقيق النصر.

وفي مدينة هابو أيضاً، وأثناء حملة العام الخامس، يقال عن رمسيس الثالث:
في ذات يوم، ظهر فتى كان شبيهها بالعنقاء. كان جنوده عندما يصيحون
تنضخم أصواتهم، وكانوا مثل الثيران المتألمة (للقتال) في الحلبة. وجياده كانت مثل
الصقور عندما ترى الفرافير، فتزجر (زمجرة) أسد ثائر وهائج. وكان حملة البيارق
والقادة مثل ويشيبي (*). فيرون عشرات الآلاف وكانهم قطرة ماء. وأمامهم كانت قوته
- قوة الفتى - مثل قوة موتو (٣٤).

الأشكال الكونية

ولا يستمد البطل الملكي فاعليته من المخلوقات الحيوانية فقط، بل من عناصر
الكون ذاتها أيضاً.

هكذا، فإن رشقة السهام التي يسدها تختلط مع الأثر الذي تتركه النيازك عند
سقوطها على الأرض.

فيقال عن رمسيس الثاني:

(*) إله محارب. (المترجم)

«عندما يمسك بقوسه وهو على متن مركبته، فإنه يقبض على سهمه وكأنه نجم متألق وسط الآلاف المؤلفة».

«إنه يرشق سهماً بعد سهم، وكأنها نجوم إلهية متألقة».

ورهمسيس الثالث ذاته، يصبح نجماً، فيطارد الأعداء مكتسباً سرعة اندفاع نيزك. إنه «النجم الإلهي المتألق، الشرس في مطاردتهم».

كما يتحول البطل إلى نور وهبوب الريح. إن وهمسيس الثالث هو:
«النور الحى الذى يسطم على مصر».

ومر إن پتاح: «النور الذى يطرد السحب المتراكمة فوق مصر ويتيح للبلد المحبوب رؤية أشعة قرص الشمس».

إنه يُزيح: «التل النحاسى من فوق رقاب البشر، ويمنح النسمة العلية للكائنات المختنقة... إنه الواحد المتفرد الذى يقوى قلوب مئات الآلاف، لأن الأنفاس عند رؤيته تنسحب من جديد إلى داخل الأنوف»^(٣٥).

إنه يمتزج امتزاجاً كاملاً مع الأجرام السماوية واهبة الحياة. إن وهمسيس الثانى هو: «ابن ست محبوب مونتق إنه نجم من أجل الأرض، وقمر من أجل مصر وشمس من أجل البلد، ساطع من أجل البشر، وقرص متألق من أجل الشعب. فالكائنات يدب فيها النشاط عندما تراه»^(٣٦).

إن كل عناصر الكون التى تجلب الخير على مصر تتكاثف فى الملك.

البطل والآلهة

الملك - البطل هو ابن الشمس النورانى. إن وهمسيس الثانى، هو «النطفة المتألقة لسيد الزمن الأبدى». إنه «صورة رع الحية، الذى أنجبه من يقيم فى هليوبوليس، ابن أعضائه من ذهب، وعظامه من فضة، وكل جسده من نحاس السماء»^(٣٧). كما أن العامل الملكى قد يكون ابن ميل أو مونتق أو ست أو پتاح.

وحسب كل بلد من بلدان الإمبراطورية، يتغير اسم من أنجبه. فقد يكون في نظر **الآسيويين ابن بعل**. فيتحدث زعيم سورى إلى **رمسيس الثاني**، قائلاً: «لا يوجد غيرك إذن، من يشبه **بعل**، أيها الأمير، (فأنت) ابنه الحقيقي للزمن اللانهائي». وفي نظر الأفارقة قد يكون ابن **إمدون** أو بالأحرى ابن **خنوم**، إله حدود مصر الجنوبية. ففي عبارات تمنّ موجهة إلى **رمسيس الثاني** يُقال: «**قلحي الإله الكامل، ابن خنوم، الذي ولدته أنوكيس^(١)، سيدة النوبة** وأشرفت **ساتيس^(٢) سيدة الفنتين^(٣)** على إطعامه^(٤)».

إن مرونة وتنوع الفكر الأسطوري المصري عظيمان. وإذا كان من المفيد أن يكون الملك ابن إله، ضماناً لشرعية وراثته العرش أو إضفاءً للشرعية على اغتصاب الملك، فلتأكيد الانتصار على العدو، يكون التأثير أبلغ تأثير، عندما يكون البطل ابناً لعدد من الآلهة، سواء على التوالي أو في آن واحد، فتتراكم فاعليات كل إله من هذه الآلهة، لتضفى على العاهل الملكى قدرة سحرية أكبر وأعظم.

هكذا، فإن **رمسيس الثاني** هو «**ابن أمون وببضة أتمم الممتازة**». كما أنه «**ابن رع، الذي أنجبه پتاح**». و**رمسيس الثالث** هو «**نطفة رع الإلهية، ومن صلبه، والصورة المقدسة والحية، لابن إيزيس**». وإلى هذا الملك ذاته سيوجه الكهنة ووجهاء المجتمع كلامهم قائلين:

إن أباك أمون يعطيك القوة والبسالة، مكافأة لك... أنت ابنه الذي من صلبه... إنه يضع البلد بأكمله تحت قبضتك، مثل أبيك موتو^(٥)».

كما أن أى ملك من الرعامسة، قد يكون أيضاً بناية إلهية حقيقية، شيدتها الآلهة بأيديها، ليصبح بطلاً لا يقهر^(٦). فعلى تابوت مر إن پتاح الحجرى، نُحت نص ترنيمة وجهتها الإلهة **ثيث** إلى الملك. فنقرأ تحديداً ما يلى:

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **مات**. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **سث**. (المترجم)

(***) الاسم اليونانى للاسم المصرى القديم **أبي** وجزيرة **أسوان** حالياً. (المترجم)

إني أُنشِّدُكَ مثل رَع، ثم أرفعك على ساعدَيَّ، وأُتَوَمِّجُ فوق رأسك وأجددُ من أجلك الثعبان الشمسى(*)، هكذا أقيم أشكالك على صورة أشكال سيد الأشعة. ثم أحضر الآلهة التي تنحني من أجلك. ويأتى رَع إليك ويعانقك، ويحطُّ على هيبتك المقدسة(**)، وينير وجهك، ويمنحك بريقه وسطوعه وتألقه... إني أُعطيكَ النار، كما أن لهب الثعابين المقدسة الأربعة هي لك، على مرِّ الأيام وعلى جميع الدروب، فتصدُّ أعداك وتقبض على المتمرّد الفاسد الطبع. إني أضعك على ظهره بحيث لا يتمكن من الهروب إذا أراد(١٦).

إن وجه رمسيس الثالث كامل الملامح عندما يرتدى الريشتين مثل تاتان، والحب الذى يحركه فى النفوس وشكله مما حب وشكل صاحب الجلالة رَع، عندما يتألق عند مطلع الفجر. إنه جميل وهو جالس على عرش اتوم، بعد أن أمسك حُلًى حورس وست. أما نخبث وواچت، ومما عُقاب الجنوب وثعبان الشمال، فقد استقرَّ فوق رأسه. إنه مدرك قوته مثل ابن نوت. فهيبته فى قلوب الأقواس التسعة(١٧).

هكذا، فقد جهزته الآلهة تجهيزاً جَزْلاً، فهو من ذريتها وصورتها المركبة، إلى هذا الحدِّ أو ذاك. ومن بين أشياء أخرى، فإنه يتمتع ببسالة أمون-رع ونشاط مونقو والقوة الضاربة للإله ست أو للإلهة سخمت، و«قدرة الإله يعمل على البلاد الأجنبية». وقد ورث عن أبائه موهبة سحرية أخرى، فالعاهل الملكى مرتبط بدورة الزمن الأبدى. وإليك ما قاله رمسيس الثالث إلى أمون-رع:

أجل، إني أعرف الزمن الأبدى، أيها الأب الجليل، ولا أجهل الزمن اللانهائى، أنت، أيها القائم أمام قلبى.

(*) الصلُّ. (المؤلفة)

(**) صورة الصقر الشمسى. (المؤلفة)

ولما كان الملك قادراً على الاندماج فى الكون، فإنه يحيا امتداده الزمنى. إن
زمنيهما مرتبطان ويتوافقان. ففي نظر رمسيس الثالث:

❖ ما دامت الشمس تشرق وتغرب، ستظل أنت سيد مصر.

❖ ما دام القمر يجدد ولادته، وما دام نون يجوب الدائرة الكبرى، سيظل اسم سيد
القطرين، أوسر مامت رع - محبوب - آمون فى قصره، للزمن اللانهائى^(٤٢).

إنه نظام ملكى إلهى متنوع الأوجه، رحب وأبدى، لقد احتفظ نظام الرعامسة
الملكى بروابط متميزة مع الآلهة، روابط مادية بطبيعة الحال، ولكن أيضاً روابط ذات
بعد عاطفى أو ذهنى، قائمة على تبادل الحب والثقة من جانب الطرفين.

إن مر إن يتاح هو «حب آمون».

ورمسيس الثالث هو «حب رع».

إن الوجود الإلهى يحلُّ فى البطل عند خروجه إلى المعركة. وعن رمسيس
الثالث عندما كان يستعدُّ لمحاربة الآسيويين، قيل:

لقد جعلت قلبى ممثلاً بإلهى آمون - رع، سيد الآلهة، إنه الباسل المقدام، سيد
القدرة.

كما قيل عنه، عندما سار ناحية الغرب ليقا تل الليبيين:

انطلق صاحب الجلالة، الباسل الصنديد. كان ساعده قويا وقلبه ممثلاً بأبيه،
ملك الآلهة.

إن عاطفة حقيقية مفعمة بالبركة، تربط الإله بالبطل. فيتحدث رمسيس الثانى
إلى آمون - رع قائلاً:

إني أمتلئ بإرشاداتك، ومن أجلك أودُّ أن أعمل بقلب وبور كل ما قد يفيدك.

الملك هو البطل الكامل الذى يرضى السماء والأرض.

تتحدث الآلهة [بشأن رمسيس] قائلة: إن بذرتنا فيه. وتقول الإلهات: لقد خرج فى وسطنا ليمارس الملك. ويقول آمون: أنا الذى أنجبته ووضعت ماعت فى مكانها (الصحيح). الأرض راسخة ومستقرة، والسماء سعيدة والتاسوع راضٍ بسبب صفاته^(٤٤).

ثانياً: المعارك

عندما كان المصرى يقدم روايته للمعارك الحربية لم يضع نصب عينيه القيام بعمل المؤرخ، فيصف الأحداث وصفاً دقيقاً، بل القيام بعمل الساحر. فمن أجل جعل انتصارات الرعامسة أبدية لجأ المصرى إلى قدرة إحياء أشكال النقوش الجدارية والكلمات من متون وخطب وأحاديث. إن الملاحظة العينية والتبديلات الأسطورية تتداخل أيضاً لتتقدم فيضاً من الصور التى ترمى من خلال أسلوب جزلٍ غنى بالاستعارات، وإيحائى أكثر منه وصفى، إلى تقديم تقرير عن الأسلحة والمركة ذاتها والانتصار وخضوع البلاد المهزومة.

الأسلحة

الوسائل المستخدمة لتحقيق النصر متنوعة، وبطبيعة الحال فهى مادية أو بشرية، فشخصية إذن، ولكن معنوية أو أسطورية أيضاً.

الأسلحة البدنية

إن ساعد الفرعون هو تقليدياً ساعد مقتدر، محملٌ بالقوة التى أعطته إياها الآلهة. ولكن وجهه أيضاً سلاح، فلا يستطيع الأعداء تحملُ النظر إليه. إن رمسيس الثانى، عندما يهيم «بالسير يخرق وجهه الإلهى الجموع الغفيرة».

أما اللسان أو الفم فهو وسيلة أخرى - شفوية - للإجهاز على العدو، وهي وسيلة معروفة منذ أقدم الأزمنة. فممنذ سنوسرت(*) الثالث «يقوم لسان صاحب الجلالة بقمع النوبيين، أما أحاديثه فتدفع الآسيويين إلى الفرار». ومن قبل كان الحكيم خيتي(**) الثالث قد علّم ابنه «أن مقدرة الإنسان في لسانه، فالكلمات تفوق أى معركة من المعارك قوة». إنه سلاح فريد للإنسان الحاذق، ولم يتردد وهمسيس الثانى فى استخدامه: «إنه يدخل بمفرده وسط كتلة الأعداء فيجهز عليهم، وهو يتحدث بلسانه ويحرك ساعديه».

إن رائحة البطل وهي أريج الآلهة نفسها(***)، تهرب العدو الذى يُسَلَّم بانه كائن فريد فى بابه، لا مثيل له. إن رائحة سيتى الأول «حطمت قلوب» الصيئين.

وبالإضافة إلى هذه الأساليب الشخصية شديدة الخصوصية، يجد الملك تحت تصرفه أسلحة مصنوعة على غرار ما يوجد بين أيدي جنوده. إنه تحديدًا قوأس مرهوب الجانب. إن وهمسيس الثانى «قوأس لا مثيل له، وأقوى من مئات الآلاف مجتمعين». إن قوس وهمسيس الثالث شديد الفاعلية عند مواجهة الليبيين: «لقد هُشم سهمه أطرافهم وعظامهم وسوا عدهم، بينما يتوسلون إلى اسمه».

كما أن السيف الذى سلّمه أمون للعاهل الملكى سلاح خطير أيضاً، فبه استطاع سيتى الأول أن يجهز على الآسيويين والأفارقة:

✧ إن سيفك فوق رأس كل بلد أجنبى، وينصله تُجهز على زعمائه.

✧ فبسيّك حطمت بلد الزنجى.

(*) من الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

(**) من خواتيم عصر الانتقال الأول. (المترجم)

(***) كان المصريون يعتقدون أن شذا العطر هو المظهر الرئيسى الذى تتجلى من خلاله الكيانات الإلهية غير المرنية. كما أن دخان البخور المحترق هو أشبه بالانتقال بين عالمين.

(المترجم) . M. Damiano- Appla, L'Egypte. Dict. Encyclopédique. Gründ. 1999. p.89.

الأسلحة المعنوية

إن الرعب الذى يعترى نفوس الأعداء والهيبة التى يستشعرونها كافيان لإصابتهم بالشلل أو دفعهم إلى الهروب.

كما أن فراغة آخرين قد استخدموا هذا السلاح وهو سلاح معنوى بحت وإن كان للخوف تأثيره الفعال، ففي ترنيمة مرفوعة إلى سنوسرت الثالث، يقال:

❖ *إن الرعب الذى يثيره فى النفوس قد ضرب النوبيين فى أراضيهم.*

❖ *إن الرعب الذى يثيره قد قتل الأقواس التسعة.*

كانت هيبة الرعامسة عظيمة.

فبسبب سيقى الأول يمتنع الأعداء عن الوقوف، ويثنون ركبهم، بل ينسون مجرد الإمساك بأقواسهم، ويقضون سحابة يومهم فى الكهوف، يختبئون كالذئاب، لأن الفرع الذى يثيره صاحب الجلالة قد نفذ إلى قلوبهم^(٤٥).

وما العمل عند رؤية رمسيس العظيم؟

❖ *عندما يراه أمراء (البلاد الأجنبية) يُغشى عليهم، فالرعب الذى يثيره يظل فى قلوبهم.*

❖ *يسرى الخوف فى أجسادهم، وترتعد أطرافهم ليل نهار.*

أما مر إن يتاح

❖ *فإنه يصرع (الأعداء) بسبب الخوف الذى يثيره فى نفوسهم.*

وإذا اختلف التأثير، فإن النتائج الحاصلة هى سقوط العدو سقوطاً مؤكداً بلا أدنى صعوبة.

إن الهيبة العالمية التى يتمتع بها رمسيس الثالث تفرض قانونها على العالم بأسره.

إن الخوف منك يصيب الشعوب في بداية الأرض(*)، وبعد أن سحق قلوب أبناء
خن - نفر(**) خترق بلاد الفينيقيين وتوغل إلى داخل بونت وعند السائرين - على
الرمال(٤٦).

وإذا كان أسلوب هذا النص يتَّسم بالشاعرية الغنائية، فإنه لا يبعد كثيراً عن
الحقيقة، إذا وضعنا في اعتبارنا الصراعات البطولية التي خاضها رمسيس الثالث
عند تصديه للغزاة.

الأسلحة الأسطورية

عندما يحارب العاهل الملكي المتمردين فإنه يصبح ناراً وماءً. النار تحرق وتأتي
على الأخضر واليابس، ويأخذ من الماء وجهها العاصف الكاسح المدمر. فتتصاعد
النار من شخص الفرعون ذاته، من فمه أو من اسمه أو من صلته. إن جميع عناصر
شخصيته ذات طبيعة نارية، مثل أبيه الشمس(***).

ومنذ زمن تحوتمس الأول «كان الأعداء يفرون وقد خارت قواهم بسبب لهب
صلته».

والرهامسة يحرقون أعداءهم ويصلونهم ويصيبونهم بالاختناق. إن الأسرى
القادمين من بلاد الريتو يقولون عندما يمثلون أمام سيتي الأول:

انظروا إلى ذلك! إنه مثل لهب متصاعد والماء ينضب. ويحمل المتمردين على
الإقلاع عن النعمة، لأنه استولى على أنفاس أنوفهم(٤٧).

إن رمسيس الثاني نار متوهجة:

(*) مناطق نهر الفرات. (المؤلفة)

(**) من بلاد كهي. (المؤلفة)

(***) نعيد إلى الإذمان أن لفظ شمس مذكور في اللغة المصرية. (المترجم)

قدير هو صدره ساعة حومة المعمة، كاللهب عند تأجيجه.

إنه يُقدم وصفاً لعمله الحارق فى اليوم الثانى من معركة قادش، قائلاً:

إن ثعبان جبينى كان يُجهز من أجلى على الأعداء، فيضع حُمُوه كاللهب فى وجه أعدائى. كنت مثل روع عندما يتألق عند مطلع الفجر، بينما كانت أشعتى تأتى على أجساد المتمردين^(٤٨).

يا له من زهُو متشامخ للإله رمسيس!

كما أخذت النار تتطور ويتسع مداها فى عهد رمسيس الثالث:

❖ إنها الحارقة المقتدرة واللهب فى السماء.

❖ إن اللهب العظيم لصاحب الجلالة يمتزج بقلوب الأعداء، حازقاً عظامهم داخل أجسادهم.

والملك هو أيضاً عاصفة عاتية، إن رمسيس الثانى هو:

الأمير المقدام، فيُجهز على من كانوا يجهلونه حتى الآن، إنه مثل العاصفة التى تُدمر وتجلجل وسط الشديدة - الاخضرار، إن العُباب^(*) الهابط، أشبه بالجبال، فلا يستطيع أحد الاقترب منه، فى حين إن كل ما بداخله ابتلعه اللوات^(**)^(٤٩).

إن العاصفة والرياح المثيرة للرمال تصاحب رمسيس.

إنه عاصفة على البلدان الأجنبية، وصخب عظيم، فيتراكم الغمام مطبقاً على الأمراء (الأعداء)، لتخريب مدنهم وتحويل أماكن إقامتهم إلى مناطق قاحلة^(٥٠).

(*) العُباب ارتفاع الموج. المعجم الوسيط. (المترجم)

(**) العالم الآخر. (المؤلفة)

إن صوراً جميلة وموحية، تبعث الحياة فى هذه الأوصاف الشاعرية الغنائية.

إن صاحب الجلالة هو خلف ظهر الأعداء، ... العاصفة التى تدوى من خلفهم
وتؤجج اللهب. إنهم أشبه بريش العصفير فى مواجهة هبوب الريح^(٥١).

كما سيكون رمسيس الثالث عاصفة مكفهرّة.. لمطاردة من هاجمه.

فهل يمكن لكل هذه الأشكال والمظاهر والأسلحة، ألا يكون النصر، ولا شىء
غير النصر، حليف بطل الرعامسة، الذى يقود جيشه إلى المعركة؟ فيقال إلى
رمسيس الثالث:

إن قدرتك فوق جيشك. فليسِر الجنود ممثلين بقوة، هى قوتك.

المعركة

مسارد المعركة تقدم، فى المقام الأول، وصفاً لحومة المعمة، وتشير أساساً إلى
بطولة الفرعون، وكيف دارت رحى الحرب على الأعداء، وإلى مصير المهزومين البائس.
ويعنى آخر فإنها تشير إلى كل ما يمكن أن يساهم، من خلال الكلمات، إلى تحويل
مجد المنتصر إلى مجد يعيش إلى الأبد. وفى هذه المسارد نجد أن الواقعية فى أشد
صورها قسوة توجد باستمرار، جنباً إلى جنب خيال الأسطورة الجامع. إن مصر هى
بلد السحر الذى لا تُعرف له حدود.

حومة المعمة

شأنه شأن كل الفاتحين، فإن الملك هو أول من يسير إلى المعركة. إن رمسيس
الثانى هو:

♦ الأول فى مقدمة جيشه.

♦ إنه ملك يخوض المعركة أمام جنوده يوم الوغى، إنه ملك ذو بأس عظيم، والأول فى
حومة المعركة.

إنها معركة حامية الوطيس.

وفى قادهش نجد أن رمسيس الثانى:

عظيمة هى قدرته على جياده، عندما يقبض على قوسه، مسدداً السهام يميناً
وزابحاً الأعداء يساراً.

إن نصوص مدينة هابو بخشونتها وشاعريتها الغنائية الحافلة بالاستعارات
النضرة، تُعبر تعبيراً رائعاً عن مقدرة البطل الهجومية.

فينقض رمسيس الثالث على الليبيين:

لقد خرجت عليهم كالأسد، إنى أضربهم جاعلاً منهم حزماً وأضاميم. إنى
أطاردهم كالصقر الإلهى عندما يشاهد الغرافير فى أعشاشها... إن سهماً واحداً من
سهامى لا يخطئ هدفه، بينما يصيح قلبى، كالثور وسط الخراف أو مثل سمك عندما
تثور ثائرته^(٥٢).

إن ساعديه يطوقان صدر من انتهك حدوده ويشدانه. إنه يهب ثائراً باسطاً يده
اليمنى مخترقاً، بينما يدمر ويذبح عشرات الآلاف فى مكانهم تحت صدر جياده. إنه
ينظر إلى حشود الأعداء الغفيرة كما لو كانت جرأداً، فيضرب ضربته ويسرع ويعمل
بنشاط وكأن الأمر يتعلق بالقمح. (إنه البطل) ذو القرنين القويين، الواثق فى قدرته،
فأمامه لا يُحسب حساب الملايين وعشرات الآلاف، لأن هيئته أشبه بهيئة مونتو عند
ظهوره، فبسببه يعيش كل بلد فى ضيق وقلق^(٥٣).

فى رواية الحربين الليبيتين اللتين شنهما رمسيس الثالث فى العام ٥ والعام

١١ من عهده، تتعاقب الصور فى عنف وحدة:

إن عبارة «مخلبه على رأس الماشواش» عبارة فظة عن السيطرة المطلقة،
وتصبح المعركة أحياناً معركة أسد يتصدى لفران لا أمل لها فى النجاة:

لقد تحالفت كل البلاد ضد مصر. ولكن الإله هو الذى أتى بها ليدمرها الأسد
المقتدر المقدام، لأنه السيد الفريد الذى لا مثيل له. إن مخلصه السلاح تسليحاً جيداً
أشبه بالبرائن. عندئذ تم اختطافهم^(٩٠)، بينما كانوا يسيرون قُدماً، وفى أجسادهم
رعدة ورعدة، ليموتوا تحت ساعديه مثل الفئران^(٩١).

الآلهة تشارك فى المعركة، وتساعد الملك، فاتحة له الدروب، وتظله بحمايتها.

«إن آمون-رع، ملك الآلهة، يتقدم ابنه»، وهمسيس الثانى.

وبينما يتقدم وهمسيس الثالث فى اتجاه الغرب على رأس جيشه لمواجهة
الغزاة، يقول له آمون-رع:

انظر، فأنا أمامك، يا بُنى. إنى أقيم مجدك بين الأقواس التسعة وميبتك فى
قلوب زعمائها. إنى أ مهد من أجلك دروب بلد التمحى وأدهسهم أمام جيارك^(٩٥).

كما كان مونتو موجوداً «ليحميه عن يمينه وعن يساره، فاتحاً أمامه الطريق،
باسطاً الدروب».

ويد الإله مع البطل: فالذى خرج منتصراً من معركة قاش، يقول عن آمون-
رع: «إن يده معى فى كل المعارك»:

ويتحدث آمون-رع إلى وهمسيس الثانى قائلاً:

«يدى هى درع صدرك، للإجهاز على الشر الذى كان بجوارك».

وتتجمع آلهة الإمبراطورية لتشكّل سياجاً سحرياً حول الفاتح المغوار.

وبالنسبة للملك وهمسيس الثانى:

(*) أى أبناء كل هذه البلاد. (المترجم)

فإن مونتق وبعل مع في كل المعارك، ومئات ومشتروت درعه، في حين يتولى
أمون القيادة، من خلال فمه (٥٦).

إنه طوق من الآلهة يستحيل اختراقه.

وكرجع الصدى، يقول رمسيس الثالث هذه الكلمات:

إن أيديها بالنسبة لي درع صدرى لإبعاد الشر وهموم جسدي (٥٧).

والآلهة هي أيضاً رفيقة السلاح بالنسبة للجنود. إن الآلهة والملك والبشر
يتعاونون، في وحدة متكاملة، للوصول بالمعركة إلى النصر المبين. يا لها من رفقة
سلاح تشكل كلاً يستحيل قهره.

لقد غادر جيش مر إن پتاح معسكراته وزحف على پر إيرى بعد أن تم
اجتياحها:

عندما انطلقوا كانت يد الإله معهم، كان أمون بجوارهم بمثابة درعهم.

❖ وفي پر إيرى:

عندئذ تقدم سلاح مشاة صاحب الجلالة ومعه سلاح مركباته، كان أمون - رع
معه، في حين كان إله أومبوس (*) يمدُّ لهم يده (٥٨).

فالآلهة والبطل يؤمنون بحماية مصر حماية أكيدة، لا ريب فيها.

قيل إن مصر، هي منذ زمن الآلهة، ابنة رع الوحيدة (**) وقد جلس ابنه على
عرش من نور. وحتى إذا نوى أحدهم فأنه لن يستطيع اجتياح شعبها، لأن عين كل إله

(*) الإله صت. (المؤلفة)

(**) وبلغة عصرنا نقول إنها أرض الكتلة أو أم الدنيا. (المترجم)

من الآلهة، ستكون وراء ظهر من ينتهك حرمة البلد، وهذه العين هي التي ستطرد الأعداء (٥٩).

العين الإلهية التي تصدر الأحكام وتعاقب هي صورة تغالب الأيام، تفتقت عنها قريحة الشعوب السامية. وفي حومة المعمة، يشعر البطل بسعادة المنازلة ونشوة المعركة.

فعندما جاء من يبلغ سيقى الأول أن الشاسق يدبرون تمرداً ضد غزة ولا يحترمون قانون الفرعون،

عندئذ اعترت قلب صاحب الجلالة السعادة بسبب ذلك. إن الإله الكامل يبتهج لحظة خوض المعركة، ويفرح بسبب من عصوه، إن قلبه راض لرؤية الدم، عندما يقطع رموس المتمردين، إنه يهوى اللحظة التي يدوس فيها العدو بأقدامه، في يوم الفرح هذا (٦٠).

إن رمسيس الثالث «يخترق جمع (الأعداء) الكثيف، فيُخزن تقتيلاً، سعيد القلب، لأنه ينظر إلى الملايين منهم وكأنهم قطرة ماء».

انهزام الأعداء

صيغ في عبارات قاسية وعنيفة، تجاوزت عن قصد كل الحدود، فعن طريق التأثير السحري للكلمة يجرى تعظيم دوام تأثير النصر ونتائجه، سواء كان الحيثيون الذين أوقع بهم رمسيس الثاني الهزيمة، هم المعنيين:

«عندئذ بقوا بعيدين، يلامسون الأرض أمامي بأيديهم. وأمسك بهم جلايتي، وقتلت منهم حتى لم يبق أحد. كانوا يهرولون أمام جيادي ممددين صرعى، في هيئة كومة فريدة في بابها وسط دمانهم (٦١)».

أو كان الليبيون الذين هزمهم رمسيس الثالث، هم المعنيين:

♦ **المباشرة والتمحوص ينتحبون ويخرون ثم ينهضون أيضاً، ومع ذلك فإنهم يطلقون أنثا تصل إلى أطراف الأرض. وبينما يركضون هاربين تظل عيونهم على الدروب لينظروا خلفهم. ولكن اللهب يمسك بهم ويبيد أسماءهم من على وجه الأرض، وتتأقل أقدامهم على البسيطة. فسيد مصر العظيم لن يدخل عليهم الطمانينة، بل إن جياهم هي فوقهم منذ الآن^(٦٢).**

♦ **إن دماهم في مكان وجودهم، كالسيل الدافق، بينما تسحق جثمانهم في المنطقة ذاتها التي أرادوا اجتيازها^(٦٣).**

♦ **هذه الصورة التي تتجاوز كل الحدود فيصعب احتمالها، هي للبطل المنتصر: «ساحقاً عظام المددين أكواماً أكواماً، تحت مخبئه^(٦٤)».**

♦ **إن أرض المعركة الغارقة في الدماء مفروشة بصفوف وأهرامات من الجثث^(*).**

♦ **إن رمسيس الثاني:**

♦ **«يدوس الخاتى بقدميه، ويقيم صفاً طويلاً من الأعداء الذين أجهز عليهم».**

♦ **وبفضل مر إن پتاح:**

♦ **إن آذان وعيون بلاد كوش التي تم اقتلاعها تشكل أهرامات في مدينتها ولن تتجدد أرض كوش بعد أن أُلِفِطت^(**) للزمن الأبدى^(٦٥).**

♦ **أما رمسيس الثالث:**

(*) خلاف الأهرامات المصرية ذائفة الصيت. (المترجم)

(**) كما يُلَفِظ الطعام الفاسد من الفم. ومع ذلك، وبعد أقل من خمسة قرون سيأتي منها من يحكم مصر ويؤسس الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية. (المترجم)

فبعد أن بسط ساعديه وصدَّ الأقواس التسعة، فإنه يجرد الآن الماشواش، بعد أن تحولوا إلى أهرامات (من الجثث)، بينما قُيد زعيمهم أمام جياذ الملك^(٦٦).

الصور التي تقدّم وضعا للعدو الواقع في الأسر موحية إلى أقصى حد، مبرزة الجانب المعنوي من وضعهم.

فيعتبرون هم والماشية الأسيرة شيئا واحداً. هكذا يتحدث المدافعون عن حصن دابور الذي استولى عليه رعمسيس الثاني:

«إننا أشبه بقطعان الماشية التي أجهزت عليها مذبة الأسد المتوحش».

أو هكذا يتحدث الليبيون الذين طوّقهم رعمسيس الثالث:

«لقد أطبق علينا الفخ بينما كنا في حضرتة، فلم يعد لدروبنا أو لخطواتنا وجود، بينما يلحق (رعمسيس) متألّقا بعرشه. لقد أمسك بنا الإله لصالحه، وكأننا فريسة، وأشبه بالأغنام التي تعثّرت في فخ نصب لها. لقد تحولنا إلى غنيمة أمامه... وأيدينا فوق رءوسنا. ولكنه لا يلتفت إلى الوراء، حتى إنه لا يلاحظ أننا نتوسّل إليه^(٦٧).

إنهم طيور أو أسماك تم اصطيادها: «مربوطون كالطيور في حضرة الصقر الذي تتوارى مشيته في أعماق الأجمة»^(٦٨).

«وعن رعمسيس الثالث يقال أيضاً:

«ضد من ينتهكون حدوده، سوف يخرج صاحب الجلالة متصدّياً لهم كاللهب. عنئذ سوف يتكسّون كالطيور في الشباك، ويضربون ومم في المصايد»^(٦٩).

الأعداء الذين أسروا لا يُثيرون الخوف منهم، أكثر مما تثيره الكتاكيت، الضعيفة المذعورة.

♦ إن رهمسيس الثالث: «هو القلب القدير فى المعارك، الذى يهزم عشرات الآلاف، ويحول البلاد الأجنبية إلى «**أمشاش الكتاكيت**» تحت صدور جياده»^(٧٠).

إن ضررهم ليس أكثر من ضرر القليل من القش الذى تذريره الريح، ففى نظر رهمسيس الثانى:

♦ «كان **أمون** يحول البلدان الأجنبية إلى تبى أمام جياده».

والمأشواش المهزومون يصيحون وينتحبون قائلين:

♦ «انظروا، لقد حُلَّت علينا المصائب بارتفاع السماء... إننا أشبه بالتبى الذى تطارده الريح»^(٧١).

مصير المهزومين

وعلىنا ألا نُسئ الفهم عندما نتناول هذا العنف اللفظى، إذ يظل إلى حد كبير لفظيا. فقد كان المصريون سحرة مرموقين عند تعاملهم مع الألفاظ والكلمات. فيجيدون استخدام مقدرتها الإيحائية لخلق مجال لا يعكس بالضرورة واقعاً فعلياً.

صحيح أن الأسرى كانوا يساقون، فى حقيقة الأمر إلى مصر، واضعين أيديهم فوق رؤوسهم أو موثوقة خلف ظهورهم، ليعملوا خدماً فى حيازات الأملاك على وجه التحديد، ولكن كان يدمر كياناتهم البدنى والمعنوى تدميراً سحريا. «فيتم الاستيلاء على نطفتهم». ويُباد اسمهم. فعندما يتعامل رهمسيس الثالث مع الأعداء «يُقَوَّضُ بِأُلُوَاتِهِمْ وَيَسْتَوْلَى عَلَى نُطْفَتِهِمْ» و«يَقْضَى عَلَى اسْمِ الْبِلَادِ الْآسِيَوِيَّةِ».

النصر

عندما يتحقق النصر للبطل، ينتابه شعور بالزهو المتسامخ وآخر بالفرح.

♦ إن مر إن يتاح:

(*) من أهم مكونات شخصية الإنسان. (المترجم)

«يحتقر الآسيويين، ويجعل المنتسبين إلى بلاد **الخاني** يأتون إليه على ركبهم،
كما تسير الكلاب التي تجهل مصر» (٧٢).

❖ أما **رمسيس الثالث**:

«فيتجلى في مجده في أرض المعركة مثل **بعل**، بعد أن يكون لهبه قد أحرق
الأقواس التسعة» (٧٣).

ويعمُّ الفرح.

❖ إن **سيتي الأول**: «يعود في جوٍّ من الأعياد، بعد أن حقق النصر».

❖ إن مر إن **پتاح** قد غسل قلب **منف** عندما طرد أعداءها، وهي عبارة تفصح عن
البهجة الداخلية.

❖ أما **رمسيس الثالث** فعند عودته في العام الحادي عشر «يطلق الجميع الصيحات
ويهللون فرحاً لما حققه من انتصارات».

❖ والآلهة والآلهات تشارك أيضاً **مصر** سعادتها. «إنها في عيد عندما ترى الأعداء
وقد أجهز عليهم».

ومن خلال ترديد دعوات مسهبة أو بعض المقاطع المنظومة المقتضبة، فإن
تكرارها، هو في كل مرة، تأكيد جديد على المقدرة الملكية. هكذا تكون تلاوة انتصارات
الرماسة.

❖ **سيتي الأول**:

يأتي إليه **أجانب الجنوب** في وضع الانحناء وأبناء **الشمال** ساجدين بسبب
مجده.

❖ **رمسيس الثاني**:

بقدميه دمس أجاناب الشمال، والتمحى يتساقطون بسبب ما يثيره فى نفوسهم
من رعب، والأسويرون يتطلعون إلى نسماته لفاندهم... ومن الآن، تمتلئ قلوبهم
بمقاصد القرصون، إنهم جالسون فى ظل سيفه ولا يخشون أى بلد من البلاد الأجنبية.
لقد هزم محاربى الشديدة الاخضرار وبحيرة الشمال الكبيرة^(*)، إنهم يرقدون الآن
نياماً، بينما يسهر هو عليهم... إن صيحته صيحة الحرب تجلجل فى النوبة، وهيبته
تدحر الأقواس التسعة. إن بابل والخاتى... تنحنى بسبب مجده^(٧٤).

✦ وعن رمسيس الثالث:

«بلاد الجنوب وبلاد الشمال تأتى إليه، وتطلق صيحات التهليل عندما تراه مثل
رع، عند مطلع الفجر»^(٧٥).

والباقون على قيد الحياة يأتون مهزومين مذعورين يعرضون استسلامهم
وخضوعهم، معترفين بهيمنة مصر وملتمسين النور ونسمات الحياة بجوار البطل
فرعون. ويتقدمون نحو رمسيس الثالث.

✦ الليبيون:

إننا نعترف بالقوة العظيمة لمصر، لأن رع يُعطى حمايةً ونصراً... إننا نأتى
إليه^(**) قائلين له: سلام، إننا نقدم له الحمد والثناء ونسجد، فقوته عظيمة^(٧٦).

✦ الاموريون:

يأتون مهالين ليروا أن شمس مصر العظيم^(***) عليهم، وحتى يصبح القرص

(*) نهر الفرات، (المؤلفة)

(**) إلى رمسيس، (المؤلفة)

(***) أقول شمس مصر العظيم ليستقيم المعنى، لأن كلمة عظيم صفة للفظ شمس، المذكر فى اللغة
المصرية. (المترجم)

الشمسى جميلاً إلى جوارهم. فهناك شمسان إلهيان(*)، يطلعان(*) على الأرض
ويُشعّان(*) عليها بنوريهما: نور مصر والنور الذي فى السماء(٧٧).

✦ شعوب البحر:

أنت الملك، أنت شمس(**) مصر، إن مقدرتك أعظم من مقدرة جبل من نحاس،
إن هيبتك أشبه (بهيبة ست). أعطنا النسمات حتى نستنشقها، لأن الحياة هى التى
فى قبضتك للزمن اللانهائى(٧٨).

من الآن، سوف تلامس الحدود الأسطورية لإمبراطورية الرعامسة السماء
وتصل إلى الأطراف ذاتها لمدار الشمس.

✦ عن سبتي الأول:

من أجله رسم رع حدوده عند أطراف ما ينيره القرص الإلهى.

✦ من أجل رمسيس الثانى:

إن الدائرة الكبرى والشديدة الاخضرار والمناطق الجنوبية لأرض الزنجى
حتى البلاد والمستنقعات الممتدة فى اتجاه أطراف الليل، تجمعت بعيدة، بقدر بُعد
أعمدة السماء الأربعة، (تجمعت) تحت قدمى هذا الإله الكامل(٧٩).

✦ لصالح رمسيس الثالث:

مدُّ رع حدوده حتى أطراف ما يُنيره صُلُّه، بحيث تصبح (كل) البلاد وسط
جمال(٨٠).

(*) مع مراعاة الهامش السابق، ضحيت بقواعد سيبويه ليستقيم المعنى. (المترجم).

(**) مع مراعاة الهوامش السابقة. (المترجم)

ثالثاً، صور السلام

فى خضمّ المعارك ذاتها، يظل الحنين إلى السلام حاضراً. فيقال عن سبتي الأول:

إنه يتطلع إلى القيام بفصول الحرث فى البلد المحبوب، بينما يقوم بنهب لبنان، مدمراً معالمها، سائلاً مدنها، بعد أن شجعت جياده من (وفرة) الشعير وأخذ النبيذ فى جيشه وأسكره، بفضل انتصار سيفه^(٨٦).

على هذا الصعيد من الأساليب اللغوية لا نلتقى بأساطير منمقة أو مشاهد خلابة للأشكال والصور، بل نستمتع برقة الكلمات والمشاعر وعذوبتها. فالسلام يجد تعبيراً له فى صور بسيطة محرّكة للمشاعر.

إنه أشبه بلوح خشب مصقول شديد النعومة، فمصر هى بلد الحرفيين.

مصر وأراضيتها فى سلام فى عهده^(٨٧)، والبلد أشبه بلوح خشب شديد النعومة، فلا وجود لبشر جشعين^(٨٨).

كما أن السلام هو طراوة الجو المنعش الذى يتذوقه المرء تذوقاً حسياً فى بلد يسوده مناخ حار.

إن رمسيس الثالث هو:

« الثور القوى العزم، بقرنين حادّين، الذى ينشر الذعر الشديد فى قلوب الآسيويين. إنهم يأتون إليه هاتفين مهللين، حاملين فوق ظهورهم مختلف أصناف الجزية، بسبب مجد صاحب الجلالة، متوسلين متضرعين (للحصول على الهبات) من يده.

(*) عهد رمسيس الثالث. (المؤلفة)

♦ **إن أباك أمون قد أسندهم إليك، ليصبح قلبك نضراً غضاً بين ظهرائهم، فالبلد
بأكمله كاللوح المصقول منذ أن (تجلّى) ملكك على وجه الأرض... يا أمير
الفرح (٨٣).**

ويقال أيضاً في عهد رمسيس الثالث:

♦ **تعيش الأراضى والبلاد الأجنبية ومصر فى جو رطب منعش.**

♦ **جو البلد من أقصاه إلى أدناه، منعش رطب.**

♦ **أنا الملك، والشعب فرح سعيد، لأن ملكى منعش، ومُحمّل بالسلام (٨٤).**

كما أن السلام هو الراحة والاسترخاء والانشراح التى يتمتع بها البشر.

واللفظ ذاته الدال على السلام (٨٥) يعنى أيضاً **القناعة والاكتفاء والرضى.**

ويقول رمسيس الثالث إلى المصريين:

♦ **لقد طردت الأحزان التى كانت فى قلوبكم وجعلتكم تجلسون تستريحون (٨٥).**

فى عهد رمسيس الثالث، الذى اعترته الهموم والاضطرابات والتهديدات،
صارت هذه الصور أكثر شيوعاً وأكثر نضارة وحيوية. إنها بمثابة النداء الأخير
الصادر عن وعى المصريين لاستحضار الأيام السعيدة والهادئة للأزمنة الماضية،
وتعبير أخير عن العرفان بالجميل نحو **الفراطة - الأبطال** الذين عرفوا كيف يحافظون
على وحدة وطنهم واستقلاله، رغم الأخطار البالغة التى واجهوها، بفضل شجاعتهم
وفطنتهم ورؤيتهم الثاقبة. هؤلاء **الفراطة - الأبطال هم الرعامسة.**

(*) هوته. راجع: برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى، ترجمه عن
الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩، ص ١٦٦. (المترجم)

الفصل الثانى

الملك بَنَاء

شيد الرعامسة عدداً كبيراً من المباني الشامخة، ليس على أرض مصر فقط، ولكن أيضاً على أراضى الإمبراطورية، وتحديدأ فى ممتلكاتهم الإفريقية فى الجنوب. إن الأبعاد العملاقة لهذه العمارة كان مقدراً لها أن تشهد على مدى ثراء الإمبراطورية الشاسعة وقدرة ملوكها.

إن العمارة فى مصر تعبير عن الانتصار على الموت وقوى الخواء. إنها تجسد هذه المعركة الضارية من أجل الحصول على أبدية الزمان، معركة خاضها المصريون منذ عصور موغلة فى القدم. إنها تؤكد، جنبأ إلى جنب شريكها النحت والرسم، على استمرارية الوجود المهددة على الدوام، وإن ظلت مع ذلك إمكانية اكتسابها قائمة دوماً دون انقطاع، بفضل الأساليب السحرية للأشكال والكلمات.

إن «بيوت الآلهة» أى المعابد، تحمى الآلهة على الأرض وتأويها. وعلى الأبراج الشامخة للصروح، وعلى السطوح الخارجية لجدران المعابد أحياناً، تصور النقوش انتصارات الرعامسة، لتظل ذكراهم تغالب آلاف السنين، تخليداً لذكرى الملك - البطل. أما النقوش المنحوتة داخل المعبد، فتصور ترتيبات الطقوس الدينية اليومية الرسمية. وإذا حدث ذات يوم أن تقاعس البشر عن أدائها ففى إمكان هذه الصور الحجرية أن تُبعث فيها الحياة، بصفتها أشكالاً من أزمنة غابرة، لتظل تسهر على خدمة الآلهة، وتقيم شعائر صامته تُفعل أساليب السحر التليد. والكلمات المنحوتة فى الحجر ستدب فيها هى أيضاً الحياة، لتواصل مراسم الثناء والحمد على الخالق فى كل معبد من المعابد، وإعلان العبارات المقدسة الخاصة بأطياف الكهنة الوهميين. عندئذ سوف تمتد حياة الآلهة والملوك وتدوم بلا نهاية فى أجساد التماثيل المنحوتة فى الحجر (*).

(*) يا لها من رؤية فريدة إذن، إذا استطاع زائر معابد **الأتصر والكرك** ومدينة **هابوسيتي** الأول فى **أبينوس**، على سبيل المثال، أن يشحذ مُخيلته ليعيش روعة هذا المشهد الأسر الخلاب. (المترجم)

مع مراعاة الظروف نفسها، فإن «قصور ملايين السنين»، أى المعابد الجنائزية ستساعد على ضمان توفير الحماية اليومية للملك المتوفى، وبقائه على قيد الحياة بعد الوفاة، بعد أن سُجِّيت موميأؤه بمقبرته فى **وادی الملوك**.

أولاً: بيوت الآلهة

سبق أن شرحنا^(١) البنية الشاملة للمعبد ورمزيته وفلسفته، فالمعبد هو بمثابة مختصر يختزل الكون، إنه العالم الأصغر^(*) microcosme المحمّل بقدرة سحرية.

إن معابد **پهر-همسيس**، عاصمة إمبراطورية **الرعامسة** السياسية، صارت أثراً بعد عين. لقد كانت الدلتا طريق الغزوات، المدمرة إلى حد ما، والتي اجتاحت أرض مصر بعد عصر **الرعامسة**.

لكن العمانر العظيمة فى **طيبة والنوبة** ما زالت تطل علينا فى شموخ، كما شيدت المعابد فى **منف**.

طيبة الورعة

معبد^(**) الكرنك

الكرنك القائم على البر الأيمن^(***) من نهر النيل هو أكبر الأماكن الإلهية فى العالم مساحةً. إن فوضى تداخل الانقراض والمسلتين اللتين ما زالتا قائمتين فى مكانهما والأبواب والصروح الشامخة والأساطين المبعثرة والمقاصير المهدمة، تظل تشهد جميعها على مدى ورع شعب بأكمله وعظمة الديانة المصرية.

(*) فى مقابل عالم الكون، وهو العالم الأكبر macrocosme. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفى،

القاهرة، ١٩٨٣، ص ١١٦. (المترجم)

(**) (والأقرب إلى الصواب أن نقول: معابد **الكرنك**. (المترجم)

(***) وهو البر الشرقى. (المترجم)

يجمع **الكركك** بين ثلاث حيازات مقدسة: حيازة الإله **مونتق** في الشمال، وحيازة الإلهة **موت** في الجنوب، كما إن طريقاً تحفه تماثيل أبو الهول يربط هذه الحيازة الأخيرة بالحيازة الوسطى، الأكبر مساحةً، إذ تبلغ ٢٠٠٠٠٠ متر مربع(*) من الأراضي المخصصة للإله **أمون-رع**، يحيط بها سور فسيح من الطوب اللبن.

فبدءاً من **سنوسرت الأول**، أي قبل سبعة قرون تقريباً، لم يتوقف المصريون عن البناء والتشييد، في هذا المكان الفسيح الأثير المميز، المكرس لملك الآلهة، فأقاموا الصروح والمقاصير. إنها تتراكب وتتداخل وتتشابك، لتكوّن في نهاية المطاف عملاً عملاقاً من أعمال الإيمان.

إن كل معبد من المعابد يتقدمه أحد الصروح، وقد اتفق علماء الآثار المعاصرون على ترقيمها طبقاً لموقعها وليس تاريخ تشييدها، ليصل عددها إلى عشرة صروح.

إن المباني المقدسة موزعة بالترتيب على امتداد محورين: المحور الشرقي الغربي المتميز على نحو خاص، ويضم ستة صروح. والجزء الأقدم الذي يعود إلى **سنوسرت الأول** هو الأكثر تطرفاً ناحية الشرق. وبالتدريج شيدت فيما بعد مقاصير أخرى في اتجاه الغرب، بدءاً من **تحوتمس الأول** وصولاً إلى **أمنحوتب الثالث**. أما محور التشييد الآخر، فهو عمودى تقريباً على الأول، ويمتد من الشمال إلى الجنوب، في خط مواز تقريباً لنهر **النيل**، ويضم الصروح من السابع إلى العاشر. وفي حدودها قام فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، اعتباراً من **حتشپسوت** و**تحوتمس الثالث** وحتى **حور إم حب**، بمواصلة أعمال التشييد.

وعلى المحور الشرقي الغربي، وفيما بين الصرح الثالث الذي شيده **أمنحوتب الثالث**، والصرح الثاني(**)، يُعتقد أن **رعمسيس الأول** قد شرع يشيد بهو الأساطين العظيم، وعلى أكمل وجه تولى **سيتي الأول** و**رعمسيس الثاني** أعمال زخرفته، وانتهى

(*) أي حوالي ٧٨ فدائاً. (المترجم)

(**) قام **حور إم حب** و**رعمسيس الأول** بتشبيد الصرح الثاني أمام الصرح الثالث، وإلى الغرب منه، وعلى مسافة خمسين متراً منه. (المؤلفة)

بيانات معبد الكرنك

- | | |
|-------------------------------|---------------------------|
| 1. المرسى | 21. معبد خونسو |
| 2. الصرح الأول | 22. معبد أوت |
| 3. معبد رعمسيس الثالث | 23. المتحف المفتوح |
| 4. الصرح الثانى | 24. بوابة يوارجيتس |
| 5. بهو الأساطين | 25. البوابة الشرقية |
| 6. الصرح الثالث | |
| 7. مقصورة القارب المقدس | 26. معبد مونتو |
| 8. فناء الدولة الوسطى | |
| 9. بهو الأعياد: تحوتمس الثالث | 27. طريق تماثيل أبو الهول |
| 10. معبد رعمسيس الثانى الشرقى | 28. معبد موت |
| 11. البحيرة المقدسة | 29. البحيرة المقدسة |
| 12. معبد تحوتمس الثالث | 30. معبد رعمسيس الثالث |
| 13. مساكن الكهنة | 31. إلى معبد الأقصر |
| 14. فناء تربية الطيور | 32. الشمال |
| 15. معبد أمنحوتب الثانى | |
| 16. فناء الخبيطة | |
| 17. الصرح السابع | |
| 18. الصرح الثامن | |
| 19. الصرح التاسع | |
| 20. الصرح العاشر | |

رعمسيس الرابع من زخرفة ١٠٢ أساطين. كان مخططاً له أن يكون استراحة فسيحة لقارب آمون المقدس، عندما يغادر الإله معبده، إبان كبرى الأعياد السنوية، لينتقل إلى معبد الأقصر أو إلى البر الأيسر(*)، قبالة معبده.

إنه أكبر بهو أساطين في العالم، وقد شُيِّد من الحجر الرملى المستخرج من جبل السلسلة، ويبلغ ١٠٢ متر عرضاً و٥٢ متراً عمقاً. وفي هذا البهو الشاسع، ينتصب ١٢٤ أسطواناً عملاقاً، وكائنها غابة كثيفة من الأحجار. إن اثني عشر أسطواناً، موزعة على صفين، يبلغ محيط دائرة كل أسطوان عشرة أمتار، تكوّن صحن البهو الأوسط. وتعلوها تيجان على هيئة زهرة بردى يافعة، وعن طريق وجود مكعبات ضخمة فاصلة، فإنها تحمل سواكف تصل بارتفاع السقف إلى ٢٣ متراً. إن محيط دائرة التاج تبلغ ١٥ متراً، وتتسع هذه المساحة لوقوف خمسين شخصاً، بسهولة ودون عناء. أما جناحا الصحن الجانبيان فيضمان ١٢٢ أسطواناً، ذات تيجان تتخذ هيئة براعم البردى، ويقل ارتفاعها بنحو الثلث. ويتسلل النور عبر سلسلة من الشبابيك ذات الفتحات الشبكية claustra، التى تستغل الفارق بين ارتفاعى السقف. وما زالت بعض عناصر هذه البلاطات المفرغة المصنوعة من الحجر الرملى قائمة فى مكانها.

إن هذا الطراز المعمارى، المعروف اصطلاحاً بالطراز البازيليكى، هو طابع مميز لمبنى الرعامسة، ومن قبل لم تعرف العمارة المصرية سوى مثال واحد، تجسد فى بهو أعياد الأخ منو، الذى أقامه تحوتمس الثالث، شرقى المعبد الأول الذى شيده سنوسرت الأول. وسوف نلتقى فيما بعد بهذا الطراز، على نطاق واسع فى العمارة اليونانية والرومانية.

ومهما قلنا، لن نستطيع تقدير عبقرية هؤلاء المعماريين وهؤلاء الحرفيين حق قدرهم، عما بذلوه من صبر وفن لا حدود لهما، ولبراعتهم فى تصميم هذه العماائر الشامخة وإقامتها وزخرفتها، وقد شُيِّدت لتغالب الأيام وتبقى إلى أبد الآبـاد.

(*) أى البر الغربى. (المترجم)

كان الملوك يقدون عليهم من نعمهم وأفضالهم، ويحسنون إطلاعهم. فعلى لوح
حجرى يعود إلى العام السادس من حكم سیتی الأول، عُثِرَ عليه فى جبل السلسلة،
يُقال:

كان صاحب الجلالة فى مدينة الجنوب، مؤدياً شعائر الحمد والثناء لأبيه
أمون - رع ملك الآلهة. كان يقضى ليلته فى السهر بحثاً عما قد يفيد آلهة البلد
المحبوب كافة ويرضيها. وعندما ابيضت الأرض... أمر صاحب الجلالة بإحضار
موفد ملكى، على رأس وحدة من مواطنى الجيش، أى ألف فرد... لنقل المعلم المصنوع
من الحجر الرملى الجميل والمخصص لأبيه أمون-رع... ولتاسومه الإلهى، وقدم
صاحب الجلالة أكثر مما سبق أن حصل عليه الجيش من أدهان ولحوم بقرية
وخضراوات طازجة بكميات لا حصر لها. وبالتالي كان كل فرد منهم يحصل على
عشرين لبناً^(١) يومياً من الخبز، وضمتين من الخضراوات ولحم مشوى^(٢). ولذلك
كانوا يعملون لحساب صاحب الجلالة بقلب ودود، وتلقى مشاريعه التقدير فى فم
الرجال الذين كانوا فى صحبة الموفد الملكى. وإليك ما كان تحت تصرف هذا الأخير،
فى كل يوم من الأيام: أفضل أنواع الخبز ولحوم بقرية ونبيذ وزيت وعسل وتين
وخضراوات^(٣).

وكرجع الصدى، سجلت النصوص التكريسية على سواكف بهو الأساطين
خطابات قالها أمون - رع، إلى سیتی الأول، اعترافاً بجميله:

أيها الملك، يا من يحقق من أجل أبيه، ملك الآلهة، أشياء مفيدة، عندما يُشيد
مسكنه، جاعلاً معبده يغالب الأيام بفضل أعماله المفعمة بالبركة التى تدوم فائدتها إلى
أبد الآباد، منيراً من أجله الفناء المقدس بواسطة الأساطين الجميلة الشامخة^(٤)...

(*) وهو ما يعادل حوالى كيلوجرامين. (المترجم)

(**) يا له من كرم حاتمى! (المترجم)

هذه الأساطين المئة وأربعة وثلاثون، مزخرفة فى معظمها بمشاهد ونصوص دينية، توضح أداء الملك لبعض ترتيبات الطقس الدينى، من أجل آلهة طيبة.
وعلى السطوح الخارجية لجدران بهو الأساطين صُوِّرت مشاهد عسكرية لأول مرة فى معبد. فعلى سطح الجدار الشمالى^(*)، صُوِّرت الحروب التى خاضها سبتى الأول، وعلى سطح الجدار الجنوبى، نشاهد المعارك التى انتصر فيها وهمسيس الثانى^(**).

وأمام الصرح الثانى، وكان فى ذلك العصر خارج المعبد، لأن الصرح الأول لم يكن قد شُيِّد، كان يمتد طريق تحفُّه تماثيل أبو الهول برأس كبش، وهو حيوان آمون المقدس. وهنا تختلف رمزية أبو الهول، مقارنة بما كانت عليه فى الأزمنة القديمة، وتحديدًا فى الجيزة. فلم يعد أبو الهول صورة الملك، حارس جباتته. فمن الآن فصاعدًا أصبحت الآلهة تتجسد فى شكل أبو الهول، لتتولى حراسة بيتها الخاص. وكان مئة وعشرون تمثالاً لأبو الهول برأس كبش تتولى حراسة مدخل معابد الكرنك حتى ضفاف نهر النيل، عند رصيف المرسى.

وفيما بعد، وعلى جانبى هذا الطريق، إلى الشمال وإلى الجنوب، أقام كل من سبتى الثانى وهمسيس الثالث معبدًا لاستراحة المقاصير الصغيرة المحمولة، وكانت على هيئة قارب، وتُظلل تماثيل آلهة ثالوث طيبة الثلاثة، وذلك إبان الأعياد التى تقتضى شعائرها الخروج فى مواكب احتفالية. كان المعبدان يقومان باستقبال هذه الآلهة عند خروجها من المعبد الكبير.

(*) وهو على يسار الداخل إلى المعبد، وجديرة بالمشاهدة. (المترجم)

(**) لم يتبق منها سوى القلة القليلة. (المترجم)

وأصبح معبد سیتی الثاني^(٤) متاحاً للزيارة، بفضل الأعمال التي باشرها ليجران Legrain عام ١٩١٣. ولا يضم سوى الحجرات الضرورية لتوقف الموكب الاحتفالي، وهو بلا صفة أو رواق.

إن جدار الواجهة الرئيسية يميل ويتناقص سمكه كلما ارتفع إلى أعلى، وتخرقه أبواب ثلاثة، تفضى إلى كل مقصورة من المقاصير الثلاثة، والباب الأوسط وهو الأكبر يفضى إلى مقصورة أمون. وتتكون كل مقصورة من صالة مستطيلة فى اتجاه محور المبنى، أى الجنوبى الشمالى. وقد كُرست الوسطى للإله أمون، وتضم ثلاث كوات موزعة فى جدار مؤخرة الحجرة. أما الحجرة الغربية فتضم كوتين ومكرسة للإلهة موت. وأخيراً تضم الحجرة الشرقية، كوتين مماثلتين، وهى مكرسة للإله خونسو.

إن الأساسات والمدماك الأول من حجر الكوارتزيت الوردى، الوارد من الجبل الأحمر. وباقى المبنى من الحجر الرملى الأصفر الوارد من جبل السلسلة.

أما المشاهد المصورة فهى فى الأساس لوحات تقديم القرايين إلى كل إله من الآلهة الثلاثة. ومن بين الكلمات التى قالها أمون-رع إلى سیتی الثانى نذكر ما يلى:

سوف أعمل بحيث تظل متألّفاً، ما دامت هذه المباني التى شيدتها من أجلى فى الكرنك، باقية إلى ما لا نهاية.

أما المعبد الاستراحة الذى أقامه رمسيس الثالث فهو أكثر طموحاً. لقد أقيم جنوب طريق الكباش المؤدى إلى المعبد، وجاء تصميمه ليحاكى كبرى المعابد الإلهية،

فلا وجود لقدس الأقداس^(٥). وقد أكمل ليجران Legrain رفع أنقاضه وأعمال تنظيفه عام ١٨٩٨^(٦). وتبلغ مساحة هذا المعبد ٥٢ متراً طولاً و٢٥ متراً عرضاً.

ويضم صرحاً مصمماً بلا حجرات أو سلالم. وفناء المدخل تحيطه من جوانبه الثلاثة صفات ذات أعمدة أوزيرية، تحمل اسم وهمسيس الثالث. وعلى الأعمدة المستطيلة الشكل التي تركز إليها التماثيل ظهرها، تستند السواكف. ونجد أن التماثيل في مصر تركز دائماً ظهرها إلى الأعمدة، ولم تعرف الأعمدة المسماة اصطلاحاً الكارياتيد^(٧) أو caryatides أو الأطلانط^(٨)، ففي هذه الحالة، نجد أن الأشكال الأدمية، قد شُكَّلت حركتها من جراء وزن الحجر التي يفترض أنها ترزح تحت ثقله. وبالتالي لن تتمكن من استعادة نشاطها وحيويتها وقدرتها على الحركة. ثم تلي ذلك ردهة مرتفعة، يصل إليها المرء عبر مسطح مائل، وتتكون واجهته من أعمدة أوزيرية، تتصل من الخلف في جزئها الأسفل بجدار نصفى ارتفاعه ١٨٢ سم، زخرفت قمته بكورنيش مصرى وإفريز من الأضلال^(٩). ويخترق الجدار الخلفى باب محورى بمصراعين. ومن خلاله يصل المرء إلى بهو يضم ثمانية أساطين، ويتقدم ثلاث مقاصير مخصصة لاستراحة القارب المقدس، وتحتل مكان قدس الأقداس في المعبد الكلاسيكى. وأهم مقصورة موجودة على محور المعبد، ومخصصة للإله آمون.

(*) على من يريد التعرف على أوضاع معبد الكرنك قبل أعمال رفع الأنقاض والتنظيف والترميم، الرجوع على سبيل المثال، إلى الكتاب القيم الذى أصدرته الجامعة الأمريكية فى القاهرة، متضمناً الرسومات الكاملة كما وردت فى كتاب وصف مصر ذائع الصيت.

Description de l'Egypte. AUC Press, 1997. pp.292-299.

David Roberts. Voyage en Egypte. Bonechi, 1994, pp.19-23.

والرسومات الواردة فى:

ومقارنتها بالصورة الراهنة لهذا المعبد، وما وراهما من عمل دعوب ومجهود جبار. (المترجم)

(**) الكارياتيد: تمثال يصور امرأة واقفة تسند برأسها شرفة أو إفريز أو ما شابه ذلك. (المترجم)

(***) الأطلانط: عمود يتخذ هيئة رجل قوى البنية، يحمل القسم العلوى من مبنى يستند إلى صف

من هذه الأعمدة المسماة الأطلانط. (المترجم)

(****) جمع الحية الصل. (المترجم)

الكلاسيكي. وأهم مقصورة موجودة على محور المعبد، ومخصصة للإله **أمون**، وتكتنفها مقصورة **موت** ناحية الشرق، ومقصورة **خونسو** ناحية الغرب. إنه توزيع مماثل، وإن كان معكوساً، لتوزيع مقاصير استراحة **سيتي** الثاني التي يقع معبدها قبالة معبد **رهمسيس الثالث**. لقد شُيِّد المعبد بالكامل من الحجر الرملي الأصفر المجلوب من جبل **السلسلة**.

وخارج المعبد الكبير للإله **أمون** ذاته وملحقاته المباشرة، وداخل السور المقدس الذي كان يحيط بأراضي الإله، شُيِّد **الرعامسة** مبانى أخرى مخصصة للإله **أمون** أو للآلهة المرتبطة به.

وفي القسم الشرقي من حيازات **أمون** أقام **رهمسيس الثاني** معبداً صغيراً، يتجه ناحية الشرق، وللأسف فهو مدمر تدميراً بالغاً في الوقت الراهن.

وفي الجنوب الغربي من أملاك **أمون**، أمر **رهمسيس الثالث** بإقامة معبد من أجل **خونسو**. وقد أكمل كل من **رهمسيس الرابع** و**حري حور** زخرفته. والمعبد الذي شيده **رهمسيس الثالث** يتقدمه في الوقت الراهن باب كبير، مندمج في السور المبني من الطوب اللبن، وقد شُيِّده، في عصر متأخر، **بطليموس الثالث يوارجيتس**^(*). ويليه داخل السور طريق كباش يعود تاريخه إلى آخر **الرعامسة**، ويفضى إلى معبد **رهمسيس الثالث** ذاته. ويلتزم هذا المعبد التزاماً دقيقاً بالطراز الكلاسيكي، فيتكون من صرح يبلغ ١٦ متراً ارتفاعاً، يليه فناء تصطف على ثلاثة من جوانبه أساطين بردية الطراز، تتخذ تيجانها شكل البراعم، وبعد ذلك نصل إلى بهو الأساطين المكون من ثمانية أساطين، أربعة منها على شكل زهرة البردى المتفتحة، وتكوّن الصحن الأوسط، وعلى الجانبين أقيمت أربعة أساطين على شكل براعم البردى وهى أقل ارتفاعاً. إنه مثال آخر للطراز **البازيليكي** الذي كان **الرعامسة** مولعين به. ثم يدخل المرء إلى حجرة كانت تُستخدم استراحة للقارب المقدس، وتقع قبل ردهة قدس الأقداس وتشكل المدخل إليه، ثم نصل إلى قدس الأقداس ذاته، وبه الناوس الذي يضم تمثال **خونسو**.

(*) أى **الخميني** (المترجم)

وفى حيازة موت أمر رمسيس الثالث بإقامة معبد آخر فى المساحة المحصورة بين البحيرة المقدسة والصور المحيط بالحيازة. كان هذا المعبد يلتزم بالاتجاه الشمالى الجنوبى، على وجه التقريب، ولكنه مدمر فى الوقت الراهن. ويمكن التعرف على بقايا صرح أمامه تمثالان ملكيان من الجرانيت الوردى، ويفضى إلى فناء كبير بأعمدة أوزيرية، كما أن ممراً صاعداً يؤدي بعد ذلك إلى بهو له أربعة أساطين، ثم نصل أخيراً إلى قدس الأقداس. وعلى السطوح الخارجية للجدران الغربية ما زال فى وسع المرء أن «يستجلى» نقوشاً تصور مشاهد عسكرية، كحروب الملك ضد شعوب البحر، فى ليبيا وفى سوريا.

معبد الأقصر

لانتقال من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر^(*) كانت المراكب الاحتفالية تسلك طريقاً مرصوفاً بالحجر، تحفه تماثيل أبو الهول برأس كبش، ويربط المعبدان رباطاً مباشراً.

كان المنحوتة الثالث قد شيد معبداً هو الأول فى هذا الموقع، وأمام مدخله وإلى الشمال منه أمر رمسيس الثانى بتشييد مبنى آخر، كامتداد للأول.

إن صرح المبنى الذى شيده رمسيس الثانى عرضه ٦٥ متراً. وقد شيد بمواد قديمة أعيد استخدامها. وأمام الصرح كانت مسلتان من الجرانيت تقفان شامختين. المسلة اليمنى، وهى جهة الغرب وارتفاعها ٢٢, ٨٣ متراً. أما المسلة اليسرى، وهى جهة الشرق وما زالت فى مكانها، فيبلغ ارتفاعها ٢٥, ٠٣ متراً. وقد وضعت قاعدة المسلة الأصغر أبعد قليلاً من الصرح، لتصحيح منظور الرؤية وتجنب عدم تناسق

(*) الواقع على مسافة ٢٥٠٠ متراً تقريباً، جنوب معبد الكرنك. (المؤلفة)

ارتفاع المسلتين. وقام محمد على باشا بإهداء المسلتين إلى فرنسا(*) . ولما كانت المسلة الغربية فى حالة من الحفظ أفضل من المسلة الأخرى، فقد نقلت إلى باريس فى عام ١٨٣٣ . وأقيمت فى ميدان الكونكورده(**) la Concorde فى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر ١٨٣٦ ، بإشراف المهندس لييا Lebas(***) .

وأمام واجهة الصرح أقيمت ستة تماثيل عملاقة لرومسييس الثانى . والتمثالان اللذان يكتنفان الباب مباشرة، منحوتان فى الجرانيت الأسود، ويصورانه جالساً . وتقف الملكة نفرتارى بجوار العرش . أما التماثيل الأربعة الأخرى فمن الجرانيت الوردى، وتصور الملك واقفاً، وارتفاعها ١٥,٦٠ متراً . ومن التماثيل الأربعة التى كانت تصور أصلاً الملك واقفاً، لم يبق سوى واحد، على اليمين، أى جهة الغرب . وبجوار الملك صُورت ابنته مريت أمون، وإن كانت بحجم أصغر بكثير .

والصرح ذاته خُرب إلى حد كبير . إن الضغط الناجم عن كميات الرديم والأنقاض الهائلة التى تستند إليها قاعدته هو الذى استطاع الحفاظ عليه . إن الفجوات الرأسية الأربع، وهما اثنتان على كل جناح، والتى ما زلنا نشاهدها، كانت

(*) يذكر أحد المراجع الفرنسية أنه فى عهد رئيس جمهورية فرنسا فاليرى جيسكار ديستان Va-

léry Giscard d'Estaing (١٩٧٤-١٩٨١) أنه تقرر إعادة مسئلة الأتصر اليسرى إلى مصر

(هكذا!!!!)، رغم أنها لم تكن قد غادرت مكانها سواء إلى داخل مصر أو إلى خارجها!! وكان

حق نقلها من حيث المبدأ de jure إلى فرنسا - إذا سلّمنا به جدلاً - كان أمراً واقعاً de facto

يا لها من مغالطة! راجع: Thomas Decker: Dict. de l'Egypte Antique, Ed. du Lodi, 2002, p.146.

وبعد ذلك، وفى عام ١٩٨٢ صدر القانون المصرى الذى يحظر نقل الآثار إلى خارج

مصر (المترجم)

(**) وفى المكان الذى سبقت أن أقيمت فيه المقصلة، إبان الثورة الفرنسية. (المترجم)

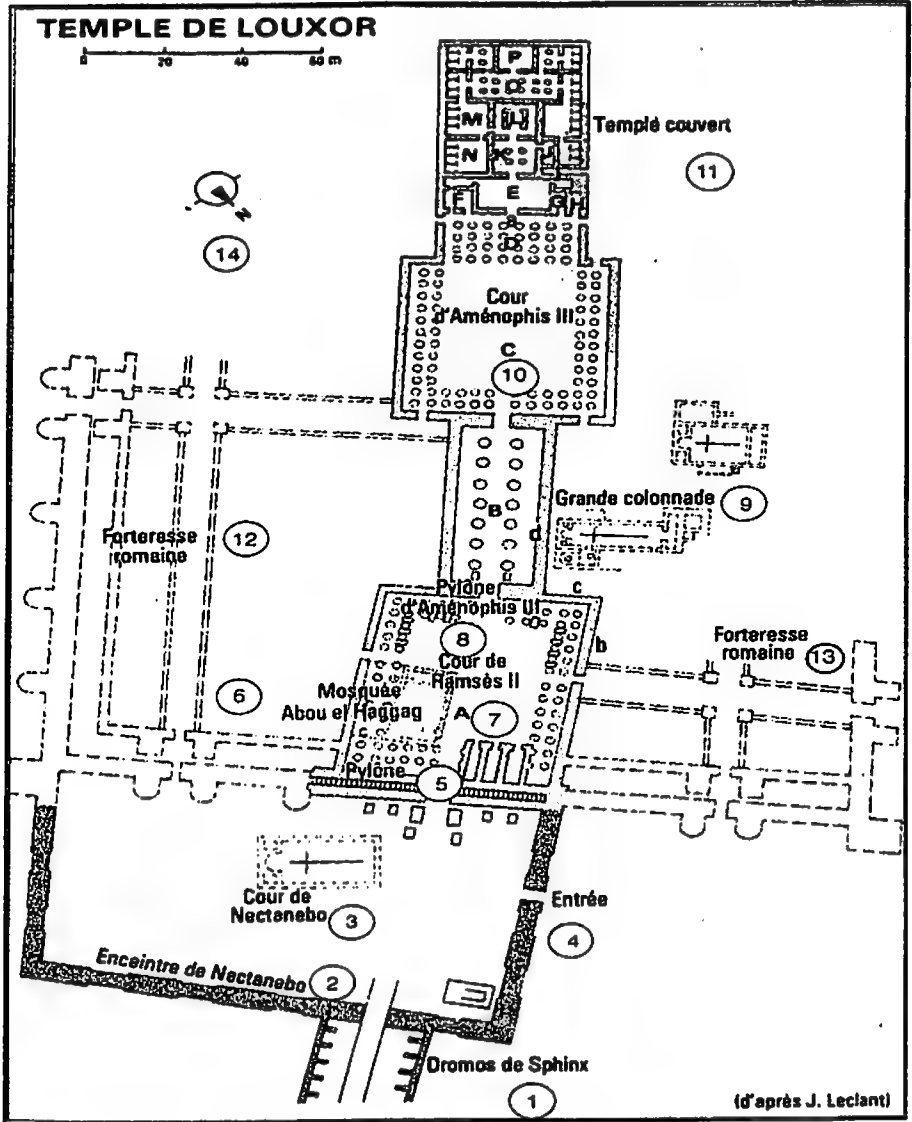
(***) عارض شميليون Champollion إقامة المسلة فى هذا الميدان، لأسباب عديدة، وبعد وفاته عام

١٨٣٢ وأصل آخرون معارضتهم لهذه الفكرة. راجع: Bernadette Menu: l'Obélisque de la

Concorde, Ed. du Lunx. 1987 وتحديداً الفصل الرابع. (المترجم)

بيانات معبد الأقصر

1. طريق أبو الهول
2. سور نختنبو
3. فناء نختنبو
4. المدخل
5. الصرح
6. مسجد أبي الحجاج
7. فناء رعمسيس الثاني
8. صرح أمنحوتب الثالث
9. ممر الأساطين الفخم
10. فناء أمنحوتب الثالث
11. المعبد المسقوف
12. حصن روماني
13. حصن روماني
14. الشمال



مسقط أفقي لمعبد الأقصر

مخصصة لتثبيت السوارى ذات البيارق. وعلى الجناح الشرقى، وهو على يسار الداخل، نحتت بال نقش الغائر مشاهد معركة قالمش. وتحت الصور حُفرت قصيدة **ينقامور**^(٦) موزعة على أعمدة رأسية.

ثم يصل المرء إلى باحة ذات أعمدة. وإذا كان شكل هذا الفناء يقترب إلى حد ما من متوازي الأضلاع، فقد كان من الضروري عند إقامة هذا الفناء، الانحراف بالمبنى بسبب وجود مقصورة الاستراحة التى يعود تاريخها إلى عهد **تحوتمس الثالث**. ويبلغ عرض الفناء ٥٢ متراً وطوله ٤٨ متراً. ويحيطه من جوانبه الثلاثة رواق بصفين من الأساطين على شكل نبات البردى، وتتخذ التيجان هيئة البراعم، ويتوقف هذا الرواق عند امتداد الجناح الغربى من الصرح، أى على يمين الداخل إلى المعبد، لوجود مقصورة مكونة من ثلاث حجرات مخصصة لاستراحة القوارب المقدسة.

نصل بعد ذلك إلى صرح **أمنحوتب الثالث** وممر الأساطين الفخم الذى يبلغ عشرين متراً عرضاً و٥٢ متراً طولاً، ويفضى إلى فناء القسم الأقدم من هذا المعبد.

وبعد اجتياز فناء **أمنحوتب الثالث** الذى يحيطه رواق على جوانبه الثلاثة، يتكون من صفين من الأساطين المقناة على هيئة حزمة سيقان نبات البردى ويتيجان ذات براعم غير متفتحة، نصل إلى بهو الأساطين المكون من ٢٢ أسطواناً، ثم أخيراً إلى أكثر أجزاء المعبد خصوصية، فتنعاقب ردهة كانت ثمانية أساطين تحمل سقفها وتحولت فى العصر الرومانى إلى هيكل لإقامة الشعائر الإمبراطورية، ثم حجرة القرايين وأخيراً قدس الأقداس. أما مقصورة استراحة القوارب المقدسة فقد أعاد **الإسكندر الأكبر** تشييدها.

هكذا فإن المعبد اللذين أقام **أمنحوتب الثالث** أحدهما وشيّد **رمسيس** الثانى الآخر، يتألفان فى مجموعة متناسقة، أصبحت تمتد الآن من الشمال إلى الجنوب بطول ٥٢٨ متراً.

وفى ظل الأسرة الثلاثين^(*)، سوف يُعدُّ الملك نُحْتَبِي^(**) الأول فناءً فسيحاً أمام معبد رمسيس الثانى، أى جهة الشمال. كما شيد سوراً جديداً، ليصبح امتداداً للسور السابق ناحية الغرب.

لقد شُرع رمسيس الثانى فى بناء معبده فى الأتصر منذ بداية عهده. وبالفعل فإن مدونة تكريسية، نحتت على الجدار الشرقى من الصرح تذكر:

انتهى العمل فى العام (فجوة) ٣ (٧).

منطقة منف العتيقة ومواقع أخرى فى مصر

شيد سبتي الأول معبداً فى منف، ولكنه مهدم الآن، حتى صار أثراً بعد عين. إن مبنين مهمين يعود تاريخهما إلى عهد رمسيس الثانى، أقيما فى مدينة **پتاح**. «فداخل سور معبد **پتاح**، شيد بهو أساطين من الطراز البازيليكي، قاعدة بنائه من البازلت، ويضم خمسين أسطواناً من الجرانيت. إنه أشبه بردهة مدخل قائمة خلف صرح تبلغ واجهته حوالى ٧٥ متراً، تتقدمه تماثيل ملكية عملاقة من الجرانيت الوردى ومن الألبستر والحجر الرملى. إن لون البازلت الغامق ينسجم مع لون جرانيت العتبات وبياض ألبستر دعامات الأبواب^(٨)».

حول عام ١٩٦٩، وأثناء قيام مصلحة الآثار المصرية^(***) بجولة تفتيشية فى **كوم الربيع**، لوحظ بروز كتلة من الحجر الجيرى من وسط الرمال، كما أخرجت أجزاء أخرى على مقربة من هذا المكان، وقد نُحتت عليها صور الإلهة **حتحور**، بوجه آدمى

(*) وهى آخر الأسرات الوطنية، وقد حكمت مصر من ٢٧٨ ق.م إلى ٣٤١ ق.م لتسقط البلاد بعد ذلك تحت نير الغزو الفارسى الذى استمر حتى مجىء الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م. (المترجم)

(**) (التصحيف للاسم المصرى القديم **نخت نبت**). (المترجم)

(***) المجلس الأعلى للآثار حالياً. (المترجم)

وأذنى بقرة. وأُعد برنامج للتنقيب في يونيو ١٩٧٠. هكذا رأى النور معبد مكرس للإلهة حتحور، يضم فناءً مستطيلاً بأساطين حتحورية، يتقدمه صرح. كما عثر أيضاً على قطع من الخزف والشقف^(٩).

كما قام **مر إن پتاح** و**رمسيس الرابع** بالبناء في **هليوبوليس**. «إن تحركاً عفويا للتربة في جنوب غرب **المطرية** أخرج إلى النور قاعدة أسطون مستديرة من الحجر الرملي طول قطرها ١٥٠ سم، وارتفاعها ٥٠ سم، وتحمل خرطوشي **مر إن پتاح**. كان هذا الموقع قائماً على بعد حوالي ٢٠٠ متراً إلى الجنوب الغربي من معبد **رمسيس الرابع** المكتشف حديثاً^(١٠)» إن الكنوز التي ما زالت مدفونة في رمال **مصر** لا حصر لها.

وفي **هيراكليونبوليس**^(*) عند مدخل **الفيوم**، قام **رمسيس الثاني** بترميم معبد الأسرة الثانية، وشيّد عند طرف الفناء رواقاً هو آية في الجمال، ويضم ثمانية أساطين نخيلية.

وفي **جبل السلسلة** التي نشطت نشاطاً ملحوظاً في عصر **الرعامسة**، أمر **رمسيس الثاني** و**مر إن پتاح** من بعده، بأن يُنحت في الصخر لوحان متماثلان يتخذان شكل المقصورة، إكراماً **للنيل**. ويكتنف مدخلهما أسطونان مقنيان، ونحتت على اللوح ترنيمة إلى **النيل**^(١١).

الرعامسة في التوبة وفي السودان

إن نشاط **الرعامسة** الأوائل بصفتهم بنّائين، هو الأكثر وضوحاً في الأراضي الإفريقية. وبالطبع يعتبر هذا النشاط، كما كان حادثاً في **مصر** ذاتها، تعبيراً عن الإيمان الحميم تجاه الآلهة التي تُظَلُّ **مصر** بحمايتها، وتجاه **أمون - واهب - النصر**.

(*) **للى نسوت** عند قدماء المصريين و**إهناسيا المدينة**، حالياً. (المترجم)

ولكن هذه المباني المقامة فى أراضى الإمبراطورية كانت تهدف أيضاً إلى إظهار عظمة مصر وقدرتها. فعندما كان أبناء السودان القادمون من أقصى الأصقاع، يهبطون على صفحة نهر النيل، يلمحون فجأة عند منحنى النهر، موقع أبو سمبل على سبيل المثال، ويشاهدون الجبل المحفور حفراً عريضاً وعميقاً، مؤثلاً جديداً للآلهة، ثم يقفون أمام الواجهة الشامخة والتماثيل الملكية العملاقة القائمة أمامها والصقر الإلهى المتوج بقرص الشمس، كان من المحال ألا يتحرك فى أعماقهم الإحساس بهيبة الفرعون، وربما تخلّوا عن أية فكرة قد تدفعهم إلى التمرد.

ونذكر فى المقام الأول سبتي الأول ورعمسيس الثانى اللذين اضطلعوا على أحسن وجه، بهذا العمل الذى يعتبر دينياً وسياسياً فى آن واحد. وإذا كانت بعض المباني قد شيدت فى قلب السودان ذاته، عند مستوى الجندل الرابع، فإننا نلاحظ وجود أعداد كبيرة من معابد الرعامسة، على وجه التحديد، حول الجندل الثانى باعتباره حداً حاجزاً، يفصل الأراضى النوبية عن الأراضى السودانية، كما يشكل فى الوقت الراهن الحدود بين جمهوريتى مصر والسودان. هكذا فكلما مضى المرء قدماً، من الجنوب العظيم متجهاً إلى أرض مصر، تتجلى الشواهد على قدرة أرض الكنانة وقوتها، بشكل أكثر وضوحاً.

فلنهبط إذن مجرى النيل فى صحبة الرعامسة.

فى ناباتا وعند سفح جبل برقل وجنوب الجندل الرابع، قام سبتي الأول ورعمسيس الثانى بتوسيع معبد أمون الذى كان نائب الملك حوى قد شيده، فى عهد توت عنخ أمون.

(*) أى البر الشرقى. (المترجم)

وفى كَوَّة، وعلى البر الأيمن(*) من الليل، فيما بين الجندلين الثالث والرابع، كان أمْنُحوتْپ الثالث قد أقام معبداً للإله أَمُون. وقد هُدم فى عهد أخناتون - أمْنُحوتْپ الرابع. ثم أقيم معبد آخر من أجل أَمُون - رع فى عهد توت عنخ آمون ليتم توسيعه من قبل رمسيس الثانى. وخُلف الرعامسة وحتى رمسيس السابع بعض الشواهد على استمرار نشاطهم فى هذا الموقع(١٢).

وفى عمارة قرب، على بعد ما يقارب مئة كيلومتر جنوب وادى حلفا، كان الموقع قد شُغل قبل رمسيس الثانى بفترة طويلة، ومنذ عهد حتشپسوت وتحتمس الثالث، على ما يظن. وربما شيد فيه سبتي الأولى مدينة صغيرة محصنة، تحمل اسم «بيت من - ماعت - رع»(١٣). وتحول هذا الاسم فى عهد رمسيس الثانى إلى «بيت رمسيس - محبوب - أمون». وبعد ذلك، وفى عهد رمسيس الثالث وملوك الأسرة العشرين، ولا سيما رمسيس التاسع، تغير الاسم مرة أخرى ليعتد عن التسمية الشخصية ويكتسب دلالة سياسية أكبر، فسميت المدينة إذن خنم - واست أى «تلك التى تتحد مع طيبة»، ومن الراجع أنها كانت مقر قائمقام بلاد كوش، معاون نائب الملك.

والى شمال شرق المدينة أقيم معبد على النسق الكلاسيكى، مكرس للإله أَمُون القائم فى المقصورة الرئيسية من قدس الأقداس، ولآلهة الجندل القائمة فى المقاصير الملحقه، ويعتقد أن رمسيس الثانى هو الذى شيد هذا المعبد. إن لوحاً حجرى يعود إلى عهد هذا الملك، يوضح اسم المدينة ويحدد أنها شيدت «لاستقبال تماثيل الآلهة التى أتى بها الملك من النوبة». وعلى جانب باب المدخل إلى المعبد نُحتت نسخة من لوح زواج رمسيس الثانى كما عُثر على عدد كبير من ألواح نواب الملك الحجرية(١٤).

وفى بوهن، على البر الأيسر من النيل وقبالة وادى حلفا، وعلى مسافة خمسة

(*) من ماعت رع هو لقب سبتي الأول بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

(**) وقد أعيد بناؤه فى الوقت الراهن، فى حديقة متحف الخرطوم بمعرفة الولايات المتحدة وبريطانيا. (المؤلفة)

كيلومترات إلى الجنوب منها، وعند مستوى الجندل الثانى إذن، بدأ العمل فى هذه المدينة المحصنة منذ عهد سنوسرت الأول. وشيد أمنحوتب الثانى معبد الشمال^(*) مكان معبد قديم أقامه أحمس، تكريماً لكل من مين-أمون وإيزيس. أما معبد الجنوب^(*)، فقد شيده تحوتمس الثانى وحتشپسوت وأكملة تحوتمس الثالث وكُرس للإله حورس - فى - بوهن.

يضم هذان المعبدان الكلاسيكيان شواهد من عصر الرعامسة، ونذكر تحديداً لوحين حجرين كبيرين أقامهما رمسيس الأول وسيتى الأول، ويذكران الهبات الإلهية المقدمة اعترافاً بالجميل.

وبدأ من الجندل الثانى أصبح نشاط الرعامسة، ولا سيما رمسيس الثانى، فى مجال البناء والتشييد أكثر أهمية، كما أن هذه المنطقة هى التى غمرتها مياه النهر اعتباراً من ١٩٦٤، بعد إقامة السد العالى، فبذل المجتمع الدولى جهوداً طائلة لإنقاذ الكنوز المادية والروحية التى تعود إلى ثلاثة آلاف سنة. وهكذا فقد نُقل معبدا بوهن إلى الخرطوم.

وعلى مسافة ٢٥ كم شمال وادى حلفا، وعند موقع عكاشة على البر الأيسر، جرت فى عام ١٩٦١ أعمال تنقيب بمشاركة فرنسية أرجنتينية، فتم الكشف عن معبد مدمر إلى حد كبير، وكان مكرساً للإله أمون-رع، قام بتشبيده ورمسيس الثانى بمفرده تقريباً. ولكن أساسات الموقع تعود إلى سيتى الأول. وبعد رفع الأنقاض من الأساسات القديمة تم الكشف عن حجرات مستطيلة كانت فى الأصل مقاصير مكرسة للالهة حورس فى بوهن وأتوم وتحوت وپتاح^(١٤).

وتم تفكيك بعض الكتل الحجرية المنحوتة، ونقلت إلى متحف الخرطوم بتمويل من فرنسا.

(*) وهو فى الخرطوم أيضاً. (المؤلفة)

والى الشمال قليلاً، كانت بلدة فارس، تحتفظ ببقايا معبد مكرس للإلهة
حتحور، قام توت عنخ آمون ومن بعده رمسيس الثانى بإعادة بنائه وتوسيعه. وتولت
بعثات متعاقبة استكشاف الموقع. كان رحالة إنجليزى قد اكتشفه عام ١٨١٨، ومن
بعده فى عام ١٨٤٣ شامپوليون وروسيليني Rossellini، ثم بعثة من جامعة أكسفورد
Oxford بإشراف جريفيث Griffith فى الأعوام ١٩١٠-١٩١٢. وفى عام ١٩٦٠ قامت
مصلحة الآثار السودانية بدراسة الموقع، وأخيراً بعثة بولندية فى عام ١٩٦١.

وبعيداً عن معبد رمسيس الثانى ذاته، توجد شواهد على نشاط كل من سيقى
الأول ورمسيس الثالث. ومنذ عام ١٩٦٤، بقى المعبد غارقاً تحت المياه.

وإذا سرنا شمالاً، هابطين النهر، نصل إلى أبو سمبل، عند المعبدین الشامخين
المحفورين فى صخر الجبل، وقد شيدَهما رمسيس الثانى، على البر الأيسر من نهر
النيل. ويطلق علماء الآثار الاسم اليونانى سپيوس speos على المعابد المحفورة كلية
فى صخر الجبل، والكلمة تعنى حرفياً كهفاً أو مغارة.

وشهد تاريخ أبو سمبل واكتشافه مغامرات متعددة ومتنوعة^(١٥). ففى مطلع
القرن التاسع عشر كان المعبدان تغطيهما الرمال بالكامل تقريباً والباب مسدود، ولا
يبرز منهما سوى رأس أحد التماثيل العملاقة القائمة عند واجهة المعبد. إن حكاية
أسطورية محلية كانت مصدر خرافة يتشبهت بها أبناء المنطقة ويتمسكون بها تمسكاً
عنيداً. فكانوا يُنكرون منذ زمن بعيد وجود هذا المبنى، ويرون أن دخول الأجانب إليه
مستحيل: «إن شيخاً كان يُنظر إليه بصفته عرّاف البلدة، تكهن بأن فتح هذا المبنى
سيجلب مصائب بالغة... وينزل بالقرية مجموعة من الكوارث».

هكذا، وحتى عام ١٨١٣، لم يكن الرحالة الأجانب قد استطاعوا تجاوز بلدة
الدر، وكانت فى ذلك الوقت عاصمة النوبة السفلى، وتقع إلى الشمال قليلاً.

ويوم ٢٤ فبراير ١٨١٣ جاء أحد أبناء مدينة بازل السويسرية، ويدعى
بوركهاردت Burckhardt، «مرتدياً زى أحد تجار إسنا، وكان الدليل الذى يرافقه

والجميع أيضاً، يعرفونه تحت اسم إبراهيم بن عبدالله، وقد اكتفى بتقديم بعض الهدايا إلى محافظ الدر وأعطى سكرتيه قرشاً صاعاً واحداً كإكرامية وقرشاً صاعاً آخر لخدمه، ودفع لدليله راتباً قدره سبعة قروش وعشرين پارا كما كافأه بمنحه قرشين. وهكذا فقد أصبح أول أوروبي يتجاوز بلدة إيريم ويسير بمحاذاة الجندل الثانى ليصل إلى **بنقلة**. وعند عودته من **السودان** يصل إلى الجندل الثانى فى العشرين من شهر مارس. وقد نَوَّنَ فى يوميات رحلته بتاريخ ٢٢ مارس «ومن جديد سرنا بمحاذاة الشاطئ على الرمال التى رسَّبا انحسار الفيضان، وعبرنا قرية **بلانة**... وإلى الغرب يحمل الجبل اسم **إيسمبل** (*) Ebsambal. ويعتقد أنه اسم يونانى، وربما كان المقطع الأخير **بال** bal تحريفاً للكلمة **پوليس** (**) Polls. وعندما وصلنا إلى قمة التل تركت دليلى ومعه الجمال وهبطتُ عبر وهدة رأسية تقريباً، مغمورة بالرمال، لزيارة معبد **إيسمبل** الذى طالما سمعت عنه أوصافاً تفوق الخيال». وبينما كان يهْمُ باللاحاق بدليله، يستطرد **بوركهارت** فى يومياته قائلاً: «ولحسن الحظ، سرت بعض الخطوات بعيداً فى اتجاه الجنوب، اتجهت أنظارى إلى ما بقى مرئياً، من أربعة تماثيل عملاقة منحوتة فى الصخر... كانت هذه التماثيل قابعة فى تجويف محفور فى التل. وللأسف فقد طمرتها الآن الرمال التى دفعت بها الرياح من الجبل إلى هنا كما تندقع مياه السيل». كان **بوركهارت** قد اكتشف لتوه المعبد الثانى الأصغر، المكرس للإلهة **حتحور** والملكة **تقرتارى**.

إن التقارير التى قدمها **بوركهارت** إلى الجمعية الإفريقية فى لندن، ثم الأحاديث التى تبادلها عند عودته إلى القاهرة عام ١٨١٥، نبهت الدوائر العلمية وعشاق المغامرات.

(*) يقصد **أبو سمبل**. (المترجم)

(**) كلمة يونانية وتعنى مدينة. فمدينة **هليوپوليس**، على سبيل المثال، تتكون من مقطع **هليوس** Helios ومعناه الشمس، ومقطع **پوليس** polls ومعناه مدينة، ومن ثم فإن اسم **هليوپوليس** يعنى مدينة الشمس. (المترجم)

وفى عام ١٨١٥، استطاع إنجليزى يدعى **بانكس** Banks القيام بهذه الرحلة الشاقة، فحول ٢٠ أكتوبر كان موقع **أبوسمبل** فى مرمى البصر. ونجح فى الولوج إلى داخل المعبد الصغير، ولكن ظلت الرمال تعترض مدخل المعبد الجنوبي.

كان التوصل إلى رفع الرمال عن أكبر المعبدين يشكل صعوبة حقيقية. وبالفعل فإن الأيدى العاملة المحلية لم تكن تتقبل هذا العمل عن طيب خاطر، بسبب المصير المشنوم الذى ينتظر المنقبين، حسبما ترويه الخرافات الشائعة. ولهذا السبب وحده، فشل **برناردان سروفيتى** Bernardin Drovetti قنصل فرنسا القديم فى القاهرة، فى تحقيق هدفه. وبدافع من بعض المنافسة «الدبلوماسية»، قام **سالت** Salt فى الحال، وكان قنصل **بريطانيا** العام، بتمويل بعثة أخرى بإشراف رجل من مدينة **پالو** (*)، هو **جيانباتيستا بلزوني** Gianbattista Belzoni. وإبان بعثته الثانية عام ١٨١٧، توصل **بلزوني** بمعاونة رفاقه إلى رفع الرمال عن باب المعبد الكبير. وفى الأول من شهر أغسطس (**)، استطاع الدخول إلى المكان المقدس الذى لم تنتهك حرمة طوال آلاف السنين. «الانطباع الأول الذى تركه المشهد فى نفوسنا، أن ما نراه هو بكل وضوح معبد شاسع. ولكن تعاضمت دهشتنا عندما اكتشفنا أنه واحد من أروع المعابد، مزخرف بالنقوش والرسومات والتماثيل العملاقة، وما إلى ذلك.. وكلها على أكبر قدر من الجمال». فمن كان يطلق عليه «**تيتان**» (***) **پالو** «**le Titan de Padoue**» قد خرج منتصراً من المعركة التى خاضها ضد الرمال، وأعاد إلى العالم إحدى عجائبه (****) فى موقع، سيصبح عما قريب أحد أهم أماكن السياحة الدولية.

(*) مدينة إيطالية. (المترجم)

(**) مع ملاحظة ظروف القبط القاسية التى كان يعمل فيها هؤلاء الرواد. (المترجم)

(***) أحد المردة فى الأساطير اليونانية. أى أنه مارد مدينة **پالو**، كناية عما قام به من عمل جبار. (المترجم)

(****) وإن لم تذكر هذه العجيبة فى عداد عجائب الدنيا السبع، فى العالم القديم. إن عجائب مصر الفرعونية تستعصى على الحصر. (المترجم)

هكذا، فإن أبو سمبل يتكون من معبدتين حُفرا في أنف(*) سلسلة الجبال الغربية. إن معبد الجنوب، وهو الكبير، منحوت رأسياً في صخر الجبل بارتفاع ٢٢متراً وبعرض ٢٨متراً وبعمق ٦٣متراً.

إنه مكرس للإله أمون - رع والفرعون رمسيس الثانى. والأصغر، القائم في الشمال، مكرس للإلهة حتحور والملكة نفرتارى.

وأمام معبد الجنوب درابزين يحيط بالشرفة، ويعلوه كورنيش مصرى وشريط يحمل المدونة التكريسية. وكان عددٌ من الألواح الحجرية قد وُضع أمام المعبد، نذكر منها تحديداً لوح الزواج الذى يُحى ذكرى اقتران رمسيس الثانى من أميرة خاتى.

وتكتنف باب المدخل أربعة تماثيل عملاقة من الحجر الرملى، اثنان من الجهتين، يبلغ ارتفاعها ٢٠متراً. إنها تماثيل جالسة فى شموخ على عرش ملكى. ويجوار رمسيس الثانى، صُور أفراد عائلته فى أحجام متواضعة، والدته وزوجته نفرتارى وبعض الأمراء والأميرات. وعلى قاعدة التماثيل العملاقة، أى تحت قدمى الملك صُور بعض الأفارقة والآسيويين بالنقش الغائر، وقد ربطوا فى عقد نباتات الجنوب والشمال الشعارية. صحيح أنهم أسرى، ولكنهم صاروا يشكلون الآن جزءاً لا ينفصل من الإمبراطورية.

وفوق الباب شُكلت داخل كوة بالنحت المجسم صورة عملاقة للإله رع فى هيئة رجل برأس صقر يعلوه قرص الشمس، وبطبيعة الحال كان وجود صرح فى هذه المعابد المنحوتة فى الصخر أمراً مستحيلاً. وكما سبق أن رأينا، فإن رمزية الصروح تشير إلى الأفق والانبثاق اليومى للإله النورانى ليستهل دورته النهارية، ولهذا السبب تحديداً، ومراعاة لهذه الرمزية التى توحد بين مدخل المعبد فى المكان الذى تُشرق فيه الشمس وبين مطلع النهار، صُور الإله ذاته فى شموخه منبثقاً، إذا صح التعبير، من أعماق الجبل والليل. فالمعبد يلتزم بكل دقة بالاتجاه الشرقى الغربى.

(*) أنف الجبل: ما نتأ منه. المعجم الوسيط. (المترجم)

وتحيط بالواجهة كلها خيرزانة يعلوها إفريز يزدان بالخراطيش الملكية التي تكتنفها الأصلال. وفوقها يصطف اثنان وعشرون قرناً يبلغ ارتفاع كل واحد منها ٢٠ سم وهي تتعبد للشمس المشرقة.

وبعد اجتياز الباب يصل المرء إلى قاعة يبلغ عمقها ١٨ متراً وعرضها ١١,٧٠ متراً، ويستند سقفها على ثمانية أعمدة أوزيرية تشكل ثلاثة أروقة، على أن يكون الرواق الأوسط هو المعرض. إن صور **رعمسيس الثاني** في رده الأوزيري اللاصق، والمستند إلى الأعمدة، تقف على جانبي هذا الرواق، ويصل ارتفاع كل تمثال من هذه التماثيل عشرة أمتار. كما زُخرفت الجدران بمشاهد عسكرية، وعلى رأسها **معركة قادش**.

ومن الباب المنحوت في الجدار الغربي يصل المرء إلى قاعة ثانية طولها ١٤,٢٠ متراً وعرضها ٧,٧٠ أمتار، ويحمل سقفها أربعة أعمدة مربعة ضخمة، اثنان على كل جانب من المحور الأوسط، وقد ازدانت بنقوش تُصورُ شعيرة معانقة الملك من قبل الآلهة، وهي على التوالي: **أنوكيس وساتيس وحتحور وموت...**

إن ثلاثة أبواب مفتوحة في الجدار الغربي تفضي إلى قاعة ثالثة أصغر من سابقتها، وتزدان بمشاهد من القرابين والتعبد. وأخيراً، فإن ثلاثة أبواب أخرى تؤدي إلى **قدس الأقداس** الذي يبلغ أربعة أمتار عرضاً وسبعة أمتار عمقاً. وفي مؤخرة هذه القاعة نحتت في صخر الجبل ذاته صور أربعة آلهة جالسة على أريكة، وهي من اليسار إلى اليمين، أي من الجنوب إلى الشمال: **پتاح وأمون ورعمسيس ورع حور أختي**، إنها كبرى آلهة الإمبراطورية إلى جانب **الإمبراطور المقدس**.

إن المولعين بالأسرار ومحاولة فك مغاليقها أسهبوا في الكلام عن تفسير ظاهرة طبيعية تحدث سنوياً. إن **قدس الأقداس** يلي صفا من القاعات المتعاقبة، جاء ترتيبها في توازن متسق مع محور المعبد. وتأسيساً على ذلك، ففي لحظة بلوغ سطوع نور الشمس أوجه، يمكن للواقف عند مدخل المعبد جهة الشرق أن يميز بسهولة كبيرة الآلهة الأربعة الجالسة في أقصى المعبد جهة الغرب. بيد أنه يحدث مرتين في السنة

أن تشرق الشمس في محور المعبد ذاته، يومى ٢٠ أكتوبر و ٢٠ فبراير، لتضىء تماثيل الآلهة الأربعة(*)).

وينظر أحياناً إلى هذا المعبد، وإلى غيره، باعتباره معبداً جنائزياً، بسبب وجود الملك. ولكن أليس **رعمسيس** إلهاً؟ وأليس هذا المعبد الكبير المحفور فى صخر الجبل فى أبو سمبل برهاناً شامخاً إضافياً على تأليه العاهل الملكى الذى تقام له الشعائر الإلهية، فى آن واحد، إلى جانب كبرى آلهة مصر الثلاثة؟

وعلى مسافة قصيرة، شمال المعبد الكبير، يوجد المعبد الصغير المحفور فى صخر الجبل والمكرس للإلهة **حتحور** والملكة **نفرتارى**. إنه يرتبط ارتباطاً لاصيقاً بالمعبد السابق. هكذا يؤله اقتران **رعمسيس** بالملكة **نفرتارى**، ويُخلد إلى أبد الآباد، كما اقترن **أمون** - **رع** بإلهة السماء **حتحور**، فهى فى آن واحد زوجة الجرم السماوى وأمه. إنه تبادل فكرى لا ينقطع بين المُعلَّمين الشامخين، وتطابق وتوافق حميمان بين عالم الآلهة وعالم الملوك، فيتداخلان ويمتزجان. إن هذا المعبد الصغير المحفور فى صخر الجبل ليس مجرد «مظهر من مظاهر التكريم والإجلال» للجميلة **نفرتارى**(**) كما يقال أحياناً. فالهدف منه، بفضل الأساليب السحرية للأشكال وللصور المتماثلة، أن يضمن توحداً الملكة المحبوبة مع الإلهة **حتحور**، ومن ثمَّ تخليد اقترانها بالإله **رعمسيس**، إلى أبد الآباد.

وما زال نص التأسيس يعلن:

لقد أقام مبناه من أجل الزوجة الملكية العظيمة **نفرتارى** - **محبوبة** - **موت**، إنه

(*) أما **پتاح** وهو الإله الذى ينبثق من الظلمات ويعمل على انبثاقها فإن أشعة الشمس لا تلامس سوى كتفه الأيسر.

(المترجم) Ch. Desroches Noblecourt. Ramsès II. Pygmalion. 1996 p.244.

(**) معنى اسمها: «المنتسبة إلى الجمال» أو «الجميلة» أو «جميلة الجميلات».

(المترجم) Christian Leblanc. Nefertari. Ed. du Rocher. 1999. p.15.

معبد محفور فى صخر الجبل الطامر فى النوبة، إنه من حجر رملى أبيض، إنه عمل ينتسب إلى الأبدية - (من قبل) محبوب - أمون^(١٦).

كل شيء هنا، توافقات وعلاقات حميمة.

واجهة المعبد، وهى مقابلة أيضاً للشرق، تتكون من سبع دعامات^(*) ماثله على شكل منحدر ويعلوها كورنيش مصرى. والدعامة الوسطى وهى الأكثر ضخامة يخترقها باب هو المدخل إلى المعبد. إن الفجوات القائمة فى المسافة بين الدعامات استخدمت كؤات لستة تماثيل عملاقة يبلغ ارتفاع كل تمثال منها عشرة أمتار، وقد سُكَّت بالنحت المجسم فى صخر الجبل. إن الاثنين اللذين يكتنفان الباب والاثنين القائمين عند الطرفين، تمثل الملك واقفاً وقد وضع مختلف التيجان على رأسه. أما التمثالان العملاقان القائمان فى المسافتين اللتين تتوسطان التماثيل السابقة التى تؤطرهما، فإنهما يصوران نفرتارى وقد ازدانت برموز حتحور... كما صور أمراء ملكيين قرب تماثيل الملك وأميرات بجوار الملكة.

ويستند سقف القاعة الأولى على أعمدة حتحورية يبلغ ارتفاعها ١٧, ٢ مترًا. ثلاثة أعمدة على كل جانب من جانبي المحور الأوسط. وقد زُخرف كل جدار من الجدارين الشمالى والجنوبى بأربع لوحات كبيرة، تصور القرابين التى يقدمها الملك لثلاث مرات، ومرة واحدة بالنسبة للملكة. وتخترق ثلاثة أبواب الجدار الغربى لتفضى إلى ردهة عريضة محدودة العمق، وتسبق قدس الأقداس الذى صورت فى مؤخرته البقرة حتحور، وسط عمودين حتحوريين، وكأنها تبرز من صخر الجبل، بينما تحمى بخطمها القوى تمثالاً صغيراً للملك.

(*) الدعامة contrefort: كتلة مبانٍ من الحجر أو الطوب بارزة فى حائط أو تبنى سائدة له، لتزيد من قوة تحمله.

معجم العمارة وإنشاء المباني، تقديم وتصنيف وتعريف: د. توفيق أحمد عبد الجواد، الأهرام، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٥٢. (المترجم)

إنهما معبدان شامخان لا مثيل لهما، وكان من الضروري إنقاذهما قبل أن
تفمرهما مياه بحيرة ناصر، بعد بناء السد العالي.

كان ذبوع شهرة معابد الجنوب هذه حتى طبق صيتها الآفاق، قد دفع منظمة
اليونسكو إلى تأسيس حملة عام ١٩٦٠، لحماية معابد النوبة وضرورة إنقاذ معبدى
أبوسمبل. وبعد أن تم استنفار الرأي العام العالمى، اهتزت مشاعره لفكرة أن هذا
المعلم الفريد فى بابه سوف يلحق به الدمار. ولأول مرة، عقد عدد من الدول العزم على
القيام بأعمال جسيمة، حفاظاً على هذين المعلمين الشامخين اللذين تفتقت عنهما
قريحة ومهسيس الثانى. وفى نهاية المطاف، تقرر نقل المعبدین إلى الهضبة الصخرية
بعيداً فوق الموقع الحالى. الأمر الذى لم يتطلب فقط تخصيص أموال طائلة وصلت إلى
٣٦ مليار دولار ولكن أيضاً وسائل تقنية متطورة. وتمت العملية على ست مراحل (*)
بدأت أواخر ١٩٦٣ لتنتهى عام ١٩٦٨ (١٧):

١- رفع الأجزاء غير الأساسية من المعبدین، بتسوية التلال التى تعلوهما بارتفاع
٣٠ متراً فوق المعبد الكبير و٤٠ متراً فوق المعبد الصغير، وحفر هذه التلال حتى
مسافة ٨٠ سنتيمتراً من أسقف المعبدین. ومعنى ذلك نقل ٢٠٠٠٠٠ طن من
الصخور، على أن يتم كل ذلك دون استخدام المتفجرات التى قد تلحق الضرر
بالمعبدین.

٢- وفى الوقت نفسه، شيد سد مؤقت طوله ٣٦٠ متراً وارتفاعه ٢٥ متراً، الغرض منه
مقاومة ارتفاع مستوى المياه أثناء تقطيع المعابد ونقلها.

(*) عن قصة إنقاذ آثار النوبة ومعبدى أبوسمبل تحديداً، وبور كريستيان بيروشى لويلوكور فى
هذا الصدد، راجع:

Christiane Desroches Noblecourt: la Grande Nublade. Ed. Stock. 1992. Chapitres: 9-16.

وبالمناسبة فقد أطلقت المؤلفة على هذه الحملة «أروع حملة صليبية ثقافية» بعيداً بطبيعة الحال
عن أى دلالة دينية. (المترجم)

٢- تقطيع المعبدین إلى ١٠٣٥ كتلة، قد يصل وزن الكتلة الواحدة إلى ٢٠ طناً، كانت هذه المرحلة من أدق المراحل، على وجه الإطلاق. فبالنظر إلى هشاشة صخور الجبل الرملي لمعبدى أبوسمبل، مما قد يعرضها للتفتت، كان من الضروري تدعيمها بحقنها بمادة راتنجية كيماوية، ومعالجة السطوح فى الأماكن التى سيتم تقطيعها، تجنباً لتفتت الحجر تحت تأثير المنشار، مع مراعاة اللجوء إلى النشر اليدوى فى بعض الأماكن شديدة الهشاشة.

٤- ترقیم الكتل الحجرية ونقلها. وهو ما يعادل ١١٥٠٠ طن للمعبد الكبير و ٣٥٠٠ طن للمعبد الصغير. ثم تخزينها، لحين الانتهاء من عملية التقطيع.

٥- إعادة تشييد المعبدین بتثبيت الكتل الحجرية على بنية فوقية من الأسمنت المسلح، مع مراعاة اتجاه وموضع كل منها.

٦- إعادة تشكيل الإطار الطبيعى الأصلی، بأكبر قدر من الدقة، من خلال إقامة قبتين من الأسمنت المسلح تستطيع حمل غطاء صخرى يشبه الإطار الذى كان يحيط بالمعبدین.

إن أعمال التشطیب كسد الثغرات الناتجة عن أعمال النشر على سبيل المثال، سوف تستمر حتى ١٩٧٢.»

ولكن فى ٢٢ سبتمبر ١٩٦٨، أقيم حفل افتتاح معبدى أبوسمبل / الجليسين، افتتاحاً رسمياً، وسط مظاهر البهجة وبحضور جمهور غفير.

كان ٩٠٠ شخص من بينهم خمسون من الفنيين والمهندسين الأجانب وأربعون مهندساً مصرياً قد عملوا فى هذا المشروع العظيم الفريد فى بابه، طوال ست سنوات(*).

لم يكتب الملك آخر غير وهسيس الثانى الكبير أن يعرف مثل هذا المصير بعد وفاته. كانت ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة قد مرت منذ أن وافته المنية(*)، عندما ازدانت

(*) حقاً، إنه لعجبية من العجائب! (المترجم)

أنداك طوابع البريد التى تصدرها معظم البلدان بوجهه العملاق، وجه **أبوسمبل**. وعندما نقل جسده جواً إلى **پاریس** لتلقى العلاج، كان فى انتظاره عند عودته، فى مطار **المناظرة بالقاهرة**، بعض كبار الشخصيات المصرية(**). لقد ظلت هيئته منذ معركة **قادهش** تغالب الأيام. ولكن نذكر فى المقام الأول، عمله الجبار بصفته بنأً عظيماً، تجسيدا لشموخه، فبفضله استطاعت مهابته التى لا مثيل لها أن تظل تقاوم الزمن، إلى أيامنا هذه.

أكان من الضرورى أن يتحلّى بهذا الارتفاع فى القدر والمكانة، حتى تتضافر فى آن واحد جهود **مصر** وبلدان **أوروبا وأمريكا** وتقرر حماية وإنقاذ **بيوت-آلهة رمسيس**؟ ولكن ألم يكن **رمسيس** ذاته إلهاً؟

والآن، عند سفح **جُرف أبوسمبل**، ويعد أن حُفر الجبل حفراً، أصبح فارغاً خاوياً وأشبه بفاقد البصر. فلن نشاهد بعد الآن روعة وجمال هذا الموقع، ولا التناغم المتسامى الذى كان قائماً بين المعبد الملكى والطبيعة المحيطة به(***)، ولكن ستبقى الحماية تُظلُّ الآلهة فى مكان آخر. وكما تقوله المدونة التكريسية: إن المعبد، «ينتسب إلى الأبدية».

(*) من الجدير ملاحظة ما يأتى: فى المصرية القديمة كلمة **ملى** تعنى **ماء**. وكلمة **مليت** تعنى **ميناء**. برنايت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩، ص ١٠٩-١١٠. كما أن الكلمة القبطية **مولى** تعنى **مرفأ**، أو **ميناء** وتأتى مجازاً بمعنى **المنية، الموت**. دجورجى صبحى، قواعد اللغة المصرية القبطية، طبعة جديدة G.M.T. International، ١٩٨٧، ص ٢٢٥. وقد يكون وجه الشبه واضحاً أيضاً فى اللغة العربية بين كلمتى **ميناء ومنية**، فكلتاهما تعنى نهاية رحلة، رحلة سفر أو رحلة حياة. (المترجم)

(**) لمزيد من التفاصيل عن هذه الرحلة راجع:

Christiane Desroches Noblecourt. la Grande Nublade. Stock. Pernoud. 1992. pp.429-440.

(المترجم)

(***) وفى هذا الصدد يمكن مراجعة مجموعة الصور الواردة فى المرجع السابق بين صفحتى ٢٨٨ و٢٨٩ وتحديداً الصورة رقم ١٧. وأيضاً للمؤلفة نفسها: Ramsés II. Pygmalion. 1996. p.220. (المترجم)

وإذا أبحرنا شمال أبوسمبل، هابطين مجرى النهر، نلتقى أيضاً بمعابد شيدتها «أنوار الملوك وأضواؤها». إنها تحتشد وتتكدس، بأعداد أكبر، لتشكّل غطاءً إلهياً لمصر، بعد أن اقتربنا منها الآن.

فى بلدة الدرّ أقيم أيضاً معبد محفور فى الصخر. وكان مكرساً للإله أمون-رع، وقد نُقِرَ بالكامل فى الجبل بعمق ٢٢ متراً. كان يضم بهو أعمدة زُخرفت جدرانه بمشاهد عسكرية. وكانت تتقدم قدس الأقداس قاعة صغيرة زخرفت جدرانها بمشاهد تقديم القرابين، وكان الأقباط قد حولوه إلى كنيسة.

وتم تقطيعه، قبل عام ١٩٦٤ وأعيد بناؤه بمعرفة هيئة الآثار المصرية.

والى الشمال قليلاً يمتد موقع همدا. كان المعبد المبني بالكامل بالحجر الرملى قد شيده كل من تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى من جانب، وتحوتمس الرابع من جانب آخر، وكان مكرساً للإلهين رع حور أختى وأمون رع. وفى عهد أمنحوتب الرابع أزيلت صور أمون وأسماءه وألقابه بالمطرفة. وأول أعمال الترميم قام بها سيتى الأول ثم واصلها رمسيس الثانى. وأقام فيه مر إن پتاح لوحاً حجرياً، يحمل تاريخ العام الرابع من حكمه ويشير إلى حملة إلى النوبة. كما نجد فى معبد همدا هذا، اسمى الملكة تاسروت وحامل الأختام بائى(*)، وحوله الأقباط إلى كنيسة.

«يعتبر نقل معبد همدا عملاً باهراً(**). فقد تحرك من مكانه ككتلة واحدة، لمسافة ٢٦٠٠ متر وإلى مكان يرتفع ٦٥ متراً عن مستوى الموقع الحالى. إن هشاشة الرسومات والنقوش التى تزخرف جدرانه، وما زالت فى حالة جيدة من الحفظ بعد مرور ثلاثين قرناً، كانت لا تسمح بتفكيكه بآى شكل من أشكال. ومن ثمّ فقد شدّ شداً

(*) راجع الفصل الرابع من الباب الأول. (المترجم)

(**) وتلك عجيبة أخرى. (المترجم)

بالأحزمة والأربطة وأحيط بكرمات من الصلب والأسمنت المسلح، ليحتفظ بصلابته. وانتقل على خط حديدي مكون من ثلاثة قضبان، شُيِّد خصيصاً لهذه العملية. وقام الفرنسيون بتمويل هذه المهمة^(*). أما المقصورة الواقعة أمام قسم قدس الأقداس فقد قامت هيئة الآثار المصرية بتفكيكها ونقلها^(١٨).

وإذا واصلنا السير شمالاً، نصل إلى معبد وادي السبع الذي حُفر جزء منه فقط في صخر الجبل، بينما يقع قسمه الأكبر خارج الجرف الصخري. وأمام صرح المدخل كان يمتد فناءً يحيط بهما سور من الطوب، والطريق المحوري تحفه تماثيل أبو الهول. وكانت تماثيل الفناء الأول برأس آدمي، عملاً بالطراز القديم، أما تماثيل الفناء الثاني فبرأس صقر، وهو طراز جديد مبتكر. إن أبدان أسود التماثيل قد أعطت اسمها للموقع، فأطلق عليه وادي السبع. وكان رمسيس الثاني قد كرّس المعبد للإلهين آمون-رع ودرع حور أختي.

وأمام واجهة صرح المعبد أقيمت ستة تماثيل عملاقة تصور رمسيس، وما زال تماثيلان منها في مكانهما، بينما حطام الأربعة الأخرى تغطي الأرض. وعلى جناحي الصرح، ما زلنا نميز النقوش التي تصور رمسيس، وهو يقدم الأسرى إلى آمون، وإن كانت هذه النقوش مطموسة إلى حد كبير. والفناء الذي يلي الصرح مربع، ويبلغ طول ضلعه عشرين متراً، وتكتنفه صفتان على الجانبين. إن تماثيل أوزيرية عملاقة تصور الملك، كانت تستند إلى الأعمدة. وعلى قواعد جدران الصفتين صور موكب أولاد^(**) الملك: ثلاثة وخمسون أميراً يحملون المراوح، وسبع وأربعون أميرة يهزّزن المصلصات. كما نلتقى بهذا الموضوع نفسه في الرامسيوم.

(*) بدأت الرحلة يوم ١٢ ديسمبر ١٩٦٣. كان الموكب يسير بسرعة ٢٥ متراً في الساعة ليصل إلى موقعه الجديد يوم ٢٦ مارس ١٩٦٤. Egypte. Guides Bleus, Hachette. 2002. p.444. (المترجم)

(**) الولد: يطلق على الذكر وعلى الأنثى. المعجم الوسيط. (المترجم)

إن القاعات المحفورة في جُرف الجبل والتي تتقدم قدس الأقداس تزدان بمشاهد تقديم القرابين. وعلى جدار مؤخرة قدس الأقداس حُفرت كوة تُظَلُّ نقوش ثلاثة آلهة: أمون ورعمسيس(*) الثانى ورع حور أختى.

قامت هيئة الآثار المصرية بنقل المعبد بتمويل من الولايات المتحدة الأمريكية.

كان المرء إذا واصل السير بمحاذاة النهر سرعان ما يلتقى بمعبد جُرف حسين الذى نُحِت جانب منه فى صخر الجبل. وكان سيتاوانائب الملك فى الجنوب قد أمر بحفره، بناء على أوامر رعمسيس الثانى فى العام ٤٥٠ من عهده. كان مكرساً لكل من پتاح ورعمسيس الثانى وپتاح تاتان وحتحور. وصورت الآلهة الأربعة فى مؤخرة قدس الأقداس.

والمعبد على مسافة قريبة من المعبد السابق.

وأخيراً، وإلى الشمال قليلاً، كان يوجد معبد بيت والى المحفور فى صخر الجبل، تنفيذاً أيضاً للأمر الصادر من رعمسيس الثانى. وقد نقل من مكانة بمعرفة هيئة الآثار المصرية بفضل رعوس الأموال الأمريكية. وللأسف فإن داخل المعبد المحفور فى الصخر، ويتكون من ثلاث قاعات وقدس أقداس قد أُدخل عليه بعض التعديلات فى العصر المسيحى. ولكن ما زال فى وسعنا رؤية بعض مشاهد حملات رعمسيس الثانى العسكرية، على جدران الفناء الخارجى.

وإذا سرنا بعيداً عن نهر النيل وتوغلنا فى الصحراء الشرقية، على مسافة ١٠٠ كم تقريباً جنوب درب وادى الحمامات، نلتقى بخرائب المباني التى كان سيتى الأول قد شيدها حول مناجم الذهب، ونشير تحديداً إلى معبد صغير، حُفر نصفه فى صخر الجبل وسط وادى مياه قرب قرية الرئيسية الحالية، والذى كشف عنه الرحالة كايل Caillaud عام ١٨١٦. هذا المعبد المحفور نصفه فى الجبل مكرس للإله أمون. وواجهة المعبد عبارة عن صفة تتكون من أساطين على شكل براعم البردى. وداخل

(*) هكذا! (المترجم)

صخر الجبل نحتت قاعتان يليهما قدس الأقداس. وعلى جدران القاعة الأولى نقش
ثلاث مدونات أمر سيسى الأول بتسجيلها، لتروى تاريخ مشاريعه^(١٩).

لم تعرف مصر ملكاً غير رمسيس الثانى أقام هذا القدر من المبانى الإلهية.
ويشهد ذلك على ازدهار بلد كان فى وسعه القيام بهذه المشاريع الإنشائية العظيمة
التي تمتد فى ربوع البلاد من قلب السودان وحتى البحر الأبيض المتوسط. وبعد
رمسيس الثانى سوف يقلص نشاط البنائين الملكيين.

ولا يخامرنا أدنى شك أنه كان يُنظر إلى رمسيس الثانى فى معابد الجنوب
بصفته إلهاً. فقد صُوِّرَ فى معظم المعابد فى صحبة آلهة مصر، ولا سيما آلهة الثلاث
المقدس الذى اختاره الرعامسة، فكان يشاركها فى حماية «الأرض المحبوبة». ويظهر
ذلك بكل وضوح فى معابد السودان والنوبة، ليصبح شخص الملك مصوناً فى نظر
هذه الشعوب التي تميل إلى التمرد.

ثانياً، قصور ملايين السنين

فى «قصور ملايين السنين» التي نطلق عليها المعابد الجنائزية، كانت تقام
الشعائر اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة من أجل الملك المتوفى، وفى الوقت نفسه من
أجل الآلهة. ومن قبل كان مكان إقامة الشعائر الجنائزية الملكية منفصلاً. ومع ذلك
لا ينبغي الخلط بين المعبد الإلهى والمعبد الجنائزى، رغم ما بينهما من أوجه تماثل
واضح، فى شكل المبنى ذاته من حيث التخطيط وسمه «الشخصيات» التي تقام من
أجلها الشعائر. فمن ناحية تقام المعابد الجنائزية بصفة عامة فى مكان لا يبعد كثيراً
عن المقبرة التي يرتبط بها، بالنظر إلى طبيعتها، فتشيد على البر الغربى لمدينة طيبة.
ومن ناحية أخرى، كان المصريون أنفسهم يميزون بين «بيوت الآلهة» و«قصور ملايين
السنين»، ويكفى أن نستشهد بالنصوص.

أكثر قصور ملايين السنين أصالة،

معبد سيتى الأول التذكارى فى أبيدوس(*)

إن المعبد الجنائزى الفعلى للملك سيتى الأول، وتخطيطه كلاسيكى، قائم فى الشيخ عبد القرنة، بالبر الغربى لمدينة طيبة(**)، ولا يبعد كثيراً عن مقبرته فى وادى الملوك(***) .

ولكنه أقام فى أبيدوس(****)، مكان أوزيريس المقدس، معبداً جنائزياً ألحقت به مقبرة تذكارية، فكان عملاً فريداً فى بابه. إنه فى حقيقة الأمر معلم نذرى شامخ من أجل أوزيريس، إله البعث، فمنذ الأسرة الثانية عشرة شاعت رحلات الحج إلى أبيدوس على نطاق واسع، وكان الأفراد يضعون فى الغالب النذور فى هذا المكان، وهى فى معظم الأحوال عبارة عن لوح حجرى، وكانت غايتهم الحصول على الرعاية الخيرة التى يوفرها سيد الصيرورات الأبدية.

وقد أطلق الإغريق على المبنى الذى شيده سيتى الأول اسم Memnonion

(*) تقع هذه المنطقة الأثرية على مسافة ١٥٤ كم شمال الأقصر ولا تبعد كثيراً عن مدينة البليتا. (المترجم)

(**) وفى الناحية الشمالية، تحديداً. (المترجم)

(***) المقبرة رقم kv17. (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم أبجو، يفتى مصطلح أبيدوس اليوم سبعة مواقع أثرية هى: أم القعاب، والعراة المنقوة، وبيت النصارى، وتل المنشية، وشونة الزبيب، وكوم السلطان، وبنى منصور

M. Damiano- Appia. L'Egypte.. Dict. Enc. Grûnd. 1999. p.33.

كما يمكن الرجوع إلى الكتاب القيم: د. عبد الحميد زايد. أبيدوس. وزارة الثقافة والإرشاد القومى. مصلحة الآثار. ١٩٦٣. (المترجم)

وباللاتينية Memnonium ممنونيوم، عندما صحفوا لقب العامل الملكي من ماعت رع، وقد وصفه سترابون(*) Strabon قائلاً «إنه قصر(!) بُنى بناءً رائعاً».

شُيّد المعبد على منحدر أرض مائلة، فأصبح من الضروري توزيع تدرج المبنى على أسطح متعاقبة. ويتخذ تخطيطه الأفقى شكل الزاوية القائمة. وبالإضافة إلى المعبد ذاته، فى المحور الشمالى الجنوبى، يضم المعبد جناحاً جانبياً، ناحية الشرق. وأخيراً يستند المعبد إلى أكمة طبيعية، حُفرت فى هيئة قبر تذكارى، هو الأوزيريون Osireion. لقد شُيّد من الحجر الجيرى الناعم، الذى يبرز أعمال النحت ببروزاً رائعاً. والنقوش على أكبر قدر من الدقة وترتقى إلى مستوى رفيع من الجمال. أما الأساسات التى تصل إلى عمق ١٢٠ سم فهى من الحجر الرملى.

قام رعمسيس الثانى بإضافة فناءين وصرح إلى المعبد الأسمى الذى شيده والده، ليزيد من مساحته. إن الصرح وهو من الحجر الرملى، وكان طول واجهته ٦٢ متراً، مدمر فى الوقت الراهن تدميراً شبه كامل. كما صار الفناء ان أثراً بعد عين. كان الفناء الأول يضم أشجاراً وأحواض ماء كما حُفرت كوات فى السطوح الداخلية لجدرانه، وكانت تُظَلُّ - على ما يعتقد - تماثيل أوزيرية تصور الملك. وكان كل فناء ينتهى برواق على شكل شرفة ويتكون من اثنى عشر عموداً مربعاً.

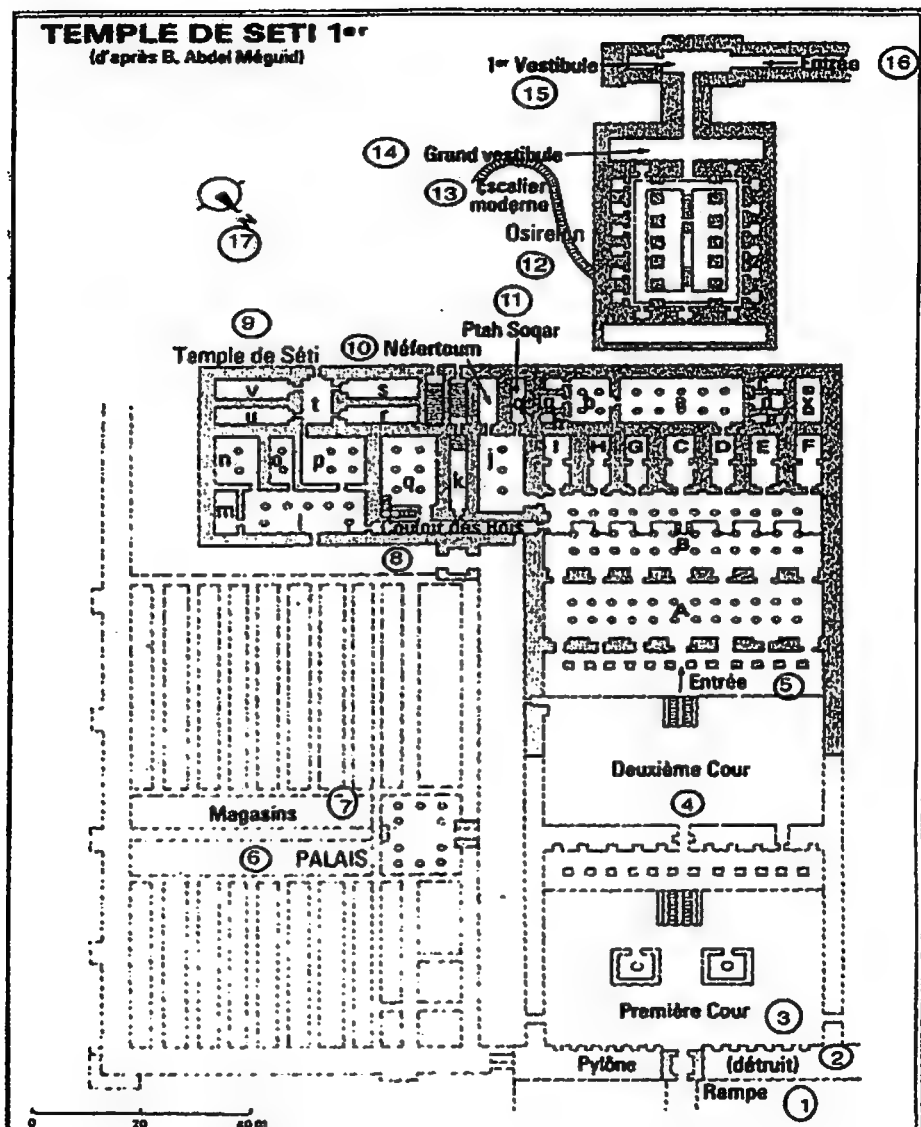
وخلف الرواق الثانى، كانت سبعة أبواب تتيح للمرء الدخول إلى بهو الأساطين، الأول الذى يبلغ طوله ٦٢ متراً، وعمقه ٢١ متراً، ويضم أربعة وعشرين أسطواناً موزعة على صفين، كل اثنين معاً.

وأمر رعمسيس بسد أربعة من هذه الأبواب بحائط من كتل الحجر الرملى، وعلى الجدار الذى تشكل على هذا النحو، أمر بنحت مشاهد إقامة الشعائر من أجل سيقى الأول بالنقش الغائر. إن مدونة من ٩٥ سطرًا تشيد بحب رعمسيس لوالده، عندما أمر بتوسيع معبد أبيه وترميمه.

(**) عالم جغرافيا يونانى ولد عام ٥٨ ق.م، وتوفى فى منتصف العقد الثالث من القرن الأول الميلادى. (المترجم)

بيانات معبد سیتی الاول، فی أبیدوس

1. ممر صاعد
2. صرح (مهدم)
3. الفناء الأول
4. الفناء الثاني
5. المدخل
6. القصر
7. المخازن
8. دهليز الملوك
9. معبد سیتی
10. نفرتوم
11. پتاح سوكر
12. الأوزيريون
13. سلم حديث
14. الردهة الكبيرة
15. الردهة الأولى
16. المدخل
17. اتجاه الشمال



مسقط أفقى لمعبد سيتى الأول ، فى أبيدوس

إن سبعة أبواب أخرى، تقع على محور الأبواب السابقة نفسه، تُفضى إلى بهو الأساطين الثانى الذى يضم ثلاثة صفوف من ٢٦ أسطواناً، كل اثنين أيضاً معاً. هذه الأساطين مثل سابقتها من طراز حزمة البردى، وتتخذ تيجانها هيئة براعم البزدي، وهى المرة الأولى التى يظهر فيها هذا الطراز الذى سينتشر فى عصر الرعامسة على نطاق واسع. إن الصف الأخير من الأساطين من البهو الثانى مقام فوق أرضية أكثر ارتفاعاً، فقد سبق أن لاحظنا أن المعبد قد شُيّد فوق أرض مائلة. ولهذا السبب فالأساطين بلا تيجان، لتعويض الفارق فى مستوى الأرض.

إن الأروقة السبعة التى تحدها الأبواب السبعة، تفضى إلى سبع مقاصير، طول الواحدة ٨٥، ١٠م وعرضها ٢٠، ٥م. وهى مكرسة للإله آمون فى الوسط، ولكل من أوزيريس، وإيزيس وحورس فى الجهة اليمنى، أى ناحية الغرب، ولكل من حور أختى وبتاح وسيثى فى الجهة اليسرى، أى ناحية الشرق. هذا التقسيم إلى سبعة أروقة وإلى سبع مقاصير، ظاهرة فريدة فى بابها. ويتخذ سقف كل مقصورة هيئة القبو الكاذب المتدرج^(*). وينقسم إلى جزأين، فى اتجاه الطول، فيُظَلُّ الجزء الأول القارب المقدس، ما عدا مقصورة سيثى^(**)، ويُظَلُّ الجزء الآخر تمثالاً يستند إلى الباب الوهمى المنحوت فى جدار المؤخرة. ومقصورة أوزيريس^(***) هى الوحيدة التى يوجد بها باب حقيقى فى مؤخرتها، يسمح بالانتقال إلى حجرات أوزيرية أخرى. ويتقدم كل مقصورة من هذه المقاصير حدور، أما مقصورة آمون وهى الأكثر أهمية، فكان يتقدمها سلّم. وكانت تُغلق بباب ذى مصراعين. وعلى الواجهة الداخلية لهذه الأبواب نُحتت بعض النصوص، نذكر منها خطابات الآلهة اعترافاً بجميل الملك:

« كلمات قالها أوزيريس، أول أهل الغرب، المقيم فى معبد من ماعت رع:

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: د. محمد أنور شكرى، العمارة فى مصر القديمة، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، ١٩٨٦، فى أماكن متفرقة ولا سيما ص ٤١-٤٢ والشكل ٢. (المترجم)

(**) المقصورة A فى رسم المسقط الأفقى للمعبد. (المترجم)

(***) المقصورة D فى رسم المسقط الأفقى للمعبد. (المترجم)

«لقد حضرت إلى معبدك، وقلبي مفعم بالحب، لمشاهدة وجهك. إن قلبي سعيد ويعود إليه الاخضرار بفضل ما فعلته، وكما يتصرف ابن يعبر عن الشكر والحمد لأبيه (٢٠)».

♦ كلمات قالتها إيزيس، الأم الإلهية، المقيمة في معبد من ماعت رع:

«كم هو جميل المعلم الصرحى الذى صنعته من أجلى. لقد شيدته بقلبي ودودي. أجل، فابنى معك أيضاً، وسوف أكون حمايةً لجسدك، مثل رع، للزمن اللانهائى (٢١)».

♦ كلمات قالها حورس، ابن ولبن نفر (٢٢)، المقيم في معبد من ماعت رع:

«أنا أبوك، لقد أقمته في قلبي منذ أن كنت وليداً يتم إرضاعه. لقد بُشّرت بملكك بينما كنت لا تزال في بطن أمك، أنت يا حامى - أبى (٢٣)».

هكذا يندرج سبتي الأول في السلالة الأوزيرية. ولكنه يندمج أيضاً في الشمس.

فعلى سقف مقصورة سبتي، يمكن للمرء أن يقرأ ما يلي:

ما دامت السماء باقية، سيبقى معبده، لأن صاحب الجلالة قائم فيه، أشبه بقرص الشمس للزمن اللانهائى، اللانهائى (٢٤).

وعلى سقف مقصورة أوزيريس، يطلق على الملك الاسم التالى:

الحورس... صاحب الأيام العديدة، والساعات التى لا حصر لها، الذى تشبه مدة حياته مدة القرص صاحب المسار العظيم، مثل خبيرى عندما يظهر عند مطلع الفجر. إن الزمن اللانهائى قائم أمامه في معبده (٢٥).

هكذا تكتسب الأبدية الملكية ضماناً مزدوجاً. ذلك هو الهدف الذى يتطلع إليه بشكل طبيعى كل معبد جنائزى.

إن الجناح الشرقى من المبنى وهو عمودى عليه، يرتبط به من خلال دهليز طويل، يطلق عليه اصطلاحاً «دهليز الملوك»، طوله ٢٥ متراً. إن سقفه مرصع بالنجوم

(*) حورنخ إيتف بالمصرية القديمة وقد صحفه الإغريق إلى هاريلدوتس (Harodotès). (المترجم)

الصفراء، فالنحاس هو مادة النجوم، وتتعاقب صورها مع خراطيش **سيتى الأول**. وعلى الجدران نُحتت ٧٦ خرطوشاً تخص الملوك الذين حكموا مصر بدءاً من **نعرمر** وحتى **سيتى الأول**(*) . ويقوم **سيتى** وابنه **رهمسيس** بإطلاق البخور فى اتجاه أسماء آبائهم، مع تلاوة الصيغ الطقسية.

هكذا، سُجّلت تسجيلاً راسخاً وثابتاً، استمرارية النظام الملكى المصرى ودوامه، فى أشكال من الحجر ليغالبا الأيام. ولما كان **رهمسيس** الثانى آنذاك هو وريث العرش، فقد نُظر إليه فى هذه اللحظة باعتباره **النبته الأخيرة**. وإذا كان المؤرخ المعاصر يجد بغيته فى هذه القائمة، فقد كان العقل المصرى يعلق أيضاً أهمية كبرى على توارث العرش أباً عن جدّ، واستمرارية السلالة الملكية، وهو ما تعبر عنه تعبيراً كاملاً وشاملاً أسطورة **أوزيريس**، سيدّ هذا المكان المقدس وراعيه.

ويتصل الدهليز الطويل بمجموعة من الحجرات.

إن البناء الأكثر تفرّداً فى هذه المجموعة الأصلية فى حد ذاتها كل الأصالة، هو ضريح **سيتى الأول** التذكارى، المعروف اصطلاحاً بـ **الأوزيريون Osireon**. وبالفعل، فقد ساد الاعتقاد عند الكشف عنه فى العقد الثالث من القرن العشرين، أنه قبر **أوزيريس**. لقد شيدّ فى محور المعبد، كما أن فارق ٣٥٠ سم يفصل أساسات المبنين.

إن الأكمة الصخرية الطبيعية التى شيد عليها كانت محاطة على ما يعتقد بأشجار رمزاً لعودة الحياة إلى عالم النبات وبعث **أوزيريس**، الأمر الذى ما زالت تؤكدُه الفجوات الصغيرة المحفورة فى الرمال، ويفترض أنها كانت تملأ بالقربة الصالحة للزراعة.

(*) لقد عمد **سيتى الأول** إلى إهمال ذكر أسماء بعض الملوك باعتبارهم غير شرعيين، مثل **حتشبسوت** و **أخناتون** و **سمنخ كارع** و **توت عنخ آمون**. راجع: د. عبد الحميد زايد، أبديوس، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، مصلحة الآثار، ١٩٦٣، ص ٤١. (المترجم)

يقع مدخل **الأوزيريون** ناحية الغرب، إن دهليزاً طويلاً ينحدر انحداراً خفيفاً كان مقبباً في البداية، يغور في الأرض على عمق مائة متر تقريباً، إلى مستوى البناية السفلية المحفورة في الصخر. إن سطوح هذا الدهليز المغطاة بالطوب رسمت عليها ودونت نصوص جنائزية. وبعد ذلك، يعبر المرء حجرتين صغيرتين قبل أن يصل إلى دهليز ثانٍ يشكل زاوية قائمة مع الدهليز الأول، وإذا توجه ناحية الشرق فإنه يقودنا إلى قاعة فسيحة مستعرضة طولها ٢٠ متراً وعرضها ستة أمتار، يعلوها سقف بقمة مستديرة. وتزدان الجدران بمشاهد ونصوص مقتطفة من **كتاب الموتى**. ثم نصل إلى الضريح التذكاري ذاته، وهو عبارة عن قاعة فسيحة طولها ٢٠,٥٠ م وعرضها ٢٠ متراً. وكانت سبع عشرة كوة محفورة في الصخر تحيط بالقاعة. هل كانت تطل تماثيل أوزيرية؟ وعلى الجانبين، كان صف من خمسة أعمدة ضخمة من الجرانيت الوردى الأحادي الكتلة ترفع سقف القاعة. وعند كل طرف من القاعة وفي اتجاه محورها الطولي، كان سلمٌ يهبط إلى الماء. وقد تم الكشف عن قناة شُقت في أعماق الأرض، في محور معبد **سي تي الأول**، ربما لنقل الماء من النيل.

كان هذا المبنى ينتهي بحجرة فسيحة مستعرضة مساحتها كالسابقة، تقارب العشرين متراً في الستة أمتار، ونطلق عليها اصطلاحاً «**حجرة التابوت**». وبالفعل، ففي وسطها كانت فجوتان تحاكيان، على ما يظن، مكان التابوت وصندوق **الآنية الكانوبية**(*) . وقمة السقف مستديرة، سجلت عليه بالنقش البارز بروزاً رقيقاً صور، هي آية في الجمال. ففي الجهة الغربية من الناحية الشمالية من السقف، نشاهد صورة عملاقة لإلهة السماء **نوت**، ممددة فوق الأرض، ويرفعها الإله **شو**. وعلى ظهر الإلهة السماء **دُونْت** أسماء **الديكانات**(**) Decans. وعلى بطنها وساعديها وساقبيها

(*) وليس **الأواني الكانوبية** وهو خطأ شائع. إن لفظ **آنية** هو صيغة الجمع للفظ **إناء**. أما لفظ **أواني** فهو صيغة جمع الجمع. و**الآنية الكانوبية** أربعة فقط. (المترجم)

(**) من كلمة **Dekanus** اللاتينية وهي من مشتقات **Deka** أى عشرة. و**الديكان** هو الجن المهيمن على كل عشر درجات من دائرة البروج السماوية. لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتي، دار المستقبل العربي، ٢٠٠١، ص ١٥١. (المترجم)

نُقشت الأيام والشهور التي حدثت إبانها شروق أو سَمَت الرأس(*) zenith أو غروب مجموعة نجوم الكوكبة constellation هذه. إن قسماً مجاوراً من السقف يطلق عليه: «معرفة ساعات النهار والليل».

ومن قبل، ومنذ توأبيت الأسرة الثانية عشرة(**)، نتعرف على مثل لوحات الديكانات هذه. إن معرفة ساعات الليل على قدر كبير من الأهمية للمتوفى، إذ توفر له القدرة على تتبع الشمس أثناء مسارها الليلي، وبالتالي مصاحبتها مصاحبة سحرية. واستناداً إلى المدونة، فإن اثني عشر عضواً من أعضاء ثوت(***)، تشكل علامات الأصواء(****) التي تحدد ساعات الليل الاثنتي عشرة. وهذه الأصواء هي اليد والشفة والسنن والرقبة والصدر و؟ والأمعاء والأحشاء والفرج و؟ والفخذ(٢٦). ويتم كل ذلك بعد مدة حَمَل في أعماق الجسد الإلهي. كان في وسع سيقي الأول الراقد في التابوت رقدة وهمية متابعة فترة الحمل هذه لأبد الأبد، ليولد مع الشمس من جديد، ولادة سحرية عند الفجر. إننا في عالم خيالي من الأطياف، فيمكن أن تدب الحياة في الأشكال وإن كانت وهمية.

ما معنى الأكمة الوسطى والحفرة المملوءة ماء؟ يقارن البعض، بين هذه الصورة وصورة الجزيرة الأصلية، التي تبرز بالكاد من المحيط الأولى، لينشط عليها الإله الخالق في اليوم الأول من ميلاد الكون. إنها أقرب إلى الصواب، فيما ذهبوا إليه.

(*) سَمَت الرأس في علم الفلك، النقطة في القبة السماوية التي تقع مباشرة فوق رأس المشاهد وعلى بعد ٩٠ درجة من الأفق السماوي. معجم المصطلحات العلمية والتقنية، أكاديميا، بيروت، لبنان ١٩٩٢، ص ٥٩٧. (المترجم)

(**) خصص المتحف المصري بالقاهرة القاعة رقم ٣٧ من الدور العلوي لتوأبيت الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

(***) وفي فمها تختفي الشمس في المساء، لتولد من جديد في الصباح، من خلال عملية ولادة طبيعية. (المؤلفة)

(****) جمع صَوَّة، وهي ما نصب من الحجارة ليستدل به على الطريق. المعجم الوسيط. (المترجم)

فهذا التصور شائع فى قصص الخلق عند المصريين. ويُعتقد أن سِيتى الأول قد أصبح مشاركاً فى قصة ميلاد الكون ليلتحم أيضاً بالإله الخالق للأزمنة الأولى، بعد أن ارتبط من قبل بإله البعث فى إبيدوس وبدورة الشمس. وإذا كان له نصيب من كل الأشكال الإلهية الخاصة بالميلاد أو الميلاد الجديد، فإنه يضمن لنفسه على هذا النحو أبدية أنشطته الحيوية، اعتماداً على أساليب مختلفة ومتنوعة وبطرق مؤكدة، منزهة عن الخطأ^(*).

وإذا وُجدت أضرحة تذكارية أخرى على أرض إبيدوس، نذكر منها على سبيل المثال ضريحى سنوسرت الثالث وأحمس، فإن ضريح سِيتى الأول كان فريداً فى بابه، من حيث شموخه وعمق الفكر الدينى الذى يقف وراءه.

أكثر القصور، شموخاً، الرامسيوم

كما أمر رمسيس الثانى ببناء معبد فى إبيدوس، لا يبعد كثيراً عن معبد أبيه. كان مخصصاً لكائه، وأصغر من السابق، وفى حالة سيئة من الحفظ فى الوقت الراهن. وقد جاء تشييده تعبيراً عما يكنه الابن من مودة نحو أبيه وللحصول بلا شك على أبدية مشتركة. كان تخطيطه كلاسيكياً. فبعد بهوى أساطين، يصل المرء إلى القسم المخصص لقدس الأقداس، الذى كان يضم مجموعة تماثيل من الجرانيت الرمادى تصور خمسة أشخاص: أمون فى الوسط، وسِيتى الأول، ورمسيس الثانى،

(*) إن معبد سِيتى الأول وملحقاته فى إبيدوس، من المعالم الأثرية الجديرة بالزيارة، إذ يذهب البعض إلى أن معبد سِيتى الأول هو من أروع ما تفتقت عنه قريحة المصرى القديم وأبدعته أنامله، ولم يجانبهم الصواب فيما ذهبوا إليه. ومن يتعزّر قيامه بهذه الرحلة، عليه أن يتأمل سحر الجمال الأخاذ لنقوش هذا المعبد وملحقاته كما سجلها بين دفتيه، فى جولة تستغرق أكثر من ٢٥٠ صورة بالإضافة إلى ٢٤ صورة بالألوان كتاب:

OMM Sety and Hanny El Zeini: ABYDOS. LL Company. Los Angeles. USA. 1981.

وعن تقييم سلبى لام سِيتى OMM Sety راجع:

(المترجم) Ch. Desroches Noblecourt. La Grande Nublade. Ed. Stock. 1992. pp.101-104.

عند الطرفين. أما ملامح الشخصين الآخرين، أكانا ملكتين أم إلهتين، فمehشمة تهشيماً بالغاً.

والأمر الجدير بالملاحظة فى هذا المعبد، هو تنوع المواد المستخدمة، وإذا صح القول، تألق ألوانه. فقد شيدت مقصورة أوزيرية، من الألبستر الأبيض النقى، فوق قاعدة بناء من الكوارتزيت الأصفر، وقد غطيت بسقف من الجرانيت الوردى وتكتنفها مقصورتان من الحجر الجيرى الأبيض خُصصتا لكل من **إيزيس** و**حورس**. وكانتا تُظَلَّان تماثيل من الجرانيت الأسود، بينما الصرح من الحجر الجيرى، ودعامتا الباب من الجرانيت الوردى.

ولا يعتبر هذا المبنى معبد **رع** **مسيس** الثانى الجنائزى الحقيقى.

أما **قصر - ملايين - السنين** الحقيقى المنتصر فى معركة **قادش** فيقع - مثل **قصر سيتى الأول** - على البر الغربى لمدينة طيبة، وعلى مسافة ٥٠٠ متر إلى الجنوب الشرقى من **تلال الشيخ عبد القرنه**، أى أنه كان لا يبعد كثيراً عن **قصر أبيه**.

إنه **الرامسيوم** (*) **Ramesseum** الذى أطلق عليه الإغريق «مقبرة (!) **أوسيماندياس**» **Osymandias**، تصحيفاً للقب **أوسر مامت رع**، بصفته ملك **مصر العليا ومصر السفلى**. إنه يلتزم بالاتجاه الشرق غربى، وغير متساوى الطول. إنه مبنى شاسع ومحاط بسور من الطوب يبلغ طوله حوالى ٣٠٠ متر وعرضه ١٧٧ متراً.

كان يتكون من صرحين، يعتقد أن طول كل منهما ٧٠ متراً ولكنهما تهدما الآن تهديماً شبه كامل، ومن فناعين بأروقة ذات أعمدة أوزيرية تصور العاهل الملكى، ومن بهو أساطين فسيح يبلغ ٤١ متراً عرضاً و ٣١ متراً عمقاً، وكان الدخول إليه عبر ثلاثة أبواب من الجرانيت الأسود ثم من ثلاثة أبهاء أساطين متعاقبة أصغر مساحة، ثم يصل المرء إلى **قدس الأقداس** الذى يستند سقفه على أربعة أساطين. كان الرسم التخطيطى لبهو الأساطين الكبير من الطراز البازيليكي، ويضم ٤٨ أسطواناً. ويتكون

(*) تعود هذه التسمية إلى **شمبوليون** **Champollion**. (المترجم)

الرواق الأوسط من صفين من ستة أساطين ذات تيجان على شكل زهرة البردى المتفتحة. أما الجناحان الجانبيان، في الشمال والجنوب فيتكون كل منهما من ثلاثة صفوف من ستة أساطين ذات تيجان على شكل براعم البردى، أقل ارتفاعاً من أساطين الرواق الأوسط وعرض قطرها أقل. وقد صُوِّرت على الجدران مشاهد عسكرية وأخرى لتقديم القرابين.

كان **الرامسيوم** يضم ملحقات شاسعة، تتكون من مباني من الطوب ذات قباب. إن الطوب أو بعضه على الأقل يحمل خرطوش **رعمسيس الثاني**. كانت الملحقات على أكبر قدر من الأهمية، وتطوق المعبد من ثلاث جهات في الشمال والغرب والجنوب. وكانت تستخدم لحفظ المؤن ومخازن ومساكن للكهنة، بالإضافة إلى وجود مدرسة لإعداد الكتبة.

وناحية الجنوب، وقرب مدخل المعبد، كان قصر فسيح ملتصقاً بالمعبد.

أما في الشمال فإن معبداً صغيراً، كان يعتقد حتى الآن أنه مكرس لوالده **سيتي الأول**، ولكن ربما كان يخص **توي** والدة الملك^(*).

وإذا كانت خرائب قصر **رعمسيس الثاني** للملايين السنين ما زالت تشدّ خيال المشاهد، فإنها تعبّر أيضاً عن عظمة من شيدّه، وعلى الرغم من أن تماثيل الفناعين العملاقة محطمة، فإن شموخها المهيّب يظل يؤثر في النفوس. والتماثيل الذي كان يطلق عليه «**رعمسيس - نور - الملوك**»، نُحت في كتلة واحدة من الجرانيت الوردى وارتفاعه ١٧,٥٠م. إن رشاقة أساطين البهو، ورقة وجمال النقوش المنحوتة في الجرانيت أو الحجر الجيري، ما زالت تُفصح عبر آلاف السنين عن شرف منزلة ملك عظيم ومهابته.

(*) أو مقصورة **الماميزي**، الولادة المقدسة للملكة **توي**.

(المترجم) La vallée des Rois. sous la direction de Kent Weeks. Gründ. 2001. p.89.

أكبر القصور: معبد مدينة هابو

أمر رمسيس الثالث ببناء أكبر المعابد الجنائزية فى مدينة هابو الواقعة جنوب جبانة طيبة، وعلى بعد ١٥٠٠ متر إلى الجنوب الغربى من الرامسيوم.

المعبد محاط بسور كبير من الطوب، سمكه ستة أمتار وارتفاعه ١٢ متراً، ويلتزم بالاتجاه الجنوبي الشمالى. إن رسمه التخطيطى مماثل لمعبد رمسيس الثانى، ففى هذا المجال أيضاً أراد رمسيس الثالث، بلا شك، أن يحاكي رمسيس العظيم. وخلف صرحاً شامخاً يبلغ ٦٨ متراً عرضاً و٢٢ متراً ارتفاعاً، ويمتد بطول ١٥٠ متراً فناءً بأروقة ذات أعمدة أوزيرية تصور الملك وثلاثة أبهاء أساطين تنتهى بقدس الأقداس.

وعند مدخل المعبد، ويمحاذاة الفناء الأول وإلى الغرب منه، يوجد قصر ملكى (*) شيد من الطوب، ويضم جناحاً للحريم وحمامات وقاعة للعرش. كما ازدانت جدرانه ببلاطات من القاشانى. كما كان «نافذة للظهور» تتيح للملك مشاهدة المراكب الاحتفالية وحضور الأعياد التى تقام فى الفناء الأول من المعبد. وكان يستخدمها خلال فترة حياته على الأرض وبعدها.

وقرب نهاية حياته أمر رمسيس الثالث ببناء سور جديد من الطوب سمكه ١٠,٥٠ م وارتفاعه ١٨ متراً، بشرفات مسننة فى قسمه العلوى، ويضم أبراجاً موزعة على امتداده لتحاكى القلاع والحصون. وإلى هذا السور أضيف سور آخر من الطوب ولكنه أقل ارتفاعاً، وكان مبنياً من الحجر فى بعض أجزائه. كانت بوابة المدخل تتكون من برج شامخ على الطراز السورى اسمه **مجدل**. هكذا، فإن «قصر ملايين /السنين» الذى شيده رمسيس الثالث، أصبح فى نهاية المطاف محمياً كما تحمى القلاع والحصون، إذ تأثرت عمارته تأثراً بالغاً بالحملات العسكرية التى خاضها العاهل الملكى ضد **شعوب البحر**، وتحديداً فى **سوريا**، فى حين خلّدت المشاهد المنحوتة على السطوح الخارجية للجدران انتصارات آخر **الرهامسة** العظام.

(*) كان قصر مماثل قائماً أيضاً فى المعبد الذى شيده رمسيس الثانى «الرامسيوم»، وإن كان أقل ضخامة. (المؤلفة)

ثالثاً: وادى الملوك

هكذا، فإذا كان السهر على حياة الملك المتوفى والحفاظ عليها تضمنهما الشعائر الجنائزية، فإنه كان من الضروري أيضاً توفير الحماية للمومياء داخل تابوتها الحجرى.

وابتداءً من تحوتمس الأول حُفرت المقابر الملكية فى الجرف الصخرى المشرف على غرب طيبة، وتخترق هذا الجرف شبكة من الوديان القفار شديدة الانحدار. وأشهرها هو **الوادى الشرقى المعروف بوادى الملوك**، وكان يضم ٥٨ مقبرة (*) . كما يطلق عليه **بيبان الملوك**. وفى هذا الوادى الذى يُخيم عليه الصمت، البعيد عن عالم الأحياء، وفى وسط هذا المشهد الطبيعى الفريد القفر وبلا زرع ولا ضُرْع، رقدت أجساد جميع الفاتحين المغاوير صنَّاع أمجاد مصر التليدة.

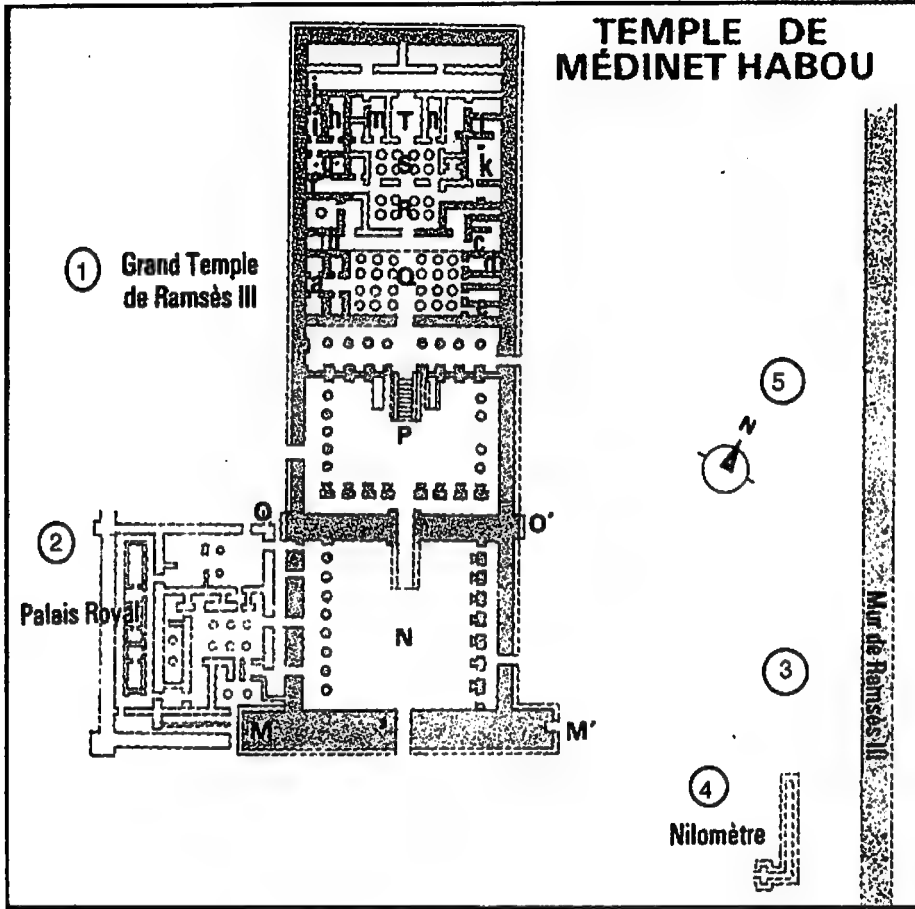
كانت هذه المقابر موجودة فى بعض الأحيان، عند مسافة أكثر من ٢١٠ أمتار، فى قلب الجبل، وعلى عمق ١٠٠ متر. لقد أرادوها مأوى آمناً، وظنوا استحالة التعدي عليها. ولكن سبق أن رأينا^(٢٧) أن الجوع والبؤس كانا أقوى من كل المحظورات المادية والروحانية. فكم من الكنوز والذهب والفضة والأحجار الكريمة كانت فى جوف هذه المقابر، لتشكل الزاد الوفير للعالم الآخر. ومثال ذلك، القطع النفيسة التى عُثر عليها سالمة فى مقبرة **توت عنخ آمون**، وإن كانت لا تعطينا سوى فكرة بسيطة. وقرب نهاية عصر **الرعامسة**، ومع انتشار إفقار البلاد، صار من الضرورى وضع المومياوات الملكية فى خبايا سرية، حماية لها.

ولكن تظل المقابر قائمة بأساليبها السحرية. وإذا كان تصميمها مختلفاً ومتنوعاً، من حيث التفاصيل، فإن تنسيقها فى مجموعها يظل واحداً، وبوجه عام فإن

(*) بالإضافة إلى أربع مقابر فى الوادى الغربى. وعن **وادى الملوك** يمكن الرجوع إلى الصور فائقة الجمال لأهم مناظر مقابر أعظم ملوك مصر كما يضمها بين دفتيه كتاب:

La Vallée de Rois. sous la direction de Kent R. Weeks. Photographies de Araldo De Luca. Gründ,

2001. (الترجم)



مسقط أفقى لمعبد مدينة هابو

بيانات معبد مدينة هابو

- | | |
|--------------------------------|-----------------|
| 1. العبد الكبير لرعمسيس الثالث | 4. مقياس النيل |
| 2. القصر الملكى | 5. اتجاه الشمال |
| 3. سور رعمسيس الثالث | |

دهاليز ثلاثة، متصلة الواحد بالآخر، تتوغل في بطن الجبل، هابطة هبوطاً وثيداً، من المدخل وحتى حجرة الدفن. وفي بعض الأحوال، كانت الحجرات الثانوية أو الكوآت المتاخمة للدهاليز تضم المتاع الجنائزى. وقد يحدث أحياناً انقطاع في مسار الدهاليز، فتُحفر فجأة بئر عميقة كان هدفها مزدوجاً، فتشكل عائقاً يحول دون تقدم اللصوص المحتملين أبعد من ذلك (!) ووسيلة لتجميع المياه التي قد تتسرب إلى داخل المقبرة (*). وفي أبسط الأحوال، كانت ردهة تفضى بعد ذلك إلى الحجرة الرئيسية في المقبرة التي كانت تلحق بها أحياناً حجرات ثانوية. كان سقف حجرة الدفن يستند في أغلب الأحوال على عدد من الأعمدة. وكان التابوت الحجرى موضوعاً في فجوة قليلة العمق محفورة في الأرض.

كانت سطوح الدهاليز والحجرات مغطاة بالنقوش المرسومة والمدونات، فكانت وسيلة عظيمة لها رونقها وأساليبها السحرية لتحقيق البعث وإعادة الحياة. هذه الأسفار الجنائزية الملكية كانت تمدُّ العاهل الملكى بالتعاونى التي كانت معرفتها لا غنى عنها لإتمام رحلته في العالم الآخر على أحسن وجه. كانت هذه المقابر تضم بين حوائطها بالصورة والكلمة، مكتبة حقيقية، هدفها البقاء على قيد الحياة (**).

إن التجول في هذه الأروقة له أفضل وقع في النفس، إذ سرعان ما يتضامل الضوء، فيشعر المرء أنه محاط بزخارف فريدة من حيث روعتها وثنائها ورونق جمالها، فتغطي بالكامل سطوح أعمدة المقابر وحوائطها وأسقفها. ومنذ هذه اللحظة نستشعر من وجود الجنِّ والآلهة أن العالم الآخر قد أصبح قاب قوسين. حقاً، إن وادى الملوك هو بالفعل «المدخل إلى الغرب».

(*) يرى بعض علماء المصريات أن هذه البئر كانت تقوم بدور دينى، فينظر إليها باعتبارها مقبرة دُفن فيها **أوزيريس** دفناً رمزياً. انظر المرجع السابق ص ١٢١. (المترجم)

(**) مقابر وادى الملوك التي يصل عددها إلى ٦٢ مقبرة، لا نعرف أحياناً أصحاب شاغليها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر المقابر: KV 24 ومن KV 26 إلى KV 32 وKV 61. انظر المرجع السابق ذكره ص ١١٤-١١٥. (المترجم)

فى هذا الموقع المهيب، غير المعهود فى نظر البشر، القائم عند باب الغرب، كان
الجبلى يظلُّ أملاً تتجدد على الدوام، فى حياة لانهاية لها، تضمنها الأساليب السحرية
للأشكال والألوان والكلمات.

إن الملك - البطل، كان أيضاً ملكاً عظيماً بناءً. وبعد الرهاسة ينسدل الستار
على عصر المباني الشامخة (٢٨).

الفصل الثالث

فى ظل الملك،

الآداب والفضنون

أولاً، الآداب

الأدب المصرى عالم من النصوص المتنوعة، المنحوتة والملونة والمرسومة على دعائم من كل نوع، من الجرانيت الصلد إلى أبسط شَقَف الفخار، وعلى البردى وشرائط الكتَّان أو الجلد، وبشكل عام على كل مادة قادرة على تثبيت «الكلمات الإلهية». فالكتابة فيض من الآلهة، ومن عناصر الكون المرهوبة الجانب أو المفعمة بالبركة. وفى وسع أشكال الكلمات أن تُبثَّ فيها الحياة، كما أن النطق بها يؤدى إلى تحول ما تعبرُ عنه إلى حقيقة واقعة. والدعائم، وقد اقتصرَت على الحجر فى بداية الأمر، أخذت تتنوع بمرور الزمن. وشهد الأدب المصرى تطوراً مهماً عندما توصل المصريون إلى استخدام ورق البردى قرب نهاية الأسرة الخامسة.

والنصوص مكتوبة فى لغة تسترعى الانتباه والاهتمام، فمجرد النظر إلى الشكل ذاته للعلامات التى تُكتب بها، نقصد بذلك العناصر الأدمية والحيوانية والنباتية بالإضافة إلى الجماد، وكلها منقولة عن عالم المصريين، فاستُخدمت بوصفها علامات صوتية^(*) phonogrammes أو علامات تصويرية^(*) Idéogrammes، هكذا أصبحت

(*) **العلامات التصويرية:** تدل على الشيء المرسوم ذاته. فترسم العين للدلالة على العين واليد للدلالة على اليد وهلم جرا...

العلامات الصوتية: تستعمل العلامات التصويرية لا بالنظر إلى معناها بل من أجل قيمتها الصوتية.

لمزيد من التفاصيل راجع: برناديت موني، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩. (المترجم)

هذه النصوص المكتوبة كافية وحدها لإبداع شعر حقيقي، من خلال علاماتها فائقة الروعة. إنها لغة مولعة بالصورة العينية، فقيرة في مفرداتها الفلسفية، ولكنها غنية بكل الصور المنبثقة من الحياة، بل إنها شديدة الثراء.

الأدب في مصر، كان أيضاً فناً. لأنه يحتاج في كثير من الأحوال إلى عمل النحات ومن يقوم بأعمال التلوين. ومن جانب آخر يعتمد الأدب على فن الرسم، كما أن الرسم هو الأصل الذي نشأ عنه فن النقش والتلوين. فالسطح المطلوب زخرفته يبدأ بالرسم. وتأسيساً على ذلك لم تعرف مصر التمييز المطلق القاطع بين الأدب والفنون.

وغير وارد هنا على الإطلاق أن أقدم عرضاً شاملاً وافياً للأدب في عصر الرعامسة، فقد يحتاج ذلك إلى مؤلف آخر، وربما إلى عدة مؤلفات. ولكن سنكتفى بتقديم أهم ملامح الإنتاج الأدبي المصري، إلى جانب بعض النصوص البارزة.

سبق أن تناولنا أهم المدونات التاريخية وبعض النصوص الجنائزية في سياقها الطبيعي. وفي هذا الفصل سوف نقوم بدراسة الترانيم، وهي عبارة عن أناشيد من أجل الآلهة أو الملوك أو المدن، كما سنتناول المسارد الخيالية الإلهية، وحكايات هذا العصر وقصصه، لننتقل بعد ذلك إلى تحليل التطور المهم الذي عرفه الشعر، ولا سيما قصائد العشق والهوى.

الترانيم

الأناشيد من أجل الآلهة

شهد عصر الرعامسة تأليف عدد كبير من الترانيم. سوف نستشهد بأكثرها شيوعاً وأيضاً ببعض النصوص الجديدة.

ومن أقدمها، كُرس أحدهما لنهر النيل - **حعبي** (*)، وقد أعيد نسخها عدة مرات من قبل سيتي الأول ورعمسيس الثاني ومر إن پتاح ورعمسيس الثالث، فكان يحركهم الاهتمام نفسه، لتقديم الشكر والحمد لإله الخصب والنماء. إن مدونتي رعمسيس الثاني ومر إن پتاح تضمهما مقصورتان متجاورتان في جبل السلسلة^(١). أما مدونتا سيتي الأول ورعمسيس الثالث فقد نحتتا على لوحين حجريين مستقلين.

فليحيَ الإله الكامل، محبوب نون، إنه **حعبي** أبو الآلهة والتاسوع، الذي في الأمواه الدافقة^(٢)، إنه طعام مصر وغذاؤها ومؤنها، فيتيح لكل امرئ أن يحيا، بفضل كائه. الخيرات الوفيرة في طريقه، والطعام على أصابعه والبشر أجمعون يهللون فرحاً عندما يعود.

أنت الواحد المتفرد الذي خلق نفسه بنفسه، فلا يستطيع المرء أن يعرف (كل) ما بداخلك. وعندما تتفجر من مغارتك، لا يتوقف المرء في ذلك اليوم، عن التعبير عن فرحته.

أنت رب الأسماك، أنت غنى أيضاً بالحبوب، أنت من تمد مصر بصيد الماء^(**). كما أن آلهة التاسوع لا تعرف (كل) ما بداخلك، ولكنك (مصدر) حياتها أيضاً، فعندما تعود تتضاعف قرايينها وتزود موانئها بالأطعمة الوفيرة. إنها تغتبط عندما تظهر، لأنك لا تتوقف عن إعادة الحياة إليها.

إنك تبحث عن أساليب إبقاء البشر أحياء، تماماً مثل رع عندما كان يحكم هذا البلد. إنك ترضى نون وتعيده في سلام. إن جماعة آلهة الجنوب في سعادة، منذ أن

(*) ينبغي التمييز بين: **حعبي** : أى نهر النيل، كما يطلق على النيل مؤلهاً.

وحبي : وهو أحد أبناء حورس الأربعة.

وحب : وهو العجل **أيس**. المرجع السابق ص ٢٧٦. (المترجم)

(**) كالبط، على سبيل المثال. (المترجم)

أرادت أن يحقق **حمفي**، الأب، أفعالاً جالبةً للخير في ربوع البلد المحبوب، فأوجد الخلائق من قلبه. إنه مقدم ويقظ، باحث عن الطعام من أجل الأحياء، فيكثر من الحبوب، حتى أصبحت كالرمال، بينما تفيض الشئون.

(وبدوره)، سعى صاحب الجلالة إلى تحقيق أشياء مفيدة وطيبة، من أجل أبي كل الآلهة، ومن أجل جماعة آلهة الجنوب التي تتسيد على أمواه (الفيضان). إنه حصيف القلب^(*) مثل (قلب) تحوت، فكان يفكر في المنافع التي قد تحبها. ومنذ زمن رع، لم يعرف هذا البلد ملكاً واحداً تصرف، على هذا النحو.

عندئذ قال صاحب الجلالة ما يلي: «إن حمفي هو الذي يحيى القطرين. فالأطعمة والأغذية تأتي إلى الوجود بعد أن فاض النهر، كما أن جميع الناس خاضعون له. إننا أثرياء إذا أمر بذلك. إنني أعرف ما يوجد في غرفة المدونات^(**) الموجودة في دار الكتب. إنك تتفجر من مغارتيك، لتوفير الخبز. وعندما يحل الماء الطاهر في منطقة جبل السلسلة - وهي بالطبع مكانه المقدس - تتم مضاعفة القرابين، من أجله^(٣)».

يلي ذلك قائمة بالقرابين المطلوبة.

إن عبارات كبرى ترانيم رعمسيس الثاني إلى آمون، أجمل وأكثر مهابة، وهي محفوظة على بردية، من مقتنيات متحف ليدن Leiden في الوقت الراهن (pap. I, 350). إنه نص مهم، سبق أن ترجمنا بعض فقراته^(٤)، ونقدم فيما يلي بعضها الآخر. إنها تعبر عن الورع تجاه الإله العظيم بصور وضأة مثالية:

(*) القلب عند قدماء المصريين أهم عضو بالنسبة للفرد. كان مركز أفكاره ووعيه وإرادته ووعاء الذاكرة والشاهد على وجوده بأكمله. إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتي، دار المستقبل العربي ٢٠٠١، ص ٢٤٦. (المترجم)

(**) مكتب المحفوظات. (المؤلفة)

❖ طلوع أمون وبزوغه فى المشرق:

يَتَجَمَّعُ **التاسوع الإلهى**، المنبعث من **نون**، عندما يراكَ (*) (أنت، الإله) صاحب المهابة الشامخة، يا أعظم الأرباب، الذى جَبَلَ نفسه بنفسه، يا سيد الخلاق. ومن كانوا فى ظلام (الليل)، فإنه يتألق(**) فجأة من أجلهم، لينير وجوههم، بمستقبل جديد. إن عينيه تتألقان، وأذنيه منفتحتان، وكل الأبدان مغطاة (بالذهب)، عندما يتقدم نوره. السماء من ذهب و**النون** من لازورد والأرض تُرشق بما يشبه سهاماً من فيروز، عندما يشرق عليها.

والآلهة تستعيد الإبصار ومن جديد تُفتح معابدها. فبفضله يستطيع البشر أن يروا ويتأملوا. والأشجار ترتعش عند رؤيته، وتلتفت إلى الواحد المتفرد وتنسبط أوراقها. وبدافع من حبها له تقوم الأسماك بوثبات فى الماء وتقفز فى الهواء، فى بركها. وعند رؤيته أيضاً، ترقص الماشية وتُرفرف العصافير بجناحيها، لأنها تعرفه فى لحظته السعيدة وتحيا عند رؤيته طوال اليوم. إن (جميعهم) فى يده، وقد وُسموا بختمه. فلا إله سواه، يستطيع فتح حظيرتهم، لا أحد غير **صاحب الجلالة (أمون)**، فلا شىء يمكن أن يحدث بدونه هو، الإله العظيم، حياة **التاسوع** (*).

❖ سِير الشمس

يا **حور أختى**، إنك تُبحر لتقوم بمهمة يوم أمس نفسها، على مدار (كل) يوم (من الأيام). إنك تخلق السنين وتربط الشهور وتحين الأيام والليالى والساعات كلُّها سِرَت (قدماً). إنك تتجدد يوماً بعد يوم. وما أن تتوغل فى الليل حتى تظهر فى النهار، أيتها الساهر المتفرد، فالنوم ممقوت لديك. إن الناس ممددون نياماً، ولكن تظل عيناك

(*) هكذا فى ضمير المخاطب. (المترجم)

(**) هكذا فى ضمير الغائب. (المترجم)

يقظتين، أنت الذى تُفْرِجُ عن ملايين الكائنات^(*)، بوجهك البهيم. فلا وجود لطريق من الطرق بدونك. فأنت النجم سريع المشية وسط كوكبة النجوم. إنك تجوب الأرض فى لحظة واحدة بلا عناء، فتبحر عبر السماء وتعبّر العالم الآخر. فالنور على كل درب من الدروب يذهب ويأتى على الوجوه، لأن جميع البشر يستديرون نحوه. والآلهة والبشر يقولون: مرحباً! مرحباً! ^(٦٧)

✦ يد أمون المِينة:

وإذ يقضى على الشرور ويطرده الأوجاع والهموم، فإنه الطبيب الذى يعيد البصر إلى العين بلا دواء، ويفتح العين ويُبْعِدُ الأمراض... مقدماً العون لمن يريد، وحتى فى العالم الآخر، مَخْطُصاً حسب رغبته (كأء من كان) من مصيره. إن له عينين وأذنين ووجهاً، على كل درب من دروبه، من أجل من يُحِبُّه. إنه ينصت لتضرعات من يستغيث به، وفى لحظة يأتى من بعيد، إلى جوار من يتوسل إليه. وفى مقدوره إطالة زمن الحياة أو الانتقاص منه^(**). ومن يتعبّد إليه يعطيه أكثر مما هو مقدر له. إن اسمه على المياه الدافقة افتتان سحرى، والرياح (العاتية) تُدفع بعيداً والرياح الرديئة ينعكس اتجاهها...، إنه النسيم الليل لمن يبتهل إليه، ويُغيث الإنسان المنهك، إنه الإله الرؤف، بإرشاداته المفعمّة بالبركة. إنه يرتبط بالإنسان الذى ينحنى أمامه، فى زمن (بؤسه). إنه أكثر فائدة من الملايين، لمن يضعه فى قلبه. وبسبب اسمه فإن رجلاً واحداً أقوى من مئات الآلاف. حقاً إنه الراعى الحامى العامل^(٧).

وفى ترنيمة أخرى إلى أمون من عهد رهمسيس الثالث، نتعرف على الإلهام الجزلّ وجمال الصور الذين يميزان أدب هذا العصر القلق المهموم.

خفياً كان اسمك... فما من أحد كان يعرف شكلك، قبل أن تنبثق متألقاً للمرة الأولى من نون. كانت أشعّتك براقّة كما أضأت كل ما خلقته بعد أن كان فى الظلمات،

(*) بعد أن كانت أسرى الليل. (المترجم)

(**) تدور إحدى آيات الكتاب المقدس حول المعنى نفسه: أن يوماً واحداً عند الرب كآلف سنة وألف سنة كيوم واحد. رسالة بطرس الثانية: الإصحاح ٢: الآية ٨. (المترجم)

حتى الآن. بشرتك كانت نوراً، ودفؤك يؤلّد الحياة، وكل أنواع الأحجار الكريمة المقدسة ممتزجة بجسدك. ونسمنتك هي النسمة لكل أنف. وبفضلك كان الجميع يتنفسون لحيوا. كما لك مذاق (نهر) النيل، وتُمسَحُ بدمان نورانية العذوبة^(٨).

ربما كانت الترانيم إلى الآلهة التي تعود إلى الأفراد البسطاء أقل إلهاماً، ولكن لها أيضاً وقعاً حسناً في النفس. ونذكر على سبيل المثال، صلاة فيليبا، رئيس رسامي أمون الذي خلف أباه على هذا المنصب في عهد سيتي الأول. إن لوحاً حجرياً، من مقتنيات المتحف البريطاني في الوقت الراهن، حفظ لنا النص الآتي:

يا أمون، يا أعظم الأرباب، أيها الإله الأقدم الأصلي الذي شكل نفسه بنفسه،
يا سيد عروش القطرين، يا ملك الآلهة، أيها الهليوبوليتاني^(٩)، يا سيد الكرنك.

ليتك^(١٠) تضع نعمتي أمامك.

يا رع، يا من شكل البشر، أنت أبو وأم البشر أجمعين، فتتالق من أجلهم.
ليتك تتيح للجميع أن يتأملوك، على امتداد الزمن الأبدي، وعلى مدار الأيام،
وبلا انقطاع.

يا أتوم، السلف الأول في هليوبوليس، رب الصيرورات في كل مكان يود
الحضور فيه، الإله العظيم، البكر، الأقدم الأصلي، القصي، فالجميع يجهلون ما يفعله.

ليتك تتيح للجميع أن يمتزجوا بنصارتك

يا شمو المقيم في طيبة، يا خونسو - نفر حويت، المرفوع فوق حامله، يا أول
من جاء إلى الوجود، العظيم الذي يتسبّد على قصر - البنو^(١١)؟

(*) نسبة إلى هليوبوليس. (المترجم)

(**) هكذا في صيغة المخاطب. (المترجم)

(***) عن البنو Phoenix، راجع إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتي، دار المستقبل العربي، ٢٠٠١، ص ٧٢. (المترجم)

ليته(*) يعطيني الأطعمة ما دمت على سطح الأرض.

يا تقنوت التي أنجبها رع، أيتها الأم المقدسة للقبطيين، الخفية المكنونة، التي لا يعرفها أحد، والقائمة على رأس الآلهة جمعاء.

ليتها تهبنى الحياة والازدهار والصحة وشيخوخة مبدلة، تابعاً لسيدى.

يا جب، يا أبا الآلهة، الذي شكّل كل ما يوجد، أيها الكائن الإلهي، الذي يتخفى ويطعم أولاده على رأس ما خلقه.

ليته يتيح لى أن أتحذ بهذه الأرض وأن يرقد بجوارى.

يا نوت⁽¹⁾...

للأسف فإن نهاية النص مهشمة.

يقدّم سيديا الشكر والحمد إلى آلهة تاسوع هليوبوليس، الذي يقف آمون على رأسها، كما يتضرع إليها، لينال حياة مزدهرة وراحة إلهية فى العالم الآخر.

إن صلاة المناجاة وهى نوع لم يظهر فى هذا العصر لأول مرة، إلا أنه أخذ فى الانتشار على الأقل، على نطاق واسع. وفى سياق هذه الصلاة تذكر أسماء الآلهة وهى أسماء سرية، لأن معرفتها تعطى سلطاناً عليها. ويتم تلاوتها فى هيئة سلسلة طويلة من التسبيحات.

وأشهر هذه النصوص هو نص صلاة المناجاة إلى رع.

ويظهر هذا النص للمرة الأولى، فى مقبرة سبتي الأول. وتكشف مقدمته عن صورة قرص الشمس، بينما يغوص فى العالم الآخر، أسفل الأرض. كما سنجد صور هذه الصلاة ونصوصها فى مقابر رهمسيس الثانى ومر إن پتاح وأمن مس وسبتي الثانى ورهمسيس - سى پتاح ورهمسيس الثالث ورهمسيس الرابع، كما ستنتح لها، صيغة مختصرة فى مقبرة رهمسيس التاسع. وسنلتقى أيضاً بهذا النص على توابيت

(*) هكذا، فى صيغة الغائب. (المترجم)

من عصور لاحقة، بعد أن أصبح من كلاسيكيات عصر الرعامسة.

ويطلق على رع خمسة وسبعون اسماً. إن معرفتها سوف تساعد الملك المتوفى على اجتياز العالم الآخر الليلي والسفلى، وفى صحبة الإله، دون معوقات.

هكذا يبدأ النص الطويل المسهب:

فاتحة سفر التعبد إلى رع فى الغرب والتعبد إلى من اتحد به (*) فى الغرب.
عند تلاوة هذا السفر، ينبغي أن تتم بالألوان... على الأرض، ليلاً (فى هيئة تعاويذ
يتلوها الكهنة الجنائزيون على أشكال مرسومة؟). إنه خير ضمان لانتصار رع على
أعدائه فى الغرب. إن ذلك مفيد لكل إنسان على الأرض، ومفيد له بعد أن يُدفن.

الشكر والحمد لك، يا رع، أيها القدرة العظيمة، يا رب الكهوف (وهى لا حصر
لها فى العالم السفلى) بأشكاله الخفية، الذى يغرب فى الأسرار المغيية، عندما يتحول
إلى نيبا...

الشكر والحمد لك، يا رع، أيها القدرة العظيمة، الذى يطوى جناحيه،

عندما يغرب فى العالم الآخر، ليحقق تحوله إلى من سيولد من جديد من
أعضائه الخاصة (١٠)... وهلمَّ جرّاً.

وفى عهد رمسيس الثانى، نحتت صلوات مناجاة أخرى على جدران المعابد.
وفى الفناء الثانى من الرامسيوم، صُوِّرَ رمسيس وهو يسكب الماء الطهور
ويحرق البخور من أجل رع حور أختى. وجاء تعريف هذا الطقس على النحو الآتى.
قربان مقدم إلى رع حور أختى، إلى قرصه، وإلى جسده وإلى تاسموه، وإلى
مساره، من قبل الملك:

أوسر ماعت رع - ستب إن رع، ابن رع: رمسيس - محبوب - آمون، حتى
يعبر انتباهه إلى العبادة التى يوفرها له الملك، فى "قصره" المقدس، فى طيبة (١١).

(*) أى الملك. (المؤلفة)

يلى ذلك قائمة من ثمانية وثلاثين اسماً من أسماء رع حور أختي.
وفى هذا الفناء ذاته، صُوِّر مشهد مماثل من أجل افتتاح وسخمت مع الكشف
عن اثنين وأربعين اسماً من أسمائهما.
والفناء الأول من معبد الأقصر، تُحدد صلاة مناجاة إلى مين - أمون، مئة
وأربعة وعشرين اسماً من أسمائه.
لقد ازدهر هذا النوع على نطاق واسع، فى زمن كانت المساعدة الفعالة من
جانب كل آلهة مصر، مطلوبة لحماية الإمبراطورية أو ضمان ازدهارها.
وإذا كانت معرفة الأسماء الإلهية تمنح القدرة لمن يعرفها، فإن نقشها على
الحجر يضمن أيضاً دوامها واستمراريتها.

الأناشيد من أجل الملوك

إن أعظم الترانيم التى تخص الملوك بالتكريم والثناء هى التى قالتها الآلهة.
وتعتبر الأناشيد الإمبراطورية^(١٢) من أجملها وأروعها، ونذكر تحديداً أناشيد
مدينة هابو. إنها تخص الملك بالتكريم والثناء، وهو لا يزال على قيد الحياة، لضمان
أن تظل الإمبراطورية فى يده وتحت سيطرته.

ويعد وفاة الملك تنهك الآلهة من حوله فى عمل دعوب من أجل حياته الأبدية.
إن ترنيمة الإلهة نيت إلى مر إن پتاح، المنقوشة على السطح الخارجى لتابوت الملك
الحجرى، توضح مهمة البعث الأسطورية، فى شكل نشيد يخص الفرعون بالتكريم
والثناء. فجميع تجديد الولادات تنسب إلى العاهل الملكى، وفى مقدور نيت أن تندمج
فى البقرة السماوية وتتوحد معها، والملك - وهو ولدها ورضيعها، المهيب لاكتساب
حياة جديدة - يمتزج بالشمس. كما فى وسعها، بفضل أساليب سحرية كاملة، أن
تكرر إيماءات إيزيس، الزوجة الوفية والعلامة. كما تستطيع أن تكون زوجة خنوم -
وهو ما ستتحول إليه، فى وقت لاحق فى إسنا. فالإله خنوم هو الذى يشكل الأبدان
على دولا ب الفخارى.

أنا أملك التى أرضعتُ كمالك. أنا حامل بك عند مطلع الفجر، وألدك فى المساء،
مثل ربح(*)! لقد حملتك لتبقى على ظهري، لقد رفعت مومياءك، فأصبحت يداى محملة
بك، وأتحد بجمالك، من لحظة إلى أخرى. إنك تنفذ إلى داخلى وأعانق صورتك. أنا
تابوتك الحجرى الذى يخفى شكلك. إن قلبى معك وكأنه ملكك، إنه يتحدث إليك،
متسيدا على «صندوق نوح»(**). إن فمى بارع ليجعل كأك وضاً، بينما مفاتن
أساليبى السحرية تضمن حماية جسدك.

إنى أمد لك يدى، لتتمكن من الصعود إلى السماء، بعد أن ظهرت متألفاً بين
فخزى(***) وتتخذ الآن مكانك بين قرنى. إنك تتغذى منى، وألعق جسدك، إنى أطهرك
بعرق أعضائى. وإذا تمددت على السرير الذى أشكله من أجلك، فقد خلقت لك السماء
بخاصرى. وإذا رفعتك فوق ظهري، يصبح جسدى أرضاً من أجلك... ومن أجلك،
أخرج النسمات من أنفى وأجعل ريح الشمال تهب، عندما تخرج من حلقى. إن
مسخت وريلىن(١٢) تصحبانك، بينما يقوم خلومى(****) ببناء جسدك لتجديد ولادتك،
مثل ولادة برعم لوتس ضخمة... من أجلك أفتح الدروب وأدفع بريح الغرب إلى مكانه.
ومن أجلك أرشد قرص الشمس إلى بشرتى فيمر شكله أثناء تحليقه فوق صدرك.

إنى أطهر أعضائك، وأوقف سيلان الأخلاط، إنى أحوط لحملك، وأطرد التعفن
الذى بدأ يصيبك، أيها الأوزيريس الملك يا إن ربح - محبوب - أمون، ابن ربح: مر إن
بتاح - الذى - يهنا - بالحقبة - العدالة. إنى أنظف عرقك وأمسح دموعك وأبرىئ

(*) المقصود به هنا الحياة فى العالم الآخر، حيث تولد الشمس فى المساء، عندما تختفى عن أعين
الأحياء. وتتم الولادة الليلية فى حركة معاكسة للولادة النهارية. ولكن الملك، بما يتمتع به من
حرية الحركة الكاملة، سوف يستطيع أيضاً أن يظهر مثل شمس النهار. إن فاعلية أساليب
السحر لا تلتزم بقواعد العقل. (المؤلفة)

(**) أى التابوت الحجرى. (المؤلفة)

(***) إنها الولادة الليلية. (المؤلفة)

(****) الإياه الملحقة بالإله خلوم، ضمير متصل للمتكلم. (المترجم)

أعضاءك، فمن الآن، أصبح كل (عضو) مرتبطاً بآخر. إننى أثرك بما صنعته تاييت^(١٤)
(١٤)، إننى أكملك وأوفيك حقك، فأبنيك مثل رج.

إننى أرفعك على ساعدى وأتألق وضاءة، فوق رأسك. ومن أجلك، أجدد شكلى
بصفتى صيلاً وأكمل تحوُّلك، على صورة سيد الأشعة.

ومن أجلك، أتى بالآلهة منحنية، إكراماً لك، وإليك يأتى رج فيعانك، ويحطُّ فوق
شكلك المقدس. وعليك إذن ينشر ضوءه، ويمنحك ضياءه وتألقه، بينما يجعل الكهفين
يسطعان بنوره، عن طريق عذوبته النورانية.

من أجلك، أ جعل الصور المقدسة الأربع تحترق، فيكون لهبها على كل دروبك.
إنها تصدُّ أعداءك، على مرَّ الأيام، فتمسك بالتمرد والقاسق، وأضعك فوق ظهره حتى
لا يتمكن من الفرار^(١٥)....

هكذا يظل الملك فى العالم الآخر فائق القدرة، وبإمكانه أن يتخذ أشكال كبرى
آلهة البعث.

كما يفصح البشر عن شكرهم وامتنانهم للملك الراعى الحامى. إن الاعتراف
بالجميل - كما صاغته على وجه التحديد، الترنيمة إلى مر إن پتاح^(١٦) والترنيمة
المهداة إلى رمسيس الرابع^(١٧) - له وقع حسن فى النفس.

الأناشيد من أجل المدن

تشكل المدن كيانات إلهية، يمكن الإشادة بها والثناء عليها. ونذكر طيبة،
'بطبيعة الحال، ولكن هناك مدناً أخرى أيضاً، مثل أيببوس. وقد نشر مؤخراً، نص لوح
حجرى، وفى قسمه العلوى المقوس، نجد أن واهب اللوح حر إم ويا، الأب الإلهى للإله
حورس، يقدم هو وعائلته القرايين إلى أوزيريس، وفى صحبته حورس وإيزيس

(*) راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى
٢٠٠١، ص ٩٢. (الترجم)

ونفتيس. إن نصوصاً مماثلة للنص المدون على هذا اللوح وموازية له موجودة على معالم أثرية أخرى تخص الأفراد. فيقول نص روايتها الكاملة:

الثناء على أبيليس والحمد لها، (مصحوبة) بالسعادة نفسها التي أحسستها
إيزيس، عندما ولدت ابنها فى خميس.

الثناء على أبيليس والحمد لها، (مصحوبة) بالسعادة نفسها التي أحسستها
إيزيس، عندما خرج ابنها منتصراً، بعد أن هزم المجرم الفاسق الثعبان نيك، من أجل
أبيه أوزيريس.

الثناء على أبيليس والحمد لها، (مصحوبة) بالسعادة نفسها التي أحسستها
إيزيس، عندما حرر تحوت من أجله(*) وثيقة ملكية(**)، فى قاعة جب الفسيحة، فى
حضرة الرب الأوحد المتفرد.

الثناء على أبيليس والحمد لها، (مصحوبة) بالسعادة نفسها التي أحسستها
إيزيس، يوم أن ظهر حورس فى مجده على العرش، بعد أن حصل على الپشننت،
حصولاً حياً وقوياً.

الثناء على أبيليس والحمد لها، إبان الطلعة الكبيرة(***)، عندما يهال من على
الأرض فرحاً ويكون المتعبون فى عيد، سعداء بجمال أوزيريس، وما يثيره من حب،
فى قلوب الجميع.

الثناء على أبيليس والحمد لها، فى مقاطعة بيكر، بعد أن تم إنصافه(****). إن
قلبه سعيد وأصحابه فى عيد، وقلوبهم فرحة لرؤية انتصاره العظيم. الثناء على
أبيليس والحمد لها، أثناء إبحار القارب المقدس، بينما سيد المدينة يستريح فى
قصره، بعد أن استرد ميراث حياته للزمن اللانهائى، والآلهة راضية بقرابينها.

(*) أى من أجل حورس. (المؤلفة)

(**) تضمن له وراثة أبيه. (المؤلفة)

(***) موكب العيد. (المؤلفة)

(****) أى إنصاف أوزيريس. (المؤلفة)

الثناء على أبيلوس والحمد لها، (أبيلوس) أرض الحقيقة، وجزيرة الأبرار، الخالية من الأكاذيب. كما «يعود الاخضرار» إلى صاحب القلب العادل، المقيم بها! لقد وصل إلى الغرب، منتصراً^(١٨).

تشير المقاطع الأربعة الأولى إلى أحداث الحياة الرئيسية، السرية في بادئ الأمر، ثم معركة حورس وانتصاره وتربعه على العرش الدنيوي، خلفاً لأبيه أوزيريس. أما المقاطع الثلاثة التالية، فإنها تقدم وصفاً للخطات الرئيسية في عيد الإله، عندما يُنقل تمثاله على متن قارب متجهاً إلى بيكر التي بها مقبرته على ما يفترض، ليعود بعد ذلك إلى المعبد. ويقدم المقطع الأخير إلى الأبرار الإمكانية التي يوفرها لهم بعث أوزيريس.

في هذه النصوص تتحدث المدينة مع الإله القائم بها.

المسارد الخيالية الإلهية^(*)

رع وإيزيس

وُجِدَت مسارد خيالية، يدور موضوعاتها حول معرفة أسماء الآلهة. وما نعلمه عن مسرد رع وإيزيس، يعود إلى برديتين من الأسرة التاسعة عشرة.

تدور الأحداث في زمن، كان رع والآلهة لا زالت تعيش فيه على الأرض. بل كان زمناً تلجأ فيه النساء - وإن كن من الإلهات - إلى الحيلة والخداع للوصول إلى غاياتهن. فذات يوم أرادت إيزيس، الساحرة العظيمة، أن تفرض بعض قدراتها على رع، وبالتالي معرفة اسمه.

كانت إيزيس امرأة نكية وقلبها أكثر براعة من قلب مليون من البشر، وأكثر فطنة من مليون من الآلهة. فلا تجهل شيئاً مما كان في السماء أو على الأرض. هكذا،

(*) سينجد القارئ ترجمة كاملة لهذه المسارد الخيالية في المجلد الثاني من: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت، ترجمه إلى العربية ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٩٦. (المترجم)

أرادت فى قلبها، أن تعرف اسم الإله الجليل. ولكن رع، كان يأتى يومياً، على رأس موكبه ليتربع على عرش الألفقيح. إن تقدم الإله فى السن جعل فمه رخواً، وكان لعبابه يتساقط على الأرض.

عندئذ تناولت إيزيس قليلاً من التراب وعجنته باللعب المتساقط من الفم الإلهي، إلى أن حصلت على شكل ثعبان ظل غير ضار فى يدها. ووقفت عند تقاطع الطرق التى يسير فيها رع، وأثناء نزهته اليومية أخفت الثعبان فى الأجمة.

... عند خروج الإله من قصره فى صحبة غيره من الآلهة، لدغه الثعبان. فاطلق الإله صرخة وصلت إلى عنان السماء. كانت شفاته ترتعشان وتصطك أطرافه، فقد سرى السم فى جسده، كما يجرف النيل العظيم من خلفه مختلف الأشياء. قام رع بجمع الآلهة التى كانت تصاحبه، قائلاً: لقد لدغنى شيء لا يعرفه قلبى ولم تصنعه يدي. فلم أتعرف هنا على أى شيء خلقتة ولم يعترنى أبداً مثل هذا الألم، فلا وجود لشيء أكثر وطأة... هو ليس بنار وليس بماء، ولكن قلبى يحترق، وأطرافى تصطك، وكل جسدى بارد.

استدعى الإله أولاده الإلهيين. وإذا افتعلت إيزيس دور البريئة وتظاهرت به، جاءت تعرض خدماتها. فقال رع:

«أنا أكثر برودة من الماء وأكثر سخونة من النار، إن كل أعضائى تتصيب عرقاً وأرتعد. ولم تعد عيني ثابتة، ولم أعد أرى».

وقالت إيزيس:

«أخبرنى باسمك، يا أبى الإلهي، فالمرء يحيا عند النطق باسمه».

ويتلو الإله سلسلة طويلة من الصفات والنعوت، لم يرد فيها الاسم السرى. ولكنه رضخ فى النهاية وتحدث إلى إيزيس قائلاً:

«أعيريني السمع، يا ابنتي إيزيس، لينتقل اسمي من جسدي إلى جسدك...»
وأُسْرُ(*) الإله اسمه إلى إيزيس، الساحرة العظيمة، التي استطاعت بطبيعة الحال أن تشفيه، لأنها كانت مصدر الداء الذي اعتراه. ومن الآن فصاعداً سوف تصبح:

إيزيس العظيمة التي تعرف بع باسمه.

ما سبق، كان عرضاً لمسرد خيالي يبرز بكل وضوح فكرتين مصريتين: فكرة أهمية الاسم وفكرة مكر النساء. وقد صبغت صبغة أسطورية.

هلاك البشرية

هذا المسرد الخيالي الآخر، موجود في عدد من المقابر الملكية. فقد سبق أن نُقش جزء منه في مقبرة توت عنخ آمون، ونجده في مقابر سيتي الأول ورعمسيس الثاني ورعمسيس الثالث.

في ذلك الزمن كانت الآلهة تحيا إذن على الأرض،...

... كان البشر والآلهة يؤلفون آنذاك "شيئاً واحداً. ولكن بدأ البشر يتآمرون على رع. إلا أن صاحب الجلالة (رع) كان قد تقدمت به السن. كانت عظامه من فضة وأعضاؤه من ذهب وشعره من لازورد. ولما أحيط علماً بالمؤامرات التي كانت تُحاك ضده من قبل البشر، تحدث إلى من كانوا ضمن حاشيته قائلاً: "استدعوا من أجلي عيني (**). وشوش وتفنوت وجب ونوت(١٩)، ومعها في الوقت ذاته الآباء والأمهات الذين كانوا معي في النون، ومعها أيضاً في الوقت ذاته، إلهي نون، وأن يصطحب مع حاشيته.

(*) أى أوصل وأعلم سراً، المكنز الكبير، د. أحمد مختار عمر، سطور، ٢٠٠٠، ص ٦٦. (المترجم)

(**) راجع الهامش ٢١ من هذا الفصل، في آخر الكتاب. (المترجم)

وكان وصول الآلهة التي تم استدعاؤها محاطاً بالسرية، وانحنت أمام **السلف الأول العظيم**.

وتحدث رع إلى نون قائلاً:

«يا إله الزمن الأول الذى جئتُ فيه إلى الوجود، أيتها الآلهة الأقدم الأصلية، انظرى، فالبشر الذين انبعثوا من عيني^(٢٠)، يتآمرون علىّ. أخبرينى كيف يمكنك أن تواجهى الأمر. انظرى، إننى أبحث ولا أريد قتلهم ما لم أستمع إلى رأيك حول هذا الموضوع».

عندئذ قال صاحب الجلالة نون: «يا بُنى رع، الأعظم ممن خلقه، وممن شكلوه، إن عرشك مستقر، وعظيم هو الخوف الذى تثيره فى النفوس. فلترسل إنن عينك^(٢١) ضد من تآمروا عليك».

وعملأً بمشورة الآلهة، ستقوم العين، فى هيئة حتحور بملاحقة الناس الذين كانوا قد فروا إلى الصحراء^(*). وقضت حتحور على عدد كبير منهم. وعندما قدمت إلى رع تقريراً عن هذه المذبحة، تحدثت إليه قائلة:

وقدر حقيقة أنك تحيا من أجلى، فقد تسلطت على البشر، واستساغ قلبى ما حدث.

كان رع يخشى أن تقضى حتحور قضاءً مبرماً على البشر^(**). ولكن يظل الإله مرتبطاً بخليقته، فلجأ إذاً إلى حيلة للخروج من هذا المأزق.

«استدعوا من أجلى رسلاً مسرعين وعلى عجلة من أمرهم، فيهمؤا مسرعين كظل الجسد...». فأحضروا له، على الفور، هؤلاء الرسل. وقال جلالة هذا الإله: «قليركضوا حتى إلفلتين^(***) ويحضروا منها كميات كبيرة من (مادة) **الليدي**^(٢٢)».

(*) من الطبيعي أن الصحراء مكان معادٍ يرحب بالمتبردين. (المؤلفة)

(**) ربما نجد هنا درساً لأولئك الذين تحملهم نشوة المعارك إلى خوض المزيد. (المؤلفة)

(***). أى جزيرة الأفيال. وأبى هو الاسم المصرى القديم. (المترجم).

وما إن عاد الموفدون، حتى أخذت الخادemat يُعِدُن من الشعير جعة، وطُحن اللبدي، وخلط بالشراب الذي بدا «كدم/البشر»... وملئت سبعة آلاف جرة من هذه الجعة الحمراء المسكرة. وسُكبت على الأرض حتى غمرت الحقول بارتفاع ثلاث قبضات يد(*)).

أما صاحب الجلالة رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، فقد استيقظ مبكراً، أثناء الليل، للإشراف على نشر هذا السائل الذي يجلب النوم. ومع مطلع الفجر، وعندما حضرت الإلهة، وجدت المكان مغموراً. وفي البداية تأملت انعكاس وجهها(**). ثم شربت واستساغت المذاق. ثم انصرفت ثمة، دون أن تتعرف على البشر.

هكذا استطاع رع انقاذ قسم من مخلوقاته الجادة.

ولا تنفرد مصر بمسرد هلاك البشرية الخيالي. بل إنه موضوع شرقي قديم، وملتقى به على سبيل المثال لا الحصر، في قصة جيلجامش أو في العهد القديم(***)). فلقد قام الإله إل، إله سومر وبابل العظيم على إهلاك خليقته، عن طريق غمر الأرض بالماء، مع الإبقاء على زوجين، لجأ إلى جزيرة محمية. وهناك، كان الحكيم أوبابا - نافستين يمتلك نبات الحياة، الذي فشل، بعد ذلك، جيلجامش في الاحتفاظ به، كما أن يهوه إله اليهود قد أغرق أيضاً مخلوقاته في طوفان شامل، وفقا لحوارات تشبه إلى حد كبير القصة السومارية القديمة...

فليس هدف الطوفان الموت بل الحماية.

وتستمر رواية المسرد الخيالي وتنتهي إلى رؤية جديدة للعالم، أكثر رحابة.

(*) شيسبي بالمصرية القديمة. النزاع الملكي المصري (مع) يعادل ٥٢٣ مليوناً أو سبع قبضات يد. ومن ثم فالقبضة الواحدة تساوي حوالي ٧٥ مليوناً.

M. Damiano - Appia. Dict. Enc. de l'Ancienne Egypte Grund. 1998. P. 176.

(**) في السائل. (المترجم)

(***) سفر التكوين، الإصحاحات من السادس إلى الثامن. (المترجم)

بقرة السماء والعالم الجديد

هذا النص تنمة للمسرد السابق.

عندئذ تحدث صاحب الجلالة رع قائلاً:

«وقدر حقيقة أننى أحيا، فإن قلبى ضجر بل كثير الضجر، من البقاء مع البشر. لقد أردت قتلهم ولكننى لم أفعل».

عندئذ تحدثت الآلهة التى فى معيته قائلة:

«لا تتعب ولا تضجر، ففى مقدورك التحكم فيما تريد».

ولكن حزن الأقدم الأسمى وسأمه، سيعملان على تغيير العالم. فسوف يبتعد رع عن البشر، ولكنه لن يقتلهم. فاحترام حياة الإنسان من السمات الأصلية فى الفكر المصرى.

وإذ تحولت الإلهة فوت إلى بقرة، عملاً بنصيحة الإله الأقدم نون(*)، وضعت رع فوق ظهرها، لأن «ساقيه قد وهنتا ولم يعد قادراً على المشى». عندئذ، وفى وثبة كونية عظيمة، ارتفعت إلى عنان السماء حيث ستسطع الشمس من الآن فصاعداً. ولكن فوت التى لم تكن قد اعتادت على الارتفاعات الشاهقة، أصابها الدوار.

فارتعشت بشدة، بسبب الارتفاع، وهب رع لنجبتها، (قائلاً): «يا بُنى شوى خذ مكانك تحت ابنتى فوت، ضعها فوق رأسك، ارفعها».

ومن الآن فصاعداً، سوف يحمل شوى(**) السماء إلى أعلى، فى حركة تشبه ما فعله أطلس(***)، وسيبقى رع فوق ظهر البقرة السماوية أثناء النهار أو يحر على

(*) ويدعى أحياناً أباً الآلهة. إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ٢٩٩. (المترجم)

(**) وهو الهوى والنور. (المؤلفة)

(***) من عمالقة الأساطير اليونانية. تمرد على الآلهة فحكم عليه الإله زيوس بأن يرفع قبه السماء فوق كتفيه. (المترجم)

متن قاربه فوق صفحة نهر النيل الذى يجرى تحت بطن الحيوان المقدس، وأثناء الليل سوف يواصل الإبحار على متن قاربه، فى العالم الآخر السفلى.

ويستمر تنظيم الكون - وهو الكون الجديد - بعد أن هجرت الآلهة البشر الجاحدين. ويستدعى رع الإله تحوت ليتحدث إليه قائلاً:

انظر ، فأنا الآن فى أعالي السماء... عندما سأقوم بطرد الظلمات ويجلب النور إلى العالم الآخر... عندئذ ستحل مكانى، وتصبح مساعدى.

وسيطلب القمر النور فى ليل الأحياء، بينما يسطع رع بنوره من أجل الأموات.

وبطلب من ثوت، ستتألق النجوم المخلوقة من الآن، على بطنها، هكذا، جاء إلى الوجود شكل جديد للكون، فى أزمنة موهلة فى القدم. إنه مسرد خيالى كان الملوك الرعامسة مولعين به.

لقد صيغت هذه المسارد الإلهية الخيالية من صور شعبية وعناصر تنهل من فكر دينى يضرب بجذوره فى غياهب الماضى السحيق، ويمكن أن نجدها فى بلدان عالم سومر أو بابل، وفى الحضارات السامية أو الإفريقية. وسوف ينتقل بعضها إلى أساطير العالمين اليونانى والرومانى، فلا جدال أن مصر الواقعة عند ملتقى العالم القديم، هى أيضاً البوتقة التى انصهرت فيها مختلف الروافد. فانطلاقاً من أفكار مشتركة، صاغ كل بلد مسارده الخيالية الخاصة، المعبرة عن أعماق أروحه الدفينة، ولكن ربما كان الجانب الإنسانى فيها يعود إلى مصر.

الحكايات والقصص

إن الحكايات والقصص، عبارة عن روايات متواترة، تعود إلى ماضٍ سحيق، وقد دونت أساساً على ورق البردى. لقد تناقل البحارة والتجار الأقاصيص من بلد إلى بلد، ومن إيران إلى البحر الأحمر، ومن الأناضول إلى قلب السودان، وبالحق كل واحد منهم فيما يضيف وينمق ويحسن، كما أن الغزوات الهندوأوروبية التى ربما جاءت من مناطق بعيدة كالقوقاز، قد جلبت معها نصيبها من الخرافات. إن الاستماع

إلى راوٍ عذب اللسان كان من أهم وسائل الترفيه والتسلية. فالشرقيون والمصريون تحديداً، ظلوا على الدوام مولعين بالأقاصيص الجميلة والمغامرات المطرزة بعدد كبير من المواقف المثيرة التي تشد انتباه السامعين شداً.

هذه الروايات المتواترة التي تكشف عن حبكةها هنا وهناك، أدخل عليها المعتقد الديني كبرى أساطير الفكر القديم لتشكل نسيجاً واحداً. فالحكاية المصرية هي قصة مغامرة، ولكنها تنطوي أيضاً، في أغلب الأحوال، على معنى عميق.

حكاية تثير العجب العجائب (٣٣)،

♦ الأمير وأقداره الثلاثة المكتوبة

موضوع هذه الحكاية من المواضيع التي شاعت في العديد من القصص القديمة أو الحديثة. إن بردية هاريس رقم ٥٠٠ Harris 500، وهي من مقتنيات المتحف البريطاني في الوقت الراهن (رقم 10060)، هي الوحيدة التي تحتفظ بهذا النص الذي يعود تاريخه إلى أواخر عهد سيتي الأول أو بداية عهد رمسيس الثاني.

إن أحد ملوك مصر - ولم يذكر اسمه - سرى عليه الهم، لأنه لم ينجب ابناً. ولانت الآلهة أمام توسلاته «فولد له طفل». عندئذ، جاءت الصحورات(*) لتحديد قدره المكتوب(**) فقالت: «سيلقى حتفه على يد تمساح أو ثعبان أو كلب». فتم عزل الأمير الشاب. وشيد له بيت من حجر في الصحراء. وذات يوم، رأى رجلاً يتنزه في صحبة كلبه، وتمنى أن يمتلك هذا الحيوان، وليضع حداً لحزنه وهبه والده هذا الكلب. وإذ ملَّ الوحدة قال للملك: «انظر، فأنا خاضع لقدرى فاسمح لى إذن أن أتصرف كما يحلو لى، إلى أن يحين يوم تنفذ فيه مشيئة الإله». فرحل فى صحبة كلبه ووصل إلى نهاريتا. وكان ملك هذه البلاد قد رزق ابنة، وقرر أن توهب زوجة لمن يستطيع أن يقفز ليصل إلى نافذتها التي تبعد سبعين ذراعاً عن الأرض، أى حوالى ٣٦ متراً. ونجح

(*) جمع حتمور (المترجم)

(**) الصحورات السبع، هي إلهات تحدد للمولود الجديد ما ينتظره من مصير، تماماً كما تفعل الجنيات في حكايتنا المعاصرة. (المؤلفة)

الأمير الشاب، بعد أن أعمل أساليبه السحرية. ومن الآن فصاعداً سوف تُظَلُّ زوجته برعايتها وحمايتها على غرار إيزيس عندما أجارت أوزيريس، وعلى غرار الجنيات فى قصصنا الحديثة، فقامت تحديداً بقتل الثعبان بالحيلة. ولكن حدث ذات يوم، بينما كان الأمير يتنزه فى صحبة كلبه، أن قال له هذا الأخير: «أنا قدرك». فأطلق الأمير الشاب ساقيه للريح، وأثناء هروبه سقط فى الماء، فتلقفه تمساح... وعرض عليه حلاً وسطاً.

هنا يتوقف المخطوط. وربما إذا حالفنا الحظ واكتشفنا نسخة أخرى من هذا النص، نتمكن من معرفة مصير الأمير، وإذا كان قد استطاع الإفلات من قدره المكتوب^(*).

وإذا غضضنا الطرف عن الموضوع المألوف للقدر المكتوب منذ ولادة الإنسان والذي يبدو أن الأساليب السحرية قد تساعد المرء على تجنبه، فإن واقعة محددة قد شددت انتباه مؤرخى الفلكلور: إنها قفزة الزوج التى نلتقى بها فى القصص الروسية والبولندية والهندية.

إن عناصر هذه الحكاية هى جزء من المسارد الخيالية العُجاب فى جميع البلاد وفى مختلف الأزمان.

حكاية أخلاقية،

❖ الصدق والكذب

نص هذه الحكاية، الذى يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة، تحتفظ به بريدة شيستر بيتى رقم ٢ Chester Beatty II، ومن مقتنيات المتحف البريطانى رقم 10682، ينطوى على رمزية سهلة بسيطة.

(*) عن القدر المكتوب يقول المثل الشعبى: طُلعت من طُربتْها وفَت كُتبتْها. الطرية: محرفة عن التربة، أى القبر. والكتبه (بضم فسكون) ما كتب للشخص وقدر. والمعنى: لابد من نفاذ المقدور واضطرار الشخص إلى السعى إليه مُسَيِّراً غير مخير. وقد بالغوا ذلك حتى بعد الموت! أحمد تيمور باشا، الأمثلة العامة، مركز الأهرام، ١٩٨٦ ص ٢٠٦. (المترجم)

فالصدق والكذب أخوان. إن استبدال كيانات حقيقية استبدالاً مجازياً شديد الندرة فى الأدب المصرى. ويتهم الكذبُ الصدقُ بأنه أضاع سكيناً كان قد أعاره إياه. وطلب تدخل **التاسوع** الذى أدان الصدق وحكم عليه بسَمْل عينيه، وأن يخدم كيواب. ولكن الكذب أرسله بعد ذلك إلى الصحراء، لتفترسه الأسود، فأنقذته امرأة وأحبته ثم هجرته فى الحال تقريباً. ومع ذلك فقد حملت منه وأنجبت ابناً، وبينما كان يشب ويتزعزع «صار أشبه بإله صغير». وعلم من هو أبوه. عندئذ انطلق باحثاً عن الضير، فوجده «وأجلسه على مقعد، ووضع موطئاً تحت قدميه وخبراً أمامه، وأطعمه وقدم له شراًباً».

وروى له أبوه ما ألم به. وعقد الشاب العزم على الانتقام له بالحيلة، فأعلن أمام المحكمة أن الكذب قد سرق منه بقرة باللغة الضخامة.

- وقالت المحكمة «من المحال وجود مثل هذه البقرة».

- فاجاب الشاب قائلاً: «فليكن، فلو أن بقرتى لا وجود لها، فإن السكين كذلك لم يوجد مطلقاً».

هكذا عوقب الكذب، وخرج الصدق منتصراً.

تمتدح هذه الحكاية فضيلتين أساسيتين فى نظر المصرى: فضيلة البر بالوالدين(*) وحب الصدق(**).

تبدو هذه الحكاية كأحد أوجه الأسطورة الأوزيرية، بعد تحويلها لتصبح فى مستوى البشر. كما تعرض قصة ذات مغزى أخلاقى، وحكاية خرافية توضح حكمة الشعوب السامية القائلة: العين بالعين والسن بالسن. كما تكشف هذه الحكاية واقع أن الصدق والكذب قريبان، الواحد من الآخر، فى بعض الأحيان، وأنه من الصعب فى بعض الأحوال التمييز بينهما، ولكن الصدق ينتصر فى نهاية المطاف.

(*) يقول المثل الشعبى: اللى ما يعرف أبوه ابن حرام. (المترجم)

(**) تقول الأمثلة الشعبية: الكذب ملوش رجلين. والحق اللى وراه مطالب ما يموتش. (المترجم)

حكاية أسطورية،

♦ مغامرات الأخوين أنوپ وباتا

نُؤن هذا النص على بردية أوربيني Orbiney وهى من مقتنيات المتحف البريطانى (رقم 10183) فى الوقت الراهن. إنها من عمل الكاتب إيدينا الذى نسخها فى عهد زعمسيس - سى يتاح.

تجمع هذه الحكاية فى واقع الأمر بين قصتين.

كان أخوان يعيشان فى سلام، وانقطعا معاً لأعمال الحقل.

ولكن نزلت النائية ذات يوم، عندما وقعت زوجة أنوپ فى غرام باتا، أخى زوجها الذى قاوم عروضها. ولما خاب أمل المرأة، وبدافع من الانتقام، وشت به وأبلغت زوجها بأن باتا أراد اغتصابها. استطاع باتا أن يبرئ نفسه، ولكنه قرر أن يرحل إلى منفى اختياري. وأبلغ أنوپ أنه ذاهب إلى وادى شجرة الصنوبر، فى لينان. وهناك سوف ينتزع قلبه ليضعه فى «أعلى زمرة /الصنوبر»، ويستمر يحيا حياة هادئة. ولكنه أخبر أخاه قائلاً:

إذا قطعت شجرة الصنوبر وسقط قلبى على الأرض، تعال للبحث عنه، وإذا قضيت فى ذلك سبع سنوات، عليك ألا تياس. وعندما تعثر عليه ضعه فى إناء ماء رطب، عندئذ ساعود إلى الحياة، وأنتقم ممن أساء إليّ، وستعلم أن مكروهاً أصابنى إذا فاض قدح الجعة الذى بيدك، كما عليك ألا تتأخر إذا حدث ذلك.

وإذ حزن أنوپ حزناً شديداً، لأن مودة عميقة كانت تربطه بأخيه، فقد قتل زوجته وألقى بها للكلاب.

يتطابق موضوع هذه الحكاية - وقد أضحى من الكلاسيكيات - مع حكاية سيدنا يوسف وطوفيفار (*).

(*) راجع سفر التكوين من العهد القديم من الكتاب المقدس: الإصحاح ٢٩. (المترجم)



أما القسم الثانى من الحكاية فيختلف كل الاختلاف. بعد أن استقر **باتا** فى وادى شجرة الصنوبر، شيد لنفسه قصرًا. وذات يوم التقى فى الطريق بالتاسوع الذى أحزنه حياة الوحدة التى يعيشها. وتحدث **رع حور** - أختى إلى **خنوم** قائلاً: «اصنع إذن امرأة من أجل **باتا**، حتى لا يبقى وحيداً». وهو ما نفذه الإله - الفخارى **خنوم** فى يسر وسهولة. كانت المرأة فائقة الجمال، لأنها من خلق الآلهة. وأحبها **باتا** حباً عظيماً، حتى إنه أفشى لها سره.

وفى يوم من الأيام، بينما كانت الشابة تنتزه، رغم أن **باتا** قد نهاها عن ذلك، انتزع منها إله البحر خصلة من شعرها وحملها إلى مصر. فأعجب فرعون وأمر بالبحث عن صاحبة الخصلة. وخرجت حملة مسلحة اتجهت إلى الوادى، وجاءت بالشابة لتصبح صاحبة الخطوة الأولى. فطلبت بقطع شجرة الصنوبر التى يستقر عليها قلب **باتا**. ونفذ ما طلبته، فمات **باتا** ولكن **أنوپ** الذى كان جالساً فى بيته يحتسى البيرة، إذ بالقدح يطفح فجأة فانطلق على جناح السرعة، ووجد القلب وأعاد الحياة إلى أخيه.

أما نهاية الحكاية فتروى التحولات التى اعترت **باتا**. إننا نعرف حق المعرفة إمكانية الانتقال فى حرية تامة من شكل إلى آخر، بفضل الأساليب السحرية، وولع المصريين بهذه الظاهرة، والأشكال التى تقمصها **باتا** ليست قليلة الأهمية.

فيتحول فى بداية الأمر، إلى «ثور يزدان بمختلف الألوان الجميلة، ولكن طبيعته غير معروفة». وعندئذ، يذهب إلى بلاط الفرعون، ويُعرف نفسه لزوجته... التى تأمر بذبحه. ولكن يُبعث **باتا** إلى الحياة ويتحول إلى شجرة. وتسلمه المرأة إلى الحطاب،

(*) جاء فى الأساطير اليونانية أن **فييرا** وقعت فى غرام **هيبوليت** ابن زوجها، ولما لم يستجب لمحاولاتها اتهمته أنه راودها عن نفسها. ثم مات فى حادث بعد أن طرده والده، وتتكشف الحقيقة وتنتحر **فييرا** ويعيد الآلهة الحياة إلى **هيبوليت**. (المترجم)

ولكن نشارة خشب دخلت فمها، فأنجبت ابناً، لم يكن سوى **باتا** ذاته. وإذا نشأ وترعرع في القصر الملكي، فقد استطاع أن يخلف الفرعون، ليصبح **أنوبي** الوريث الشرعي.

إننا نتعامل هنا، مع حكاية هي في الأصل من القصص الشعبي، وقد ظلت تضيف إلى الأساطير المصرية المتعلقة بالحياة والبعث وتزيد عليها.

إن الثور والشجرة شكلان تقمصهما الإلهان العظيمان في الأساطير المصرية، وكلاهما نموذج لحياة كان تواصلها واستمراريتها مضمونين. والإلهان هما: **رع** و**أوزيريس**.

ففي وسع قلب **باتا** أن يظل على قيد الحياة إذا وُضع داخل تويج زهرة. إنه وضع **الطفل - الشمس** داخل زهرة اللوتس قبل ولادته، ضمناً أيضاً للارتباط بالقوى الحيوية الأبدية لعالم النبات. وإذا تم عزله عنه، فإن الماء وحده، كعنصر مُخَصَّب **أوزيريس** في الكون، يستطيع أن يعيد إليه الحياة. وفي هذه اللحظة، سيتدخل **أنوبي** (*) لإعادة الحياة إلى جسد أخيه، على غرار ما فعله سَمِيهُ الإلهي مع **أوزيريس**. وفي نهاية المطاف، سيولد **باتا** من جديد من ذات نفسه، أو نتيجة أفعاله، تماماً كما تولد شمس كل فجر جديد من شمس اليوم السابق. فالحياة الأبدية سلسلة من الأشكال المتعاقبة والمرتبطة بعضها ببعض.

كما يكشف التحليل الثاقب عن جوانب أسطورية أكثر عمقاً. فالمرأة الفاتكة الجمال، وابنة الآلهة التي تفجر الشرور تذكرنا بأسطورة **پاندورا** (**). إن الحياة

(*) وهو الاسم المصري للاسم **أنوبيس** الذي أطلقه عليه **الإفريقي**. (المؤلفة)

(**) من الأساطير اليونانية. و**پاندورا** هي أول امرأة خلقتها الآلهة وكانت متعددة المواهب. أهدتها الآلهة علبة، ولما تزوجها الرجل الأول دفعه فضوله إلى فتح هذه العلبة، فخرجت منها ألوان الخير والشر ولم يبق في العلبة سوى الأمل. (المترجم)

الإلهية وهى حياة أبدية يرمز إليها القلب، تختلف عن حياة الجسد اليومية، بل هى مستقلة عنه. ألا يذكرنا ذلك ببعض المواضيع الفيثاغورية(*).

وبالتالى، تكشف هذه الحكايات وهذه المغامرات الخيالية عن أبعاد شديدة الثراء، سواء من حيث المضمون أو الشكل أو ما تنطوى عليه من دروس روحية وأخلاقية.

قصائد العشق والهوى

الشعر موجود فى كل مكان، إنه يشكل سُدَاة وَلُحمة نسيج النصوص المصرية. إنه شعر مرئى وسمعى، ينبع من أعماق أعماق الفرد. إنه تناغم العلامات وتناسقها، إنه جَرَسُ الكلمات ورننتها الموسيقية، لا تستطيع الترجمة أن تحافظ عليهما، إلا فى أضيق الحدود. كما يتجلى فى روعة الصور ورونقها، التى تأسرننا فجأة بما تثيره من عاطفة أخَّاذة. إنه شعر غنائى أو يهز المشاعر، ومرهف الحساسية أو أسطورى. وباختصار، فإنه **الشعر**.

هل عرفت **مصر** شعراً، بالمعنى الكلاسيكى للكلمة؟ أى أسلوباً شعرياً، فى مقابل النثر؟

من الصعوبة بمكان تحديد أبعاد هذا الأسلوب تحديداً واضحاً. كان الشعر المصرى شأنه شأن الشعر فى اللغات السامية، ونؤكد مرة أخرى بالمعنى **الكلاسيكى** للعبارة، يعتمد على السجع والتجانس الصوتى. إنه فى الأساس شعرٌ موزونٌ، إن تركيباته الدقيقة غير معروفة. ولما كانت اللغة المصرية المكتوبة لا تعرف حروف العلة، فإننا نجهل نطق الكلمات على وجه الدقة، ولكننا نعرف عن طريق علم العروض القبطى، الوريث المباشر لعلم العروض المصرى، أن هذا الأخير لم يكن يوزع أوزان البحور الشعرية توزيعاً صارماً، ولكنه يعتمد على تكرار الأصوات الإيقاعية.

(*) نسبة إلى الفيلسوف والرياضى اليونانى. القرن ٦ ق.م. عاش مع أتباعه حياة زهد مشتركة. واعتقد بتناسخ الأرواح. (المترجم)

وفى ظل الأسرة الثامنة عشرة، رأى النور شكلٌ جديدٌ من الشعر، هو شعر العشق والهوى، الذى ازدهر على نطاق واسع فى عهد الرعامسة. كانت الإمبراطورية شديدة الثراء والبلاد مزدهرة، فصارت العادات والأعراف أكثر تحرراً، وشكّل الترف ذوق العصر، وأصبح السلوك أكثر رقة. فبات فى استطاعة المرء أن يتعامل بمزيد من الحرية مع قواعد الحب والشعر.

لقد وصلنا عدد كبير من القصائد المدونة على ورق البردى أو الأوستراكا. إن واحدة منها، وهى طويلة إلى حد ما، ربما نُظمت للترويح عن نفس العاهل الملكى، وهو رمسيس الثانى بلا شك، تتكون من سبعة مقاطع شعرية، هى عبارة عن أناشيد حوارية بين عشيقين^(*). إن مطلع كل بيت من الأبيات مسبق بنقطة حمراء، تأكيداً على الصياغة الشعرية للنص، ويتكرر ذلك فى نصوص أخرى. ويعتقد أن هذه القصائد كانت تنشد فى الولائم والمآدب بمصاحبة معزوفات موسيقية على ألتى الناي والجُتّك.

إن عدداً كبيراً من هذه النصوص سوف يؤثر تأثيراً مباشراً على أناشيد سيدنا سليمان فى نشيد الأنشاد^(**).

الحب والطبيعة

خلق الإله الحب كما خلق العالم. إن أفراح العشاق تختلط بجمال الحقائق والنهر.

♦ موعده عند الشاطئ

عشق أختى على الشاطئ الآخر،

والنهر يفصل بيننا.

(*) وهما «أخ» و«أخت»، فى اللغة المصرية القديمة. (المؤلفة)

(**) أحد أجمل أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس، من الناحية الأدبية. (المترجم)

والتمساح عند الشط الرملى.
فأنزل إلى الماء وأغوص وسط الأمواج.
إن قلبى يتحكم فى الأمواه،
والماء تحت قدمى أشبه باليابسة.
إن حبى لها هو الذى يمنحنى القوة،
لدرء مخاطر النهر^(٢٤).

♦ التتزه فى الحديقة

أنا صديقتك الأولى.
انظر، فأنا مثل الحديقة التى فرشتها زهوراً
وبكل أنواع النباتات بشذا عبقها.
إن مكان نزعتى جميل،
عندما تكون يدك على يدي.
إن جسدى مرتاح،
ويبتهج قلبى لأننا نسير معاً.
وسماع صوتك فيه سحر فئان،
فأحيا لسماعه.
وعندما أرنو إليك،
فكل نظرة من نظراتك أفضل بالنسبة لى
من الأكل والشراب!
فى نظر العاشق، تمتزج الفتاة بالطبيعة وملذاتها، كما أنها توقع فى حباتها
الرجل الذى مال إليها، كما تفعل صائدة العصافير:

فم أختي(*) برعم زهرة لوتس،

نهدما ثمرة طماطم،

وجبينها طوق^(٢٥) من خشب السنط.

وأنا أوزة برية،

أتطلع بنظري إلى شعرها،

إنه طعم، أوقعنى فى المصيدة.

مفاتن القلب

♦ مولد الحب

يا محبوبتى الفريدة التى لا مثيل لها،

إنها أجمل من سائر النساء.

انظر، إنها مثل النجمة المشرقة

فى مطلع عام سعيد.

إنها وضأة جميلة ولون وجهها من نور،

وساحرة هى نظرات عينيها،

وكلمات شفقتها مفاتن سحرية.

إن عنقها ممشوق ونهدا وضأة،

وشعرها من اللازورد الخالص،

وساعدا أقيم من الذهب،

(*) كما سبق أن رأينا المقصود به هنا: حبيبتي. (المترجم)

وأناملها كزهور لوتس.

لقد شَدَّتْ حزامها شدًّا حول خصرها،

وساقاها أجمل من كل محاسنها الأخرى،

وأبىُّ هو مظهرها، عندما تمشى على الأرض.

وإذ اندمجت المحبوبة فى الشُّعْرَى اليمانية(*) - الجوزاء(**)، نجمة العام الجديد، فإنها تُبَشِّرُ الإنسان المُتِمَّ بحياة جديدة. ويتبادر إلى ذهننا، كيف أن سيدنا سليمان سيمتدح فى وقت لاحق، مفاتن الشُّلُوبَة(***) La Sulamite باستخدام عبارات مماثلة.

♦ الخيالات المصيبة

آه! لو أننى زنجية فى خدمتها،

فلا تتركها قيد أنملة،

سوف أرى لون بشرتها بالكامل.

آه! لو أننى غَسَّالٌ فى خدمتها،

ولو لشهر واحد،

لفسلت عطور طرحتها.

آه! لو أننى خاتمها،

والخُثْم الذى تضعه فى أصبعها.

لجعلت حياتها جميلة!

(*) سوثيس Sothis باليونانية وسيريروس Sirius بالفرنسية وسوبوت بالمصرية القديمة. (المترجم)

(**) ساحو بالمصرية القديمة. إنه المظهر الذى يتخذه أوزيريس بعد بعثه. إيزابيل فرانكو، معجم

الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ١١٥

و. ٢٤٠. (المترجم)

(***) نشيد الأناشيد. الإصحاح السابع. (المترجم)

سوف أرقد في داري
مريضاً، بلا إصابة.
ويدخل الجيران ليطلُّوا علىَّ ومعهم جميلتي.
وسوف تُخطئُ الأطباء،
لأنها تعرف دائي.

كنتَ ماراً أمام مسكنها، ليلاً.
- طرقت (الباب) ولكن لم يفتح لي أحد...
فلتقدِّم بقرة قرياناً للمزلاج،
وغزاة للعتبة
وأوزة للدعائم...
ولكن أجمل الأبقار
ستخصص لمساعدى النجارين
الذين سيصنعون مزلاجاً من نبات الأسل ويأبأ من البوص
هكذا، ففي كل ساعة من الساعات،
سيفتح العاشق مسكن الحسناء،
ويجد المخدع مزداناً بأرق الستائر
والحسنة بداخله.

قلبي يتهلل فرحاً، عندما أشاهد أختي قادمة...
 وإذا قبّلتها وانبسط ساعداي،
 ظننت أنذاك، أنني في بلاد بون،
 وكما لو كنت قد مسحت بزيت أراضى العرب (*) المعطر.
 وإذا قبّلتها وتفتحت شفقتاي
 عندئذ، يغيب عقلي، دون أن أشرب (خمرأ)

◆ تنوير العالم وحموله

أهبط النهر، في صحبة المجدفين،
 وضُمتُ البوص على كتفي،
 فابنى زاهب إلى منف، «حياة القطرين»
 وهناك، سأقول (للإله) يتاح، رب الحقيقة والعدالة:
 «أعطني جميلتي، هذا المساء».
 فالنهر كالنبيذ،
 والإله يتاح هو أجمة بوصه،
 والإلهة سخمت هي دغل أزهاره،
 والإلهة يعريت هي برعم زهرة لوتسه،
 والإله نفرتوم هو زهرة لوتسه البانعة،

(*) أطلق قديماً لفظ أراضى العرب على كل المناطق الصحراوية الواقعة شرق النيل والممتدة حتى غرب آسيا دون قصره على شبه الجزيرة العربية بمدلولها المألوف. د. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤، ص ٢٨٢. (المترجم)

وسوف تفرح جميلتي!

وملف كأس ثمرة طماطم

وضعت أمام الإله صاحب الوجه الجميل.

ومع شروق الشمس، تدب الحياة في الطبيعة، وقد تلونت باللون الأرجواني كالنبيذ أو ثمرة الرمان، بفعل ذهب الشمس. والآلهة تسكنها وتدخل عليها التحولات، ولكن في نظر العاشق يتألق الفجر بجمال من يحبها.

حركة الحياء والشهوة

وتزداد نبرة العواطف الجياشة في القصائد، وتصبح أكثر بعداً عن الحياء وأكثر غنائية والصور أكثر وضوحاً وأكثر حميمية

♦ اضطراب الشهوة

أترحل لأنك تريد أن تأكل؟

أأنت إنن، رجل لا هم له سوى بطنه؟

أترحل بحثاً عن ثياب؟

ولكن عندي أغطية فوق السرير.

أتريد الرحيل لأنك ظمآن؟

تناول إنن ثديي،

فما به يفيض من أجلك...

فحبى لك ينفذ إلى كل جسدي

كما يمتزج النبيذ بالماء.

♦ لغة الحبيب

أه! ليتك تأتي إلى حبيبتيك مسرعاً،

كمبعوث ملكي، يستعجله نفاذ صبر سيده.

آه! ليتك تأتي إلي حبيبتيك مسرعاً،

كفرس الملك...

آه! ليتك تأتي إلي حبيبتيك، مسرعاً،

كالغزال القافز في الصحراء

إن سيقانه تجري مسرعة وقد أصاب أطرافه الإعياء.

ويعتري الخوف جسده.

إن صياداً من خلفه،

وكلابه معه.

ولكنها لم تعد تقتفى أثره!

ويبصر ملجأ...

لقد وصلت إلي مسكنها

لتقبل يدها أربع مرات.

إنك تتحرق شوقاً لنوال حب الحسنة

التي جعلتها إلهة الذهب من نصيبك.

♦♦♦ هيام الحببية

إنك تُخضّب قلبي وسأفعل من أجلك ما تتشوق إليه عندما أرقد على صدرك.

إن اشتياقي إليك هو الذي يكحل عيني، فتتألقان عندما أراك.

إنني التصق بك عندما أشاهد حبك، أيها الرجل، يا مالك قلبي.

كم هي جميلة ساعتى! ليتها تدوم إلى الأبد...

لا يجد قلبي توازنه إلا مع قلبك، ولا أستطيع أن أبتعد عن جمالك.

وفى الختام نقدم هذه الصورة الشهوانية البالغة الجمال:

إن حبك في جسدك كنبات البوص بين أيدي الرياح.

وبدءاً من النصوص الغنائية العظيمة في مدينة هابو ووصولاً إلى قصائد الحب والهو، عرفت مصر مختلف أشكال الشعر وأنواعه^(*).

ثانياً، الفنون

لقد سبق عند الحديث عن الملك بناءً على وجه التحديد، أن استعرضنا مختلف الإنجازات في مجال الفنون التشكيلية وفن المرسومات^(**) arts graphiques. وسنكتفي هنا بتحليل تطورها والتذكير بإبداعاتها الرئيسية.

الفنون التشكيلية

لم يكن التمثال في مصر، مجرد جسد من حجر. إنه يضم في داخله حرارة نشطة لها أبعاد سحرية، يمكن أن تُنعشها التعاويذ المناسبة، لتعيد الحياة إلى الشخص الذي يصوره هذا التمثال.

ظل فن النحت منذ بداياته الأولى، جزءاً لا يتجزأ من أحد المعابد أو القصور،

(*) إكتفت المؤلف بتقديم مقتطفات من أجمل قصائد مصر القديمة. ولمن يريد الاستمتاع بقراءاتها

في نصها الكامل بالإضافة إلى غيرها من القصائد عليه بالرجوع إلى:

نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الثاني، نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت، ترجمه عن الغربية ماهر جويجاتي-دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٦. (المترجم)

(**) وهو أكثر شمولاً من فن الرسم. فقد ورد في تعريف فن المرسومات، في معجم ألفاظ الحضارة

الحديثة ومصطلحات الفنون، الذي أصدره مجمع اللغة العربية. القاهرة. ١٩٨٠، ص ٩٢، ورد

ما يلي: فن يعتمد على الخطوط كالرسم والحفر والمصقات. (المترجم)

ولا ينفصل عنها. وخير دليل على ذلك التماثيل الملكية العملاقة القائمة أمام المعابد والتماثيل الأوزيرية، فى الأفنية أو أبهاء الأساطين. ولكن النحت فن يحتاج إلى وسائل تقنية شديدة الحساسية، تختلف عن الوسائل المستخدمة فى فن العمارة.

وإذا وضعنا فى اعتبارنا حجم التماثيل العملاقة والوسائل التى كانت آنذاك تحت تصرف النحاتين، سوف تهتولى علينا الدهشة. كيف كانوا إذن يصنعون تماثلاً؟ فعلى سطح كتلة أحادية من الحجر، كانوا يرسمون محيطها العام باللون الأحمر، ثم يقومون بالنقر بواسطة حجر أكثر صلابة، للحصول على شكل أولى. وتستمر عملية الطرق لفترة طويلة، طرقاً متقناً وصبوراً، إلى أن تتشكل بالتدريج الصورة العامة التى سبق رسمها. عندئذ تبدأ عملية صقل أولية بواسطة حجر ضخم وعجينة ساحجة مصنوعة أساساً من مسحوق الكوارتز. ثم يقطع الحجر بمنشار^(*)، للتخلص من أجزاء كتلة الحجر الزائدة عن الخطوط الحمراء التى حددت الصورة العامة التى يتم عزلها على هذا النحو. ومن جديد يتم صقل الكتلة التى تم قطعها، وبعد ذلك تم تحديد التفاصيل الصغيرة. فتفصل الساقان بواسطة أنبوب أجوف من النحاس، يدار باليدين. ثم تُنقَب الأذنان والعينان وفتحتا الأنف بواسطة مثقاب من حجر الطران. وتجىء عملية صقل أخيرة، لتعبر عما توحى به قريحة الفنان الإبداعية، لتصبغ على التمثال طابعه المميز، من خلال تحديد ملامح الوجه والجسد. هكذا، وبعد أن تشكّل التمثال يسلم للكتابة ليرسموا عند الضرورة المدونات التى سيتولى النحاتون حفرها، ثم يجىء دور الرسامين الذين يصبغون الجسد بعد بعثه بألوان الحياة النضرة.

وفى عصرنا، عصر الآلة، يصعب على المرء أن يتخيل هذه المعالجات البطيئة الصبورة والسديدة للمادة، لقد اختفت الآن هذه التقنيات التى أثمرت هذه التماثيل العملاقة وهذه الوجوه رائعة الجمال.

لقد ملك المصريون ناصية السيطرة على الحجر، فكانوا شعراء الأشكال وسحرتهم، فالمصريون هم الذين علموا فن النحت لشعوب جنوب غرب آسيا واليونان.



(*) نصل من النحاس المسنن مثبت فى مقبض من خشب. (المؤلفة)

تُبرز الفنون التشكيلية طوال عصر الرعامسة أسلوبين.

شموخ الأحجام وضخامتها في أغلب الأحوال، وكمال النحت والدقة المفرطة والرقّة الشديدة، كما أن ثراء المواد المستخدمة وتنوعها، من سمات أول هذين الأسلوبين، والذي سيستمر حتى نهاية عصر رمسيس الثاني.

في ذلك الزمن، كان الملوك والآلهة قد اتحدوا أكثر من أى وقت سابق، لتُؤدّى لهم الشعائر الدينية نفسها. فتصورهم التماثيل معاً، وأحياناً في مجموعة ثنائية، تجمع بين رمسيس الثاني وپتاح، أو رمسيس الثاني وسخمت. كما صور هذا العامل الملكى فى صحبة سوك أو عشتروت وهلمّ جرّاً. كما صوروا أحياناً فى مجموعة ثلاثية، فيحيط اثنان من الآلهة بالملك رمسيس الثاني، نذكر منها: رع حور أختى وپتاح، أو پتاح وسخمت أو أمون وموت. وأخيراً، فى قدس أقداس المعابد ذاتها قد يحاط تمثال الملك بثلاثة أو أربعة آلهة. وهو ما لاحظناه فى معبد أبو سمبل، على سبيل المثال.

كما يكرّم الملوك الآلهة، ويقدمون لها الشكر والحمد. وقد شاع وضعان فى أغلب الأحوال:

فقد يكون الملك فارس الإله، فيظهر واقفاً، فى وضع مفعم يعزّز النفس، وكأنه يقف رقفة انتباه، ممسكاً عمود سارية، فى أعلاها رأس إلهى، إنها شارة الإله، إذا صحّ التعبير. وكان الرعامسة مولعين بهذا الوضع. ونذكر تمثال رمسيس الثاني جميل الصنعة، فيصور الملك وقد ضم إلى جسده عمود سارية ينتهى برأس كبش أمون. والتمثال من الألبستر، وارتفاعه ٧٦سم، ومن مقتنيات متحف القاهرة.

كما فى وسع الفرعون أن يقدم للإله مائدة قرابين أو ناووساً. إن التمثال الصغير الذى يصور رمسيس الثاني وهو يقدم قاعدة ناووس، يتميز بليوننة تفاصيله وتناغمها. والجزء العلوى من الناووس مهشم. وهو من الشست وارتفاعه ٢٧سم ومن مقتنيات متحف القاهرة. والجسد جسد شاب ونُحتت ملامح الوجه الجميلة بدقة فائقة. إن رشاقة الجسد الممشوق المرتكز على الركبتين، لا حدود لها. لقد برهن نحاتو ذلك

العصر من المصريين أنهم لا يشكلون التماثيل العملاقة فقط، بل إن فنهم الشامل، كان في وسعه أيضاً أن يُبدع أشكالاً على أكبر قدر من نعومة التفاصيل ورقتها مع الحفاظ على توازن متناغم، سعيًا إلى إيجاد النسب المتوافقة.

كما شاع موضوع آخر يتعلق بالملك المنتصر وهو يطيء الأقباس التسعة. هكذا، فإن **رعمسيس الثاني** من خلال الدُعر^(*) أو في هيئة الجالس على عرشه، يُدلل على انتصاراته. ونذكر التمثال الكبير في متحف **تورينو**، وهو من الجرانيت، ويبلغ ارتفاعه ١٩٤سم.

إن وجوه التماثيل صور شخصية فائقة الجمال، إنها ناعمة لمساء وتسجل ابتسامة رقيقة كلها شموخ، إن الأنف المقوس المهيمن يؤكد على ارتفاع شأن صاحبه وعلو منزلته.

وإذا كانت تماثيل **سيتي الأولى** قليلة نسبياً، فإن عدد تماثيل **رعمسيس الثاني** كثيرة. إنه زمن عرف وفرة الأيدي العاملة، فالبلاد تنعم بسعة العيش ورخائه، والمحاجر تُستغل على نطاق واسع.



واعتباراً من عهد **مر إن پتاح** وحكم **سيتي الثاني** و**رعمسيس الثالث** تحديداً، تقلصت الوسائل إلى تحت تصرف النحاتين إلى حد كبير. فقد انشغل النظام بالمشاكل الخارجية الضاغطة. ووقع فن نحت التماثيل في أسر التقاليد الجامدة المألوفة، بعيداً عن أي نزعة إبداعية. والشاهد على ذلك بالتحديد، تمثال **سيتي الثاني** جالساً، وقد وُضع على ركبتيه هيكل يعلوه رأس كبش **أمون**. وهو من الكوارتزيت ومن مقتنيات **المتحف البريطاني** وارتفاعه ١٦٤سم، كما نذكر أيضاً المجموعة النحتية المكونة من **رعمسيس الثالث** المحاط بكل من **حورس وست** اللذين يضعان التاج الأبيض على رأسه. وهي من الجرانيت وارتفاعها ١٦٩سم ومن مقتنيات **متحف**

(*) دُعر: داس بوساً شديداً. د. أحمد مختار عمر، المكنز الكبير، سطور، ٢٠٠٠،

ص ٤٣٩. (المترجم)

القاهرة. ومع ذلك فقد تجنَّب بعض التماثيل هذه النزعة المفتقرة إلى الأصالة أو المتسمة بالرتابة المملة، لتشكل استثناءً من النمط السائد وخروجاً عليه. هكذا فإن تمثال **رعمسيس السادس** في هيئة المنتصر(?)، يحمل على كتفه اليمنى بلطة الحرب، ويمسك بقبضة يده اليسرى شعر أسير ليبيٍّ، كمغنم حيٍّ. كما تعكس ملامح وجه الأسير ألماً مبرحة تعبيراً عن الهزيمة. والتمثال من الجرانيت ويبلغ ارتفاعه ٧٧سم ومن مقتنيات **متحف القاهرة**.

إن القوة الدافعة التي تلقَّتها الفنون التشكيلية في عهد **رعمسيس الثاني**، والرخم والإلهام اللذين حدَّدا لها طريقها، كانت قد ولَّت دون رجعة. ففي هذا المجال أيضاً استحق **رعمسيس الثاني** عن جدارة، أن يلقب **بالعظيم**، وهو اللقب الذي يُنعت به من قِبَل علماء العصر الحديث.

فن الرسومات

إن فن النقش وفن التصوير القائمان في **مصر** على رسم مُعدَّ مسبقاً، خُطَّ على السطوح المطلوب زخرفتها، ينضويان تحت ما يسمَّى بفن الرسومات.

إن معلِّمين يعودان إلى مطلع **عصر الرعامسة**، يوفر أولهما خير برهان على عين الكمال الذي وصل إليه فن النقش، المتمثل في معبد **سيتي الأول** في **أبيدوس** ومقبرته في **وادي الملوك**، في حين يكشف المعلم الآخر المتمثل في مقبرة **نفرتاري**، عن السهل الممتنع في نضارة رسوماتها وأصالتها.

إن أي وصف مهما بلغ من حصافة، لن يستطيع أن يترجم رشاقة الأشكال والحركات ورقَّة ورهافة النقوش التي تزدان بها جدران بيت الأبدية للفرعون **سيتي الأول**، كما سيفشل بالقدر نفسه في وصف الشعور الذي يغمر المرء عند دخول مقبرة **نفرتاري**، ليجد نفسه وسط جمال الأشكال ورشاققتها وتآلق الألوان وسطوعها.

وعلى المرء أن يرى كل ذلك في إطار **وادي الملوك** و**وادي الملكات**. ففي أي مكان آخر لن نجد هذا التعارض البين بين المشهد الطبيعي الصحراوي القانظ الذي يوحى

بالموت وبين الصور المنحوتة والملونة بجمالها ونضارتها وحيويتها، فمجرد وجودها
خير ضمان لأبدية الحياة.

ففى أى مكان آخر غير مصر، لم يحدث أن كانت الفنون مرتبطة مثل هذا
الارتباط، بجميع مناحى الحياة ويمسار غارق فى الأساليب السحرية. وفضلاً عن
ذلك، فإنها تُؤلف مشهداً أسراً خلّاباً من الأشكال.

الخاتمة

هكذا عاش ملوك الرعامسة. وفي زمن أقواهم من أصحاب الحول والطول مثل سبتى الأول ورعمسيس الثانى ورعمسيس الثالث، على وجه التحديد، عاشت البلاد فى سعادة، اعتماداً على ثرائها وازدهارها، بعد أن صدّت الأعداء الخطرين ودرحتهم. أما أواخر الرعامسة وكانوا ملوكاً ضعفاء فقد ساروا بإمبراطورية أجدادهم إلى هاوية الانحطاط، إذ كان دور الملك فى هذه الأزمنة الغابرة حاسماً، وعلى قدر كبير من الأهمية فى تصريف شئون البلاد وحياة أبنائها.

وقد يندهش المرء من كون التاريخ الذى ننقله مجزئاً بعض الشيء، أحياناً ينطوى على قدر من الفجوات. ومردُّ ذلك صدف أعمال التنقيب والاكتشافات، وقد لاحظنا فى أكثر من مناسبة أن علم الآثار هو فى الغالب عبارة عن مغامرة قد تقودنا إلى نجاحات مبهرة(*) أو إلى إخفاقات محزنة(**). إن مهمة عالم المصريات بالغة الخصوصية، فبعد إخراج مختلف المعالم الأثرية والوثائق إلى النور، ينشأ علم المصريات من العمل الأساسى الذى يقوم به عالم اللغة والمؤرخ، فيتم النظر ملياً فى كل صغيرة وكبيرة وما لها وما عليها، ومقارنة مختلف العناصر والتوفيق بينها، الأمر الذى يتطلب صبراً من جانب الباحث أشبه بصبر أيوب، وشغفاً مخلصاً ودعواً. ولكن يا له من شعور مبهج يتفجر فرحاً وسعادة، عندما يتوصل الباحث إلى إعادة الحياة، خطوة خطوة وبالتدرج إلى عوالم اختفت وسقطت فى طيِّ النسيان، فيخلقها من جديد، إذا صحَّ التعبير، بفضل جهد جهيد متواصل، صادر عن القلب والعقل. وفى نهاية المطاف يتوصل كل من المؤرخ وعالم اللغة، على حدِّ سواء، إلى الاندماج اندماجاً روحياً مع العالم القديم حيث يعيش فكرهم على مرِّ الأيام، الأمر الذى يساعدهما على

(*) نذكر على سبيل المثال لا الحصر الكشف عن مقبرة ثوت منخ آمون. (المترجم)

(**) نذكر أيضاً فشل المنقبين حتى الآن فى الكشف عن مقبره إيمحوتب مهندس مجموعة زوس فى

سقارة. (المترجم)

استيعاب وقائع الأزمنة الغابرة، تلك الوقائع التي يتجاوز فيها العقل السياسى مع أساليب السحر الدينى، وتختلط المسارد التي تروى هذه الوقائع مع عرضها عرضاً مغايراً من خلال صياغات شعرية وأسطورية، لتشكل عالماً كثيفاً متداخلاً، يبهنا في أغلب الأحوال بصوره المتألقة، ويختلف كل الاختلاف عن العالم الذي نعيش بين ظهرانيه.

وبالتدرّج، فإن انبثاق آثار أخرى من وسط الرمال والكشف عن وثائق أخرى، سوف يساعدان على ملء «الفراغات».

إن علم المصريين ما زال علماً شاباً، يزخر بالوعود ويرجى منه الكثير.

الهوامش

الباب الأول

الفصل الأول

(١) إن تقسيم تاريخ مصر إلى ثلاثين أسرة من ٢٢٠٠ حتى ٣٢٢ ق.م يعود إلى مانتون الذى كان يعيش فى العصر اليونانى. ولم يصلنا للأسف كتابه Aegyptica المخصص لتاريخ مصر والذى ألّفه بناء على طلب بطليموس الأول، واعتمد فيه على مكتبات المعابد والمحفوظات الملكية. ولا يوجد بين أيدينا فى الوقت الراهن سوى ملخصات أو شذرات نقلها المؤرخون اليهود من أمثال يوسيفيوس الذى عاش فى القرن الأول الميلادى، أو المسيحيون من أمثال يوليوس الإفريقى حول عام ٢٢٠ ويوسابيوس حول عام ٣٢٠. إن الوثائق المصرية فى بعض العصور تتطابق مع تقسيمات مانتون، الأمر الذى يؤكد صدقها على ما يُظن.

وإلى هذا التوزيع إلى أسر، الذى يعود إلى قدماء المصريين، أضاف المؤرخون المعاصرون تقسيماً آخر إلى عصور، إبرازاً للتاريخ الجماعى للمجتمع الفرعونى، فظهرت عبارات الدولة القديمة ثم الدولة الوسطى فالدولة الحديثة، دون أن تكون لكلمة دولة دلالة سياسية محددة، وتفصل بينها عصور يقال لها انتقالية، وهى عصور مضطربة، تطرح فى أثنائها من جديد على بساط البحث قضية المؤسسة الفرعونية.

(٢) حجر كبير من الديوريت، منقوش على الوجهين، عُثر على ستة من أجزائه، وأهمها موجود فى متحف بالرمو بجزيرة صقلية. وبالنسبة لحكم كل ملك من الملوك حتى نهاية الأسرة الخامسة، يذكر أهم الأحداث سنة بعد سنة: من حروب وأعياد دينية وتأسيس معابد وعمليات تعداد، بالإضافة إلى ارتفاع منسوب فيضانات النيل.

(٣) حورس هو اسم الجنس الذى كان مستخدماً فى الأصل للدلالة على الصقر. وعرفت مصر عدداً كبيراً ومتنوعاً من الآلهة حورس. فهذا الطائر الذى كان يشاهده الجميع

فى كثير من الأحيان محققاً فى سماء مصر. قد فرض نفسه على الوعي الدينى، على امتداد وادى النيل.

ويرتبط العديد منها بالمفاهيم الكونية، كما سبق ذكرها فى مقدمة هذا الكتاب. إن **حورس** مدينة **هيراكثيوليس** هو راعى النظام الملكى وحاميه. وأخيراً، فإن **حورس بن أوزيريس وإيزيس**، هو الإله الصبى خليفة أبيه، ورمز البر بالوالدين واستمرارية النظام الملكى.

(٤) الطاقة المحركة للكائن الحى والتى تمنحه زخم الحياة. لكل إنسان وكل إله كائنه الخاص، إنه شذرة صغيرة من القوة الإلهية الكبرى المنتشرة فى الكون.

(٥) إن الآلهة التى تصور بجسدها المحبوك داخل رداء لاصق، هى فى الغالب، آلهة خالقة واهبة للحياة. ونذكر منها **پتاح** ومعن بالعضو الذكر المنتصب و**أوزيريس**. ربما كان هذا الرداء اللاصق المحبوك صورة تحاكي لحاء الشجرة الذى يضم القوى النباتية المتجددة على الدوام، ورمز «اندفاع» الحياة وأبديتها.

إن أول تماثيل **پرياپوس** (*) Priape قد نحت فى لحاء شجرة.

(*) إله البساتين والخصوبة والتناسل فى الميثولوجيا اليونانية. (المترجم)

(٦) يشير الرقم ثلاثة فى مصر القديمة إلى التعبد اللانهائى. وهكذا، ولا شك فى ذلك، كان ينظر إلى **رع** باعتباره والد ملوك الأسرات المصرية الحاكمة.

(٧) الكلمة عنصر خالق فى فكر الساميين والأفارقة. إن مجرد النطق بالكلمة يخلق واقع ما تعبر عنه، إنها عملية مثالية لفاعلية إصدار الأمر.

(٨) راجع الهامش السابق رقم ٢.

Textes des Pyramides § 1108 (٩)

(١٠) وهو الاسم الذى يطلق على مقابر الأفراد، بينائها العلوى الذى يتخذ شكل شبه المنحرف ويذكرنا بأرائك الريف المصرى التى تسمى مصطبة.

(١١) يشير اسمه إلى مجد الإله. إن «بيت رع» هو اسم معبد الشمس القائم بجوار هرم **ساحورع**، و«مكان قلب رع» هو اسم المعبد المجاور لمبنى **نفر إين كا رع**.

(١٢) فقرة من مراثيات **إيبى وو** راجع نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الأول. نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت.

[الترجمة العربية: ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٩٦، ص ص ٢٩١-٣٠١].

(١٣) قصيدة مقتطفة من أناشيد اليانس. المرجع السابق، ص ص ٣٠٢-٣٠٨.

(١٤) الإشارة إلى الأعداء بكلمة "أطعمة"، نُظر إليها أحياناً باعتبارها صدًى لعادة أكل لحوم البشر البدائية(٤). راجع: E. Schwyzer, Griechische Grammatik, 1939, p.329, I.

والمقارنة قائمة بين hostia و hostis.

J. Knobloch, Von Menschenfressen and Fleischfressenden Gärten, in Glota, LX Band, 1-2 Hett, 1982, pp.2-6.

(١٥) تسمية أخرى للأعداء بعد دمجهم في قوى الكون الضارة.

(١٦) راجع **نبوءة نفرتي** في كتاب نصوص مقدسة - المرجع السابق ذكره - ص ص ٨٧-٩١.

(١٧) راجع فيما بعد: الباب الثاني. الفصل الأول. الراعى الصالح.

(١٨) من ملوك الأسرة العاشرة.

(١٩) تعاليم الملك إلى ابنه. راجع كتاب نصوص مقدسة - السابق ذكره - ص ص ٦٨-٧٤.

(٢٠) هذا التشبيه شائع في نصوص **الرهامسة**.

(٢١) إلهة - أسدة محاربة عظيمة.

(٢٢) هذا النص المدون على بردية عثر عليه في **اللاهون** يضم ستة أناشيد ملكية. راجع: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة. المجلد الأول - نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت.

[الترجمة العربية: ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٩٦، ص ص ٩٣-٩٦].

(٢٣) بشأن هذه الصورة، راجع فيما سبق: الفصل الأول، الملك - الإله.

(٢٤) راجع فيما سبق قصة **أوزيريس** في المقدمة.

(٢٥) بعض المؤرخين المعاصرين ينظرون إلى مملكة **نهارينا** ومملكة **الميتاني** باعتبارهما شيئاً واحداً، ولكن النصوص المصرية تذكر الاسمين **ميت** و**نهرن** فى سياقين مختلفين. وسوف نلاحظ أن نصوص عصر **الرعامسة**، بينما ترى أن مملكة **الميتاني** قد ابتلعها جيرانها الأقوياء، فإن مملكة **نهارينا** تظل مذكورة. إن الخلط الذى ظهر فى العصر الحديث، ربما كان سببه أن الدولتين كانتا متاخمتين لنهر **الفرات**، وعلى شاطئين متقابلين، فتقع **الميتاني** على البر الأيسر و**نهارينا** على البر الأيمن.

(٢٦) تجسد هذه الصورة المنجل الذى يلقى بسنابل القمح المقطوعة.

(٢٧) اسم الشعوب الآسيوية.

(٢٨) **النوبة والسودان** باعتبارها جزءاً من الأراضى المصرية.

(٢٩) شدُّ نهر **الفرات** انتباه المصريين نظراً لأنه يتدفق من الشمال إلى الجنوب، فى حين إن نهر **النيل** بصفته النموذج الأمثل لكل نهر، يتدفق من الجنوب إلى الشمال.

(٣٠) C.L. Textes, pp 93-94

(٣١) نقلاً عن **الحواليات**: رواية الحملة الأولى والاستيلاء على قلعة **مجل** الموقع الحصين القائم عند نهاية ممرات جبل **الكرمل**، شمال غرب **السامرة**، حيث تجمعت قوات التحالف. C.L. Textes, pp 93-100

(٣٢) هذا النص منحوت على لوح حجرى كبير من الجرانيت يبلغ ١٨٠ سم ارتفاعاً، وقد عثر عليه فى قاعة تقع إلى الشمال الغربى من قدس أقداس معبد **أمون - رع** فى **الكرنك**، ومن مقتنيات **متحف القاهرة فى الوقت الراهن**. راجع: C.L. Textes, pp. 101-104.

(٣٣) اسم الملك بصفته ملك **مصر العليا ومصر السفلى**.

(٣٤) نهر **الفرات**.

(٣٥) ينظر إلى الأعداء والحيوانات بوصفهم شيئاً واحداً.

(٣٦) إن الحية - الصلُّ هى ابنة **رع**، إنها من طبيعة أنثوية وتشارك فى تالُق الإله.

(٣٧) جزر بحر **إيجة** (٩). هذه العبارات هى بكل وضوح عبارات شكلية، ولكن **الكلمات** المعبرة عن انتصار مهيب تضمن تحقيقه. والأقرب إلى الصواب أن هذه العبارات

تشير إلى الهيمنة المصرية على عالم بحر إيجه، والتي تعود إلى أزمنة سابقة.

(٢٨) إن عبارة «سحق» المستخدمة في مطلع كل مقطع من مقاطع هذه القصيدة، هي في الغالب عبارة شكلية (راجع الهامش السابق والفصل الأول من الباب الثاني، فقرة المعركة: مصير المهزومين. كانت المدن الفينيقية تعبد الإله شمش، وكان إلهاً شمسياً عظيماً في الشرق الأدنى القديم، وكانت بعض المدن مثل بيبيلوس تعبد أمون - رع. وإذا يظهر تھوتمس الثالث في هيئة شمس إلهي، فإنه يضيفى شرعية لا جدال فيها على سلطانه على هذه المناطق.

(٢٩) يؤكد فرعون في مواجهة احتمال تمرد الآسيويين قدرته الفائقة، فيظهر متأهباً على الدوام للمعركة.

(٤٠) بلد الإله هو بونت الأرض الإلهية، حيث تزرع أشجار البخور، اللازمة لإقامة الطقوس الإلهية. يقدم النص وصفاً لانطلاق أحد الشهب الذي تختلط تألفاته عند وصوله إلى الأرض بالأنداء، ويقوم الشهاب بدور بارز في قصص بونت. راجع قصة الغريق: ربما عرفت بونت عبادة شمسية؟

(٤١) كانت جزيرة كريت تعبد ثوراً أبيض، أى شمسياً.

(٤٢) من الواضح أن المقصود هو عبور تھوتمس الثالث نهر الفرات، إبان حملته الثامنة إلى آسيا، وإغارته على الميتاني.

(٤٣) ربما كان المقصود بجزر الوسط جزر السيكلاد (*). ويندمج الملك في حورس، النموذج الأمثل للمنتقم لأبيه، في حين أن الثور المذبوح يشير هنا إلى ست.

(*) أرخبيل يوناني في جنوب بحر إيجه. (المترجم)

(٤٤) ربما كان الدانيون (*) Danaeans هم المقصودين بالأوينتيو، وكان وادي نيميا Né-mée يقع في بلاد الدانيين (**)، ويقال إن هيراكليس (***) Héraklès قد صرع الأسد الذائع الصيت في هذا الوادي. ومن ثم فإن الحكاية المصرية تعود إلى زمن أقدم بكثير من الحكاية الكلاسيكية اليونانية.

(*) نسبة إلى دانيه Danée وهي من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(**) في منطقة كورنثوس الحالية ببلاد اليونان. (المترجم)

(***) من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(٤٥) الدائرة الكبرى هي ما تبقى من المحيط الأول، بعد أن أبعد إلى محيط العالم المخلوق. ومن ثم فإن الكون كله ملك فرعون، وبصفته صقراً مخلقاً في السماء، فإنه يحيط بنظرة واحدة بأملكه على اتساعها.

(٤٦) إنه يتخذ بطبيعة الحال هيئة ابن أوى، الحيوان الذى يثير الرعب فى قلوب السائرين على الرمال القاطنين فى البلدان الحدودية.

(٤٧) إن اتحاد أخوتى الأسطورة وهما حورس وست، فى شخص فرعون، هو خير ضمان لإقرار السلام فى مصر وتأمين التوازن العادل، ومن ثم لن يكون فى وسع النوبيين أن يتمردوا.

(٤٨) اسم أمخوتب الثالث، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى وهو رابع ألقابه.

(٤٩) راجع: C.L. Textes, pp. 66-67.

(٥٠) Urk. V, 1328 (1.13) à 1330.

(٥١) مثنى العليا ومصر السفلى.

(٥٢) كان بدن النجوم من النحاس، الأمر الذى يفسر تألقها الأقل، مقارنة بتألق الشمس وهى من الذهب.

(٥٣) راجع فيما سبق: الفصل الأول، الغزوات والاضطرابات فى الشرق الأدنى.

(٥٤) راجع فيما بعد: الباب الأول، الفصل الثانى، معاهدة سلام وتحالفات قائمة على رابطة الزواج.

(٥٥) راجع فيما سبق: الفصل الأول، الفقرات الأخيرة من الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية.

(٥٦) لم يتأكد وجود قوافل الجمال فى جنوب هوى أسيا إلا فى القرن العاشر قبل الميلاد.

الفصل الثاني

- (١) Legrain, in A.S.A.E, 1914, t.14, pp. 29-38.
- (٢) Gaballa-Kitchen, in C.E. 1968, no86, pp. 259-263.
- (٣) Cruz-Urbe, in J.N.E.S., 1978, no37, pp. 237-244.
- (٤) (لوح العام : ٤٠٠ الحجرى. راجع: Montet, in kēmi, 1931-1933, vol.iv, pp. 191-215.
- (٥) أى أنه يتجدد على الدوام، مثل النبات الذى تتجدد حياته بحلول فصل الربيع، ويعود إليه اخضراره.
- (٦) KRI I, 1
- (٧) KRI I, 2
- (٨) راجع فيما بعد: الباب الثاني، الفصل الأول، الملك البطل والكون.
- (٩) KR II, 111 (1.4-8)
- (١٠) A. Zivie, in B.I.F.A.O., 1972, t.72, pp.99-114
- (١١) A. Piankoff, in B.I.F.A.O., 1957, t.56, pp.189-200
- (١٢) C.L. Textes, p. 231
- (١٣) قصة الفريق.
- (١٤) Sethe, in Z.A.S., 1931, vol. 66, p.17 راجع:
- Cerny, in J.E.A., 1961, vol.47, pp. 150-152
- (١٥) كانت السنة المصرية تنقسم إلى ثلاثة فصول من أربعة أشهر لكل فصل: فصل أخت، أى فصل الفيضان، من ١٩ يوليو إلى ١٩ نوفمبر. وفصل برت، أى فصل الإنبات، من ١٩ نوفمبر إلى ١٩ مارس. وفصل شمو، أى فصل الجفاف أو الصيف، من ١٩ مارس إلى ١٩ يوليو.
- ويشأن النص المذكور: (لوح جيل السلسلة الحجرى) KRI I, 80 (1.10)

كان فصل الفيضان على قدر كبير من الأهمية، حتى يقوم المسئولون بصرف الرجال عن أعمال الحقول وتجنيدهم لاستلزمات الحروب.

(١٦) (مدونة الكرنك) KRI I, 6-7.

(١٧) (الكرنك) KRI I, 8 (8-12).

(١٨) KRI I, 12.

(١٩) (الكرنك) KRI I, 14 (1, 5-6).

(٢٠) (الكرنك) KRI I, 9. (1, 6-8).

(٢١) الله خالق العالم.

(٢٢) (الكرنك) KRI I, 10. (1.5-8).

(٢٣) تعبير شكلي محض، إبرازاً لاتساع الفتوحات.

(٢٤) **يكون على مياه** زيد من الناس، عبارة تعنى فى لغة المراكبية، اصطحابه واللاحاق به سياسياً، وأن يكون وفيها له.

(٢٥) راجع فيما سبق الهامش ٤ من الفصل الأول.

(٢٦) (الكرنك) KRI I, 10-11.

(٢٧) هذه النصوص ليست مجرد متون مصاحبة للنقوش، بل إنها بكل وضوح العنصر الشفهي الذي تم إعلانه إبان عيد النصر.

(٢٨) إشارة إلى المشهد الكلاسيكى فى قائمة الإيقونوغرافيا المصرية، منذ الملك نعرمر فنشاهد الملك ممسكاً بحفنة من الأسرى الراكعين من شعرهم وهو يتأهب لتقديمهم إلى **أمون**، بينما يرفع فوق رؤوسهم المقمعة الملكية ذات الرأس المصنوع من العاج.

(٢٩) (الكرنك) KRI I, 11 (1.6-7).

(٣٠) KRI I, 41 (1.2).

(٣١) أى منع الرجال من الإنجاب والقضاء على الحياة.

(٣٢) KRI I, 18 (1.12-14).

(٣٣) Pezard, Kadesh, Paris, 1931, p.19 et suiv.

- (٢٤) KRI I, 19 (1.16)
- (٢٥) KRI I, 24 (1.2-5)
- (٢٦) Vercoutter, in R.E., 1972, vol.24, p.201 et suiv.
- (٢٧) قرب بداية شهر أبريل.
- (٢٨) إشارة محتملة إلى الحملة ضد المغيرين الليبيين.
- (٢٩) KRI I, 101-103
- (٤٠) KRI I, 75-76
- (٤١) راجع فيما سبق: الفصل الثاني، المعارك والانتصارات في آسيا.
- (٤٢) KRI I, 98-99 راجع أيضاً:
- Caminos, The shrines and rock-inscriptions of Ibrim. Londres, 1968, pp. 83-90 .
- (٤٣) Labib Habachi, in B.I.F.A.O., 1973, 1.73, pp. 113-125
- (٤٤) راجع فيما بعد: الباب الأول، الفصل الثالث، مناجم الذهب.
- (٤٥) راجع فيما سبق: الفصل الأول، الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى، الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية.
- (٤٦) لا "تدير" الإله وجهه شطر الجنوب، إذ كان المصريون ينظرون إلى هذه المنطقة باعتبارها امتداداً طبيعياً وسياسياً إذن لبلدهم. إنه أسلوب بلاغى لزيادة التأكيد على هيمنة مصر على الأراضى الإفريقية.
- (٤٧) إن لحظة اختفاء الشمس هي لحظة مربعة، فالشمس تهب النور والحياة.
- (٤٨) KRI I, 26-27
- (٤٩) راجع فيما سبق: الفصل الأول، الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية.
- (٥٠) إن إعادة استخدام أجزاء من المباني من قبل خلفاء الملوك الذين قاموا بتشييدها، أمر شائع في مصر لا سيما في الفترات قليلة الإمكانات، فكانت وسيلة للبناء بتكاليف أقل.
- (٥١) Labib Habachi, in R.E., 1969, vol.21, pp. 27-47

KRI II , 664 (1.7-8) (٥٢)

KRI II , 665 (1.9-10) (٥٢)

KRI II , 666 (1.4-5) (٥٤)

KRI II , 666 (1.11-12) (٥٥)

KRI II , 666 (1.16) (٥٦)

Porter - Moss , t.vi , p.25 (٥٧)

KRI II, 327 (السطر الأخير) 328 (1.1-7) (٥٨)

KRI II , 641 (1. 15-16) (٥٩)

(٦٠) الاسم الذى أطلقه المصريون على المحيط الأزلئ الأقدم الأصلي الذى كان يغطى خواء العالم غير المخلوق.

(٦١) فى نظر المصريين، كان العالم السفلى يتكون من سماء مماثلة للسماء التى نراها فوق الأرض ولكنها معكوسة.

KRI II , 637 (1.9-14) (٦٢)

Porter - Moss , t.ii , p.21 (٦٣)

KRI II , 356 (1.3-6) (٦٤)

(٦٥) راجع فيما سبق: الفصل الثانى: استعادة الإمبراطورية.

(٦٦) إعادة الاخضرار أى جعل التجديد تجديداً أبدياً، على غرار النبات.

(٦٧) مصر التى يخصبها الغرين الأسود والصحارى شديدة التوهج تحت الشمس الساطعة.

(٦٨) نص منقوش على الجدار الشمالى من القاعة الأولى من معبد بيت الوالئ النوبى.

KRI II , 197 (1.11-13)

Gardiner , in RAD , vol. xli , pp.30-32 (٦٩)

Contra Apionem , i , 97 (٧٠)

Waddell , Manetho , London - Cambridge , 1948 , pp.102-103

KRI VI , 19 (1.13-16) (٧١)

(٧٢) العاصمة الأولى لإقليم طيبة، ومقر موتق وهو إله شمسى محارب، وراعى وحامى الأسرة الحادية عشرة المصرية.

(٧٣) ينظر إلى الجرم السماوى وإلى الملك، باعتبارهما شيئاً واحداً.

(٧٤) سوتخ وهشتروت إلهان أسيويان، الأول إله محارب والثانية إلهة أم ومحاربة أيضاً. وواچيت هى راعية مدينة بوتق فى الدلتا، كانت الإلهة الحارسة لمملكة مصر السفلى، فى عصور ما قبل التاريخ، وحامية النظام الملكى.

(٧٥) نص بردية أنستازى رقم ٢. Anastasi II.

Gardiner, Late Egyptian Miscellanies, pp.12-13.

(٧٦) صورة السلام والازدهار.

وقد تأكد وجود معبد للإلهة حتمور فى مكان يقع بين تانيس وبوباستيس. نص بردية

أنستازى رقم ٣: Anastasi III:

Gardiner, Late Egyptian Miscellanies, pp. 21-23.

(٧٧) راجع: Kitchen, Pharaoh triumphant, p.122.

(٧٨) KRI II, 269-270

(٧٩) KRI II, 344-345

(٨٠) إله أسيوى، كان يُعبد تحديداً فى الأراضى اللبنانية.

(٨١) C.L. Textes, pp. 108-109

(٨٢) فى معبد رمسيس الثانى، فى أبيدوس. وفى الكرنك، على الجدار الخارجى الجنوبى من بهو الأساطين العظيم وعلى الجدار الخارجى من الفناء القائم بين الصرحين التاسع والعاشر. وفى معبد الأقصر، على الواجهة الخارجية من الصرح الأول وعلى الجدار الخارجى الغربى من الفناء الأول وعلى الجدار الخارجى الجنوبى من هذا الفناء ذاته الذى أقامه رمسيس الثانى. وفى الرامسيوم، على الواجهة الداخلية من الصرح الأول، وعلى الجدار الداخلى الشمالى من الفناء الثانى. وفى أبو سمبل، على الجدار الشمالى من القاعة الأولى.

(٨٣) برديتا سليبيه رقم ٢ Sallier III وشيستر بيتي رقم ٢ Chester Beatty III، معابد
إبيدوس والكرك والاقصر والرامسيوم (الصرح الثاني).

(٨٤) إله آسيوى للعواصف.

(٨٥) الرامسيوم هو معبد ومهسيس الثانى الجنائزى، والقائم على البر الغربى لمدينة طيبة.

(٨٦) عن الصل، ابنة رع، راجع فيما سبق الهامش ٢٦ من الفصل الأول.

(٨٧) فى مص، إلهة - أسدة، محاربة.

(٨٨) C.L. Textes, pp. 108-119.

راجع النص الكامل فى: كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر
القديمة، المجلد الأول، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٦٦، ص ص ١٤٨-
١٥٨ (المترجم).

(٨٩) K.A. Kitchen, in J.E.A. 1964, vol. 50, pp 47-50

(٩٠) KRI II, 151 (1. 8-12)

هذا الروح الحجرى هو الآن، من مقتنيات متحف جامعة بنسلفانيا.

(٩١) KRI II, 164 (1. 6-9)

(٩٢) راجع فيما سبق: الفصل الثانى، استعادة الإمبراطورية.

(٩٣) راجع فيما بعد: الباب الثانى، الفصل الأول، الملك البطل والكون.

(٩٤) C.L. Textes, pp. 84-89

(*) راجع أيضاً إضافة المترجم للهامش ٨٨ السابق. (المترجم)

(٩٥) المدينة التى تحدّرت منها العائلة المالكة الحيثية.

(٩٦) E. Edel, in Z.A., 1949, vol.49, pp. 195-212

(٩٧) A. Goetze, in J.C.S. 1947, vol.1, p. 244

(٩٨) Meissner, in Z.D.M.G., 1918, vol. 72, p.61

(٩٩) E. Edel, in J.K.F., 1953, vol.2, pp. 264-265

(١٠٠) KRI II, 247-255 et 257

عند ترجمة الأسطر الأخيرة من هذا النص اعتمدنا على النسخة المختصرة، لأنها في حالة أفضل من الحفظ.

(١٠١) KRI II, 283 (1. 3-13)

(١٠٢) نقلاً عن: Kitcher, Pharaoh triumphant p.90.

(١٠٣) KRI II, 283 (1. 3-13)

(١٠٤) راجع فيما بعد: الفصل الثالث، من أجل روحانية عالمية.

الفصل الثالث

- (١) KRI I , 99 (1.11)
- (٢) (لوح حجرى فى بيتوم*) (1.2-5) , 404 KRI II
- (*) (تصحيف يونانى للاسم المصرى القديم بر أتوم، أى بيت أتوم، تل المسخوفة حالياً، المترجم)
- (٣) KRI II , 206 (1. 14-16)
- (٤) (تلاعب بالألفاظ حول اسم الإله إِمَن. إنه جناس صوتى للفظ يعنى "يكون خفياً".
- (٥) Zandee , De hymnen, pl. iv (1. 21 et suiv.)
- (٦) (صفة شائعة من صفات پتاح.
- (٧) (نصر أبو سمبل 265-266 KRI II
- (٨) KRI II , 271-272
- (٩) (راجع فيما سبق: الفصل الأول، طيبة وأمون...
- (١٠) KRI II , 445 (1. 11-14)
- (١١) KRI II , 431 (1.4)
- (١٢) J. Leclant , in Syria , 1960 , tome 37 , pp. 10-11
- (١٣) KRI I , 72-73 , عن مشقورات بشكل عام راجع:
- J. Leclant , in Lexikon I , pp. 499-510.
- (١٤) G. Posener , in J.N.E.S. , 1945 , vol.iv , no4 , pp. 240-242
- (١٥) (راجع تحديداً: اللوح الحجرى للعام ٤٠٠.
- Montet , in Kêml , supra note 4 , pp. 194-210.
- (١٦) Leibovitch , in A.S.A.E. , 1944 , vol.44 , pp. 163-172
- (١٧) (المرجع السابق.

(١٨) راجع فيما سبق: الفصل الأول: الحملات والتجارة.

(١٩) KRI II, 353 (1.10)

(٢٠) J.J. Clere, in Kêmi, 1950, vol.11, pp. 24-26

معظم هذه الألواح الحجرية، من مقتنيات متحف بيليزاوس Pelizaeus Museum في مدينة هيلداشيم Hildesheim من مدن ألمانيا. (المترجم)
راجع أيضاً:

Labib Habachi, Features of the deification of Ramesses II. - VIII - 58 pp., fig. 8 pll.

(٢١) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: الأفارقة.

(٢٢) الكوم الأحمر حالياً.

(٢٣) الحجر الذى صنع منه التمثالان العملاقان المعروفان اصطلاحاً بتمثالَي ممنون، Memnon.

(٢٤) KRI II, 361 (1. 2-8)

راجع أيضاً: Hamada, in A.S.A.E., 1938, vol.38, pp. 217-230

(٢٥) أسوان: لوح العام التاسع الحجرى. KRI I, 74 (1.11)

(٢٦) نص تكريسى لأسطون عثر عليه في تانيس. KRI II, 434 (1.8)

(٢٧) الكرك: نص تكريسى على سور المعبد. KRI II, 583 (1. 6-7)

(٢٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: من أجل روحانية عالمية.

(٢٩) إله الأرض.

(٣٠) حورسى خايت، كيان إلهى للخصوبة، معروف معرفة ضئيلة.

(٣١) (نص أبوسمبل) KRI II, 266 (1.12) - 269 (1.9)

(٣٢) KRI II, 617-621

(٣٣) G. Jondet, Les Ports Submergés de l'ancienne île de Pharos, in Mémoires de
de l'Institut d'Egypte, 1916, vol. IX, pp. 1-107.

A. Piankoff ,in A.S.A.E. ,1949 ,vol. 49 ,p.51 (٢٤)

Iliade lx ,381; odyssee xlv,257 (٢٥)

Iliade I ,423; xxIII ,206 (٢٦)

Odyssée I ,23; IV ,84.

Odyssée IV,125; 229-231 (٢٧)

Odyssée III ,300-305 (٢٨)

Odyssée IV ,125 (٢٩).

Odyssée xlv ,285 (٤٠)

KRI I ,65 (1.15) - 66 (1.12) (٤١)

النص B, مدونة المعبد.

KRI I, (A) (النص A), (1.7-9) (٤٢)

KRI I, 68 (1.1-4) (B) (النص B), (٤٣)

KRI I, 70 (1.3-4) (C) (النص C), (٤٤)

KRI II ,353-357 (٤٥)

Iliade lx ,382-384 (٤٦)

(٤٧) كانت طيبة موجودة منذ تلك اللحظة، في الخواء اللاشكلى السابق على عملية الخلق.

Zandee ,De hymnen,.,pl.I (1.13-16) et pl. II (1. 10-11) (٤٨)

C.L. Textes ,p. 254. (٤٩)

(٥٠) راجع فيما سبق: الفصل الثاني: ولى العهد، رمسيس: المشاركة في الحكم.

KRI II ,850 (1. 8-12) (٥١)

KRI II ,852 (1. 16). (٥٢)

Goedicke ,Nofretari ,fig. 57 (٥٣)

KRI II ,851 (1. 11-12). (٥٤)

KRI II ,854 (1. 5-7) (٥٥)

Drioton ,in A.S.A.E. ,1942 ,vol. 41 ,p.29.

مدونة منحوتة على تمثال يصور إيزيس - نوفرث، مع اثنين من أبنائها (متحف اللوفر).

(٥٦) راجع فيما بعد: الفقرات الأخيرة من «الأعياد الملكية - أعياد اليوبيل»، من الفصل الثالث من الباب الأول.

(٥٧) راجع فيما سبق: الفصل الثاني: ولى العهد رمسيس: المشاركة فى الحكم.

(٥٨) كاهن من أعلى الرتب، يقوم بدور بارز فى شعيرة فتح الفم والمراسم الجنائزية.

(٥٩) KRI II, 198 (1.14).

(٦٠) مكان دفن العجول أبيس، قرب منف، وأطلق عليه الإغريق اسم السيرابيوم، تكريماً

للإله الجديد سيرابيس Serapis.

(٦١) Gomaa, Chaemwese, p.18.

(٦٢) المرجع نفسه: هاتان الصفتان الأخيرتان تربط الأمير بعرش مصر ارتباطاً وثيقاً.

(٦٣) حرفياً: «عمود - أمه». (إشارة إلى حورس).

(٦٤) KRI II, 878 (1. 3-16) et 879 (1.1).

(٦٥) Mariette, Serapeum, III, p.15-16.

(٦٦) Poter-Moss, III, p.240 (Addendum à la p.66).

(٦٧) KRI II, 875 (1.16) et 876 (1.1).

(٦٨) KRI II, 874 (1. 2-13).

(٦٩) Christophe, in.S.A.E., vol. 51, 1951, p.337 (مدونة تائيس).

(٧٠) راجع فيما سبق: الفصل الأول: الدبلوماسية والمعاهدات...

(٧١) إن تقديم القرىان ماهت، ويعنى أن الاقتراب بتمثال صغير لإلهة الحقيقة - العدالة، من

وجه كيان إلهى، من أهم فقرات هذه الشعيرة.

(٧٢) Christophe, op.cit., p.346.

أعيد نسخ هذه المدونة على عمود الظهر لتمثال جالس لمنفوسرت الأول، عثر عليه فى تائيس.

Malinine - Vercoutter ,Catalogue des stèles du Serapeum ,p.14. (٧٣)

KRI II ,906 (1. 15-16). (٧٤)

(٧٥) لقب يمنح للنبلاء والأعيان والمبجلين.

Ostracon Gardiner 28 = Gardiner ,Late Egyptian Miscellanies ,pp. 37-38. (٧٦)

Capart in CE ,1942 ,vol.xvi ,no32 ,pp. 192-193.

(٧٧) الذهب هو مادة لحم الآلهة ولا سيما الشمس. إنه يمثل الفرعون ابن رع. أما النحاس الأقل بريقاً ومادة النجوم، فإنه يمثل الوزير الذي أصبح منذ حياته الأرضية مشاركاً في الطبيعة الكونية لسيدته.

C.L. Textes ,pp. 182-183. (٧٨)

(٧٩) استناداً إلى نص التعليمات إلى رع مي رع.

KRI I ,293 (1. 15-16). (٨٠)

KRI I ,297 (1. 3-4) (٨١)

(٨٢) تحولت المتسيد على الثامون الإلهي الذي خلق العالم، على حد قول لاموت هرموبوليس.

(٨٣) ثعبان أسطوري ضخم يلتف حول العالم المخلوق، في أغلب الأحوال. إن وجوده يعطى معنى للسيطرة على العالم.

KRI I ,299 (1. 3-11). (٨٤)

S.Sauneron ,in B.I.F.A.O. ,1956 ,tome 55 ,p.150. (٨٥)

KRI I III 15 (1.15). (٨٦)

Hamza ,in A.S.A.E. ,1930 ,vol. 30 ,p.35. (٨٧)

Habachi ,in A.S.A.E. ,1954 ,vol. 52 ,p.489. et suiv.

KRI III ,53 (1. 14-15). (٨٨)

KRI III ,54 (1. 12-15) et 55 (1.1) (٨٩)

راجع أيضاً:

Mohamed Moursi ,Hohenpriester des Sonnengottes ,pp.68-72.

KRI III ,54 (1. 1-16). (٩٠)

(٩١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: من أجل روحانية عالمية.

(٩٢) KRI III , 53 (1. 4-6)

(٩٣) A. Badawi , in A.S.A.E. 1944 , vol. 44 , p.181-206.

Hamada , in A.S.A.E. , 1935 , vol. 35 , pp. 122-131.

(٩٤) KRI III , 164 (1. 15-16).

(٩٥) Boeser , Berschreibung Leiden , vol. iv , pil. 26-29. et pp. 7-8.

(٩٦) اسم جبانة منف.

(٩٧) KRI III , 174 (1. 1-2 et 15-16); 175 (1. 13-15); 176 (1. 11-13).

(٩٨) (الألقاب الرئيسية مترجمة) . (1. 10-12) , 352 KRI I

(٩٩) KRI III , 140 et suiv.

(١٠٠) Mohamed Effendi Chaban , in A.S.A.E. , 1961 , vol.2 , pp. 137-140.

(١٠١) Daressy , in A.S.A.E. , 1918 , vol. 18 , pp. 282-283.

(١٠٢) KRI III, 143 (1. 7-8).

(١٠٢) C.L. Textes , p. 115.

(١٠٤) H. Wall-Gordon , in M.D.A.I.K., 1958 , vol.16 , pp. 168-175.

(١٠٥) KRI III , 498 (1. 10-15)

(١٠٦) KRI III , 272-274 (pp. 37-55 وإجمالاً) Reisner , in J.E.A., 1920 , vol.6 , pp. 45-47

(١٠٧) KRI III , 68 (1. 14-15).

(١٠٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: الوزراء في السلطة.

(١٠٩) Gavthier , in A.S.A.E. , 1936 , vol. 36 , pp.49-71.

(١١٠) KRI III , 92-94.

(١١١) إننا نعرف العديد من الأمثلة الأخرى عن تكريم أولاد العائلات الصديقة للعاهل

الملكى. نذكر على سبيل المثال **إيخنووفرت**، حامل الختم والمشرف على أسرار

أوزيريس فى إيبينوس، فى عهد **ستوسرت الثالث**.

(راجع: C.L. Textes, pp. 173-175)

Barsanti- Gauthier, in A.S.A.E., 1911, vol. 11, pp. 77-81. (١١٢)

Yoyotte, in A.S.A.E., 1951, vol. 6, pp. 13-14. (١١٣)

L.Habachi, Sixteen Studies, pp. 122-125. (١١٤)

Derchain, El Kab, pp. 65-70. (١١٥)

(١١٦) لم يصلنا عرض مترابط عن العيد **سد**. والأقرب إلى الصواب، أن هذا العيد كان يتكون من تجميع، مركّب من شعائر متنوعة، تعود أصلاً إلى ترتيبات طقسية مختلفة. فالوصف الوارد هنا يأخذ بعين الاعتبار عناصر الاحتفال الرئيسية، المستمدة من مختلف المصادر، فلا يكشف كل منها، في أغلب الأحوال، سوى عن بعض جوانب العيد. ونذكر على وجه التحديد المشاهد المنحوتة في المعبد الجنائزي في أبو صير للفرعون **في أوسرع**، من الأسرة الخامسة، ومشاهد المعبد الجنائزي للفرعون **سيتي الأول في إيبوس**، وأيضاً مشاهد قصر أعياد الملك **أوسركون الثاني في بوباستيس**، وهو من الأسرة الثانية والعشرين.

راجع أيضاً: Eric Uphill, in J.N.E.S.

(١١٧) راجع فيما سبق: الباب الأول. الفصل الأول. الهامش الخامس.

Edsmann, Ignis divinus - Lund, 1949. (١١٨)

KRI II, 377 (1. 14-15). (١١٩)

KRI II, 386 (1. 1-13). (١٢٠)

Pap. Harris, 49, 10-12. (١٢١)

KRI II, 384 (1. 15) et 385 (1. 1-11). (١٢٢)

KRI II, 378 (1. 3-14). (١٢٣)

(١٢٤) لوح حجري ملكي: KRI II, 380 (1. 12-13).

لوح حجري خاص بالوزير **خمي**: KRI II, 391 (1. 14-16)

(١٢٥) **كُرس** فيما بعد فصل للرhamسة، بصفتهم ملوكاً بنائين: الباب الثاني، الفصل الثاني.

(١٢٦) **باسيت** هي إلهة - قطة، وشكل من أشكال **سخت** الإلهة - الأسد، باعتبارها زوجة

بتاح إله ملف.

KRI I, 42-43. (١٢٧)

(١٢٨) اسم إقليم أبينوس.

(١٢٩) كما سبق أن لاحظنا، فإن تقديم تمثال ماعت قريباً، يشكل لحظة من أهم لحظات الخدمة اليومية. راجع فيما سبق: الفصل الثالث، ذرية كثيرة العدد، والهامش ٦٩. وراجع فيما بعد، من هذا الفصل، ترتيبات الطقس الدينى.

(١٣٠) اسم قارب أونيريس المقدس.

KRI I, 47 (1.2 et suiv) - 50 (1. 1-2). (١٣١)

راجع أيضاً: Griffith, in J.E.A., 1927, vol.13, pp. 193-207

KRI I, 58 (1. 14-15). (١٣٢)

Moret, Rituel, p.69. (١٣٣)

(١٣٤) أقانيم أمون سرح (؟).

Moret, Rituel, pp. 141-142. (١٣٥)

(١٣٦) راجع فيما بعد: الباب الأول، الفصل الثالث، الأعياد المقدسة.

(١٣٧) إله، راعى مدينة ثنى ذاتها.

(١٣٨) جميع الإضافات التى أدخلت على هذا النص الذى عانى من بعض التشويهات،

منقولة عن: Lefebvre, Grands prêtres, pp. 119-122.

(١٣٩) أعلى مجلس إدارة فى الإمبراطورية، وكان يضم تحديداً رؤساء مختلف البيوتات.

(١٤٠) ثلاثة أفعال تقدم فى المعتاد إكراماً للإله.

KRI III, 2830285. (١٤١)

(١٤٢) سيتى الأول.

(١٤٣) معبد الأقصر هو المقصود.

(١٤٤) الذى شيده أيضاً أمحتوب الثالث فى الأقصر.

- C.L. Textes ,pp. 185-186. (١٤٥)
- Dunhan ,in J.E.A. , 1935 ,vol. , 21 , pp. 150-151. (١٤٦)
- KRI III , 200 (1.16) - 201 (1.1). (١٤٧)
- (١٤٨) عنصر مُجَنِّع من عناصر الإنسان، ويصور في هيئة طائر برأس آدمى تنتهي رجلاه بيدين، كان همزة الوصل بين الجبانة وعالم الأحياء.
- KRI III , 333 (1.16) - 334 (1.1). (١٤٩)
- KRI III , 359 (1.15-16)- 360 (1. 1-4). (١٥٠)
- L.Habachi ,in R.E. , 1969 ,vol. 21 , p.42 et suiv. (١٥١)
- A.H. Zayed ,in R.E. , 1964 ,vol. 16 , pp. 193-208. (١٥٢)
- KRI III , 366 (1. 8-11). (١٥٣)
- J. Berlandini - Grenier,in B.I.F.A.O. 1974 ,tome 74 , pp. 1-19. (١٥٤)
- KRI I , 207 (1.3) (١٥٥)
- J. Leclant ,in M.D.A.I.K. , 1956 ,vol. 14 , pp. 131-145. (١٥٦)
- KRI II , 569-570. (١٥٧)
- Gauthier ,Fêtes de Min. (١٥٨)
- (١٥٩) حرفياً: «اللازوردى».
- KRI II , 574 (1. 1-11). (١٦٠)
- Daressy ,in A.S.A.E. , 1927 ,vol. 27 , pp. 178-17. (١٦١)
- Kitchen ,Pharaoh triumphant ,pp. 196-197 :نقلًا عن: (١٦٢)
- (١٦٣) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: من أجل روحانية عالمية.
- KRI II , 361 (1. 11-15) - 362 (1.1-9). (١٦٤)
- Cerny ,in A.S.A.E. , 1927 ,vol. 27 , p.183 et suiv. (١٦٥)
- Bruyère ,Rapport de fouilles 1934-1935,pp. 15-16.(١٦٦)
- Cerny, A community of workmen at Thebes in the Ramesside period, Le-Cai- (١٦٧)
ro, I.F.A.O., 1973; vi + 393 pp. .

الفصل الرابع

- (١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: ذرية كثيرة العدد.
- (٢) فى أحوال كثيرة، نجد أن النصوص المصرية تشبه الدولة بالسفينة.
- (٣) بطبيعة الحال لم «يشيد» من إن بتاح مدينة پرسمسيس ولكنه يقيم فيها. ومن الواضح جداً، أنه ينظر إلى هذه المدينة باعتبارها عاصمة الإمبراطورية، عند الحدود الفاصلة بين مصر والأراضي الآسيوية.
- (٤) Pap. Anastasi III , 7, 2-7, 10. (٥) Gardiner ,Late Egyptian Miscellanies ,pp. 28-29.
- Wainwright ,in J.E.A. , 1960 , vol.46 , pp. 24-28. (٦) شعب سودانى.
- (٧) KRI IV , 1 (1. 10-16) -2 (1. 1-7). (٨) الأسماء الواردة بين معقوفين [...] هى أسماء شعوب اليونان وأسيا الصغرى، منسوخة كما كان ينطقها المصريون.
- (٩) KRI IV , 3 (1. 15-16) -4 (1. 1-4). (١٠) Bakry ,in Aegyptus , 1973 , Anno LIII , p.11.
- (١١) (ابتداءً من السطر ٤) KRI IV , 4-5
- (١٢) KRI IV , 5 (1. 8-9)
- (١٣) KRI IV , 5 (1. 10-13)
- (١٤) KRI IV , 6 (1. 1-15) -7
- (١٥) (ابتداءً من السطر ١٠) KRI IV , 7
- (١٦) عن هذا الشعب راجع فيما سبق: الفصل الثانى: فقرة: أخطار جديدة ناحية الغرب.
- (١٧) KRI IV , 8-9
- (١٨) (ابتداءً من السطر ١٢) KRI IV , 9 (1.12) -11

(١٩) كلمة كنعانية تعبر عن التحية، وتدل هنا على الرغبة في السلام.

C.L. Textes , PP. 123-124 (٢٠)

KRI Iv , 24 (1. 5-6). (٢١)

KRI Iv , 82 (1.8). (٢٢)

KRI Iv , 26 (1. 4-5). (٢٣)

KRI Iv , 26 (1. 13-14). (٢٤)

Lefebvre , Grands Prêtres , pp. 149-150 : نقلًا عن: (٢٥)

KRI Iv , 133 (1.3) (٢٦)

Lefebvre, Grands Prêtres, pp. 151-152. KRI Iv, 288 (1.10) - 289 (1.2). (٢٧)

(٢٨) مدخل جبانة ملف، كان يوجد فيه مكان مخصص لإقامة الشعائر للإله أوزيريس بالارتباط مع پتاح وسوكاريس.

KRI Iv , 60 (1. 5-7) (٢٩)

A.H. Zayed , in R.E. , 1964 , vol. 16 , pp. 204-207. (٣٠)

H. Kees , in Z.A.S. , 1937 , vol. 73 , pp. 77-90. (٣١)

L. Habachi , in M.D.A.I.K. , 1956 , vol. 14 , pp. 53-67. (٣٢)

KRI Iv , 92 (1. 7-9). (٣٣)

L. Habachi , in M.D.A.I.K. , 1978 , vol. 34 , pp. 57-67. (٣٤)

K.A. Kitchen , Pharaoh triumphant , p.216. (٣٥)

KRI Iv , 270 (1. 7-10). (٣٦)

(٣٧) أى «ضمان الاستمرارية ضمانًا قاطعًا».

(٣٨) إلهة الحصاد والحقول الخصبة.

KRI Iv , 285 (1. 2-7). (٣٩)

(٤٠) حورس بن إيزيس وأوزيريس، وقد قامت أمه بالسهر على تربيته في مستنقعات الدلتا هربًا من انتقام عمه سب.

KRI Iv , 297 (1. 6-7). (٤١)

- (٤٢) Gardiner , in J.E.A. , 1958 , vol. 44 , pp. 12-22.
- J. von Beckerath , in J.E.A. , 1962 , vol. 48 , pp. 70-74.
- C. Aldered , in J.E.A. , 1963 , vol. 49 , pp. 41-48.
- (٤٣) Nelson , Medinet Habu , tome Iv , pl. 203-209.
- (٤٤) راجع فيما بعد: الباب الأول، الفصل الرابع، شخصيات سياسية ودينية، المقطع الأخير.
- (٤٥) Maspero , Tomb of Siptah. London , 1908 , pp. xx-xxII.
- KRI Iv , 362 , (1. 8-10).
- Maspero , ibid. (٤٦)
- Maspero , op. cit. (٤٧)
- (٤٨) اسم الجبل الغربي.
- KRI Iv , 378 (1. 8-9). (٤٩)
- KRI Iv , 381 (1.10). (٥٠)
- (٥١) أو «هذا الذي جعل من نفسه (ملكاً) سورياً». ربما كانت إشارة إلى حامل الأختام، بائ.
- (٥٢) هيئة الشمس عند الفجر.
- Pap. Harris I , 75, 1-10 et 76, 1= (٥٢).
- Erichsen, Pap. Harris, pp. 91 et 92.
- (حتى السطر الخامس).
- (٥٤) تلاعب بالصور يخلط صورة الصقر، بوصفه طائراً من الكواسر يطارد الفراير، بصورة الملك - الحورس الذي يلاحق أعداءه.
- (٥٥) ربما كان بائ قد «اشتري» مساهمة المصريين، بل قسمًا من الجيش (٩).
- (٥٦) وقد نذهب إلى الظن بوجود غزو أجنبي.
- (٥٧) KRI Iv , 671-672. Bidoli , in M.D.A.I.K. , 1972 , vol. 28 , pp. 193-200.

R. Drenkhan ,Die Elephantine - Stele. Wiesbaden ,Harrassowitz ,1980 ,X+ 85 pp.

Erichsen ,op. cit. ,p.92 (1. 5-7). Pap. Harris I ,76 ,1-2. (٥٨)

Pap. Harris I ,76, 2-4 = ibid. ,p.92 (1. 8-13). (٥٩)

(٦٠) أمى إشارة إلى حامل الاختام بائ؟

(٦١) السيدان هما حورس وست اللذان يجسدهما الفرعون. والسيدتان هما نخبت وواحت.

KRI v ,76 (1. 3-8). (٦٢)

KRI v ,217 (1. 10-12). (٦٣)

KRI v ,9 (1. 7-8). (٦٤)

KRI v ,11 (1. 2-5). (٦٥)

KRI v ,12 (1. 2-8) (٦٦)

KRI v ,14 (1. 2-6). (٦٧)

KRI v ,23 (1. 6-11). (٦٨)

KRI v ,22 (1. 14-16). (٦٩)

KRI v ,15 (1. 12-13). (٧٠)

(٧١) تلك هي صورة الوحش الذى كُسرت فقراته لمنعه من الإيذاء، إلى الأبد.

KRI v ,23 (1. 12-13) - 24 (1. 2 et 6-7). (٧٢)

KRI v ,14 (1. 15-16) - 15 (1. 1-4). (٧٣)

(٧٤) تسمية تقليدية منذ الأسرة الثامنة عشرة، للدلالة على أراضى الجنوب (النوبة والسودان)، باعتبارها امتداداً طبيعياً لمصر وبلدان آسيا.

KRI v ,15 (1. 6-11). (٧٥)

KRI v ,23 (1. 1-3). (٧٦)

KRI v ,22 (1. 2-4). (٧٧)

(78) KRI v ,21 (1. 13-15) -22 (1.1). (٧٨)

(79) KRI v ,25 (1. 4-11). (٧٩)

(٨٠) راجع فيما سبق فقرة (العام الخامس ...) من هذا الفصل.

وفيما بعد فقرة (العام الثامن ...) من هذا الفصل.

(٨١). KRI v ,26 (1. -7).

(٨٢). N.K. Sandars ,Sea peoples ,p.161.

(٨٣). KRI v ,39 (1. 15-16) -40 (1. 1-6).

(٨٤). KRI v ,40 (1. 6-14).

(٨٥). KRI v ,28 (1. 9-11).

(٨٦). KRI v ,29 (1. 3-5).

(٨٧). KRI v ,29 (1. 7-8).

(٨٨). KRI v ,32 (1. 6-13).

(٨٩). KRI v ,33 (1. 3-9).

(٩٠). KRI v ,34-35.

(٩١). KRI v ,40 (1. 15-16) -41 (1. -6).

(٩٢). KRI v ,41 (1. 8-15) -42 (1. 4-12).

(٩٣). KRI v ,60 (1. 9-11).

(٩٤). KRI v ,43 (1. 9-10).

(٩٥). KRI v ,65 (1. 3-5).

(٩٦). KRI v ,61 (1. 11-15) -62 (1. 1-2 et 14-15) -63 (1. 1-3).

(٩٧). KRI v ,70 (1. 4-11).

(٩٨). KRI v ,47 (1. 12-15).

(٩٩) راجع فيا سبق الفصل الرابع، العام الثامن، شعوب البحر تشن هجوماً من الشمال.

(١٠٠). KRI v ,85 (1. 9-10).

(١٠١). KRI v ,81 (1. 3-5).

(١٠٢). KRI v ,80 (1. 6-8).

(١٠٣). KRI v ,73 (1. 3-12).

(١٠٤) راجع فيما سبق: الفصل الأول، فقرة الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى، وفقرة

الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية.

- (١٠٥) KRI v (1. 1-15). 92 (1.16) - 93 (1. 1-15).
- (١٠٦) اسم المحيط الأولى.
- (١٠٧) KRI v , 97 (1. 2-16) - 98 (1. 1-2).
- (١٠٨) KRI v , 106 (1. 7-8).
- (١٠٩) KRI v , 108 (1.16) - 109 (1. 1-4).
- (١١٠) Erichsen , op.cit. , p.93 (1. 1-5). Pap. Harris , 76 , 7-9.
- (١١١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث، كبار الأبحار وكنهة آخرون، مقبرة پانحسى.
- (١١٢) Erichsen , p.95 (1. 16-18) et p.96 (1. 1-14). Pap. Harris , 78,8-9 et 79,1-3.s
- (١١٣) Erichsen , p. 94 (1. 9-18) et 95 (1. 1-6). Pap. Harris , 77 , 8 et 78 , 1.
- (١١٤) Gardiner , in Z.A.S. , 1911 , 1.48 , p. 47-51.
- (١١٥) Christophe , in A.S.A.E. , 1958 , vol. 55 , p.11.
- (١١٦) Barguet , in B.I.F.A.O. , 1952 , vol.51 , p.99-100.
- (١١٧) Erichsen , p.66 (1. 3-5). Pap. Harris , 57 , 7-8.
- (١١٨) Christophe , op. cit. , p.9 (KRI V , 340).
- (١١٩) Nims in J.N.E.S. , 1950 , vol.9 , pp. 256-258. KRI V , 331-335.
- (١٢٠) Edwards , in J.N.E.S. , 1955 , vol. 14 , pp.49-51.
- Winchester College. اللوح الحجرى موجود حالياً ضمن مجموعة وينشستر كواليج.
- مدونة مختصرة فى KRI V , 668 (1.16).
- (١٢١) Kitchen, in B.I.F.A.O., 1973, vol. 73, pp. 193-200 راجع: KRI V, 227 (1.7-9).
- (١٢٢) Schulman , in J.N.E.S. , 1963 , vol. 22 , pp. 177-184.
- نص المدونة: KRI V , 249
- (١٢٣) Nelson , in J.A.O.S. , 1936 , vol. 56 , pp. 232-241.
- النصوص: KRI V , 234-237
- (١٢٤) اللين وحدة وزن تعادل ٩٠ جراماً.
- (١٢٥) G. Lefebvre , Grands Prêtres , pp. 167-169.

(١٢٦) KRI V ,117 (1. 9-16) 118 (1. 1-2).

(١٢٧) KRI V ,119-184.

(١٢٨) KRI V ,308 (1. 2-7).

(١٢٩) راجع فيما بعد: الفقرات الأخيرة من هذا الفصل، نهب المقابر الملكية وسرقتها.

(١٣٠) عن مقبرة ثانفر والنصوص المذكورة راجع:

K.C. Seele, The Tomb of Tjanefer at Thèbes , - Chicago , 1959.

(١٣١) KRI V ,425 (1. 5-10).

(١٣٢) راجع فيما بعد: الفقرات الأخيرة من هذا الفصل، الصعوبات والمؤامرات عند نهاية هذا العهد.

(١٣٣) راجع تحديداً:

Cerny , in J.E.A. , 1958 , vol. 44 , pp. 31-37.

J. Monnet , in B.I.F.A.O. , 1965 , vol. 63 , pp. 209-236.

(١٣٤) توصل يويوت J.Yoyotte إلى التعرف على مقبرة رمسيس. راجع:

J.E.A. , 1958 , vol. 44 , pp. 26-30.

تم ذلك، في إطار أعمال التنقيب في مقابر الأمراء، بمعرفة مركز الدراسات والتسجيل لمصر القديمة. (القاهرة). CEDAE^(*).

(*) والمعروف اختصاراً بمركز تسجيل الآثار. (المترجم)

(١٣٥) Wenter , in J.N.E.S. , 1961 , vol. 20 , pp. 252-257 , et pl.

(١٣٦) Schott , Wall scenes from mortuary chapel of the mayor Paser at Medinet

Habu. Chicago, The University of Chicago Press, 1957, xli+22 pp. fig.

(١٣٧) KRI V ,385 (1.16) -386 (1. 1-3).

(١٣٨) KRI V ,416 (1. 6-8).

راجع: Hamada , in A.S.A.E. , 1947 , vol. 47 , pp. 15-21

Gardiner , in J.E.A. , 1948 , vol. 34 , pp. 19-22.

- (١٣٩) إشارة إلى العمل الخلاق الذي يقوم به **پتاح** راعى الحرفيين وحاميتهم.
KRI V , 419 (1.16) -420 (1. 1-5) (١٤٠)
- Pap. Harris , 59 , 11-60 , 1. Erichsen , 69 (1. 14-18). (١٤١)
- (١٤٢) **لقد صنّف ريفي Riffaud** هذه الوثيقة ضمن مدونات **النوبة**، فى مؤلفه:
Voyages en Egypte , Nubie et lieux circonvoisins , depuis 1805 jusqu'à 1827 , pl.28.
وحديثاً كرس لها **سونرون S.Sauneron** و**يويوت J.yoyotte**
دراسة فى: B.I.F.A.O. , 1952 , pp. 107
- (١٤٣) راجع فيما سبق: الفصل الرابع، خدمة الآلهة، رجال الدين.
Posener , in R.E. , 1946 , vol.5 , p.53. (١٤٤)
- Erichsen , op. cit. , p.64 (1. 1-13). Pap. Harris , 56b , 1-10. (١٤٥)
- Erichsen , ibid. p.47 (1. 1-17). Pap. Harris , 42 , 1-10. (١٤٦)
- ibid. , 66b , 1-10. Erichsen , ibid. , p.79 (1. 1-15). (١٤٧)
- ibid. , 79 , 4-12 , Erichsen , ibid. , p.96 (1. 16-18) et p.97 (1. 1-13). (١٤٨)
- Cerny , in J.E.A., 1948 , vol. 44 , pp. 31-37. (١٤٩)
- (١٥٠) راجع فيما سبق: الفصل الرابع، بلاط **رهمسيس الثالث**.
KRI VI , 53 (1. 15-16) -54 (1. 1-6) (١٥١)
- KRI VI , 54 (1. 13-15). (١٥٢)
- KRI VI , 18 (1. 1-2) et 19 (1. 2-19) (١٥٣)
- Helck , in c.E. , 1963 , vol. 38 , p.39. (١٥٤)
- C.L. Textes , p.80. (١٥٥)
- (١٥٦) راجع فيما سبق: الفصل الثالث، الفقرات الأخيرة من "أولاً: فكر الإمبراطورية".
Goyon , Nouvelles inscriptions , p.104. KRI VI , 1 (1.9-11). (١٥٧)
- KRI VI , 86 (1. 1-3). (١٥٨)
- KRI VI , 27 (1. 14-15). (١٥٩)
- KRI VI , 278 (1. 9 et 11-12). (١٦٠)
- KRI VI , 45 (1. 11-16) -46 (1. 1-2). (١٦١)

Nims ,in J.E.A. ,1952 ,vol. 38 ,pp. 34-35. (١٦٢)

G. Lefebvre ,Grands Prêtres ,p.187. (١٦٣)

S. Sauneron ,in B.I.F.A.O. ,1966 ,vol. 64 ,p.11-17.

KRI VI ,455 (1. 10-12). (١٦٤)

KRI VI ,455 (1. 14-16) -456 (1. 1-13). (١٦٥)

G. Lefebvre ,Grands Prêtres ,p.195. (١٦٦)

G. Lefebvre ,ibid. ,pp. 198-199. (١٦٧)

S. Sauneron ,in R.E. ,1950 ,vol.7 ,pp. 61-62. (١٦٨)

(١٦٩) عن مختلف المصادر التي تعالج هذه المشاكل يمكن الرجوع إلى:

T.E.Peet ,The great tomb-robberies of the xxth Egyptian dynasty. Oxford ,1930 ,xli
+ 188 p.

S. Sauneron et J.Yoyotte ,in R.E. ,1950 ,vol.7 ,pp. 67-70. (١٧٠)

الباب الثاني

الفصل الأول

(١) KRI V , 78 (1.16) -79 (1. 1-7).

مراجع النصوص التي تضم عدداً من الأسطر المذكورة، ولكن لم تذكر مراجع الاقتباسات القصيرة، تجنباً لإطالة الهوامش وإثقالها على القارئ. ولكننا نضع هذه المراجع تحت تصرف من يريد التعرف عليها.

(٢) URK. Iv , 1541.

(٣) KRI V , 49 (1. 2-3).

(٤) KRI V , 38 (1. 14-15) -39 (1.1).

(٥) URK. Iv , 160 (1. 5-8).

(٦) URK. Iv , 2116 (1. 7-8).

(٧) KRI II , 515 (1. 5-6).

(٨) KRI II , 307 (1. 9 et 11).

(٩) KRI II , 235 (1. 9-11).

(١٠) KRI V , 42 (1. 6-7).

(١١) KRI I , 40 (1. 14-15).

(١٢) KRI II , 151 (1. 6-7).

(١٣) KRI IV , 4 (1. 5-7).

(١٤) C. Lalouette , in B.I.F.A.O. , 1979 , vol. 79 , pp. 333-353.

(١٥) KRI II , 528 (1. 1-3).

(١٦) KRI V , 26 (1. 10-11).

(١٧) KRI V , 29 (1. 15-16).

(١٨) KRI V , 39 (1. 12-14).

(١٩) KRI II , 238 (1.14) -239 (1.1).

- (٢٠). KRI II ,320 (1. 12-14).
- (٢١). KRI II ,354 (1. 4-5).
- (٢٢). KRI IV ,2113 (1. 13-15).
- (٢٣). E. Drioton ,in A.S.A.E. ,1939 ,vol. 39 ,pp. 57-89.
- (٢٤). حديثاً عثر جويون G.Goyon على بردية في متحف بروكلن Brooklyn، دونت عليها تعاويذ مماثلة للتعاويذ المنحوتة على هذا التمثال.
- راجع: J.E.A. , 1971 ,vol 57 ,pp. 154-157.
- (٢٥). KRI II ,354 (1. 8-9).
- (٢٦). KRI V ,25 (1.13).
- (٢٧). KRI IV ,36 (1.9 et 13).
- (٢٨). P. Grimal ,in Dictionnaire de la mythologie ,p.169.
- (٢٩). KRI V ,24 (1. 11-12).
- (٣٠). KRI I ,17 (1. 15-16) -18 (1.1).
- (٣١). KRI II ,318 (1.13 et 15) -319 (1.1 ,3 et 5).
- (٣٢). KRI V ,26 (1. 2-4).
- (٣٣). KRI V ,23 (1. 4-5).
- (٣٤). KRI V ,22 (1. 6-11).
- (٣٥). KRI IV ,13 (1. 10 , 12) -14.(1. 1,3).
- (٣٦). KRI II ,236 (1. 1-2).
- (٣٧). KRI II,237 (1. 11 et 14).
- (٣٨). KRI II ,715 (1.14).
- (٣٩). KRI V ,47 (1. 2-4).
- (٤٠). KRI II ,234 (1.13 et 15).
- (٤١). KRI IV ,69 (1. 4-8).
- (٤٢). KRI V ,38 (1. 10-13).
- (٤٣). KRI V ,112 (1. 9-10).

KRI II ,354 (1.6 et 8). (٤٤)
 KRI I ,22 (1. 4-6). (٤٥)
 KRI V ,240 (1. 12-13). (٤٦)
 KRI I ,23 (1. 9-10). (٤٧)
 KRI II ,86 (1.8) à 87 (1.3). (٤٨)
 KRI II ,319 (1.14 et 16) -320 (1.2 et 4). (٤٩)
 KRI II ,173 (1. 13-14). (٥٠)
 KRI II ,151 (1.11). (٥١)
 KRI V ,17 (1. 7-10). (٥٢)
 KRI V ,26 (1. 4-8). (٥٣)
 KRI V ,60 (1. 3-5). (٥٤)
 KRI V ,13 (1. 2-4). (٥٥)
 KRI V ,59 (1.14) -60 (1.1). (٥٦)
 KRI V ,42 (1. 13-14). (٥٧)
 KRI IV ,6 (1. 1-2). (٥٨)
 KRI IV ,16 (1. 1-2). (٥٩)
 KRI I ,9 (1. 4-6). (٦٠)
 KRI II ,88 (1.9 et 16) -89 (1.4 et 6). (٦١)
 KRI V ,63 (1.6 -10). (٦٢)
 KRI V ,70 (1. 7-8). (٦٣)
 KRI V ,69 (1.6). (٦٤)
 KRI IV ,36 (1.1). (٦٥)
 KRI V ,57 (1. 13-14). (٦٦)
 KRI V ,64 (1. 11-14). (٦٧)
 KRI V ,69 (1. 12-13). (٦٨)
 KRI V ,23 (1. 6-8). (٦٩)

KRI V ,302 (1. 12-13). (V.)
 KRI V ,63 (1. 14-15) -64 (1.1). (V\)
 KRI IV ,37 (1.5 et 8). (VY)
 KRI V ,13 (1.8). (VY)
 KRI II ,344 (1.15) -345 (1. 1-6). (V\x)
 KRI V ,27 (1. 6-7). (Vo)
 KRI V ,25 (1. 3-4). (V\)
 KRI V ,21 (1. 14-15) -22 (1.1) (VY)
 KRI V ,34 (1. 12-14) -36 (1. 14-15). (V\)
 KRI II ,186 (1. 8-9). (V\)
 KRI V ,89 (1. 10). (A.)
 KRI I ,99 (1. 2-4). (A\)
 KRI V ,27 (1.4). (AY)
 KRI V ,291 (1. 10-14). (AY)
 KRI V ,83 (1.15) -84 (1.1). (A\x)
 KRI V ,41 (1. 11-12). (Ao)

الفصل الثاني

(١) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الثالث، الأماكن المقدسة، بنيتها الهيكلية وفلسفتها.

(٢) KRI I , 60 (1. 8-14) - 61 (1. 1-2).

(٣) KRI I , 201 (1. 14-15).

(٤) Chevrier-Drioton , Le temple-reposoir de Séthi II à Karnak- Le Caire , 1940.

(٥) Chevier , Le temple-reposoir de Ramsès III à Karnak- Le Caire , 1933.

(٦) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الثاني، رمسيس الكبير، زمن الأبطال، معركة تالش.

(٧) Smith: Ramesses II , p.27.

(٨) P. Barguet , L'Empire de conquérants , p.34.

(٩) M. Abdulla El Sayed , A new temple for Hathor at Memphis , Warminster , 1978, 21 p., xlx pl.

(١٠) Bakry , in Aegyptus , 1973 , vol. 53 , pp. 3-21.

(١١) راجع فيما بعد: الباب الثاني، الفصل الثالث، الترانيم.

(١٢) Macadam , Temples of Kawa. London , Oxford University press, 1949-1955, vol. II, p.33, fig 6 et 7.

(١٣) Fairman , in J.E.A. , 1939 , vol. 25 , p.139 et suiv.

(١٤) Vercoutter , in Kush , 1963 , vol. 11 , p.131 et suiv.

Rosenwasser , ibid. , 1964 , vol. 12 , p.96 et suiv.

(١٥) L.A. Christophe , Abou-Simbel et l'épopée de sa découverte , Bruxelles, 1965,

,270 pp.

(١٦) KRI II , 769 (1. 3-4).

(١٧) D. Meeks , in Guide Bleu , p.705 نقلاً عن:

(١٨) Ibid. ,p.703.

(١٩) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الثالث، مناجم الذهب.

(٢٠) KRI I ,167 (1. 12-13).

(٢١) KRI I,168 (1.8).

(٢٢) «الكائن الكامل»، هو اسم أوزيريس.

(٢٣) من أسماء حورس: KRI I,167 (1. 1-2).

(٢٤) KRI I ,149 (1.6).

(٢٥) KRI I ,156 (1. 3-5).

(٢٦) H. Frankfort ,Genotaph of Sethi I p.72 et suiv.

(٢٧) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الرابع، نهب المقابر الملكية وسرقتها.

(٢٨) عن المبانى التى شيدها الرعامسة، سيجد المرء عظيم الفائدة فى الرجوع إلى:

P. Barguet ,in L'Empire des conquérants ,p.9-65.

D. Meeks ,Guide bleu Paris ,Hachette ,1971.

عن دراسة المواقع يمكن الرجوع إلى: Lexikon der ägyptologie

والى إصدارات مركز تسجيل الآثار بالقاهرة. ولا سيما عن همدا وجرف حسين.

الفصل الثالث

(١) راجع فيما سبق: الباب الثاني، الفصل الثاني، الرعامسة في النوبة وفي السودان.

(٢) المياه الأزلية الأصلية أو مياه الفيضان السنوية.

(٣) (حتى السطر التاسع) -89 (من السطر السادس) KRI I, 85

P. Barguet, in B.I.F.A.O., 1952, vol. 51, pp. 144, 164.

(٤) راجع فيما سبق: الباب الأول. الفصل الثالث: أولاً: من أجل روحانية عالمية. وثانياً: الملكات الثلاث.

(٥) Zandee, De hymnen, pl. II. (1. 2-10).

(٦) المرجع نفسه: (1. 15-20) pl. II

(٧) المرجع نفسه: (1. 14-22) pl. III

(٨) مدونة في الكرنك (1. 1-5) KRI V, 222

(٩) (1. 9-16), 330 KRI I

(١٠) A. Piankoff, Litany, p.22 et suiv., et pl.3.

(١١) KRI II, 657 (1. 4-4).

(١٢) راجع فيما سبق: الفصل الثالث، خامساً: نشيدا الإمبراطورية في مدينة هابو.

(١٣) إلهتان تشاركان في الولادة أو إعادة الولادة.

(١٤) أشرطة الكتان.

(١٥) KRI IV, 68-69.

J. Assmann, in M.D.A.I.K., 1972, vol. 28, pp. 47-73.

(١٦) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الرابع، المقاطع الأخيرة من الانتصارات الأولى على شعوب البحر

(١٧) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الرابع، سادساً عهود بلا أمجاد.

(١٨) KRI I , 357-359.

راجع: J.J. Clère , in Z.A.S. , 1959 , vol. 84 , pp. 86-104 .

(١٩) أول من أنجبهم الإله رع فى تاسوع هليوبوليس.

(٢٠) لا يتعلق الأمر هنا بأحد أساليب الخلق، بل بتقارب صوتى بين كلمة رع أى البشر، وكلمة رعيت أى الدموع.

(٢١) هين رع، مى عنصر مهم فى الشخصية الإلهية، ففى وسعها أن تتخذ شكل العديد من الآلهة: حتمور وتفنوت.

(٢٢) إنها على ما يعتقد مادة تُصبغ بالحمرة.

(٢٣) عند دراسة الحكايات والشعر، نقلت بعض الفقرات من كتاب:

Claire Lalouette: *literature égyptienne*. Paris. P.U.F. , 1981. (coll. Que sais-je?)

(وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية: كلير لالويت، الأدب المصرى القديم، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٢ - المترجم).

(٢٤) عن أصل كل هذه النصوص يمكن الرجوع إلى:

P. Gilbert , *La Poésie égyptienne*. Bruxelles , 1943.

(٢٥) مصيدة العصافير.

المراجع

لا تهدف قوائم المراجع المذكورة فيما بعد، أن تكون شاملة.

وتخص القائمة الأولى، المراجع التي ذكرت مختصرة في سياق الهوامش، وتحديدًا تلك التي ذكرت أكثر من مرة، أما المراجع التي لم تذكر سوى مرة واحدة فقد تم توضيحها في سياق الهامش ذاته.

يلي ذلك، قائمة بأهم الدوريات المستخدمة وقائمة بالكتب ذات المنفعة العامة وقد تفيد القارئ الشغوف بالمعرفة.

١. مراجع ذكرت مختصرة

BARGUET : *L'Empire des conquérants.*

Le monde égyptien. Les Pharaons. Vol. II. L'Empire des conquérants. Paris, Gallimard, 1979. (L'architecture, par Paul Barguet, pp. 9-65.)

BOESER : *Beschreibung Leiden.*

Beschreibung der aegyptischen Sammlung des niederländischer Reichsmuseum der Altertümer in Leiden. Haag, Nijhoff, 1905-1920, 11 vol.

BRUYÈRE : *Rapport de fouilles.*

BRUYÈRE (Bernard) : *Rapport sur les fouilles de Deir el Medineh.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1926 à 1953.

C.L. *Textes.*

LALOUETTE (Claire) : *Textes sacrés et textes profanes de l'ancienne Égypte.* Paris, Gallimard, 1984 ; 345 pages. (Collection UNESCO d'œuvres représentatives)¹.

DERCHAIN : *El Kab.*

1. Quelques extraits de cet ouvrage ont été reproduits avec l'autorisation de l'UNESCO.

DERCHAIN (Philippe) : *El Kab. Les monuments religieux à l'entrée de l'Ouady Hellal.* Bruxelles, 1971 ; X+91+25 pages, 3 pl., 3 plans. (Publications du Comité de fouilles belges en Égypte.)

ERICHSEN : *Pap. Harris.*

ERICHSEN (W.) : *Papyrus Harris 1. Hieroglyphische Transkription.* Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Élisabeth 1933 ; 100 pages. (Coll. Bibliotheca Aegyptiaca, vol. V).

FRANKFORT : *Cenotaph of Seti I.*

FRANKFORT (Henry) : *The Cenotaph of Seti I at Abydos.* Londres, 1933, 2 vol. (vol. I : 96 pp. ; vol. II : 93 pll.) (Memoir of the Egypt Exploration Society, n° 39).

GARDINER : *Late Egyptian Miscellanies.*

GARDINER (Alan H.) : *Late Egyptian Miscellanies.* Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Élisabeth, 1937 ; 142 pages. (Coll. Bibliotheca Aegyptiaca, vol. VII).

GAUTHIER : *Fêtes du dieu Min.*

GAUTHIER (Henri) : *Les fêtes du dieu Min.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1931 ; 315 pages, XIV pll.

GOEDICKE : *Nofretari.*

GOEDICKE (Hans) : *Nofretari. A documentation of her Tomb and its decoration.* Gray (Austria), Akademische Druck u. Verlagsanstalt, 1970 ; 56 + VIII pages, 67 pll.

GOMAA : *Chaemwese.*

GOMAA (Farouk) : *Chaemwese Sohn Ramses'II und Hoher Priester von Memphis.* Wiesbaden, Harrassowitz, 1973 ; XII + 137 pages.

GOYON : *Nouvelles inscriptions.*

GOYON (Georges) : *Nouvelles inscriptions rupestres du Wadi Hamamat.* Paris, Maisonneuve, 1957 ; XII + 191 pages, 52 pll.

GRIMAL : *Dictionnaire de la mythologie.*

GRIMAL (Pierre) : *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine.* Paris, Presses Universitaires de France, 5^e éd. 1976 ; 575 pages.

HABACHI : *Sixteen Studies.*

HABACHI (Labib) : *Sixteen Studies on Lower Nubia.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1981 ; 282 pages, 5 pll. (Supplément aux Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Cahier n° 23.)

KITCHEN : *Pharaoh triumphant.*

KITCHEN (Kenneth A.) : *Pharaoh triumphant. The life and times of Ramses II.* Warminster, Aris and Phillips, 1982 ; 272 pages, figg.

KRI

KITCHEN (Kenneth A.) : *Ramesside Inscriptions.* Oxford, Blackwell. Grande publication (en caractères hiéroglyphiques) de tous les textes d'époque ramesside. Commencée en 1969, elle se poursuit encore. 6 volumes sont actuellement parus :

- Vol. I : Textes de Ramsès I^{er}, Séthi I^{er} et contemporains. — 8 fascicules, 416 pages.
- Vol. II : Ramsès II : inscriptions royales — 24 fascicules, 928 + XXXII pages.
- Vol. III : Ramsès II : les contemporains — 28 fascicules, 848 + XXXII pages.
- Vol. IV : Merenptah et la fin de la XIX^e dynastie — 15 fascicules, 448 + XXXII pages.
- Vol. V : Sethnakht, Ramsès III et contemporains — 19 fascicules, 672 + XXXII pages.
- Vol. VI : De Ramsès IV à Ramsès XI et contemporains — 28 fascicules sont actuellement publiés (880 pages). A poursuivre.

LEFEBVRE : *Grands prêtres*.

LEFEBVRE (Gustave) : *Histoire des grands prêtres d'Amon de Karnak jusqu'à la XXI^e dynastie*. Paris, Geuthner, 1929 ; 303 pages, 5 pll.

LEXIKON

Lexikon der Agyptologie. Wiesbaden, Harrassowitz. Publication commencée en 1975. 4 volumes sont déjà parus, ainsi que quelques fascicules du 5^e.

MALININE-VERCOUTTER : *Catalogue*.

MALININE (Michel), POSENER (Georges), VERCOUTTER (Jean) : *Catalogue des stèles du Sérapeum de Memphis*. Paris, Imprimerie nationale, 1968.

MARIETTE : *Sérapeum*.

MARIETTE (Auguste) : *Le Sérapeum de Memphis*. Paris, Gide, 1857 ; 30 pages, 36 pll.

MEEKS : *Guide bleu*.

MEEKS (Dimitri) et FAUVEL (Jean-Jacques) : *Égypte. Le Nil égyptien et soudanais du Delta à Khartoum*. Paris, Hachette, 1971 ; 787 pages, cartes et plans. (Coll. « Les guides bleus »).

MORET : *Rituel*.

MORET (Alexandre) : *Le rituel du culte divin journalier en Égypte*. Paris, Leroux, 1902 ; 288 pages.

MOURSİ : *Hohenpriester des Sonnengottes*.

MOURSİ (Mohamed I.) : *Die Hohenpriester des Sonnengottes von der Frühzeit Ägyptens bis zum Ende des Neuen Reiches*. München-Berlin, Deutscher Kunstverlag, 1972 ; 186 pages, XVI pll. (Münchner Ägyptologische Studien, Heft 26).

NELSON : *Medinet-Habou*.

NELSON (Harold H.) et collab. : *Medinet-Habu*. Chicago, The Uni-

versity of Chicago Press, 1930-1970, 8 vol. (The University of Chicago. Oriental Institute Publications).

PIANKOFF: *Litany*.

PIANKOFF (Alexandre): *The Litany of Rê. Texts translated with commentary*. New-York, Bollingen Foundation, 1964; 182 pages, pll. (Bollingen Series, XL, 4).

PORTER-MOSS.

PORTER (Bertha) and Moss (Rosalind): *Topographical Bibliography of ancient Egyptian texts, reliefs and paintings*. Oxford, The Clarendon Press, 1934 à 1974, 8 vol.

RAD.

GARDINER (Alan H.): *Ramesside administrative documents*. Oxford, Oxford University Press, 1948; XXV + 102 pages, figg.

SANDARS: *Sea Peoples*.

SANDARS (N. K.): *The Sea Peoples. Warriors of the ancient Mediterranean*. London, Thames and Hudson, 1978; 224 pages, pll.

SAUNERON: *Égypte*.

SAUNERON (Serge): *Nous partons pour l'Égypte*. Paris, Presses Universitaires de France, 1980; 239 pages, ill.

SMITH: *Ramesses II*.

SMITH (John D.): *Ramesses II. A chronological structure for his reign*. Baltimore and London, The John Hopkins University Press, 1973; VIII + 216 pages. (The John Hopkins Near Eastern Studies).

URK.

Urkunden des ägyptischen Altertums. Leipzig, J. C. Hinrichs'sche Buchhandlung, 1932-1961; VIII vol.

ZANDEE: *De hymnen*.

ZANDEE (J.): *De hymnen aan Amon van Papyrus Leiden I 350*. Leiden, Rijksmuseum van Oudheiden, 1947; 158 pages, XXXI pll.

ب. لوريات لكرت مختصرة

AEGYPTUS

Aegyptus. Rivista italiana di egittologia e di papirologia. Milano, Università Cattolica.

ASAE

Annales du Service des antiquités de l'Égypte. Le Caire, Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale.

BIFAO

Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire. Le Caire.

- BSFE
Bulletin de la Société française d'égyptologie. Paris.
- CE
Chronique d'Égypte. Bruxelles, Musées royaux d'art et d'histoire.
- JAOS
Journal of the American Oriental Society. Newhaven (Connecticut), Yale University Press.
- JCS
Journal of Cuneiform Studies. Cambridge (Massachusetts), American School of Oriental Research.
- JEA
Journal of Egyptian Archaeology. London, Egypt Exploration Fund.
- JKF
Jahrbuch für Kleinasiatische Forschung. Ankara.
- JNES
Journal of Near Eastern Studies. Chicago, University of Chicago Press.
- KÊMI
Kêmi. Revue de philologie et d'archéologie égyptiennes et coptes. Paris, Geuthner.
- KUSH
Kush. Journal of the Sudan Antiquities Service. Khartoum, Sudan Antiquities Service.
- MDAIK
Mitteilungen des Deutschen Archäologische Instituts abteilung Kairo. Wiesbaden, Harrassowitz.
- RÉ
Revue d'égyptologie. Paris et Louvain.
- SYRIA
Syria. Revue d'art oriental et d'archéologie. Paris, Geuthner.
- ZA
Zeitschrift für Assyriologie und Vorderasiatische Archäologie. Berlin-New York, Walter De Gruyter.
- ZÄS
Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde. Leipzig, Hinrichs.
- ZDMG
Zeitschrift der deutschen Morgenländischen Gesellschaft. Wiesbaden, Frank Steiner Verlag.

- BARGUET (Paul): *Le temple d'Amon-Rê à Karnak. Essai d'exégèse*. Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1962 ; 368 pages, XLII pll. (Recherches d'archéologie, de philologie et d'histoire, tome XXI).
- The Cambridge Ancient History*. 3rd. edition. Vol. II, Part 2: *History of the Middle East and the Aegean region c. 1380-1000 B. C.* Cambridge, University Press, 1975 ; XXIII + 1128 pages.
- DAUMAS (François): *La civilisation de l'Égypte pharaonique*. Paris, Arthaud, 1965 ; 686 pages, ill.
- GARELLI (Paul): *Le Proche-Orient asiatique. Des origines aux invasions des Peuples de la mer*. Paris, Presses Universitaires de France, 1969 ; 377 pages. (Coll. Nouvelle Clio, vol. 2).
- HELCK (Wolfgang): *Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3 und 2 Jahrtausend v. Chr.* Wiesbaden, Harrassowitz, 2^e éd. 1971 ; IX + 611 pages.
- LALOUETTE (Claire): *La littérature égyptienne*. Paris, Presses Universitaires de France, 1981 ; 128 pages. (Coll. « Que sais-je ? », n° 1909).
- LEFEBVRE (Gustave): *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique*. Paris, Maisonneuve, 1949 ; XXVII + 233 pages.
- MORET (Alexandre): *Le Nil et la civilisation égyptienne*. Paris, Renaissance du livre, 1926 ; XVII + 573 pages, XXIV pll.
- POSENER (Georges), SAUNERON (Serge), YOYOTTE (Jean): *Dictionnaire de la civilisation égyptienne*. Paris, Hazan, 2^e éd. 1970 ; 324 pages.
- SAUNERON (Serge): *Les prêtres de l'ancienne Égypte*. Paris, Éd. du Seuil, 1967 ; 192 pages.
- SCHARFF (Alexander), MOORTGAT (Anton): *Ägypten und Vorderasien im Altertum*. München, Verlag F. Bruckmann, 1950 ; 535 pages.
- STEINDORFF (Georg), SEELE (Keith C.): *When Egypt ruled the East*. Chicago, University of Chicago Press, 2^e éd. 1957 ; XVII + 289 pages, ill.
- VANDIER (Jacques): *Manuel d'archéologie égyptienne*. Paris, Librairie Picard, 1952-1978, 6 vol.

المؤلفة فى سطور؛

كلير لالويت

Claire Lalouette

- من كبار علماء المصريات الفرنسيين.
- شغلت منصب أستاذة علم المصريات بجامعة السوربون.
- كما كانت من الأعضاء البارزين فى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة IFAO.
- متخصصة فى الأدب المصرى القديم.
- سبق للمترجم أن نقل لها، إلى العربية بعض أشهر ما ألفته فى هذا الموضوع:
- «الأدب المصرى القديم». دار الفكر. ١٩٩٢.
- «نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة» فى مجلدين. دار الفكر. ١٩٩٦.
- «طيبة أو نشأة إمبراطورية». المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة. ٢٠٠٥.

المترجم فى سطور:

ماهر جويجاتى

- من مواليد ١٩٢٢. حاصل على ليسانس فى الأدب الفرنسى. جامعة القاهرة، عام ١٩٥٤.
- ترجم حتى الآن ١٩ كتاباً من الفرنسية إلى العربية فى مجال علم المصريات.
- من أهم ترجماته المنشورة:
 - الناس والحياة فى مصر القديمة. ١٩٨٩.
 - المومياوات المصرية، فى مجلدين، ١٩٩٧-١٩٩٩.
 - حضارة مصر الفرعونية. ١٩٩٨.
 - المعجم الوجيز فى اللغة المصرية القديمة بالخط الهيروغليفى. ١٩٩٩.
 - عصور ما قبل التاريخ فى مصر. ٢٠٠١.
- (وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا).
- معجم الأساطير المصرية. ٢٠٠١.
- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة. ٢٠٠٥.
- (وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا).
- أمنحوتب الثالث. ٢٠٠٥.

· التصحيح اللغوي: مسعود حجازي
الإشراف الفني: حسن كامل

